



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

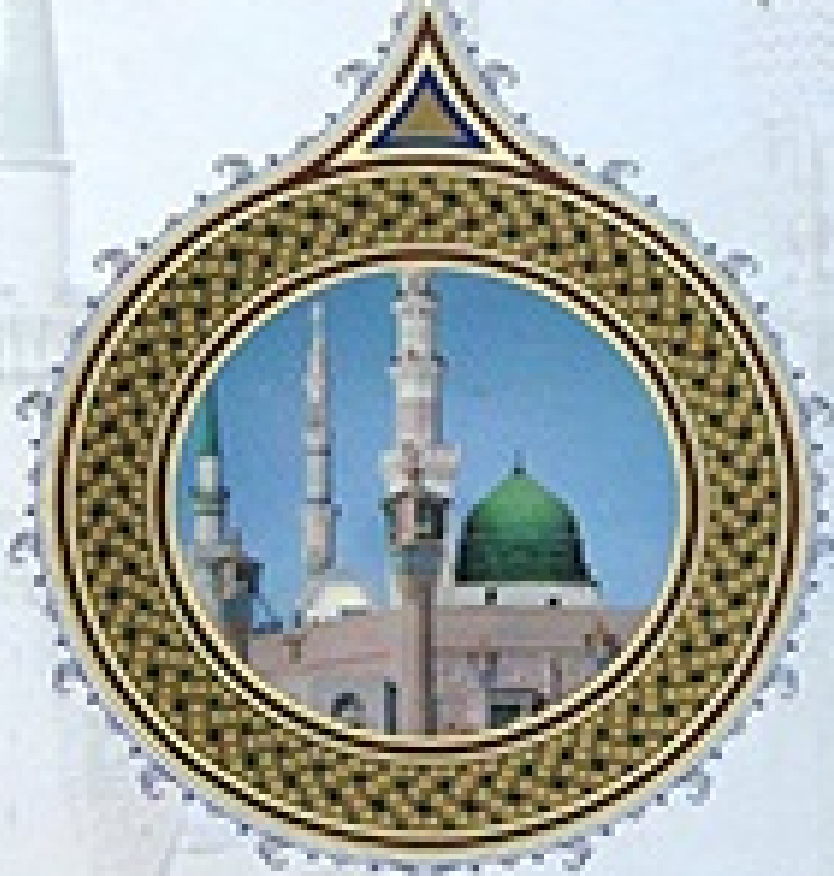
للغلام



ارسلنا
عليكم يا صابغ
الرماد

www.ghaemiyeh.com
www.ghaemiyeh.org
www.ghaemiyeh.net
www.ghaemiyeh.ir

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ

تأليف و تجميع
د. محمد بن عبد الرحمن بن محمد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حياه محمد

كاتب:

محمد حسين هيكل

نشرت فى الطباعة:

مجمع جهانى اهل بيت (عليهم السلام)

رقمى الناشر:

مركز القائمىة باصفهان للتحريرات الكمبيوترىة

الفهرس

٥	الفهرس
١٥	حياه محمد
١٥	اشاره
١٥	اشاره
١٩	كلمه المجمع
١٩	اشاره
١٩	بدأيات تدوين السيره
٢٠	مستويات كتابه السيره
٢١	أساليب كتابه السيره
٢١	دور السيره فى بناء المجتمع الإسلامى
٢١	الدىس - فى كتب السيره
٢٢	مسؤوليتنا تجاه السيره
٢٥	المدخل
٢٥	اشاره
٣٢	عقبات فى كتابه التاريخ
٣٤	حجب تعترض الثقافه
٣٦	السلطان والستة
٣٧	السلطان والفقه
٣٨	السلطان والتاريخ
٤١	وعى التاريخ وضعف الأمة
٤٣	الوعى التاريخى طريق الاستنهاض
٤٥	محمّد حسين هيكمل ومنهجه فى كتابه التاريخ
٤٧	ملاحظات حول منهج الدكتور هيكمل فى كتابه حياه محمّد صلى الله عليه و آله
٥٥	تقديم الكتاب

٥٥	محَمَّد عليه الصَّلَاة والسَّلَام
٨٧	الفصلُ الأوَّل: بلاد العرب قبل الإسلام
١١٣	الفصلُ التَّاني: مَكَّة والكعبة وقُريش
١٤٩	الفصلُ التَّالِث: محمَّد: من ميلاده إلى زواجه
١٧٥	الفصلُ الرَّابِع: من الزواج إلى البعث
١٩٣	الفصلُ الخَامِس: من البعث إلى إسلام عمر
٢٣٧	الفصلُ السَّادِس: قصة الغرانيق
٢٤٩	الفصلُ السَّابِع: مساءات قريش
٢٤٧	الفصلُ الثَّامِن: من نقض الصحيفة إلى الإسراء
٢٩٥	الفصلُ التَّاسِع: بيعتا العقبة
٣١٣	الفصلُ العَاشِر: هجره الرسول
٣٢٥	الفصلُ الحَادِي عَشْر: أوَّل العهد يبيثرب
٣٥٩	الفصلُ التَّاني عَشْر: السرايا والمناوشات الأولى
٣٧٧	الفصلُ التَّالِث عَشْر: غزوه بدر الكبرى
٤٠٧	الفصلُ الرَّابِع عَشْر: بين بدر وأحد
٤٢١	الفصلُ الخَامِس عَشْر: غزوه أحد
٤٤٥	الفصلُ السَّادِس عَشْر: آثارُ أحد
٤٤١	الفصلُ السَّابِع عَشْر: أزواج النَّبي
٤٧٧	الفصلُ الثَّامِن عَشْر: غزوات الخندق وبنى قريظة
٤٩٩	الفصلُ التَّاسِع عَشْر: من الغزوتين إلى الحديبية
٥٣١	الفصلُ العِشْرُون: عهد الحديبية
٥٥٣	الفصلُ الحَادِي و العِشْرُون: خيبر و الرسل إلى الملوك
٥٨١	الفصلُ الثَّاني والعِشْرُون: عُمرُه القِضاء
٥٨٩	الفصلُ التَّالِث والعِشْرُون: غزوه مؤتة
٥٩٩	الفصلُ الرَّابِع والعِشْرُون: فتح مَكَّة
٦٢٣	الفصلُ الخَامِس والعِشْرُون: حنين والطائف

٦٤١	الفصل السادس والعشرون: إبراهيم ونساء النبي صلى الله عليه وآله
٦٥٩	الفصل السابع والعشرون: تبوك و موت إبراهيم
٦٧٩	الفصل الثامن والعشرون: عام الوفود وحج أبي بكر بالناس
٧٠١	الفصل التاسع والعشرون: حجّه الوداع
٧٢٥	الفصل الثلاثون: مرض النبي صلى الله عليه وآله ووفاته
٧٥٧	الفصل الحادي والثلاثون: دفن الرسول صلى الله عليه وآله
٧٨٩	خاتمه الكتاب
٧٩٨	شكر واعتذار
٨٠١	مصادر التحقيق
٨٠١	أ
٨٠٤	ب
٨٠٥	ت
٨٠٩	ث
٨٠٩	ج
٨١٠	ح
٨١٠	خ
٨١٠	د
٨١١	ذ
٨١١	ر
٨١٢	ز
٨١٢	س
٨١٤	ش
٨١٥	ص
٨١٥	ط
٨١٦	ع
٨١٧	غ

٨١٧	ف
٨١٨	ق
٨١٨	ك
٨١٩	ل
٨٢٠	م
٨٢٤	ن
٨٢٥	هـ
٨٢٥	و
٨٢٥	ى
٨٢٧	الفهارس
٨٢٧	اشاره
٨٢٩	فهرس الآيات القرآنيه
٨٢٩	اشاره
٨٢٩	البقره
٨٣١	آل عمران
٨٣٢	النساء
٨٣٣	المائده
٨٣٤	الأنعام
٨٣٤	الأعراف
٨٣٤	الأنفال
٨٣٥	التوبه
٨٣٥	يونس
٨٣٥	هود
٨٣٦	يوسف
٨٣٦	إبراهيم
٨٣٦	الحجر

٨٣٧	النحل
٨٣٧	الإسراء
٨٣٧	الكهف
٨٣٨	مريم
٨٣٨	الأنبياء
٨٣٨	الحج
٨٣٨	المؤمنون
٨٣٩	النور
٨٣٩	الفرقان
٨٣٩	الشعراء
٨٣٩	النمل
٨٣٩	القصص
٨٤٠	الروم
٨٤٠	لقمان
٨٤٠	الأحزاب
٨٤١	الصفات
٨٤١	سوره ص
٨٤١	الزمر
٨٤١	فصلت
٨٤١	الشورى
٨٤١	الزخرف
٨٤٢	الفتح
٨٤٢	الحجرات
٨٤٢	سوره ق
٨٤٢	النجم
٨٤٣	الواقعه

٨٤٣	الحديد
٨٤٣	الحشر
٨٤٤	الملتحنه
٨٤٤	المنافقون
٨٤٤	التغابن
٨٤٤	التحریم
٨٤٤	القلم
٨٤٤	الحاقه
٨٤٥	المعارج
٨٤٥	نوح
٨٤٥	المدثر
٨٤٥	النازعات
٨٤٥	عبس
٨٤٥	البروج
٨٤٦	الفجر
٨٤٦	الضحى
٨٤٦	الشرح
٨٤٦	العلق
٨٤٦	الزلزله
٨٤٦	التكاثر
٨٤٧	العصر
٨٤٧	المسد
٨٤٧	الأخلاص
٨٤٨	فهرس الأحاديث الشريفه
٨٧٠	فهرس الأعلام
٨٧٠	أ

٨٧٨	ب
٨٧٩	ت
٨٧٩	ث
٨٧٩	ج
٨٨٠	ح
٨٨٣	خ
٨٨٣	د
٨٨٥	ذ
٨٨٥	ر
٨٨٦	ز
٨٨٧	س
٨٨٩	ش
٨٩٠	ص
٨٩٢	ض
٨٩٢	ط
٨٩٢	ع
٩٠٠	غ
٩٠٠	ف
٩٠١	ق
٩٠٢	ك
٩٠٢	ل
٩٠٣	م
٩٠٦	ن
٩٠٨	ه
٩٠٨	و
٩١٠	ي

٩١٢	أ
٩١٢	ب
٩١٤	ت
٩١٨	ث
٩١٨	ج
٩١٩	ح
٩٢٠	خ
٩٢٠	د
٩٢٠	ذ
٩٢١	ر
٩٢٢	ز
٩٢٢	س
٩٢٢	ش
٩٢٢	ص
٩٢٢	ط
٩٢٢	ع
٩٢٤	غ
٩٢٤	ف
٩٢٥	ق
٩٢٦	ك
٩٢٦	ل
٩٢٨	ن
٩٢٨	ه
٩٢٩	و
٩٣٠	ى

٩٣٢	أ
٩٣٢	ب
٩٣٤	ت
٩٣٤	ث
٩٣٧	ج
٩٣٧	ح
٩٣٨	خ
٩٤٠	د
٩٤٠	ذ
٩٤٢	ر
٩٤٢	ز
٩٤٣	س
٩٤٣	ش
٩٤٤	ص
٩٤٤	ط
٩٤٤	ع
٩٤٤	غ
٩٤٤	ف
٩٤٧	ق
٩٤٧	ك
٩٤٨	م
٩٥١	ن
٩٥٢	ه
٩٥٢	و
٩٥٢	ى

٩٥٣ فهرس الغزوات والوقائع والأيام

٩٥٤ فهرس الموضوعات

٩٦٢ تعريف مركز

سرشناسه: هيكل، محمد حسين، ١٨٨٨ - ١٩٥٦ م.

Haykal, Muhammad Husayn

عنوان و نام پديدآور: حياه محمد/تاليف محمد حسين هيكل؛ محقق: عبدالرحيم الموسوي.

مشخصات نشر: قم: المجمع العالمي لاهل البيت (ع)، المعاونه الثقافيه، ١٣٨٦.

مشخصات ظاهري: ٨٩٥ ص.

شابك: ٩٧٨-٩٦٤-٥٢٩-٢٥٢-٠.

وضعيت فهرست نويسي: فييا

يادداشت: عربي

يادداشت: چاپ قبلي: دارالهدى، ١٣٥٤

موضوع: محمد (ص)، پيامبر اسلام، ٥٣ قبل از هجرت - ١١ ق. -- سرگذشتنامه.

شناسه افزوده: حصيني موسوي، عبدالرحيم، مقدمه نويس

شناسه افزوده: مجمع جهاني اهل بيت (ع). معاونت فرهنگي

رده بندي كنگره: ٩/٢٢٢/٩/٩٠٩/١٣٨٦

رده بندي ديويي: ٢٩٧/٩٣

شماره كتابشناسي ملي: م٨٥-٤٦٩٢٧

ص: ١

بسم الله الرحمن الرحيم

ص: ٣

حياه محمد

محمد حسين هيكل

محقق: عبدالرحيم الموسوي

ص: ٤

لم يكن الاهتمام بكتابه السيره النبويه و ليد هذا العصر، و إنما اعتنى المسلمون بها منذ وقت مبكر، و لم يقف قرار حظر التدوين الشهير الصادر عن الخليفه الأول و الثانى و غيرهما، الذى يتضمن المنع عن كتابه السيره أيضا، عائقا أمام التحديث بها و تدوينها. فلو أردنا أن نؤرخ اهتمامات الصحابه بالسيره النبويه لوجدنا مصحف الإمام على بن أبى طالب عليه السلام يمثّل باكوره للتدوين، و إن كان بعنوانه لا- ينطبق على السيره و إنما كان تسجيلا لأسباب النزول و تفسيرا لآيات القرآن الكريم، و بعض الأحداث و الوقائع التى كانت تستحق التسجيل.

بدآيات تدوين السيره

و إذا اختار البعض تداول السيره عبر المشافهه و الحكايه فى الفتره القريبه من عصر الرسول صلى الله عليه و آله، إلّا أن البعض ترك لنا صحفا سجّلت بعض الجوانب المهمه من حياه النبى صلى الله عليه و آله، كسهل بن أبى خيثمه الأنصارى (٥٦٠هـ)

و ابن عباس (٥٦٨ هـ) و سعيد بن سعد بن عباده، و سعيد بن المسيب (٥٩٤ هـ).

وعروه بن الزبير بن العوام (٩٤ هـ) و أبان بن عثمان (١٠٥ هـ).

و شكّلت تلك الجهود أراضيه لمرحلة أخرى، فقد سجّل أشهر تلاميذ الزهري محمّد بن شهاب (١٢٤ هـ) و هو محمّد بن إسحاق المدني المطلبي (١٥٢ هـ)، كتابه المعروف بسيره ابن إسحاق ليكون مائده لكتابات أخرى لا حقه، و جاء بعده محمّد بن عمر الواقدي (٢٠٧ هـ) و ابن سعد البصري (٢٣٠ هـ) على نفس الخط.

مستويات كتابه السيره

و بعد هذه الحقبه الزمنيه ارتقت الكتابه حول السيره إلى اهتمامات أوسع، حيث شققت موضوعات عنها مفضّله ضمن أبواب خاصه، من قبيل دلائل النبوه، و سنن النبي صلى الله عليه و آله و شمائله، و نظم السيره شعائرا، أو غزوات الرسول أو أساليب دعوته.

فإذا امتازت الكتابه فى هذه المرحله بطابعها السردى، الذى يعتمد النقل الروائى، فقد لحقتها مستويات أخرى من الكتابه، كالبحت التاريخى التحليلى، الذى يعنى بتحليل الحوادث التاريخيه من خلال التعرف على أسبابها و اكتشاف آثارها و نتائجها بالإضافة إلى الإهتمام بمدى ارتباطها بالحوادث التى تعاصرها.

ثم أخذت الكتابه مستوى ثالثا كالبحت التاريخى الفلسفى (فلسفه التاريخ)، الذى يعنى باكتشاف السنن التى تتحكم بالتاريخ و كيفيه عملها و مراحل التاريخ البشرى و علل تطوره، و هذه المستويات قد اعتنى بها القرآن الكريم و ذلك لترابطها و عدم الاستغناء عن واحد منها.

أساليب كتابه السيره

أمّا الأساليب التي كتبت بها السيره فهي متعدده، فقد سئلك البعض من مؤرخي السيره الأسلوب الأدبي، و منهم الأسلوب العلمي، ككتاب حياه محمّد لهيكل، و منهم من سعى إلى كتابتها بالأسلوب الحركي.

و لكن تبقى كل تلك الاهتمامات ناشئه عن دافع حب المعرفة و الإطلاع على سيره النبي صلى الله عليه و آله، و الحرص على معرفه الدين.

دور السيره في بناء المجتمع الإسلامي

فلما كان القرآن الكريم يمثّل البذره الأولى لبناء المجتمع و تغيير الإنسان و هدايته، تأتي سيره النبي صلى الله عليه و آله و خطواته الإلهيه المسدده لتشكّل البذره الثانيه لبناء المجتمع، و لذا يأتي الأطلاع عليها مصدرا لمعرفة الدين و عنصرا مقوما لبناء المجتمع الإسلامي السليم، لتمتعها بقابليه تمدّ المسلم بالتجارب النبويه، حين استنطاقها لأنها تختزن في داخلها تجربه الوحي الذي يؤمن لمشاريعنا الأصاله و المواكبه و التغيير في حياتنا المعاصره.

الدس في كتب السيره

و لكن ليس الاطلاع على السيره بما هي مدونه له كل التأثير الإيجابي على حياه المسلمين، و ذلك لأنها قد حملت بين سطورها جهودا يشك في منطلقاتها، فقد دس في السيره من الروايات المحرفه و الإسرائيليات ما ليس من السيره، مع كونها مريبه في أهدافها، لأن السيره و إن نقلها علماؤنا الأجلء إلا أنها لم ترتق إلى مستوى القرآن، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا

من خلفه... حتّى قال ابن خالدون (لم يؤمن فيها العثور و مزله القدم و الحيد عن جاده الصدق)، و كثيرا ما وقع للمؤلفين و المفسرين و أئمة النقل المغالطه فى الحكايات و الوقائع لا- عتمادهم فيها على مجرد النقل غثا و سمينا، و لم يعرضوها على أصولها و لا- قاسوها بأشباهاها و لا سبروها بمعيار الحكمة و الوقوف على طبائع الكائنات و تحكيم النظر و البصيره فى الأخبار، فضلوا عن الحق و تاهوا فى بيداء الوهم و الغلط.

فى الوقت الذى تعيش فيه الأمة أعلى مراحل صحتها و و عيها حيث اكتسحت بفعل حركتها و أنشطتها قلاع الظالمين و هزّت عروشهم و أرقت نفوسهم حتّى دفعت بهم إلى أن يحشّدوا كل قواهم و يوظّفوا آخر ما أنتجه العقل الإنسانى من ابتكارات علميه و تقنيه فتيه كان من اللازم توجيهها و تسخيرها لصالح الإنسانيه لكنّها و ظّفت من أجل الحيلولة دون تنامى الصحوه الإسلاميه، إذ خلصوا إلى أن الجبهه الثقافيه هى السرّ فى تنامى و قوه هذه الصحوه، لذا عمدوا إلى التشكيك فيها و إثارة الشبهات حولها و استهدافها ضمن برنامج مدرّوس من شأنه أن يكون مانعا من الإرتباط بالثقافه الإسلاميه. فبعد أن عجزوا عن تمرير مخططاتهم القديمه و الحديثه باتجاه القرآن توجهوا نحو تاريخ الأمة المسلمه لأهميته باعتباره عنصرا مقوما فى نهضه الأمة و باعنا لكمالها و و اقا لها من الانحراف.

مسؤليتنا تجاه السيره

من هنا تأتى الكتابه حول السيره و الاطلاع عليها بعين إسلاميه أصيله و مسؤله لأجل أن تحصل الأمة عبر اطلاعها على أغنى التجارب و أثرى المدرّوس.

و بناء على ذلك فقد تصدّى المجمع العالمى لأهل البيت عليهم السلام لا اختيار كتاب (حياه محمّد) للتحقيق و التعليق عليه لمؤلفه محمّد حسين هيكّل الذى طبع ما يزيد على الاثنى عشره طبعه إذ كان نافذه لوعى الأُمّه و و سيله لتقريب و جهات نظرها، و جعل القارئ ووجهها لوجه أمام سيره نبيّه الكريم بفعل الانفتاح على السيره فى عمقها التاريخى الذى حققناه من خلال التحقيق الذى يعنى سهوله رجوعه للمصادر الأُمّه التى اعتمدها الكاتب، أو التى غفل عنها و لم يطلع عليها لتكون سهله المنال و داله للباحث حين يرغب الاستقصاء فى الدليل الأمر الذى يكشف لنا عن الغبار الذى شوش على بعض الحقائق و الأحداث التاريخيه المشهوره كحادثة الغدير و غيرها، التى عجز الكاتب عن تصويرها كما دونتها كتبنا الحديثيه، أو التفسيريه، أو التاريخيه هذا أوّلا.

كما يؤدى التعليق الذى سجّلناه على صفحات الكتاب إلى و قوف القارئ على حقيقه السيره و هو يطالع الآراء المختلفه ليشاركنا الهموم حول كتابه السيره و غيرها و يكشف بالتالى عن ضخامه الجهود التى كان يمارسها النبى صلى الله عليه و آله حين كان يعانى من قومه ما عاناه ثانيا.

و أمّا ثالثا فسيكشف القارئ أن السيره النبويه إذا كتبت أو درست بمعايير الرساله فسوف تكون أداه تقريب و تفعيل لحركه الأُمّه، و جهادها و و عيها و و حده صفّها، و يتلمس الدارس - من خلال الأطلاع الواعى، و المقارنه المنصفه بين الآراء - مدى إنسجام ما كتب من السيره مع القرآن الكريم.

و ختاماً نتقدم بالشكر للإخوه الأفاضل فى لجنه التحقيق حسين رفعت الصالحى و الشيخ عبدالأمير كمال و ان، و الشيخ على بهرامى، لتوثيق

النصوص و ضبطها. و للأخ الفاضل السيد عبدالرحيم الموسوي الحصري حيث كان له شرف التعليق على الكتاب و التقديم له، و للأستاذ الباحث المحقق الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي و الأستاذ أبي الفضل الإسلامي و الأستاذ السيد منذر الحكيم لمراجعتهم الكتاب بدقه و إبداء الملاحظات اللازمه، و كذلك الإخوه الأفاضل أعضاء لجنة المقابله عزيز العقابي و حسين الصالحي و الأستاذ محمد حافظ الزيدي لمراجعتهم الكتاب لغويًا، نتمنى لهم جميعا دوام التوفيق من الله تعالى و حسن القبول إنّه سميع مجيب.

المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام

المعاونيه الثقافيه

ص: ١٠

الحمد لله رب العالمين و صَلَّى الله على مُحَمَّد و آله الطيبين الطاهرين.

يعرّف التاريخ بشكل عام على أنه الترجمة الواقعيه لمسيره الأُمّه الحاويه للمواقف و الثقافه و الفلسفه الّتي تتبناها الأُمّه نحو الكون و الحياه، كما يعنى التاريخ الضارب فى عمق المجتمع البشرى مجموعهُ الظواهر و التضحيات و الابداعات فى حقول الحياه المختلفه.

و بهذا يكون التاريخ كاشفا عن طاقات الأُمّه و المواقف الّتي ساهمت فى صيرورتها و هويتها، لذا ينبغى النظر إليه بدقه و إمعان لا- لتقاط ما هو المشرق من حياتها بغيه الإهتمام به، و دراسه الهزائم و الضعف الّذى يتخلل حياتها، لتشكّل المواقف على اختلافها دروسا للحاضر على أمل أن يكون المستقبل و فق هذا الفرز الواعى أكثر اشراقا و كمالا.

و هذا التعريف للتاريخ لا إشكال فيه من الناحيه العامه، و بإمكان الدارس أن يطبقه فى دراسته التاريخيه مهما اختلفت رؤاه و مهما اختلف

المجتمع الذي كان موضوعا لبحثه.

و لكن التاريخ في منظوره الإسلامى له ما يميزه عن المدارس الأخرى، إذ يصطبغ التاريخ إسلاميا بالبعد الدينى، أو العقائدى و يرى الحضور الفاعل للبعد المعنوى فى حركة الإنسان و تكامل مسيرته. و لا يمكن النظر إلى التاريخ و التعامل معه و الاستفادة من دروسه و عبره بمعزل عن الدين و العقيدة، لأنّ التاريخ هنا تاريخ رساله لا تاريخ قبيله، أو تاريخ حكومات، أو أبطال، و الدوله لا تتمثل سوى مفرده من مفردات التاريخ، نعم، ينظر المنهج الإسلامى إلى الحكومه لا باعتبارها ذات قيمه بحدّ رأسها، و إنّما باعتبارها أداه و خلافه ربانيه يتم بواسطتها تحقيق العدالة بين الناس: يا داؤدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۗ وَقَالَ الْإِمَامُ أمير المؤمنين:

يا ابن عباس ما قيمه هذا النعل؟ قال: لا قيمه له. قال:

والله لهى أحبّ إلى من إمرتكم، إلّا أن اقيم حقّا أو أدفع باطلا(١).

و التاريخ و فق هذا التصوير انطلق بكلّ جوانبه على يد أوّل نبى و امتدت حلقاته عبر سلسله الأنبياء مصحوبا برسالاتهم، حتّى مجيء الرساله الخاتمه للرسالات السماواه.

و لما كان من الثابت أنّ لخلق الإنسان فى هذا الوجود هدفا ربانيا تتحرّك البشريه باتجاهه: أ فَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۗ و سيتمّ تحقيق ذلك الهدف فى عقيدتنا على يد قياده ربانيه محمديه تتجسد فى خاتم الأوصياء المهدي بن الحسن العسكرى عليه السلام و على يديه ستنتصر

ص: ١٢

١- (٢) نهج البلاغه: ٨٠/١ خ ٣٣، الشيخ محمد عبده.

رساله الإسلام فى العالم الإنسانى. إذا فلتاريخ مستقبل مشرق من خلال رساله الإسلام العالميه.

و لو لا حظنا التاريخ حين يعرضه القرآن الكريم نجده يلقي ضوءه على كل المسيره الإنسانيه، و يسلط النظر على أهم مفاصلها الحيويه، و يصور مواقف الأمم و تاريخها انطلاقا من كون المحور فى التاريخ هو حركه الأنبياء و المصلحين الرساليين، لأنهم قد مثلوا الإراده الإلهيه فى مجال هدايه البشره إلى طريق الكمال الإنسانى المنشود.

و نجد القرآن يفرز المواقف البشره و يصنف الشعوب و الأمم على أساس موالاتها و اقترابها من خط السماء، فتنزل البركات و تنعم الأمم بالأمان و الرخاء تبعا لاستقامتها و هدايتها، و يعرض القرآن صورا لدمار الشعوب و سقوط الحضارات تبعا لطغيانها و تمرداها على خط السماء.

نعم، نجد فى قصص القرآن الكريم عرضا لصور و أحداث جانبيه فهذه ترشحات و فيوضات إلهيه تشكل بمثابة خطوط عامه تساهم فى الوعى و الثقيف للأمم، فقصه يوسف عليه السلام و إن كان الباطل فيها النبى و هو المحور الأساس، إلا أنه تبرز فيها شخوص أخرى تنفصل أو تلتئم مع محور التوحيد، كالنسوه و العزيز و امرأته و أصحاب السجن و إخوه يوسف حين ابتعدوا بادئ الأمر و كادوا ليوسف، إلا أنهم قد اقتربوا فى نهايه القصه من يوسف و أعلنوا توبتهم قائلين: **إِسْتِغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ١**.

و يلمح القرآن و هو بصدد العرض لقصه يوسف إلى أن «السلطه لا تمثل سوى أداه لتحقيق العداله، حيث قال النبى: **قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ ٢**.

وهكذا يعرض القرآن لقصه موسى عليه السلام فى الوقت الذى تبرز معه شخص آخرى كبنى إسرائيل أنفسهم حين أسلموا إلى رسالته أو الامراتين اللتين تذودان بنتى شعيب. و هارون و السامرى، و بعد ذلك قارون و قبل ذلك طالوت و جالوت و هكذا بلقيس مع سليمان عليه السلام.

كما لا يقتصر الطرح القرآنى على خطّ التوحيد عبر رمزه و المحرّك لتاريخه و هم الأنبياء بل نجده يعرض مرّه أخرى لحياه الأّمه و مسيرتها و و عيها و حركتها و خياراتها: خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَ هُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ١ ، و هكذا القرية التى كانت حاضره البحر و ما فيها من دعاه الخير و صراعهم مع أهل الشرّ فى كل هذه المشاهد و غيرها نجد قيم السماء هى الحاكمة فى حقل التاريخ، و الأنبياء هم الرموز لحركة التوحيد و أحيانا يجعلهم النص وراء الحوادث الصانعه للتاريخ.

فالقرآن إذا يؤكد المعيار فى الفرز التاريخى، و لا يلحظ المعايير الأخرى كضخامه الشعوب و سعتها، أو تقدّمها التكنولوجى: إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَ ثُمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَ فِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْتَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبَالْمُرْصَادِ ٢ ، و لا عبره فى تشييد البناء الحضارى بإطاره المادى فقط، و إنّما تحاكم الأمم و الشعوب و تسقط حضارات بأكملها على أساس مواقفها من الرسالات و قيم السماء.

فالنبى إبراهيم عليه السلام كان أمه و إن كان فردا من حيث العدد، و الأّمه التى عاصرتة شكّلت موقفا إزاءه لكن الفرز القرآنى تمّ بين جبهتين: النبى صلى الله عليه و آله

وامته، ولا وزن للكثرة ولا للقله، فالتاريخ عبر تصويره للماضى يمنح القدره للأمة الإسلاميه بأن تراقب حركتها فى الحاضر فيما إذا كانت قريبه من خط التوحيد أم لا، و يوقفها على أسباب النصر و الهزيمة و من خلال زوايا التاريخ الإسلامى يستطيع أن يربط الباحث حاضر الأئمة و مواقفها بالماضى ليقارن و يترصد العوائق و العقبات التى تحول دون المسيره المطلوبه.

فالعقيدته إذا تفسّر حركه التاريخ على أساس حركه محور التوحيد، الذى يكون هو بنفسه دافعا و محرّضا للجماعات الموّحده، فى أن تستهدف مظاهر الفساد و الشرك بغيه تحريرها و إزالتها من صفحه التاريخ.

فإذا كان التاريخ ينبغى أن يلاحظ و يقرأ بل و يفرز على أساس البعد العقائدى، أو قل على أساس حركه التوحيد التى جسدها الأنبياء بحركاتهم ضد مظاهر الطغيان و الشرك و الفساد، إذا فمواقف البشريه إزاء رساله التوحيد لا بدّ من تقسيمها إلى موقفين متقاطعين لا توليف بينهما و لا خلط و لا دمج بين الشرك و التوحيد:

الأول: مواقف البشريه و انضمامها إلى صف التوحيد و توضيحاتها و مواقفها فى خضم هذا الخط.

والثانى: مواقف البشريه المضاده لحركه الأنبياء.

لكن الموقف الأول انقسم هو الآخر على نفسه. فالنبيّ صلى الله عليه و آله من جانبه بين مقاصد الشريعه و بلّغ ما كلفه الوحي و طبق ما نادى به على أكمل وجه و بهذا التبليغ تمت الحجه على الخلق، و قال المولى سبحانه: **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا** . يعنى بالخلافه الإلهيه

الإسلاميه قد تمت النعمه و بها ستم أركان الهدآيه للناس.

فالإسلاميه من بعده صلى الله عليه و آله نقلت لعلّى عليه السلام و بتعبير آخر أن «عنصر الهدآيه قد تكامل ضمن خطّ العصمه الهادى للأئمه بعد الرسول صلى الله عليه و آله بالإضافة إلى الثقل الأكبر - أعنى كتاب الله العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه -.

فتاريخ الإسلام الذى بدأ برسالة و ببعثه النبى الأعظم صلى الله عليه و آله، و اكتملت مقوماته الحجّه بوجود الثقلين، بعد أن كان الحجّه على الناس الكتاب و الرسول صلى الله عليه و آله، الأمر الذى كان على أساسه يفرز القرآن حوادث التاريخ و الوقائع التى عاصرها النبى و صحبه الأخيار. وهناك مصاديق كثيره للفرز، حتى قال عبد الله بن عمر: و الله ما كنّا نعرف المنافقين فى زمان رسول الله صلى الله عليه و آله إلاّ بغيرهم علينا(١).

و قال الله سبحانه: مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۚ فَالفرز من الرسول و الذويان بمنهجه و الاستماع لقوله و تطبيق أوامره و الاقتداء بسنته و عدم التشكيك فى خطواته، ففكر و عاطفه و سلوكه هو المعين لمواقف الآخرين، و لذا كان القرآن يصنّف الأئمه على هذا الأساس ففئه تضحى و فئه تنافق و فئه تتخذ فى صف آخر كأصحاب مسجد ضرار و كجماعه عبد الله بن أبى.

و إذا كان الفرز القرآنى للجماعه الإسلاميه يتم على أساس مواقفها من

ص: ١٦

١- (١) قرب الاسناد: ٢٦، و الترمذى فى سننه: ٦٣٥/٥ ح ٣٧١٧. و قد ورد بطرق مختلفه و ألفاظ مختلفه منها: المستدرک للحاكم: ١٣٩/٣، المعجم الأوسط للطبرانى: ٢٦٤/٤، شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد: ٨٢/٤، كتر العمال: ١٠٦/١٣ ح ٤٦٣٤٦.

الرساله و الرسول و القيم الّتي جاء بها الوحى، فينبغى أن يستمر الفرز لمسيره الأّمه على نفس الوتيره و المنهج بناء لا ستمراريه التاريخ الإسلامى الممتد بامتداد خطّ العصمه، باعتبار أن "خطّ العصمه يمثّل روح التاريخ و طبيعه حركته، فيما بعد النّبى صلى الله عليه و آله حتّى ظهور خاتم الأوصياء المعصومين أعنى محمّد المهدي بن الحسن العسكري عليه السلام. بغضّ النظر عمّا لو كان الإمام خليفه و حاكما و على رأس السلطه، أم يعيش فى داخل السجون و ظلم المطامير.

فالجانب الثانى الذى انقسم على نفسه أصبح ذا قسمين، الأوّل: من التزم خطّ العصمه بعد النّبى. والثانى: من وقف سلبا أمامه.

و عليه لا يمكن التعامل مع التاريخ و دراسته على أساس البدائل التاريخيه، و تصنيف المواقف و الأحداث و فق معايير و قوالب قد ابتكرها الإنسان حمايه لمصالحه و تقويه لخدمه سلطانه.

فهذا الابتداء الذى أملتّه الظروف ما بعد النّبى صلى الله عليه و آله لا يصعد به إلى مستوى التقديس ليكون إلهيا فى ردائه لنجعل منه بالتالى عنصرا له القابليه فى أن يعطف التاريخ ليحوّله إلى تاريخ عظاماء و عباقره، أو تاريخ قبائل و قوميات، كأمويه و عباسيه، أو تاريخ فرق و عقائد، كمعتزله، أو أشاعره، أو صوفيه، إذ تلك أمور ابتدعتها الظروف السياسيه فى أمّه الإسلام.

فالحق - لا تهضمه الظروف و لا تلغيه إراداه السلاطين. نعم، أمجاد الأّمه الإسلاميه و مواقفها تفرز على أساس توضيحياتها للرساله و إبداعاتها لخدمه الإنسانيه و فق المنهج الأصيل.

و انطلاقا من هذا التأسيس ينبغى أن نقرأ التاريخ و فق هذا المعيار و التسليم بهذا المنطق الإلهى، و الإلتزام به و جعله معيارا لمحاكمه الأحداث، و فهمها على أساسه.

ويمكن القول بأن العقل لوحده لا يصلح أن يكون حاكماً لتحليل الأحداث وقراءتها بدون ضم المنطق الإلهي الإسلامي إليه، إذ لا يمكن اعتبار رضى الأمة أو غضبها أو عدم قبولها لشيء ما لنقرّر ونحكم على من خالفها من الأفراد بالمروق عن إرادة الأمة وطموحاتها.

قال ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله:

«لا يكون أحدكم إمّعه، قالوا وما الإمّعه؟ قال:

يقول إنّما أنا مع الناس إن اهتدوا اهتديت وإن ضلّوا ضلّلت ألا يوطّن أحدكم نفسه على إن كفر الناس أن لا يكفر»^(١). و كان الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام يحذّر أصحابه بأن لا يكونوا تبعاً للناس بلا تعقل ولا رجوع للقيم والموازن الإلهية حين يمارسون وظائفهم الاجتماعيه أو السياسيّه، فقد ورد عنه عليه السلام أنّه قال لرجل من أصحابه:

«لا تكونن إمّعه، تقول أنا مع الناس و أنا كواحد من الناس»^(٢).

كما ليس بصحيح أن يكون رضا الحاكم و مزاجه هو السيّد و الحاكم فى التاريخ لنقول لمن خالفه قد خالف الله، و من أطاعه فقد أطاع الله.

و ملخص القول فإن المعيار لقراءه التاريخ و كتابته ينبغى أن يقوم على أساس معايير رساله و قيمها كما أكدناه و أكدته نصوص الكتاب المجيد قال تعالى: **فَإِذَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ٣**.

عقبات فى كتابه التاريخ

تبرز أمامنا مشكلات كثيره نحن أبناء الأمة الإسلاميه فى هذا العصر،

ص: ١٨

١- (١) المعجم الكبير للطبرانى: ١٥٣/٩.

٢- (٢) معانى الأخبار للصدوق: ٢٦٦.

بالذات.

منها: مشكله كيفيه قراءه التاريخ و ما هي النظره أو العين التي نلحظ من خلالها الوقائع و الأحداث التاريخيه التي و قفتها الأمة إزاء الرساله؟ و ذلك ليكون التاريخ و فق هذا المنظور أداه للتحرريك و التربيه و الإصلاح بين الناس.

و المشكله الأخرى الموقف من التاريخ المدوّن و الكيفيه التي سجّلت على أساسها الأحداث.

و المشكله الأخيره ما هو المعيار و الضابط الذي أملتة الرساله؟ الأمر الذي يتمّ بموجبه فرز الأحداث التاريخيه لتدوّن في مرحله لاحقه، ثمّ يحقّ للناقد أو الباحث المعاصر أن يلحظ التاريخ المدوّن و ينقده، أو يصنّفه و ينظمه على أساس ذلك المعيار. بعد ذلك من حقّه أن يحكم على الأحداث فيما إذا كانت تكراربه في مناهجها، أي تستصحب المناهج القديمه و متأثره بها، أو من حقّنا أن نحاكم الأحداث التاريخيه التي كتبها المسلمون و فق مناهج حديثه، كالمناهج التجريبيه التي بشر به (روجريبيكون) أو غيرها.

هذه بعض المشكلات التي تعترض الباحث التاريخي حين يقبّل صفحات التاريخ المدوّن في ظروف أملت تصوراتها و مناهجها على عقل الباحث آنذلك.

و لما كان للتاريخ دور في صياغه الحاضر و يشكّل عنصرا مؤثرا في و عى و مسيره الأمة فيما لو كتب بمعايير الرساله، و انطلاقا من كونه أداه محرّكه في بناء غد الأمة. إذن ينبغي أن ندرس التاريخ بالكيفيه التي رسمها القرآن، حين يعرض لحركه الأمم و الجماعات البشريه في السابق، و انطباق تلك الظواهر و الإفرازات على الأمة الإسلاميه لغرض التوظيف و الاستفادة،

ص: ١٩

إنطلاقاً من و حده الاشتراك فى الحكم، و شموليه الخطاب القرآنى على الأمة بعد الرسول ما لم ىرد فىه تخصيص.

و لذا لا بدّ من التأمل حين نجد القرآن و هو يسلط الضوء على الاخفاقات التى أصابت الأمة أثناء عصر الرساله، كتحدثه عن معركة أحد و هزيمه المسلمين فىها، و كذا معركة حنين كاشفا عن الأسباب و الخبايا النفسىة التى أدت إلى هزيمه المسلمين فىها، كما ينبغى التأمل فى مواطن القوه التى أدت إلى انتصار المسلمين فى بدر و غيرها.

حجب تعترض الثقافه

أدرك السلطان من جهته القضيه بدقه و تعامل مع التاريخ بحذر؛ لأنه وجد منه سدًا مانعا من تجاوزاته و رآه عنصرا مساعدا فى تفعيل و عى الأمة، و منبها لها فيما إذا ضلّت الطريق فهو عنصر ترشيدى بالغ الأهميه، لقد كان أمام السلطان موقفان:

الأول: إمّا أن يمضى على سلوكك و مسيره الصحابه الصادقين من قبله، و بهذا ستتقاطع مسيرته و مواقفه مع مواقف و مسيره من سبقه من هؤلاء الصادقين، و هذا يعنى إقصاء دوره.

والثانى: أن يقف السلطان موقف المشدّب و المحرّف للتاريخ السابق ليكون منسجما مع حاضر السلطان و سياسته، كالذى فعله العبّاسيون حين أقدموا على تعديل مواقف العبّاس عمّ النبى صلى الله عليه و آله جدّهم ليكون تاريخه منسجما مع أحكام الرساله و قيمها، أو محاوله إلغاء مواقف و أحداث برمّتها كانت قد حدثت فى عصر الرساله، مخافه أن تكون شاهدا يكشف عن زيف السلطان و مخالفته لمسيره الصحابه الصادقين.

و لكن الواقع قد أثبت أن الجهود السلطانية قد سلكت الأسلوب الثانى و تم تدوين التاريخ بطريقه ذكيه ليكون أداه قمع و إلغاء للآخر و تحجيما لدوره التاريخى. و قد تأثر مؤلف هذا الكتاب الذى بين أيدينا بهذه الجهود و استجاب لأهدافها بقصد أو غير قصد.

فدخول يد السلطان فى تاريخ الأئمة و تراثها و بطولاتها لم يقتصر على الأحداث و المنعطفات المهمه فى تاريخها بل طال الجزئيات أيضا، لأن التاريخ يدخل فيه الحديث و التفسير و الفقه، فكل ما من شأنه أن يخدم السلطان دخلت اجتهاداته فيه بهدف تطويعه لمصلحته.

و الباحث الذى يطيع السلطان و يحقق له غرضه يساهم فى خطه إذ أن الجهد العلمى المبذول إذا استهدف رضى السلطان و جعله هو الملاك لصحته فهو غمص كبير لحق رساله و الأئمة معا، و قد نعى القرآن و ذم مثل هذا الجهد، قال تعالى: فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۗ

لذا نجد القرآن قد ندد باتباع السلاطين فقال: اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَ رُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ... ۚ

وجاء فى تفسيرها عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

أما والله ما دعوهم إلى عباده أنفسهم ولو دعوهم إلى عباده أنفسهم ما أجابوهم، ولكن أحلوا لهم حراماً وحرّموا لهم حلالاً فعبدوهم من حيث لا يشعرون(١).

فالتاريخ والسيره النبويه يتضمّنان سلوك النبى و سنيته، و سيره المعصوم تمثّل السيره المطلوبه عند الله تعالى، من هنا جاء الأمر باتباع

ص: ٢١

النبي صلى الله عليه وآله من حيث القول والفعل والتقرير، فلا يقول المعصوم من عند نفسه ولا يجتهد قبال الأمر الإلهي.

والأُمَّه التي تُلاحظ التاريخ من خلال العقيدة السليمة بفاعليه التاريخ وسيننه سترتفع بالتاريخ، لأن يكون فاعلاً في حياتها وبنائها بل ويساهم في توحيد جهودها، لأنَّ الأُمَّه تقرأ التاريخ بمنظور ترسيخ العقيدة، وبهذا سيرتقى التاريخ إلى مستوى العطاء والتربية.

السلطان والسنة

ولما أدرك السلطان خطوره هذه المسأله تعجّل فمَنع تدوين الحديث.

قال الخليفة الأول: إنكم تُحدّثون عن رسول الله أحاديث تختلفون فيها، والناس بعدكم أشدّ خلافاً، فلا تُحدّثوا عن رسول الله شيئاً فَمَن سألکم فقولوا بيننا وبينكم كتاب الله، فاستحلوا حلاله وحرّموا حرامه (١).

وأما الخليفة الثاني فقد أنشد الناس بأنّ يأتوه بها فلمّا أتوه بها أمر بتحريقها (٢).

علماً أنّ السنة والتاريخ وطبيعته نقل الأحداث وتداولها بغضّ النظر عن قرار حضر التدوين قد تعرّضت للاختلاف فيما بين المسلمين تبعاً لقربهم من الحادث، أو الذوق الذي يقرأ بموجبه الأحداث، وما إلى ذلك من دواعي الاختلاف في النقل.

فوجد الخليفة الأول اختلاف مع الثاني في أمور كثيرة كقسمه الأراضي المفتوحة وكطريقه الاستخلاف، حتّى قال ابن نعيم: إنّ عمر بن الخطاب

ص: ٢٢

١- (١) تذكره الحفاظ للذهبي: ٣/١ ط ١.

٢- (٢) النصّ والاجتهاد: ١٤١، ح ١٨٨.

اختلف مع عبد الله بن مسعود في أكثر من مئة مسأله، ولذا يقولون إن الصحابه كانوا يعدلون عن النص عند الضروره الداعيه، وفي أحوال مخصوصه تدعو إليها المصلحه التي يبتني عليها الشرع، فهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الاختلاف في النصوص يرجع إلى وجهات نظر الحاكمين لا إلى الميزان الثابت كالقرآن، أو خليفته المنصوص عليه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، ثم إن تعليل مسأله تجاوز النص وصلاحيه التلاعب بالأحداث والنصوص المحمديه وغيرها من الأحكام بحجه كون المجتهدين أمام النصوص هم من الصحابه، فهذا التعليل مردود بميزان الرساله إذ لا يمتلك الصحابي صلاحيه تؤهله لتجاوز النص الصادر عن الوحي الوارد على لسان رسول الله: الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ١، وقد صرح تعالى قائلاً: وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ٢ .

وقال تعالى: وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغَتْ رَسُولَهُ... ٣ .

السلطان والفقه

وجاء دور الفقهاء ما بعد الصحابه الذين اعتمدوا التركه الحديثيه والتاريخيه المسجله بعد الرسول حسب ذوق الحاكمين لتكون أساساً في الفقه والحكم.

ومع ذلك فما زالت سلطه الحاكم على الفقيه قائمه، فهذا مالك بن أنس فقيه المدينه، نجده حين تولى جعفر بن سليمان إماره المدينه زمن خلفه أبي جعفر المنصور العباسي، فقد جرد الأمير مالكاً وضربه حتى انخلعت

كتفاه، بسبب كون المنصور قد نهى مالكا عن تداول ونقل حديث

«ليس على مستكره طلاق»^(١)، ثم دس إليه من يسأله عنه فحدث به مالك فنال ما نال منه.

وبعد هذه الحادثة المشهورة نجد سياسه الخليفه ومصلحته تستدعى تقريب الفقيه، وفعلاً قد قرّبه وقدمه على كثير من الفقهاء، ممّن هو أعلم منه كالإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام.

ويروى مالك نفسه قصه هذا التحوّل المثير في حياته، الذي تمّ عبر اللقاء بينه وبين المنصور، حيث استطاع المنصور أن يستميل مالكا ويخلع عليه آلاف الدنانير والحلّل والعطايا، ثم يأمره بتدوين الموطأ.

وترتقى علاقته الفقيه مع السلطان إلى رتبة أعلى من ذلك، حيث مُنح سلطه قويه تعتبر آنذاك أقوى من سلطه حاكم المدينه، فقد كان مالك يأمر بحبس من يشاء أو يضرب من يُريد.

وبناءً على ذلك يُمكنك التوصل إلى معرفه علّه عدم ذكر مالك فضائل أهل البيت عليهم السلام، في موطأه وبخاصه الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، الذي لا تخلو كتب الحديث والسير والتفسير من ذكره.

وقد أجاد مالك حين مثّل إرادته السلطان ونفّذ له ما كان يُريده منه، حيث حذف ما لا يريد السلطان ذكرهم في وثائق التاريخ.

السلطان والتاريخ

وينقل لنا السيوطي في تاريخه أسلوباً آخر للسلطان ومدى تأثيره على كتابه التاريخ، فعن عبدالله بن أحمد بن حنبل أنّه قال: (إعلم أنّ عليّاً كان كثير

ص: ٢٤

١- (١) مواهب الجليل للخطاب الرعيني: ٤٠/١، وسير أعلام النبلاء: ٨٠/٨.

الأعداء ففتش له أعداؤه عيباً فلم يجدوا فجاءوا إلى رجل قد حاربه وقاتله فأطروه كيداً منهم له (١).

وبين ابن عزمه نفظويه في تاريخه مدى جهود السلطان ومحاولاته في تشويه الحقائق ومحوها، واختلاق أحاديث وأمجاد لخصوم أهل البيت عليهم السلام الذين يُمثلون الخط الامتدادى للإسلام قال: (إنَّ أكثر الأحاديث الموضوعه في فضائل الصحابه افتعلت في أيام بنى أميّه تقرباً إليهم بما يظنون أنّهم يُرغمون أنوف بنى هاشم) (٢).

ولاحظ معى جهود السلطان في مجال كتابه التاريخ، فقد جاء في مقدمه كتاب السيره لابن إسحاق أنّ عبدالملك بن مروان ودّ لو لم ينشغل أحد بالسيره لِمَا فيها من تقديم لبني هاشم والأنصار (٣).

وصرح كذلك في مقدمته على السيره، أنّ ابن إسحاق صنّف السيره بأمر من المنصور العباسى، فلمّا أطلع عليها المنصور طلب إليه القيام ببعض التعديلات فيها، وقال: «إنّ المنصور أراد من ابن إسحاق التركيز بشكل أوضح على دور العباس بن عبدالمطلب، وأخباره مع النبىّ وخدماته الجلىّ للإسلام، وربّما رافق ذلك طمس بعض ما يتصل بنواحي ضعف العباس وأعماله المعاديه للرسول قبل إسلامه»، ولم تسلم سيره ابن إسحاق من الطمس والتعديل بطلب من المنصور، حتّى جاء ابن هشام الذى جمع هذه السيره ورواها عن ابن إسحاق في كتابه «السيره النبويه». وقد بين الدكتور زكار ذلك في مقدمته فقال: «أمّا روايه البكائى فلم تصل إلينا للأسف في

ص: ٢٥

١- (١) تاريخ الخلفاء للسيوطى: ١٩٩.

٢- (٢) شرح نهج البلاغه: ٣٦/١١.

٣- (٣) مقدمه ابن إسحاق تحقيق الدكتور سهيل زكار.

شكلها الأوّل بل نالها تعديل ابن هشام واختصاره». ويّين سبب الطمس بأنّه ممّا يُسىء للسلطان ذكره، «وبعض يسوء بعض الناس ذكره، وأشياء بعضها يشنع الحديث به، ولهذا النوع من الحذف ولا شكّ أسبابٌ سياسيه وأخرى تتصل بالصوره التاريخيه لعصر ابن هشام عن النبيّ وصحابته».

وهذا الطبري عندما يقترب التاريخ من مسّ الحاكم تجده يتقلب على وجوه، فيذكر ما يروق له ويترك غيره، فهو عندما يذكر معاويه يتعمّد التعظيم على سيرته من بذخ وترف، وتسلّط على العباد وبناء القصور الفخمه وأكله بأنيه الذهب والفضه ولبسه الحرير والديباج، وقد حدّره الخليفه عمر بن الخطاب من ذلك حين لقيه قائلاً: «أكسرويه يا معاويه؟!» وقد ترجم ابن خلدون هذه الكسرويه فقال: «إتّما أراد عمر بالكسرويه ما كان عليه أهل فارس في ملكهم من ارتكاب الباطل والظلم والبغى وسلوك سُبله والغفله عن الله».

روى الطبري في تاريخه، في أحداث سنه (٣٠هـ)، ما كان من أمر معاويه وأبي ذر الغفاري قال: «وقد ذكر في سبب إشخاصه إياه منها إليها أمور كثيره، كرهت ذكر أكثرها. فأما العاذرون معاويه فإنّهم ذكروا في ذلك قصه كتب بها إلى السري يذكر أنّ شعيباً حدّثه عن سيف عن عطيه عن يزيد الفقعسي قال: لما ورد ابن السوداء الشام لقي أبا ذر فقال: يا أبا ذر ألا تعجب إلى معاويه يقول: المال مال الله، ألا إنّ كلّ شيء لله، كأنّه يريد أن يحتجبه دون المسلمين، ويمحو اسم المسلمين...» (١)، فروي ما قاله العاذرون معاويه، وترك ما قاله غيرهم، فصار هو أيضاً عاذراً لمعاويه في ذلك، ونقل

ص: ٢٤

كثيراً من تاريخه عن الكذاب المتزندق سيف بن عمر التميمي الذي لم يذكره أحد من علماء الجرح والتعديل إلا وذمه واتهمه بالكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله.

ولقد انفرد الطبري بروايه شخصيه عبدالله بن سبأ ومن طريق سيف هذا فقط كيداً لأهل البيت عليهم السلام وتشنيعاً لأتباعهم، وتأيداً لسياسه عاذرى معاويه.

يقول المستشرق البريطاني «جيمس رابسن»: «ومع أنني لاحظت أن العلماء القدامى لا يتفقون في دراساتهم لرواه الحديث، غير أننا وجدناهم هنا متفقين حول سيف، وهذا ما يجعل الشخص يتعجب من الكتاب المدين جاءوا بعد سيف، وأنهم كيف رضوا لأنفسهم أن يتقبلوا أساطير سيف».

المستشرق كياتاني شك في وجود عبدالله بن سبأ وقال عما ينسب له من أعمال ضخمه ومؤامره مثل هذه بهذا التفكير وهذا التنظيم لا- يمكن أن يتصورها العالم العربي المعروف عام خمسه وثلاثين بنظامه القائم على سلان الأبوه، إنها تعكس أحوال العصر العباسي الأول بجلاء(1).

وعى التاريخ وضعف الأمة

يعتقد الكثير من المفكرين الإسلاميين بأن العوامل التي أدت إلى ضعف المسلمين في أن يعيشوا هذا التدهور هي عوامل ضعف داخلية والبعض أرجعها إلى عوامل خارجيه والصنف الأكثر وجد أن هناك ترابطاً بين العاملين.

والصنف الأول أصر على فاعليه العوامل الداخليه واعتبرها العله

ص: ٢٧

١- (١) هويه التشيع، أحمد الوائلي: ١٣٨، انظر آراء المستشرقين المذكوره في نظريه الإمامه لأحمد محمود: ٣٧.

الأصيلة فى التدهور، مستفيدةً من الآيات القرآنية كقوله تعالى: أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١ .

وإذا كانت أزمة التدهور والانحطاط ترجع إلى العامل الداخلى فأول فقره من هذه الأزمه ترجع إلى العامل الثقافى، فترى الأمة فى عصر ضعفها أنّ العمل الصالح ينحصر بالعباده، أى فى إطارها التعبدى ولم تر أنّ أساس العمل الصالح محوره التوحيد لتكون أنشطتها وفعاليتها تنطلق من هذا المفهوم، فالحجّ عباده والجهاد عباده والحكومه عباده والطاعه عباده والانتظار عباده.

وهذا المفهوم اتّجه بهموم المسلمين إلى أن تكون واطئه محصوره بالحياه والأسره والزوجه والمال. وجعل محور النشاط والحركه بهموم الفرد وحاجاته وإقصاء نهج الدين الّذى يتسع بهمومه لأ-كبر من ذلك لتكون هموم عقيدته تدفع بأبنائها إلى الإصلاح بين الناس، الأمر الّذى يحتاج إلى ثقافه قرآنيه وتاريخيه كامله وربط ذلك ببناء الحضاره والإنسان وعدم الاكتفاء بتمجيد الأسلاف والتغنى بتراثهم.

ويأتى السلطان ليعمّق الأزمه الثقافيه بتشويهه الحقائق، ومنع تداول ثقافه القرآن وحصرها بهموم ثقافه السلطان وانعكاسات ذلك على التريبه.

وتأتى وسائل إعلام المرحله الراهنه بمختلف مراكزها لتطعن بالإسلام محاوله اختراق ثقافته عبر إثارها النعرات القوميه والعنصريه بهدف إبعاد المسلم عن ثقافته الإسلاميه الأصيله.

وهكذا زرع الأحزاب التشكيك بالفكر الإسلامى نفسه واتهام من يفكر بالغيب بأنه رجعى مُتخلف وأن الإيمان بالغيب من الخرافه.

وقد لعب الاستشراق دوره البالغ فى هذه المسأله وإن كان يُعدّ من العوامل الخارجيه للتحدى الثقافى حيث أصبحت كتابات المستشرقين مرجعاً لفهم الدين عند البعض ممن تأثر بالنهضة الأوربيه الحديثه.

وهؤلاء قد استهدفوا الرّسول صلى الله عليه و آله فقد وصفه أحدهم على أنه لم يُعرّف والده مستدلاً بأن اسم عبدالله يضاف إلى مجهول لم يُعرف والده، إذا فالرسول مجهول الأب.

ونسى هذا المستشرق بأن العرب بالإضافه إلى معرفتها بأنسابها تعرف حتى أنساب الخيول والجِمال، وكذلك أشاعوا بأن النبى صلى الله عليه و آله كان اسقفاً مسيحياً فهو لا يتعدى كونه مصلح دين وليس مُرسلاً من رب العالمين.

واستهدفوا القرآن أيضاً وقالوا بأن مرجعه إلى الذات المحمّديه وليس إلى وحى من خارج الذات، فهو إذن من تأليف محمّد. وهكذا شككوا فى الحديث وكتبه ومصادره.

أمّا الفقه الإسلامى فقالوا إنه متأثر بالقانون اليونانى، كما استهدفوا التاريخ والسيره النبويه بالذات فكتبوا حولها كتباً كثيره كان أكثر تلك الجهود مُنصباً على تشويه الحقائق، وما إلى ذلك من شُبّه وافتراءات.

الوعى التاريخى طريق الاستنهاض

فإذا كانت الظروف التى عاصرها المؤلف تستدعى الاستنهاض والاقلاع عن السبات والتردى الذى طال مظاهر الحياه فى البلاد الإسلاميه، وتسبب فى تخلفها وتدهورها ودعا بالمفكرين إلى أن يسجلوا آراءهم

ويتفحصوا الأسباب القديمة بُغية السعى نحو الاصلاح وإيجاد العلاج الملائم نجد مؤلفنا يرى أن العامل الثقافى هو السبب الأساسى فى الهزيمه وعليه لابد من رجوع الأُمّة إلى أصلاتها وعقيدتها والاطلاع على التاريخ بل، والسيره النبويّه بالذات تُكفل لنا نهضة الأُمّة إذا كُتبت بلغه علميه نزيهه تُحاكى ضمير الأُمّة وتشكّل عنصراً نهضوياً ومُحفزاً لحركتها ومساهمه فعّاله فى إعادته وعيها؛ لأنّ التشويش الّذى أَلقت به الحقب الزمنيه المعتمه من تاريخها والتلاعب بما كُتب من تراثها كان السبب الأساسى فى التدهور المعاصر.

من هنا لابدّ من التجديد فى الكتابه وفحص ما كتبه الأقدمون ونقد ما يكتبه المعاصرون المتأثرون بالمناهج الحديثه والمناهج التاريخيه القديمه التى لم تراعى الموازين والمعايير المعتمره فى الفكر الإسلامى. وبناءً على ذلك تأتى السيره وبعدها تاريخ الأُمّة كمسيره لابدّ من تسليط الضوء عليها لغرض الاستنهاض والسعى نحو الكمال المنشود. - طبعاً - بعد مراعاة عدّه أمور ينبغى للباحث العمل بموجبها، وهى:

١ - استبعاد المناهج الحديثه التى انتهجها العقل الأوربى كحاكم على تاريخنا ومسيرتنا لُنصنّف على أساسه الأحداث.

٢ - تحرير عقل الباحث من سلطه المذهب أو الطائفه التى يعتقدّها، وعدم محاوله توظيف النصوص التاريخيه وتحويرها، بما يتلائم مع متبنيات المذهبيه.

٣ - دراسه السيره وفق الميزان القرآنى والسنّه النبويّه الصحيحه، الّذى يلزم فيها عدم إقصاء الغيب وأثره فى سياق الأحداث والمنعطفات التاريخيه كالمعجزه التى مصدرها الوحي أو الرّسول.

٤ - الرجوع إلى ثوابت الإسلام ومعتقداته الأُمّ من أجل تمييز

نتائج المؤرخين والباحثين الإسلاميين والقدره على الأخذ منها لا إنشاء اعتقادات وموازن جديده يخترعها الباحث لتكون ميزاناً لقراءه التاريخ الإسلامى.

٥ - بلوره وتشخيص مناطق الضعف وفرز الأحداث التى سببت انتكاسه الأمة وضعفها مخافه الوقوع فى نفس ما ارتكبه الأسلاف لئلا يكون مستقبلنا تكراراً لمأساتنا فى الماضى.

محمد حسين هيكل ومنهجه فى كتابه التاريخ

فإذا كانت الملاحظات الآنفه تساهم فى نتاج الباحث التاريخى وتؤثر فيه، بالإضافة إلى كون المؤلف قد لاحظ الظرف المعاصر بكلّ ملابساته فعلياً أن نرى (هيكل) كيف اختار منهجه لكتابه التاريخ؟

ثم ما هى الدواعى التى دفعته نحو كتابه (حياه محمد) بالذات؟

لقد ذكر المؤلف بهذا الصدد فى طيات بحثه وفى أكثر من مره أنّ الذى دفعه لتأليف كتابه هذا هو الظروف الظالمه التى مرّ بها العالم الإسلامى وانخراط أكثر الشباب فى التيارات المعاديه للإسلام بالإضافة إلى تعلقه واعجابه بما أنتجه العقل الأوروبى فى الفكر والنظم والسياسه والعلم فقال:

لا مفرّ من هذا السبيل أن يصل الحاضر الحى و ثروه الماضى وتراثه العظيم فهو يريد أن يعرّف الإنسانيه كلّها كيف تسلك سبيلها إلى الكمال الذى دلّها إليه النبىّ صلى الله عليه و آله على طريقه.

وهذه الغايه غير ميسوره إذا لم يهتد الإنسان إلى هذا السبيل بمنطق عقله ونور قلبه، راضى النفس بهذا المنطق منشرح الصدر إلى هذا النور، لأنّ

مصدرهما المعرفة الصحيحه والعلم الصحيح، فالتفكير الّذى لا يعتمد على المعرفة الدقيقه ولا يتقيد مع ذلك بالطرائق العلميه كثيراً ما يُعرض صاحبه لأن يُخطئ ويكبو، وكثيراً ما ينأى لذلك به عن مَحَجّه الحقّ... ودراسه التاريخ يجب أن تكون غايتها نشدان الأمثال العليا من حقائق الحياه، ويجب لذلك أن يتجنب من يدرس التاريخ سلطان الهوى وحكم المزاج، ولا سبيل إلى تجنّبها إلّا أن يتقيد الإنسان بالطريقه العلميه أدقّ التقيد، وألّا يجعل من العلم والبحوث العلميه فى التاريخ أو غير التاريخ مطيه لإثبات هوى من أهوائه أو نزوه من نزوات مزاجه(١).

والناس، على اختلاف مشاربهم الفكرية والعقديه وتنوع أمزجتهم وأهوائهم لا- يجمعهم - من وجهه نظر هيكل - سوى العلم والمنهج العلمى، فهو الوحيد الّذى له على هؤلاء جميعاً سلطان وسطوه، بحيث لا يبقى لأى واحد منهم حجّه أو ذريعه إن حكم فى قضيه ما.

وقد فرض عليه منهجه الّذى أشار إليه غير مرّه أن ينأى عن أكثر كتب السير ممّا يعدّ من امّهات المصادر فى هذا الحقل المعرفى، معتذراً عن ذلك بكثرة الدخيل فى هذه السير ممّا لا يصدّقه العقل ولا حاجه إليه فى ثبوت رساله، والّذى اعتمده المستشرقون للنيل من النبوه والنبيّ صلى الله عليه وآله.

وعلى الرغم من ذلك فقد أدان الدكتور هيكل ما يسمى بالفلسفه الواقعيه (الوضعيه) وموقفها من المسائل الدينيه، ورأى أنّها لا تخضع للمنطق ولا تدخل فى حيز التفكير العلمى، وأنّ ما يتصل بها من صور التفكير التجريدى (الميثافيزيقى) ليس - هو أيضاً - من الطريقه العلميه فى شىء. كما أدان الدكتور هيكل المحاولات الّتى استهدفت الحياه الروحيه باسم العلم وإحلاله محل الإيمان، وفى الوقت نفسه أكّد على قصور العلم وأنّه

ص: ٣٢

١- (١) راجع ص ٦١ من الكتاب.

لا يزال قاصراً عن تفسير كثير من الظواهر الروحية والنفسيه، وأنه لا يزال قاصراً عن تفسير الظواهر الكونيه، فكيف يمكنه تفسير الظواهر الروحيه؟ بل إن إنكار الظواهر الروحيه، وبخاصه ظاهره الوحي مما ياباه العلم وتتنزه عنه قواعد (1).

ملاحظات حول منهج الدكتور هيكل في كتابه حياه محمد صلى الله عليه وآله

قد سجل كثير من الباحثين جمله من الملاحظات على كتاب (حياه محمد) لهيكل منهم السيد محمد الحسيني تحت عنوان الاتجاهات العامه في دراسه السيره النبويه وإليك جمله منها:

أولاً: اشتمل الكتاب على دراسات نقدية ومعالجات جيده لا تخلو من الدقه والروعه، ومن ذلك قضيه صيانه القرآن من التحريف وكونه متواتراً ومحفوظاً من الزيادة والنقصان. كما عالج عدداً من المسائل الفكرية المهمه مثل الرسائل السائده يومذاك، وموقع المرأه ومركزها في الإسلام وقبل عصر الإسلام. إضافة إلى ذلك اشتمل بحثه على عدّه تساؤلات جديده بالبحث، وبخاصه تلك التي أثارها في فصل الهجره إلى الحبشه. وناقش بتفصيل مقولات تاريخيه إهتم بها المستشرقون لعل في مقدمتها أكذوبه الغرائق وفريه الصرع.

ثانياً: يبدو أنّ المنهج العلمي الّذى إرتضاه هيكل لنفسه فرض عليه التشدد في ما يعرف بمعجزات النبيّ محمد صلى الله عليه وآله، وقد أصرّ الدكتور هيكل على أنّ القرآن الكريم هو معجزه الرسول صلى الله عليه وآله الكبرى. قال: «ولم يرد في

ص: ٣٣

١- (١) مجله المنهاج: ١٦٣، العدد السادس، السنه الثانيه (١٤١٨ هـ) تصدر عن مركز الغدير للدراسات الإسلاميه وراجع ص ٦٠ وما بعدها من الكتاب.

كتاب الله ذكر لمعجزه أراد الله بها أن يؤمن الناس كافة، على اختلاف عصورهم برسالة محمد صلى الله عليه وآله إلاً القرآن الكريم هذا؛ مع أنه ذكر المعجزات التي جرت بإذن الله على أيدي من سبق محمداً من الرسل، كما أنه جرى بالكثير مما أفاض الله على محمد صلى الله عليه وآله وما وجّه إليه الخطاب فيه، وما ورد في الكتاب عن النبي لا يخالف سنّه الكون في شيء. وكلامه ليس صريحاً في نفي المعجزه، إلماً أنه نفى بالفعل عدداً مما عرف من معجزات النبي صلى الله عليه وآله، وقد ردّ شيوع هذه المعجزات في كتب المسلمين إلى اعتقادهم بأنها - أي الخوارق المادية - لازم لكمال الرسالة فصّدقوا ما روى منها وإن لم يرد في القرآن الكريم. كما أكد على أنّ التاريخ لم يذكر أنّ المعجزات حملت أحداً منهم على أن يؤمن، بل كانت حجّة الله البالغة هي الوحي، وحياء النبي في سمّوها، لذا نوه في الحديث عن مصادر بحثه إلى أنّ القرآن الكريم هو المرجع الأصدق.

وعلى أساس هذا المنهج رفض معجزه الغار وحاول التشكيك بها، كما استهان بحادثه سراقه في مطاردته للنبي صلى الله عليه وآله و آله وردّها إلى أسباب طبيعیه.

وقد جاءت كلمات هيكل في تعليقه على حادثه الإسراء والمعراج مبهمه غامضه، وبخاصه عن وحده الكون في روح محمد صلى الله عليه وآله، إلى درجه علّق معها عبدالله القصيمي في نقده لكتاب هيكل: «والذي نخشاه أن يكون هذا القول قد تضمن نفي الإسراء والمعراج فإنّه إذا كان للكون وحده، أو إذا كان الكون كلّ واحد مجتمعاً في روح محمد صلى الله عليه وآله وفي صدره كما يريد كاتبنا لم يكن هناك حاجه إلى أن يُسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، أو يُعرج به من الأرض إلى السّموات العُلى، بل لم يكن ذلك مستطاعاً ولا معقولاً، لأنّ المسجد الحرام والمسجد الأقصى كلاهما في

روح محمّد وكلاهما شيء واحد، ولأنّ السماء والأرض شيء واحد وكلاهما في روح محمّد، فهل يمكن أن يُعرج به أو يُسرى به إلى شيء هو في روحه ومعه؟!».

ولكنّ تعسّف الدكتور هيكل واضح في نفى المعجزه بشكل عام، ولعلّ ذلك يرجع إلى ما أسماه بالطريقة العلميه الغربيه، وإلّا إذا كان الدكتور هيكل يعدّ القرآن المرجع الأصدق فلماذا يتعسّف في نفى ما أشار إليه القرآن الكريم في قضيه جيش أبرهه الحبشى ويلجأ إلى تفسيرها بالوباء، وباء الجدرى الّذى تفشّى في الجيش على حدّ زعمه؟! هل من الطريقه العلميه أن يفسّر القرآن خلاف الظاهر من دون قرينه صارفه عن الظاهر؟

ثالثاً: إنّ المؤلّف وإن تأثّر بمنهج الاستشراق إلّا أنّه درس الاستشراق، بعمق وبنظرة نقديه لا تخفى امتعاضها منه. وقد أشار في عدد من المواطن إلى أخطاء المستشرقين وحدّر منها صريحاً، وإن عدّ بعضهم من المُنصفين، وقد أرجع تلك الأخطاء إلى أهمّ سببين: أولاً: جهل المستشرقين بأسرار اللغه العربيه، أو لما يشوب نفوس طائفه منهم ثانياً.

رابعاً: وإن اصطبغ بحث الدكتور هيكل بروح نقديه واضحه، إلّا أنّه لم يشأ مفارقه المشهور في عدد من المقولات التاريخيه، ولم تُثر عنده التساؤلات والاحتمالات ومن ذلك تأخر جمع الحديث.

كما ساير المشهور في إعراض حليمه السعديه عن قبول إرضاع النّبىّ صلى الله عليه وآله أوّل الأمر ثمّ اضطرارها لقبوله ثانياً.

وتمرّ عليه مقولات تاريخيه لا يُعلّق عليها ويُرسلها إرسال المُسلّمات، ومن ذلك ما ذكره على هامش حديثه عن نذر عبدالمطلب، فينقل عن الطبرى أنّ امرأه من المسلمين نذرت إن فعلت كذا لتتحرنّ ابنها، وفعلت

ذلك الأمر ثم ذهبت إلى عبدالله بن عمر فلم ير في فتياها شيئاً، فذهبت إلى عبدالله بن العباس فأفتاها بأن تنحر مائه من الإبل، كما كان الأمر في فداء عبدالله بن عبدالمطلب، فلما عرف ذلك مروان والى المدينة أنكروه، وقال: لا نذر في معصيه.

هنا لم يشأ التعليق. وكيف يخفى الحكم على حبر الأئمة عبدالله بن عباس أو عبدالله بن عمر (ابن الخليفة الثاني) وأجاب عنه مروان المفتي!!

أما ما هو أكثر طرافه ما نقله عن أم المؤمنين عائشه، يقول هيكل:

ويروى أنّ عائشه كانت تزور حجر القبر - يعنى قبر رسول الله صلى الله عليه وآله - سافره إلى أن دُفن عمر بها إذ لم يكن بها يومئذٍ غير أبيها وزوجها فلما دُفن عمر كانت لا تدخل إلا محتجبه لابسه كامل ثيابها.

خامساً: انتماء هيكل المذهبي فرض عليه التعامل بحذر مع النصوص التاريخيه و بانتقائيه، فهو في الوقت الذي لم يشتر فيه - إطلاقاً - إلى حديث الغدير، فإنه أشار إلى حديث الدار بتصرف، فنقل قول عليّ عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله بعد قوله صلى الله عليه وآله: فأَيُّكُمْ يُؤازرنى على هذا الأمر: «أنا يا رسول الله عونك. أنا حربٌ على مَنْ حاربت» ولم يشأ إكمالها. نعم، كان هيكل قد ذكره في الطبعة الأولى عن الطبرى في تاريخه ثم حذفه من الطبعة الثانية وما بعدها(1). بل اتهم عليّاً عليه السلام في أمر عائشه في ما عُرف بحديث الإفك قال: «وكانت - الإشاعات - تجدد من حسان بن ثابت عوناً ومن عليّ بن أبى طالب سميعاً».

يُلاحظ أنّ هيكل نفسه ذكر مقاله عائشه لرسول الله، وهو يحمل ابنه إبراهيم من ماريه من أنّها لا ترى بينهما شبهاً. كأنّه يُشير بذلك إلى نزول آيات

ص: ٣٦

١- (١) راجع حياه محمّد، الطبعة الثالثة عشر لهيكل: ١٤١-١٤٢.

الإفك في ماريه لا عائشه كما هو في عدد من الروايات.

ولكن الأخطر في هذا الصدد هو اتهامه لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله بوضع الأحاديث والزيادة فيها وإذاعتها بكل الوسائل.

وأخطر منه ما ذكره من اتصال النبي صلى الله عليه وآله بالنصرانية وحديثه إلى رهبانها وأخبارها وجداله معهم، وبخاصة مع الزاهد النسطوري، وهي مقالة نقلها الدكتور هيكل عن «در منغم» في كتابه «حياه محمد».

سادساً: وقد يبدو التناقض واضحاً على عدد غير قليل من المقولات الفكرية والتاريخية في بحث الدكتور هيكل، فهو في الوقت الذي يمنح فيه دوراً مهماً لخديجه رضى الله عنها في تطمين النبي صلى الله عليه وآله إبان نزول الوحي لا يتحرّج من نقل ما روى أنها قالت له: ما أرى ربك إلا قلاك، بعد تأخر الوحي وإبطائه عنه.

ومن ذلك إنسياقه مع المقولة التاريخية الشهيرة في إعراض المراضع ومنهم حليمه عن قبول النبي صلى الله عليه وآله ليطمه، لأنّ الرجاء في الأيامي قليل، وهو في الوقت نفسه وبعد عدّه صفحات يشيد بأيدى عبدالمطلب على أهل مكّه وكرمه، فكيف غاب عن هؤلاء المراضع أنّ محمّداً هذا الطفل ليس كأى يتيم، بل هو حفيد هذا الزعيم المكي الذي يوجد على الناس في ساعات العسره وأيامها!

وقد يكون من أكثر مظاهر التناقض عنده، وهو يقرر أنّ التاريخ لم يذكر أنّ المعجزات حملت أحداً على الإيمان، ففي الوقت نفسه يؤكد أنّ طائفه من الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وآله ارتدت بعد حادثه الإسراء. فلماذا ارتدت هذه الطائفه وهي لم تؤمن للمعجز؟ فكما أنها لم تؤمن لأمر حسى أو أمر خارق للعاده فهي بكل تأكيد لا يثنيها عن إيمانها ذلك الأمر، إن لم يزلها

ونضيف لما ذكره السيد الحسيني ما يلي:

سابعاً: حينئذ لو اطّلع مؤلفنا على الكلام المقارن لكي يرعى بعض الأحكام لئلا يتوهم القارئ للسيره بأنّ الحكم فقهيّاً أو عقائديّاً في مسأله من المسائل، كما قررها الكاتب كمسأله الشفاعة والعصمه للنبيّ قبل أو بعد البعثه انظر (ص ٥١١) وكمفهوم الشورى انظر (ص ٣٧٣، ٤١٣، ٤١٤) وتشريع حكم الأذان فيما إذا كان متضمناً لقول (الصلاه خير من النوم) أم لا انظر (ص ٤١) والمثله بالميت انظر (ص ٤٢٨).

ثامناً: النظره للنبيّ الأعظم صلى الله عليه و آله كرجل عادى لا كنبىّ له من الامتيازات والصفات التي تستثنيه من ذلك، كحديثه عن حيره النبيّ حين طمأنته خديجه وابن عمّها ورقه بن نوفل واتهام زوجات النبيّ له بالظلم (ص ٦٣٧).

تاسعاً: الارتفاع بالصحابى أبى بكر من حيث قوته الإيمانيه أقوى من النبيّ صلى الله عليه و آله كما فى (ص ٣٧٥).

عاشراً: ترقيع الأخبار وتشويشها ممّا يدل على أنّ الكاتب لم يقو على تصوير الأحداث؛ أو أنه عمد إلى تشويشها، بالوقت الذى كان الهدف من الكتاب عرض السيره بلغه يفهمها المسلمون لأجل أن يقتدوا بها، كما فى (الصفحات ٢٢١ و ٢١٦ و ٣٥٩ و ٧١٤).

حادى عشر: إخفاء دور الإمام على بن أبى طالب عليه السلام فى نصرته للرساله والرّسول صلى الله عليه و آله، ذلك الدور المميّز الذى تحدّث عنه الكتب الحديثيه

ص: ٣٨

والتاريخيه المتداوله، ويكفي الباحث مراجعه كتاب شرح نهج البلاغه(١) وغيره لمعرفة تلك المناقب، إلا أنه نقل لنا من الكتب ما من شأنه أن يقلل من قيمه عليّ عليه السلام، فينقل لنا تردد عليّ في قبوله الإسلام انظر (ص ١٨٨) وكأن كاتبنا لم يطلع على حياه عليّ قبل البعثه ومستوى العلاقه التي كانت تربطه مع النبيّ صلى الله عليه و آله.

وقد سجّلت لنا كتب التاريخ قاطبه تحت عنوان أوّل من أسلم: إنه عليّين أبي طالب عليه السلام.

والشياء المُلَفَت للنظر أنّ الكاتب لم يهضم بطولات عليّ عليه السلام حين لاحظ أنّ رايه رسول الله صلى الله عليه و آله كانت في أكثر المعارك بيد عليّ عليه السلام، ربّما رأى هذه الحقيقه بمنهجيه غير واقعيه، أو غير مُستساغّه، أو بدافع إرضاء البعض فحاول عدم إبرازها، كما في (ص ٣٣١)، كما سجّل اتّهامه للإمام حين نقل موقفاً سلبياً لا يليق بعليّ إزاء زوجات النبيّ صلى الله عليه و آله انظر (ص ٥٠٨).

ثاني عشر: نقله لمقاطع تاريخيه مهمه ومعروفه في تاريخ الرساله، وقد نقلتها كتبنا الأخباريه بلغه عربيه واضحه تُعبّر عن واقعها بما لا لبس فيه ولا غموض إلا أنّ المؤلف حاول أن يؤلّف صورته من عنده تتسم بالغموض والالتباس والشكّ في ذهن القارى. مثلما فعله في (ص ٥٥٣) وبدأ (محمّد) يومئذٍ غايه من السماح... والكاتب في معرض بيان سماحه النبيّ صلى الله عليه و آله لكنّه ينقل لنا نصّ قطع اللسان بأمر النبيّ لأحد الأشخاص فهذه الصوره حتّى على فرض صحّتها لا تنسجم مع هدف الكاتب.

كما أنّ الكاتب يتخيّل لنفسه تصورات ذهنيه ثم يُملئها على النصّ التاريخي، كما فعل في (ص ٥٤٦).

ص: ٣٩

ثالث عشر: إهماله لبعض الأحداث المهمة في تاريخ رساله كالمباهله (ص ٢٨٦).

رابع عشر: والتقطيع في النصوص بما يتلائم مع ذوقه مثل ذكره لأسماء الصحابه (ص ٦١٢) وعدم ذكر أسماء البعض الذين ثبتوا في واقعه حنين.

وكما فعل في حادثه الغدير ودمجها مع حجّه الوداع.

وعدم تعليقنا على بعض الأمور لا يعنى إمضاءها وصحّتها لأننا التزمنا التعليق على المفاصل المهمه والحيويه في تاريخ رساله وأعرضنا عن بعض لا لعدم أهميتها، بل لأنّ الكتاب أُلّف بهذه الطريقه ونحن لا نريد أن نغيّر طبيعه هدفه ومخافه أن يتحوّل إلى كتاب مناظره، في الوقت الّذى نريده أن يكون نافذه أو إثارة للانفتاح والحوار فيما بين المسلمين، والاطلاع على تراثهم وكتاباتهم، ولغرض صياغه المواقف المطلوبه وممارسه صنع الحاضر والمستقبل الّذى يخدم رساله.

استفدنا من كتابات كبار الباحثين والمحققين ونقلنا البعض منها نصّاً في هوامش الكتاب، أمثال العلّامه الشيخ محمّد رضا المظفر والعلّامه السيّد مرتضى العسكري والعلّامه السيّد جعفر مرتضى العاملي. ولا أنسى الملاحظات القيمه لفضيله الشيخ محمّد هادي اليوسفي وفضيله السيّد مُنذر الحكيم على بعض تعليقاتنا ممّا أضفت على الكتاب جوده وحيويّه.

وأخيراً نأمل من المفكرين والباحثين أن يثروا سيره النبيّه بالدراسه والتحليل لتكون حافزاً لمعرفة الدين وعنصراً للإصلاح والتغيير.

نسأله تعالى أن يكون عملنا لرضاه إنّه ولى التوفيق.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين وصلى الله على محمّد وآل محمّد.

عبدالرحيم الموسوي الحصيني

١٧ / جمادى الأولى / ١٤٢٤ هـ

١٧ / تموز / ٢٠٠٣ م

ص: ٤٠

بهذا الاسم الكريم تنطق ملايين الشفاه، وله تهتّر ملايين القلوب كلّ يوم مرّات. وهذه الشفاه والقلوب به تنطق وله تهتّر منذ أربعمائه وألف سنه إلّا خمسين. وبهذا الاسم الكريم ستنطق ملايين الشفاه وتهتّر ملايين القلوب إلى يوم الدين. فإذا كان الفجر من كلّ يوم وتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود، أهاب المؤذّن بالناس أنّ الصّلاه خير من النوم (1)، ودعاهم إلى السجود لله والصّلاه على رسوله، فاستجاب له الألوف والملايين في مختلف أنحاء المعموره يُحيون بالصلاه رحمه الله وفضله متجلّين في مطلع كلّ نهار.

وإذا كانت الظهيرة وزالت الشمس أهاب المؤذّن بالناس لصلاه الظهر، ثمّ لصلاه العصر فالمغرب فالعشاء. وفي كلّ واحده من هذه الصّلات يذكر المسلمون محمداً عبداً لله ونبيّه ورسوله في ضراعه وخشيه وإنابه. وهم فيما

ص: ٤١

١- (١) كتب الحديث وفتاوى الفقهاء تؤكد بأنّ تشريع الأذان في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله كان خالياً من التثويب (الصّلاه خير من النوم) وله كيفية أخرى، وقد أضيف التثويب بعد عصر التشريع وهو من مبتدعات بعض الصحابه. راجع شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك: ١/٢٤٣ ح ٤٠ ط دوله الإمارات العربيّه ١٤١٣ هـ، وكنز العمال: ٨/٣٥٥ ح ٢٣٢٥١ ط بيروت مؤسسه الرساله ١٤١٣ هـ، ووسائل الشيعه للحرّ العاملي: ٥/١٤٦ ط بيروت، دار إحياء التراث العربي ١٤١٢ هـ، ط ٦.

بين الصَّلوات الخمس ما يكادون يسمعون اسمه حتى ترجف قلوبهم بذكر الله وبذكر مصطفاه. كذلك كانوا وكذلك سيكونون، حتى يظهر الله الدين القيم ويتم نعمته على الناس أجمعين.

ولم يكن محمّد بحاجه إلى زمان طويل ليُظهر دينه ولينتشر في الخافقين لوائه، فقد أكمل الله للمسلمين دينهم قبيل وفاته (١)، ويومئذٍ وضع هو خطه انتشار الدين؛ فبعث إلى كسرى وإلى هرقل كي يُسلما (٢). ولم تمض خمسون ومائه سنه من بعد ذلك حتى كان علم الإسلام خفّاقاً ما بين الأندلس في غرب أوروبا إلى الهند وإلى التركستان وإلى الصين في شرق آسيا، وحتى كانت الشام والعراق وفارس وافغانستان قد أسلمت كلّها واصله ما بين بلاد العرب ومملكه ابن السماء، وكانت مصر وبرقه وتونس والجزائر ومراكش قد وصلت ما بين أوروبا وافريقيه ومبعث محمّد عليه السلام. ومن يومئذٍ إلى يومنا هذا بقيت رايه الإسلام عاليه في هذه الربوع جميعاً خلا الأندلس التي أغارت النصرانيه عليها فعذّبت أهلها وأذاقتهم من ألوان الشده والبأس، حتى لم يطيقوا صبراً على الحياه فعادوا إلى افريقيه وارتد من ارتد منهم هولاً وفزعاً عن دينه ودين أبيه إلى دين العتاه المعذّبين.

على أنّ ما خسره الإسلام في الأندلس من غرب أوروبا كان له عنه العوض حين فتح العثمانيون القسطنطينيه ومكّنوا لدين محمّد فيها، فاستشرى في البلقان كلّها وأنبلج نوره في روسيا وفي بولونيا وخفقت أعلامه، في أضعاف ما كانت تخفق من أرض اسبانيا (٣)، ومن يوم انتشر الإسلام في

ص: ٤٢

١- (١) قال تعالى: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا الْمائده: ٣.
٢- (٢) راجع الكامل في التاريخ لابن الأثير، والبدايه والنهايه لابن كثير، والفتوحات في زمن الخلفاء و الدوله الأمويه والدوله العباسيه.

٣- (٣) تاريخ الدوله العثمانيه العليه، محمّد فريد بك: ١٨٣ وما بعدها.

صولته الأولى إلى يومنا لم يتغلب عليه من الأديان متغلب، وإن تغلبت على أممه من شدائد الظلم وألوان التحكم ما جعلها أشد بالله إيماناً، ولحكمه إسلاماً، وفي رحمته وفي غفرانه أملاً ورجاءً.

هذه القوه التي انتشر الإسلام بها سرعان ما جعلته يقف وجهاً لوجه أمام المسيحيه وقفه نضال مُستमित. لقد تغلب محمد على الوثنيه ومحاهها من بلاد العرب كما محاه خلفاؤه الأولون من بلاد الفرس والأفغان وطائفه كبيره من بلاد الهند أثرها. ولقد تغلب خلفاء محمد على المسيحيه فى الحيره واليمن والشام ومصر إلى مهد المسيحيه فى روميه وفى مدينه قسطنطين.

أفقُدُّ للمسيحيه ما قُدر للوثنيه وهى دين كتاب من الأديان التى أشاد بها محمد ووضع صاحبها فى مصاف الأنبياء؟ وهل قُدر لهؤلاء العرب، عرب البادية الزاحفين من شبه الجزيره الصحراويه القاحله، أن يضعوا يدهم على حداق الأندلس و روميه وسائر بلاد المسيحيه؟ الموت ولا هذا! واستعر القتال بين أتباع عيسى وأتباع محمد قروناً وقروناً متتاليه، ولم يقف القتال عند حرب الأسنّه والمدافع، بل انتقل كذلك إلى ميادين الجدل والنضال الكلامي، جاء المتقاتلون فيه بأسماء محمد وعيسى، وجعل كل فريق من انتقاص رسول الفريق الآخر (١) وسيله لتأليب السواد واستثاره حماسه الجماهير وتعصّبها (٢).

على أن الإسلام حال بين المسلمين وبين الحط من مقام عيسى، إنه عبد الله آتاه الكتاب وجعله نبياً وجعله مباركاً أينما كان، وأوصاه بالصلاه

ص: ٤٣

- ١- (١) لم يُحدثنا التاريخ بأن المسلمين قد شتّعوا بنبيّ الله عيسى عليه السلام فى يوم من الأيام بل يعتبرونه من أولى العزم من الرسل، كما صرّح به القرآن وله من القيمه والتقدّيس فى نفوسهم كما لباقي الأنبياء التزاماً بقوله تعالى: لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ... كما ينقل لنا القرآن الكريم بشارته عليه السلام للنبيّ محمد ودعوته إلى دينه.
- ٢- (٢) قصه الحضاره: ١٨/١٥ الحروب الصليبيه.

والزكاه مادام حياً، وبرزاً بوالدته ولم يكن جباراً شقيماً، فسلام عليه يوم وُلد ويوم يموت ويوم يُبعث حياً. أمّا المسيحيون فقد جعل الكثيرون منهم التعريض بمحمّد ونعته بأوصافٍ يبرأ منها معروف الرجال، شفاءً لِمَا في نفوسهم من غلٍّ، واستفزازاً وحفزاً لشهوات الناس الدنيا. ويرغم ما وضعت الحروب الصليبيه أوزارها منذ مئات السنين فقد ظلَّ تعصّب الكنيسه المسيحيه ضد محمّد على أشده إلى عصور قريبه. ولعلّه كذلك ما يزال إن لم يك أشد، وإن يك خفياً يعمل في ظلمات التبشير بالدون من الوسائل. ولم يقف الأمر عند الكنيسه بل تعدّاه إلى كتاب وفلاسفه في أوروبا وفي أمريكا لم تك تصلهم بالكنيسه صله تُذكر (١).

ولقد يعجب الإنسان أن يظلَّ تعصّب المسيحيه على الإسلام بهذه الشده في عصر زُعم أنّه عصر النور والعلم، وأنّه لذلك عصر التسامح وسدّعه الأفق. ويزداد الإنسان عجباً حين يذكر المسلمين الأوائل وكيف كان اغتباطهم بانتصار المسيحيه على المجوسيه عظيماً حين اقتحمت جيوش هرقل أرض فارس وكسرت عسكر كسرى. فقد كانت فارس صاحبه النفوذ في جنوب شبه جزيره العرب منذ طرد كسرى الأحباش من اليمن. ثمَّ إنّ كسرى وجّه جيوشه - في سنه (٦١٤ م) - تحت إمره قائد من قواده يُدعى شهزبراز لغزو الروم، فظهر عليهم حين التقى بهم بأذرعَات وبُصرى (٢)، أدنى الشام إلى أرض العرب، فقتلهم وخرّب مدائنهم وقطع زيتونهم. وكان العرب

ص: ٤٤

-
- ١- (١) من هؤلاء الفيلسوف الفرنسي فولتير رغم عدائه للنصرانيه وكنيستها في القرن الثامن عشر إلّا أنّه كان في الوقت نفسه، مُبغضاً للإسلام ولرسوله صلى الله عليه وآله، راجع الإسلام على مفترق الطرق، ليوبويد بايس المُسمّى بمحمّد أسد: ٥٨.
- ٢- (٢) أذرعَات وبُصرى تابعه اليوم لأرض الشام.

وكان أهل مكّه يتتبعون أخبار هذه الحرب بتلهّف وشغف، أن كانت القوتان المتناحرتان أكبر ما تعرف أمم الأرض يومئذٍ، وأن كانت في جوار بلاد العرب التي تخضع بعض أجزائها لفارس وتتناخم الروم بعض أجزائها الأخرى.

وسمّيت كفار مكّه بالمسيحيين وفرحوا لهزيمتهم، لأنهم أهل كتاب كالمسلمين، وحاولوا أن يلصقوا بدينهم عار اندحارهم. أمّا المسلمون فشقّ عليهم أمر الروم وهم أهل كتاب مثلهم، فكان محمّد وأصحابه يكرهون أن يظهر المجوس عليهم. وأدّى هذا الخلاف بين مسلمي مكّه وكفارها إلى تنادر الفريقين وإلى تهكّم الكفار بالمسلمين، حتى أبدى أحدهم من السرور أمام أبي بكر ما غاظه ودفعه إلى أن يقول: لا تعجل بالمسرّه، فسيأخذ الروم بثأرهم. وأبو بكر معروف بالهدوء ووداعه النفس. فلما سمع الكافر قوله أجابه مُتهكّمًا: كذبت، فغضب أبو بكر وقال: كذبت أنت يا عدوّ الله، وهذا رهان عشر جمال أن ستغلب الروم المجوس قبل عام. وعَرَفَ محمّد أمر هذا الرهان فنصح إلى أبي بكر أن يزيد في الرهان وأن يطيل المده. وزاد أبو بكر في الرهان إلى مئة بعير إن هُزمت الفرس قبل تسع سنين وانتصر هِرَقْل سنة (٦٢٥ هـ) وهزم فارس واستردّ منها الشام واستعاد الصليب الأ-كبر وكسب أبو بكر رهانه (١)، وفي النبوءه بهذا النصر نزل قوله تعالى في صدر سورة الروم: الم * غَلَبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٢ .

كان اغتباط المسلمين يومئذٍ بانتصار هِرَقْل والنصارى عظيمًا، وظلّت

ص: ٤٥

١- (١) الطبري في تفسيره عن عكرمه: ١٣/٢٠ ط بولاق وتاريخه: ١٨٤/٢، ١٨٥ ط المعارف.

صله الإخاء بين الذين أتبعوا محمّداً و الذين آمنوا بعبسى عظيمه طوال حياه النبى برغم ما وقع فى غير ظرف بين الفريقين من مجادله، على خلاف ما كان بين المسلمين و اليهود من تهادن أوّل الأمر ثم عداوه استحرّت (١) و كان لها من الآثار و النتائج الداميه ما أجلى اليهود (٢) عن شبه جزيره العرب جميعا و مصداق ذلك قوله تعالى: لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَ رُهَبَانًا وَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ٣

ثمّ إنك لترى الديقين يُصوّران الحياه و الخلق صوره تكاد تكون واحده. وهما فى تصوير الإنسانيه و مبدأ خلقها سواء. خلق الله آدم و حواء و أسكنهما الجنه و أوحى إليهما أليسما إلى نزع الشيطان فىأكلا- من الشجره، فيخرجهما من الجنه. و الشيطان عدوهما، الذى أبى أن يسجد لآدم فيما أوحاه الله لمحمّد، و الذى أبى أن يقدّس كلمه الله على روايه كتب النصارى المقدسه.

و وسوس الشيطان لحواء و زين لها، فزينت لآدم فأكلا من شجره الخلد فبذت لهما سوءاتهما (٣) ، فاستغفرا ربهما فبعثهما على الأرض بعض ذريتهم لبعض عدو، يُغريهم الشيطان فىضل قوم و يقاوم الهلاك آخرون. و لتقوى الإنسانيه

ص: ٤٤

-
- ١- (١) استحرّت: استعرت: المصباح المنير لأحمد بن محمّد بن علىّ الفيومى المتوفى عام ٧٧٠ هـ ماده الحُرّ: ١٢٩.
 - ٢- (٢) لأنّ القبائل اليهوديه الثلاثه التى كانت تقطن المدينه قد نقضت العهود التى أبرمتها مع النبى صلى الله عليه و آله و كادت به فيما بعد من أجل قتله و تحالفت مع الشرك ضد الإسلام، الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢٨/٢ و ٥٧ و ٧٧ ط بيروت دار صادر، و الواقدى فى المغازى تحقيق مارسدن جونس: ٦٥/١ و ٧٦ و ٥٠٢.
 - ٣- (٤) سفر التكوين: ١/٣-٧.

على حرب هذه الغوايه بعث الله نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى والنبين، وبعث مع كل رسول كتاباً مصدقاً لما بين يديه. وكما يقوم في صف الشيطان أنصاره من أرواح الشر، تقوم الملائكه تُسبح بحمد ربها وتقدس له. وهؤلاء وأولئك يتنازعون أسباب الحياه والكون جميعاً حتى يوم البعث، يوم تُجزى كل نفس بما كسبت ولا يسأل حميم حميماً.

وإنك لتجد في القرآن من ذكر عيسى ومريم وإكرام الله لهما وتقديمه إياهما ما تشعر معه حق الشعور بهذا الإخاء وما يجعلك تتساءل: ما بال المسلمين والنصارى إذا ظلوا على القرون خصوصاً متقاتلين؟ والجواب على سؤالك أن بين الإسلام والنصرانيه خلافات على مسائل أساسيه كانت موضع جدل شديد في عهد النبي لم يتعد حدود الجدل إلى العداوه والبغضاء.

فالنصرانيه تقول بالتثليث، والإسلام ينكر كل ما سوى التوحيد أشد إنكار.

والنصارى يؤلّهون عيسى ويلتمسون الدليل على ألوهيته في أنه ليس بشراً كالناس، بل تكلم في المهدي وأوتى من المعجزات ما لم يؤته غيره ممّا هو من عمل الخالق جل شأنه. وهم كانوا أيام الإسلام الأولى يُحاجون المسلمين في ذلك بالقرآن ويقولون: أوليس يقرّ القرآن الذي نزل على محمّد رأينا حين يقول: إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَ يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا وَ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَ يَعْلَمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ * وَ رَسُولًا - إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَانْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ وَ أَحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أَتَّبِعُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ

وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَمَآيَهَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ١ . فالقرآن قد ذكر إذا أنه يُحيى الموتى ويُبرئ الأكمه والأبرص ويخلق من الطين طيراً ويخبر بالغيب. وكل هذه خصائص إلهيه، هذا رأى نصارى عهد النبى الذين كانوا يُحاجونه ويجادلونه ويذهبون إلى أن عيسى إله مع الله. ولقد ذهبت طائفة منهم إلى تأليه مريم أن ألقى الله إليها بكلمته. وكان أصحاب هذا الرأى من نصارى ذلك العهد يعتبرون مريم ثالث الثلاثة: الأب والابن والروح القدس. ولم يكن أصحاب هذا القول بتأليه عيسى وأمه إلطائفه من طوائف النصرانيه الكثيره المتفرقه يومئذٍ شيعاً وأحزاباً(١).

كان نصارى شبه الجزيره يجادلون محمداً على اختلاف نحلهم على أساس مذاهبهم. فكانوا يقولون إن المسيح هو الله، ويقولون هو ولد الله، ويقولون هو ثالث ثلاثة. وكان القائلون بألوهيته يحتجون بما سبق بيانه.

ويحتج القائلون بأنه ولد الله بأنه لم يكن له أب يُعلم، وأنه تكلم فى المهد صبيماً ممّا لم يقع لأحد من بنى آدم. ويحتج القائلون بأنه ثالث ثلاثة بأن الله يقول:

أمرنا وخلقنا وقضينا، ولو كان واحداً لقال: أمرت وخلقت وقضيت. وكان محمداً يستمع لهم جميعاً ويجادلهم بالتى هى أحسن. وهو لم يكن فى جدالهم يشتد شدته فى جدال المشركين وعُباد الأصنام، بل كان يحاجهم بالوحى من طريق المنطق ومن كتبهم وما جاء فيها(٢).

ص: ٤٨

١- (٢) الفصل فى الملل والأهواء والنحل، لأبى محمّد بن على بن أحمد بن حزم الظاهرى: ٤٨/١ (الكلام عن النصارى) ط بيروت دار المعرفه ١٣٩٥ ه ط ٢.

٢- (٣) راجع السيره النبويه لابن هشام: ٥٧٥-٥٧٨ انظر (أمر السيد والعاقب وذكر المباهله) ط بيروت دار الوفاق: ١٣٧٥ ه، وحادثه المباهله كانت احتجاجاً صارخاً من النبى صلى الله عليه وآله تجاه معتقدات النصارى المنحرفه.

فَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَ قَالَتِ الْيَهُودُ وَ النَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ١ .

وَقَالَ تَعَالَى: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَ قَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَاوَاهُ النَّارُ وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَ إِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢ .

وَقَالَ جَلَّ شَأْنُهُ: وَ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَ لَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَ إِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٣ .

تَقُولُ الْمَسِيحِيَّةُ بِالتَّثْلِيثِ وَبِأَنَّ عِيسَى ابْنَ اللَّهِ، وَالإِسْلَامُ يَنْكُرُ إِنْكَارًا صَرِيحًا بَاتًا أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ وَلَدٌ: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ * وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ٤ . مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ ٥ وَ إِنْ مَثَلٌ عِيسَى عِنْدَ

اللَّهُ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۝ ٢ ، فمهما يكن للصورة المسيحية في التثليث من جمال فهي ليست من الحق عند محمّد في شيء. إنّما الحق هو الله وحده، وحده لا شريك له لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ * وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ فلا عجب إذاً أن تكون بين محمّد ونصارى عهده تلك المجادله بالتي هي أحسن، وأن يؤيد الوحي محمّداً بما تلوت من الآيات.

ومسأله أخرى يختلف فيها الإسلام والنصرانية. وكانت مثار جدل في عهد النبي، هي مسأله صلب عيسى ليشتري بدمه خطايا الخلق، فالقرآن صريح في نفى أنّ اليهود قتلوا المسيح أو صلبوه، إذ يقول تعالى: وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ٣ .

ولئن كانت فكره افتداء المسيح بدمه خطايا إخوته بنى الإنسان جميله لا ريب ويستحق ما كتب فيها دراسه من نواحيه الشعريه والخليه والنفسيه، فإنّ المبدأ الذي قرره الإسلام من أن لا- تزرر وازره وزر أخرى وأن كل امرئ يوم القيامة مجزئ بأعماله إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ، يجعل التقريب المنطقي بين العقيدتين غير ممكن، ويجعل منطق الإسلام من الدقه بحيث لا تجدى معه محاولات التوفيق مع التناقض الواضح بين فكره الافتداء وفكره

الجزء الذاتى لا يَجْزَى والدَّ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً ١ .

هل فكر أحد من النصارى يومئذٍ فى هذا الدين الجديد وفى إمكان التوفيق بين فكره التوحيد فيه وبين ما جاء به عيسى؟! نعم، وآمن به منهم كثيرون. لكن الروم الذين اغتبط المسلمون بنصرهم واعتبروه نصراً للأديان الكتابيه، ولم يُكَلِّف سادتهم أنفسهم مؤونه البحث فى الدين الجديد، ولم يلبثوا أن نظروا للأمر من ناحيته السياسيه وإن فكروا فيما يصيب ملكهم إذا ماتم للدين الجديد الغلب. لذلك بدأوا يأترون به وبأهله حتى أرسلوا جيشاً عرمرماً عدته مئة ألف فى روايه ومئتا ألف فى روايه أخرى، ممياً أدى إلى غزوه تبوك، انسحب الروم فيها أمام المسلمين الذين خرجوا ومحمّد على رأسهم لدفع عدوان لم يكن له ما يسوّغه (١).

من يومئذٍ وقف المسلمون والنصارى موقف خصومه سياسيه حالف النصر فيها المسلمين قروناً متتاليه امتدت امبراطوريتهم أثناءها إلى الأندلس غرباً وإلى الهند والصين شرقاً، وآمنت أكثر أجزاء هذه الأمبراطوريه بالدين الجديد واستقرت فيها لغته العربيه. فلما آن لدوره التاريخ أن تدور (٢)، طرد النصارى المسلمين من الأندلس وحاربوهم الحروب الصليبيه وأخذوا أنفسهم بالظعن أفبح الظعن على دينهم ونيهم، ظعن كلّه الفحش والكذب والافتراء. ولقد بلغوا من الظعن على محمّد عليه السلام ما بلغ هو فى أحاديثه وما بلغ القرآن فى الوحي الذى نزل عليه من الارتفاع بعيسى عليه السلام إلى المكان

ص: ٥١

١- (٢) تاريخ الطبرى: ١٨١/٢، ط بيروت دار الكتب العلميه ١٤٠٨ هـ، ط ٢.

٢- (٣) لم تكن حركه التاريخ قائمه على المسار الجبرى، وإنما تدخل الإراده الإنسانيه والقيم كعاملين مؤثرين فى بناء الحضاره.

الذى اختاره الله له.

جاء فى موسوعه (لاروس الفرنسيه) خلال العرض لآراء كُتاب المسيحيه إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر ممّن نالوا من محمّد شرّ النيل ما يأتى: «بقى محمّد مع ذلك ساحراً ممعناً فى فساد الخلق، لصّ نياقٍ، كَرديناً لم ينجح فى الوصول إلى كرسى البابويه، فاخترع ديناً جديداً ليقتحم من زملائه، واستولى القصص الخيالى والماجن على سيرته(١)، وسيره باهومييه (محمّد) تكاد تقيم أدباً من هذا النوع. وقصه محمّد التى نشر رينو وفرانسيسك ميشيل سنه (١٣٨١ م) تصوّر لنا الفكره التى كانت لدى أهل العصور الوسطى عنه. وفى القرن السابع عشر نظر بيل فى تاريخ القرآن نظره تاريخيه، مع ذلك ظلّت مقررات ظالمه ثابتة فى نفسه عنه. على أنّه يعترف بالرغم من ذلك بأنّ النظام الخلقى الذى أقام لا يختلف عن النظام المسيحى لولا القصاص وتعدد الزوجات».

وإنّ واحداً من المستشرقين الذين عرضوا لحياه محمّد بشيءٍ من الانصاف - ذلك هو الكاتب الفرنسى إميل درمنجهم - ليذكر من هذا الذى كتب إخوانه فى الدين، حين قال: «لما نشبت الحرب بين الإسلام والمسيحيه اتسعت هوّه الخلف وسوء الفهم بطبيعته الحال وازدادت حده(٢)، ويجب أن يعترف الإنسان بأنّ الغربيين كانوا السابقين إلى أشدّ الخلاف. فمن

ص: ٥٢

-
- ١- (١) راجع موسوعه لاروس الفرنسيه، ماده محمّد: ١٨٣.. ١٨٣، Rengwlteet Franciak, Mahomet. Paris,
 - ٢- (٢) حياه محمّد صلى الله عليه و آله لأميل درمنجهم.. Emile Der Menghem, the Life of mahomed.D.D١٣٥, Newyork Dial Press١٩٣٠ U.S.A

البيزنطيين من أوقروا الإسلام احتقاراً من غير أن يكلفوا أنفسهم - فيما خلا جان داماسين - مؤونه دراسته. ولم يحارب الكتّاب والنظامون مسلمى الأندلس إلا بأسخف المثالب. فقد زعموا محمّداً لص نياق، وزعموه متهاكماً على اللهو، وزعموه ساحراً، وزعموه رئيس عصابه من قُطاع الطرق، بل زعموه قساً رومانياً مُغيظاً مُحنقاً أن لم ينتخب لكرسى البابويه.. وحسبه بعضهم إلهاً زائفاً يقرب له عباده الضحايا البشريه. وإن جبيردُنوجن نفسه، وهو رجل جدّ، ليذكر أنّ محمّداً مات فى نوبه سكر بيّن، وأن جسده وجد ملقى على كوم من الروث وقد أكلت منه الخنازير، وذلك ليفسّر السبب الذى من أجله حرّم الخمر وحرّم لحم ذلك الحيوان... وذهبت الأغنيات إلى حدّ أن جعلت محمّداً صنماً من ذهب وجعلت المساجد الإسلاميه برابى ملأى بالتماثيل والصور!! وقد تحدّث واضح أغنيه انطاكيه حديث من رأى صنم «ماحوم» مصنوعاً من ذهب ومن فضه خالصين وقد جلس فوق فيل على مقعد من الفسيفساء. أمّا أغنيه رولان التى تصوّر فرسان شارلمان يُحطّمون الأوثان الإسلاميه فتزعم أن مسلمى الأندلس يعبدون ثالوثاً مكوناً من ترفاجان وماهوم وأبولون. وتحسب «قصه محمّد أنّ الإسلام يُبيح للمرأه تعدد الأزواج!»^(١).

«وقد ظلّت حياه الأحقاد والخرافات قويه مُتشبته بالحياه. فمنذ رودلف دُلوهيم إلى وقتنا الحاضر أقام (نيكولاد كيز) و (يفس)،

ص: ٥٣

١- (١) راجع موسوعه لاروس مادّه محمّد: ١٨٣.

و (مراتشى)، و (هُوتَنَجِر) و (بيلياندر) و (بريدو) وغيرهم فوصفوا محمداً بأنه دجال، والإسلام بأنه مجموعه الهرطقات كلها، وأنه من عمل الشيطان، والمسلمين بأنهم وحوش، والقرآن بأنه نسيج من السخافات. وقد كانوا يعتذرون عن الحديث الجدد في أمر هذا مبلغ سخافته (١). مع ذلك فإن بيير المحترم (فترابل) مؤلف أول رساله غريبه ضد الإسلام قد ترجم القرآن في القرن الثاني عشر إلى اللاتينيه (٢). وفي القرن الرابع عشر كان بيير باسكال من الذين توسعوا في الدراسات الإسلاميه. وقد وصف إنوسان الثامن محمداً يوماً بأنه عدو المسيح. أما القرون الوسطى فلم تكن تحسب محمداً إلّا هرطيقاً. وكان لريمون ليون في القرن الرابع عشر، ولغليوم بستل في القرن السادس عشر، ولرولان وجانيه في القرن الثامن عشر، وللقسيس دبرجلى ولرينان في القرن التاسع عشر أحكام وآراء مختلفه... على أن الكونت بونفلييه وشول وكوسان دبرسفال ودوزى وسبرنجر وبارتلمى سانتلبير ودكاسترى وكارليل وغيرهم يظهرون على وجه الإجمال إنصافاً للإسلام ونبئيه ويشيدون في بعض الأحيان بهما. مع ذلك فإن دروتى يتحدث في سنه (١٨٧٦ م) عن محمداً قائلاً: «هذا الأعرابي المنافق القذر» (٣) كما طعن عليه فوستر من قبل ذلك في سنه (١٨٢٢ م): «وما يزال للإسلام حتى اليوم محاربون متحمسون».

ص: ٥٤

١- (١) الدراسات العربيه في ألمانيا ألبرت ديتريش: ١٤.

٢- (٢) الدراسات العربيه والإسلاميه روى بارت: ٩. وراجع: W,R - ٦٣١ , ٩٢٩١ siraP temohaM ed eial ;

mehgnemreD elimD

٣- (٣) راجع موسوعه لاروس، مادّه محمداً وإسلام وقرآن.

أرأيت هذا الحضيض الذى هوت إليه الطائفه من كتاب الغرب؟ أرأيت إصرارهم، رغم مرّ القرون، على الضلال وعلى إثارة العداوه والبغضاء بين أبناء الإنسانيه؟! ومن هؤلاء من جاءوا فى العصور التى نسميها عصور العلم والبحث والتفكير الحرّ وتقدير الأخاء بين الإنسان والإنسان. وبرغم أولئك المنصفين إلى حدّ، ممّن أشار إليهم درمنجم(١)، وهو منهم، ومنهم من أقرّ بصدق إيمان محمّد بالرساله التى ألقى الله إليه تبليغها من طريق الوحي، ومنهم من أشاد بعظمه محمّد الروحيه وبسمو خلقه ورفع نفسه وجمّ فضائله، ومن صوّر ذلك فى أقوى أسلوب وأروع(٢) - برغم ذلك - ما يزال الغرب يوجّه للإسلام ونبئه أشدّ المطاعن، وتبلغ منه الجراه حتى يبيث المُبشّرين فى أنحاء البلاد الإسلاميه يذيعون مثالبهم الوضيعه ويحاولون صرف المسلمين عن دينهم إلى المسيحيه.

يجب لذلك أن نبحت عن السبب الذى ترجع إليه هذه الخصومه الهوجاء وهذه الحرب العنيفه التى تُثيرها المسيحيه على الإسلام. وعندنا أنّ جهل الغرب بحقيقه الإسلام وبسيره النبىّ فى مقدمه ما يدعو إلى هذه الخصومه. والجهل لا ريب من أعقد أسباب الجمود والتعصّب وأشدّها استعصاءً. ولقد تراكم هذا الجهل على مرّ القرون وقامت له فى نفوس الأجيال تماثيل وأوثان يحتاج تحطيمها إلى قوه روحيه كبرى كقوه الإسلام

ص: ٥٥

-
- ١- (١) راجع حياه محمّد لأميل درمنجم ٠٣٩١ .pp demoham fo efiL ehT ٥٣١ sserP laiD kroYweN
mehgneM reD elimE
- ٢- (٢) منهم السير وليم موير فى كتاب حياه محمّد. fom ١٤-٢٤ .pp Sir william Mair, Life of Mohammed.
١٩١٢ original sources den burgh John Grant.

أول ظهوره. على أننا نحسب أن ثمّة سبباً غير الجهل قد دفع أهل الغرب إلى هذا التعصّب، وإلى إثارة الحرب الضروس الشعواء، التي أثاروها ويشيرونها الوقت بعد الوقت على الإسلام وعلى المسلمين. وليس ينصرف ذهننا إلى ما قد يدور بالخاطر من أقدار السياسة وحبّ الظفر بالشعوب لاستغلالها، فتلك في اعتقادنا نتيجة وليست سبباً لهذا التعصّب المستعصي حتى على العلم وعلى بحوثه.

أمّا السبب في رأينا فيرجع إلى أنّ المسيحية وما تدعو إليه من الزهد في الحياه واعتزال العالم ومن العفو والمغفرة ومن المعاني النفسانية الساميه ليست ممّا يلائم طبيعه الغرب الذي عاش ألوف السنين على دين تعدد الآلهه، والذي يدعوه مركزه الجغرافي إلى حياه الكفاح لمغالبه الزمهير والضعف وسوء الحال. فإذا قضت الظروف التاريخيه عليه بأن يعتنق المسيحيه فلا مفرّ له من أن يسبغ عليها ثوب الكفاح، وأن يخرجها بذلك عن طبيعتها السمحه الجميله، وأن يفسد فيها هذا التناسق الروحي الذي يجعل منها حلقة في سلسله الوحده التي أتّم الإسلام، والتي تؤاخى بين الروح والجسد وتزواج بين العاطفه والعقل، وتسلك الفرد والإنسانيه جميعاً في نظام الكون على أنّهم بعض منه مُتسق وإيّاها في لا نهايه الزمان والمكان. هذا في رأينا هو مرجع السبب في تعصّب الغرب ومرجع السبب في موقفه من الإسلام، هذا الموقف الذي تجافت الحبشه عنه حين احتمى المسلمون بها أول ظهور النبيّ.

وإلى هذا السبب في رأبي يرجع إغراق الغربيين وغلوهم في التدنّين وفي الإلحاد جميعاً إغراق تعصّب وكفاح لا يعرف الهواده ولا يعرف التسامح. وإذا كان التاريخ قد عرف منهم قديسين احتدوا في حياتهم مثال

السيد المسيح والحواريين، فإن التاريخ أيضاً قد عرف أنّ حياه أمم الغرب كانت أبداً حياه نضال وكفاح وحروب داميه باسم السياسه أو باسم الدين، وعرف أن بابوات الكنيسه وأرباب السلطه الزمنيه كانوا فى نزاع دائم يغالب بعضهم بعضاً، فيتغلب هذا يوماً ويتغلب ذاك يوماً آخر. ولما كان الكفاح فى القرن التاسع عشر قد تغلبت فيه السلطه الزمنيه، حاولت هذه السلطه أن تقضى على الحياه الروحيه باسم العلم قضاء مُبرماً عرفت اليوم بعد جهاد طويل أن لا سبيل إليه وأنه مستحيل. والصيحه تعلق اليوم من جوانب الغرب المختلفه يريد أهله حياه روحيه أضاعوها فهم يلتمسونها فى الشيوزوفيه(1)، وغير الشيوزوفيه. ولو أنّ المسيحيه كانت تلائم غرائز الكفاح التى تنشأ بحكم الطبيعه كجزء من حياه أهل الغرب لرأيتهم، وقد شعروا بعجز الفكره الماديه عن أن تلهمهم المدد الروحي، يعودون إلى الدين المسيحى الجميل دين عيسى بن مريم، إن لم يهدهم الله إلى الإسلام، ولما كانوا بحاجه إلى هذه الهجره إلى الهند وإلى غيرها يستوردون منها حياه روحيه يشعر الإنسان بالحاجه إليها حاجته إلى التنفس لأنها بعض طبعه، بل لأنها بعض نفسه وكيانه.

وقد عاون الاستعمار الغربى أهله على الاستمرار فى الحمله التى أثاروا على الإسلام وعلى محمّد، ودعاهم ليقولوا ما قال أهل مكّه حين أرادوا أن يحمّلوا النصرانيه عار هزيمه هرقل والروم أمام فارس. فقد قالوا: وما يزال الكثيرون منهم يقولون إنّ الإسلام هو السبب فى انحطاط الشعوب الآخذة به وفى خضوعهم لغيرهم. وهذه فريه يكفى لدحضها أن يذكر قائلها أنّ الشعوب

ص: ٥٧

١- (١) الشيوزوفيه: الشيوصوفيه: تعنى بأن معرفه الله تعالى تتم عن طريق الكشف القلبي أو بالتأمل الفلسفى، راجع موسوعه المورد لمنير البعلبكي: ٢٠١/٩ ط بيروت دار العلم للملايين ١٩٨٠ ط ١.

الإسلاميه ظَلَّتْ صاحبه الحضاره الغالبه وصاحبه السیاده على العالم المعروف كَلَّه قرونًا طويله متواليه، وأنها كانت محطَّ رحال العلم والعلماء وموئل الحريه التي لم يعرف الغرب إلّا من أمد قريب. فإذا أمكن أن ينسب انحطاط طائفه من الشعوب للدين الذي يؤمن به أهلها فلا يكون هذا الدين هو الإسلام وهو الذي حفّز بدو شبه جزيره العرب وأثارهم ومكّن لهم من حكم العالم.

على أنّ لهؤلاء الذين يُحمّلون الإسلام وزر انحطاط الشعوب الإسلاميه من العذر أن أضيف إلى دين الله شيء كثير لا يرضاه الله ورسوله واعتبر من صلب الدين ورُمى من ينكره بالزندقه، وندع الدين جانباً ونقف عند سيره صاحبه عليه السلام. فقد أضافت أكثر كتب السير إلى حياه النبي ما لا- يُصدّقه العقل ولا- حاجه إليه في ثبوت رساله. وما أضيف من ذلك قد اعتمد عليه المستشرقون واعتمد عليه الطاعنون على الإسلام ونبيّه وعلى الأمم الإسلاميه واتخذوه تكأثمهم(١) في مطاعنهم المثيره لنفس كلّ منصف. اعتمدوا عليه وعلى ما ابتدعوه من عندهم ومازعموا أنّهم يكتبونه على الطريقه العلميه الحديثه. هذه الطريقه التي تستعرض الحوادث والناس والأبطال فتصدر بعد ذلك حكمها عادلاً إن هي رأت لإصدار حكم محلاً. فإذا أنت وقفت عندما كتبه هؤلاء رأيت تمليه شهوه الجدل والتجريح مصوغاً في عبارته لا تخلو من براعه تستهوى اخوانهم في العقيدته إلى الظنّ بأنّ البحث العلمى المجرد

ص: ٥٨

١- (١) تكأثم: وهو ما يتكأثم عليه، المنجد في اللغة والأعلام ماده التكاثم: ٩١٥، ط بيروت.

والنزاع إلى الحقيقه وحدها يريد أن يستشفها من وراء كلّ الحجب، وهو الذى وجّه هؤلاء المتعصبين من الكُتّاب والمؤرخين، على أنّ السكينه التى ينزلها الله على نفوس الراضين من الناس - كُتّاباً وعلماء، قد أدت بآخريين من أحرار الفكر ومن المسيحيين ليكونوا أدنى إلى العدل وأحرص على النصفه(١).

ولقد قام بعض علماء المسلمين فى ظروف مختلفه بمحاولة دحضّ مزاعم أولئك المتعصبين من أبناء الغرب. واسم الشيخ محمّد عبده هو أنصع الأسماء فى هذا الصدد. لكنّهم لم يسلكوا الطريقه العلميه التى زعم أولئك الكُتّاب والمؤرخون الأوروبيون أنّهم يسلكون لتكون لِحجّتهم قوتها فى وجه خصومهم. ثمّ إنّ هؤلاء العلماء المسلمين والشيخ محمّد عبده فى مقدمتهم، قد اتّهموا بالالحد والكفر والزندقه فأضعف ذلك من حجّتهم أمام خصوم الإسلام(٢)، ولقد كان اتّهامهم هذا بعيد الأثر فى نفوس شباب المسلمين المتعلّم. شعر هؤلاء الشبان بأنّ الزندقه تقابل، فى نظر جماعه من علماء المسلمين، حكم العقل ونظام المنطق، وأنّ الالحد قرين الاجتهاد كما أنّ الإيمان قرين الجمود؛ فجزعت نفوسهم وانصرفوا يقرأون كتب الغرب

ص: ٥٩

١- (١) راجع تاريخ الطبرى: ٥٥٠/١ و ٨٩/٢ وتفسير الطبرى: ١٤٧/٢ ط بيروت دار الكتب العلميه ١٤١٢ هـ، ط ١، وأسباب النزول للواحدى، سوره النجم والتحرير والأحزاب وسيره ابن هشام: ١٦٤/١ و ١٦٧ و ١٨٧ و ٢٣٥ فإنّك سترى فى تلك المصادر كثيراً من الأخبار التى تشوّه الحقائق ويرفضها العقل وتُسىء للنبيّ صلى الله عليه وآله وتصطدم مع عقائدنا الإسلاميه الثابته فى الرساله والرسول. وسيأتى التعليق عليها فى المحل المناسب من فصول هذا الكتاب.

٢- (٢) أسلوب تكفير الخصوم لم يكن وليد الساعه وإتّما هو قديم ولازال يُمارَس ضدّ العاملين من أتباع مدرسه أهل البيت عليهم السلام، المدافعين عن الرساله وصاحبها صلى الله عليه وآله.

يلتمسون فيها الحقيقه، اقتناعاً منهم بأنهم لن يجدوها في كتب المسلمين.

وهم لم يفكروا في كتب المسيحيه والتاريخ المسيحي بطبيعته الحال؛ إنّما فزعوا إلى كتب الفلسفه يلتمسون في أسلوبها العلمى رىّ ما في نفوسهم من ظمأ مُحرق للحقّ، وفي منطقها ضياء للجذوه المقدّسه الكمينه في النفس الإنسانيه ووسيله إلى الاتّصال بالكون وحقيقته العليا. وهم واجدون في كتب الفلسفه وفي كتب الأدب الفلسفى وفي كتب الأدب نفسه الشىء الكثير ممّا يأخذ الإنسان عن نفسه، لروعه أسلوبها ودقه منطقها وما يظهر فيها من صدق القصد وخالص التوجه إلى المعرفه ابتغاء الحقّ. لذلك انصرفت نفوسهم عن هذا التفكير فى الأديان كلّها وفي الرساله وصاحبها، لأنّهم لم يريدوا أن تثور بينهم وبين الجمود حرب لا ثقه لهم بالانتصار فيها، ولأنّهم لم يدركوا ضروره الاتّصال الروحى بين الإنسان وعوالم الكون اتصالاً يرتفع به الإنسان إلى أرقى مراتب الكمال وتتضاعف به قوته المعنويه.

انصرف هؤلاء الشبان عن التفكير فى الأديان كلّها وفي الرساله الإسلاميه وصاحبها، وزادهم انصرافاً ما رأوا العلم الواقعى والفلسفه الواقعيه (الوضعيه) يقرانه من أنّ المسائل الدينيه لا تخضع للمنطق ولا تدخل فى حيز التفكير العلمى، وأنّ ما يتصل بها من صور التفكير التجريدى (الميتافيزيقى) ليس هو أيضاً من الطريقه العلميه فى شىء. ثمّ إنّهم رأوا الفصل بين الكنيسه والدوله واضحاً صريحاً فى البلاد الغربيه، ورأوا البلاد التى تُقرر دساتيرها أنّ ملكها هو حامى البروتستانتيه أو الكثلكه، أو تقرر أنّ دين الدوله الرسمى المسيحيه، لا تقصد من ذلك إلى أكثر من مظاهر الأعياد

والمواسم وما يتصل بها؛ فازدادوا انخراطاً في هذا التفكير العلمى وحرصاً على الأخذ منه ومما يتصل به من فلسفه وأدب وفن بأوفر نصيب. فلما آن لهم أن ينتقلوا من الدرس إلى الحياه العمليه اشتغلوا بها وازدادوا انصرافاً عما انصرفوا من قبل عنه، وظلّ اتجاههم الفكرى فى تياره الأول ينظر إلى الجمود العقلى مشفقاً مزدرياً، وينهل من ورد التفكير الغربى والفلسفه الغربيه، فيجد فيهما لذّه للناهلين، فيزداد بهما إعجاباً وعلى ما نهل صدر الشباب منهما حرصاً.

وليس ريب فى أنّ الشرق اليوم بحاجه أشدّ الحاجه إلى النهل من ورد الغرب فى التفكير وفى الأدب والفن. فقد قطع ما بين حاضر الشرق الإسلامى وماضيه قرون من الجمود والتعصّب غشّت على تفكيره السليم القديم بطبقه سميكه من الجهل وسوء الظنّ بكلّ جديد. فلا مفرّ لمن يريد أن يصهر هذه الطبقة من الاستعانه بأحدث صور التفكير فى العالم. ليستطيع من هذه السبيل أن يصل بين الحاضر الحى وثره الماضى وتراثه العظيم.

ومن الحقّ علينا للغرب أن نقول: إنّ ما يقوم به علماءه اليوم من بحوث نفيسه فى تاريخ الدراسات الإسلاميه والدراسات الشرقيه قد مهّد لأبناء الإسلام والشرق أن يتزوّدوا من هذه البحوث فى تلك الدراسات وأن يكونوا أكبر رجاء فى الاهتداء إلى الحقّ. فهم أقرب بطبعهم إلى حسن ادراك الروح الإسلامى والروح الشرقى. ومادام التوجيه الجديد قد بدأ فى الغرب، فواجب عليهم أن يتابعوه وأن يصححوا أغلاطه وأن يثوا فيه الروح الصحيح الذى يعيده إلى الحياه ويصله بالحاضر، لا كمجرد دراسه وبحث بل كميراث

روحي وعقلي يجب أن يتمثله الوارثون، وأن يضيفوا إليه وأن يزيدوا سناً(١) ضيائه بما يزيد الحقيقه الكامنه فيه ضياءً ونوراً.

وقد توفّر منهم كثيرون على هذه البحوث يقومون اليوم بها على الطريقه العلميه الحديثه، والمستشرقون أنفسهم يُقدّرون لهم ذلك ويُشيدون بفضلهم فيه.

وبينا يقوم هذا التعاون العلمى الجدير بأن يؤتى خير الثمرات، إذا بنشاط رجال الكنيسه المسيحيه لا يفتر في الطعن على الإسلام، وعلى محمّد طعنًا لا يقل عمّا تلوت منه فيما سبقت الإشاره إليه، وإذا الاستعمار الغربى يؤيد بقوته أصحاب هذه المطاعن باسم حريه الرأى(٢)، مع أنّ أصحاب هذه المطاعن، قد أُجّلوا عن بلادهم وحيل بينهم وبين ما يسمّونه تثبيت الإيمان فى نفوس إخوانهم فى الدين، وإذا هذا الاستعمار يؤيد كذلك دعاه الجمود من المسلمين. وكذلك تضافر العمل على تأييد ما دُسّ على الإسلام، ما يبرأ الإسلام منه(٣)، وعلى سيره الرسول من خرافات لا يسيع العقل ولا يقبل

ص: ٦٢

١- (١) سنا: لمع، المنجد فى اللغه والأعلام، ماده سنا: ٣٥٩.

٢- (٢) لا يُعد الكفر فى الدين واشاعه الفساد فى الأرض من الحريه فى منظورها الإسلامى، وإنّما لها إطارها الخاص الذى يميّزها عن الحريه فى مفهومها الغربى.

٣- (٣) مثلما تروّجه دائره المعارف الإسلاميه الألمانيه للنيل من القرآن الكريم بأسلوبها الخبيث الذى يعمّق الفرقه بين المسلمين قائله: (وقد أثّرت تهمة التحريف فيما وقع جدل بين الفرق الإسلاميه المختلفه، فالشيعة يصوّرون على أنّ أهل السنّه قد حذفوا وأثبتوا آيات فى القرآن بُغيه محو أو تفنيد ما جاء من الشواهد معزّزاً لمذهبهم وقد كال أهل السنّه بطبيعته الحال نفس التهمه للشيعة) دائره المعارف الإسلاميه: ٦٠٨/٤. ط بيروت دار الفكر. أمّا المتتبع لآراء علماء المدرستين سيجدها تنفى مسأله التحريف فى القرآن المتداول، راجع الموقف الإسلامى من أسطوره تحريف القرآن الكريم الصادر عن المجمع العالمى لأهل البيت عليهم السلام والبيان للسيد الخوئى قدس سره.

الذوق، وعلى تأييد الطاعنين على الإسلام وعلى محمّد بما دُسّ على الإسلام وعلى سيره الرسول.

أتاحت لي ظروف حياتي العمليه أن أرى ذلك كلّ في مختلف بلاد الشرق الإسلامي، بل في البلاد الإسلاميه كلّها، وأن أتبيّن ما يقصد إليه من القضاء على الروح المعنويه في هذه البلاد، بالقضاء على حريه الرأى وحرية البحث، ابتغاء الحقيقه، وشعرت بأنّ عليّ واجباً أقوم به في هذا الموضوع، لإفساد الغايه التي ترمى هذه الخطه إليها، والتي تضرّ الإنسانيه كلّها ولا يقف ضررها عند الإسلام والشرق. وأى أذى يصيب الإنسانيه أكبر من العقم والجمود، يُصيب نصفها الأ-كبر والأ-عرق في الحضاره على حقب التاريخ! ولذلك فكرت في هذا وفكرت طويلاً، وهداني التفكير آخر الأمر إلى دراسه حياه «محمّد»، صاحب الرساله الإسلاميه، وهدف مطاعن المسيحيه من ناحيه، وجمود الجامدين من المسلمين من الناحيه الأ-خرى، على أن تكون دراسه علميه على الطريقه الغربيه الحديثه(1)، خالصه لوجه الحقّ، ولوجه الحقّ وحده.

بدأت أراجع تاريخ «محمّد»، وأعيد النظر في سيره ابن هشام، وطبقات ابن سعد، ومغازى الواقدي، وعدت إلى كتاب سيّد أمير عليّ (روح الإسلام).

ثمّ حرصت على أن أقرأ ما كتب بعض المستشرقين، فتلوت كتاب درمنجم، وكتاب واشنطن (إرفنج)، ثمّ انتهزت فرصه وجودى في الأقصر في شتاء سنه (١٩٣٢ م) وبدأت أكتب. ولقد ترددت يومئذٍ في أن أجعل البحث الذى أطلع

ص: ٦٣

١- (١) المنهج القرآنى في فهم التاريخ والتعامل معه، له ما يميّزه عن المنهج الغربى الذى يعتمد المنهج التجريبي في البحث عن الحقائق، كما أنّ لكل من المنهجين آثارهما ونتائجهما المختلفه فيما بينهما على ذهن الباحث.

قرآني به من وضعي أنا خيفه ما قد يقوم به أنصار الجمود، والمؤمنون بالخرافات، من ضجّه تفسد عليّ ما أريد. لكنّ ما لقيت من إقبال وتشجيع من طائفه شيوخ المعاهد، وما أبدى لي بعضهم من ملاحظات تدل على العناية بالبحث الذي أقوم به، جعلني أفكر تفكيراً جدياً في تنفيذ ما اعترمت من كتابه حياه محمّد على الطريقة العلميه الحديثه كتابه مفضّله، ودعاني للتفكير في أمثل الوسائل لتمحيص السيره تمحيصاً علمياً جهد ما أستطيع.

ولقد تبينّت أنّ أصدق مرجع للسيره إنّما هو القرآن الكريم. فيه إشاره إلى كلّ حادث من حياه النبيّ العربيّ يتّخذها الباحث مناراً يهتدى به في بحثه ويُمحصّ على ضيائه ماورد في كتب السنّه وما جاء في كتب السير المختلفه.

وأمعنت أريد أن أقف على كلّ ماورد في القرآن متصلاً بحياه النبيّ، فإذا معونه صادقه في هذا الباب يقدّمها إليّ الأستاذ أحمد لطفى السيّد، الموظف بدار الكتب المصريه، هي مجموعه وافيه مبوّبه لآيات القرآن المتصله بحياه من أوحى الكتاب الكريم إليه. ورحت أدقق في هذه الآيات، فرأيت أن لا بدّ من الوقوف على أسباب نزولها، وأوقات هذا النزول ومناسباته. وأعترف بأنّي، برغم ما بذلت في ذلك من جهد، لم اوفق إلى كلّ ما أردت منه. فكتب التفسير تُشير أحياناً إليه وتهمل هذه الإشاره في أكثر الأحيان.

ثمّ إنّ كتاب (أسباب النزول) للواحدى، وكتاب (الناسخ والمنسوخ) لأبى النصر، إنّما تناولا هذا الموضوع الجليل الجدير بكلّ تدقيق واستيفاء تناولاً موجزاً. على أنّى وقفت فيهما وفيما رجعت إليه من كتب التفسير على مسائل عدّه استطعت أن أمحصّ بها ما ورد في كتب السيره، وإن وجدت فيهما وفي كتب التفسير نفسها أشياء جديره بمراجعه العلماء المُتبحّرين في علوم الكتاب والسنّه وتحقيقهم من جديد.

ولمّا تقدم بى البحث بعض الشيء ألفت المشوره الصادقه تصل إليّ من كلّ صوب، ومن ناحيه الشيوخ أكثر من كلّ ناحيه أُخرى بطبيعته الحال.

وكانت المعونه الكبرى معونه دار الكتب المصريه، ورجالها الذين أمّدوني من ألوان المعونه، بما لا يفي الشكر بحسن تقديره. ويكفى أنّ أذكر أنّ الأستاذ عبدالرحيم المصحح بدار الكتب، كان يكفيني مؤونه الذهاب إلى الدار في كثير من الأحيان، ويستعير لى ما أريد استعارته من الكتب، مشمولاً بعطف مدير الدار وكبار القائمين بالأمر فيها، وأن أذكر أنّى فى كلّ مره ذهبت إلى الدار كنت أجد أجمل العون فى البحث عما أريد البحث فيه من موظفى الدار كباراً وصغاراً، من عرفت منهم ومن لم أعرف. ثمّ إنّى كانت تستغلق عليّ بعض المسائل أحياناً، فأفضى إلى من آنس فيه المعرفه من أصدقائى بما استغلق عليّ، فأجد فى كثير من الأحيان خير العون. وجدت ذلك غير مره عند الأستاذ الأكبر الشيخ محمّد مصطفى المراغى، ووجدته عند صديقى الضليح جعفر باشا ولى الذى أعارنى عدّه كتب كصحيح مسلم وتواريخ مكّه، ودلّنى على غير مسأله من المسائل وهدانى إلى موضعها. وقد أعارنى صديقى الأستاذ مكرم عبيد كتاب المستشرق السير وليم موير (حياه محمّد)، وكتاب الأيب لامنس (الإسلام). هذا إلى ما وجدت من عون فى مؤلفات المعاصرين القيمه، ككتاب (فجر الإسلام) للأستاذ أحمد أمين، و (قصص الأنبياء) للأستاذ عبدالوهاب النجار، و (الأدب الجاهلى) للدكتور طه حسين، و (اليهود فى بلاد العرب) لإسرائيل ولفنسن، وغير هذه من كتب المعاصرين كثير ذكرته فى بيان المراجع القديمه والحديثه، التى استعنت بها على وضع هذا الكتاب.

ولقد كنت كلّما ازددت توسّعاً فى البحث أرى مسائل تنجم أمامى

وتستدعى التفكير، ومزیداً من البحث لحلّها، وكما عاونتني كتب السيره وكتب التفسير في الاهتداء إلى غايه من تفكيري أطمئن لها، كذلك عاونتني كتب المستشرقين في الاهتداء إلى غايه أطمئن لها. على أنني رأيتني مضطراً في كالمواقف لأقصر بحثي في حدود حياه «محمد» نفسه مالم أضطرّ إلتناول مسائل أخرى متصله بهذا البحث اضطراراً. ولو أنني أردت أن أبحث كل ما اتصل بهذه الحياه الفيّاضه العظيمة، لأحتاج الأمر إلى وضع مجلدات عدّه في حجم هذا الكتاب. ويحسن أن أذكر أن (كوسان دبرشيفال) وضع ثلاثه مجلدات، بعنوان (رساله في تاريخ العرب) جعل المجلدين الأولين منها في تاريخ قبائل العرب وحياتها، وجعل الثالث عن محمد وخليفته الأولين أبي بكر وعمر. وطبقات ابن سعد تقع في مجلدات كثيره يتناول جزؤها الأول حياه محمد، وسائر أجزائها حياه أصحابه. ولم يكن غرضي أول ما بدأت البحث ليتجاوز حياه محمد، فلم أرد أثناءه أن أتركه يتشعب فيحول ذلك بيني وبين الغايه التي إليها قصدت.

وشيء آخر كان يمسكني في حدود هذه الحياه، ذلك روعه جلالها وباهر ضيائها جلالاً وضياءً يتوارى دونهما كل ما سواهما. فما كان أعظم أبابكر! وما كان أعظم عمر! إذ كان كل منهما في خلافته علماً يحجب من سواه (1)؛ وكم كان للسابقين الأولين إلى صحبه محمد من عظمه ثبتت على

ص: ٦٦

١- (١) التصعيد ببعض الصحابه فوق الواقع وخلافاً للتاريخ يفضى إلى فقدان الثقة بالتاريخ نفسه ويجعل منه أداءه تضليل وتوظيف بيد الحكام لا أداء قوه وعطاء بيد الأمه ووسيله للهدايه والاقتداء. وقد حصل هذا التصعيد في حقه تاريخيه خاصيه وذلك حين قُور الحكام تهميش دور أهل البيت عليهم السلام في الحياه الإسلاميه وفي الثقافه التي اتّخذت السنّه شعاراً لها واختفت وراءها سنه الصحابه بدل سنّه النبي صلى الله عليه وآله. لمعرفه حجم التضليل التاريخي الذي حصل للمؤلف نفسه لاحظ ما صرّح به الخليفان أثناء حكمهما حين -

الأجيال وهي بعد ممّا تفتاخر به الأجيال! لكنّ هؤلاء جميعاً كانوا يستظلون أثناء حياة النبي بجلال عظمته ويستضيئون بياهر لألانه. فليس يسيراً على من يبحث في سيره الرسول أن يدعها لشيء سواها. وهو أشدّ بذلك شعوراً إذا تناول البحث على الطريقة العلميه الحديثه على نحو ما حاولت أن أفعل، هذه الطريقه التي تجلو عظمه محمّد على نحو يبهّر العقل والقلب والعاطفه والفؤاد جميعاً ويغرس فيها من الإجلال للعظمه والإيمان بقوتها ما لا يختلف فيه المسلم وغير المسلم.

وأنت إذا طرحت جانباً أولئك المتعصّبين الحمقى الذين جعلوا النّيل من محمّد دأبهم كالمبشرين وأشباههم، فإنّك واجد هذا الإجلال للعظمه والإيمان بقوتها في كتب العلماء المستشرقين واضحين جليّين، عقد كارليل في كتابه «الأبطال» فصلاً عن محمّد صوّر فيه الجذوه الإلهيه المقدّسه، التي أوحى إلى محمّد ما أوحته إليه، فصوّر العظمه في جلال قوتها. وميؤير، وإرفنج، وسبرنجر، وفيل، وغيرهم من المستشرقين العلماء، قد صوّر كلّ واحد منهم عظمه محمّد تصويراً قوياً، وإن وقف هذا أو ذاك منهم عند مسائل اعتبرها مأخذ على صاحب الرساله بالإسلام، لغير شيء إلّا أنّه لم يمتحنها ولم يمتحصها التمهيص العلمى الدقيق، ولأنّه اعتمد فيها على ما ورد في كتاب، أو في آخر من كتب السيره، أو من كتب التفسير، متناسياً أن أوّل كتب السيره إنّما كتبت بعد قرنين من عصر محمّد، دُست أثناءهما على حياته وعلى تعاليمه إسرائيليات كثيره، ووُضعت أثناءهما ألوف الأحاديث المكذوبه. ومع أنّ هؤلاء المستشرقين يقرّرون هذه الحقيقه، فإنّهم لا يابون

مع ذلك تناسيها ليقرّروا اموراً، ينفىها شىء من التمحيص، على أنّها صحيحة، كمسأله الغرائق وكمسأله زيد وزينب، وكمسأله أزواج النبي، ممّا أُتيح لى امتحانه وتمحيصه فى هذا الكتاب.

لست مع ذلك أحسب أنّى أوفيت على الغايه من البحث فى حياه محمّد، بل لعلّى أكون أدنى إلى الحقّ إذا ذكرت أنّى بدأت هذا البحث فى العربيه، على الطريقه العلميه الحديثه، وأنّ ما بذلت فى هذه السبيل من مجهود لا يخرج هذا الكتاب عن أنّه بدايه البحث من ناحيه علميه إسلاميه فى هذا الموضوع الجليل. وإذا كان جماعه من العلماء والمؤرخين قد انقطعوا لبحث عصر من العصور، كما انقطع أولاً فى فرنسا لبحث عصر الثوره الفرنسيه، وكما انقطع غيره من العلماء لبحث عصر، أو عصور معينه من التاريخ فى مختلف الأمم، فحياه «محمّد» جديره بأن ينقطع لبحثها على طريقه علميه جامعيه أكثر من أستاذ، يتخصص فيها ويتوفر عليها. وليس يساورنى شكّ فى أنّ الانقطاع والبحث العلمى فى هذه الفتره القصيره، من حياه بلاد العرب، واتصالها بحياه الأمم المختلفه فى ذلك العصر، تفيض نتائجهما على العالم كله لا على الإسلام والمسلمين وحدهم أغزر الثمرات، وتجلو أمام العلم كثيراً من المسائل النفسيه والروحيه، فضلاً عمّا تفيض عليه من ضياء فى نواحي الحياه الاجتماعيه والخليقيه والتشريعيه ما يزال العلم يتردد أمامها متأثراً بهذا النزاع الدينى بين الإسلام والنصرانيه، وبهذه المحاولات العقيمه التى يقصد منها إلى (تغريب) الشرق أو تنصير المسلمين ممّا ثبت على الأجيال فشله واستحالتة وسوء أثره فى علاقات أجزاء الإنسانيه المختلفه.

وأذهب إلى أبعد ممّا تقدم، فأقول: إنّ هذا البحث جدير بأن يهدى الإنسانيه طريقتها إلى الحضاره الجديده التى تلتمسها. وإذا كانت نصرانيه

الغرب تستكبر أن تجد النور الجديد في الإسلام ورسوله، وتلمس هذا النور في ثيوزوفيه الهند وفي مختلف مذاهب الشرق الأقصى، فإن رجال هذا الشرق من المسلمين، واليهود والنصارى جميعاً خلقون أن يقوموا بهذه البحوث الجليله بالنزاهه والانصاف، اللذين يكفلان وحدهما الوصول إلى الحق. فالتفكير الإسلامى - على أنه تفكير علمى الأساس على الطريقه الحديثه، فى صله الإنسان بالحياه المحيطه به، وهو من هذه الناحيه واقعى بحث - ينقلب تفكيراً ذاتياً حين يتصل الأمر بعلاقه الإنسان بالكون، وخالق الكون، ويبدع لذلك فى النواحي النفسيه والنواحي الروحيه آثاراً قد يقف العلم بوسائله حائراً أمامها، لا يستطيع أن يثبتها أو ينفيها، وهو لذلك لا- يعتبرها حقائق علميه، ثم هى تظل مع ذلك قوام سعادته الإنسان فى الحياه ومقومه سلوكه فيها. فما الحياه؟! وما الكون؟! وما صله الإنسان بهذا الكون؟! وما حرصه على الحياه؟! وماهى العقائد المشتركه التى تبعث فى الجماعات القوه المعنويه، التى تضمحل بضعف هذه العقائد المشتركه؟! وما الوجود؟! وما وحده الوجود؟! ومامكان الإنسان من الوجود ووحدته؟! هذه مسائل خضعت للمنطق التجريدى ووجدت منه أدباً مترامى الأطراف. لكنك تجد حلها فى حياه «محمد» وتعاليمه أدنى لتبليغ الناس سعادتهم من هذا المنطق التجريدى، الذى أفنى فيه المسلمون قرونًا منذ العهد العباسى، وأفنى فيه الغربيون ثلاثه قرون منذ القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر، مما انتهى بالغرب إلى العلم الحديث (على نحو ما انتهى بالمسلمين فيما مضى) ثم وقف العلم فى الماضى، كما أنه مهدد اليوم بالوقوف دون اسعاد الإنسانيه.

ولا سبيل لدرك هذه السعاده إلاالعود لحسن ادراك هذه الصله الذاتيه بالوجود، وخالق الوجود فى وحدته التى لا تتغير سننها ولا يعتبر للزمان أو المكان فيها إلاوجود نسبي لحياتنا القصيره. وحياه «محمد» هى لا ريب

خير مثل لدراسه هذه الصله الذاتيه، دراسه علميه لمن أراد، ودراسه عمليه لمن تؤهله مواهبه أن يحاول هذا الاتصال في مراتب أوليه، لبعدها بينها وبين الصله الإلهيه التي أفاء الله على رسوله. وأكبر ظنّي أنّ كلتا هاتين الدراستين خليقتان، يوم يُتاح لهما التوفيق أن تنقذا عالمنا الحاضر من وثنيه تورّط فيها على اختلاف عقائده الدينيه، أو العلميه. وثنيه جعلت المال وحده معبوداً، وسخّرت كلّ ما في الوجود من علم وفن وخلق ومواهب لعبادته، والتسييح بحمده.

قد يكون هذا التوفيق ما يزال بعيداً. لكنّ طلائع القضاء على هذه الوثنيه التي تتحكم في عالمنا الحاضر، وتوجّه الحضاره الحاكمه فيه، تبدو واضحه لكلّ من تتبع سيره العالم وأحداثه. فعلاً هذه الطلائع تتواتر وتقوى دلالتها، إذا انجلت أمام العلم تلك المسائل الروحيه، بالتخصص لدراسه حياه «محمّد» النبيّ، وتعاليمه وعصره والثوره الروحيه التي انتشرت في العالم كأثر من آثاره.. وإذا أتاحت الدراسه العلميه والدراسه الذاتيه لقوى الإنسانيه الكمينه مزيداً من اتصال بنى الإنسان بحقيقه الكون العليا، كان ذلك الحجر الأوّل في أساس الحضاره الجديده.

وهذا الكتاب ليس إلّامحاولة بدائيّه في هذه السبيل كما قدمت.

وبحسبي أن يُقنع هذا الكتاب الناس بما فيه، وأن يُقنع العلماء والباحثين بضروره الانقطاع والتخصص لبلوغ الغايه من بحث موضوعه. ولو أنّه أثمر أئياً من هذين الأثرين أو كليهما لكان ذلك أكبر جزاءٍ أرجو عن المجهود الذي بذلت فيه. والله يجزي المحسنين.

محمّد حسين هيكل

ص: ٧١

الفصل الأول: بلاد العرب قبل الإسلام

مهد الحضارة الأولى، اليهودية والمسيحية، الفرق المسيحية وتناحرها، مجوسية فارس، شبه جزيرة العرب تموج بطرق القوافل، اليمن وحضارتها، بقاء شبه الجزيرة على الوثنية.

ما يزال البحث في تاريخ الحضارة الإنسانية وأيان كان منشؤها متصلاً إلى عصرنا الحاضر. وكان هذا البحث قد استقرّ زماناً طويلاً عند القول بأن مصر كانت مهد هذه الحضارة منذ أكثر من ستة آلاف سنة مضت، وأن ما قبل هذا الزمن يرجع إلى عصور ما قبل التاريخ، ممّا يتعدّد الكشف عنه بطريقه علميه صحيحه. أمّا اليوم فقد عاد علماء الآثار يُنقبون في العراق وفي سوريا يريدون الوقوف على أصل الحضارة الآشورية والحضارة الفينيقية وتحقيق العصر الذي ترجع هذه الحضارة إليه. أهو سابق عصر الحضارة المصرية الفرعونيه مؤثر فيها، أم هو لاحق عصر هذه الحضارة متأثر بها؟ ومهما يسفر تنقيب علماء الآثار عنه في هذه الناحيه من نواحي التاريخ، فهو لا يُغيّر شيئاً من حقيقه لما يكشف التنقيب في آثار الصين والشرق الأقصى عمّا يخالفها.

هذه الحقيقة هي أنّ مهد حضارة الإنسان الأولى، سواء أكان في مصر أم في فينقيا أم في آشور، كان متصلاً بالبحر الأبيض المتوسط، وأنّ مصر كانت أقوى المراكز التي أصدرت الحضارة الأولى إلى اليونان وإلى روميه، وأنّ حضارة عالمنا في هذا العصر الذي نعيش فيه ما تزال وثيقه الصلة بتلك الحضارة الأولى، وأنّ ما قد يكشف البحث عنه في الشرق الأقصى من تاريخ الحضارة في تلك الأقطار لم يكن له في عصر ما أثر يذكر في الحضارات الفرعونية والآشورية والأغريقية، ولم يُعَيَّر من اتجاه تلك الحضارات وتطوّرها إلى أن اتصلت بها حضارة الإسلام، فأثرت فيها وتأثرت بها وتفاعلت وإياها تفاعلاً كانت الحضارة العالمية التي تخضع للإنسانية اليوم لسلطانها بعض أثره.

وقد ازدهرت تلك الحضارات التي انتشرت على شواطئ البحر الأبيض أو على مقربة منه في مصر وآشور واليونان منذ أُلوف السنين ازدهاراً ما يزال حتى اليوم موضع دهشة العالم وإعجازه، ازدهرت في العلم و الصناعة و الزراعة و التجارة وفي الحرب وفي كلّ نواحي النشاط الإنساني. على أنّ الأصل الذي كانت تصدر تلك الحضارات عنه وكانت تستمد قوتها منه كان أصلاً دينياً دائماً. حقاً أنّ هذا الأصل اختلف ما بين التثليث المصري القديم مصوراً في أوزوريس وإيزيس وهورس مشيراً إلى وحده الحياة في انهيائها وتجدها، وما بين الوثنية اليونانية في تصويرها للحق والخير والجمال تصويراً مُستمدّاً من مظاهر الكون الخاضعة للحسّ، كما اختلف من بعد ذلك اختلافاً هوى بهذا التصوير في عصور الانحلال المختلفه إلى دنيا المراتب.

لكنّه بقي دائماً أصل هذه الحضارة التي شكّلت مصير العالم، كما أنّه قوي الأثر في حضارة هذا العصر الحاضر، وإن حاولت هذه الحضارة أن تتخلص

منه وتقف في وجهه وقوفاً ما يزال الحين بعد الحين يستدرجها اليه. ومن يدري لعله سيدمجها فيه في مستقبل قريب أو بعيد مره أخرى.

في هذه البيئه التي استندت حضاراتها منذ أُلوف السنين إلى أصل ديني، نشأ أصحاب الرساله بالأديان المعروفه حتى اليوم. في مصر نشأ موسى، وفي حجر فرعون تربى وتهذب، وعلى كهنته ورجال الدين من أهل دولته عرف الوحده الإلهيه وعرف أسرار الكون(1)، فلما أذن الله له في أداء الرساله ببلد كان فرعون يقول لأهله: أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ۚ وقف يجادل فرعون وسحرته حتى اضطره فرعون فهاجر ومعه بنو إسرائيل إلى فلسطين.

وفي فلسطين نشأ عيسى روح الله وكلمته التي ألقاها إلى مريم. فلما رفع الله عيسى بن مريم إليه، قام الحواريون من بعده يدعون إلى المسيحيه التي دعا إليها. ولقى الحواريون ومن أتبعهم أشد العنت، حتى إذا أذن الله للمسيحيه أن تنتشر حمل علمها عاهل روميه صاحبه السيادة على العالم يومئذ، فدانت الأمبراطوريه الرومانيه لدين عيسى، وانتشرت المسيحيه في مصر والشام واليونان، وامتدت من مصر إلى الحبشه، وظلت سته قرون متتابعه يزداد سلطانها اتساعاً ويستظل بلوائها كل من استظل بلواء روميه، وكل من طمع في موذتها وفي حسن علاقته بها.

ص: ٧٥

١- (١) لم يترب النبي موسى عليه السلام أخلاقياً ولا ثقافياً على يد فرعون وكهنته، بل شاءت القدره الإلهيه ولمصلحها أرادها الله سبحانه، أن يعيش النبي موسى عليه السلام فتره من حياته على مقربة من فرعون كَلَوْن من ألوان المحافظه عليه، فعليه لم يكن حضوره عليه السلام في القصر قد جاء بطريقه عفويه ليتولى فرعون تربيته، وإنما كان يخضع لإرادته ومخطط إلهي سابق، قال تعالى: إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ الْقَصص: ٧، إذاً فوجوده في القصر الفرعوني كان ضمن مرحله مُقَدَّره حتى إذا استنفذ غرضها تلقى عليه السلام دوره الرسالي الموعود.

تجاه هذه المسيحية التي انتشرت في ظلّ لواء روميه ونفوذها، وقفت مجوسيه الفرس تؤازرها قوى الشرق الأقصى، وقوى الهند المعنويه. وقد ظلّت آشور وظلّت مدينه مصر الممتده في فينيقيا عصوراً طويله حائله دون انتطاح(١) الغرب والشرق وحضارتيهما. على أنّ دخول مصر وفينيقيا في المسيحية أذاب هذا الحائل ووقف الغرب والشرق وجهاً لوجه. وقد ظلا عصوراً متصله وفي نفس كّل من هيبه الآخر ما أقام مكان ذلك الحائل الطبيعي الأول حائلاً معنوياً اقتضى قوته أن توجه كلتاهما جهودها وغزواتها في ناحيتها دون مُبادأه الأخرى بالعدوان. وبذلك ظلّت غزوات الغرب في الغرب، وغزوات الشرق في الشرق، وبذلك كان الحائل المعنوي في مثل منعه الحائل الطبيعي، وكفل تكافؤ القوتين عدم تصادمهما.

وكذلك ظلّ الحال إلى القرن السادس المسيحي. وفي هذه الأثناء بدأت المنافسه بين روميه وبيزنطه، وبدأت أعلام روميه، التي أظلت من قبل بوليوس قيصر وفي أثناء حكمه ربوع أوروبا إلى الغال(٢) وإلى السلت في انجلترا، تنطوي وتنكمش رويداً رويداً، حتى أغار الفندال الهمج على روميه واستولوا عليها وعلى سلطانها، وانفردت بيزنطه بالسلطات وأصبحت وارثه الأمبراطوريه الرومانيه المتراميه الأطراف. وكان لانكماش روميه وقيام

ص: ٧٦

١- (١) إنتطاح: النطح للأكباش ونحوها، وقد يقتاس من ذلك تناطحت الأمواج والسيول والرجال في الحرب. لسان العرب ماده نطح: ٦٢١/٢.

٢- (٢) كانت القبائل المسّمات بالغاليه تسكن فرنسا الحاليه قبل الميلاد، وقد تعرضت إلى اجتياح من قبل القبائل السلتيه و جاءت تسميتها بالغاليه بعد الاجتياح وقد استمرت سيادتها على الأراضى الفرنسيه حتى القرن الأول قبل الميلاد. راجع موسوعه السياسه: ٥٠٨/٤.

ببزنطه مكانها أثره الطبيعي في المسيحية التي نشأت في أحضان روميه وتأثرت بحضارتها وتعاليمها. بدأت المذاهب تتعدد وينقسم كل مذهب على توالي الزمن فرقاً وأحزاباً، ولكل شيعه في طقوس الدين وأسسها رأى يخالف رأى الشيعة الأخرى. وتنكرت هذه الطوائف بعضها لبعض بسبب خلافها في الرأى تنكراً أنتج العداوه الشخصيه التي تلمسها حيثما دبّ الضعف الخلقى والذهنى إلى النفوس فجعلها سريعه إلى الخوف سريعه لذلك إلى التعصب الأعمى والجمود العقيم. كان من بين طوائف المسيحية في تلك الأزمان من ينكرون أنّ لعيسى جسداً يزيد على طيف (١) كان يتبدى (٢) به للناس! وكان من بينها من يزواجون بين شخصه ونفسه زوجاً روحياً يحتاج إلى كثير من كدّ الخيال والذهن لتصوره. وغير هؤلاء وأولئك من كانوا يعبدون مريم على حين كان ينكر غيرهم بقاءها عذراء بعد وضع المسيح، وكذلك كان الجدل بين أتباع عيسى جدل أيام الانحلال في كل أمه. كان يقف عند الألفاظ والأعداد يُسبغ على كل لفظ وكل عدد من المعانى ويُضفى عليه من الأسرار ويُحيطه من ألوان الخيال بما يعجز عنه وهم المنطق ولا تسيغه إلا سفسطه الجدل العقيم (٣).

قال أحد رهبان الكنيسه: «كانت أطراف المدينه جميعاً ملأى بالجدل سواء في الأسواق وعند باعه الملابس وصرّافى النقود وبعاه الأطمعه. فأنت

ص: ٧٧

١- (١) طيف الخيال: مجيئه في النوم - صحاح الجوهري: ١٣٩٧/٤.

٢- (٢) تبدى: ظهر. مجمع البحرين: ١/٤٤-٤٧.

٣- (٣) الفصل في الملل والأهواء، لأبى محمّد بن عليّ بن أحمد بن حزم الظاهري: ٤٨/١-٦٣ ط بيروت دار المعرفه ١٣٩٥ ه ط ٢.

تريد أن تبدل قطعه من ذهب، فإذا بك في جدل عمّا خلق وما لم يخلق. وأنت تريد أن تقف على ثمن الخبز فيجيبك من تسأله: الأب أعظم من الابن والابن خاضع له. وأنت تسأل عن حمّامك وهل ماؤه ساخن فيجيبك غلامك:

لقد خلق الابن من العدم».

على أنّ هذا الانحلال الذي طرأ على المسيحيه فجعلها أحزاباً وشيعاً لم يكن ذا أثر قوى في كيان الأمبراطوريه الرومانيه السياسى. بل ظلّت هذه الأمبراطوريه قويه متماسكه، وظلّت هذه الفرق تعيش في كنفها في نوع من النضال لم يتعدّ الجدل الكلامى، ولم يتعدّ المؤتمرات اللاهوتيه، تعقدتْ في مسأله من المسائل، فلا يكون لقرار طائفه ما من السلطان ما يلزم الطوائف، أو الفرق الأخرى. وأظلت الأمبراطوريه هذه الفرق جميعاً بحمايتها، ومدّت لها جميعاً في حريه الجدل ممّا زاد في سلطان الأمبراطور المدني، من غير أن يضعف من هيبتة الدينيه، أن كانت كلّ فرقه تعتمد على عطفه عليها، بل تذهب إلى الزعم بأنّها تعتمد على تأييده إياها. وهذا التماسك في كيان الأمبراطوريه هو الذى طوّع للمسيحيه أن يظل انتشارها في مسيره وأن تصل من مصر الرومانيه إلى الحبشه المستقله المحالفه لروميه فتجعل لحوض البحر الأحمر من المكانه ما لحوض البحر الأبيض، وأن تنتقل من الشام وفلسطين حيث اعتنقها أهلها واعتنقها العرب الغساسنه الذين هاجروا إليها، إلى شواطئ الفرات ليدين بها أهل الحيره ويؤمن بها اللخميون والمناذره الذين ارتحلوا من جدد الصحراء وباديتها ليستقروا في هذه المدائن الخصبه العامره، وليكونوا مستقلين زمناً لتحكمهم الفرس المجوس

فى هذه الأثناء كذلك أصاب المجوسىة فى الفرس من أسباب الانحلال ما أصاب المسيحية فى الأمبراطورية الرومانية. وإذا كانت عباده النار قد ظلت الظاهره المجوسية البادية للعيان، فإن آلهه الخير والشرّ واتباعها قد انقسمت هى أيضاً عند المجوس فرقاً وطوائف، ليس هاهنا مكان عرضها.

مع ذلك ظلّ كيان الفرس السياسى قوياً لم يؤثّر فيه هذا الجدل الدينى حول صور الآلهه والأفكار المطلقة التى ترتسم وراء هذه الصور، واحتتمت الفرق الدينيه المختلفه بعاهل الفرس الذى أظّلها جميعاً • بلوائه والذى ازداد • باختلافها قوه على قوه، أن جعل من اختلافها وسيله لضرب بعضها ببعض كلما خيف أن تقوى شوكة إحداها على حساب المملك أو على حساب الفرق الأخرى (٢).

هاتان القوتان المتقابلتان، قوه المسيحية وقوه المجوسية، قوه الغرب وقوه الشرق، ومعهما الدويلات المتصله بهما والخاضعه لنفوذهما. كانتا فى أوائل القرن السادس الميلادى تحيطان بشبه جزيره العرب. ومع ما كان لكل واحد منهما من مطامع فى الاستعمار والتوسع. ومع ما كان يبذل رجال الدين فى كليهما من الجهود لنشر الدعوه إلى العقيدته التى بها يؤمنون، فقد ظلت

ص: ٧٩

١- (١) الكامل فى التاريخ: ١٨٣/١ و ٢٥٣، ط بيروت دار الكتاب العربى ١٤٠٦ هـ ط ٦ / ٦، وتاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم:

٣٢/١، ط بيروت دار الجبل ١٤١١ هـ ط ١٣.

٢- (٢) الملل والنحل، للشهرستانى: ٧٠/٢-٩٥ هامش على كتاب الفصل فى الملل والأهواء.

شبه الجزيره وكأنها واحه حصينه آمنه من الغزو إلفى بعض أطرافها، آمنه من انتشار الدعوه الدينيه، مسيحيه أو مجوسيه، إلفى قليل من قبائلها. وهذه ظاهره قد تبدو فى التاريخ عجيبه، لولا ما يُفسرها من موقع بلاد العرب ومن طبيعتها وما للموقع والطبيعه من أثر فى حياه أهلها وفى أخلاقهم وميولهم ونزعاتهم.

فشبه جزيره العرب مستطيل غير متوازى الأضلاع، شماله فلسطين وباديه الشام، وغربه الحيره ودجله والفرات وخليج فارس، وجنوبه المحيط الهندى وخليج عدن، وشرقه بحر القلزم (البحر الأحمر). فهو إذاً حصين بالبحر من غربه وجنوبه، حصين بالصحراء من شماله، وبالصحراء وخليج فارس من غربه. وليست هذه المناعه هى وحدها التى أعفته من الغزو الاستعمارى أو الغزو الدينى، بل أعفاه كذلك ترامى أطرافه، إذ يبلغ طول شبه الجزيره أكثر من ألف كيلومتر ويبلغ عرضها نحو الألف من الكيلومترات.

وأعفاه أكثر من هذا جذبته جداً صرف عين كل مستعمر عنه. فليس فى هذه الناحيه الفسيحه من الأرض نهر واحد، وليست لأمطارها فصول معروفه يمكن الاعتماد عليها وتنظيم الصناعه إياها. وفيما خلا- اليمن الواقعه جنوب شبه الجزيره والممتازة بخصب أرضها وكثره نزول المطر فيها، فسائر بلاد العرب جبال ونجود وأوديه غير ذات زرع وطبيعه جرداء لا تُيسر الاستقرار ولا تجلب الحضاره ولا تُشجع على حياه غير حياه الباديه، حياه الارتحال الدائم واتخاذ الجمل سفينه للصحراء

وانتجاع(1) المرعى لهذه الإبل والاستقرار حيثما يكون هذا المرعى حتى تجيء الإبل عليه، ثم الارتحال من جديد انتجاعاً لمرعى جديد. وهذه المراعى التى ينتجعها بدو شبه الجزيره إنما تنمو حول عين من العيون تتفجر عن ماء المطر الذى يتسلل خلال أرض البلاد الحجرية حتى يتفجر فى ناحيه أو فى أخرى، فنبت انفجاره الخضره المنتشره ها هنا وهناك فى واحات تحيط بهذه العيون.

طبيعى فى بلاد هذه حالها أن تكون كصحراء افريقيه الكبرى لا- يقيم بها مقيم ولا- تعرف الحياه الإنسانيه إليها سبيلاً. وطبيعى ألا يكون لمن يحل بهذه الصحراء غرض أكثر من ارتيادها والنجاه بنفسه منها، إلفى هذه النواحي القليله التى تنبت الكلاً والمرعى. وطبيعى أن تظل هذه النواحي مجهوله من الناس، لقله من يغامر بحياته لارتيادها. وقد كانت بلاد العرب فيما سوى اليمن مجهوله بالفعل من أهل تلك العصور القديمه.

لكن موقعا أنجها من الإفكار حتى لا يقيم بها مقيم. ففى تلك العصور القديمه لم يكن الناس قد أمنوا البحر ليتخذوه مركباً لتجارتهم أو لأسفارهم.

وما تزال أمثال العرب تحت أنظارنا تبننا بما كان من خوف الناس للبحر كخوفهم من الموت. فلم يكن بدّ إذاً للتجار من أن تجد التجاره لها وسيله انتقال غير هذا المركب الخطر المخوف. وكان أهم انتقال التجاره يومئذ بين الشرق والغرب، بين روميه وما وراءها والهند وما وراءها. وكانت بلاد العرب هى طريق انتقال هذه التجاره التى كانت تجتاز إليها عن طريق مصر أو

ص: ٨١

١- (١) التّنجع والانتجاع والنجعه: طلب الكلاء ومساقط الغيث - النهايه فى غريب الحديث، لابن الأثير: ٢٢/٥.

عن طريق الخليج الفارسيّ مُتخطّيه البوغاز(١) الواقع على مدخل خليج فارس.

فكان طبيعياً إذاً أن يكون بدو شبه جزيره العرب هم أمراء الصحراء، كما أصبح رجال الشيفن في العصور التي تلت والتي طغى الماء فيها على اليابسه هم أمراء البحر. وكان طبيعياً إذاً أن يرسم أمراء الصحراء هؤلاء طرق القوافل من أنحائها فيما لا يخاف خطره، كما يرسم رجال البحر خطوط سير السفن بعيدة عن شعاب البحر ومخاطره. ويقول هيرن: «لم يكن طريق القافله شيئاً متروكاً للاختيار بل كان مُقرَّراً بالعادة. ففي هذه المراحل الفسيحه من الصحراء الرملية ممّا كان رجال القوافل يجتازون، حَبَّت الطبيعه المسافر بضعه أماكن مُبَعَثَره في جذب البادية يتخذها موئلاً لراحته. وهناك، في ظلال أشجار النخيل وإلى جانب المياه العذبة التي تجرى من حولها، يستطيع التاجر ودابته حمله أن ينهلا من طيبها ما أحوجهما إليه العنت الذي لقيها وأصبحت منازل الراحه هذه مستودعات للتجاره، وصار بعضها مقاماً للهاكل والمحارِب، يتابع التاجر في حمايتها تجارته ويلجأ الحاج إليها لالتماس العون منها»(٢).

وكانت شبه الجزيره تموج بطرق القوافل. على أنّ طريقين منها كانا رئيسين؛ فأما أحدهما فيتاخم الخليج الفارسي ويتاخم دجله ويقتحم بادية الشام إلى فلسطين؛ ويصح لمجاورته لحدود البلاد الشرقيه أن يسمى طريق الشرق. وأما الآخر فيتاخم البحر الأحمر. ويصح لذلك أن يُسمّى طريق الغرب.

وعن هذين الطريقين كانت تنتقل مصنوعات الغرب إلى الشرق ومتاجر الشرق إلى الغرب، وكانت تجبي إلى البادية أسباب الرخاء

ص: ٨٣

١- (١) البوغاز: كلمه تركيه تعنى هنا المضيق. والآن يُسمّى بمضيق هرمز بين الخليج الفارسي وبحر عمان.

٢- (٢) حياه محمّد: وليم موير.. ١٩٢٣, Sir William Mair the Life of Mohammed Edinburgh.

والرفاهيه. على أن ذلك لم يزد أهل الغرب معرفه بهذه البلاد التي تجتاز تجارتهم؛ فقد كان الذين يعبرونها من أهل الشرق والغرب قليلين؛ لما في عبورها من مشقّه لا يحتملها إلا الذين اعتادوها منذ نومه أظفارهم، والمجازفون الذين يستهينون بالحياه والذين كانوا كثيراً ما يُضَيِّعونها في هذه المهامه (١) والقدافد (٢) عبثاً، وما احتمال رجل اعتاد بلهنيه (٣) الحضرم لوعث (٤) هذه الجبال الجرداء التي تفصل تهامه بينها وبين شاطئ البحر الأحمر بفاصل ضيق؛ فإذا بلغها المسافر في تلك الأيام التي لم تعرف غير الجمل مطيه للسفر ظلّ يصعد بين قممها حتى تقذفه إلى هضاب نجد الصحراويّه القليله الغناء! وما احتمال رجل اعتاد النظام السياسى الذى يكفل للناس جميعاً طمأنينتهم لعنت هذه الباديه التي لا يعرف أهلها نظاماً سياسياً، بل تعيش كل قبيله بل كل أسرّه بل كل فرد وليس ما ينظم علاقاته بغيره إلا الروابط عصبيه الأسره والقبيله، أو قوه الحلف. أو حى الجوار يلتمس الضعيف به رعايه قوى إياه.

فقد كانت حياه الباديه فى كل العصور حياه خارجه على كل نظام عرف الحضرم؛ مطمئنه إلى العيش فى حى مبادئ القصاص، ودفع العدوان بالعدوان، واغتيال الضعيف ما لم يجد من يجيره. وليست هذه بالحياه التي تُشجّع التطلع إلى استكناه أخبارها والتحقّق من تفاصيل نُظُمها. لذلك ظلت شبه الجزيره مجهوله من سائر العالم يومئذ، إلى أن أتاحت لها الأقدار، بعد

ص: ٨٤

-
- ١- (١) المهامه: المفازه البعيده، - أى الأرض الخاليه - مجمع البحرين: ٣٦٢/٦.
 - ٢- (٢) القدافد: وهى جمع فدغد: المكان الغليظ المرتفع عن الأرض. مجمع البحرين: ١١٩/٣.
 - ٣- (٣) بلهنيه العيش: سعه ورفاهيه. مجمع البحرين: ٢١٦/٦.
 - ٤- (٤) وعثاء السفر: مشقته، من الوعث وهو الرمل السهل الكثير الذى يتعب فيه الماشى ويشقّ عليه - مجمع البحرين: ٢٦٩/٢.

ظهور «محمد» عليه الصّلاه والسلام فيها، أن يقصّ أخبارها من نرح عنها من أهلها وأن يقف العالم على كثير ممّا كان العالم من قبل ذلك في أتمّ الجهل به.

لم يندد من بلاد العرب عن جهاله العالم به سوى اليمن وما جاورها من البلاد المتاخمه للخليج الفارسي. وليس يرجع ذلك إلى متاخمتها الخليج الفارسي أو المحيط الهندي أو البحر الأحمر وكفى، ولكنّه يرجع قبل ذلك وأكثر منه إلى أنّها لم تكن كسائر شبه الجزيرة صحراويه جرداء لا تلفت العالم ولا تجعل لدوله من صداقتها فائده ولا لمستعمر فيها مطمعاً، بل كانت على العكس من ذلك موطن خصب في الأرض ومطر منتظم الفصول في تهتانه(١)، ومن ثمّ موطن حضاره مستقره ذات مدائن عامره ومعابد قويه على نضال الزمان. وكان سكانها من بني حمير ذوى فطنه وذكاء وعلم، هداهم إلى حسن الاستفاده من الأمطار حتى لا تتسرب إلى البحر فوق الأرض المنحدره إلى ناحيته؛ ولذلك أقاموا سدّ مأرب، فحوّروا اتجاهها الطبيعي تحويراً تقتضيه حياه الحضاره والاستقرار. وكانت الأمطار إلى أن أُقيم هذا السدّ تنزل بجبال اليمن المرتفعه ثمّ تنحدر في وديان واقعه إلى شرق مدينه مأرب. وكانت في انحدارها الأول تنزل بين جبلين يقومان عن جانب هذه الوديان يفصل بينهما أربعمائه متر تقريباً؛ فإذا بلغت مأرب انفرج الوادى انفراجاً تضيق المياه فيه كما تضيق في منطقه السدود بأعلى النيل. وكان سدّ مأرب قد شُيد بالحجر عند مضيق الوادى، وجعلت له فتحات يمكن تصريف المياه منها وتوزيعها إلى حيث يشاء الناس لتروى الأرض وتزيد خصباً وإثماراً(٢).

ص: ٨٥

١- (١) التهتان: مطر ساعه ثمّ يفتر ثمّ يعود - عن الجواهرى فى الصحاح: ٢٢١٦/٦.

٢- (٢) مروج الذهب: ١٦٢/٢ ط بيروت.

وإنّ ما كشف وما لا- يزال يُكشف عنه حتى اليوم من آثار هذه الحضارة الحميريّة في اليمن ليبدل على أنّها بلغت في بعض العصور مكاناً محموداً، وأنّها صمدت لقسوة الزمان في عصور قسا باليمن فيها الزمان.

على أنّ هذه الحضارة وليده الخصب والاستقرار جلبت على اليمن من الأذى ما منع الجذب منه أواسط شبه الجزيرة. فقد ظلّ ملك اليمن في بني حمير يتوارثونه حيناً ويثب عليه حميريّ من الشعب حيناً آخر حتى ملكهم ذونؤاس الحميريّ. وكان ذو نؤاس هذا ميّالاً- إلى دين موسى راغباً عن الوثنيه التي تورّط فيها قومه، أن كان من اليهود من هاجر إلى اليمن وأقام بها. وإلى جانب هؤلاء اليهود قام بعض النصارى بنجران، اتّبعوا رجلاً صالحاً من أتباع عيسى يُدعى فيميون. وذونؤاس الحميريّ هذا هو، فيما يذكر المؤرخون، صاحب قصه أصحاب الأخدود التي نزل فيها قوله تعالى: قُتِلَ أَصِحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَ مَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ١ . وخلاصه هذه القصة أنّ ذا نؤاس، وكان ذا ميل لليهوديه، نعى إليه استفحال النصرانيه في نجران، فسار إليها ودعا أهلها إلى دين بني إسرائيل أو يقتلوا. فلما أبوا شقّ لهم أخذوداً أوقد فيه النار ثمّ ألقى بهم فيها وقتل بالسيف من لم يمت بالنار، ومثّل بهم، حتى هلك منهم - على روايه كتب السيره - عشرون ألفاً. وقد فرّ أحد هؤلاء النصارى من القتل ومن يد ذى نؤاس حتى أتى قيصر الروم جوستنيان فاستنصره على ذى نؤاس. ولما كانت الروم بعيده عن اليمن كتب القيصر إلى النجاشي ليأخذ بالتأثر من ملك اليمن. ويومئذ (في القرن الخامس الميلادي)

كانت الحبشه - والنجاشى على رأسها - فى ذروه مجدها، تجرى بأمرها على البحار تجاره واسعه، ويمخر (١) لها العُباب (٢) أُسطولٌ قوى يجعلها تتسلط بنفوذها على ما حاذاها من البلاد؛ وكانت حليفه الأمبراطوريه البيزنطيه ورافعه علم المسيحيه على البحر الأحمر، كما كانت بيزنطه رافعه عَلمها على البحر الأبيض. فلَمَّا بلغت النجاشى رساله القيصر بعث مع اليمنى الذى كان قد فرَّ وجاء بالرساله جيشاً، جعل على رأسه أرياط ومعه فى جنده أبرهه الأشرم، فغزا اليمن وملكها باسم عاهل الحبشه، وظلَّ على حكمها حتى قتله أبرهه واستولى على الحكم مكانه (٣). وأبرهه هذا هو صاحب الفيل، وهو الذى غزا مكَّه ليهدم الكعبه ففشل، على نحو ما سيرى القارئ فى الفصل الآتى.

ومَلَمَك أبناء أبرهه اليمن من بعده وفشا فيها استبدادهم، حتى إذا طال على الناس البلاء خرج سيف بن ذى يزن الحِميرى حتى قدم على مَلِك الروم فشكا اليه ما هم فيه وسأله أن يبعث اليهم من الروم من يكون له مُلك اليمن.

لكنَّ حَلْفَ القيصر والنجاشى حال دون سماعه شكايه ابن ذى يزن؛ فخرج من عند القيصر حتى أتى النعمان بن المنذر، وهو عامل كسرى على الحيره وما يليها من أرض العراق.

فلَمَّا دخل النعمان على كسرى أبرويز دخل سيف بن ذى يزن معه.

وكان كسرى يجلس فى إيوان مجلسه وقد جمع فيه أجزاء عرش دارا، وكانت موشاه بصور نجوم المجزّه من أعلام فلك البروج؛ فإذا كان فى مشته وضعت

ص: ٨٧

١- (١) مخرت السفينه: الماء، إذا شقته بصدرها وجرت. النهايه فى غريب الحديث: ٣٠٥/٤.

٢- (٢) العُباب: معظم السيل، لسان العرب: ٥٧٣/١ عن التهذيب.

٣- (٣) الطبرى: ٤٣٦/١-٤٣٨، تفسير القمى: ٤١٤/٢ ط النجف.

هذه الأجزاء يحيط بها ستار من أنفاس الفراء (١) تتدلى أثناء ثريّات من فضه وأخرى من ذهب مُلئت بالماء الفاتر ونصب فوقها تاجه العظيم يضرب فيه الياقوت والزبرجد واللؤلؤ بالذهب والفضه مشدوداً إلى السقف بسلسله من ذهب، وكان يلبس نسيج الذهب ويتشح بحلّي الذهب؛ فما يلبث أن يراه من يدخل إلى مجلسه حتى تأخذه هيئته. وكذلك كان شأن سيف بن ذي يزن.

فلَمّا تطامن وسأله كسرى عن أمره وما جاء فيه قصّ له أمر الحبشه وظلمها اليمن. وتردد كسرى بادئ الرأي، ثُمَّ بعث معه جيشاً على رأسه وهَرَز من خير بيوت فارس وأكثرها فروسيه وشجاعه. وتغلب الفرس وأجلوا الأحابش عن اليمن بعد أن ملكوها اثنتين وسبعين سنه. وظلّت اليمن في حكم فارس حتى كان الإسلام ودخلت مع سائر البلاد العربيه في دين الله وفي الأمبراطوريه الإسلاميه (٢).

على أن الأعاجم الذين تولوا أمر اليمن لم يكونوا تابعين تبعيه مباشره إلى ملك فارس. وكان الأمر كذلك بنوع خاص بعد أن قَتَلَ شيرويه أباه كسرى أبرويز وقام في المُلْك مقامه، وخُيِل إليه في غراره سذاجته أنّ العوالم تسير على هواه، وأنّ ممالك الأرض تعمل لملء خزائنه ولتزيد فيما أغرق فيه نفسه من نعيم. فلقد انصرف هذا المَلِك الشاب عن كثير من شؤون المُلْك إلى مُتَعِه ولذاتِه؛ فكان يخرج للصيد في ترف لم تسمع به أُذن، كان يخرج ويحيط به الشبان الأمراء في ثياب حمر وصفر وبنفسجيه ومن حولهم حملة

ص: ٨٨

١- (١) الفراء: من (الفرو) فروه الرأس: جلدها بشعرها. والفرو: مصروف وجمعه فراء - العين: ٢٧٨/٨.

٢- (٢) الكامل في التاريخ: ٢٦٣/١-٢٦٥ و ٢٩٣/١-٢٩٦، وتاريخ الإسلام، حسن إبراهيم: ٢٧/١-٢٨، التفسير الكبير للفخر الرازي:

٢٥١/٢٥ بيروت دار احياء التراث العربي ط ٣، وتفسير مجمع البيان للطبرسي: ٥٠١/٨ بيروت دار احياء التراث ١٤١٢ ه ط ١..

البزاه والخدم يمسكون الفهود الأليفه بالكمامات، والعييد حمله الطيب، ومطاردوا الذباب والموسيقيون وهو فى هذا الحال يجلس وحاشيته على بساط فسيح صوّرت عليه طرق المملكه ومزارعها وفيها الأزهار المختلفه الألوان من ورائها الأحرش والغابات الخضر والأنهار ذات اللون الفضى.

على أنّ فارس، رغم انصراف شيرويه إلى مسرّاته، كانت ماتزال فى قمه مجدها، وكانت المنافس القوى لسلطان بيزنطه ولانتشار المسيحيه، وإن كان اعتلاء شيرويه عرشها قد آذن بأفول هذا المجد ومهد لغزو المسلمين من بعد إياها ولانتشار الإسلام فيها.

هذا النزاع الذى كانت اليمن مسرحه منذ القرن الرابع المسيحى كان عميق الأثر فى تاريخ شبه جزيره العرب من حيث توزيع سكانها. فقد قيل: إنّ سدّ مأرب الذى حوّر الحميريون الطبيعه به لفائده بلادهم، قد طغى عليه سيل العرم فحطّمه، أن كانت هذه المنازعات المستمره قد صرفت الناس وصرفت الحكومات المتعاقبه عن تعهده والاستمرار فى تقويته، فضعف فلم يقوَ على صدّ هذا السيل. وقيل: إنّ ملك الروم لما رأى اليمن موطن نزاع بينه وبين فارس وأن تجارته مُهدّده من جرّاء هذا النزاع، جهّز أسطولاً يشقّ البحر الأحمر ما بين مصر وبلاد الشرق البعيده ويجلب التجاره التى تحتاج إليها بيزنطه، ويستغنى بذلك عن طريق القوافل.

ويذكر المؤرخون واقعه يتفقون عليها ويختلفون فى السبب الذى أدى إليها. هذه الواقعة هى هجره أزد اليمن إلى الشمال. فكّلهم يقول بهذه الهجره وإنّ نسبها بعضهم إلى إقفار كثير من مدائن اليمن بسبب اضمحلال التجاره التى كانت تمرّ بها، وعزاها آخرون إلى انقطاع سدّ مأرب واضطرار كثير من القبائل إلى الهجره مخافه الهلاك. وأينما كانت الحقيقه فهذه الهجره هى

السبب فى اتصال اليمن بسائر بلاد العرب اتصال نسب واختلاط ما يزال الباحثون يحاولون حتى اليوم تحديده.

إذا كان النظام السياسى قد اضطرب فى اليمن على نحو ما رأيت بسبب الظروف التى مرّت بلاد الحميريين بها؛ والغزوات التى كانت تلك البلاد ميداناً لها، فقد كان هذا النظام السياسى غير معروف فى سائر بلاد شبه الجزيرة. وكلّ نظام يمكن أن يوصف بأنه نظام سياسى على المعنى الذى نفهمه نحن اليوم أو الذى كانت الأمم المُتحضرة تفهمه فى تلك الأيام، كان مجهولاً وأكثر من مجهول فى ربوع تهامة والحجاز ونجد وتلك المساحات الشاسعة التى منها كانت تتكوّن بلاد العرب؛ فقد كان هؤلاء الناس، كما لا- يزال أكثرهم حتى اليوم، أهل بادية لا يألّفون الحضّر، ولا يطيب لهم المقام ولا الاستقرار بأرض مُعينة، ولا يعرفون غير دوام الارتحال والنقله طلباً للمرعى وإرضاء لهوى نفوسهم التى لم تعرف غير حياه البادية ولا- تطيق حياه غيرها. وأساس حياه البادية، حيث وجدت من بقاع الأرض، إنّما هى القبيله. والقبائل الدائمه التّجوال والترحال لا تعرف قانوناً كالذى نعرف، ولا تخضع لنظام كالذى نخضع له، ولا تصبر على ما دون الحريه كامله للفرد وللأسره وللقبيله كلّها. وإذا كان أهل الحضّر يرضون النزول باسم النظام عن جانب من حريتهم للمجموع أو للحاكم الفرد مقابل ما ينعمون به من طمأنينه ورخاء، فرجل البادية الزاهد فى الرخاء البرم(1) بطمأنينه الاستقرار، لا يخدعه عن شىء من حريته الكامله رجاء فيما يفرح به أهل المدن من جاه أو مال، ولا يرضى بما دون المساواه الكامله بينه وبين أفراد قبيلته جميعاً

ص: ٩٠

١- (١) البرم: الذى يُياسر القوم، ولا يدخل معهم فى الميسره، وجمعه: أبرام - العين: ٢٧٢/٨.

وبين قبيلته وغيرها من القبائل. وإنما ينتظم حياته ما ينتظم سائر الخلق من حُبِّ البقاء والحرص عليه والدفاع عنه، على أن يكون ذلك كله مُتفقاً مع قواعد الشرف التي تُمليها حياة البادية الحرّة، لذلك لم يكن أهل هذه البادية يقيمون على ضيم يُراد بهم. بل كانوا يدفعونه بقوتهم، فإن لم يستطيعوا دفعه تخلّوا عن مواطنهم وارتحلوا عن شبه الجزيرة كلّها إذا لم يكن من هذا الارتحال بدٌّ. لذلك لم يكن شيء أيسر عند هذه القبائل من القتال إذا نبت خلاف لم يتيسّر في ظلال قواعد الكرامة والمروءة والشرف تسويته.

ولذلك نجمت في هذه القبائل خلال الكرم والشجاعه والنجده وحمایه الجار والعفو عند القدره وما إلى ذلك من خلال تقوى فى النفس كلّما قاربت حياة البادية، وتضعف وتضمحل فيها كلّما أوغلت فى أسباب الحضاره. ولذلك ولما قدّمنا من أسباب اقتصاديه، لم تطمع بيزنطه ولا- طمعت فارس فيما سوى اليمن من بلاد شبه الجزيرة التي لا- يمكن أن تخضع؛ لأنها تؤثر على الخضوع هجره الوطن، ولأئذ أفرادها وقبائلها لا- يدينون بالطاعه لنظام قائم ولا- لهيئه حاكمه يكون إخضاعها إخضاعاً لهم والسلطان عليها سلطاناً عليهم.

وقد أثرت هذه الطبائع البدويه، إلى حدٍ كبيرٍ، فى البلاد القليله التي نشأت فى أنحاء شبه الجزيرة بسبب تجاره القوافل على نحو ما قدمنا. هذه البلاد الصغيره التي يأوى اليها التجار يقطعون عندها متاعب رحلاتهم المضمنيه ويجدون بها هياكل عباده يشكرون فيها الآلهه أن منّت عليهم بالنجاه من أخطار الفلوات، وأن جلبت تجارتهم سالمه إلى حيث وصلوا. من هذه البلاد مكّه والطائف ويثرب وأشباهاها من الواحات المنتوره بين الجبال أو خلال رمال الصحراء. تأثرت هذه البلاد بطبائع البادية، فكانت أقرب إلى

البداهه منها إلى الحضاره فى نظام قبائلها وطوائفها وفى أخلاق أهلها وعاداته وفى شدّه نفورهم من كلّ حدٍّ لحريتهم، وإن اضطرتهم حياه الاستقرار إلى نوع من الحياه غير ما اعتاد أهل الباديه. وسرى شيئاً من تفصيل ذلك عند الكلام فى الفصول الآتية عن مكّه وعن يثرب.

هذه البيئه الطبيعيه وما ترتّب عليها من هذه الأحوال الخلقيه والسياسيه والاجتماعيه كان لها أثر مشابه فى الحال الدينيه. فهل تأثرت اليمن - بطبيعته اتصالها بمسيحيه روميه ومجوسيه الفرس - بهذين الدينين وأثرت بهما فى سائر بلاد شبه الجزيره؟ هذا ما يتبادر إلى الذهن، وهو كذلك بنوع خاص فى أمر المسيحيه. فالمبشرون بدين عيسى كان لهم فى ذلك العصر ما لهم اليوم من نشاط فى الدعوه إلى دينهم والتبشير به. وفى طبيعته حياه الباديه من تحريك المعانى الدينيه فى النفس ما ليس فى طبيعته حياه الحضرة. فى حياه الباديه يتصل الإنسان بالكون فى كثير من صور لا نهايه له من الوجود وألوانها، ويشعر بضروره تنظيم ما بينه وبين الوجود فى لا- نهايته أكثر من شعور المقيم بالحضر، المحجوب عن لا نهايه الوجود بمشاغله وبحمايه الجماعه إياه ونزوله عن جانب من حريته مقابل هذه الحمايه، وبضعف روح النضال ضد العناصر المحيطه به ضعفاً يهوّن عليه الاذعان لسلطان الحاكم ويقصر به عن الاتصال بما وراء الحاكم من القوى الطبيعيه القويه الأثر فى الحياه. ترى هل أفادت هذه الظروف كلّها المسيحيه الجّمّه النشاط منذ عصورها الأولى فى سبيل ذبوعها وانتشارها؟! ربّما انتهى الأمر إلى ذلك لولا ظروف أخرى حالت دونه وأبقت بلاد العرب كلّها واليمن معها على الوثنيه دين آباءها وأجدادها، إلّقليلاً كان من القبائل التى لانت للدعوه المسيحيه.

فقد كانت أقوى مظاهر الحضاره العالميه فى ذلك العصر تحيط، بحوضى البحر الأبيض (بحر الروم) والبحر الأحمر (بحر القلزم)، - كما رأيت - وكانت المسيحيه واليهوديه تتجاوران فى ذلك المحيط جواراً إلّا يكن فيه عدااء ظاهر فليست فيه موّدّه ظاهره. وكان اليهود ما يزالون إلى يومئذٍ يذكرون ثوره عيسى بهم وخروجه على دينهم، فكانوا يعملون فى الخفيه ما استطاعوا لصدّ تيار المسيحيه الذى أخرجهم من أرض الميعاد، والذى استظلّ بلواء روميه فى امبراطوريتها الفسيحه المتراميه الأطراف، وكان لليهود فى بلاد العرب جاليات كبيره يقيم أكثرها فى اليمن وفى يثرب.

ثمّ كانت مجوسيه الفرس تقف فى وجه القوات المسيحيه حتى لا تعبر الفرات إلى فارس، وتؤيد بقوتها المعنويه طقوس الوثنيه حيثما وُجدت الوثنيه. وكان سقوط روميه فى يد الفنڊال الهمج وانتقال عاصمه حضاره العالم إلى بيزنطه وما تلا ذلك من بوادر التحلّل، قد أكثر الشيع فى المسيحيه كثره جعلتها - كما قدمنا - تتناحر وتقتتل وتهوى من عليا مراتب الإيمان إلى الجدل فى الصور والألفاظ وفى مبلغ قداسه مريم وتقدّمها على ابنها المسيح أو تقدّمه عليها، جدلاً هو النذير أنّى وُجد بتدهور ما يجرى بشأنه وما يحتدم من أجله؛ ذلك بأنّه يذّر اللب ويأخذ بالقشور، ويظل يُكدّس من هذه القشور فوق اللب ما يخفيه وما يجعل من المحال على الناس إدراكه أو اختراق حُجُب القشور إليه(١).

وقد كان ما يحتدم جدل نصارى الشام حول غير ما يحتدم جدل أهل الحيره أو أهل الحبشه حوله. ولم يكن اليهود بطبيعه صلتهم بالنصارى

ص: ٩٣

١- (١) الملل والنحل للشهرستاني: ٥٩/٢-٧٠، هامش كتاب الفصل فى الملل والأهواء.

ليعملوا على تهدئه هذا الجدل أو التسكين من حدته. لذلك كان طبيعيًا أن يظلّ العرب الذين يتصلون في رحلتي الشتاء والصيف بنصارى الشام وبنصارى اليمن ومن يفدون عليهم من نصارى الحبشه بعيدين عن أن ينتصروا لفريق على فريق، مطمئنين إلى وثيتهم التي وُلدوا فيها وتابعوا آباءهم عليها. ولذلك ظلّت عباده الأصنام مزدهره عندهم، حتى امتد شىء من أثرها إلى جيرانهم نصارى نجران ويهود يثرب الذين تسامحوا في أمر هاشم احتملوها ثمّ اطمأنوا إليها، أن كانت من صِلات التجاره الحسنه بينهم وبين هؤلاء العرب الذين يعبدونها لتقرّبهم إلى الله زُلفى.

ولعلّ تناحر الفرق المسيحيه لم يكن وحده السبب فى إصرار العرب على وثيتهم؛ فقد كانت الوثنيات المختلفه ماتزال لها بقايا فى الأمم التى انتشرت المسيحيه فيها. كانت الوثنيه المصريه والوثنيه الأريقيه ما تزالان تتبدّيان من خلال المذاهب المختلفه، ومن خلال بعض المذاهب المسيحيه نفسها. وكانت مدرسه الاسكندريه وفلسفتها ماتزال ذات أثر، إن يكن أقل بكثير ممّا كان فى عهد البطالسه وفى أوّل العهد المسيحي، فقد كان على كلّ حال ما يزال مُتغلغلاً فى النفوس، وما يزال منطقه البراق المظهر، وإن يكن سفسطائى الجوهر، يجرى بهذه الوثنيه المُتعدده الآلهه القريبه بآلهتها إلى سلطان الإنسان المحببه لذلك إليه. وأكبر ظنى أنّ هذا هو ما يشتدّ بالنفوس الضعيفه إلى الحرص على الوثنيه فى كلّ الأزمان وفى زماننا هذا. النفوس الضعيفه أعجز من أن تسمو للاتصال بالوجود كلّه ولإدراك وحدته ممثله فيما هو أسمى من كلّ ما فى الوجود: ممثله فى الله ذى الجلال. وهى لذلك تقف عند مظهر من مظاهر هذا الوجود كالشمس أو كالقمر أو كالنار، ثمّ تضعف عن الارتفاع بنفسها إلى تمثّل هذا المظهر فيما يدل عليه هو أيضاً من

هذه النفوس الضعيفه تكتفى بوثن يتمثل لها فيه معنى مبهم وضع من الوجود ووحدته، فتتصل بهذا الوثن وتخلع عليه من صور العباده ما لا تزال تراه فى بلاد العالم جميعاً، برغم ما يزعم هذا العالم من تقدم فى العلم وسمو فى الحضاره. وإن الذين زاروا كنيسه القديس بطرس فى روميه ورأوا قدام تمثال القديس تبريها قبلات عباده المؤمنين، حتى لتضطر الكنيسه إلى تغييرها كلما انبرت، ليعذرون أولئك الذين لما لم يكن الله قد هداهم إلى الإيمان، إذ يرون تناحر جيرانهم النصارى وبقاء طقوس الوثنيه بينهم بقاءً لم ينقطع حتى اليوم وما أحسبه ينقطع أبداً^(١)، وبقاءً يُفسّر هذه الوثنيه التى يرتضيها المسلمون اليوم فى دينهم^(٢)، وهو الذى جاء حرباً على الوثنيه، وهو الذى قضى على كل عباده غير عباده الله ذى الجلال.

ولقد كانت للعرب فى عباده الأوثان أفانين شتى يصعب على باحث اليوم أن يحيط بها؛ فقد حطم النبى الأصنام وأمر أصحابه بتحطيمها حيثما تقفوها، وتناهى المسلمون عن التحدث عنها بعد أن عفوا على آثارها وأزالوا من الوجود فى التاريخ وفى الأدب كل ما يتصل بها. على أن ما ورد من ذكرها فى القرآن وما تناقلته الروايات فى القرن الثانى للهجره عنها بعد إذ أمن المسلمون الفتنة منها، يُنبئ عما كان لها قبل الإسلام من جليل المكانه

ص: ٩٥

١- (١) أنظر الأصول الوثنيه فى الديانہ النصرانيه، للشيخ محمد طاهر تثير الشامى ط بيروت.

٢- (٢) هكذا أبهم المؤلف الوثنيه التى يرتضيها المسلمون اليوم فى دينهم؟! وليته لم يُبهم، فإن كان لا يعدو قوله سبحانه: وَ مَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ شركاً خفياً بالرياء مثلاً، فذلك شرك خفى وليست الوثنيه.

وما كانت عليه من مختلف الصُّور، ويدل على أنها كانت درجات في القداسه، وأنَّ كلَّ قبيله كان لها صنم تُدين له. وكانت هذه المعبودات الجاهليه تختلف ما بين الصنم والوثن والنُّصب. فالصنم ما كان على شكل الإنسان من معدن أو خشب. والوثن ما كان على شكله (١) من حجر. أما النُّصب فصخره غير ذات صورته مُعيَّنه تجرى عليها قبيله من القبائل طقوس القداسه لما تزعمه من أصلها السماوي أن كانت حجراً بركانياً أو ما يشبهه. ولعلَّ أدقَّ الأصنام صنعاً ما كان لأهل اليمن. ولا عجب، فحظَّهم من الحضاره لم يعرفه أهل الحجاز ولا عرفه أهل نجد وكنده. على أنَّ كتب الأصنام لا تُشير بالذقه إلى شيءٍ من صور هذه الأصنام إلَّا ما قيل عن هُبَل من أنه كان من العقيق على صورته الإنسان، وأنَّ ذراعه كُسر فأبدله القَرشيون منه ذراعاً من ذهب. وهُبَل كبير آلهم العرب وساكن الكعبه بمكَّه، يحجُّ إليه الناس من كلِّ فجٍّ عميق. ولم يكن العرب ليكتفوا بهذه الأصنام الكبرى يقدِّمون إليها صلواتهم وقرابينهم. بل كان أكثرهم يتخذ له صنماً أو نُصباً في بيته، يطوف به حين خروجه وساعه أو بيته ويأخذه معه عند سفره إذا أذن له هذا الصنم في السفر. وهذه الأصنام جميعاً سواء منها ما كان بالكعبه أو حولها وما كان في مختلف جهات بلاد العرب وبين مختلف قبائلها، كانت تعتبر الوسيط بين عبادها وبين الإله الأكبر.

وكانت العرب لذلك تعتبر عبادتها إياها زلفى تتقرب بها إلى الله، وإن كانت قد نسيت عباده الله لعبادتها هذه الأصنام (٢).

وعلى الرغم من أنَّ اليمن كانت أرقى بلاد شبه الجزيره كلها حضاره

ص: ٩٤

١- (١) الوثن: صنم يُعبد، وجمعه: الأوثان والوثن - العين: ٢٤٢/٨.

٢- (٢) البدايه والنهايه لابن كثير: ١٢٢/١-١٣١، بيروت دار الفكر ١٤١٨ هـ والأصنام للكلبى: ٢٨.

بسبب خصبها وحسن تنظيم انحدار المياه إلى أرضها، فإنّها مع ذلك لم تكن مطمح بصر أهل هذه البلاد الصحراوية المترامية الأطراف ولم يكن إلى معابدها حجيجهم؛ وإنّما كانت مكّه وكانت كعبتها بيت إسماعيل مثابه الحجّ إليها كانت تُشدّ الرحال والأبصار، وفيها أكثر من كلّ جهه سواها كانت تُرعى الأشهر الحرم. لذلك ولمركزها الممتاز في شؤون تجاره بلاد العرب كلّها، كانت تعتبر عاصمه شبه الجزيره. ثمّ أراد القدر من بعد أن تكون مسقط رأس «محمّد» النبيّ العربيّ، فتكون بذلك مُتّجه نظر العالم على توالي القرون، وتظلّ لبيتها العتيق قداسه، وتبقى لقريش فيها المكانه الساميه، وإن ظلّت وظلّوا جميعاً أدنى إلى خشونه البداوه التي كانوا عليها منذ عشرات القرون.

ص: ٩٧

الفصل الثاني: مكة والكعبة وقريش

موقع مكة، إبراهيم وإسماعيل، قصة الفداء والذبح، زمزم زواج إسماعيل من جرهم، بناء الكعبة، ولايه جرهم، أمر مكة، قصي وأولاده، اجتماع أمر مكة لقصي القرشي، هاشم وعبدالمطلب وظائف مكة الزمنية والدينية، الحاج إلى الكعبة، قصة أبرهه والفيل، عبدالله بن عبدالمطلب، قصة فدائه.

في وسط طريق القوافل المحاذي للبحر الأحمر ما بين اليمن وفلسطين، تقوم عدة سلاسل من الجبال تبعد نحو الثمانين كيلومتراً من الشاطئ، تحيط بوادٍ غير فسيح و تكاد تحصره لولا منافذ ثلاثة يتصل أحدها بطريق اليمن، ويتصل الثاني بطريق قريب إلى البحر الأحمر (بحر القلزم) عند مرفأ جدّه، ويتصل الثالث بالطريق المؤدى إلى فلسطين. في هذا الوادي المحصور بين الجبال تقوم مكة. ومن العسير معرفه تاريخ إقامتها. وأغلب الظن أنه يرجع إلى ألوف من السنين مضت. والثابت أنّ واديها اتخذ من قبل أن تُبنى موثلاً لراحه رجال القوافل، بسبب ما كان به من بعض العيون، وأنّ رجال القوافل هؤلاء كانوا يجعلون منها مضارب لخيامهم سواء منهم

القادمون من ناحية اليمن قاصدين فلسطين، والقادمون من فلسطين مُتجهين إلى اليمن. والراجح أن إسماعيل بن إبراهيم أول من اتخذها مقاماً وسكناً، بعد أن كانت مُجرّد محلّ للقوافل وسوقاً للتجاره يقع فيها التبادل بين الآتين من جنوب شبه الجزيرة والمنحدرين من شمالها(١).

وإذا كان إسماعيل أول من اتخذ مَكه مقاماً وسكناً فإنّ تاريخها فيما قبل ذلك غامض كلّ الغموض، وإن يكن من الممكن القول بأنّها اتخذت مقاماً للعبادة قبل أن يجيء إليها ويقم بها. وقصه مجيئه إليها تحملنا على أن نُلخص قصه أبيه إبراهيم عليه السلام:

فقد ولد إبراهيم بالعراق لأب نجار كان يصنع الأصنام ويبيعها من قومه يعبدونها. فلما شبَّ إبراهيم ورأى الأصنام يصنعها أبوه، ثمَّ رأى قومه من بعد ذلك كيف يعبدونها، وكيف يخلعون على هذه القطع من الخشب التي مرّت بين يديه ويدي أبيه كلّ تلك القداسه، ساوره الشكّ في أمرها، وسأل أباه: كيف يعبدها وهي من صنع يده(٢)! وتحدّث إبراهيم بذلك إلى الناس؛ فاهتم أبوه

ص: ١٠٠

١- (١) تاريخ مَكه المشرفه: ٤٢/١، وتاريخ الطبري: ١٥٣/١-١٥٤، معجم البلدان للحموي البغدادي: ١٨٥/٥.

٢- (٢) هنا المسأله تستوجب التحقيق لأجل معرفه من هو والد النبي إبراهيم عليه السلام فكتب التاريخ تذكر أنّ أب النبي إبراهيم تارخ وليس آزر، فتارخ هو ابن ناحور ووصيه من بعده وأحد أجداد النبي محمّد صلى الله عليه وآله، وفي تاريخ اليعقوبي: وكان تارخ بن ناصور هو أبو إبراهيم عليه السلام عاصر نمرود: ٤٧/١. أما آزر المعبر عنه في القرآن بأبي إبراهيم فهو ليس بأبيه الصّليبي، بل كان متولياً لأمره ويمكن معرفه ذلك من خلال عدّه أمور منها: ١- من الثابت في اللغه أن بين الوالد والأب فرقا حيث لا يُطلق الوالد إلّاعلى من ولّد الإنسان من صلبه، بينما يُطلق الأب عليه وعلى غيره ممن يتولّى الأمر كالعمّ، أو الجدّ، أو زوج الأمّ بعد الأب ونحوهم. ٢- أطلق القرآن الكريم لفظ الأب على غير الوالد، مثل قوله تعالى: أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ -

لأمره مخافه ما يجزه من بوار تجارته. لكن إبراهيم كان ممن يحترمون عقولهم، ويريدون أن يحملوا الناس بالحجّه على الاقتناع بأرائهم؛ فانتهاز غفله من الناس فذهب إلى هذه الآلهه فكسرها إلّا كبيرها.

فلما جىء به على أعين الناس، قيل له: أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِأَلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمَ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ۝ ١ .
وإنما فعل إبراهيم هذا بعد إذ فكر في ضلال عباده الأصنام، وفيمن تجب له العباده: فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ

ص: ١٠١

رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا رَبِّي هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١ .

ولم ينجح إبراهيم في هداية قومه، بل كان جزاؤه منهم أن ألقوه في النار. وأنجاه الله منها ففرَّ إلى فلسطين مستصحباً معه زوجته ساره، ومن فلسطين ارتحل إلى مصر، وبها يومئذ ملوك العماليق (الهكسوس). وكانت ساره جميله، وكان الملوك الهكسوس يأخذون الجميلات المتزوجات؛ فأظهر إبراهيم أنَّ ساره أخته خشيه أن يقتله الملك ليتخذها له زوجاً. وأراد الملك اتّخاذها زوجاً، فرأى في المنام أنّها ذات بعل فردّها إلى إبراهيم بعد أن عاتبه وأعطاه هدايا من بينها جارية تُدعى هاجر(١) ، ولما كانت ساره

ص: ١٠٢

١- (٢) تفسير القمّي: ٣٣٣-٣٣٢/١ لأبي الحسن عليّ بن إبراهيم القمّي من أعلام القرن الرابع الهجري، مطبعة النجف ١٣٨٧ هـ الطبعه الثانيه، تاريخ الطبري: ١٤٨/١-١٤٩ دار الكتب العلميه، ط ٢، البدايه والنهائيه: ٢٢٤/١-٢٢٥، ط بيروت.المصادر الثقليه على اختلافها تصوّر شخص إبراهيم عليه السلام ضمن عدد من الصور:الصوره الأولى: تروى التوراه قصه مسير إبراهيم عليه السلام من العراق إلى فلسطين، ثمّ إلى مصر ورجوعه مره أخرى إلى فلسطين، وبها تتضح معالم شخصيته عليه السلام.والممتبع لتفاصيلها في التوراه والأحداث التي رافقت إبراهيم سينتهى إلى ما يلي: ١- إهمال التوراه لقضيه بناء الكعبه وتركيزها على بناء المذابح كالمذبح الذي بناه بأرض شكيم والآخر الذي بناه في بيت إيل وآخر قد بناه في جبل الرّب.ثمّ نجد التوراه تصف النبيّ إسماعيل عليه السلام أنّه كان غلاماً وحشياً يضاد الناس ويضادونه، ولم يكن ذا قيمه اجتماعيه، لأنّه المطرود من حضره أبيه.وتنقل التوراه أنّ شاليم أخرج للنبيّ إبراهيم عليه السلام خبزاً وخمراً وكان كاهناً لله العليّ. -

قد سلخت(١) السنين الطوال مع إبراهيم ولم تلد فقد دفعته ليدخل بهاجر، فدخل بها فلم تبطن أن ولدت له إسماعيل. ولما شبَّ إسماعيل وترعرع دبَّت الغيره في نفس ساره فحملت، ثمَّ ولدت إسحاق(٢).

يختلف الرواه هاهنا على مسأله إقدام إبراهيم على ذبح إسماعيل

ص: ١٠٤

١- (١) سلخت الشهر: إذا أمضيته وصرت في آخره - الصحاح: ١/٤٢٣.

٢- (٢) تاريخ الطبرى: ١/١٥٠ و ١٥١ و ١٥٣، البدايه والنهايه: ١/٢٢٨-٢٢٩، والكافى: ٨/٣٧٠-٣٧٣، ح ٥٦٠.

والفداء، وهل كانت قبل ميلاد إسحاق أو بعده، وهل كانت بفلسطين أو بالحجاز. وإن مؤرّخي اليهود ليذهبون إلى أنّ الذبيح إنّما كان إسحاق ولم يكن إسماعيل. وليس هاهنا مقام تمحيص هذا الخلاف. وفي رأى الأستاذ الشيخ عبدالوهاب النجار فى كتاب قصص الأنبياء أنّ الذبيح هو إسماعيل.

ودليله من التوراه نفسها أنّ الذبيح وصف فيها بأنه ابن إبراهيم الوحيد، وإلى أن قبل إسحاق كان إسماعيل هو الابن الوحيد. فلما ولدت ساره لم يبق لإبراهيم ابن وحيد أن كان له إسماعيل وإسحاق. والتسليم بهذه الروايه يقتضى أن تكون قصه الذبح والفداء بفلسطين. وكذلك يكون الأمر إذا كان الذبيح إسحاق. فقد ظلّ إسحاق مع أمه ساره بفلسطين ولم يذهب إلى الحجاز.

فأمّا الروايه التى تذهب إلى أنّ الذبح والفداء إنّما كانا فوق منى فتجعل الذبيح إسماعيل. ولم يردّ فى القرآن ذكر لاسم الذبيح ممّا جعل المؤرخين المسلمين يختلفون فيه (١).

ص: ١٠٥

١- (١) تُحدّثنا كتب التفسير والتاريخ فى مسأله الذبيح من ولد النبىّ إبراهيم عليه السلام على نحو اتجاهين: فقد ذهب الاتجاه الأوّل - والذى تصدّى له كبار علماء المسلمين - من أنّ الذبيح هو إسماعيل وليس إسحاق اعتماداً على النصوص والروايات الصحيحه الصادره عن النبىّ صلى الله عليه وآله فيما تزعم اليهود. الاتجاه الثانى: وعمّقه المستشرقون من بعدهم بهدف إلغاء ميزه الذبح لجدّ نبى الإسلام الذى طالما كان يذكرها صلى الله عليه وآله: «أنا ابن الذبيحين» وإلحاقها بالنبىّ إسحاق، وتوضيحاً لهذه المسأله نذكر ملخصاً للبيان الذى قدّمه المسلمون لإثبات مسأله الذبح للنبىّ إسماعيل دون أخيه إسحاق بالشكل التالى: ١ - لمّا استعرض القرآن الكريم قصه إبراهيم عليه السلام فى ذبحه لولده إسماعيل عليه السلام، قال: وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ الصافات (٣٧): ١١٢، فجاء الإتيان بالبشرى بعد ذكر القصه وهذا يدل صريحاً بأنّ إسحاق غير الغلام الذى ابتلى الله إبراهيم بذبحه وعوده الضمير فى قوله: وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ الصافات (٣٧): ١٠٧، إلى الغلام الذبيح، ثمّ ذكر اسم إسحاق عليه السلام صريحاً يقتضى التغاير بين إسحاق والذبيح. ٢ - كيف يأمر المولى النبىّ إبراهيم عليه السلام بذبحه فى الوقت الذى وعده أن يكون نبياً؟! ٣ - ويؤكد أنّ الذبيح هو إسماعيل دون إسحاق، صريح قوله تعالى: فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ هود (١١): ٧١، فكيف تقع البشاره بإسحاق وأنّه سيولد له يعقوب، ثمّ يؤمر بذبح إسحاق وهو -

وقصه الذبح والفداء أن إبراهيم رأى في منامه أن الله يأمره بأن يقدم ابنه قرباناً له فيذبحه ويحرقه؛ فسار وابنه في الصباح فلما بلغ معه السعى قال يا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبِحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ١ .

وتسبغ بعض الروايات على هذه القصة خيالاً شعرياً تدعونا روعته أن نقصه هنا وإن لم يقتض الحديث عن مکه قصصه: ذلك أن إبراهيم لما رأى في المنام أنه يذبح ابنه وتحقق أن ذلك أمر ربه، قال لابنه: يا بني خذ الحبل والمديه وانطلق بنا إلى هذه الهضبه لنحتطب لأهلنا. وفعل الغلام وتبع والده.

فتمثل الشيطان رجلاً فجاء أم الغلام فقال لها: أتدرين أين يذهب إبراهيم بابنك؟

قالت: ذهب به يحتطب لنا من هذا الشعب. قال الشيطان: والله ما ذهب به إلّا ليذبحه. قالت الأم: كلا! هو أشفق به و أشدّ حبا له. قال الشيطان: إنّه يزعم أن الله أمره بذلك. فأجابت الأم: إن كان الله قد أمره بذلك فليطع أمر ربّه. فانصرف الشيطان خاسئا، ثم لحق بالابن و هو يتبع أباه و ألقى إبليس عليه ما ألقى على أمه، و أجاب الابن بما أجابت هي به. فأقبل الشيطان على إبراهيم يذكر له أن المنام الذى رأى خدعه من الشيطان ليذبح ابنه ثم يندم و لآت ساعه مندم.

فصرفه إبراهيم و لعنه، فنكص إبليس على عقبه خزيان محنقا أن لم ينل من إبراهيم و لا من زوجته و لا ابنه ما أراد أن يبلغ منهم.

ثم إن إبراهيم أفضى إلى ابنه برؤياه و سأله رأيه فى الأمر. قال: يا أبت افعل ما تؤمر. ثم قال فى روآيه القصة الشعريه: يا أبتاه إذا أردت ذبحى فاشدد و ثاقى لثلا- يصيبك شىء من دمي فينقص أجرى. و إن الموت لشديد و لا آمن أن اضطرب عنده إذا وجدت مسه، فاشحد شفرتك حتى تجهز على، فإذا أنت أضجعتنى لتذبحنى فاكبىنى على وجهى و لا تضجعنى لجنبى، فأنى أخشى إن أنت نظرت إلى وجهى أن تدركك الرقة، فتحول بينك و بين أمر ربّيك فى. و إن رأيت أن تردّ قميصى إلى أمى عسى أن يكون أسلى لها فافعل. قال إبراهيم:

نعم العون يابنى أنت على أمر الله. ثم إنّه همّ بالتنفيذ فأوثق كتاف الغلام و تله (١) للجبين و أراد أن يقتله، فنودى أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا.

و افتدى الغلام بكبش عظيم، و جدّه إبراهيم على مقربه منه فذبحه و حرّقه (٢).

ص: ١٠٨

- ١- (١) تله: أى صرعه على التل، و تله للجبين: أى كبه على وجهه، أو ألقاه على تليله: أى عنقه. تاج العروس: ج ١٤ ص ٧٧.
- ٢- (٢) لم يرد فى أخبارنا تحريق الضحيه - و إنّما هي فى أخبار غيرنا - و هي أخبار معتبره و ليست شعائريه كما يصفها المؤلف، و لعلّه يريد بكونها شعائريه أنها عاطفيه للغاية و نموذجيه و مثاليه، تفسير القمى: ٢٢٤/٢-٢٢٦.

هذه قصّة الذبح و الفداء. و هي قصه الإسلام لأمر الله غايه الإسلام و التسليم لقضائه كل التسليم.

و شب إسحاق إلى جانب إسماعيل، و تساوى عطف الأب على الإثنين فأغضب ذلك ساره أن رأت هذه التسويه بين ابنها و ابن هاجر أمتها غير لا ثقه بها، و أقسمت: لا تساكن هاجر و لا ابنها حين رأت إسماعيل يضرب أخاه.

و أحس إبراهيم بأن العيش لن يطيب و هاتان المرأتان فى مكان واحد. عند ذلك ذهب بهاجر و بابنها ميّما الجنوب حتى و صل إلى الواد الذى تقوم مكّه اليوم به. و كان هذا الواد، كما قدّمنا، مضرب خيام القوافل فى الأوقات التى تفصل فيها القوافل من الشام إلى اليمن أو من اليمن إلى الشام، و لكنّه كان فيما خلا ذلك من أوقات السنه خلاً أو يكاد. و ترك إبراهيم إسماعيل و أمه و ترك لهما بعض ما يتبلّغان به. و اتخذت هاجر عريشا أوت إليه مع ابنها.

و عاد إبراهيم أدراجه من حيث أتى. فلمّا نفذ الماء و الزاد جعلت هاجر تحيل طرفها فيما حولها فلا ترى شيئا، فجعلت تهرول حتى نزلت الواد تلتمس ماء، و هى - فيما يقولون - لا تنفك فى هرولتها بين الصفا و المروه، حتى إذا أتمت السعى سبعا عادت إلى ولدها و قد ملكها اليأس، فألفتاه قد فحص الأرض بقدمه (١) فنجع الماء من الأرض، فارتوت و أروت إسماعيل معها و جست الماء عن السيل حتى لا يضيع فى الرمال (٢).

ص: ١٠٩

١- (١) إذن كان رضيعا طريحا يفحص برجليه و ليس - كما مرّ - يضرب أخاه إسحاق فى فلسطين، و ليس كما يقولون بل هو

خبر معتبر، انظر موسوعه التاريخ الإسلامى: ٨٦/١، ٨٧.

٢- (٢) تاريخ الطبرى: ١٥٣/١-١٥٥، تفسير القمى: ٦٠/١-٦١.

وأقام الغلام و أمّه ترد عليهم العرب أثناء رحلاتهم، فينالان من الخير ما يكفيهم أسباب العيش إلى أن تمرّ بهم قوافل أخرى. على أن زمزم التي تفجّر ماؤها قد استهوت بعض القبائل للمقام على مقربه منها. وجرهم أولى القبائل التي أقامت و التي يقول بعض الرواه(١): إنّها كانت هناك قبل أن تجيء هاجر و ابنها، على حين تذهب روآيات أخرى إلى أنّها لم تقم إلّا بعد أن تفجّرت زمزم و جعلت العيش في هذا الواد الأجرد مستطاعاً(٢). و شب إسماعيل و تزوّج فتاه من جرهم، و أقام و إيّاها مع الجرهميين في هذا المكان الذي شيّد به البيت الحرام و قامت مكّه بعد ذلك من حوله. و يذكرون أن إبراهيم استأذن ساره يوماً في زياره إسماعيل و أمّه فأذنت له فذهب؛ فلما سأل عن بيت إسماعيل و عرفه قال لامرأته: أين صاحبك؟ قالت: ذهب يتصيد ما نعيش به.

فسألها عندها ضيافه من طعام أو شراب؟ فأجابت بأن ليس عندها شيء.

فانصرف إبراهيم بعد إذ قال لها: إذا جاء زوجك فاقرئيه مني السلام و قولي له غير عتبه بيتك. فلما أخبرت إسماعيل بما ذكر أبوه سرّحها، و تزوّج جرهميه أخرى بنت مضاض بن عمرو. و قد أكرمت هذه و فاده إبراهيم لما جاء بعد ذلك بزمن. فلما انصرف طلب إليها أن تقرئ زوجها السلام و تقول له: الآن استقامت عتبه بيتك. و ولد لإسماعيل من هذا الزواج اثنا عشر ولدا هم آباء العرب المستعربه. هؤلاء العرب الذين ينتمون من ناحيه خؤلّتهم في جرهم إلى العرب العاربه أبناء يعرب بن قحطان، و من ناحيه أبوتهم لإسماعيل بن إبراهيم، الذي يمت من ناحيه أمومته إلى مصر بأوثق نسب، و من ناحيه أبوته

ص: ١١٠

١- (١) مروج الذهب: ١٩/٢-٢١ و ١٢١-١٢٢.

٢- (٢) تاريخ يعقوبى: ٢٦٩/١، و تاريخ الطبرى: ١٥٤/١، و الكامل فى التاريخ: ٥٩/١، و تفسير على بن إبراهيم القمى: ٦٠/١ و تفسير مجمع البيان: ٣٨٨/١.

إلى العراق و إلى فلسطين و إلى حيث نزل إبراهيم من أرض الله(١).

هذه القصة من قصص التاريخ يكاد ينعقد الاجماع على جملتها من ذهاب إبراهيم و إسماعيل إلى مكّة، و إن وقع خلاف على التفاصيل. و الذين يعرضون لتفاصيل حوادثها بالنقد يروونها على أن هاجر ذهب بإسماعيل إلى الواد الذي به مكّة اليوم، و كانت به عيون أقامت جرهم عندها، فنزلت هاجر منهم أهلا- و سهلا لَمّا جاء إبراهيم بها و بانها. فلَمّا شب إسماعيل تزوّج جرهميه و لدت له أولاده. و كان لهذا التلاقح بين إسماعيل العبرى المصرى و بين هؤلاء العرب ما جعل ذريته على جانب من العزم و قوّه البأس و الجمع بين فضائل العرب و العبريين و المصريين. و إذا فما ورد عن حيره هاجر لما نضب الماء منها، و عن سعيها سبعا بين الصفا و المروه، و عن زمزم و كيف نبع الماء منها، موضع شكّ عندهم. لكن سير و ليم موير(٢) يرتاب فى ذهاب إبراهيم و إسماعيل إلى الحجاز و ينفى القصة من أساسها، و يذكر أنّها بعض الإسرائيليات ابتدعها اليهود قبل الإسلام بأجيال ليربطوا بها بينهم و بين العرب الاشتراك فى أبوّه إبراهيم لهم أجمعين أن كان إسحاق أبا لليهود، فإذا كان أخوه إسماعيل أبا العرب فهم إذا أبناء عمومته توجب على العرب حسن معاملته النازلين بينهم من اليهود و تيسّر لتجاره اليهود فى شبه الجزيرة.

و يستند المؤرخ الانجليزى فى رأيه هذا إلى أن طقوس العبادة فى بلاد العرب لا صلّه بينها و بين دين إبراهيم، لأنّها و ثنيه مغرقه فى الوثنيه و كان إبراهيم حنيفا مسلما. و لسنا نرى مثل هذا التعليل كافيا لئفى و اقعته تاريخيه. فوثنيه

ص: ١١١

١- (١) الطبرى: ١٥٥/١ و ١٨٩، الكامل فى التاريخ: ٥٩/١ و ٧١، يعقوبى: ١٥/١ و ٢٦٩، البدآيه و النهايه: ٢٣١/١ و ٢٧٥، تفسير مجمع البيان: ٣٨١/١.

٢- (٢) حياه محمّد ١٩٢٣، Sir William muir The Life of Mohamad, Edin bargh.

العرب بعد موت إبراهيم وإسماعيل بما يزيد عن تسعمائه سنة لا تدل على أنهم كانوا كذلك حين جاء إبراهيم إلى الحجاز و حين اشترك إسماعيل في بناء الكعبة. و لو أنها كانت و ثنيه يومئذ لما أُيد ذلك رأى سيرموير. فقد كان قوم إبراهيم يعبدون الأصنام و حاول هو هدايتهم فلم ينجح. فإذا دعا العرب إلى مثل ما دعا إليه قومه فلم ينجح و بقي العرب على عبادة الأوثان لم يطعن ذلك في ذهاب إبراهيم و إسماعيل إلى مكّة. بل إن المنطق ليؤيد روآيه التاريخ، فإبراهيم الذى خرج من العراق فأرا من أهله إلى فلسطين و إلى مصر، رجل ألف الارتحال، و ألف اجتياز الصحارى. و الطريق ما بين فلسطين و مكّة كان من أقدم العصور مطروقا من القوافل. فلا محل إذا للريه فى و اقعته تاريخيه انعقد الإجماع على جملتها.

و السير و ليم موير و الذين ارتأوا فى هذه المسأله رأيه(١) يقولون بإمكان انتقال جماعه من أبناء إبراهيم و إسماعيل بعد ذلك من فلسطين إلى بلاد العرب و اتصالهم و إياهم بصله النسب، و ما ندرى و هذا الإمكان جائز عندهم فى شأن أبناء إبراهيم و إسماعيل كيف لا- يكون جائزا فى شأن الرجلين بالذات! و كيف لا يكون ثابتا قطعا و روآيه التاريخ تؤكده! و كيف لا يكون بحيث لا يأتيه الريب و قد ذكره القرآن و تحدثت به بعض الكتاب المقدسه الأخرى(٢)!

ص: ١١٢

-
- ١- (١) هم سينلجر و ستوك هجروتية: ٢٧/١-٢٨، مائده إبراهيم، دائره المعارف الإسلاميه.
 - ٢- (٢) تاريخ اليعقوبى: ٤٩/١، تاريخ الطبرى: ١٥٢/١، الكامل فى التاريخ: ٥٩/١، البدآيه و النهايه: ٢٣٠/١، و الثاقب فى المناقب للطوسى: ١٤٥، بيروت، دار الزهراء، ط ١، ١٤١١ هـ.

ورفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت الحرام(١): إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۚ . و يقول تعالى: وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَوَعَدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ ٣ .

كيف رفع إبراهيم البيت مثابه للناس و أمنا، ليتوجه الناس فيه إلى الله مؤمنين به وحده، ثم أصبح من بعد ذلك موئل الأصنام و عبادتها؟ و كيف كانت طقوس العبادة تؤدي فيه بعد إبراهيم و إسماعيل و على أى صورة كانت تؤدي و متى تغيرت هذه الطقوس و تغلبت عليها الوثنية؟ هذا ما لا يحدثنا

ص: ١١٣

١- (١) البيت الحرام كان موجودا من لدن آدم أبى البشر عليه السلام، أما إبراهيم فهو واضع قواعده و مشيد بنائه و أركانه و يؤيد ذلك ما جاء عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام، حيث قال: «ألا ترون أن الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم صلوات الله عليه و إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضر و لا تنفع و لا تبصر و لا تسمع فجعلها بيته الحرام الذى جعله للناس قياما ثم وضعه بأوعر بقاع الأرض حجرا، و أقل نتائق الدنيا مدرا و أضيق بطون الأودية قطرا، بين جبال خشنه، و رمال دمه، و عيون و شله، منقطعه لا يترك بها خف، و لا حافر و لا ظلف، ثم أمر آدم و ولده، أن يشوا أعطافهم فهم نحوه فصار مثابه لمنتجع أسفارهم و غايه لملقى رحالهم، تهوى إليه ثمار الأفتده من مفاوز قيفار سحيقه». نهج البلاغه شرح محمد عبده، الخطبه القاصعه: ١٩٢. و ظاهر القرآن لا- يمنع من هذا التفسير، فقد عبر تعالى عن تجديد بناء إبراهيم للبيت بقوله: وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وهذه إشاره إلى أن تكون الأسس والقواعد قد وضعت قبل ذلك وإبراهيم هو الذى رفع هذه القواعد وشيد تلكم الأسس (*) (*) نور الثقلين: ١/١٢٦، الصحيح من السيره: ٢٢/٢، تاريخ الطبرى: ١/١٩٩، الدر المنثور: ١/١١٢-١٣٨، البدايه والنهائيه ابن كثير: ١/١١٨.

التاريخ المعروف عنه؛ وكلّ ما هنالك فروض يحسبها أصحابها تصف ما كان واقعاً. فالصابئون من عبّاد النجوم كان لهم سلطان كبير في بلاد العرب. وقد كان هؤلاء - فيما يقولون - لا يعبدون النجوم لذاتها وإنّما كانوا في بدايه أمرهم، يعبدون الله وحده ويُعظّمون النجوم على أنّها مظاهر خلقه وقدرته.

ولمّا كانت كثرة الناس الكبرى أقصر من أن يحيط ذهنها بمعنى الألوهية السامى فقد اتخذوا من النجوم آلهه. ولمّا كانت بعض الأحجار البركانيه يخال الناس أنّها ساقطه من السماء منحدره لذلك من بعض النجوم، فقد اتّخذت أوّل أمرها مظاهر لهذه الآلهه الرفيعه وقدّست بهذه الصفه، ثمّ قدّست لذاتها، ثمّ كانت عباده الأحجار، حتى كان العربى لا يكفيه أن يعبد الحجر الأسود بالكعبه، بل كان يأخذ معه فى أسفاره أى حجر من أحجار مكّه يصلّى إليه ويستأذنه فى الإقامة والسفر، ويؤدى إليه كلّ ما يؤدى للنجوم وخالق النجوم من طقوس العباده؛ ومن ثمّ استقرت الوثنيه وقدّست التماثيل وقُرّبت لها القرابين(١).

هذه صورته بصوّرها بعض المؤرخين لتطور الأمر فى بلاد العرب من بناء إبراهيم البيت لعباده الله وما آل إليه أمره بعد ذلك ليكون مستقر الأصنام.

وقد ذكر هيرودوت أبو التاريخ المكتوب(٢)، عباده اللّات فى بلاد العرب، وذكر ديودور الصّقلّى(٣) بيت مكّه الذى تُعظّمه العرب؛ فدلّ ذلك على قدم

ص: ١١٤

-
- ١- (١) الأصنام للكلبى: ٣٣، والعصر الجاهلى لشوقى ضيف: ٢٥، وعلل الشرائع: ١٣/١، ومجمع البيان: ٥٤٧/٢.
 - ٢- (٢) هيرودوت (٤٢٥-٤٨٤) sotodoreH ق. م): مؤرخ ورّحاله يونانى لُقّب ب «أبى التاريخ» زار العالم المعروف آنذاك ولا سيّما العراق وفينيقيا ومصر. له «تاريخ» هو من أهم المراجع المعروفه، أخبار الأمم القديمه وأساطيرها. المنجد فى الأعلام: ٧٣٦، بيروت دار المشرق: ١٩٨٢ م.
 - ٣- (٣) ديودورُ الصّقلّى: مؤرخ يونانى فى عصر اغسطس له «المكتبه التاريخيه» وهى تاريخ عام يبدأ بالخليقه، وينتهى بموت يوليوس قيصر ٤٤ ق. م، المنجد فى الأعلام: ٢٩٧.

الوثنيه فى بلاد العرب وعلى أنّ دين إبراهيم لم يستقر فيها طويلاً.

ولقد قام فى هذه القرون أنبياء دعوا قبائلهم فى بلاد العرب إلى عباده الله وحده فرفضوا وأصرّوا على وثنيّتهم، قام هود فدعا عاداً التى كانت تقيم فى شمال حضرموت إلى عباده الله وحده فما آمن به إلا قليل. فأما كثره قومه فاستكبروا، وقالوا له: قالوا يا هود ما جئنا ببيّنه و ما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك و ما نحن لك بمؤمنين ١ . وأقام هود يدعوهم السنين فلا تزيدهم دعوته إلا اعتوّا فى الأرض واستكباراً. وقام صالح يدعو للإيمان ثمود، وكانت مساكنهم بالحجر بين الحجاز والشام، إلى وادى القرى فى الجنوب الشرقى من أرض مديّن القريبه من خليج العقبه؛ ولم تُثمر دعوه صالح ثمود أكثر ممّا أثمرت دعوه هود عاداً. وقام شعيب فى شعب مديّن وكانوا بالحجاز، يدعوهم إلى الله فلم يسمعوا له، فهلكوا ونزل بهم ما نزل بعاد و ثمود. وغير هؤلاء من الأنبياء قصّ القرآن قصصهم ودعوتهم قومهم لعباده الله وحده، واستكبار قومهم وإقامتهم على عباده الأوثان، وعلى التوجّه بقلوبهم لأصنام الكعبه وحجّهم إليها كلّ عام من كلّ صوب فى بلاد العرب وحيدب. وفى ذلك نزل قوله تعالى: وَ ما كُنّا مُعَيِّدِينَ حتّى نَبْعَثَ رَسُولاً ٢ .

أفكانت تحيط بالكعبه منذ إنشائها مناصب كالتى تولّاها قُصَيّ بن كلاب فى منتصف القرن الخامس الميلادى حين اجتمع له مُلك مكّه على ما سندكر من بعد؟ قد اجتمعت لُقُصَيّ الحجابيه والسقايه والرّفاده والنّدوه واللواء والقياده. والحجابيه: سدانه البيت أى تولّى مفاتيحه. والسقايه: إسقاء

الحجيج الماء العذب الذي كان عزيزاً بمكّه، وإسقاؤهم كذلك نبذ التمر(١).

والرّفاده: إطعام الحاج جميعاً. والندوه: رياسه الاجتماع كل أيام العام. واللواء:

رايه يلوونها على رمح وينصبونها علامه للعسكر إذا توجهوا إلى عدو.

والقياده: إماره الجيش إذا خرجوا إلى حرب. وكانت هذه المناصب كلّها معتبره في مكّه وكانها تُحيط بالكعبه مُتّجه أنظار العرب جميعاً في عباداتهم.

وأحسبها لم تنبت كلّها دفعه واحده منذ أُقيم البيت، بل نشأت واحده تلو أخرى، مستقلاً بعضها عن الكعبه ومكانتها الدينيه، متصلاً بعضها بالكعبه من طبعه، فمكّه لم تكن حين بناء الكعبه، على خير ما يمكن أن يصوّره خيالنا، لتزيد على قبائل من العماليق ومن جرهم. فلمّا استقر بها إسماعيل ورفع قواعد البيت مع أبيه إبراهيم اقتضى تطوّر مكّه لتصير حضراً، أو ما يشبه الحضرة زماناً طويلاً. ونقول: ما يشبه الحضرة، أن ظلّت مكّه وماتزال في طباع أهلها بقايا متخلفه من معاني البداوه الأولى. ويريد بعض المؤرخين أن يذكر أنّها ظلّت على بداوتها إلى أن اجتمع أمرها لقصيّ في منتصف القرن الخامس للميلاد. وعسير أن نتصور بقاء بلد له ما لمكّه وبيتها العتيق من القداسه في حاله البدايه مع ما يثبت التاريخ من أنّ أمر البيت بقى بعد إسماعيل في يد جرهم أخوال بنيه أجيالاً متعاقبه أقاموها حوله، ومع أنّ مكّه كانت ملتقى طرق القوافل إلى اليمن وإلى الحيره وإلى الشام وإلى نجد، كما كانت تتصل من طريق البحر الأحمر القريب منها بتجاره العالم من غير أن تتعرض لغزو

ص: ١١٦

١- (١) والنبذ أعّم من كونه مُسكرًا: يقال نبذت التمر والعنب إذا تركت عليه الماء ليصير نبيذاً، فصيّر من مفعول إلى فعيل، وانتبذت: اتخذته نبيذاً، وسواء كان مُسكرًا أو غير مُسكر فإنّه يقال له نبيذ، ويُقال للخمير المعتصر من العنب: نبيذ. كما يقال للنبيذ خمير. مجمع البحرين: ١٨٩/٣.

الغزاه من آية مملكه من ممالك العالم. فمن الحقّ لذلك أن نُقدّر أنّ مكّه وقد دعاها إبراهيم بلداً، ودعا الله له أن يكون آمناً مطمئناً، قد عرفت حياه الاستقرار أجيالاً طويله قبل قُصيّ (١).

وظلّ أمر مكّه لجُرهم بعد أن غلبوا العماليق عليها إلى عهد مُضاخ بن عمرو بن الحارث. ولقد راجت تجاره مكّه خلال هذه الأجيال رواجاً أمر مُتريفها، وجعلهم ينسون أنّهم بوادٍ غير ذى زرع وأنّهم لذلك بحاجة إلى الدأب المتصل واليقظه الدائم. وبلغ من نسيانهم أن نضب ماء زمزم وأن قامت بنفس عرب خُزاعه الرغبه فى الوثوب إلى مناصب الأمر فى البلد الحرام.

ولم يُجدِ تحذير مُضاخ قومه عاقبه ما انغمسوا فيه من ترفهم، وأيقن أنّ الأمر زائل عنه وعنهم. فعمد إلى زمزم فأعمق حفرها وإلى غزالتين من ذهب كانتا مع طائفه من الأموال بالكعبه، أن كانت تُهدى لها، فدفنها بقاع البئر وأهال الرمال عليها، رجاء أن يعود له الأمر يوماً فيفيد من الكشف عنها.

وخرج ومعه بنو إسماعيل من مكّه، ووليت خُزاعه أمرها وظلّت تتوارثه حتى آل إلى قُصيّ بن كلاب الجدّ الخامس للنبيّ (٢).

وكانت أمّ قُصيّ فاطمه بنت سعد بن سَئيل قد تزوجت من كلاب فولدت له زهره وقصياً. ثمّ هلك كلاب، وقُصيّ طفل فى المهده. وتزوجت فاطمه من ربيعه بن حزام، فرحل بها إلى الشام وهناك ولدت له دراجا. وكبر

ص: ١١٧

١- (١) التبيان فى تفسير القرآن للطوسى: ٤٥٦/١-٤٥٧ دار إحياء التراث العربى، بيروت. التفسير الكبير للفخر الرازى: ٥٢/٤.

٢- (٢) تاريخ الطبرى: ٥٠٥/١، والبدايه والنهايه: ١٢٠/٢-١٢٣، وراجع: الكافى للكلىنى: ٢١١/٤، ح ١٨.

قصي وهو لا يعرف لنفسه أباً غير ربيعه. ووقع بينه وبين آل ربيعه شرّاً، فعَيّروه بأنّه في جوارهم وأنّه ليس منهم. وشكا قصي إلى أمه ما عَيّر به. قالت:

يا بُنى إنك والله لأكرم منهم أباً، أنت ابن كلاب بن مرّه وقومك بمكّه عند البيت الحرام. وقدم قصي مكّه وأقام بها وعُرف عنه فيها من الجد وحسن الرأى ما جعله موضع احترام أهلها فيها. وكانت سدانه البيت في خزاعه لَحْلِيل ابن حُبشيه وكان رجلاً ثاقب النظر حسن التقدير؛ فما لبث أن خطب قصي إليه ابنته حُبّي حتى رَحّب به وزوّجه منها. واستمر دأب قصي في السعى والتجاره، فكثرت أمواله كما كثر أولاده وعُظُم بين قومه شرفه. ومات حُليل بعد أن أوصى بمفتاح البيت الحرام لَحَبِيبِي زوج قصي. واعتذرت حُبّي عن ذلك وجعلت المفتاح لأبى غُبشان الخزاعي. وكان أبو غُبشان سَكِيراً، فأعوزه الشراب يوماً فباع مفتاح البيت قُصِيّاً بزق من خمر. وقُدّرت خزاعه ما يصيب مكانتها بمكّه إذا بقيت سدانه الكعبه لُقُصِي، بعد أن كثر ماله وبعد أن بدأت قُريش تجتمع حوله، فأنكروا أن يكون لغيرهم منصب من المناصب المتصله بالبيت الحرام. واستنفر قُصِي قُريشاً، ورأت بعض القبائل أنّه أحكم المقيمين بمكّه وأعظمهم قدراً، فانضموا له وأجلوا خزاعه عن مكّه، واجتمعت مناصب البيت كلّها لُقُصِي وأقرّ القوم له بالملك عليهم (١).

ويذهب البعض، كما قدّمنا، إلى أنّ مكّه لم يكن بها بناء غير الكعبه إلى أن تولّى قُصِي أمرها. ويُعلّلون ذلك بأنّ خزاعه وجُرحماً قبلها لم يريدوا أن يكون إلى جوار بيت الله بيت غيره، وأنهم لم يكونوا يقيمون ليلهم بالحرم بل يذهبون إلى الحلّ. ويضيف هذا البعض، أنّ قصيّاً لما تمّ له أمر مكّه جمع

ص: ١١٨

١- (١) تاريخ اليعقوبي: ١٨٩/١ و ٢٨٩، تاريخ الطبري: ٥٠٦/١، والبدايه والنهايه: ١٤٨/٢.

قريشاً وأمرهم أن يبنوا بها، وابتدأ هو فبنى دار الندوة يجتمع فيها كبراء أهل مكة تحت إمرته ليتشاوروا في أمور بلدهم، ولم يكن يتم أمر إلابموافقتهم، فلم تكن تُنكح امرأة ولا يتزوج رجل إلأى هذه الدار. وَبَنَتْ قُرَيْشٌ بِأَمْرِ قُصَيٍّ حَوْلَ الْكَعْبَةِ دُورَهَا، وَتَرَكَوْا مَكَانًا كَافِيًا لِلطَّوَافِ بِالْبَيْتِ وَتَرَكَوْا بَيْنَ كُلِّ بَيْتَيْنِ طَرِيقًا يَنْفُذُ مِنْهُ إِلَى الْمَطَافِ(١).

وكان عبدالدار أكبر أبناء قُصَيٍّ، لكنَّ أخاه عبدمناف كان قد تقدّم عليه أمام الناس وقد شرف فيهم. فلَمَّا كَبُرَ قُصَيٌّ وَضَعَفَ بَدَنُهُ وَلَمْ يَبْقَ قَادِرًا عَلَى تَوَلَّى أُمُورِ مَكَّةَ جَعَلَ الْحِجَابَةَ لِعَبْدِ الدَّارِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِ مِفْتَاحَ الْبَيْتِ، كَمَا أَعْطَاهُ السَّقَايَةَ وَاللِّوَاءَ وَالرِّفَادَةَ، وَكَانَتِ الرِّفَادَةُ قَسْطًا تَخْرُجُهُ قُرَيْشٌ كُلُّ عَامٍ مِنْ أَمْوَالِهَا فَتُدْفَعُ إِلَى قُصَيٍّ يَصْنَعُ مِنْهُ فِي مَوْسَمِ الْحَجِّ طَعَامًا يَنَالُ مِنْهُ مِنَ الْحَاجِّ مَنْ لَمْ يَكُنْ ذَا سَعَةٍ وَلَا زَادٍ. وَكَانَ قُصَيٌّ أَوَّلَ مَنْ فَرَضَ الرِّفَادَةَ عَلَى قُرَيْشٍ حِينَ جَمَعَهُمْ وَاعْتَرَجَ بِهِمْ وَأَخْرَجَ وَإِيَّاهُمْ خِزَاعَهُ مِنْ مَكَّةَ. فَفَرَضَهَا عَلَيْهِمْ وَقَالَ لَهُمْ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إِنَّكُمْ جِيرَانُ اللَّهِ وَأَهْلُ بَيْتِهِ وَأَهْلُ حَرَمِهِ، وَإِنَّ الْحَاجَّ ضَيْفَ اللَّهِ وَزُؤَارَ بَيْتِهِ، وَهُمْ أَحَقُّ الْأَضْيَافِ بِالْكَرَامَةِ، فَاجْعَلُوا لَهُمْ طَعَامًا وَشَرَابًا أَيَّامَ الْحَجِّ حَتَّى يَصْدُرُوا عَنْكُمْ»(٢).

وتولّى عبدالدار مناصب الكعبة كأمر أبيه وتولّاها أبناؤه من بعده(٣).

لكنَّ أبناء عبدمناف كانوا أشرف في قومهم وأعظم مكانه. لذلك أجمع هاشم وعبدشمس والمطلب ونوفل بنو عبدمناف على أن يأخذوا ما بأيدي أبناء عموماتهم. وتفرّق رأى قريش: تنصر طائفه هؤلاء وأخرى أولئك. وعقد

ص: ١١٩

١- (١) تاريخ الطبرى: ٥٠٨/١، والبدايه والنهايه: ١٤٩/٢.

٢- (٢) تاريخ الطبرى: ٥٠٨/١، والبدايه والنهايه: ١٤٩/٢ و ١٥١.

٣- (٣) المصادر السابقه.

بنوعبدمناف حلف المُطَيِّين لأنهم غمّسوا أيديهم في طيب جاءوا به إلى الكعبه وأقسموا لا ينقضون حلفهم. وعقد بنو عبدالدار حلف الأحلاف.

وكان هؤلاء وأولئك يوشكون أن يقتتلوا في حرب تذيب قريشاً؛ إذ تداعى الناس إلى الصلح على أن يعطوا بنى عبد مناف السقايه والرفاده، وأن تبقى الحجابيه واللواء والندوه لبني عبدالدار. ورضى الفريقان بذلك، وظل الأمر عليه إلى أن جاء الإسلام(١).

وكان هاشم كبير قومه، وكان ذا يسار، فولّى السقايه والرفاده ودعا قومه إلى مثل ما دعاهم إليه قصى جدّه، دعاهم إلى أن يخرج كلّ منهم من ماله ما ينفقه هو في إطعام الحاج أثناء الموسم. فزوّر الله وحجاج بيته هم ضيف الله، وأحقّ الضيف بالكرامه ضيف الله. وكذلك كان يُطعم الحاج جميعاً حتى يصدروا عن مكّه. ولم يقف أمر هاشم عند هذا، بل اتصل بزه وكرمه بأهل مكّه أنفسهم. أصابتهم سنه بجذب، فجاء لهم من الطعام وثردهم الثريد بما جعلهم ينظرون من جديد إلى الحياه بوجه باسم. وهاشم هو كذلك الذى سنّ رحلتى الشتاء والصيف، رحله الشتاء إلى اليمن، ورحله الصيف إلى الشام(٢).

وبهذه المظاهر كلّها ازدهرت مكّه وسيمت مكانتها في أنحاء شبه الجزيره جميعاً، واعتبرت العاصمه المعترف بها. وطوّع هذا الازدهار لأبناء عبدمناف أن يعقدوا مع جيرانهم معاهدات أمن وسلام: عقد هاشم بنفسه مع الأباطوريه الرومانيه ومع أمير غسان معاهده حسن جوار ومودّه، وحصل من الأباطور على الإذن لقريش بأن تجوب الشام فى أمن وطمأنينه. وعقد

ص: ١٢٠

١- (١) تاريخ الطبرى: ٥٠٨/١، والبدايه والنهايه: ١٥١/٢-١٥٢.

٢- (٢) تاريخ يعقوبى: ٢٤٢/١، ومجمع البيان للطبرى: ٥٤٥/٥، وبحار الأنوار: ٣٦-٣٩/١٥ و ٤١، سمط النجوم: ٢٠٨/١، تاريخ الطبرى: ٢٥٢/٢.

عبدشمس معاهدته تجاريه مع النجاشي، كما عقد نوفل والمطلب حلفاً مع فارس ومعاهدته تجاريه مع الحميريين في اليمن (١). وكذلك ازدادت مَكَّة منعه جاه، كما ازدادت يساراً. وبلغ أهلها من المهارة في التجاره حتى أصبحوا لا يدانيهم فيها ميدان من أهل عصرهم: كانت القوافل تجيء إليها من كل صوب وتصدر عنها في رحلتى الشتاء والصيف، وكانت الأسواق تنصب فيما حولها لتصريف هذه التجاره فيها، أو لتصريفها عنها؛ ولذلك مهر أهلها في النسيئه والربا، وفي كل ما يتصل بالتجاره من أسباب المعاملات.

وظل هاشم تتقدم به السن وهو في مكانته على رياسه مَكَّة لا يفكر أحد في منافسته، حتى خيل لابن أخيه أميّه بن عبدشمس أنه قد بلغ مكاناً يسوّل له هذه المنافسه. لكنّه لم يقدر وغلب على أمره، وبقي الأمر لهاشم، وترك أميّه مَكَّة إلى الشام عشر سنوات كامله (٢). وإن هاشماً لفي رحلته يوماً

ص: ١٢١

١- (١) تاريخ الطبرى: ٥٠٤/١، والتفسير الكبير للفيخر الرازى: ١٠٤/٢.

٢- (٢) بعد وفاه عبدشمس أخى هاشم أسفر أميّه النزق الطائش بالحقده على هاشم، وصعد الصراع وشن حرباً بارده ضده، وحاول أن يستقطب قريشاً من أجل إزاحه هاشم عن موقعه، فكلف نفسه أن يفعل كما يفعل هاشم من إطعام قريش، فعجز من أن يرقى إلى أخلاق هاشم لسوء طويته، فثمت به الناس وعابوه على هذه المزايده، فلم يرتدع وغضب لهذا الاحتجاج. (الطبقات لابن سعد: ٧٦/١، ترجمه هاشم بن عبد مناف والسيره الحلبيه: ٦٤ باب نسبه الشريف صلى الله عليه وآله). وفي ليله من الليالى دعا هاشم أميّه فقال له: إن لي سناً وإن لي حقاً عليك، وقد بلغنى ما أحب أن تدفعه عنك فاتق الله في قالتك عنى، فأجاب أميّه بحماقه وطيش: ما تكلمت إلأحقاً. فابتسم سيد قريش وأجابه: إن شرفى شرفك وإن تمسه لا تعز. وأخيراً راهن أميّه هاشماً على خمسين ناقه سود الحدق تُنحر بمكّه وعلى جلائه عشر سنين، ظناً منه فى أن يتخلص من هاشم، ويتولى الرئاسة بدله، وجعلا حكماً بينهما الكاهن الخزاعى جد عمرو بن الحمق، وكانت النتيجة لصالح هاشم، وخسر أميّه الجوله أمام سيد قريش. فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعم لحمها من حضر، وخرج أميّه إلى الشام، فأقام بها -

عائداً من الشام ماراً بيثرب إذ رأى امرأه ذات شرف وحسب تطلَّ على قوم يتَّجرون لها. تلك سلمى بنت عمرو الخزرجيه. وقد أُعجب هاشم بها وسأل أهي في عصمه رجل؟ فلما عرف أنها مُطلَّقه وأنها لا ترضى زوجاً إلا أن تكون عصمتها بيدها خطبها إلى نفسها فرضيت لعلمها بمكانته من قومه، وأقامت معه بمكَّه زمناً عادت بعده إلى المدينه حيث ولدت له ولداً دعتة

شبيه ظلّ معها يثرب(١).

ومات هاشم بعد سنين من ذلك بغزّه أثناء إحدى رحلات الصيف، فخلفه أخوه المطّلب في مناصبه. وكان المطّلب أصغر من أخيه عبدشمس، ولكّنه كان ذا شرف في القوم وفضل، وكانت قُرَيْش إنّما تُسمّيه الفيض لسماحته وفضله. وطبيعيّ وذلك مكان المطّلب من قومه أن تبقى الأمور تسير سيرتها مطمئنّه هائنه.

وفكر المطّلب يوماً في ابن أخيه هاشم. فذهب إلى يثرب وطلب إلى سلمى أن تدفع إليه الفتى وقد بلغ أشده. وأردف المطّلب الفتى على بعيره ودخل به مكّه، فظنّته قُرَيْش عبداً له جاء به فتصايحت: عبدالمطّلب. قال المطّلب: ويحكم! إنّما هو ابن أخي هاشم قدمت به من يثرب. على أنّ هذا اللقب غلب على الفتى فدعى به، ونسى الناس اسم شبيهه الذي دُعي به منذ وُلد(٢).

وأراد المطّلب أن يرد على ابن أخيه أموال هاشم. لكنّ نوفلاً أبى ووضع يده عليها. فلما اشتدّ ساعد عبدالمطّلب استعدى أخواله يثرب على عمّه كي يردّوا عليه حقّه. وأقبل ثمانون فارساً من خزرج يثرب لنصرته، فاضطرّ نوفل إلى ردّ ماله إليه(٣). وقام عبدالمطّلب في مناصب هاشم، له السقايه والرفاده من بعد عمّه المطّلب. وقد لقي في القيام بهذين المنصبين وبالسقايه بنوع خاص، شيئاً غير قليل من المشقه. فقد كان إلى يومئذٍ وليس له من الأبناء إلّا ولده الحارث. وكانت سقايه الحاجّ يؤتى بها، منذ نضبت زمزم، من

ص: ١٢٣

١- (١) الكامل في التاريخ لابن الأثير: ٦/٢، وتاريخ الطبرى: ٨/٢-٩، والسيره الحلبيه: ٦/١، وبحار الأنوار: ٣٩/١٥ و ٥٠-٥١.

٢- (٢) تاريخ الطبرى: ٥٠/١، والكامل في التاريخ: ٦/٢، بحار الأنوار: ٥٨/١٥ و ٦٤.

٣- (٣) تاريخ الطبرى: ٥٠٣/١، والكامل في التاريخ: ٧/٢.

آبار عده مبعثره حول مكه، فتوضع فى أحواض إلى جوار الكعبه. وقد كانت كثره الولد عوناً على تيسير هذا العمل والإشراف عليه. فأما ولم يكن لعبدالمطلب من ولد حين وُلّي السقايه والرفاده إلّا الحارث، فقد عناه الأمر وطال فيه تفكيره(١).

وكانت العرب ماتفتاً تذكر زمزم منذ طمها مُضاض بن عمرو الجرهمي لثلاثمائه من السنين خلت، وتتمنى لو أنها كانت باقيه ما تزال.

وكان عبدالمطلب بطبعه مركزه أكثرهم تفكيراً فى هذا الأمر وأشدّهم تمنياً أن يكون. ولقد ألح الرجاء به حتى كان يهتف به الهاتف أثناء نومه يحضّه على أن يحفر البئر التى تفجرت تحت أقدام جدّه إسماعيل. وألح الهاتف يدله على مظانّ وجودها، وألح هو باحثاً عن زمزم حتى اهتدى إليها بين الوثنين أساف ونائله. وجعل يحفر مستعيناً بابنه الحارث حتى نبغ الماء وظهرت غزالتا الذهب وأسياف مُضاض الجرهمي. وأرادت قريش أن تشارك عبدالمطلب فى البئر وفيما وجد فيها، فقال لهم: لا، ولكن هلمّ إلى أمر نصّف بينى وبينكم. نضرب عليها بالقداح نجعل للكعبه قدحين، ولى قدحين، ولكم قدحين. فمن خرج قدحاه على شىء كان له. ومن تخلف قدحاه فلا شىء له.

فارتضوا رأيه، ثم أعطوا القداح صاحب القداح الذى يضرب بها عند هبل فى جوف الكعبه. فتخلف قدحاً قريش وخرجت الأسياف لعبدالمطلب والغزالتان للكعبه، فضرب عبدالمطلب الأسياف باباً للكعبه وضرب فى الباب غزالتا الذهب حليه للبيت الحرام. وأقام عبدالمطلب فى سقايه الحاج

ص: ١٢٤

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ١٤٣/١-١٤٤ والطبقات الكبرى: ٨٣/١ وبحار الأنوار: ٧٥/١٥-٧٦.

بعد أن يسرتها زمزم له (١).

وأحسَّ عبدالمطلب قله حوله في قومه لقله أولاده، فنذر إن ولد له عشرة بنين ثمَّ بلغوا معه حتى يمنعوه من مثل ما لقي حين حفر زمزم لينحرنَّ أحدهم لله عند الكعبة. وتوفى بنوه عشرة أنس فيهم المقدره على أن يمنعوه، فدعاهم إلى الوفاء بنذره فأطاعوا. وفي سبيل هذا الوفاء كتب كل واحد من الأبناء اسمه على قرح، وأخذها عبدالمطلب وذهب بها إلى صاحب القداح عند هبل في جوف الكعبة. وكانت العرب كلما اشتدت بها الحيره في أمر لجأت إلى صاحب القداح، كى يستفتى لها كبير الآلهه الأصنام عن طريق القداح. وكان عبدالله بن عبدالمطلب أصغر أبنائه وأحبهم لذلك إليه. فلما ضرب صاحب القداح القداح التى عليها أسماء هؤلاء الأبناء ليختار هبل من بينها من ينحره أبوه خرج القرح على عبدالله؛ فأخذ عبدالمطلب الفتى بيده وذهب به ينحره، حيث كانت تنحر العرب عند زمزم بين إساف ونائله، إذ ذاك قامت قريش كلها من أنديتها تهيب به ألا يفعل، وأن يلتمس عن عدم ذبحه عند هبل عذراً. وتردّد عبدالمطلب لدى إلحاحهم وسألهم ما عساه يفعل لترضى الآلهه؟ (٢) قال المغيره بن عبدالله المخزومى: إن كان فداؤه بأموالنا

ص: ١٢٥

١- (١) تاريخ الطبرى: ٥٠٣/١، والكامل فى التاريخ: ٧/٢-٨، والبدايه والنهايه: ١٩٦/٢-١٩٨، وبحار الأنوار: ١٧٣/٥، اليعقوبى: ٢٤٦/١-٢٤٧، فروع الكافى: ٢٢٥/٣.

٢- (٢) لما عزم عبدالمطلب على حفر زمزم ولقى من قريش ما لقى عند ذاك نذر لله لئن ولد له عشرة أولاد بلغوامعه حتى يمنعوه لينحرنَّ أحدهم لله عند الكعبة، فلما توفى له بنوه عشرة وعرف أنهم سيمنعونه، جمعهم ثمَّ أخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك. فلما سمع منه الأولاد ذلك أطاعوه، وقالوا: كيف نصنع؟ قال: يأخذ كل رجل منكم قرحاً ثمَّ يكتب فيه اسمه، ثمَّ اتئونى به ففعلوا، ثمَّ أتوا به فدخل -

فديناه. وشاور القوم واستقر رأيهم على الذهاب إلى عزّافه بيثرب، لها في مثل هذه الأمور رأي. وجاءوا العزّافه فاستمهلتهم إلى الغد، ثمّ قالت لهم: كم الديه فيكم؟ قالوا: عشر من الإبل. قالت: فارجعوا إلى بلادكم ثمّ تقربوا وقربوا عشراً من الإبل، ثمّ اضربوا عليه وعليها بالقداح، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربّكم. وفعّلوا وجعلت القداح تخرج على عبد الله فيزيدون في

الإبل حتى بلغت مئه؛ عند ذلك خرجت القداح على الإبل. فقالت قُريش لعبدالمطلب وكان أثناء ذلك كله واقفاً يدعو ربّه: قد رضى ربك يا عبدالمطلب. قال عبدالمطلب: لا والله، حتى أضرب عليها ثلاث مرات. وفي المرات الثلاث خرجت القداح على الإبل؛ فاطمأنّ عبدالمطلب إلى رضى ربّه ونُحرت الإبل، ثمّ تركت لا يصدّ عنها إنسان ولا يمنع (١).

بذلك تجرى كتب السيره فتصف طرفاً من عادات العرب وعقائدها وطقوس هذه العقائد، وتدل في نفس الوقت على ما بلغت مكّه في بلاد العرب من مقام كريم بيئتها الحرام. على أنّ الطبرى يروى قصة الفداء وخروج القداح على عبدالله وافتدائه بالمئه من الإبل، ثمّ يذكر أن مروان أمير المدينة لما عرف ذلك أنكروه، وقال: لا نذر في معصيه، فلم تنحر الإبل. واعتبرت مقالته هذه سنّه متّبعه عند العرب (٢).

أدّت مكانه مكّه ومقام بيئتها الحرام، إلى إقامه بعض البلاد البعيده معابد فيها، لعلّها تصرف الناس عن مكّه وعن بيئتها. فأقام الغساسنه بيتاً بالحيره، وأقام أبرهه الأشرم بيتاً باليمن، فلم يغن ذلك العرب عن بيت مكّه ولا هو صرفهم عنها. وقد غنى أبرهه بزخرفه بيت اليمن غايه العنايه وجلب له من فاخر الأثاث ما خُيّل إليه معه أنّه صارف العرب وصارف أهل مكّه أنفسهم إليه. فلمّا رأى العرب لا تتجه إلّا إلى البيت العتيق، ورأى أهل اليمن يدعون

ص: ١٢٧

١- (١) القصة بالتفصيل فى تاريخ اليعقوبى: ٢٥١/١.

٢- (٢) تاريخ الطبرى: ١/٤٩٧، وسائل الشيعة: ٣١٧/٢٣، باب أنّه لا ينعقد النذر فى معصيه ولا مرجوح، وفيه ١٢ حديثاً، ح ٢ عن التهذيب عن الباقر عليه السلام عن النبى صلى الله عليه وآله قال: «لا نذر فى معصيه».

البيت الذى بُنى ولا يعتبرون حجّهم مقبولاً إلّا بمكّه، لم يجد عامل النجاشى وسيله إلّا هدم بيت إبراهيم وإسماعيل. وتهدى للحرب فى جيش من الحبشه تقدّمه هو على فيل عظيم ركبّه. فلمّا سمعت العرب ذلك خافت العاقبه وعظم عليها أن يُقدم رجل حبشى على هدم بيت حجّهم ومقام أصنامهم. وهبّ رجل كان من أشرف أهل اليمن وملوكها يُدعى ذانقر فاستنفر قومه ومن أجاب من غيرهم من العرب لمقاتله أبرهه وصدّه عمّا يريد من هدم بيت الله.

لكنّه لم يستطع أن يصمد لأبرهه بل هُزم وأخذ أسيراً، وهُزم كذلك نُفيل بن حبيب الخثعمى حين جمع قومه من قبيلتى شهران وناهس وأخذ هو أسيراً، فأقام نفسه دليلاً لأبرهه وجيشه. فلمّا نزل أبرهه الطائف كلمه أهلها بأنّ بيتهم ليس هو البيت الذى يريد، إنّما هو بيت اللات. وبعثوا معه بمن يدله على مكّه. فلمّا اقترب أبرهه من مكّه بعث رجلاً من الجيش على فرسان له، فساق إليه أموال أهل تهامه من قريش وغيرهم، وبينها مئه بعير لعبدالمطلب بن هاشم. وهمت قريش ومن معهم من أهل مكّه بقتاله، فأرأوا أن لا طاقة لهم به.

وبعث أبرهه رجلاً من رجاله يُدعى حنّاطه الحِميرى سأل عن سيّد مكّه فذهبوا به إلى عبدالمطلب بن هاشم، فأبلغه رساله أبرهه إليه أنّه لم يأت لحرب وإنّما جاء لهدم البيت، فإن لم تحاربه مكّه فلا حاجه له بدماء أهلها.

فلَمّا ذكر له عبدالمطلب أنّهم لا يريدون حرباً سار به حنّاطه ومع عبدالمطلب بعض أبنائه وبعض كبراء مكّه حتى بلغوا معسكر الجيش. وأكرم أبرهه وفاده عبدالمطلب وأجابه إلى ردّ إبله إليه. لكنّه رفض رفضاً باتاً كل حديث فى أمر الكعبه ورجوعه عن هدمه، برغم ما عرض عليه وفد مكّه من النزول له عن

ثلث ثروه تهامه. وعاد عبدالمطلب وقومه إلى مكّه، فنصح إلى الناس بها أن يخرجوا منها إلى شتّاب الجبل من خيفه أبرهه وجيشه حين يدخلون البلد الحرام لهدم البيت العتيق. وكانت ليله ليلاء تلك التي فكّر فيها القوم في هجر بلدهم وماهو نازل بها وبهم. ذهب عبدالمطلب ومعه نفر من قريش فأخذ حلقه باب الكعبه وجعل يدعو ويدعون يستنصرون آلتهم على هذا المعتدى على بيت الله. فلمّا انصرفوا وختل مكّه منهم وآن لأبرهه أن يوجّه جيشه ليتم ما اعترم فيهدم البيت ويعود أدراجه إلى اليمن، كان وباء الجدري قد تفشّى في الجيش وبدأ يفتك به، وكان فتكاً ذريعاً لم يعهد من قبل قطّ. ولعلّ جراثيم الوباء جاءت مع الريح من ناحيه البحر. وأصابت العدوى أبرهه نفسه، فأخذه الروع وأمره قومه بالعوده إلى اليمن. وفرّ الذين كانوا يدلّون على الطريق ومات منهم من مات. وكان الوباء يزداد كلّ يوم شده ورجال الجيش يموت منهم من يموت كلّ يوم بغير حساب. وبلغ أبرهه صنعاء وقد تناثر جسمه من المرض. فلم يقم إلّا قليلاً حتى لحق بمن مات من جيشه (١). وبذلك أرّخ أهل مكّه بعام الفيل، هذا وقدسه القرآن بذكره: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ٢/٣.

ص: ١٢٩

١- (١) مجالس الشيخ المفيد: ١٣٠/١٥-١٣٢، ٣١٢ ب ٣٧ ح ٥، وأمالى الشيخ الطوسى: ٧٨/٣.

زاد هذا الحادث الفذّ العجيب في مكانه مكّه الدينيه، وزاد تبعاً لذلك في مكائنها التجاربه، وزاد أهلها انصرافاً عن التفكير في شىء غير الاحتفاظ بتلك المكانه الرفيعه الممتازه؛ ومحاربه كل من يحاول الانتقاص منها أو الاعتداء عليها(١).

وزاد المكّين حرصاً على مكانه مدينتهم ما كانت تتيحه لهم من رخاء وترف على أوسع صوره يستطيع الذهن تصوّرها للترف في هذه الجهه الصحراويه البلقع(٢) الجرداء. فكان لأهلها غرام بالنبيذ أى غرام، وكانوا يجدون في النشوه به نعيماً أى نعيماً؛ نعيماً ييسّر لهم أن يطلقوا لشهواتهم أعتتها، وأن يجدوا في الجوارى والعبيد الذين يتّجرون فيهم والذين يشترون مُتّعاً تغريهم بالمزيد منها، وتغريهم كذلك بالحرص على حريتهم وحرية مدينتهم، وباليقظه للذود عن هذه الحرية ودفع كلّ معتد أثيرم تُحدّثه نفسه بالجنايه عليها.

ولم يكن شىء أشهى لهم من أن يجعلوا سمرهم وشرابهم في سرّه المدينه حول بناء الكعبه(٣). هناك إلى جانب ثلاثمائه صنم أو تزيد، لكلّ قبيله من قبائل العرب بينها صنم أو أكثر، كان أكابر قريش والمقدّمون من

ص: ١٣٠

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٤٣/١، الكامل في التاريخ: ٢٦٠/١، والبدايه والنهايه: ١٠١/٢.

٢- (٢) البلقع والبلقع: الأرض القفر التي لا شىء بها - صحاح الجوهري: ١١٨٨/٣.

٣- (٣) لا يمكن الأخذ بهذا التعليل على وجه الإطلاق وقد تحدث المؤلف قبل قليل عن هجوم أبرهه والموقف السلبي لقريش ازاء هذا الحدث.

أهل مَكَّة يجلسون، يقصّ كلٌّ منهم أمر ما اتصل به من أخبار البادية واليمن وجماعه المناذره في الحيره والغساسنه في الشام، ممّا ترد به القوافل أو يتناقله سكان البادية، يصل إليهم على سبيل الروايه تتناقلها قبيله عن قبيله، وكأنّ كلّ قبيله لها مُذيع ومُلتقط لاسلكي يتلقّى الأنباء ويذيعها. يقصّ كلّ ما اتصل به من أخبار البادية ويروي روايات جيرانه وأصحابه ويشرب نبيذه ويعدّ نفسه بعد سمر الكعبه لسمر أشيع لأهوائه وأمتع لشهواته، وتطل هذه الأصنام بعيونها الحجرية على مجالس السمر هذه، وللسامرين فيها من الحماية أن جعلت الكعبه بيتاً حراماً ومكّه بلداً آمناً، وللأصنام على السامرين ألماً يدخل مكّه كتابي إلا أن يكون أجيراً لا يتحدث بشيء من أمر دينه ومن أمر كتابه. ولذلك لم تكن ثمّة جاليات من اليهود كما كانت بيثرب، ولا من النصارى كما كانت بنجران. وإنّما كانت كعبتها قدس أقداس الوثنيه تحميها من كلّ مجدّف في أمرها، وتحتمى بها من العدوان عليها، وتستقل بنفسها، كما كانت تستقل كلّ قبيله من قبائل العرب بنفسها، لا ترضى لغيرها عليها سلطاناً، ولا ترضى باستقلالها بديلاً، ولا تُعنى من الحياه بغير هذا الاستقلال في حمى أو ثانها؛ لا تضار قبيله قبيله أخرى ولا تفكر طائفه من القبائل في الارتباط لتكون جماعه قويه، لها ما للروم أو للفرس من مطامع في السيادة والغزو، أو لها كيان غير كيان البداوه تنتجع في ظلاله المرعى، وتعيش في كنفه عيشاً خشناً يحببه إليها ما فيه من استقلال وحرية وأنفه وفروسيه.

وكانت منازل أهل مكّه تحيط بداره الكعبه وتقترب منها أو تباعد عنها

تبعاً لما لكل أسره وفخذ من جلال خطر وجليل مقام؛ فكان القرشيون أقربهم إليها داراً وأكثرهم بها اتصالاً، كما كانت لهم سدانتها وسقايه زمزم وكلّ ألقاب التشريف الوثنيه التي قامت في سبيلها حروب، وانعقدت من أجلها أحلاف، ووضعت من أجلها بين القبائل معاهدات صلح كانت تُحفظ في الكعبه تسجيلاً لها واشهاداً للآلهه - الأصنام - على ما فيها حتى ينزل غضبها بمن يُخلّ بتعهداتها. وفيما وراء منازل قُريش كانت تجيء منازل القبائل التي تليها في الخطر، ثمّ تلي هذه منازل من دونهم، حتى تكون منازل العبيد والخلعاء المستهترين. وكان النصارى واليهود بمكّه عبيداً، كما قدّمنا، فكان مقامهم بهذه المنازل البعيده عن الكعبه المتاخمه للصحراء؛ ولذلك كان ما يتحدثون به من قصص دينيه عن النصرانيه واليهوديه بعيداً عن أن يتصل بسمع أمجاد قُريش وأشرف أهل البلد الحرام. على أنّ بعده، كما أتاح لهم أن يصمّوا دونه آذانهم، قد جعله بحيث لا يشغل بالهم، وهم قد كانوا يسمعون مثله أثناء رحلاتهم كلما مروا بدير من الأديره أو صومعه من الصوامع، وإن كان ما بدأ يتحدث به الناس عن نبيّ يظهر بين العرب قد أخذ يقلق بعض المضاجع، حتى لقد عتب أبو سفيان يوماً على أمّيه بن أبي الصّلت كثره تكريره لما يذكره الرهبان من هذا الأمر. وربما كان من حقّ أبي سفيان يومئذ أن يقول

لصاحبه: إن هؤلاء الرهبان إنما يتحدثون عن ذلك بما يتحدثون لأنهم في جهل من أمر دينهم، فهم بحاجة إلى نبي يدلهم عليه؛ أما نحن الذين يتخذون الأصنام ليقربوهم إلى الله زُلفى فلا حاجة بنا إلى شيء من هذا، ويجب علينا أن نحارب كل حديث من مثله. كان من حقه أن يقول هذا؛ لأنه في تعصبه لمكة ووثنيته لم يكن يقدر أن ساعه الهدى بالباب، وأن نبوه محمّد عليه السلام اقتربت، وأن من بلاد العرب الوثنيه المتدابره سيُضىء العالم كله نور التوحيد وكلمه الحق. وكان عبدالله بن عبدالمطلب فتىً وسيماً جميل الطلعه. وكانت أوانس مكّه ونساؤها معجبات لذلك به. وزادهن اعجاباً حديث الفداء والمائه من الإبل التي لم يرض هبل بما دونها فداءً له. لكنّ القدر كان قد أعدّ عبدالله لأكرم أبوه عرف التاريخ، وقد أعدّ آمنه بنت وهب لتكون أمّاً لابن عبدالله؛ لذلك تزوّجها. ولم تك إلا أشهر بعد زواجه منها حتى مات، لم ينجه من الموت فداءً أيّاً كان نوعه. وبقيت آمنه من بعده لتلد محمّداً ولتموت ومحمّد ما يزال طفلاً (١).

ص: ١٣٣

١- (١) وهذه شجره النسب ومعها أهم تواريخ ميلاد أصحابها على وجه التقريب: قُصِي (ولد سنة ٤٠٠ م)

الفصل الثالث: محمّد: من ميلاده إلى زواجه

زواج عبد الله من آمنه، وفاه عبد الله، مولد محمّد، رضاعه في بنى سعد، قصه المَلَكِين، مقامه خمس سنوات بالباديه، موت آمنه، كفالته عبدالمطلب إيّاه، موت عبدالمطلب، كفالته أبي طالب إيّاه، خروجه إلى الشام في الثانيه عشره من عمره، حرب الفُجار، يرمى الغنم، خروجه في تجاره خديجه إلى الشام، زواجه من خديجه.

كان عبدالمطلب قد جاوز السبعين أو ناهزها حين حاول أبرهه مهاجمه مكّه وهدم البيت العتيق. و كان ابنه عبد الله في الرابعه والعشرين من سنّه، فرأى أن يزوجه، فاختر له آمنه بنت وهب بن عبدمناف بن زُهره سيّد بنى زهره إذ ذاك سنّاً وشرفاً. وخرج به حتى أتى منازل بنى زُهره، ودخل إيّاه عند وهب وخطب إليه ابنته، ويذهب بعض المؤرخين (1) إلى أنّه إنّما ذهب إلى أُهَيْب عمّ آمنه، لأنّ أباه كان هلك وكانت هي في كفالته عمّها. وفي اليوم الذي تزوّج عبد الله فيه من آمنه، تزوج عبدالمطلب من ابنه عمّها هاله فأولدها حمزه عمّ النبيّ وضريبه (2) في سنّه (3).

ص: ١٣٥

١- (١) السيره الحلبيه: ٣٩١/١، وأنساب الأشراف للبلاذري: ٨٧/١.

٢- (٢) الضريب: المثل والنظير كما قال ابن الأثير: وفي حديث ابن عبدالعزيز: إذا ذهت هذا وضرباؤه! «هم الأمثال والنظراء»، واحدهم: ضريب. النهايه في غريب الحديث: ٨٠/٣.

٣- (٣) تاريخ الطبرى: ٥٠٠/١، والسيره الحلبيه: ٤٤/١.

وأقام عبدالله مع آمنه في بيت أهلها ثلاثة أيام على عادة العرب، حين يتم الزواج في بيت العروس. فلما انتقل وإياها إلى منازل بني عبدالمطلب لم يقيم معها طويلاً، إذ خرج في تجاره إلى الشام وتركها حاملاً. وتختلف الروايات في أمر عبدالله وهل تزوج غير آمنه، وهل عرضت عليه نساء غيرها أنفسهن؟ والوقوف لتقصي أمثال هذه الروايات لا غناء فيه (١). وكل ما يمكن الاطمئنان إليه أن عبدالله كان شاباً وسيماً قوياً؛ فلم يكن عجيباً أن تطمع غير آمنه في الزواج منه. فلما بنى بها تقطعت بغيرها أسباب الأمل ولو إلى حين.

ومن يدري! لعلهنّ قد انتظرن أوبته (٢) من رحلته إلى الشام ليكن زوجات له مع آمنه. على أنه بعد أن مكث في رحلته هذه الأشهر التي يقتضيها الذهاب إلى غزه والعود منها عرج على أخواله بالمدينه يستريح عندهم من عناء السفر، ليقوم بعد ذلك في قافله إلى مكه؛ لكنّه مرض عند أخواله فتركه رفاقه؛ حتى إذا بلغوا مكه أخبروا أباه بمرضه. ولم يلبث عبدالمطلب أن سمع منهم حتى أوفد الحارث أكبر بنيه إلى المدينه ليعود مع أخيه بعد إبلاله (٣). وعلم الحارث حين بلغ المدينه أن عبدالله مات ودفن بها بعد شهر من مسير القافله إلى مكه، فرجع أدراجه ينعي أخاه إلى أهله ويثير من قلب عبدالمطلب ومن قلب آمنه همماً وشجناً لفقد زوج كانت آمنه ترجو في حياته هناء وسعاده، وكان عبدالمطلب عليه حريصاً حتى افتداه من آلهته (٤) فداءً لم تسمع العرب

ص: ١٣٦

-
- ١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ١٥٥/١-١٥٧، وتاريخ الطبري: ٤٩٩/١، والكامل في التاريخ: ٤/٢.
 - ٢- (٢) يُقال: آب فلان إلى سيفه، أي: ردّ يده إلى سيفه، وآب الغائب يؤوب أوباً، أي: رجع - العين: ٤١٦/٨.
 - ٣- (٣) إبلال: بُرء، المعجم الوسيط: ٧٠.
 - ٤- (٤) هذا التعبير لا ينسجم مع ما مرّ من كون عبدالمطلب حنيفاً موحداً.

من قبل بمثله (١).

و ترك عبد الله من بعده خمسه من الإبل و قطيعا من الغنم و جاريه هي أمّ أيمن حاضنه النبي من بعد. و قد لا تكون هذه الثروه مظهر ثراء و سعته؛ لكنّها كذلك لم تكن تدل على فقر و متربه (٢). و قد كان عبد الله و ما يزال في مقتبل عمره قديرا على الكسب و العمل و البلوغ إلى السعه في المال، كما أن أباه كان ما يزال حيّا فلم يؤل إليه شيء من ميراثه (٣).

و تقدّمت بآمنه أشهر الحمل حتى وضعت كما تضع كل أنثى. فلمّا تمّ لها الوضع بعثت إلى عبدالمطلب عند الكعبه تخبره أنّه ولد له غلام. و فاض بالشيخ السرور حين بلغه الخبر، و ذكر ابنه عبد الله و قلبه مفعم بالغبطه لخلفه، و أسرع إلى زوج ابنه و أخذ طفلها بين يديه، و سار حتى دخل به الكعبه و سمّاه محمّدا. و كان هذا الاسم غير متداول بين العرب، و لكنّه كان معروفا. وردّ الجدّ الصبّبي إلى أمّه و جعل و إياها ينتظر المراضع من بنى سعد لتدفع الأمّ بوليدها إلى إحداهن، على عاده أشراف العرب من أهل مكّه (٤).

و قد اختلف المؤرخون في العام الذي ولد محمّد فيه؛ فأكثرهم على أنّه عام الفيل (٥) (٥٧٠ ميلاديه)، و يقول ابن عباس: إنّهُ ولد يوم

ص: ١٣٧

١- (١) تاريخ الطبرى: ٥٠٠/١-٥٠١، و الكامل في التاريخ: ٥/٢، و السيره الحلبيه: ٥٠/١.

٢- (٢) متربه: المسكنه و الفاقه - صحاح الجوهري: ٩١/١.

٣- (٣) السيره الحلبيه: ٥٢/١، الطبقات الكبرى: ١٠٠/١، تاريخ الإسلام للذهبي: ٥٠/١، بحار الأنوار: ١٢٥/١٥ عن المنتقى في مولود المصطفى: الفصل الخامس من الباب الثامن من القسم الأول.

٤- (٤) الطبقات الكبرى: ١٠٣/١، سيره ابن هشام: ١٥٩/١-١٦٠، دلائل النبوه: ١١٢/١، بحار الأنوار: ٢٥٦/١٥ عن الأما لى للشيخ الصدوق: ٣٣٦، تيسير المطالب فى أما لى الإمام أبى طالب: ٤٠.

٥- (٥) السيره النبويه لابن هشام: ١٥٨/١، تاريخ يعقوبى: ٣٢٧/١، و تاريخ الطبرى: ٤٥٣/١، و الكامل فى التاريخ: ٢٦٩/١، إعلام الورى: ٤٢/١، و كشف الغمّه: ١٤/١، و الكافى للكلينى: ٤٣٩/١.

الفيل (١). و يقول آخرون: إنه ولد قبل عام الفيل بخمس عشره سنه (٢)، و يذهب غير هؤلاء إلى أنه ولد بعد الفيل بأيام، و بأشهر (٣) و بسنين يقدرها قوم بثلاثين سنه و يقدرها قوم بسبعين (٤).

و اختلف المؤرخون كذلك فى الشهر الذى ولد فيه، و إن كانت كثرتهم على أنه ولد فى شهر ربيع الأول (٥). و قيل: ولد فى المحرم (٦)، و قيل: ولد فى صفر (٧). و البعض يرجح رجباً (٨) على حين يرجح آخرون شهر رمضان (٩).

كذلك اختلف فى تاريخ اليوم من الشهر الذى ولد فيه؛ فقليل: ولد لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول (١٠). و قيل لثمان ليال (١١)، و قيل لتسع.

و الجمهور على أنه ولد فى ثانى عشر شهر ربيع الأول (١٢)، و هو قول ابن إسحاق (١٣) و غيره (١٤).

ص: ١٣٨

١- (١) سيره ابن هشام: ١٥٨/١، الطبقات الكبرى: ١٠٠/١، السيره الحلبيه: ٥٨/١.

٢- (٢) البدآيه و النهايه: ٢١٧/٢، السيره الحلبيه: ٥٩/١.

٣- (٣) البدآيه و النهايه: ٢١٧/٢، و السيره الحلبيه: ٥٨/١.

٤- (٤) السيره الحلبيه: ٥٩/١.

٥- (٥) سيره ابن هشام: ١٥٨/١، البدآيه و النهايه: ٢١٥/٢، و السيره الحلبيه: ٥٨/١، و إعلام الورى: ٤٢/١، و كشف الغمّه: ١٤/١،

كمال الدين: ١٩٦ و روضه الواعظين: ٧٠، بحار الأنوار: ٢٤٨/١٥، منتهى الآمال: ٥٧/١.

٦- (٦) البدآيه و النهايه: ٢١٦/٢، السيره الحلبيه: ٥٧/١.

٧- (٧) السيره الحلبيه: ٥٧/١.

٨- (٨) السيره الحلبيه: ٥٧/١.

٩- (٩) السيره الحلبيه: ٥٧/١.

١٠- (١٠) البدآيه و النهايه: ٢١٥/٢.

١١- (١١) البدآيه و النهايه: ٢١٥/٢.

١٢- (١٢) البدآيه و النهايه: ٢١٥/٢.

١٣- (١٣) البدآيه و النهايه: ٢١٥/٢.

١٤- (١٤) أمّا الروايات الصادره عن أئمه أهل البيت عليهم السلام فتحده فى يوم الجمعة السابع عشر من شهر ربيع الأول بعد

طلوع الفجر و هو المشهور بين الإماميه، كشف الغمّه: ١٤/١، إعلام الورى: ٤٢/١، روضه الواعظين: ٧٠، بحار الأنوار: ٢٧٩/١٥،

امتناع الأسماع: ٣، السيره الحلبيه: ٥٧/١، السيره النبويه: ١٩٩/١.

وكذلك اختلف فى الوقت الذى ولد فيه أكان نهاراً أم ليلاً(١) ، كما اختلف فى مكان و لا- دته بمكّه(٢). و يرحّج كوسان دبرسفال فى كتابه عن العرب أن "محّمّدا ولد فى ٢٠ أغسطس سنه (٥٧٠ م) - أى عام الفيل - و أنّه ولد بمكّه بدار جدّه عبدالمطلب.

و فى سابع يوم لمولده أمر عبدالمطلب بجزور فنحرت، و دعا رجالا من قريش فحضروا و طعموا. فلمّا علموا منه أنّه أسمى الطفل محّمّدا سألوه: لم رغب عن أسماء آبائه؟ فقال: أردت أن يكون محمودا فى السماء لله وفى الأرض لخلقه(٣).

انتظرت آمنه مجيء المراضع من بنى سعد لتدفع به إلى إحداهن " كعاده أشراف العرب من أهل مكّه. و لا تزال هذه العاده متّبعه عند أشراف مكّه إذ يبعثون أبناءهم للباديه فى اليوم الثامن من مولدهم، ثم لا يعودون إلى الحضرة حتى يبلغوا الثامنه أو العاشره. و من قبائل الباديه من لها فى المراضع شهره و من بينها قبيله بنى سعد(٤). على أن آمنه دفعت بالغلام إلى ثويبه جاريه عمّه أبى لهب فأرضعته زمنا كما أرضعت من بعد عمّه حمزه؛ فكانا أخوين فى الرّضاع(٥). و مع أن ثويبه لم ترضعه إلّا أياما فقد ظل يحفظ لها خير الودّ

ص: ١٣٩

١- (١) السيره الحلييه: ٥٧/١، و العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين: ٣٦٨/١.

٢- (٢) السيره الحلييه: ٦٢/١.

٣- (٣) السيره الحلييه: ٧٨/١، و عيون الأثر: ٣٨/١، و تيسير المطالب: ٤٠.

٤- (٤) السيره الحلييه: ٨٩/١.

٥- (٥) السيره النبويّه لا بن هشام: ١٦١/١، و تاريخ يعقوبى: ٣٣٠/١.

ويصلها ما عاشت، و لما ماتت فى السنه السابعه من هجرته إلى المدينه سأل عن ابنها الذى كان أخا له فى الرضاع ليصله مكانها فعلم أنه مات قبلها(١).

و جاءت مرضع بنى سعد إلى مكه يلتمسن الأطفال لإرضاعهن و كن يعرضن عن اليتامى، لأنهن كن يرتجبن البر من الآباء. أما الأيامى فكان الرجاء فيهن قليلا؛ لذلك لم تقبل واحده من أولئك المرضع على محمد، و ذهبت كل بمن ترجو من أهله و افر الخير(٢).

على أن حليمه بنت أبى ذؤيب السعديه التى أعرضت عن محمد أول الأمر(٣)، هى أيضا، لم تجد من يدافع إليها طفلها؛ ذلك أنها كانت على جانب من ضعف الحال صرف الأمهات عنها. فلتما أجمع القوم على الانطلاق عن مكه قالت حليمه لزوجها الحارث بن عبدالعزى: و الله إننى لأكره أن أرجع مع صواحبى و لم آخذ رضيعا. و الله لأذهبن إلى ذلك اليتيم و لأخذنه. و أجابها زوجها: لا عليك أن تفعلنى، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركه. و أخذت حليمه محمدا و انطلقت به مع قومها إلى البادية. و كانت تحدت أنها وجدت فيه منذ أخذته أى بركه: سمت غنمها و زاد لبنها و بارك الله لها فى كل ما عندها(٤).

ص: ١٤٠

١- (١) السيره الحليه: ٨٧/١.

٢- (٢) السيره النبويه لا بن هشام: ١٦٢/١، البدآيه و النهايه: ٢٣١/٢.

٣- (٣) السيره النبويه لا بن هشام: ١٦٢/١، ٣٣١/١٥، و الخرائج و الجرائح: ٨٢/١-٨٣.

٤- (٤) و يردّ هذا الزعم مكانه البيت الهاشمى الرفيعه و شخصيه جدّه الذى عرف بالجدود و الإحسان و مساعده المحرومين و المحتاجين.بالإضافه إلى أن أباه صلى الله عليه و آله - كما فى بعض المصادر - قد توفى بعد و لا دته بعده أشهر، و تشير المصادر التاريخيه إلى أنه صلى الله عليه و آله لم يقبل إلأئدى (حليمه)، بحار الأنوار: ٣٤١/١٥-٣٤٢، فضائل ابن شاذان: ٢٤. و يؤكد بطلان هذا الادعاء أيضا قول حليمه: استقبلنى عبدالمطلب فقال: من أنت؟ فقلت: أنا امرأه من بنى سعد، قال: ما اسمك؟ قلت: حليمه فتبسم عبدالمطلب وقال: بخ بخ سعد و حلم خصلتان فيهما خير الدهر و عزّ الأبد. و به تكون المبادره من عبدالمطلب لا من حليمه.راجع المناقب لا بن شهر آشوب: ٢٤/١، بحار الأنوار للمجلسى: ٣٤٢/١٥، السيره الحليه: ٨٩/١.

وأقام محمّد في الصحراء سنتين ترضعه حلیمه و تحضنه ابنتها الشّيماء، و يجد هو في هواء الصحراء و خشونه عيش البادية ما يسرع به إلى النمو و يزيد في و سامه خلقه و حسن تكوينه. فلمّا أتمّ سنتيه و آن فصّاله ذهب به حلیمه إلى أمّه، ثم عادت به إلى البادية، رغبه من أمّه في روآيه (١)، و رغبه من حلیمه في روآيه أخرى (٢). عادت به حتى يغلظ و خوفا عليه من و باء مكّه.

و أقام الطفل بالصحراء سنتين أخريين يمرح في جو باديتها الصحو الطليق، لا يعرف قيذا من قيود الروح، و لا من قيود المائده.

في هذه الفتره و قبل أن يبلغ الثالثه تقع الروآيه التي يقصّونها من أنّه كان مع أخيه الطفل من سنّه في بهم (٣) لأهله خلف بيوتهم، إذ عاد أخوه الطفل السعدى يعدو و يقول لأبيه و أمّه: ذلك أخى القرشى قد أخذه رجلا ن عليهما ثياب بيض، فأضجعا فشقّا بطنه، فهما يسوطانه (٤). و يروى عن حلیمه أنّها قالت عن نفسها و زوجها: «فخرجت أنا و أبوه نحوه فوجدناه قائما منتقعا (٥) وجهه، فالتزمته و التزمه أبوه، فقلنا له: مالك يا بنى؟ قال: جاءنى رجلا ن عليهما ثياب بيض فأضجعانى فشقّا بطنى فالتمسا فيه شيئا لم أدر ماهو».

ص: ١٤١

١- (١) السيره الحلبيه: ٩٢/١.

٢- (٢) السيره النبويه لا بن هشام: ١٦١/١، و تاريخ يعقوبى: ٣٣٠/١.

٣- (٣) بهم: البهيمه: اسم للذكر و الأنثى من أولاد بقر الوحش و ضروب الغنم و الجميع: البهم و البهام - العين: ٦٢/٤.

٤- (٤) يسوطانه: السوط: خلطك الشىء بالشىء، قال: مسوط لحمها بدمى و لحمى - العين: ٢٧٨/٧.

٥- (٥) منتقعا وجهه: أى متغيرا، السيره النبويه لا بن هشام: ١٦٥/١.

ورجعت حلیمه و رجع أبوه إلى خبائهما. و خشى الرجل أن يكون الغلام أصابته الجن فاحتملاه إلى أمه بمكّه. و يروى ابن إسحاق (١) في هذه الواقعة حديثاً عن النبي بعد بعثه. لكن ابن إسحاق يحتاط بعد أن يقص هذه القصة و يذكر أن السبب في رده إلى أمه لم يكن حكاية الملكين و إنما كان، على ما روته حلیمه لآمنه، أن نفرا من نصارى الحبشه رأوه معها حين رجعت به بعد فطامه، فنظروا إليه و سألوها عنه و قلبوه، ثم قالوا: لناخذن هذا الغلام فلنذهب به إلى ملكنا و بلدنا؛ فان هذا غلام كائن له شأن نحن نعرف أمره، و لم تكذ حلیمه تنفلت به منهم (٢). و كذلك يرويها الطبرى (٣)، لكنّه يحيطها بالرّيبه إذ يذكرها في هذه السنه من حياه محمّد، ثم يعود فيذكر أنّها وقعت قبيل البعث و سنّه أربعون سنه (٤).

لا- يطمئن المستشرقون و لا- يطمئن جماعه من المسلمين كذلك إلى قصه الملكين هذه و يرونها ضعيفه السند. فالذى رأى الرجلين في روآيه كتاب السيره إنّما هو طفل لا يزيد على سنتين إلّا قليلا، و كانت كذلك سن محمّد يومئذ. و الروآيات تجمع على أن محمّدا أقام بنى سعد إلى الخامسه من عمره (٥). فلو كان هذا الحادث قد وقع و عمره سنتان و نصف سنه، و رجعت حلیمه و زوجها إذ ذلك به إلى أمه، لكان في الروايتين تناقض غير مقبول،

ص: ١٤٢

١- (١) السيره النبويه لا بن هشام: ١٦٥/١.

٢- (٢) السيره النبويه لا بن هشام: ١٦٧/١.

٣- (٣) تاريخ الطبرى: ٤٥٧/١.

٤- (٤) لم نجد هذا المقطع في تاريخ الطبرى، و وجدناه في السيره الحلبيه: ٩٦/١.

٥- (٥) تاريخ اليعقوبى: ٣٣١/١، و الكامل في التاريخ: ٢٧٢/١.

ولذلك يرى بعض الكتّاب أنه عاد مع حليمه مره ثالثه(١). ولا- يرضى المستشرق «وليم موير» أن يشير إلى قصه الرجلين في ثيابهما البيضاء، و يذكر أنه إن كانت حليمه و زوجها قد نبها إلى شىء أصاب الطفل فلعلها نوبه عصبيه أصابته، و لم يكن لها أن تؤذى صحته لحسن تكوينه. و لعل «آخرين يقولون(٢): إنه لم يكن بحاجة إلى من يشق بطنه أو صدره ما دائم الله قد أعدّه من يوم خلقه لتلقى رسالته. و يرى «درمنجم» أن هذه القصة لا تستند إلى شىء غير المعنى الحرفى للآيه القرآنيه: أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صِدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۖ وَأَنْ مَا يُشِيرُ الْقُرْآنُ إِلَيْهِ إِنَّمَا هِيَ عَمَلِيهِ رُوحِيهِ بِحْتِهِ، الْفِكْرَهُ مِنْهَا تَطْهِيرُ هَذَا الْقَلْبِ وَتَنْظِيفُهُ لِيَتَلَقَّى الرَّسَالَةَ الْقُدْسِيَةَ خَالِصاً وَيُؤَدِّيَهَا مُخْلِصاً تَمَامَ الْإِخْلَاصِ مُحْتَمِلاً عَبَاءَ الرَّسَالَةِ الْمَضْنَى(٣).

وإنّ ما يدعو المستشرقين ويدعو المُفكّرين من المسلمين إلى هذا الموقف من ذلك الحادث، أنّ حياه «محمّد» كانت كلّها حياه إنسانيه ساميه، وأنّه لم يلجأ في إثبات رسالته إلى ما لجأ إليه من سبقه من الخوارق. وهم في هذا يجدون من المؤرخين العرب والمسلمين سنداً حين ينكرون من حياه النّبىّ العربى كلّ ما لا يدخل فى معروف العقل، ويرون ما ورد من ذلك غير متفق مع ما دعا القرآن إليه من النظر فى خلق الله، وأنّ سُنّه الله لن تجد لها تديلا. غير متفق مع تعبير القرآن المشركين بأنهم لا يفقهون أن ليست لهم

ص: ١٤٣

١- (١) السير وليم موير فى كتابه حياه محمّد.

٢- (٢) راجع تفسير غرائب القرآن للنيسابورى: ٥٢٢/٦.

٣- (٤) Lavie de Mahomet par Emile Dermenghem

وأقام «محمّد» في بني سعد إلى الخامسة من عمره، ينهل من جوّ الصحراء الطليق روح الحريه والاستقلال النفسى، ويتعلم من هذه القبيله لغه العرب مصفّاه أحسن التصفيه، حتى لقد كان يقول من بعد لأصحابه:

أنا أعربكم، أنا قرشئى واسترضعت في بني سعد بن بكر(٢). وتركت هذه السنوات الخمس في نفسه أجمل الأثر وأبقاه، كما بقيت حلیمه وبقي أهلها موضع محبته وإكرامه طوال حياته. أصابت الناس سنه جذب بعد زواج محمّد من خديجه، فجاءته حلیمه فعادت من عنده ومعها من مال خديجه بعير يحمل الماء وأربعون رأساً من الغنم(٣). وكانت كلما أقبلت عليه مدّ لها طرف رداثه

ص: ١٤٤

١- (١) قصه شق الصدر: وإن رواها ابن هشام في السيره النبويه: ١٧١/١، ورواها الطبرى في تاريخه: ١٥٨/٢. إلّا أنّ الملاحظ في روايه الطبرى، كونها تختلف عن روايه ابن اسحاق التى نقلها ابن هشام، من حيث المكان الذى وقعت فيه القصة أولاً. وفي عدد الأشخاص الذين جاؤوه ثانياً، والكيفيه التى وقع عليها ثالثاً. مع كون الروائين تمرّان بثور بن يزيد الكلاعى الشامى المتوفى (١٥٥ هـ) رابعاً. حيث نجد أرباب التراجم قد جرحوا ثور بن يزيد بكونه ممن يعتقد بالقدریه، التى تقول: بأن أعمال العباد تجرى بقدر مقدّر قد قضى به الله، لا القدر بمعنى جمع إرادته الإنسان مع قدره سبحانه، وبهذا تكون الروايه منسجمه مع معتقده، وكان النبى صلى الله عليه وآله معصوماً بلا دخل لإرادته، أو أنّه تلقى العصمه بلا مقدمات منه ولا استحقاق، وإنّما بتقدير جبرى من قبل المولى عزّ وجلّ. ولهذا ناقش الشيخ أبو ريّه هذه الأسطوره من وجه آخر فقال: المُحَقَّق عندنا أنّه ليس للشيطان سلطان على عباد الله المُخلّصين، وخيرهم الأنبياء والمرسلون، أمّا ما ورد في حديث إزاله خط الشيطان من قلبه صلى الله عليه وآله، فهو من الأخبار الظنّيه. لأنه من روايه الآحاد، ولما كان موضوعها عالم الغيب، والإيمان بالغيب فى قسم العقائد وهى لا يؤخذ فيها بالظن، لقوله تعالى: إِنَّ الظَّنَّ لا- يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئاً كَنا غير مُكَلَّفِين بالإيمان بمضمون تلك الأحاديث فى عقائدنا، تفسير القرآن الحكيم: ٢٩١/٣، ٢٩٢، أضواء على السنّه المحمديه الشيخ أبو ريّه: ١٨٨.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ١٦٧/١.

٣- (٣) أنساب الأشراف للبلاذرى: ١٠٤/١، السيره الحلبيه: ١٠٣/١.

لتجلس عليه سيما الاحترام، وكانت الشيماء ابنتها بين من أسر مع بنى هوازن بعد حصار الطائف، فلما جىء بها إلى «محمّد» وعرفها أكرمها وردّها إلى أهلها كرجبتها.

وعاد إلى أمّه بعد هذه السنوات الخمس. ويقال: إنّ حليمه التمسسته وهى مقبله به على أهله فلم تجده؛ فأتت عبدالمطلب فأخبرته أنّه ضلّ منها بأعلى مكّه. فبعث من يبحث عنه حتى رده عليه ورقه بن نوفل فيما يروون.

وكفل عبدالمطلب حفيده وأغدق عليه كلّ حبه وأسبغ عليه جمّ رعايته. كان يوضع لهذا الشيخ، سيّد قريش وسيّد مكّه كلّها، فراش فى ظلّ الكعبه، فكان بنوه يجلسون حول ذلك الفراش إجلالاً لأبيهم؛ فإذا جاء «محمّد» أدناه عبدالمطلب منه وأجلسه على الفراش معه ومسح ظهره بيده، وأبدى من آيات عطفه ما يمنع أعمام «محمّد» من تأخيره إلى حيث يجلسون(١).

وزاد فى إعزاز الجدّ لحفيده أن آمنه خرجت بابنها إلى المدينه لثرى الغلام فيها أحوال أبيه من بنى النّجار، وأخذت معها أمّ أيمن الجاريه التى خلّف عبدالله من بعده. فلمّا كانوا بها أرت الغلام البيت الذى مات أبوه فيه والمكان الذى دُفن به، فكان ذلك أوّل معنى لليتم انطبع فى نفس الصّبي.

ولعلّ أمّه حدّثته طويلاً عن هذا الأب المحبوب الذى غادرها بعد مقامه معها أياماً معدوده ليحيئه بين أحواله أجله. فقد كان النبى بعد هجرته إلى المدينه يقصّ لأصحابه حديث تلك الرحله الأولى إلى المدينه مع أمّه، حديث محبّ

ص: ١٤٥

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ١٦٧/١، والطبقات الكبرى: ١١٨/١، وعيون الأثر: ٤٧/١، وبحار الأنوار: ١٥-١٤٢/١٥-١٤٤ عن كمال الدين: ١٧١.

للمدينه، محزون لَمَيّن تحوى القبور من أهله بها. ولَمَيّا تَمّ مكثهم بيثرب شهراً اعترمت آمنه العوده فركبت وركب من معها بعيريهما اللذين حملاهما من مكّه. فلَمّا كانوا فى منتصف الطريق بين البلدين مرضت آمنه بالأبواء وماتت ودُفنت بها؛ وعادت أمّ أيمن بالطفل إلى مكّه منتحياً وحيداً(١)، يشعر بيتمه ضاعفه عليه القدر فيزداد وحدهً وألماً. لقد كان منذ أيام يسمع من أمّه أنات الألم لفقد أبيه وهو جنين ما يزال، وها هو ذا قد رأى بعينه أمّه تذهب كما ذهب أبوه وتدع جسمه الصغير يحمل همّ اليتيم كاملاً.

زاد ذلك فى إعزاز عبدالمطلب إِيّاه. ومع ذلك بقيت ذكرى اليتيم أليمه عميقه فى نفسه، حتى وردت فى القرآن إذ يذكر الله نبيّه بالنعمه عليه فيقول:

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۚ . ولعلّ عمق هذه الذكرى كان يهدأ بعض الشيء لو أنّ عبدالمطلب عمّر أكثر ممّا عمّر؛ لكنّه مات فى الثمانين من عمره و«محمّد» فى الشامنه ما يزال. وحزن «محمّد» لموت جدّه بما لا يقل عن حزنه لموت أمّه. حزن حتى كان دائم البكاء وهو يتبع نعشه إلى مقرّه الأخير، وحتى كان دائم الذكر من بعد ذلك له(٢)، مع ما لقى بعد ذلك فى كفاله عمّه أبى طالب من عنايه ورعايه. ومن حمايه امتدت إلى ما بعد بعثه ورسالته، ودامت بعد ذلك إلى أن مات عمّه. والحقّ أنّ موت عبدالمطلب كان لبني هاشم جميعاً ضربه قاسيه. لم يكن من أبنائه من كان فى مثل مكانته عزماً وقوّه أيدٍ وأصاله رأى وكرماً وأثراً فى العرب جميعاً. ألم

ص: ١٤٦

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ١٦٨/١، وتاريخ الطبرى: ٤٥٨/١، والسيره النبويه لابن كثير: ٢٣٥/١، ومناقب آل أبى طالب: ١٤٩/١، كمال الدين: ١٧٢.

٢- (٣) الطبقات الكبرى: ١١٩/١، ودلائل النبوه للبيهقى: ١٨٨/١.

يكن يُطعم الحاج ويسقيهم ويبرّ أهل مكّه جميعاً إذا أصابهم شرٌّ أو أذى! وهاهم أولاء أبنائهم لم يصل أحد منهم إلى مكانته، أن كان فقيرهم عاجزاً عن مثل عمله، وكان غنيهم حريصاً على ماله. لذلك ما لبث بنو أميّة أن تهيئوا ليأخذوا المكانه التي طمعوا فيها من قبل دون أن يخشوا من بنى هاشم مزاحمه تخيفهم(١).

وآلت كفاله «محمّد» لأبى طالب وإن لم يكن أكبر إخوته سنّاً؛ فقد كان الحارث أسنّهم، وإن لم يكن أكثرهم يساراً. وكان العباس أكثرهم مالاً؛ لكنّه كان على ماله حريصاً(٢)؛ لذلك احتفظ بالسقايه وحدها دون الرفاده. فلا

ص: ١٤٧

١- (١) ولهذا نجد المقريزى فى كتابه (النزاع والتخاصم) يتعجب من تهوّر و صلف بنى أميّة و كيدهم لبنى هاشم و سيدهم الرسول صلى الله عليه و آله فى آخر الأمر، قائلاً: (فإنّى كثيراً ما كنت أتعجب من تطاول بنى أميّة إلى الخلافه مع بعدهم من جذم رسول الله و قرب بنى هاشم، و أقول كيف حدثتهم أنفسهم بذلك؟ و أين بنو أميّة و بنو مروان ابن الحكم طريد رسول الله صلى الله عليه و آله و لعينه من هذا الحديث مع تحكم العداوه بين بنى أميّة و بنى هاشم فى أيام جاهليتها ثمّ شدّه عداوه بنى أميّة من رسول الله و مبالغتهم فى أذاه و تماديهم فى تكذيبه فيما جاء به عندما بعثه الله تعالى بالهدى و دين الحقّ إلى أن فتح الله مكّه شرفها الله تعالى فدخّل من دخل منهم فى الإسلام كما هو معروف و مشهور). و قوله: فلعمري لا بعد أبعد ممّا كان بين بنى أميّة و هذا الأمر إذ ليس لبنى أميّة سبب إلى الخلافه، ولا بينهم وبينها نسب، إلّا أن يقولوا: أنا من قريش فيساوون فى هذا الاسم قريش الظواهر، لأنّ قوله صلى الله عليه و آله: «الأئمه من قريش» واقع على كلّ قرشى، و مع ذلك فإنّ أسباب الخلافه معروفه. النزاع و التخاصم، المقريزى: ٢٥-٢٦. و ذكر البخارى من طريق سعيد بن المسيب أن جبير بن مطعم أخبره. قال: أتيت أنا و عثمان إلى النبى صلى الله عليه و آله فقلنا: أعطيت بنى عبدالمطلب خمس (خيبر) و تركتنا و نحن و هم بمنزله واحده منك. فقال: بنو هاشم و بنو عبدالمطلب شيء واحد: «قال جبير» ولم يقسم النبى صلى الله عليه و آله لبنى عبدشمس و بنى نوفل شيئاً. صحيح البخارى: ٣٣/٣.

٢- (٢) لم يحدثنا التاريخ أنّ العباس كان حريصاً على ماله، بل يحدثنا أنّه كان أكثر إخوته مالاً و أنّه تصدّى لمسؤوليه السقايه التى تستوجب الانفاق. لمزيد من التفصيل راجع قاموس الأعلام للزركلى: ٢٦٢/٣، ترجمه العباس.

عجب أن كان أبو طالب على فقره أنبلهم وأكرمهم في قريش مكانه واحتراماً، ولا عجب أن عهد إليه عبدالمطلب بكفاله محمّد من بعده(١). وقد أحبّ أبو طالب ابن أخيه كحبّ عبدالمطلب له. أحبّه حتى كان يقدّمه على أبنائه، وكان يجد فيه من النجابه والذكاء والبر وطيب النفس ما يزيد به تعلقاً. ولقد أراد أن يخرج يوماً في تجاره له إلى الشام حين كان «محمّد» في الثانية عشره من عمره ولم يفكر في استصحابه خوفاً عليه من وعشاء(٢) السفر واجتياز الصحراء. لكنّ محمّداً أبدياً من صادق الرغبه في مصاحبه عمّه ما قضى على كلّ تردّد في نفس أبي طالب. وصحب الغلام القافله حتى بلغ بصرى في جنوب الشام. وتروى كتب السير أنه التقى في هذه الرحله بالراهب بحيرا وأنّ الراهب رأى فيه أمارات النبوه، على ما تدلّه عليه أنباء كتب النصرانيه.

وتذهب بعض الروايات إلى أنّ الراهب نصح إلى أهله ألا يؤغلوا به في بلاد الشام خوفاً عليه من اليهود يعرفون منه هذه الأمارات فينالونه بالأذى(٣).

في هذه الرحله وقعت عينا «محمّد» الجميلتان على فسحه الصحراء وتعلّقت بالنجوم اللامعه في سمائها الصافيه البديعه، وجعل يمر بيمّدين ووادي القرى وديار ثمود، وتستمع أذناه المرهفتان إلى حديث العرب وأهل الباديه عن هذه المنازل وأخبارها وماضى نبئها. وفي هذه الرحله وقف من بلاد الشام عند الحدائق الغنّاء اليانعه التي أنستّه حدائق الطائف وما يروى عنها، والتي تعتبر جنات إلى جانب جذب الصحراء المقفره والجبال الجرداء

ص: ١٤٨

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ١٧٨/١، وتاريخ يعقوبي: ٣٣٥/١.

٢- (٢) الوعشاء: الوعث من الرّمل. ما غابت فيه القوائم. ومنه اشتق وعشاء السفر، يعنى: المشقه - العين: ٣٣١/٢.

٣- (٣) السيره النبويه لابن هشام: ١٨١/١.

فيما حول مكّه.

وفى الشام كذلك رأى «محمّد» أحبار الروم ونصرانيتهم، وسمع عن كتابهم وعن مناوأة الفرس من عبّاد النار لهم وانتظارهم الوقيعه بهم. ولئن كان بعدُ فى الثانيه عشره من سنّه، فقد كان له من عظمه الروح وذكاء القلب ورجحان العقل ودقه الملاحظه وقوّه الذاكره وما إلى ذلك من صفات حباهُ القدر بها، تمهيداً للرساله العظيمه التى أعدّه لها، كان له من ذلك كلّ ما جعله ينظر إلى ما حوله ومن حوله نظره الفاحص المحقق، فلا يستريح إلى كلّ ما يسمع ويرى، فيرجع إلى نفسه يسألها: أين الحقّ من ذلك كلّ؟

والراجح أنّ أبا طالب لم يفتدّ مالاً كثيراً من رحلته تلك، فلم يعد من بعدُ إلى رحله مثلها، بل قنع بحظّه وأقام بمكّه يكفل فى حدود ماله القليل أولاده الكثيرين. وأقام «محمّد» مع عمّه قانعاً بنصيبه، يقوم من الأمر بما يقوم به من همّ فى مثل سنّه. فإذا جاءت الأشهر الحُرّم ظل بمكّه مع أهله، أو خرج وإيّاهم إلى الأسواق المجاوره لها بعكاظ ومجّنّه وذى المجاز، يستمع لأنشاد أصحاب الميذّهبات والمعلّقات، وتلتهم أذناه بلاغتهم فى غزلهم وفخرهم وذكرهم أنسابهم ومغازيهم وكرمهم وفضلهم، ثمّ يعرض ذلك على بصيرته تلفظ منه ما لا تُسيغ وتُعجب بما تراه جديراً بالاعجاب، ويستمع إلى خطب الخطباء، ومن بينهم اليهود والنصارى، الذين كانوا يأخذون على إخوانهم من العرب وثنيّتهم ويحدّثونهم عن كتب عيسى وموسى، ويدعونهم إلى ما يعتقدونه الحقّ، ويزن ذلك بميزان قلبه فيراه خيراً من هذه الوثنيه التى غرق فيها

ص: ١٤٩

أهله (١)، ولكنه لا يطمئن كل الطمأنينه إليه. وكذلك جعل القدر يوجه نفسه منذ نعومه أظفاره الوجهه التي تهيئه لذلك اليوم العظيم. يوم الوحي الأول، حين دعاه ربه لتبليغ رسالته، رساله الهدى والحق للناس كافة.

وكما عرف «محمّد» طرق القوافل في الصحراء مع عمّه أبي طالب، وكما استمع إلى الشعراء والخطباء مع ذويه في الأسواق حول مكّه أثناء الأشهر الحُرّم، فقد عرف كذلك حمل السلاح، إذ وقف إلى جانب أعمامه في حرب الفِجَار. وحرب الفِجَار تلك كانت بعض ما يثور ويتصل بين قبائل العرب من الحروب (٢). وقد سمّيت الفِجَار لأنّها وقعت في الأشهر الحُرّم إذ تمتنع قبائل العرب عن القتال، ويعقدون أسواق تجارتهم بعُكاظ بين الطائف ونخله وبمَجَنّه وذى المجاز على مقربه من عَرَفَات، لتبادل التجاره وللتفاخر والجدل وللحجّ بعد ذلك عند أصنامهم بالكعبه. وكانت سوق عكاظ أكثر أسواق العرب شهره، فيها أنشد أصحاب المُعلّقات معلّقاتهم، وفيها حُطِب قِس، وفيها كان اليهود والنصارى وعباد الأصنام، يحدث كل عن رأيه وعقيدته آمنًا، لأنه في الشهر الحرام (٣).

على أنّ البُرّاض بن قيس الكنانى لم يحترم هذه الحُرّمه حين غافل أثناءها عُروه الرّحال بن عُتبه الهوازنى وقتله (٤). وسبب ذلك أنّ النعمان بن

ص: ١٥٠

١- (١) لعلّ المقصود أهله هم قُرَيْش وليس سلالة الأَطْهَار، كعمّه أبي طالب وجدّه عبدالمطلب. ثمّ يقول: ولكنه لا يطمئن إليه. إلى ماذا؟ إلى فضل النصرانيه واليهوديه على الوثنيه؟! نعوذ بالله.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ١٨٤/١-١٨٧.

٣- (٣) معجم البلدان للحموى: ١٤٢/٤، ماده عكاظ، ودائرته معارف القرن العشرين: ماده عُكْظ.

٤- (٤) السيره النبويه لابن هشام: ١٨٦/١.

المنذر كان يبعث كل سنة قافلة من الحيره إلى عكاظ تحمل المسك وتجيء بديلاً منه بالجلود والحيال وأقمشه اليمن المزركشه. فعرض البرّاض الكناني نفسه عليه ليقود القافلة في حمايه قبيلته كنانه؛ وعرض عروه الهوازني نفسه كذلك على أن يتخطى إلى الحجاز طريق نجد. واختار النعمان عروه فأحفظ ذلك البرّاض فتبعه وغاله وأخذ قافلته، ثم أخبر بشر القرشي أن هوازن ستأخذ بثأرها من قريش. ولحقت هوازن بقريش قبل أن يدخلوا الحرم فاقتتلوا وتراجعت قريش حتى لاذت من المنتصرين بالحرم، فأنذرتهم هوازن الحرب بعكاظ للعام المقبل. وقد ظلت هذه الحرب تنشب بين الفريقين أربع سنوات تباعاً انتهت بعدها إلى صلح من نوع صلح البادية؛ ذلك بأن يدفع من كانوا أقل قتلى ديه العدد الزائد على قتلاهم من الفريق الآخر. ودفعت قريش ديه عشرين رجلاً من هوازن، وذهب البرّاض مثلاً للشقاوه(١).

لم يحقق التاريخ سن «محمد» أيام حرب الفجار؛ فقليل: كان ابن خمس عشره سنه؛ وقيل: كان ابن عشرين. ولعل سبب الخلاف أن هذه الحرب استطالت أربع سنوات تجعل حاضر أولها وهو في الخامسة عشره يلحق آخرها في جوار العشرين.

وقد اختلف فيما قام به «محمد» من عمل في هذه الحرب، فقال أناس:

إنه كان يجمع السهام التي تقع من هوازن ويدفعها إلى أعمامه ليردوها في صدور خصومهم، وقال آخرون: بل اشترك فيها ورمى السهام بنفسه.

ومادامت الحرب المذكوره قد امتدت فتراتها في سنوات أربع، فليس ما يمنع

ص: ١٥١

١- (١) المنتظم لابن الجوزي: ٢/٢٩٨، والسيره الحلبيه: ١/١٢٩.

صححه الروايتين؛ فيكون قد جمع السهام لأعمامه أول الأمر، ثم رمى من بعد ذلك. وقد ذكر رسول الله الفجار بعد سنوات من رسالته فقال:

قد حضرته مع عمومتي ورميت فيه بأسهم وما أحبّ أني لم أكن فعلت(١).

وقد شعرت فريش بعد الفجار بأنّ ما أصابها وما أصاب مكّه جميعاً بعد موت هاشم وموت عبدالمطلب من تفرق الكلمه وحرص كلّ فريق على أن يكون صاحب الأمر، قد أطمع فيها العرب بعد أن كانت أمتنع من أن يطمع فيها طامع. إذ ذاك دعا الزبير بن عبدالمطلب، فاجتمعت بنو هاشم، وزهره، وتيم، في دار عبدالله بن جدعان، فصنع لهم طعاماً فتعاقدوا وتعاهدوا بالله القاتل(٢).

ص: ١٥٢

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ١٨٦/١، والأغانى: ٧٤/١٩-٨٠، السيره الحلبيه: ١٢٧/١. شكك بعض المحققين في مشاركة النبي صلى الله عليه وآله في هذه الحرب لأسباب منها: أولاً: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كلاً ما تقدم في العمر كانت شخصيته تزداد تألقاً، وقد عُرف بشجاعته الفائقة كسائر بني هاشم، ولكنّ هذا لا يعنى أنّهم شاركوا في حرب فيها ظلم وفساد. فقد روى أنّ أحداً من بني هاشم لم يحضر هذه الحروب فإنّ أبا طالب كان قد منع أن يكون فيها أحد منهم حين قال: هذا ظلم وعدوان، وقطيعه رحم، واستحلال للشهر الحرام، ولا- أحضره ولا أحد من أهلى. (تاريخ اليعقوبى: ١٥/٢). وانسحب عبدالله بن جدعان وحرب بن أميه - وهو قائد فريش وكنانه حينذاك - وقال: لا- نحضر أمراً تغيب عنه بنو هاشم. (تاريخ اليعقوبى: ١٥/٢). ثانياً: اختلفت الروايات حول الدور الذى أداه النبي صلى الله عليه وآله في هذه الحرب، فبعضهم روى: أنّ عمله صلى الله عليه وآله كان يقتصر على مناولة النبل لأعمامه والردّ على نبل عدوّهم وحفظ متاعهم. (راجع موسوعه التاريخ الإسلامى للشيخ محمّد هادى اليوسفى الغروى: ٣٠٤/١). وروى آخر: أنّه قد رمى فيها برميات. (السيره النبويه لزينى دحلان: ٢٥١/١، السيره الحلبيه: ١٢٧/١). وروى ثالث أنّه طعن أبا البراء ملاءب الأستنه فصرعه مع أنّه كان غلاماً. (السيره النبويه لزينى دحلان: ٢٥١/١، السيره الحلبيه: ١٢٧/١، تاريخ اليعقوبى: ١٦/٢). ولا ندرى هل كانت العرب تسمح للغلام بخوض المعارك والحروب؟ راجع الصحيح فى السيره: ٩٥/١.

٢- (٢) جاء فى البدايه والنهايه: فتعاهدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكّه مظلوماً من أهلها وغيرهم ممّن دخلها من سائر الناس إلّا كانوا معه، وكانوا على من ظلمه حتى يردّ عليه مظلمته، ٢٥٤/٢. ولم يذكر فيه عبارته: «بالله القاتل».

لنكوننَّ مع المظلوم، حتى يُؤدَّى إليه حقُّه ما بَلَّ بحرُّ صوفه. وقد حضر محمَّد هذا الحلف الذي سمَّته العرب حلف الفضول؛ وكان يقول:

«ما أحبُّ أن لي بحلف حضرته في دار ابن جدعان حمر التَّعم ولو دُعيت بها لأجبت»^(١).

لم تكن حرب الفِجَار، كما رأيت، تستغرق إلَّا أياماً من كلِّ عام. أمَّا سائر العام، فكان العرب يرجعون فيه إلى أعمالهم المعروفه، يزاولونها دون أن تترك الحرب في نفوسهم من المراره ما يحول بينهم وبين التجاره والربا والشراب والتسرى^(٢) والأخذ من مختلف ألوان اللّهُو بأوفر نصيب. أفكان «محمَّد» يشاركهم في هذا؟ أم أنّ رقه حاله وضيق ذات يده وكفاله عمّه إيّاه جعلته بمنأى عنها ينظر إلى الترف نظره المحروم المشتهى؟ أمّا أنّه نأى عنها فذلك ما يشهد به التاريخ. لكنّه لم ينأ عنها عجزاً عن النيل منها، فقد كان الخلعاء المقيمون بأطراف مكّه والذين لا يجدون من أسباب الرزق إلَّا الضنك والإملاق يجدون الوسيله إليها، بل كان بعضهم أشدّ من أمجاد مكّه وأشرف قُريش إمعاناً وإدماً لها. إنّما كانت نفس «محمَّد» مشغوفه بأن ترى وأن تسمع وأن تعرف. وكأنّ حرمانه من التعلّم الذي يتعلمه أنداده جعله أشدّ للمعرفه شوقاً وبها تعلّقاً. كما أنّ النفس العظيمه التي تجلّت من بعد آثارها وما يزال يغمر العالم ضياؤها، كانت في توقها إلى الكمال ترغّب عن هذا اللّهُو الذي يصبو إليه أهل مكّه، إلى نور الحياه المتجلّى في كلِّ مظاهر الحياه لمن هداه الحقّ إليها، ولاستكناه ما تدلّ هذه المظاهر عليه وما تحدّث

ص: ١٥٣

١- (١) تاريخ اليعقوبي: ٣٣٨/١، السيره الحلبيه: ١٣٢/١، والبدايه والنهايه: ٢٩١/٢.

٢- (٢) الاستسرار: التسرى. وكان القياس أن تقول: الاستسراء، من تسريت، إلّا أنّها ردّت الحرف إلى أصله، قال الأصمعي: وأصله تسررت من السرّ، وهو النكاح - غريب الحديث: ١٧٢/٢.

الموهوبين به. ولذلك ظهر منذ الصبا الأوّل في مظهر الكمال والرجولية وأمانه النفس، حتى لدعاه أهل مكّه جميعاً بالأمين.

ومما زاد انصرافاً إلى التفكير والتأمل اشتغاله برعى الغنم سنّى صباه تلك (١)، فقد كان يرعى غنم أهله ويرعى غنم أهل مكّه (٢)، وكان يذكر رعيه إياها مغتبطاً. وكان يقول:

«ما بعث الله نبياً إلّارعى الغنم» (٣)، ويقول:

«بعث موسى وهو راعى غنم، وبعث داود وهو راعى غنم، وبعثت أنا أرعى غنم أهلى بأجساد» (٤). وراعى الغنم الذكى القلب والفؤاد يجد فى فسحة الجو الطليق أثناء النهار وفى تلاءؤ النجوم إذا جنّ الليل موضعاً لتفكيره وتأمله يسبح منه فى هذه العوالم حتى يرى فيما وراءها، ويلتمس فى مختلف مظاهر الطبيعه تفسيراً لهذا الكون وخلقه. وهو يرى نفسه، مادام ذكى الفؤاد عليم القلب، بعض هذا الكون غير منفصل عنه. أليس هو يتنفس هواءه ولو لم يتنفسه قضى؟ أليست تحييه أشعه الشمس ويغمره ضياء القمر ويتصل وجوده بالأفلاك والعوالم جميعاً؟ هذه الأفلاك والعوالم التى يرى فى فسحة الكون أمامه، متصلاً بعضها ببعض فى نظام محكم، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار.

وإذا كان نظام هذا القطيع من الغنم أمام «محمّد» يقتضى انتباهه ويقظته حتى لا يعدو الذئب على شاه منها، وحتى لا تضل إحداها فى مهامه البادية، فأى

ص: ١٥٤

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ١٦٧/١.

٢- (٢) على فرض صحّه تلك الروايات فلا إشكال من أنّ النبىّ صلى الله عليه وآله قد رعى الغنم فى صباه لحكمه إلهيه لما لهذه المهمه من آثار تربويه على صاحبها، إلّا أنّ الإشكال يقع فى كونه لم يكن أجيراً عند أحد فقد روى أنّه صلى الله عليه وآله (ما كان أجيراً لأحد قط). تاريخ يعقوبى: ٢١/٢، والبدايه والنهائيه: ٢٩٦/٢.

٣- (٣) السيره النبويه لابن هشام: ١٦٧/١، وتاريخ الإسلام للذهبي: ٥٤/١.

٤- (٤) السيره الحلبيه: ١٢٦/١.

انتباه وأيه قوه تحفظ على نظام العالم كل إحكاه؟ وهذا التفكير والتأمل من شأنهما صرف صاحبهما عن التفكير فى شهوات الإنسان الدنيا، والسيمو به عنها إذا تبدى له كاذب زخرفها. لذلك ارتفع «محمّد» فى أعماله وتصرفاته عن كل ما يمس هذا الاسم الذى أطلق عليه بمكّه وبقي له: «الأمين».

يدلّ على ذلك كلّ ما حدّث هو عنه، من أنّه كان يرعى الغنم مع زميل له، فحدّثته نفسه يوماً أن يلهو كما يلهو الشباب، فأفضى إلى زميله هذا ذات مساء أنّه يود أن يهبط إلى مكّه، يلهو بها ويعبث عبث الشباب فى جنح الليل، وطلب لذلك إليه أن يقوم على حراسه أغنامه. لكنّه ما إن بلغ أعلى مكّه حتى استرعى انتباهه عرس زواج وقف عنده، ثمّ ما لبث أن نام. ونزل مكّه ليله أخرى للغايه ذاتها. فامتألت آذانه بأصوات موسيقية بارعه، كأنما هى موسيقى السماء، فجلس يستمع ثمّ نام حتى أصبح. وماذا عسى أن تفعل مغريات مكّه بقلب مهذب ونفس كلّها التفكير والتأمل؟ ماذا عسى أن تكون هذه المغريات التى وصفنا والتى لا يستريح إليها من يكون دون «محمّد» سموّاً بمراحل كثيره! لذلك أقام بعيداً عن النقص لا يجد لذه يذوقها أطيب لنفسه من لذه التفكير والتأمل (١)(٢).

وحياه التفكير والتأمل وما تستريح إليه من عمل بسيط كرعى الغنم، ليست بالحياه التى تدبّر على صاحبها أخلاف الرزق أو تفتح أمامه أبواب

ص: ١٥٥

١- (١) السيره الحليه: ١٢٢/١.

٢- (٢) لم يتضح القصد من إيراد هيكّل لهذه القصّه وتوظيفها فى هذا السياق التى تصوّر النبىّ صلى الله عليه وآله وكأنّه وليد مرحلته، وأنّ الظروف قد ساهمت فى إعداده وتربيته، ليُشكّل تطلّعه نحو الرساله مظهرًا من مظاهر التاريخ الطارئه على المسيره البشريه. بدل النظر إليه كمظهر إلهى أعدّته يد الله ضمن المخطط الطويل للأنبياء، وهو الخاتم لما جاءت به الرسالات.

اليسار. وما كان «محمّد» يهتمّ لذلك أو يعنى به، وقد ظلّ طول حياته أشدّ الناس زهداً في الماده ورغبه عنها، وما إقباله عليها! وكان الزهد بعض طبعه، وكان لا يحتاج من الحياه إلى أكثر ممّا يقيم صلبه؟! أليس هو القائل:

«نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع»^(١)، أليس هو الذي عُرف عنه كلّ حياته حرصه على شَطْف العيش، ودعوه الناس إلى الاستمتاع بخشونه الحياه؟ والذين يتوقون إلى المال ويلهثون في طلبه إنّما يبتغونه لإرضاء شهوات لم يعرف «محمّد» طوال حياته شيئاً منها. واللّمذه النفسيه الكبرى، لهذه الاستمتاع بما في الكون من جمال ومن دعوه إلى التأمل، هذه اللّمذه العظيمة التي لا يعرفها إلّا الأقلّون، والتي كانت لهذه «محمّد» منذ نشأته ومنذ أرته الحياه في نعومه أظفاره ذكريات بقيت مطبوعه في نفسه داعيه إلى الزهد في الحياه، وأولاها موت أبيه وما يزال هو جنيناً، ثُمَّ موت أمّه ثُمَّ موت جدّه، هذه اللّمذه ليست بحاجة إلى ثروه من المال وإن تكن بحاجة إلى ثروه نفسيه هائله يعرف الإنسان معها كيف يعكّف على نفسه ويعيش بها وفي دخيلتها. ولو أنّ محمّداً ترك وشأنه يومئذٍ، لما نازعته نفسه إلى شىءٍ من المال ولظلّ سعيداً بهذا الحال، حال الرّعاة المُفكّرِين الذين ينتظمون الكون في أنفسهم، والذين يحتويهم الكون في حبه قلبه.

لكنّ عمّه أبا طالب كان - كما قدّمنا - حليف فقر كثير عيال. لذلك رأى أن يجد لابن أخيه يوماً سبباً للرزق أوسع ممّا يجيئه من أصحاب الغنم التي يرعى. فبلغه يوماً أنّ خديجه بنت خويلد تستأجر رجلاً من قريش في

ص: ١٥٦

١- (١) في جوابه صلى الله عليه و آله على مقوقس عظيم قبط - حينما أهدى إليه هدايا وكان ضمنها طبيياً يداوى مرضى المسلمين -: «ارجع إلى أهلّك، فإنّنا قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع». راجع السيره الحلييه: ٢٥١/٣.

تجارتها. وكانت خديجه امرأه تاجرته ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم (١). ولقد زاد في ثروتها أنها كانت من بنى أسد، قد تزوجت مرتين من بنى مخزوم بما جعلها من أوفر أهل مكه غنى (٢)، وكانت تقوم على مالها بمعونه أبيها خويلد وبعض ذوى ثقتها (٣).

وقد ردّت يد الذين طلبوا يدها من كبار قريش (٤)، لأنها كانت تعتقد أنهم ينظرون إلى مالها، واعتزمت أن تقف جهدها على تنمية ثروتها. وإذ علم أبوطالب بأنها تجهّز لخروج تجارتها إلى الشام مع القافلة نادى إليه ابن أخيه، وكان يومئذ في الخامسة والعشرين من سنّه، وقال له: يا ابن أخي، أنا رجل لا مال لي، وقد اشتدّ الزمان علينا، وقد بلغنى أن خديجه استأجرت فلاناً

ص: ١٥٧

١- (١) السيره النبويه لابن كثير: ٦٢/١، والسيره النبويه لابن هشام: ١٨٨/١ والسيره الحلبيه: ١٣٢/١، وورد عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام، عن أبيه الإمام الهادي عليه السلام، ما يؤيد كون النبي صلى الله عليه وآله كان مضارباً بمال خديجه، لا أجيراً عندها. قال عليه السلام: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يسافر إلى الشام مضارباً لخديجه بنت خويلد» بحار الأنوار للمجلسي: ٢٠٨/٧.

٢- (٢) لا- يمكن ترجيح الروايه التي تنقل أنّ خديجه قد تزوجت مرتين قبل الرسول، وذلك للتضارب الحاصل في روايات الزواج، فقد روى أنها تزوجت برجلين قبل النبي صلى الله عليه وآله وكان لها منهما بعض الأولاد وهما: عتيق بن عائد المخزومي وأبو هاله التميمي، الإصابه: ٦١١/٣، وأسد الغابه: ٧١/٥، في حين تروى مصادر أخرى: أنّ النبي صلى الله عليه وآله حين تزوج بها كانت بكرأ، وحينئذ تكون زينب ورقيه ابنتي هاله أخت خديجه قد تبنتهما خديجه بعد فقدهما لأُمهما. راجع الصحيح من السيره: ١٢١/١-١٢٦. ويضاف أنّ المؤرخين قد اختلفوا في مسأله تحديد عُمر خديجه حين زواجها مع النبي صلى الله عليه وآله، فهناك من يروى أن عُمرها كان (٢٥) عاماً وآخر (٢٨) عاماً وثالث (٣٠) عاماً، ورابع (٣٥) عاماً وخامس (٤٠) عاماً، راجع السيره الحلبيه: ١٤٠/١، والبدايه والنهايه: ٢٩٥/٢، وبحار الأنوار: ١٢/١٦.

٣- (٣) السيره النبويه لابن هشام: ١٨٨/١، والسيره الحلبيه: ١٣٧/١.

٤- (٤) كان من قديم عليها من عظماء قريش وبذلوا لها الأموال: عقبه بن أبي معيط، والصيّلت بن أبي يهاب، وأبوجهل وأبو سفيان، فرفضتهم جميعاً واختارت النبي صلى الله عليه وآله، بحار الأنوار: ٢٢/١٦ عن ابن أبي الحسن البكري في كتابه «الأنوار».

بيكرين، ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته (١). فهل لك أن أكلمها؟ قال «محمّد»: ما أحببت. فخرج أبو طالب إليها فقال لها: هل لك يا خديجه أن تستأجري «محمّد»؟ فقد بلغنا أنك استأجرت فلاناً بيكرين، ولسنا نرضى لمحمّد دون أربعه بكار. وكان جواب خديجه: لو سألت ذلك لبعيد بغيض فعلنا، فكيف وقد سألته لحبيب قريب؟! وعاد العمّ إلى ابن أخيه يذكر له الأمر ويقول له: هذا رزق ساقه الله إليك (٢).

خرج «محمّد» مع ميسره غلام خديجه بعد أن أوصاه أعمامه به.

وانطلقت القافلة في طريق الصحراء إلى الشام ماّره بوادي القرى وميدين وديار ثمود وبتلك البقاع التي مرّ بها «محمّد» مع عمّه أبي طالب وهو في الثانية عشرة من عمره (٣). وأحيت هذه الرحله في نفسه ذكريات الرحله الأولى، كما زادته تأملاً وتفكيراً في كلّ ما رأى وسمع من قبل سفره، بالشام أو بالأسواق المحيطة بمكّه. فلمّا بلغ بصرى (٤) اتصل بنصرانيه الشام وتحدث إلى رهبانها وأخبارها وتحدث إليه الراهب نسطور وسمع منه (٥). ولعلّه أو لعلّ غيره من الرهبان قد جادل «محمّد» في دين «عيسى»، هذا الدين الذي كان قد انقسم يومئذٍ شيعاً وأحزاباً، كما بسطنا من قبل. واستطاع «محمّد» بأمانته ومقدرته أن يتّجر بأموال خديجه تجاره أوفر ربحاً ممّا فعل غيره من قبل.

واستطاع بحلو شمائله وجمال عواطفه أن يكسب محبه ميسره وإجلاله. فلمّا

ص: ١٥٨

١- (١) السيره الحلبيه: ١٣٦/١.

٢- (٢) السيره الحلبيه: ١٣٢/١، ١٣٦.

٣- (٣) السيره الحلبيه: ١٣٢.

٤- (٤) بصرى: مدينه في سوريه الراجعه الآن إلى محافظه حوران كانت مركزاً للقوافل، المنجد في الأعلام: ١٣٤. السيره الحلبيه:

١٨٨/١، ٣٣/١، والسيره النبويه لابن هشام: ١٨٨/١.

٥- (٥) السيره النبويه لابن هشام: ١٨٨/١.

آن لهم أن يعودوا ابتاع لخديجه من تجاره الشام كل ما رغبت إليه أن يأتيها به (١).

فلما بلغت القافله مَرَّ الظَّهران (٢) في طريق عودتها. قال ميسره: يا محمد أسرع إلى خديجه فأخبرها بما صنع الله لها على وجهك فإنها تعرف ذلك لك، وانطلق «محمد» حتى دخل مكة في ساعه الظهره، فرأته خديجه وكانت في عليته (٣) لها، وهو على بعيره، ونزلت حين دخل دارها واستقبلته، واستمعت إليه يقص بعبارة البليغه الساحره خبر رحلته وربح تجارته وما جاء به من صناعه الشام، وخديجه تنصت مغتبطه مأخوذه. وأقبل ميسره من بعد فروى لها عن «محمد» ورقه شمائله وجمال نفسه مازادها علماً به فوق ما كانت تعرف من فضله على شباب مكة (٤). ولم يك إلآرد الطرف حتى انقلبت غبطتها حباً جعلها وهى فى الأربعين من سنّها، وهى التى ردت من قبل أيدى أعظم قريش شرفاً ونسباً، تود أن تتزوج من هذا الشاب الذى نفذت نظراته (٥) ونفذت كلماته إلى أعماق قلبها. وتحدثت فى ذلك إلى أختها على قول (٦)، وإلى صديقتها نفيسه بنت مئيه على قول آخر (٧). وذهبت نفيسه دسيساً إلى «محمد» فقالت له: ما يمنعك أن تتزوج؟ قال:

ما بيدي ما أتزوج به. قالت: فإن

ص: ١٥٩

-
- ١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ١٨٨/١.
 - ٢- (٢) والظهران: وادٍ قرب مكة وعنده قريه يُقال لها: «مَرَّ» تضاف إلى هذا الوادى، فيقال: «مَرَّ الظَّهران». راجع معجم البلدان: ٦٣/٤.
 - ٣- (٣) العليه الغرفه على بناء حريه - العين: ٢٤٦/٢.
 - ٤- (٤) أنساب الأشراف: ١٠٦/١.
 - ٥- (٥) إذا كان المقصود منها هى النظرات الجنسيه فهذا يخالف أخلاق النبى صلى الله عليه وآله وعصمته.
 - ٦- (٦) تاريخ اليعقوبى: ٣٤٠/١.
 - ٧- (٧) السيره النبويه لابن هشام: ١٨٩/١، وأنساب الأشراف: ١٠٧/١.

كفيت ذلك ودُعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب؟ قال:

فَمَنْ هي؟ أجابت نفيسه بكلمه واحده: خديجه. قال محمّد: كيف لى بذلك؟! وكان هو أيضاً قد أنس إلى خديجه وإن لم تُحدّثه نفسه فى زواج منها، أن كان يعلم ردها أشراف قريش وأغنياءها. فلما قالت له نفيسه جواباً على سؤاله: على ذلك. سارع إلى إعلان قبوله. ولم تبطئ خديجه أن حدّدت الساعه التى يحضر فيها مع أعمامه ليجدوا أهلها عندها فيتم الزواج. وزوجها عمّها عمر بن أسد أن كان خويلد قد مات قبل حرب الفجار، ممّا يكذب ما يروى من أنّه كان حاضراً ولم يكن راضياً هذا الزواج؛ فسقته خديجه خمرأ حتى أخذت فيه؛ وحتى زوجها محمّداً(١).

وهنا تبدأ صفحه جديده من حياه «محمّد»، تبدأ حياه الزوجيه والأبوه، الزوجيه الموفقه الهنيه من جانبه وجانب خديجه جميعاً، والأبوه التى تعرف من الآلام لفقد الأبناء ما عرف «محمّد» فى طفولته لفقد الآباء...

ص: ١٦٠

١- (١) السيره الحلبيه: ١٣٧/١، فيه وفى كتب السير: عمرو بن أسد. نستبعد أن خديجه قد قامت بمثل تلك الخديعه، التى تُخالف القيم التى اشتهرت بها خديجه من حيث سمو أخلاقها ومروءتها، فضلاً عن أنّ كتب السير تقصّ لنا وقوع الخطبه والزواج من النبى بدون التعرض إلى مسأله إسكار عمّها لإنتزاع موافقته للزواج. راجع شرح النهج: ٧٠/١٤، والوفاء بأحوال المصطفى: ٢٣٨/١، وتاريخ ابن خلدون: ٧١٢/٢، وتاريخ يعقوبى: ٢٤١/١، والأخير تعرّض إلى ذكر خطبه أبى طالب بهذه المناسبه أمام عمّها.

الفصل الرابع: من الزواج إلى البعث

صفه محمّد، بناء المكيين الكعبه، حكم «محمّد» بينهم في الحجر الأسود، حكماء قريش والوثنيه، أبناء محمّد وبناته، موت أبنائه، زواج بناته، ميل محمّد للعزله، تحنّته في حراء، الرؤيا الصادقه، أوّل الوحي.

تزوّج «محمّد» من «خديجه» بعد أن أصدقها عشرين بكره (١)، وانتقل إلى بيتها ليبدأ وإياها صفحه جديده من حياته؛ ليبدأ حياه الزوجيه والأبويه، وليبادلها من جانبه حبّ شاب في الخامسة والعشرين (٢) لم يعرف نزوات الشباب ولا طيشه، ولا هو عرف هذا الحبّ الأهوج يبدأ كأنّه الشعلة المتوهّجه لينطفئ من بعد ذلك سراجيه، وليرزق منها البنين والبنات، فيحتسب أبناءه القاسم والطاهر والطيب (٣) بما يثير في نفسه لاعج الحزن

ص: ١٦١

١- (١) بكره: الفتى من الإبل.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ١٨٧/١، تاريخ يعقوبى: ٣٤٠/١، وتاريخ الطبرى: ٥٢١/١، وإعلام الورى: ٥٣/١.

٣- (٣) قال الإمام الصادق جعفر بن محمّد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب عليهم السلام: «وُلِدَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ خَدِيجَةَ: الْقَاسِمُ وَالطَّاهِرُ - وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ - وَأُمُّ كَلْثُومٍ، وَرَقِيهَ، وَزَيْنَبُ، وَفَاطِمَةُ» الخصال للشيخ الصدوق: ٣٧/٢، وبحار الأنوار: ١٥١/٢٢.

والألم، وتبقى له بناته وهو بهنّ البرّ والشفقة، وهنّ له الإكرام والاعزاز الخالص (١).

وكان «محمد» وسيم الطلعه ربّعه في الرجال ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردّد، ضخم الرأس، ذا شعر رجل شديد سواده، مبسوط الجبين فوق حاجبين سابغين منونين متصلين، واسع العينين أدعجهما، تشوب بياضهما في الجوانب حمرة خفيفه، وتزيد في قوّه جاذبيتها وذكاء نظرتها أهداب طوال حوالك، مستوى الأنف دقيقه، مفلّج الأسنان، يرسل ذقناً كنه، عالي العنق جميله، عريض الصدر، رحب الساحتين، أزهر اللون، شثن الكفين والقدمين (أى غليظها)، يسير مُلقياً جسمه إلى الأمام مُسرّع الخطو ثابتة، على ملامحه سيماء التفكير والتأمل، وفي نظره سلطان الأمر الذي يخضع الناس لأمره (٢)، فلا عجب وتلك صفته أن تجتمع خديجه حبّه والاذعان له. ولا عجب أن تعفيه من تدبير مالها لتقوم هي على هذا التدبير، كما كان دأبها من قبل، وأن تدع له ما شاء من فسحة الوقت ليُنّفكر وليتأمل.

وأقام «محمد» وقد أغناه الله بزواج خديجه في ذروه من النسب وسعه من المال، وأهل مكّه جميعاً ينظرون له نظره غبطه وإكبار، وهو في شغل عن نظرتهم بما أسبغه الله عليه من فضله، وبما يبشّره به خصّب خديجه من عقب صالح. لكنّ ذلك لم يصرفه عن الاختلاط بهم والأخذ معهم بنصيب في الحياه العامه على ما كان يفعل من قبل، بل لقد زاده جاهاً بينهم ومكانه فيهم، وزاده

ص: ١٦٢

١- (١) تاريخ الطبرى: ٥٢١/١، والبدايه والنهايه: ٢٥٦/٢.

٢- (٢) الطبقات الكبرى: ٤١٠/١-٢١٨، والأخبار الموفقيات: ٣٥٤ ح ٢١١، وعيون أخبار الرضا عليه السلام: ٥٥٨/١.

لذلك تواضعاً على جَمِّ تواضعه؛ فلقد كان على عظيم ذكائه وظاهر تفوّقه حسن الاصغاء إلى محدّثه، لا يلوى عن أحدٍ وجهه ولا يكتفى بإلقاء السمع إلى مَنْ يُحدّثه، بل يلتفت إليه بكلّ جسمه. وكان قليل الكلام، كثير الانصات، ميالاً للجدّ من القول، وإن كان لا يأبى أن يشارك في مفاكهه وأن يهزل ثمّ لا يقول إلّا حقّاً. وكان يضحك أحياناً حتى تبدو نواجذه. فإذا غضب لم يظهر لذلك من أثر الغضب إلّا نفره عرق بين حاجبيه، أن كان يكظم غيظه ولا يريد أن يظهر غضبه، لما يُجبل عليه من سعه الصدر وصدق الهمة والوفاء للناس، ومن البرّ والجود وكرم العشرة، وما كان عليه إلى جانب ذلك من ثبات العزيمة وقوّه الإراده وشده البأس، ومضاء التصميم مضاء لا يعرف التردّد. وهذه الصفات مجتمعه فيه كانت تجعل من رآه بديهه هابه، ومن خالطه أحبه. فما كان أعظم أثرها إذا فيما اتّسق بينه وبين خديجه الزوج الوفيّه من موّدّه صادقّه ووفاء كامل (1).

لم ينقطع «محمّد» عن مخالطه أهل مكّه والأخذ معهم بنصيب في الحياه العامّه. وكانوا يومئذٍ في شغل بما أصاب الكعبه، فقد طغى عليها سيل عظيم انحدر من الجبال فصدّع جدرانها بعد توهينها. وكانت قُريش من قبل ذلك تفكّر في أمرها، أن كانت، ولا سقف لها، عرضةً لانتهاج السارقين ما تحوى من نفائس. لكنّها كانت تخشى، إن هي شدّت بنيانها ورفعت بابها وسقّفتها، أن يصيبها من ربّ الكعبه المُقدّسه شرٌّ وأذى. فقد كانت تحيط بها في مختلف عهود الجاهليه أساطير تخيف الناس من الإقدام على تغيير شيء

ص: ١٦٣

١- (١) الطبقات الكبرى: ٣٦٣-٣٦٤/١، والسيره الحلبيه: ٣٣٥/٣-٣٤٣، والوفاء: ٤١٩-٤٥٢ وقد أشار إلى بعض مكارم أخلاقه الشيخ الطبرسي في مكارم الأخلاق.

من أمرها، وتجعلهم يعتبرون ذلك بدعاً محرّماً. فلَمَّا طغى عليها السيل لم يكن بُدُّ من الإقدام ولو فى شىءٍ من الخوف والتردد. وصادف أن رمى البحر إذ ذاك بسفينه قادمه من مصر مملوكة لتاجر رومى اسمه باقوم فحطّمها. وكان باقوم هذا بناءً على شىءٍ من العلم بالنجاره. فلَمَّا سمعت قُريش بخبرها خرج الوليد بن المغيرة فى نفر من قُريش إلى جدّه، فابتاعوا السفينه من الرومى، وكلموه فى أن يقدم معهم إلى مكّه ليعاونهم فى بناء الكعبه، وقَبِل باقوم. وكان بمكّه قبطنى يعرف نجر الخشب وتسويته، فوافقهم على أن يعمل لهم ويعاونه باقوم. ثُمَّ إِنَّ قُريشاً اقتسمت جوانب البيت أربعة، لكلّ قبيله جانب تقوم بهدمه وبنائه. على أنّهم تردّدوا قبل هدمها مخافه أن يصيبهم أذى. ثُمَّ إِنَّ الوليد بن المغيرة أقدم فى شىءٍ من الخوف، فدعا آلّهته وهدم بعض الجانب من الركن اليمانى. وأمسى القوم ينتظرون ما الله فاعل بالوليد. فلَمَّا أصبح ولم يصبه شىء أقدموا يُهدّمون وينقلون الحجاره، و«محمّداً» ينقل معهم، حتى انتهى الهدم إلى حجاره خضر ضربوا عليها بالمعول فارتدّ عنها، فاتخذوها أساساً للبناء فوقه ونقلت قُريش أحجار الجرانيت الأزرق من الجبال المجاوره للبدء فى البناء وبدأت فيه. فلَمَّا ارتفع إلى قامه الرجل وآن أن يوضع الحجر الأسود المقدّس فى مكانه فى الجانب الشرقى. اختلفت قُريش أيّهم يكون له فخار وضع الحجر فى هذا المكان. واستحزّ الخلاف حتى كادت الحرب الأهليه تنشب بسببه. تحالف بنو عبدالدار وبنو عدى أن يحولوا بين أيه قبيله وهذا الشرف العظيم، وأقسموا على ذلك جهد أيمانهم، حتى قرّب بنو عبدالدار جفنه(١) مملوءه دمًا، وأدخلوا أيديهم فيه توكيداً لأيمانهم، ولذلك

ص: ١٦٤

١- (١) العرب تدعو السيّد المطعام جفنه لأنّه يضعها ويطعم الناس فيها فسمّى باسمها - النهايه فى غريب الحديث: ٢٧١/١.

سموا: «لَعَقَهُ الدَّم» فَلَمَّا رَأَى أَبُو أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغَيَّرَةِ الْمُخْزُومِيَّ مَا صَارَ إِلَيْهِ أَمْرَ الْقَوْمِ، وَكَانَ أَسْنَهُمْ وَكَانَ فِيهِمْ شَرِيفًا مُطَاعًا، قَالَ لَهُمْ: اجْعَلُوا الْحَكْمَ فِيمَا بَيْنَكُمْ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ مِنْ بَابِ الصَّفَا. فَلَمَّا رَأَوْا «مُحَمَّدًا» أَوَّلَ مَنْ دَخَلَ قَالُوا: هَذَا الْأَمِينُ رَضِينَا بِحُكْمِهِ، وَقَصَّوْا عَلَيْهِ قِصَّتَهُمْ. وَسَمِعَ هُوَ لَهُمْ، وَرَأَى الْعِدَاوَةَ تَبْدُو فِي عَيُونِهِمْ، فَفَكَّرَ قَلِيلًا، ثُمَّ قَالَ:

هَلُمَّ إِلَيَّ ثَوْبًا، فَأَتَى بِهِ، فَنَشَرَهُ وَأَخَذَ الْحَجْرَ فَوَضَعَهُ بِيَدِهِ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ:

لِيَأْخُذَ كَبِيرَ كُلِّ قَبِيلَةٍ بِطَرْفٍ مِنْ أَطْرَافِ هَذَا الثَّوْبِ؛ فَحَمَلُوهُ جَمِيعًا إِلَى مَا يُحَادِثُ مَوْضِعَ الْحَجَرِ مِنَ الْبِنَاءِ، ثُمَّ تَنَاوَلَهُ «مُحَمَّدٌ» مِنَ الثَّوْبِ وَوَضَعَهُ فِي مَوْضِعِهِ. وَبِذَلِكَ انْحَسَمَ الْخِلَافُ وَانْفَضَّ الشَّرُّ. وَأَتَمَّتْ قُرَيْشٌ بِنَاءَ الْكَعْبَةِ حَتَّى جَعَلَتْ أَرْتِفَاعَهَا ثَمَانِي عَشْرَ ذِرَاعًا، وَرَفَعُوا بَابَهَا عَنِ الْأَرْضِ لِيَدْخُلُوا مِنْ شَاءُوا وَيَمْنَعُوا مِنْ شَاءُوا. وَجَعَلُوا فِي دَاخِلِهَا سِتَّ دَعَائِمٍ فِي صَفَيْنِ، وَجَعَلُوا فِي رِكَنَيْهَا الشَّامِيَّ مِنْ دَاخِلِهَا دَرَجًا يَصْعَدُ بِهِ إِلَى سَطْحِهَا، وَوَضَعَ هُبْلَ دَاخِلِ الْكَعْبَةِ، كَمَا وَضَعَتِ النَّفَائِسُ الَّتِي تَعْرِضُ مِنْ قَبْلِ بِنَائِهَا وَسَقَفَهَا لِمَطَامِعِ اللَّصُوصِ.

أُخْتَلَفَ فِي سَنِّ «مُحَمَّدٍ» حِينَ بِنَاءِ الْكَعْبَةِ وَحِينَ حُكْمِهِ بَيْنَ قُرَيْشٍ فِي أَمْرِ الْحَجَرِ، فَقِيلَ: كَانَ ابْنُ خَمْسٍ وَعَشْرِينَ، وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ؛ كَانَ ابْنُ خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ. وَسَوَاءٌ أَصَحَّتِ الْوَاحِدَةُ أَمْ الْأُخْرَى مِنْ هَاتَيْنِ الرَّوَايَتَيْنِ، فَإِنَّ اسْرَاعَ قُرَيْشٍ إِلَى الرِّضَا بِحُكْمِهِ أَوَّلَ مَا دَخَلَ مِنْ بَابِ الصَّفَا، وَتَصَرَّفَهُ هُوَ فِي أَخْذِ الْحَجَرِ وَوَضَعِهِ عَلَى الثَّوْبِ وَأَخْذَهُ مِنَ الثَّوْبِ لَوْضَعِهِ مَكَانَهُ مِنْ جِدَارِ الْكَعْبَةِ، يَدَلُّ عَلَى مَا كَانَ لَهُ مِنْ مَكَانِهِ سَامِيَهُ فِي نَفُوسِ أَهْلِ مَكَّةَ وَمِنْ إِحْتِرَامِ جَمِّ لَمَّا

عُرف عنه من سموّ النفس ونزاهه القصد(١).

وهذا الخلاف بين القبائل، وهذا التحالف بين لعقه الدم، وهذا الاحتكام لأوّل مُقبل من باب الصّيفاء، يدل على أنّ السلطه في مكّه كانت انحلت فلم يبق لرجل منها ما كان لقُصيّ ولا لهاشم ولا لعبد المطلب من سلطان. ولقد كان لتنازع بني هاشم وبني أمّيه السلطان بعد وفاه عبدالمطلب أثره في ذلك لا ريب(٢). وكان هذا الانحلال في السلطه جديراً بأن يجزّ على مكّه الأذى، لولا ما كان لبيتها العتيق في نفوس العرب جميعاً من قداسه. على أنّ انحلال السلطان قد أدّى إلى نتيجته الطبيعيه: أدّى إلى مزيد من حريه الناس في التفكير والجهر بالرأى، وإلى إقدام اليهود والنصارى، ممّن كانوا يخافون صاحب السلطان، على تعبير العرب بعباده الأوثان. وانتهى ذلك بكثير من أهل مكّه ومن القرشيين أنفسهم، إلى أن زالت من نفوسهم قداسه الأصنام، وإن ظلّ أمجاد مكّه وسادتها يظهرون لها التقديس والعباده.

ولهؤلاء من العذر ما للذين يرون في الدين القائم وسيله من وسائل ضبط النظام وعدم تبليل الأفكار، وفي عباده الأصنام بالكعبه ما يحفظ على مكّه

ص: ١٦٦

١- (١) السيره النبويّه لابن هشام: ١٩٣-١٩٧، والطبقات الكبرى: ١٤٥/١-١٤٧، والسيره الحلييه: ١٤١/١-١٤٤، والوفاء: ١٤٣-١٤٤، الكافي للكليني: ٢١٨/٤.

٢- (٢) لم يحدّثنا التاريخ عن وقائع أو أحداث تاريخيه بعد وفاه عبدالمطلب يعوّل عليها، لتكون سبباً مباشراً في تحويل الحياه السياسيّه لتشكّل منعطفاً من شأنه أن يفصل بين زعامه عبدالمطلب وزعامه بنيه من بعده، ومن المعروف أنّ السلطه الدينيه بقيت في بني هاشم، كما كانت عليه رغم توزيع المهام بين أبي طالب وأخيه العباس، كما لا يعنى وجود بعض المهام الرئاسيه الأخرى بيد قريش، كبنى مخزوم ممّا يفقد هيبه بني هاشم في بطون قريش من جهه، إنّنا لم نسمع بتلك الأحداث المفترضه على أنّها زعزعت سلطان البطون على باقى العرب، بل كانت التشكيله السياسيّه القائمه على الروح القبليه، هى الحاكمه على الحياه في مكّه حتى مجيء النبيّ صلى الله عليه وآله.

مكانتها الدينيه والتجاربه. ولقد ظلت مكه بالفعل تنعم من وراء هذه المكانه بالرءاء واتصال التجاره. لكن ذلك لم يغير من انحلال قداسه الأصنام فى نفوس المكين أنفسهم.

ذكروا أنّ قريشاً اجتمعت يوماً بنخله تُحيى عيد العزى، فخلص منهم أربعة نجياً هم: زيد بن عمرو و عثمان بن الحويرث و عبيدالله بن جحش وورقه بن نوفل، فقال بعضهم لبعض: «تعلموا، والله ما قومكم على شىء وإنهم لفي ضلال. فما حَجَرَ نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضُرُّ ولا ينفع، ومن فوقه يجرى دم النحر. يا قوم التمسوا لكم ديناً غير هذا الدين الذى أنتم عليه». أمّا ورقه فدخل النصرانيه، وقيل: إنّه نقل إلى العربيه بعضاً ممّا فى الأناجيل. وأمّا عبيدالله بن جحش فظلّ فيما هو فيه من الإلتباس حتى أسلم، ثمّ هاجر مع المسلمين إلى الحبشه، وهناك اعتنق النصرانيه ومات عليها، وأقامت امرأته أمّ حبيبته بنت أبى سفيان على الإسلام حتى صارت من أزواج النبى وأمهات المؤمنين. وأمّا زيد بن عمرو ففرّ من زوجه ومن عمّه الخطاب. وطوّف فى الشام وفى العراق، ثمّ عاد ولم يدخل فى يهوديه ولا نصرانيه، وفارق دين قومه واعتزل الأوثان، وكان يقول وهو مستند إلى الكعبه: «اللهمّ لو أتى أعلم أى الوجوه أحبّ إليك لعبدتك به، ولكنى لا أعلمه». وأمّا عثمان بن الحويرث، وكان من ذوى قرابه خديجه، فذهب إلى بيزنطه وتنصّر وحسّنت مكانته عند قيصر ملك الروم. ويقال: إنّه أراد أن يخضع مكه إلى حمايه الروم وأن يكون عامل قيصر عليها، فطرده المكيون فاحتمى بالغساسنه فى الشام، وأراد أن يقطع الطريق على تجاره مكه،

فوصلت الغساسنه هدايا المكيين فمات ابن الحويرث عندهم مسموماً (١).

تعاقبت السنون و «محمّد» يشارك أهل مكّه في حياتها العامه، ويجد في خديجه خير النساء حقاً، الودود الولود التي وهبت كلّ نفسها له، والتي أنجبت له من الأبناء: القاسم والطاهر والطيب، ومن البنات: زينب ورقية وأُمّ كلثوم وفاطمه. أمّا القاسم والطاهر والطيب فلم يُعرف عنهم إلّا أنّهم ماتوا أطفالاً في الجاهليه لم يتركوا على الحياه أثراً يبقى أو يذكر. لكنّهم من غير شكّ قد ترك موتهم في نفس أبويهم ما يتركة موت الابن من أثر عميق، وترك موتهم من غير شكّ في نفس خديجه ما جرح أُمومتها ثلاث جراحات داميه (٢). وهي لاريب قد اتّجهت عند موت كلّ واحد منهم في الجاهليه إلى آلهتها الأصنام تسألها، ما بالها لم تشملها برحمتها وبرّها، وما بالها لم ترحم قلبها من أن يهوى به الثكل ليتحطّم على قراره الحزن مرّةً فمرّة فمره (٣)! وقد شعر زوجها لا ريب معها بالألم لوفاه بنيه، كما حزّ في قلبه هذا

ص: ١٦٨

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٢٢٢/١-٢٢٥، والسيره النبويه لابن كثير: ١٥٣/١-١٦٤.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ١٩٠/١، وراجع التعليقه (روايه الإمام الصادق عليه السلام في أولاد النبي صلى الله عليه وآله وعددهم).

٣- (٣) لم يكن معروفاً عن خديجه بنت خويلد على أنّها كانت ممّن عبد الأصنام، بل يشهد لها التاريخ من أنّها كانت تنهى ابن أخيها حكيم بن مزاحم عن عباده الأوثان، ويضاف أنّها كانت ترفض طلبات الأقربين من ذويها في أن تضع داخل بيتها تمثالاً من التماثيل أو صنماً من الأصنام التي يقُدّسها أهل مكّه، وكانت تقابل تلك الطلبات بابتسامه التهكم والسّخرية، فهذا حالها قبل الزواج من النبي صلى الله عليه وآله، فكيف بها بعد الزواج منه، وهي التي اختارته لتجلى التوحيد في سلوكه، ثمّ لم يكن دورها خافياً على أحد وهي تحمل الزاد والماء إلى أعلى غار حراء مع معاناه الصعود لتضعه بين يدي النبي صلى الله عليه وآله الذي كان يتعيّد في تلك البقعه لله وحده، رافضاً لعباده الأصنام. ثمّ لا نعرف معنى لسكوت النبي صلى الله عليه وآله عن خديجه المطيعه له والمستجيبه لدعوته في عدم نهيه لها وهي تمارس طقوس الشرك والوثنيه في نحرها الإبل لهبل واللات والعزى!!

الألم الحىّ مُمثّله صورته فى زوجه يراه كلّما عاد إلى بيته وجلس إليها. وليس يتعدّر علينا أن نقدّر عمق هذا الحزن السحيق فى عصر كان البنات يُؤادّن فيه وكان الحرص على العقب الذكر يوازى الحرص على الحياه بل يزيد عليه.

وبحسبك مظهراً لهذا الألم أن لم يطق «محمد» على الحرمان صبراً، حتّى إذا جرى بزيد بن حارثه يُشترى، طلب إلى خديجه أن تتبّاعه ففعلت، ثمّ أعتقه وتبّناه، فكان يدعى زيد بن محمّد، واستبقاه ليكون من بعد من خيره أتباعه وصحبه (1). ولقد حزن «محمّد» بعد حين مات ابنه إبراهيم أشدّ الحزن بعد أن حرّم الإسلام وأد البنات، وبعد أن جعل الجنّه تحت أقدام الأمهات. فلا ريب إذا قد كان لما أصاب «محمّد» فى بنيه ماهو جدير بأن يترك فى حياته وتفكيره أثره. ولا ريب فى أنّه استوقف تفكيره ولفّت نظره فى كلّ واحده من هذه الفواجع ما كانت خديجه تتقرب به إلى أصنام الكعبه، وما كانت تنحر لهبل وللّات والعزّى ولمنّاه الثالثه الأخرى، تريد أن تفتدى ما ألمّ بها من ألم التّكل، فلا تفيد القربان ولا تجدى النحور.

وأما البنات فقد عنى «محمد» بتزويجهنّ من أكفّاء لهنّ. فزوّج زينب كبراهنّ من أبى العاص بن الربيع بن عبدشمس، وكانت أمّه أختاً لخديجه، وكان فتىّ مقدّراً من قومه لاستقامته ونجاح تجارته. وكان هذا الزواج موفقاً برغم ما كان بعد الإسلام، وحين أرادت زينب الهجره من مكّه إلى المدينه، من شوائب شابته سنرى من بعد تفصيلها. وزوّج رقيه وأمّ كلثوم من عتبه وعُتبيه ابنى عمّه أبى لهب. ولم تبق هاتان الزوجتان مع زوجيهما بعد

ص: ١٦٩

الإسلام، أن أمر أبولهب ابنه بتسريحهما، فتزوجهما عثمان واحده بعد الأخرى(١). وكانت فاطمه طفله ماتزال فلم تزوج من عليّ إلا بعد الإسلام.

حياه طمأنينه ودَعَه إذا كانت «حياه محمّد» في هذه السنين من عمره.

ولولا- احتسابه بنيه لكانت حياه نعمه بموَدّه خديجه ووفائها، وبهذه الأبوه السعيده الراضيه. طبعي مع ذلك أن يترك «محمّد» نفسه لسجيتها، سجيّه

ص: ١٧٠

١- (١) يرى البعض من المُحقّقين أنّ عثمان لم يتزوج من بنات النبيّ صلى الله عليه وآله وفق البيان التالي: ١- «قال المقدسي: إنّ خديجه ولدت لرسول الله صلى الله عليه وآله عبدمناف في الجاهليه وولدت له في الإسلام غلامين وأربع بنات: القاسم وعبدالله وأمّ كلثوم وزينب ورقيه وفاطمه»، البدء والتاريخ: ١٦/٥.٢ - قال القسطلاني: «وقيل: وُلِدَ له ولد قبل المبعث يقال له: عبدمناف، فيكونون على هذا اثني عشر، وكلّهم - سوى هذا - ولدوا في الإسلام بعد المبعث»، المواهب اللدنيه: ١٩٦/١.٣ - وينصّ صاحب الإصابه: «أنّ رقيه كانت أصغر من الكلّ حتى من فاطمه عليها السلام»، الإصابه: ٣٠٤/٤.٤ - فعليه لا- يمكن التصديق بأنهما تزوّجتا في الجاهليه من ابني أبي لهب، ثمّ جاء الإسلام ففارقهما. ٥- ثمّ يقول المقدسي: «فزوج رسول الله رقيه عثمان بن عفان، وهاجرت معه في الهجرتين إلى الحبشه، وأسقطت في الهجره الأولى علقه في السفينه»، البدء والتاريخ: ١٧/٥. وهذا لا- يمكن التصديق به أيضاً وذلك أنّنا نعلم: أنّ الهجره الأولى إلى الحبشه كانت بعد البعته بخمس سنين، فكيف تكون رقيه قد تزوّجت قبل البعته بابن أبي لهب، ثمّ فارقها ليتزوجها عثمان، وتحمل منه قبل الهجره إلى الحبشه، وهي إنّما ولدت بعد البعته. ولكن يمكن القول إنّ هذه الحقائق تؤيد أنّ رقيه التي تزوّجها عثمان هي غير رقيه التي يدعى أنّها بنت الرسول صلى الله عليه وآله والتي يقال إنّها وُلِدَت بعد البعته، وإنّ التي تزوّجها عثمان هي ربيبه النبيّ صلى الله عليه وآله لا ابنته.. وقد كانت العرب تطلق على ربيبه الرجل أنّها ابنته وكذلك يقال بالنسبه لأمّ كلثوم، لأنّ الفرض أنّها قد وُلِدَت بعد البعته، راجع الصحيح في سيره النبيّ. جعفر مرتضى العاملي: ١٢٣/١. وهناك تحقيق آخر في مسأله زينب فيما إذا كانت ابنه الرسول أم ربيبه، يقول الشيخ محمّد حسن آل ياسين عن زينب: «أنّ بعض المصادر تقول: إنّها وُلِدَت وعمره صلى الله عليه وآله ثلاثين سنه» - أسد الغابه: ٤٦٧/٥، ونهايه الإرب: ٢١١/١٨، والاستيعاب بهامش الإصابه: ٣١١/٤ - وتزوجها أبو العاص بن الربيع قبل البعته، وُلِدَت له عليّاً مات صغيراً، وأمامه أسلمت حينما أسلمت أمها أول البعته النبويه، وذلك غير معقول، فإنّه لا يمكن لبنت في العاشره أن تتزوج ويولدها بنت وتكبر تلك البنت حتى تسلم مع أمها في أول البعته.. هذا.. وحيث لا- تزال أمها في العاشره من عمرها»، النبوه للشيخ محمّد حسن آل ياسين: ٦٥.

التفكير والتأمل، وأن يستمع إلى قومه فيما كان حوارهم يقع عليه من أمور أصنامهم، وما كان النصارى واليهود يقولونه لهم، وأن يفكر ويتدبر، وأن يكون أشد من كل قومه تدبراً وتفكيراً. فهذا الروح القوي الملهم، هذا الروح الذي أعدت الأقدار لئيبغ الناس من بعد رسالات ربه، ويوجه حياه العالم الروحيه الاتجاه الحق، لا يمكن أن يظل مطمئناً إلى ما غرق الناس فيه إلى الأذقان من ضلال، ولا بد أن يلتمس في الكون أسباب الهدى حتى يعده الله ليلقى عليه ما قدر في الغيب من رسالته. ومع عظيم توجهه لهذه الناحيه الروحيه وشديد تعلقه بها، فإنه لم يكن يريد لنفسه أن يكون من طراز الكهّان، ولا أراد أن ينصب نفسه حكيماً على نحو ما كان ورقه بن نوفل وأمثاله. هو إنما كان يريد الحق لنفسه. فكان لذلك كثير التفكير، طويل التأمل، قليل الإفضاء لغيره بما يجيش بنفسه من آثار تفكيره وتأمله.

وقد كان من عاده العرب - إذ ذاك - أن ينقطع مفكروهم للعباده زمناً في كل عام يقضونه بعيداً عن الناس في خلوه، يتقربون إلى آلهتهم بالزهد والدعاء، ويتوجهون إليها بقلوبهم يلتمسون عندها الخير والحكمه. وكانوا يُسمّون هذا الانقطاع للعباده «التحنّث» أو «التحنّث»^(١). وقد وجد محمّد فيه خير ما يُمكنه من الإمعان فيما شغلت به نفسه من تفكير وتأمل، كما وجد فيه طمأنينه نفسه وشفاء شغفه بالوحده يلتمس أثناءها الوسيله إلى ما برح شوقه يشتد إليه من نشدان المعرفه واستلهاهم ما في الكون من أسبابها. وكان بأعلى جبل حراء - على فرسخين من شمال مكّه - غار هو خير ما يصلح

ص: ١٧١

١- (١) التحنّث: تعبد واعتزل الأصنام «ماده حنث» الصحاح: ٢٨٠/١.

للانقطاع والتحنُّث، فكان يذهب إليه طوال شهر رمضان من كلِّ سنة يقيم به مكتفياً بالقليل من الزاد يحمل إليه، ممعناً في التأمل والعبادة، بعيداً عن ضجِّه الناس وضوضاء الحياه، ملتمساً الحقَّ، والحقَّ وحده. ولقد كان يشتدُّ به التأمل ابتغاء الحقيقة، حتى لكان ينسى نفسه وينسى طعامه وينسى كلَّ ما في الحياه؛ لأنَّ هذا الذي يرى في الحياه التي حوله ليس حقّاً. وهناك كان يقبِّب في صحف ذهنه كلَّ ما وعى، فيزداد عمّا يزاول الناس من ألوان الظنِّ رغبه وازوراراً^(١). وهو لم يكن يطمع في أن يجد في قصص الأخبار وفي كتب الرهبان الحقَّ الذي ينشد، بل في هذا الكون المحيط به، في السماء ونجومها وقمرها وشمسها، وفي الصحراء ساعات لهيبها المحرق تحت ضوء الشمس الباهره اللآلاء، وساعات صفوها البديع إذ تكسوها أشعه القمر أو أضواء النجوم بلباسها الرطب الندى، وفي البحر وموجه، وفي كلِّ ما وراء ذلك ممّا يتصل بالوجود وتشمله وحده الوجود. في هذا الكون كان يلتمس الحقيقة العليا، وابتغاء إدراكها كان يسمو بنفسه ساعات خلوته ليتصل بهذا الكون وليخترق الحجب إلى مكنون سرّه، ولم يكن بحاجة إلى كثير من التأمل ليرى أنّ ما يباشر قومه من شؤون الحياه وما يتقربون به إلى آلهتهم ليس حقّاً. فما هذه الأصنام التي لا تضرّ ولا تنفع ولا تخلق ولا ترزق، ولا تدفع عن أحد غائله شرّ يصيبه! وهُبَل واللات والعزى، وكلّ هذه الأنصاب والأصنام القائمه في جوف الكعبه أو حولها، لم تخلق يوماً ذبأباً ولا جادت مكّه بخير! ولكن!

ص: ١٧٢

١- (١) الإزورار عن الشيء: العدول عنه. وقد ازوّر عنه ازوراراً، وازوّر عنه ازويراراً، وتزاور عنه تزاوراً، كلّه بمعنى عدل عنه وانحرف. الصحاح: ٦٧٣/٢.

أين الحقّ إذا؟ أين الحقّ في هذا الكون الفسيح بأرضه وسماواته ونجومه؟ أهو في هذه الكواكب المضيئه التي تبعث إلى الناس النور والدفء، ومن عندها ينحدر ماء المطر، فيكون للناس ولأهل الأرض كفه من خلائق، حياه بالماء والنور والدفء؟ كلا، فما هذه الكواكب إلّا أفلاكاً، كالأرض سواء.

أهو فيما وراء هذه الأفلاك من أثر لا حدّ ولا نهايه له؟ ولكنّ ما الأثير؟! وهذه الحياه التي نحيا اليوم فتنقضى غداً، ما أصلها وما مصدرها؟! أهي مصادفه تلك التي أوجدت الأرض وأوجدتنا عليها؟ لكنّ للأرض وللحياه سُيناً ثابتة لا تبديل لها ولا يمكن أن تكون المصادفه أساسها. وما يأتي الناس من خير أو شرّ، أفيأتونه طواعيه واختياراً، أم هو بعض سليقتهم فلا سلطان لاختيارهم عليه؟ في هذه الأمور النفسيه والروحيه كان «محمّد» يفكر أثناء انقطاعه وتعبيده بغار حراء. وكان يريد أن يرى الحقّ فيها وفي الحياه جميعاً.

وكان تفكيره يملأ نفسه وفؤاده وضميره وكلّ ما في وجوده، ويشغله لذلك عن هذه الحياه وصبوحها ومسائها. فإذا انقضى شهر رمضان عاد إلى خديجه وبه من أثر التفكير ما يجعلها تسائله تريد أن تظمن إلى أنّه بخير وعافيه. وإذا استدار العام وجاء شهر رمضان كرهة أخرى ذهب إلى حراء وعاد إلى تفكيره، ينضجه شيئاً فشيئاً وتزداد به نفسه امتلاء. وبعد سنوات شغلت أثناءها هذه الحقائق العليا نفسه، صار يرى في نومه الرؤيا الصادقه تنبلج أثناءها أمام باصرته أنوار الحقيقه التي ينشد، ويرى معها باطل الحياه وغرور زخرفها. إذ ذاك آمن أنّ قومه قد ضلّوا سبيل الهدى، وأنّ حياتهم الروحيه قد أفسدها الخضوع لأوهام الأصنام، وما إليها من عقائد متصله بها ليست دونها ضلالاً.

وليس فيما يذكر اليهود وما يذكر النصارى ما ينقذ قومه من ضلالهم. ففيما يذكر هؤلاء وأولئك حق. لكنّ فيه كذلك ألواناً من الوهم، وصوراً من الوثنيه، لا- يمكن أن تتفق والحقّ المجرد البسيط الذى لا- يعرف كلّ هذه المضاربات الجدليه العقيمه، ممّا يُمعن فيه هؤلاء وأولئك من أهل الكتاب. وهذا الحقّ هو الله خالق الكون لا إله إلّا هو، وهذا الحقّ هو أنّ الله ربّ العالمين، هو الرّحمن الرّحيم، وهذا الحقّ هو أنّ الناس مجزيّون بأعمالهم. فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ١ . وَإِنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَقٌّ، وَأَنَّ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا آخِرَ لَهُمْ جَهَنَّمَ، وَسَاءَتْ مَسْقَرًا وَمَقَامًا.

وشارف «محمّد» الأربيعين، وذهب إلى حراء يتحنّث وقد امتلأت نفسه إيماناً بما رأى فى رؤاه الصادقه(١) ، وقد خلصت نفسه من الباطل كلّ، وقد أدبه ربّه فأحسن تأديبه، وقد اتّجه بقلبه إلى الصّراط المستقيم، وإلى الحقيقه الخالده، وقد اتّجه إلى الله بكلّ روحه أن يهدى قومه بعد أن ضربوا فى تيهاء الضلال. وهو فى توجهه هذا يقوم الليل ويرهف ذهنه وقلبه، ويطلق الصوم وتثور به تأملاته، فينحدر من الغار إلى طرق الصحراء، ثمّ يعود إلى خلوته ليعود فيمتحن ما يدور بذهنه وما يتبين له فى رؤاه. ولقد طالت به الحال سته أشهر حتى خشى على نفسه عاقبه أمره، فأسرّ بمخاوفه إلى خديجه وأظهرها على ما يرى، وأنّه يخاف عبث الجنّ به، فطمأنته الزوج

ص: ١٧٤

١- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٢٣٣-٢٣٥، والطبقات الكبرى: ١٩٠/١ و ١٩٤ وامتناع الأسماع: ٢٠/١-٢١، وعيون الأثر: ١٠٠/١ و ١٠٢، وإعلام الورى: ٤٦/١.

المخلصه الوفيه وجعلت تحدّثه بأنّه الأمين، وبأنّ الجنّ لا يمكن أن تقترب منه (١).

وفيما هو نائم بالغار يوماً جاءه ملك وفي يده صحيفه، فقال له: اقرأ، فأجاب مأخوذاً: ما أقرأ؟. فأحسّ كأنّ الملك يخنقه ثمّ يرسله ويقول له: اقرأ، قال «محمد» - وقد خاف أن يخنق كره أخرى -: ماذا أقرأ؟ قال الملك: اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علّم بالقلم * علّم الإنسان ما لم يعلم ٢/٣. فقراها وانصرف الملك عنه وقد نقشت في قلبه. لكنّه ما لبث أن استيقظ فرعاً، يسأل نفسه: أى شىء رأى؟! (٢) أتراه أصابه ما كان

ص: ١٧٥

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٢٣٤-٢٣٥، والطبقات الكبرى: ١٩٤/١-١٩٥، والوفا: ١٥٥ و ١٥٧.

٢- (٢) «وهبت من نومى وكأنما كتب فى قلبى كتاباً قال: ولم يكن من خلق الله أحدٌ أبغض إلى من شاعر أو مجنون، كنت لا أُطيق أن أنظر إليهما، قال: قلت إنّ الأبعد - يعنى نفسه - لشاعر أو مجنون! لا تحدّث بها عنى -

يخشى من جنّه؟ وتلفت يمينه ويسره فلم ير شيئاً. ومكث برهه أصابته فيها رعدة الخوف وتولاه أشدّ الوجل، وخاف ما قد يكون بالغار ففرّ منه وكله الحيره لا يستطيع تفسير ما رأى، وانطلق هائماً في شعاب الجبل يُسائل نفسه عمّن دفعه ليقراً. لقد كان إلى يومئذٍ يرى وهو في تحنّته الرؤيا الصادقه تنبلج من خلال تأمله فتملاً صدره فتضىء أمامه وتدلّه على الحقّ أين هو؟ وتُنير له أكداس الظلمات التي زجت قريشاً في وثيتهم إلى عباده أصنامهم. وهذا النور الذي أضاء أمامه وهذا الحقّ الذي هداه سبيله هو الواحد الأحد. فمن هذا المذكّر به وبأنّه الذي خلق الإنسان وبأنّه الأكرم الذي علّم الإنسان بالقلم ما لم يعلم؟ وتوسط الجبل وهو في هذه الحال من فزع وخشيه وتساؤل، فسمع صوتاً يناديه، فأخذه الروح ورفع رأسه إلى السماء، فإذا المَلَك في صورته رجل هو المنادى. وزاد به الفزع ووقفه الرعب مكانه، وجعل يصرف وجهه عمّا يرى، فإذا هو يراه في آفاق السماء جميعاً، ويتقدّم ويتأخر فلا تنصرف صورته

المَلَك الجميل من أمامه. وأقام على ذلك زمناً كانت خديجه قد بعثت أثناءه بمن يلتمسه في الغار فلا يجده. فلما انصرفت صورته المَلَك رجع «محمّد» ممتلئاً بما أوحى إليه، وفؤاده يرجف وقلبه يضطرب خوفاً وهلعاً. ودخل على خديجه وهو يقول: «زملوني»، فزملته وهو يرتعد كأن به الحمى. فلما ذهب عنه الروح نظر إلى زوجه نظره العائد المُستنجد، وقال: «يا خديجه! مالي؟» وحدّثها بالذي رأى. وأفضى إليها بمخاوفه أن تخدعه بصيرته أو أن يكون كاهناً. وكانت خديجه - كما كانت أيام تحنّته في الغار ومخاوفه أن تكون به جنّه ملاك الرحمة وملاذ السلام لهذا القلب الكبير الخائف الوجل. لم تبد له أى خوف أو ريبه، بل رنّت إليه بنظره الإكبار وقالت: أبشر يا ابن عمّ واثبت، فالذى نفس خديجه بيده إننى لأرجو أن تكون نبى هذه الأُمّه، والله لا يخزيك الله أبداً، وإنك لتصل الرّحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكلّ، وتقرى الضيف، وتعين على نواب الحق (1).

واطمأنّ روع «محمّد» وألقى إلى خديجه بنظره شكر ومودّه، ثمّ أحس بجسمه مُتعباً فى حاجه إلى النوم، فنام، نام ليستيقظ من بعد إلى حياه روحيه قويه غايه القوّه، حياه تأخذ بالأبصار والألباب، ولكنّها حياه تضحيه خالصه لوجه الله والحقّ والإنسانيه. تلك رساله ربّه يبلغها ويدعو الناس إليها بالتي هي أحسن، حتى يتمّ الله نوره ولو كره الكافرون (2).

ص: ١٧٧

١- (١) السيره النبويّه لابن هشام: ٢٣٦-٢٣٨، وعيون الأثر: ٩٩-١٠٦، و السيره النبويّه لابن كثير: ٣٨٠-٣٨٨.
٢- (٢) هذه النصوص التي اعتمدها الأستاذ هيكل في فهمه لحدث البعته والارهاصات التي رافقتها لا يمكن الاعتماد عليها، وذلك لمخالفتها المسلّمات القرآنيه حين تصوّر لنا المرسل وصفاته في الوقت الذي توجد روايات أُخرى تتحدث عن البعته وكيفيه تلقى النبيّ صلى الله عليه وآله للوحي الأقرب في دلالتها من منطلق الوحي فتكون الأجدر بالأخذ دون غيرها وسننقل نص بعضها في هامش آخر.

الفصل الخامس: من البعث إلى إسلام عمر

حديث خديجه وورقه بن نوفل، فتور الوحي، إسلام أبي بكر، المسلمون الأولون، دعوه محمّد أهله للإسلام، إغراء قريش شعراءها بمحمّد، ذكر محمّد آله قريش بالسوء، سفاره قريش إلى أبي طالب، موقف محمّد من عمّه، تعذيب قريش للمسلمين، هجره المسلمين إلى الحبشه، إسلام عمر.

نام «محمّد» وحدّقت به خديجه وقد امتلأ قلبها اشفاقاً وأملاً لهذا الذي سمعت منه. فلما رأته استغرق في نوم مطمئن هادئ تركته وخرجت تقلّب في نفسها هذا الذي ملأ قلبها وأثار هواجسها، وتفكّر في الغدّ ترجوه خيراً، وترجو أن يكون زوجها فيه نبىّ هذه الأُمّه العريبه التي أُغرقت في الضلال؛ يهديها دين الحقّ ويدلّها على الصّراط المستقيم. وتخشاه، مع ذلك، أشدّ الخشيّه على هذا الزوج البارّ الوفيّ الحميم. وطفقت تعرض أمام بصيرتها ما قصّ عليها، وتخيّل هذا المملك الجميل الذي تعرّض له في السماء بعد أن أوحى إليه كلمات ربّه، والذي ملأ عليه الوجود كلّه زمناً كان يراه أثناءه أينما صرف وجهه، وتستعيد الكلمات التي تلا محمّد بعد أن نقشت في صدره.

جعلت تعرض ذلك كله أمام بصيرتها فتفتّر شفتاها طوراً عن ابتسامه الأمل، وتنكمش أساريرها طوراً آخر خيفه ما قد يكون أصاب الأيمن. ولم تطق البقاء في وحدتها طويلاً، تنتقل من الأمل الحلو الباسم إلى الريبه والاشفاق المخوف، ففكرت في أن تفضى بما في نفسها إلى من تعرف فيه الحكمة وحسن النصيحة.

لذلك انطلقت إلى ابن عمها ورقه بن نوفل، وكان - كما قدمنا - قد تنصّر وعرف الإنجيل ونقل بعضه إلى العربيه. فلما أخبرته بما رأى محمّد وسمع، وقصّت عليه كل ما حدّثها به، وذكرت له إشفاقها وأملها، أطرق ملياً ثم قال:

«قُدّوس قُدّوس! والذى نفس ورقه بيده لئن كنت صدقتنى يا خديجه لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى، وإنه لنبى هذه الأمة، فقولى له فليثبت»(١). وعادت خديجه فألفت محمّداً نائماً ما يزال، فحدّقت به وكلّها الحبّ والاخلاص وكلّها الاشفاق والأمل. وفيما هو فى هدأه نومه إذا به اهتزّ وثقل تنفّسه وبلّل العرق جبينه يقوم ليستمع إلى المَلَك يوحى إليه(٢): يا أَيُّهَا المُدَثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمُنْ بِتَسْتَكْبِرْ * وَرَبِّكَ فَاصْبِرْ/٣. ورأته خديجه كذلك فازدادت إشفاقاً وتقدّمت إليه فى رقه وضراعه أن يعود إلى فراشه وأن ينام ليستريح. فكان جوابه، أو كما قال:

انقضى يا خديجه عهد النوم والراحه، فقد أمرنى جبرئيل أن أنذر الناس وأن أدعوهم إلى الله وإلى عبادته. فمن ذا أدعو ومن ذا يستجيب إليّ؟ فجهدت خديجه تهوّن عليه الأمر وتثبتته، وسارعت فقصّت عليه نبأ ورقه وما حدّثها

ص: ١٨٠

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٢٣٨/١.

٢- (٢) الكامل فى التاريخ: ٣٢/٢.

١- (١) تاريخ الطبري: ٥٣٥/١. هذه الروايات التي أسس عليها الأستاذ هيكل تصويره للبعث لا يمكن الاطمئنان إليها، فمن جهة سندها هي ترجع إلى روايه الزهري عن عروه بن الزبير، فالزهري كان من أعوان الظلمه، راجع الغارات للثقفى: ٥٥٨/٢، أما عروه فيكفى عدم الاطمئنان إلى روايته صريح اعترافه على نفسه حيث يقول: كنا نجلس إلى أئمتنا فيتكلمون بالكلام نعلم أن الحق غيره فنصدّقهم ويقضون بالجور فنقوّيهم ونحسّنه لهم، راجع سنن البيهقي: ١٦٥/٨، وكان عروه من السبّابين للإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، شرح نهج البلاغه: ٦٤/٤. أما من جهة دلاله تلك الروايات التي نُقلت في كتب التاريخ فهي لم تتفق حول نصّ واحد وإنما أضيف إلى بعضها قول ورقه بن نوفل: هذا الناموس الذي أنزل على موسى عليه السلام ياليتني فيها جذعاً ليتني أكون حيّاً حين يخرجك قومك فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: أو مُخرجي هم؟ فقال ورقه: نعم لم يأت رجل قطّ بما جئت به إلّعودى وإن يدركني يومك انصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقه أن توفى. راجع مسند أحمد: ٢٤٦٨١، الاستفهام الذي يردّ على تلك الروايات التي تصوّر مسأله المبعث وبروز شخصيه ورقه كأحد أبطال القصة الذي لم يُسلم رغم علمه بأنّ دين الله هو الإسلام بأنّه كان عارفاً بما سيجرى على النبيّ صلى الله عليه وآله بشكل تفصيلي والغريب أنّ صاحب الرساله نفسه لم يتّضح له الأمر ولا يعرف أبعاد رسالته، وورقه هو الذي يفيض عليه بالطمأنينه والاستقرار بينما نجد القرآن يصرّح أنّ النبيّ على بينه من ربّه وهو الذي يهدى الناس لا- الناس تهديه، وتضيف بعض الروايات مقاطع أخرى للقصة منها قول النبيّ صلى الله عليه وآله: «وَهَبَيْتُ مِنْ نَوْمِي وَكَأْتَمًا فِي قَلْبِي كِتَابًا. قَالَ: وَلَمْ يَكُنْ فِي خَلْقِ اللَّهِ أَحَدٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ شَاعِرٍ أَوْ مَجْنُونٍ، كُنْتُ لَا أُطِيقُ أَنْ أَنْظُرَ إِلَيْهِمَا، قَالَ: قُلْتُ: إِنَّ الْأَبْعَدَ - يَعْنِي نَفْسَهُ - لِشَاعِرٍ أَوْ مَجْنُونٍ! لَا تَحَدَّثْ بِهَا قُرَيْشٌ أَبَدًا! لِأَعْمَدَنَّ إِلَى حَالِقِ الْجَبَلِ فَلَأُطْرَحَنَّ نَفْسِي مِنْهُ فَلَأَقْتُلْنَهَا فَلَأَسْتَرِيحَنَّ، قَالَ: فَخَرَجْتُ أُرِيدُ ذَلِكَ حَتَّى إِذَا كُنْتُ وَسَطَ الْجَبَلِ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ يَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَأَنَا جِبْرَائِيلُ، رَاجِعَ تَارِيخِ الطَّبْرِيِّ: ٢٠١/٢. لاحظ هنا اضطراب النبيّ صلى الله عليه وآله وخوفه الذي يبلغ به النهايه حتى يريد الانتحار في الوقت الذي يريد الله للنّبوه، وهذا الاضطراب في الروايات يجعلنا في ريب منها وعدم قبولها، ويدعوننا من جهة أن نراجع النصوص الروائيه الأخرى المنسجمه مع المنطق القرآني، والعقل والتاريخ بخصوص المبعث وشخص النبيّ صلى الله عليه وآله منها: فعن الإمام الحسن العسكري عليه السلام: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا ترك تجاره الشام وتصدّق بكلّ ما رزقه الله تعالى من تلك التجارات كان يغدو كل يوم إلى حراء وحده وينظر من قلله إلى آثار رحمة الله، وإلى أنواع عجائب رحمته وبدائع حكمته وينظر أكناف السماء وأقطار الأرض والبحار والمفاوز والفيافي، فيعتبر بتلك الآثار، -

وكان طبيعياً أن تسارع إلى الإيمان به، وقد جرّبت عليه طوال حياته الأمانة والصدق وعلو النفس وحب البرّ والرّحمه، وقد رأته في سنوات تحنّته كيف شُغلت نفسه بالحقّ دائماً، يطلبه مرتفعاً بقلبه وبروحه وبعقله فوق أوهاام هؤلاء الناس ممّن يعبدون الأصنام ويقرّبون لها النحور، ويرون فيها آلهه يزعمونها تضرّ وتنفع، ويتوهمونها خليقه بالعباده والإجلال. رأته في سنوات تحنّته ورأت كيف كان حاله أوّل عوّده من حراء بعد البعث وهو في

أشدَّ الحيره من أمره؛ ورأت إذ طلبت هي إليه متى جاءه المَلَك أن يخبرها، فلَمَّا رآه أجلسته على فخذه اليسرى ثُمَّ على فخذه اليمنى ثُمَّ في حجرها وهو ما يزال يراه، فتحسرت وألقت خمارها فإذا هو لا- يراه؛ فلم يبق ريب عندها في أنه مَلَك وليس بشيطان(١).

وخرج «محمّد» من بعد ذلك يوماً للطواف بالكعبة فلقبه ورقه بن نوفل. فلَمَّا قصَّ عليه «محمّد» أمره قال ورقه: «والذي نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمّة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى. ولتكدّبن، ولتؤذين، ولتخرجنّ ولتقاتلن، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرنّ الله نصرأ يعلمه». ثُمَّ أدنى رأسه منه فقبل يافوخه. وشعر «محمّد» بصدق ورقه فى قوله وبثقل ما ألقى عليه، وطفق يُفكر كيف يدعو قريشاً إلى ما آمن هو به وهم أحرص ما يكونون على باطلهم، وهم فى سبيله يقاتلون ويقتلون. وهم أهله وعشيرته الأقربون(٢).

إنهم فى ضلال وإنّ ما يدعوهم إليه هو الحقّ، أليس يدعوهم إلى الارتفاع بقلوبهم وبأرواحهم لتتصل بالله الذى خلقهم وخلق من قبل آباءهم، ليعبدوه مخلصين له الدين طاهره نفوسهم، وليتقربوا إليه بالعمل الصالح وإيتاء ذى القربى حقّه وابن السبيل، بدل أن يعبدوا هذه الأحجار التى اتّخذوا منها أصنامهم فتجعل عبادتها نفوسهم أشدّ منها تحجراً وقسوه، ثُمَّ يزعمون أنّها تغفر لهم ما يمعنون فيه من لهو وفسوق، ومن أكل الرّبا ومال اليتيم! أليس يطلب إليهم أن ينظروا إلى ما فى السّموات والأرض من خلق الله، وأن تتمثّل نفوسهم ذلك كلّه وما له من خطر وجلال. ثُمَّ ترى ذلك كلّه من خلق الله

ص: ١٨٣

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٢٣٩/١.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٢٣٨/١.

الذى تعبده وحده لا شريك له فتكبر بما يخلق ممّا فى السماوات والأرض، وتكبر بعبادتها خالق الوجود كلّ، وتسمو عن كلّ وضع وتعالى عن كلّ دون وتأخذها الرحمه بكلّ من لم يهده الله وتعمل لهدايته، وتكون البرّ بكلّ يتيم وبكلّ بائس أو ضعيف. نعم إلى هذا أمره الله أن يدعوهم، لكنّ هذه القلوب القاسيه وهذه الأرواح الغلاظ قد يبست على عباده ما كان يعبد آباؤها، ووجدت فيه تجاره تجعل مكّه مركز حجيج عبده الأصنام! أفتركون دين آباؤهم ويُعرّضون مكانه مدينتهم إلى ما قد تعرّض له إذا لم يبق على عباده الأصنام أحد؟! ثمّ كيف تُطهّر هذه القلوب وتُخلص من أدران شهواتها والشهوه تهبط بها إلى إرضاء بهيميتها، فى حين هو ينذر الناس أن يرتفعوا فوق شهواتهم وفوق أصنامهم. وإذا هم لم يؤمنوا به فماذا عساه يفعل؟ هذه هى المسأله الكبرى!!

وانتظر هدايه الوحي إياه فى أمره وإناره سبيله، فإذا الوحي يفتر (1) وإذا جبريل لا ينزل عليه، وإذا ما حوله سكينه صامته، وإذا هو فى وحده من الناس ومن نفسه، وحده جعلته يعود إلى مثل مخاوفه قبل نزول الوحي، وإذا خديجه تقول له: ما أرى ربك إلّا قد قلاك (2)، وإذا الخوف والوجل يبتعثانه من جديد يطوى الجبال وينقطع فى حراء ويرتفع بكلّ نفسه ابتغاء وجه ربّه يسأله: لمّ قلاه (3) بعد أن اصطفاه؟ ولم تكن خديجه أقل منه إشفاقاً ووجلاً.

ويتمنى الموت صادقاً لولا أنّه كان يشعر بما أمر به فيرجع إلى نفسه ثمّ إلى

ص: ١٨٤

١- (١) فتر فتوراً: سكن عن حدّته، ولأنّ بعد شدّته. العين: ١١٤/٨.

٢- (٢) الطبرى: ٥٣٢/١. وهل تجتمع هذه الكلمه - لو كانت قد صدرت من خديجه - مع ما مرّ عنها من تشيبتها للنبيّ صلى الله عليه وآله فى بدايه الوحي إليه؟!

٣- (٣) قلاه: أبغضه. ومن يعتقد أن النبيّ صلى الله عليه وآله حين بُعث كان فى كمال العقل والاتّزان والمعرفه، برّبّه الرحيم الذى بعثه رحمه للعالمين وهل يصدق بذلك؟!

رَبِّهِ. وَفَكَرَ فِي أَنْ يَلْقَى بِنَفْسِهِ مِنْ أَعْلَى حِرَاءٍ أَوْ أَبِي قُبَيْسٍ (١). وَأَيُّ خَيْرٍ فِي الْحَيَاةِ وَهَذَا أَكْبَرُ أَمَلِهِ فِيهَا يَذُوقُ وَيَنْقُضِي. وَإِنَّهُ لَكَذَلِكَ تَسَاوَرَهُ هَذِهِ الْمَخَافُوفُ، إِذْ جَاءَهُ الْوَحْيُ بَعْدَ طَوْلِ فَتْوَرِهِ (٢)، وَإِذْ نَزَلَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:

وَ الضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ مَا قَلَى * وَاللَّآخِرَةَ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى * وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَ وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَ وَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَ أَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ٣ .

يَا لَجَلالِ اللَّهِ! أَيُّهُ سَكِينَةٌ لِلنَّفْسِ وَغِبطَةٌ لِلقَلْبِ وَبَهْجَةٌ لِلفُؤَادِ!! انْجَابَتْ مَخَافُوفُ مُحَمَّدٍ وَزَالَ كَلُّ رُوعِهِ وَطَوَّقَتْ ثَغْرَهُ ابْتِسَامُهُ الرِّضَا وَافْتَرَّتْ شَفَتَاهُ عَنْ مَعَانِي الْحَمْدِ وَآيِ التَّقْدِيسِ وَالعِبَادَةِ، لَمْ يَبْقَ لِمَا كَانَتْ خَدِيجَةٌ تَقُولُ لَهُ مِنْ أَنَّ اللَّهَ قَلَاهُ وَ لَمْ يَبْقَ لِفِزَعِهِ وَهَلْعِهِ مَوْضِعٌ، بَلْ تَوَلَّاهُ اللَّهُ وَتَوَلَّاهَا بِرَحْمَتِهِ، وَأَزَالَ كَلَّ خَشْيَتِهِ أَوْ رَيْبِهِ مِنْ نَفْسِهِ. لَاحِظِي انْتِحَارَ إِذَا وَلَكِنْ حَيَاةً وَدَعَاةً إِلَى اللَّهِ، وَإِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ، إِلَى اللَّهِ العَلِيِّ الكَبِيرِ تَعَنُّوْا لَهُ الْجِبَاهُ وَبِسَجْدِ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَمِيعًا. هُوَ وَحْدَهُ الْحَقُّ وَكُلُّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ، الباطل.

إِلَيْهِ وَحْدَهُ يَتَوَجَّهُ القَلْبُ، وَبِهِ وَحْدَهُ يَجِبُ أَنْ تَتَلَقَّ النَّفْسُ، وَفِيهِ وَحْدَهُ يَجِبُ أَنْ تَفْنِيَ الرُّوحَ. وَ لِلَّآخِرَةَ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى . الأَخرى الَّتِي تُحِيطُ فِيهَا النَّفْسُ بِكُلِّ الوجودِ فِي كَمالِ وَحدَتِهِ، وَالَّتِي يَتَلَاشَى فِيهَا المَكَانَ وَالزَّمَنَ وَتَنْسِي فِيهَا اعتِبارَاتِ هَذِهِ الحَيَاةِ الوُضِيعَةِ الأُولَى؛ الأَخرى الَّتِي يَصِيرُ فِيهَا الضُّحَى وَالأَلْءاءُ شَمْسَهُ البَاهِرَ، وَاللَّيْلُ وَدَجَاهُ السَّاجِي، وَالسَّمَاوَاتُ وَالكَوَاكِبُ وَالأَرْضُ

ص: ١٨٥

- ١- (١) تاريخ الطبري: ٥٣٥/١. وهل هذه الصورة التي يُقدِّمها هؤلاء المؤرِّخون عن أعظم إنسان على وجه الأرض تتناسب مع ما يعتقدُه جميع المسلمين من حيث عصمته وكمالهِ صلى اللهُ عليه و آله حين بعثه بالرسالة؟!
- ٢- (٢) السيرة النبويَّة لابن هشام: ٢٤١/١. أليس من الأولى أن تكون هذه الآيات ردًّا على استهزاء وتهكُّم أعدائِهِ الذين كانوا يموتون حسدًا وغيظًا وكمداً لما جباه اللهُ به من نعمه النبوة والرسالة دونهم؟!

والجبال كلاً واحداً تتصل به الروح الراضيه المرضيه.

هذه هي الحياه التي يجب أن تكون إليها الغايه من سفر هذه الحياه! هذا هو الحق وكل ما دونه صور منه لا تغني عنه! هذا هو الحق الذي أضاء بنوره روح «محمد» والذي ابتعثه من جديد ليفكر في الدعوه إلى ربّه.

وللدعوه إلى ربّه يجب أن يطهر ثيابه، وأن يهجر المنكر، وألاً يمتنّ على أحد بدعوه إلى الحق، وأن ينير للناس سبل العلم بما لم يكونوا يعلمون، وألاً ينهر من أجل ذلك سائلاً، وألاً يقهر يتيماً. حسبه نعمه اختيار الله إياه لكلمته فليتحدث عنها. وحسبه أن الله وجده يتيماً فأواه في كفاله جدّه عبدالمطلب وعمّه أبى طالب؛ وأنه وجده فقيراً فأغناه بأمانته ويسّر له خديجه شريكه صباه (١)، شريكه تحنّته، شريكه بعثه، شريكه المحبّه الناصحه الرؤوف؛ وأنه وجده ضالاً فهداه برسالته، حسبه هذا وليدع الناس من غير منّ عليهم. ذلك أمر الله إلى نبيّه الذي اصطفاه، ما ودّعه وما قلاه.

وعلم الله نبيّه الصيلاه فصلّى وصلّت خديجه معه (٢) وكان يقيم معهما غير بناتهما على بن أبى طالب، الذي كان صبيّاً لما يبلغ الحلم. ذلك أن قريشاً أصابتهم أزمه شديده؛ وكان أبو طالب كثير العيال، فقال محمّد لعمّه العباس وكان من أكثر بنى هاشم يساراً:

«إنّ أخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمه، فانطلق بنا إليه فلنخفف من عياله، آخذ من بنيه رجلاً وتأخذ أنت رجلاً فنكفلهما عنه». وكفل العباس جعفرأ وكفل «محمّد» عليّاً، فلم يزل معه حتى بعثه الله (٣). وفيما «محمّد» وخديجه يصليان يوماً دخل عليهما على مفاجأه

ص: ١٨٦

١- (١) متى كانت خديجه شريكه صباه ولم تقترن به إلأوهو في ريعان الشباب وفي الخامسة والعشرين من عمره؟!

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٢٤٤/١.

٣- (٣) السيره النبويه لابن هشام: ٢٤٦/١، والكامل في التاريخ: ٣٧/٢، وتاريخ الطبرى: ٥٣٨/١، تاريخ ابن خلدون: ٤١٠/٢.

فرآهما يركعان ويسجدان ويتلوان ما تيسّر ممّا أوحاه الله يومئذٍ من القرآن، فوقف الشاب دهشاً حتى أتّما صلاتهما، ثمّ سأل: لمن تسجدان؟ فأجابه «محمّد» أو كما قال:

«إنّما نسجد لله الذى بعثنى نبياً وأمرنى أن أدعو الناس إليه»^(١). ودعا «محمّد» ابن عمّه إلى عباده الله وحده لا شريك له، وإلى دينه الذى بعث به نبيه، وإلى إنكار الأصنام من أمثال اللات والعزى. وتلا «محمّد» ما تيسّر من القرآن، فأخذ على نفسه وسحره جمال الآيات وإعجازها، واستمهل ابن عمّه حتى يشاور أباه^(٢). ثمّ قضى ليله مضطرباً^(٣) حتى إذا أصبح أعلن إليهما أنّه

ص: ١٨٧

١- (١) هذا النصّ المذكور لا وجود له فى المصادر التى اعتمدها الكاتب فى بحثه والجواب بل وحتى فى غيرها لياتى على لسان أمير المؤمنين عليه السلام بعد وضوح عمق العلاقة مع النبى صلى الله عليه وآله قبل البعثه والتى تنفى المفاجأه المدّعه فى النصّ بل قد قال عليه السلام عن هذه المرحله من حياته وعن عمق علاقته بابن عمّه صلى الله عليه وآله: «ولقد كنت أتبعه أتباع الفصيل أثر أمّه يرفع لى فى كلّ يوم من أخلاقه علماً، ويأمرنى بالافتداء به، ولقد كان يجاور فى كلّ سنّه بحراء، فأراه ولا يراه غيرى، ولم يجمع بيت واحد يومئذٍ فى الإسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله وخديجه وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرساله وأشم ريح النبوه ولقد سمعت رنّه الشيطان حين نزل الوحي عليه صلى الله عليه وآله فقلت: يا رسول الله ما هذه الرنّه؟ فقال: هذا الشيطان آيس من عبادته، إنك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى، إلّا أنّك لست بنبيّ، ولكنك وزير، وأنك لعلّى خير» شرح نهج البلاغه للفيض: ٨٠٢ الخطبه ٢٣٤. فإذا كانت علاقته بالإمام بالنبيّ صلى الله عليه وآله بهذا المستوى فما وجه السؤال: لمن تسجدان؟ ليجيبه النبى صلى الله عليه وآله: إنّما نسجد لله...! وهل يقدم كلامه هو حيث لم يكن معهم رابع؟ أم يقدم كلام غيره بعد افتراض أنّ بيت خديجه لم يكن فيه رابع غيرهم؟! أرايت كيف يتلاعب البعض بحوادث التاريخ؟! وعلى اللبيب أن يتساءل: لماذا كل هذا التلاعب بالتاريخ الناصع لآل البيت عليهم السلام بما فيهم شخص الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله؟! ٢- (٢) السيره الحلبيه: ٢٦٩/١.

٣- (٣) لم يضطرب الإمام علىّ عليه السلام ولم يتردد فى إسلامه فحياته قبل الإسلام لم تخالف حياته حين أسلم بسبب كونه عاش وتربى تحت رعايه النبى صلى الله عليه وآله وارشاداته سواء قبل البعثه أو بعدها، فلا وجه للتردد والقلق أو الاضطراب فى أن يقبل الإسلام أو لا يقبله. ومن المشهور عن علىّ بن أبى طالب عليه السلام أنّه لم يكن لتدفعه المعادلات لأن يلاحظ ذاته ومستقبلها مع الجاهليه كغيره من الصحابه الذين خضعوا لبعض المؤثرات التى حالت دون الإسراع بدخولهم إلى الإسلام وتسرب القلق والاضطراب إلى نفوسهم حيث نرى أنّ البعض منهم دخل الإسلام بالسيف والبعض الآخر دخله بعد أن أمن بطش أسياده وصنف ثالث لاحظ دنياه قبل إسلامه، أما علىّ فلا تتجه فيه تلك الدواعى فقد بزغ الإسلام فى بيت أبيه وأمّه فاطمه الصحابيه المعروفه التى هى أمّ رسول الله صلى الله عليه وآله التى تولّت تربيته فلم يفاجأ بالإسلام وبدعوه النبى إليه، وهو الموحد قبل أن يعلن إسلامه، فلماذا يعيش قلقاً واضطرباً؟! ولكن نعجب للكاتب وجرأته الظالمه لعلّى عليه السلام حيث لا يعتمد أى دليل يؤيد مدّعه.

اتبعهما من غير حاجة لرأى أبى طالب وقال: «لقد خلقنى الله من غير أن يشاور أباطالب، فما حاجتى أنا إلى مشاورته لأعبد الله» (١). وكذلك كان على أول رجل أسلم. ومن بعده أسلم زيد بن حارثه مولى النبى (٢). وبذلك بقى الإسلام محصوراً فى بيت «محمّد» فيه وفى زوجه وابن عمّه ومولاه. وظل هو يفكر كيف يدعو قريشاً إليه، وهو يعلم ماهى عليه من شدّه البأس وبالغ التعلق بعبادات آبائها وأصنامهم.

وكان أبو بكر بن أبى قحافه التيمى صديقاً حميماً ل «محمّد» يستريح إليه ويعرف فيه النزاهه والأمانه والصدق. لذلك كان هو أول من دعا إلى عباده الله وحده وترك عباده الأوثان، وأول من أفضى إليه بما رأى وبما أوحى

ص: ١٨٨

١- (١) لم يُذكر هذا الحديث فى المصادر المعتبره، وهل يتبع على محمّداً أم محمّداً وخديجه؟! بينما النبى صلى الله عليه وآله هو محمّد دون خديجه.

٢- (٢) إنّ أول من أسلم واتبع وصدق وآزر هو الإمام على بن أبى طالب عليه السلام، صرح بذلك كبار الصحابه و التابعين وغيرهم من الأعلام، ومن جمله ما ورد عنه صلى الله عليه وآله، بسند صحيح قوله: «أولكم وروداً على الحوض أولكم إسلاماً على بن أبى طالب». وعنه صلى الله عليه وآله: «إنّه لأول أصحابى إسلاماً، أقدم أمتى سلماً». وعنه صلى الله عليه وآله حيث أخذ بيد على عليه السلام فقال: «هذا أول من آمن بى، من يصابحنى يوم القيامه، وهذا الصديق الأكبر وهذا فاروق هذه الأُمّه يفرّق بين الحقّ والباطل، وهذا يعسوب المؤمنين والمال يعسوب الظالمين». تجد هذه الروايات وغيرها فى عشرات الكتب الحديثيه والتفسيريه والتاريخيه بألفاظ متقاربه تتحدث عن نفس المضمون. راجع السيره النبويه لابن هشام: ٢٤٥/١-٢٤٦، مجمع الزوائد: ١٠١/٩، وشرح النهج: ٢٨٣/١ و ٤٠٤ و ٥٠٣ و ١٠٢/٩، وفرائد السمطين: ٣٩/١، ووقعه صنفين لنصر بن مزاحم: ص ١٠٠، ١٣٢، ٣٥٥، و ٣٦٠، وجمهره الخطب: ١٧٨/١ و ٥٤٢، وجمهره الرسائل: ٥٤٢/١، ومروج الذهب: ٥٩/٢، وتذكره سبط ابن الجوزى: ١١٥، ومطالب السؤل: ١١، والمحاسن والمساوى: ٣٦/١، وتاريخ القرمانى هامش الكامل: ٢١٨/١، ومسند أحمد: ٢٦/٥، والاستيعاب: ٣٦/٣، ومستدرك الحاكم: ٣، وتاريخ بغداد للخطيب: ٢٢٤/٤، وبحار الأنوار: ٢/١٦، وإعلام الورى: ١٠٢/١.

١- (١) وهذا يتناقض مع ما ذكره المؤلف قبل أسطر في الصفحة السابقة من أن عليّ بن أبي طالب عليه السلام هو أوّل من أسلم ممن يشير إلى أنّه أوّل من أفضى إليه بما أوحى إليه.

٢- (٢) ذكر المؤلف في الصفحة السابقة (وتلا- «محمّد») ما تيسّر من القرآن، فأخذ عليّ على نفسه وسحره وجمال الآيات واعجازها، واستمهل ابن عمّه حتى يشاور أباه، ثمّ قضى ليله مضطرباً). وبهذا قد اعترف بسبق دعوته النبيّ صلى الله عليه وآله لعليّ ومن هنا يكون ثالث من أسلم. بينما تنفى بعض المصادر ذلك، انظر للتفصيل (الصحيح من سيره النبيّ الأعظم وموسوعه التاريخ الإسلامي) فيما يخصّ إسلام أبي بكر. معاذ الله أن يكون منهجنا هو التقصي لعيوب الصحابة والمنقصة منهم، بقدر ما نريد أن نقول إنّ الكاتب أسقط ذوقه على التاريخ، فإذا أراد أن يُملي بعض الفراغات في التاريخ بواسطة بعض القرائن ليقول إنّ فلاناً من الصحابة كان شجاعاً وذاك كان متردداً مضطرباً عبر استفادته من سيره الصحابي السابقة وتجاربه الحياتيه، فنقول: إنّ سيره الإمام عليّ وتاريخه السابق يخالف سيره أبي بكر قبل الإسلام، فمواقف عليّ قبل البعثة كانت مع رسول الله منذ نعومه أظافره فهو موحد قبل أن يسلم ولم يسجد لصنم قطّ وهو وليد الكعبة وبهذا تميّز عن غيره ولا محلّ للمشاره التي يقولها الكاتب فأبو طالب كان يحث أولاده على اللحاق بالنبيّ صلى الله عليه وآله فأمّر الدعوه لم يكن غريباً على عليّ وعلى أبي طالب معاً. أمّا حياه أبي بكر قبل الإسلام فكانت مشوبه بالشرك الظاهر كما هو ثابت، فلماذا يقال إنّ هذا التردد قد أصاب عليّاً ولم يصب أبابكر؟ وأمّا إذا كان استناد الكاتب وجزمه بالتردد والاضطراب لعليّ وعدمه لأبي بكر في التاريخ اللاحق لهما مع الآيه كقرينه لهذا الاستنتاج، فنقول: إنّ مواقف عليّ مع رسول الله لم يتخللها التردد لا- في بدر ولا في أحد ولا في خيبر ولا غيرها بخلاف مواقف أبي بكر فيها. لقد روى الحاكم بسنده عن أبي ليلي عن عليّ عليه السلام أنّه قال: يا أبا ليلي أما كنت معنا بخيبر؟ قال: بلى والله كنت معكم فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله بعث أبابكر إلى خيبر فسار بالناس وانهمز ورجع. وقال: هذا حديث صحيح الإسناد انظر: المستدرک على الصحيحين ٣٧/٣. وزاد المتقى الهندي في كنز العمّال: (وبعث عمر فانهمز بالناس حتى انتهى إليه فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لأ-عطينّ الرايه غداً رجلاً- يحبّ الله ورسوله يفتح الله له ليس بفزار). كفى بهذه الكلمه تعريضاً لغير عليّ عليه السلام. وقال: أخرجه ابن أبي شيبه وأحمد بن حنبل، وابن ماجه، والبزار، وابن جرير وصححه، والطبراني في الأوسط، والحاكم، والبيهقي في الدلائل، وألف باء المقدسي: كنز العمال ٣٩٤/٦ طبعه حيدر آباد - الهند. وعن رجوعه يوم أحد أيضاً روى المتقى الهندي عن عائشه أنّها قالت: كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد بكى إلى أن قالت: (ثمّ أنشأ - تعنى أبا بكر - يحدث قال: كنت أوّل من فاء يوم أحد)، كنز العمال: ٢٨٤/٥ ط. الهند، وتاريخ الأمم والملوك للطبري: ٣٠٠/٢، والرياض النضرة: ١٨٧/٢ ط ١.

وأى نفس مفتوحه للحق تتردد فى ترك عباده الأوثان لعباده الله وحده! وأى نفس فيها شىء من السموم ترضى عن عباده الله عباده حَجْر أَيْماً كانت صورته! وأى نفس تتردد فى طهر الثياب وطهر النفس وإعطاء السائل والبر باليتيم! وأذاع أبو بكر بين أصحابه إيمانه بالله وبرسوله. وكان أبو بكر رجلاً وسماً «مألفاً مُحَبَّباً سهلاً» وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر؛ وكان رجلاً تاجراً ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته (١). وجعل أبو بكر يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه، فتابعه على الإسلام عثمان بن عفان وعبدالرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبى وقاص والزبير بن العوام. ثم أسلم من بعد ذلك أبو عبيده بن الجراح وكثيرون غيره من أهل مكة.

وكان أحدهم إذا أسلم ذهب إلى النبى فاعلن إليه إسلامه وتلقى عنه تعاليمه (٢).

وكان المسلمون الأولون يستخفون لعلمهم بما تضمنه قريش من عداوه لكل خارج على أوثانها. فكانوا إذا أرادوا الصلاة انطلقوا إلى شِعب مكة وصلوا فيها. وظلوا على ذلك ثلاث سنوات ازداد الإسلام فيها انتشاراً بين أهل مكة ونزل على «محمد» فيها من الوحي ما زاد المسلمين إيماناً

ص: ١٩٠

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٢٤٩/١-٢٥٢.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٢٥٠/١-٢٦١.

وتثبيتا(١). و كان مثله(٢) هو خير ما يزيد الدعوه انتشارا. كان بَرًا رحيمًا جمّ التواضع كامل الرجوليه عذب الحديث محبًا للعدل يعطى كل ذي حق حقه، و ينظر إلى الضعيف و اليتيم و إلى البائس و المسكين نظره كلّها الأبوه و الحنان و العطف و المودّه. و كان فى تهجده و سهره الليل و ترتيبه ما أنزل عليه ودوام نظره فى السماوات و الأرض و التماس العبره من الوجود كلّه و كل ما فيه، و فى توجهه الدائم لله وحده و التماسه حياه الكون كلّه فى أطواء نفسه و دخيله حياته، مثلا جعل الذين آمنوا به و أسلموا له أحرص على إسلامهم و أشدّ يقينا بإيمانهم، على ما فى ذلك من إنكار ما كان عليه آباؤهم و احتمال تعرّضهم لأذى المشركين ممّن لم يدخل الإيمان إلى قلوبهم. آمن ب «محمّد» من تجّار مكّه و أشرافها من عرفت نفوسهم الطهر و النزاهه و المغفره و الرحمه، و آمن به كل ضعيف و كل بائس و كل محروم. و انتشر أمر «محمّد» بمكّه، و دخل الناس فى الإسلام أرسالا رجالا و نساء.

و تحدّث الناس عن «محمّد» و عن دعوته. على أن أهل مكّه من قساه الأكباد و من على قلوبهم أقفالها لم يعبؤا به أوّل أمره، و ظنوا أن حديثه لن يزيد على حديث الرهبان و الحكماء، أمثال قس و أميه و ورقه و غيرهم، و أن الناس عائدون لا محاله إلى دين آباؤهم و أجدادهم. و أن هبل و اللات و العزى و إساف و نائله اللذين كان ينحر عندهما ستكون آخر الأمر صاحبه الغلب، ناسين أن الإيمان الصادق لا يغلبه غالب، و أن الحق قد كتب له الفوز أبدا.

بعد ثلاث سنين من حين البعث أمر الله رسوله أن يظهر ما خفى من

ص: ١٩١

١- (١) السيره النبويه لا بن هشام: ٢٦٢/١-٢٦٣.

٢- (٢) الضمير فى كلمه (مثله) عائد للنبي صلى الله عليه و آله.

أمره و أن يصدع بما جاءه منه، و نزل الوحي (١): وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَ اخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٢؛ وَ قُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ٣ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ٤.

ودعا «محمد» عشيرته إلى طعام في بيته و حاول أن يحدّثهم داعياً إياهم إلى الله، فقطع عمّه أبو لهب حديثه واستنفر القوم ليقوموا. ودعاهم «محمد» في الغداه كزّه أخرى؛ فلمّا طعموا قال لهم:

ما أعلم إنسانا في العرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم به، قد جئتكم بخير الدنيا و الآخرة، و قد أمرني ربّي أن أدعوكم إليه.

فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر و أن يكون أخى و وصيى و خليفتى فيكم؟ فأعرضوا عنه و همّوا بتركه. لكنّ عليّنا نهض و ما يزال صبيّا دون الحلم و قال: «أنا يا رسول الله عونك، أنا حرب على من حاربت». فابتسم بنو هاشم و فقهه بعضهم، و جعل نظرهم يتنقل من أبى طالب إلى ابنه، ثم انصرفوا مستهزئين (٢).

ص: ١٩٢

١- (١) السيره النبويه لا بن هشام: ٢٤٩/١-٢٥٠، مناقب آل أبى طالب، ابن شهر آشوب: ٤٣/١.

٢- (٥) يبدو أن الأستاذ هيكل في نقله لحديث الإنذار الشهير و خطاب النبى صلى الله عليه و آله لعشيرته الأقربين بقوله: «فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر و أن يكون أخى و وصيى و خليفتى فيكم» قد اعتمد المصادر المعتمده التاليه: تاريخ الطبرى: ٥٤٢/١-٥٤٣، و تاريخ ابن الأثير: ٦٢/٢، و السيره الحلبيه: ٣١١/١، و شواهد التنزيل للحسكاني: ٣٧١/١، و كنز العمّال: ١٥/١٥، و تاريخ ابن عساکر: ٨٥/١، و تفسير الخازن لعلاء الدين الشافعى: ٣٧١/٣، و شرح النهج: ٢١٢/٣، و ذكر ذلك العلامة الشيخ علاء الدين بن محمّد البغدادي الشهير بالخازن في تفسيره: ١٠٥/٥، و الحافظ البغوى في معالم التنزيل: ١٠٥/٥، و العلامة الشيخ عبيد الله الحنفى الأمر تسرى في أرجح المطالب: ٤٣٠ ط لا- هور، و العلامة النقشبندى في مناقب العشره: ١٥ مخطوط، و النسائى في الخصائص: ١٨ ط مصر، و العلامة الشيخ محمّد يوسف الحنفى في حياه الصحابه: ٨١/١ ط حيدر آباد.-

١ نشر الدكتور كتابه أوّل ما نشره فصولاً في جريدته السياسيّه الأسبوعيّه ونشر هذا الحديث كاملاً كما هو. ولما اعترض عليه معترض أجاب: بأنّي لست أنا الذى أقول هذا القول ولكنّه التاريخ. ثمّ ذكر الحديث فى الطبعه الأولى من الكتاب، ولكن شوّهه وأفسده فى الطبعه الثانيه وما جاء بعدها من طبعات. ولما بحث الباحثون عن السبب عُرف أنّ الدكتور هيكل طلب من جهه من الجهات أن تساهم بشراء ألف نسخه من كتابه فأبت أن تفعل إلّا إذا شوّه الحديث فنزل عند رغبتها وبتره وأفسده.

٢ انظر الفارق بين الشكّلين رقم (١) ورقم (٢) فى ص ١٩٦ و ١٩٧.

ص: ١٩٥

شكل رقم (١) الطبعة الأولى

ص: ١٩٦

شكل رقم (٢) الطبعة الثالثة

ص: ١٩٧

انتقل «محمد» بعد ذلك بدعوته من عشيرته الأقربين إلى أهل مكة جميعاً. صعد يوماً على الصفا و نادى:

يا معشر قريش. قالت قريش: محمد على الصفا يهتف، و أقبلوا عليه يسألون ما له؟! قال:

أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقوني؟ قالوا: نعم، أنت عندنا غير متهم و ما جرّبنا عليك كذبا قط. قال:

«فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، يا بني عبدالمطلب، يا بني عبدمناف، يا بني زهره، يا بني تيم، يا بني مخزوم، يا بني أسد، إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين.

و إني لا أملك لكم من الدنيا منفعة و لا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا: لا إله إلا الله . أو كما قال. فنهض أبولهب - و كان رجلاً بدينا سريع الغضب - فصاح:

تبا لك سائر هذا اليوم! ألهذا جمعتنا! (١).

و أرتج على «محمد» فنظر إلى عمه، ثم ما لبث أن جاءه الوحي بقوله تعالى (٢): تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَ تَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَ مَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ٣.

لم يحل غضب أبي لهب ولا خصومه أبي سفيان دون انتشار الدعوه إلى الإسلام بين أهل مكة. فلم يكن يوم إلّا أسلم فيه بعضهم لله وجهه. و كان الزاهدون في الدنيا أشدّ علياً لإسلام إقبالاً. أولئك لا تلهيهم تجارته ولا يلهيهم البيع عن التأمل فيما يدعوهم الداعي إليه. وهم قد رأوا «محمدًا» في غنى بمال خديجه وماله، وهاهو ذا مع ذلك لا يعبأ بهذا المال والمزيد عليه والاكثار منه،

ص: ١٩٨

١- (١) تاريخ الطبري: ٥٤٢/١، والكامل في التاريخ: ٤١/٢-٤٢، وبحار الأنوار: ١٦٣/١٨-١٦٤، وتفسير مجمع البيان: ٣٥٧/٧.

٢- (٢) الطبقات الكبرى: ٢٠٠/١، والوفا: ١٨٣، والسيره النبويه لابن كثير: ٤٥٦/١، وتفسير مجمع البيان: ٣٥٧/٧ وج ٤٧٥/١٠.

ويدعو إلى الحب والعطف والموادّة والتسامح. بل هاهو ذا يجيئه الوحي بأنّ في الإكثار من الشروه لعنه للروح. أليس يقول: **أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتَسْتَلْنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ١ .** وأى شىء خير ممّا يدعو إليه «محمّد!» أليس هو يدعو إلى الحريه، إلى الحريه المطلقه التى لا حدود لها؟! إلى الحريه العزيزه على نفس العربى إعزازه حياته! نعم، أليس يطلق الناس من التقييد بأيه عباده غير عباده الله وحده! أليس يحطم كلّ ما بينهم وبينه من أغلال، لا هبل ولا اللات ولا العزى، ولا نار المجوس، ولا شمس المصريين ولا نجوم عبّاد النجوم، ولا الحواريون، ولا أحد من الإنس أو من الملائكه أو من الجان يحجب بين الله والإنسان. وأما الله، أمامه وحده لا شريك له، يسأل الإنسان عمّا قدم من خير أو شرّ. وأعمال الإنسان هى وحدها شفيعه(١).

وضميره هو الذى يزن أعماله، وهو وحده صاحب السلطان عليه ليتقدم يوم تُجزى كلّ نفس بما كسبت. أيّه حريه أوسع مدى من هذه الحريه التى يدعو «محمّد» إليها؟! وهل يدعو أبولهب أو أبوسفيان إلى شىء من مثلها؟! أم هم يدعون الناس لتظلّ نفوسهم فى رقّ وعبوديه بما تكدّس عليها من خرافات حجبت عنها نور الحقّ وضياء الهدى!

ص: ١٩٩

١- (٢) كان المسلمون يتشفعون بالنبي صلى الله عليه و آله تقرّباً لله سبحانه، راجع التّوسل ضمن سلسله فى رحاب أهل البيت، المجمع العالمى لأهل البيت عليهم السلام.

على أن أبا لهب وأبا سفيان وأشراف قُريش وأمجادها، أشراف المال وأمجاد اللهو، بدؤوا يشعرون بما في دعوته «محمّد» من خطر على مكانتهم، فأرأوا بادية الرأي أن يحاربوه بالحطّ من شأنه وتكذيبه فيما يزعم من نبوته، وكان أوّل ما صنعوا من هذا أن أغروا به شعراءهم أبا سفيان بن الحارث وعمرو بن العاص وعبدالله بن الزبيري، يهجونه ويقارعونه (١). وتولّت طائفه من شعراء المسلمين الردّ على هؤلاء من غير أن يكون ب «محمّد» حاجه لمناقشتهم (٢). هنالك تقدم غير الشعراء يسألون «محمّدًا» عن معجزاته التي يثبت بها رسالته، معجزات كمعجزات «موسى» و «عيسى». فما باله لا- يحيل الصفا والمروه ذهبًا، ولا ينزل عليه الكتاب الذي يتحدّث عنه مخطوطاً من السماء! ولم لا يبدو لهم جبريل الذي يطول حديث «محمّد» عنه! ولم لا يحيى الموتى ولا يُسيّر الجبال حتى لا- تظلّ مكّه حبيسه بينها! ولم لا يفجّر ينبوعاً أعذب من زمزم ماءً وهو أعلم بحاجه أهل بلده إلى الماء! ولم يقف أمر المشركين عند التهكم بالمسألة في هذه المعجزات، بل كانوا يزدادون تهكمًا ويسألونه: لم لا يُوحى إليه ربّه أثمان السلع حتى يضاربون على المستقبل.

وطال بهم اللجاج، فردّ الوحي لجاجهم بما أنزل على «محمّد» من قوله تعالى (٣): قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ

ص: ٢٠٠

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٢٨٩/١-٢٩١، وإعلام الوري: ١١٠/١.

٢- (٢) بل كان ذلك في المدينه بعد الهجره لا قبلها.

٣- (٣) السيره النبويه لابن هشام: ٣٠١/١-٣١٢، والسيره النبويه لابن كثير: ٤٧٧/١-٤٨٣.

مِنَ الْخَيْرِ وَ مَا مَسَّنِيَ الشُّوْءُ إِنَّا إِنَّا إِنَّا نَذِيرٌ ۝ ١ .

نعم، ما «محمّد» إلّالأنذير. وفيه يطالبونه بما لا يقبل العقل وهو لا يطلب إليهم إلّاما يقبله العقل، بل ما يُمليه ويحتمه!. وفيه يطلبون إليه ما تأنف منه النفس الفاضله، وهو لا يطالبهم إلّالأن يستجيبوا لوحى النفس الفاضله! وفيه يطلبون إليه المعجزات وهذا الكتاب الذى يوحى إليه، والذى يهدى إلى الحقّ، معجزه المعجزات! ومالهم يطلبون إليه إثبات رسالته بالخوارق ليتدّدوا من بعد ذلك أيتبعونه أم لا- يتبعونه؟ وهذه التى يزعمونها آلهتهم ليست إلّاحجاره أو خشباً مُسنّده أو أنصاباً قائمه فى عرض الفلاه لا تملك لنفسها أو لهم نفعاً ولا- ضرراً، وهم مع ذلك يعبدونها دون أن يطلبوا إليها ما يثبت ألوهيتها؟! ولو أنّهم طلبوه لظلت خشباً أو حجاره لآحياء فيها ولاحركه لها، لاتستطيع لنفسها ضرراً ولا نفعاً، ولا تستطيع إذا حطّمتها محطّم عن نفسها دفعاً. وبأدأهم «محمّد» بذكر آلهتهم وكان من قبل لا- يذكرها، وعابها وكان من قبل لا يعيبها؛ فعظم ذلك على قريش وحزّ فى صدورهم؛ وبدؤوا التفكير الجّد فى أمرهذا الرجل وما هو لاقٍ منهم وما هم لاقون منه. لقد كانوا إلى يومئذ يسخرون من قوله، وكانوا إذا جلسوا فى دار الندوه أو حول الكعبه وأصنامها فجرى ذكره علىلسانهم لم يثر أكثر من ابتسامات استخفافهم واستهزائهم. أمّا وقد حقّر من شأن آلهتهم وسخر بما يعبدون وما كان يعبد آباؤهم، ونال من هُبل ومن اللات والعزّى ومن الأصنام جميعاً، فلم يبق الأمر موضع استخفاف وسخريه، بل أصبح موضع

ص: ٢٠١

جدّ وتديبر. أولو أتيح لهذا الرجل أن يؤلّب عليهم أهل مكّه وأن يصرفهم عن عبادتهم فماذا تؤول إليه تجاره مكّه؟ وماذا يكون مقامها الديني؟

ولم يكن عمّه أبوطالب قد دخل في دين الله (١)، لكنّه ظلّ حامياً لابن أخيه قائماً دونه، معلناً استعداداه للدفاع عنه. لذلك مشى رجال من أشراف قريش عند أبي طالب وفي مقدمتهم أبو سفيان بن حرب فقالوا: «يا أبا طالب إنّ ابن أخيك قد سبّ آلهتنا وعاب ديننا وسفّه أعلامنا وضلّل آباءنا، فإمّا أن تكفّه عنّا وإمّا أن تخلى بيننا وبينه، فإنّك على مثل ما نحن عليه من خلاف فسنكفيكه»، فردّهم أبوطالب ردّاً جميلاً (٢). ومضى «محمّد» يشتدّ في الدعوه إلى رسالته، ويزداد لدعوته أعواناً. واتّمرت قريش ب «محمّد» ومشوا إلى أبي طالب مرّه أخرى ومعهم عماره بن الوليد بن المغيرة، وكان أنهد فتى في قريش وأجمله، وطلبوا إليه أن يتّخذ ولدأ ويسلمهم «محمّداً» فأبى (٣). ومضى «محمّد» في دعوته ومضت قريش في ائتمارها، ثمّ ذهبوا إلى أبي طالب مره ثالثه وقالوا له: «يا أبا طالب، إنّ لك سنّاً وشرفاً ومنزله فينا، وقد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنّا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أعلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفّه عنّا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين». وعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفساً

ص: ٢٠٢

١- (١) كتب الحديث والتاريخ تنقل لنا جهاد أبي طالب وحمایته للنبيّ وكفّالته له وما عاناه في سبيل نصره الرساله حتّى آخر حياته وإن لم يتظاهر بإسلامه؛ ممّا يؤكّد إسلامه وبطلان إصرار خصوم عليّ عليه السلام من أنّ أباه قد مات كافراً رغم وجود أدلّه كافيه تثبت للباحث أنه كان من السابقين الى الإيمان بدين محمد صلى الله عليه و آله. وسيأتى التفصيل في هذه المساله في هوامش الفصل الثامن.

٢- (٢) سيره ابن هشام: ٢٦٥/١، سيره ابن كثير: ٤٧٣/١، والوفا: ١٩١، والسيره الحلبيه: ٢٨٦/١.

٣- (٣) سيره ابن هشام: ٢٦٦/١، سيره ابن كثير: ٤٧٥/١، السيره الحلبيه: ٢٨٧/١.

يا سلام ابن أخيه ولا خذلانه. ماذا تراه يصنع؟ بعث إلى «محمد» فقصّ عليه رساله قريش، ثمّ قال له: «فأبقي عليّ وعلى نفسك ولا تحمّلني من الأمر ما لا اطيق»(١).

وأطرق «محمد» إطرافه وقف إزاءها تاريخ الوجود كلّه برهه باهتاً لا يدري أيان يكون اتجاهه. في الكلمه التي تفتت عنها شفتا هذا الرجل حكم على العالم أهو يظل في الضلال يمدّ له فيه، فتطغى المجوسيه على النصرانيه المتخاذله المضطربه وترفع الوثنيه وباطلها رأسها الخرف الآفن؛ أم هو يضيء أمامه نور الحقّ، وتعلن فيه كلمه التوحيد، وتحرر فيه العقول من رقّ العبوديه والقلوب من أسر الأوهام، وترتفع فيه النفس الإنسانيه لتتصل بالملأ الأعلى. وهذا عمّه كأنه ضعف عن نصرته والقيام معه، فهو خاذله ومُسلّمه.

ص: ٢٠٣

١- (١) لما أدرك أبوطالب إصرار قريش حين التقاهم لم يضعف عن نصرته، فقد نصره بكلّ ما يملك من جاه وقدره وعدد وعُدّه، ولكنّه أراد أن تطلع قريش على عزم الرسول واصراره في طريقه الذي يدعمه فيه الوحي ولعلّه أراد أن يطلع ابن أخيه على تفانيه في طريقه ورسالته ولهذا نرى عمّه يرافقه ويتبنّى موقفه حيث قال له: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً. وحينما شعر بأنّ قريشاً تريد قتل النبيّ أو ظنّ هو ذلك منهم قال لهم: والله لو قتلتموه ما أبقيت منكم أحداً حتى نتفاني نحن وأنتم، فانكسر القوم وكان أشدهم انكساراً أبوجهل. الطبقات لابن سعد: ٢٠٢/١. وصمّ أبوطالب مع ابن أخيه على مواجهه قرارات المقاطعه التي نفذتها قريش وكان لأبي طالب دوره الرسالي البارز مع النبيّ أثناء الحصار في شعب أبي طالب. وفي آخر لحظات عمره الشريف يلتفت إلى المحيطين به قبل أن يرحل إلى ربّه فيوصيهم بالنبيّ صلى الله عليه وآله قائلاً: «أوصيكم بمحمّد خيراً فإنّه الأمين في قريش والصادق في العرب لكلّ ما أوصيكم به... والله لا يملك أحد سبيله إلّارشد ولا يهتدى بهديه إلّالسعد ولو كان في العمر بقيه لكففت عنه الهزائر، ورفعت عنه الدواهي. إنّ محمّداً هو الصادق فأجيبوا دعوته، وأقيموا على نصرته فإنّه الشرف الباقي لكم على الدهر». وتكفي هذه التصريحات للكشف عن إيمانه بالرسول محمّد صلى الله عليه وآله وانظر السيره الحلييه: ٣٥١/١-٣٥٢ باب ذكر وفاه عمّه أبي طالب وزوجته خديجه. راجع للتوسّع: سيّد البطحاء أبوطالب: ٥٢-٥٩ ط. المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام.

وهؤلاء المسلمون ما يزالون ضعافاً لا يقوون على حرب ولا يستطيعون مقاومه قريش ذات السلطان والمال والعدّه والعدد. إذا لم يبق له دون الحقّ الذي ينادى الناس باسمه نصير. ولم يبق له سوى إيمانه بالحقّ عدّه. ليكن!! إنّ الآخريه خير له من الأولى. وليؤد رسالته وليدع إلى ما أمر ربّه. ولخير له أن يموت مؤمناً بالحقّ الذي أوحى إليه على أن يخذله أو يتردّد فيه. لذلك إلتفت إلى عمّه مُمتلئ النفس بقوه إرادته وقال له:

«يا عمّ، واللّه لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره اللّه أو أهلك فيه ما تركته»(١).

يا لعظمه الحقّ وجلال الإيمان به! اهتزّ الشيخ لما سمع من جواب محمّد ووقف هو أيضاً باهتاً أمام هذه القوه القدسيه والإراديه الساميه فوق الحياه وكلّ ما في الحياه. وقام «محمّد» وقد خنقته العبره ممّا فاجأه به عمّه وإن لم تدر بنفسه خلجه ريب في السبيل الذي يسلك. ولم تك إلّم الحظه اهتزّ فيها وجود أبي طالب متحيراً بين غضبه قومه وموقف ابن أخيه حتى نادى «محمّداً»: أن أقبل. فلما أقبل قال له: اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت، فواللّه لا أسلمك لشيء أبداً(٢).

وأفضى أبو طالب إلى بني هاشم وبني المطلب بقول ابن أخيه وبموقفه، وحديثه عنه يتدفق بروعه ما شهد، وجلال ماشعر به، وطلب إليهم أن يمنعوا «محمّداً» من قريش؛ فاستجابوا له جميعاً إلّا أبا لهب فإنّه صارحهم العداوه

ص: ٢٠٤

١- (١) موسوعه التاريخ الإسلامى: ٥٠٢/١ و ٥٢٠.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٢٦٦/١، السيره الحلبيه: ٢٨٧/١، سيره ابن كثير: ٤٧٤/١-٤٧٥، بحار الأنوار: ١٨٢/١٨ عن تفسير القمى: ٢٢٨/٢.

وانضم إلى خصومهم عليهم (١). وهم لا- ريب قد منعه متأثرين بالعصية القومية وبالخصومه القديمه بين بنى هاشم وبنى أميه. لكننا نعتقد أنّ العصيه لم تكن وحدها التي حفّزتهم إلى الوقوف هذا الموقف من قريش كلّها في أمر له من جلال الخطر ما للدعوه إلى نبذ دينهم والخروج على عقائدهم التي وجدوا عليها آباءهم. واعتقادنا أنّ موقف «محمّد» منهم وشده إيمانه برأيه بينهم ودعوته الناس بالحسنى إلى عباده الواحد الأحد، وما كان شائعاً يومئذٍ بين قبائل العرب جميعاً من أنّ لله ديناً غير دينهم الذي هم عليه، جعلهم يرون حقّاً لابن أخيهم «محمّد» أن يعالّن الناس برأيه كما كان يفعل أميه بن أبي الصلت وورقه بن نوفل وغيرهما، فإن يكن «محمّد» على الحقّ - وذلك ما لا ثقه لهم به - فسيظهر الحقّ من بعد وسيكون لهم من مجده نصيب، وإلا يكن على الحقّ فسينصرف الناس عنه، كما انصرفوا من قبل عن غيره، ثمّ لن يكون لدعوته من الأثر أن يخرجوا على تقاليدهم وأن يسلموه لخصومه كي يقتلوه.

اعتصم «محمّد» بقومه من أذى قريش، كما اعتصم في داره بخديجه من همّ نفسه. فقد كانت له - بصدق إيمانها وعظيم حبّها - وزير صدق تسرّى عنه كلّ همّه وتقوى فيه كلّ عارض ضعف من أثر أذى خصومه وإمعانهم في مناوآته وإيصال الأذى لأتباعه. والحقّ أنّ قريشاً لم تنم ولم تعد لما عرفت من قبل من دعه النعيم، بل وثبت كل قبيله على من فيهم من المسلمين يعدّونهم ويفتنونهم عن دينهم، حتى ألقى أحدهم عبده الحبشى بلالاً على

ص: ٢٠٥

الرمل تحت الشمس المحرقة ووضع حجراً على صدره وتركه ليموت، لغير شيء إلا أنه أصر على الإسلام. ولم يزد بلال وهو في هذه الحال على أن يكرر كلمه: «أحدٌ. أحدٌ» محتملاً هذا العذاب في سبيل دينه(١). وقد رآه أبو بكر يوماً يعاني هذا العذاب فاشتراه وأعتقه. واشترى أبو بكر كثيراً من الموالى الذين كانوا يعدّون، ومن بينهم جاريه لعمر بن الخطاب اشتراها منه قبل إسلامه(٢).

وعذبت امرأه حتى ماتت لأنها لم ترض أن ترجع عن الإسلام إلى دين آبائها(٣). وكان المسلمون من غير الموالى يضربون وتوجه إليهم أشد صور المهانه. ولم يسلم «محمد»، برغم منع بنى هاشم وبنى المطلب له، من هذه

ص: ٢٠٦

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٣١٧/١، السيره لابن كثير: ٤٩٢/١، السيره الحلبيه: ٢٩٧/١، وتنقيح المقال في علم الرجال: ١٨٢/١.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٣١٧/١-٣١٩. هذا وقد روى الإسكافي في نقض العثمانيه عن ابن إسحاق والواقدي أن عامر بن فُهيره وبلالاً اعتقهما رسول الله صلى الله عليه وآله، كما في شرح النهج للمعتزلي: ٢٧٣/١٣. ولذلك عدّ ابن شهر آشوب بلالاً من موالى النبي صلى الله عليه وآله: ١٧١/١. وقال ابن هشام في عامر بن فُهيره: أنه كان أسود من موالى الأسد: ٢٧٧/١. ومعنى ما رواه ابن إسحاق هو أن أبابكر لم يكن من المستضعفين فلم يعدّب في الله، بل اطلق واعتق عدداً منهم. ولكنّ ابن هشام ذكر أنّ نوفل بن خويلد بن أسد كان من شياطين قريش، قرن بين أبي بكر وطلحه بن عبيدالله في جبل، فبذلك كانا يسميان: القرنين، انظر سيره ابن هشام: ٣٠١/١. وأضاف الجاحظ في العثمانيه قال: ضربه نوفل بن خويلد مرتين حتى أدماه، وشده مع طلحه بن عبيدالله في قرن. وجعلهما في الهاجره عمير بن عثمان، ولذلك كانا يدعيان القرنين، كما في العثمانيه: ٢٨. وعنها في شرح النهج للمعتزلي: ٢٥٣/١٣. وردّ عليه الإسكافي في نقض العثمانيه فقال: أنتم في أبي بكر بين أمرين: تاره تجعلونه رئيساً متبعاً وكبيراً مُطاعاً، وتاره تجعلونه دخيلاً ساقطاً وهجيناً رذيلاً مستضعفاً ذليلاً؛ فإنّا لا نعلم أنّ العذاب كان واقعاً إلا بعد أو عسيف (الأجير) أو لمن لا عشيره له تمنعه. كما في شرح النهج للمعتزلي: ٢٥٥/١٣.

٣- (٣) لعلها سميّه والده عمّار بن ياسر لأنها أول شهيدته في الإسلام هي وزوجها ياسر. راجع: السيره لابن هشام: ٣٢٠/١، تاريخ اليعقوبي: ٣٤٧/١، الكامل في التاريخ: ٤٥/١، سيره ابن كثير: ٤٩٥/١، السيره الحلبيه: ٣٠٠/١، بحار الأنوار: ٢١٠/١٨، اختيار معرفه الرجال: ١٢٧/١، تنقيح المقال: ٣٢٠/٢.

الإساءات. كانت أمّ جميل زوج أبي لهب تلقى النجس أمام بيته فيكتفى «محمّد» بأن يزيله. وكان أبو جهل يلقي عليه أثناء صلواته رحم شاه مذبوحه ضحيه للأصنام، فيتحمل الأذى ويذهب إلى ابنته فاطمه لتعيد إليه نظافته وطهارته(١). هذا إلى جانب ما كان المسلمون يسمعون من لغو القول وهُجر الكلام حينما ذهبوا. واستمرّ الأمر على ذلك طويلاً فلم يزددهم إلّا حرصاً على دينهم وابتهاجاً بالأذى وبالتضحيه في سبيل عقيدتهم وإيمانهم.

والحقّ أنّ هذه الفتره من فترات حياه «محمّد عليه السلام» هي من أروع ما عرف التاريخ الإنسانى فى العصور جميعاً. فما كان «محمّد» والذين اتبعوه طلب مال ولا جاه ولا حكم أو سلطان، إنّما كانوا طلب حقّ وإيمان به.

وكان «محمّد» طالب هدى للذين يصيبونه بالأذى، وتحرير لهم من ربه الوثنيه الوضيعه التى تنحدر بالنفس الإنسانيه إلى خزى المذلّه والهوان. فى سبيل هذه الغايه الروحيه الساميه، لا فى سبيل شىء آخر، كان الأذى يصله وكان الشعراء يسبّونه، وكانت قريش تأتمر به، حتى حاول رجل قتله عند الكعبه(٢). وكان منزله يرحم، وكان أهله وأتباعه يهددون، فلا يزيده ذلك إلّا صبراً وإمعاناً فى الدعوه. وامتألت نفوس المؤمنين الذين اتبعوه بقوله:

«والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»(٣). وهانت عليهم جميعاً التضحيات الجسام وهان عليهم

ص: ٢٠٧

-
- ١- (١) تاريخ اليعقوبى: ٣٤٤/١، تاريخ الطبرى: ٥٥٣/١، الكامل فى التاريخ: ٤٧/١، السيره الحلبيه: ٢٩١/١-٢٩٢، تاريخ الإسلام للذهبي: ٢١٦-٢١٧، إعلام الورى بأعلام الهدى، للشيخ الطبرسى: ١٢٠/١، بحار الأنوار: ١٨٧/١٨-١٨٨.
 - ٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٢٩٨/١، السيره الحلبيه: ٢٨٨/١، عيون الأثر: ١٢٧/١.
 - ٣- (٣) تاريخ الطبرى: ٦٧/٢ والبدايه والنهايه: ٦٣/٣.

الموت فى سبيل الحقّ وهدايه قريش له. وقد تعجّب لهذا الإيمان الآخذ بنفوس أولئك المكّيين ولّمّا يكن الدين قد كمل ولّمّا يكن قد نزل من القرآن إلّا القليل. وقد تحسب أن شخصيه «محمّد» ودمائه طبعه وجميل خلقه وما عرف من صدقه وما بدا من صلابه عوده وقوّه عزمه وثبات إرادته، كان السبب فى كلّ هذا؛ ولا ريب قد كان لهذا كلّ حظه ونصيبه.

لكنّ عوامل أخرى جديره بالتقدير والاعتبار كان لها هى أيضاً فى ذلك نصيب غير قليل، فقد كان «محمّد» فى بلاد حرّه هى بالجمهوريه أشبه.

وكان فى الذروه والسنام منها حسباً ونسباً. وكان قد وصل من المال إلى ما يشاء، وكان إلى ذلك من بنى هاشم. اجتمعت لهم سدانه الكعبه وسقايه الحاجّ وما شاءوا من مجد الألقاب الدينيه. فلم يكن لذلك فى حاجه إلى المال أو الجاه أو المكانه السياسيه أو الدينيه. وكان فى ذلك على خلاف من سبقه من الرسل والأنبياء. فقد ولد موسى بمصر وفيها فرعون يُدين له أهلها بالألوهيه وينادى هو فيهم: أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى ١ وتعاونه طائفه رجال الدين على سوم الناس ألوان الظلم والاستغلال والعسف؛ فكانت الثوره التى قام بها موسى بأمر ربّه ثوره على نظام سياسى ودينى معاً، أليس يريد أن يكون فرعون والرجل الذى يرفع الماء بالشادوف (١) من النيل أمام الله سيّين (٢)؟ إذاً فما

ص: ٢٠٨

١- (٢) الشادوف: أداه لرى الأرض، وهى كلمه مصريه قديمه.

٢- (٣) السيان: المثلان، قال: قال ابن سيده: وهما سواءان وسيان مثلان، والواحد سيّ. لسان العرب لابن منظور: ٤١١/١٤، ماده سوا.

ألوهيه فرعون وما هذا النظام القائم؟ يجب أن يحطم ذلك كله، ويجب أن تكون الثورة سياسيه أولاً.. لهذا لقيت الدعوه الموسويه منذ بدايتها حرباً من فرعون شعواء. ولذلك آزرت المعجزات موسى ليؤمن الناس بدعوته، ألقى عصاه فإذا هي حيّه تسعى تلقف ما صنع سحره فرعون. ولم يُجد ذلك موسى شيئاً فاضطرّ إلى مغادره وطنه مصر، وقد آزرتة في هجرته معجزه انفلاق الطريق في البحر عبر الماء. وقد وُلد عيسى في الناصره(١) من أعمال فلسطين، وهى يومئذٍ ولايه رومانيه خاضعه لحكم القياصره ولظلم المستعمرين بها ولآلهه روميه، فدعا الناس إلى الصبر على الظلم وإلى المغفره للتائب المنيب وإلى ألوان من الرحمه اعتبرها القائمون بالأمر ثوره على تجبرهم؛ فأزرت عيسى معجزات إحياء الموتى وإبراء المرضى وسائر ما أئده به روح القدس من عنده. صحيح أن تعاليمهم تنتهى فى جوهرها إلى ما تنتهى إليه تعاليم «محمّد» فى جوهرها، مع خلاف فى التفاصيل ليس هنا موضع إيضاحه. لكنّ هذه العوامل المختلفه والعامل السياسى فى مقدمتها وجّهت دعوتها اتجاهها. أمّا «محمّد»، - وكانت ما قدمنا ظروفه - فكانت رسالته عقليه روحيه أساسها الدعوه للحقّ والخير والجمال دعوه مجرّده فى بدئها وفى غايتها. ولبعدها عن كلّ خصومه سياسيه لم تزعج النظام الجمهورى الذى كان قائماً بمكّه بأيه صورته من صور الازعاج.

ص: ٢٠٩

١- (١) الناصره: مدينه فى شمالى فلسطين (الجليل) وهى بلده العذراء مريم، قضى فيها المسيح حياته المحتجبه فدعى ناصرياً وأتباعه نصارى.

وقد تأخذ القارئ الدهشه إذا ذكر ما بين دعوه «محمد» والطريقه العلميه الحديثه من شبه قوى. فهذه الطريقه العلميه تقتضيك إذا أردت بحثاً أن تمحو من نفسك كل رأى وكل عقيدته سابقه لك في هذا البحث، وأن تبدأ بالملاحظه والتجربه، ثم بالموازنه والترتيب، ثم بالاستنباط القائم على هذه المقدمات العلميه، فإذا وصلت إلى نتيجه من ذلك كانت نتيجه علميه خاضعه بطبيعه الحال للبحث والتمحيص، ولكنها تظل علميه ما لم يثبت البحث العلمى تسرب الخطأ إلى ناحيه من نواحيها. وهذه الطريقه العلميه هي أسمى ما وصلت إليه الإنسانيه في سبيل تحرير الفكر. وهامى ذى مع ذلك طريقه «محمّد» وأساس دعوته. فكيف اقتنع الذين اتبعوه بدعوته وآمنوا بها؟ نزعوا من نفوسهم كل عقيدته سابقه وبدؤوا يفكرون فيما أمامهم. لقد كان لكل قبيله من قبائل العرب صنم؛ فأى صنم هو الحق وأى صنم هو الباطل؟ وكان في العرب وفي البلاد التي تجاورها صابئه ومجوس يعبدون النار، والذين يعبدون الشمس، فأى هؤلاء على الحق، وأيهم على الباطل؟ لنذر هذا كله إذاً جانباً ولنمخ أثره من نفوسنا ولننتجّد من كل رأى ومن كل عقيدته سابقه، ولننظر. والنظر والملاحظه بطبيعه الحال سيان. ممّا لا شبهه فيه أنّ لكل موجود بسائر الموجودات اتصالاً. فالإنسان تتصل قبائله بعضها ببعض وأمه بعضها ببعض. والإنسان يتصل بالحيوان والجماد، وأرضنا تتصل بالشمس وبالقمر وبسائر الأفلاك. وذلك كله يتصل في سنن مطرده لا تحويل لها ولا تبديل، فلا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار. ولو أنّ إحدى موجودات الكون تحوّلت أو تبدّلت لتبدّل ما في الكون. فلو أنّ الشمس لم تسعد الأرض بالنور والحراره على السنّه التي تجرى عليها منذ ملايين السنين، لتبدلت الأرض غير الأرض والسماء، وما دام ذلك لم

يحدث، فلا بدّ لهذا الكلّ من روح يمسكه؛ منه نشأ وعنه تطوّر وإليه يعود.

هذا الروح وحده هو الذى يجب أن يخضع له الإنسان. أمّا سائر ما فى الكون فهو خاضع لهذا الروح كالإنسان سواء. والإنسان والكون والزمان والمكان وحدة، هذا الروح جوهرها ومصدرها. إذاً فلتكن لهذا الروح وحده العبادة، ولهذا الروح يجب أن تتجه القلوب والأفئدة. وفى الكون كلّه يجب أن نلتمس من طريق النظر والتأمل سننه الخالده. وإذاً فما يعبد الناس من دون الله أصناماً وملوكاً وفراعين وناراً وشمساً إنّما هو وهم باطل غير جدير بالكرامه الإنسانيه، ولا هو يتفق مع عقل الإنسان وما كُرم به من القدره على استنباط سنّه الله من طريق النظر فى خلقه.

هذا جوهر الدعوه المحمّديه على ما عرفها المسلمون الأوّلون. وقد أبلغهم الوحي إياها على لسان «محمّد» فى آى من البلاغه كانت وماتزال معجزه، فجمع لهم بذلك بين الحقّ وتصويره فى كمال جماله. هنالك ارتقت نفوسهم وارتفعت قلوبهم تريد الاتصال بهذا الروح الكريم؛ فهداهم «محمّد» إلى أنّ الخير هو طريق الوصول، وأنهم مجزيون عن هذا الخير يوم يتمون واجبههم فى الحياه بالتقوى، ويوم تجزى كلّ نفس بما كسبت فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ١ .

أى سموّ بالعقل الإنسانى أعظم من هذا السموّ؟ وأى تحطيم لقيوده أشدّ من هذا التحطيم؟ حسبّ الإنسان أن يفهم هذا وأن يؤمن به وأن يعمل عليه ليبلغ الذروه من مراتب الإنسان. وفى سبيل هذه المكانه تهون كلّ تضحيه على من يؤمن بها.

وقد كان من جلال موقف «محمّد» ومن اتبعه أن ازداد بنوهاشم وبنوعبدالمطلب منعاً له ودفعاً للأذى عنه؛ حتى لقد مرّ أبو جهل ب «محمّد» يوماً فأآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره، فأعرض «محمّد» عنه وانصرف ولم يكلمه. وكان حمزه - عمّه وأخوه في الرضاع - ما يزال على دين قريش، وكان رجلاً قوياً مخوفاً، وكان ذا ولع بالصيد، فإذا رجع منه طاف بالكعبه قبل أن يعود إلى داره. فلَمّا جاء في ذلك اليوم وعلم بما أصاب ابن أخيه من أذى أبي جهل ملأه الغضب؛ وذهب إلى الكعبه ولم يقف مسلماً على أحد ممّن كان عندها كعادته؛ ودخل المسجد فألقى أبا جهل فقصد إليه، حتى إذا بلغه رفع القوس فضربه بها فشجّه شجّه منكره، وأراد رجال من بني مخزوم أن ينصروا أبا جهل فمنعهم حسماً للشرّ ومخافه استفحاله، معترفاً أنه سبّ «محمّد» سبّاً قبيحاً. ثمّ أعلن حمزه إسلامه وعاهد محمّداً على نصرته والتضحيه في سبيل الله حتى النهايه (١).

ضاقت قريش ذرعاً ب «محمّد» وأصحابه أن رأتهم يزدادون كلّ يوم قوه، ثمّ لا يثنيهم الأذى ولا يصرفهم العذاب عن إيمانهم والجهر به، وعن صلواتهم وأداء فرضها، فخيّل إليهم أن يتخلصوا من «محمّد» بما توهموا من إرضاء مطامعه، ناسين عظمه الدعوه الإسلاميه ونزاهه جوهرها الروحي السامى عن الخصومه السياسيه. فقد رغب عتبه بن ربيعه - وكان من سادات العرب - إلى قريش وهم في ناديهم أن يكلم «محمّداً» وأن يعرض عليه أموراً لعلّه يقبل بعضها فيعطونه أيها شاء ويكفّ عنهم. وكلم عتبه «محمّداً» فقال:

ص: ٢١٢

١ - (١) السيره النبويه لابن هشام: ٢٩١/١، دلائل النبوه: ٢١٣/١، السيره الحلييه: ٢٩٧/١، سيره ابن كثير: ٤٤٥-٤٤٦، تاريخ الإسلام للذهبي: ١٧٠/١-١٧١، إعلام الورى بأعلام الهدى: ١٢٣/١، بحار الأنوار: ٢١٠/١٨-٢١١.

«يا بن أخى إنك منا حيث قد علمت من المكان فى النسب؛ وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم؛ فاسمع منى أعرض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها؛ إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالأً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالأً، وإن كنت تريد تشریفاً سؤدناك علينا، فلا- نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا. وإن كان هذا الذى يأتىك رثياً(١) تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطبّ وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ». فلما فرغ من قوله تلا «محمّد» عليه سورة السجده، وعتبه منصت يستمع إلى أحسن القول ويرى أمامه رجلاً لا مطمع له فى مال ولا فى شرف ولا فى ملك ولا هو بالمرضى، وإنما يدلى بالحقّ والدعوه إلى الخير والدفء بالتي هى أحسن والاعجاز فى العبارة، فلما انتهى «محمّد» انصرف عتبه إلى قريش مأخوذاً بجمال ما رأى وسمع؛ مأخوذاً بعظمه هذا الرجل وسحر بيانه(٢). ولم يرق قريشاً أمر عتبه ولا- راقها رأيه أن تترك العرب «محمّداً»، فإن تغلبت عليه استراحت قريش وإن اتبعته فلها فخاره، وعادت تناوئه وتناوى أصحابه وتصيبيهم من البلاء بما كان هو فى منجاء منه بمكائته من قومه ومنعته بأبى طالب وبنى هاشم وبنى المطلب. وزاد ما ينزل بالمسلمين من الأذى، وبلغ منهم القتل والتعذيب والتمثيل(٣) هناك أشار عليهم «محمّد» أن يتفرقوا فى الأرض. فلما سألوه أين نذهب؟ نصح إليهم أن يذهبوا إلى بلاد الحبيشه

ص: ٢١٣

-
- ١- (١) يقال للتابع من الجن رثى بوزن: كمى، وهو فعيل، أو مفعول، سُمى به لأنه يتراءى لمتبوعه... النهايه فى غريب الحديث: ١٧٨/٢.
- ٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٢٩٣/١-٢٩٤، سيره ابن كثير: ٤٩٨/١-٥٠٥، عيون الأثر: ١٢٤/١-١٢٥، بحار الأنوار: ١٦٧/١٨-١٦٨ ومجمع البيان: ١٧٩/١٠.
- ٣- (٣) سيره ابن هشام: ٢٩٤/١-٢٩٥، عيون الأثر: ١٣٠/١.

«فإنَّ بها مَلِكًا لَا يُظَلَمُ عنده أحد وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً ممّا أنتم فيه»^(١). فخرج فريق من المسلمين عند ذلك إلى أرض الحبشه مخافه الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم. وخرجوا فى هجرتين. كانوا فى الأولى أحد عشر رجلاً وأربع نساء تسللوا من مكّه لوداء، ثمّ أقاموا فى خير جوار من النجاشى، حتى ترامى إليهم أنّ المسلمين بمكّه أصبحوا بمأمن من أذى قُريش فعادوا، كما سنقّصه من بعد^(٢). فلمّا لقوا عنت قُريش وأذاهم أبلغ ممّا كان عادوا إلى الحبشه فى ثمانين رجلاً- غير نساءهم وأطفالهم، وأقاموا بها إلى ما بعد هجره النبىّ إلى يثرب. وهذه الهجره إلى الحبشه كانت أول هجره فى الإسلام^(٣).

من حقّ من يُؤرّخ ل «محمّد» أن يتساءل: أكان كلّ القصد من هذه الهجره التى قام بها المسلمون بأمره ورأيه، الفرار من كفّار مكّه وما يلحقون بهم من الأذى؟ أم أنّها كان لها كذلك غرض سياسى إسلامى رمى «محمّد» من ورائه إلى غايه عُليا؟ من حقّ مؤرخ «محمّد» أن يتساءل عن هذا بعد الذى ثبت من تاريخ هذا النبىّ العربى فى أدوار حياته جميعاً أنّه كان سياسياً بعيد الغور، كما كان صاحب رساله وأدب نفس لا يدانيهما فى السموّ والجلال والعظمه مدان. ويدعوننا إلى هذا التساؤل ما تجرى به الروايه من أنّ أهل مكّه لم يستريحوا إلى خروج من خرج من المسلمين إلى الحبشه، بل بعثوا رجلين إلى النجاشى ومعهما الهدايا القيمه ليقنعوه كى يرّد المسلمين من مواطنهم إليهم. والحبشه ونجاشيها كانوا نصارى، فليس تخشى قُريش عليهم من

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٣٢١/١-٣٢٢، سيره ابن كثير: ٤/٢.

٢- (٢) سيره ابن هشام: ٣٢٢/١، الطبقات الكبرى: ٢٠٤/١، تاريخ ابن خلدون: ٤١٢/٢-٤١٣.

٣- (٣) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢٠٧/١، عيون الأثر: ١٣٥/١، الوفا: ١٩٥، مجمع البيان: ٤٠٠/٣، بحار الأنوار: ٤١٤/١٨.

الناحية الدينية أن يتبعوا «محمّداً». فهل تراهم عُنوا بالأمر وبعثوا يستردّون المسلمين إلّا أنّهم رأوا أنّ حمايه النجاشى إيّاهم بعد سماعه أقوالهم قد تكون ذات أثر فى إقبال أهل جزيره العرب على دين «محمّد» واتباعهم إيّاه؟ أو أنّهم خافوا، إن بقى هؤلاء فى الحيشه، أن تشتد شوكتهم، فإذا عادوا بعد ذلك لمعونه «محمّد» عادوا أقوياء بالمال والرجال.

كان الرسولان عمرو بن العاص وعبداً لله بن أبى ربيعه، ولقد دفعا إلى النجاشى وإلى بطارقه بالهدايا كى يرّدوا المهاجرين من أهل مكّه إليها، ثمّ قالوا: «أيّها الملك إنّّه قد ضوى إلى بلدك ممّا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا- نعرفه نحن ولا أنت. وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آباءهم وأعمامهم وعشائهم لتردّهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوا فيه». وكان السفيران قد اتّفقا مع بطارقه النجاشى بعد أن اتّفقا بمهدايا أهل مكّه أن يعاونوهما على ردّ المسلمين إلى قريش دون أن يسمع النجاشى كلامهم. فأبى النجاشى أن يفعل حتّى يسمع ما يقولون وبعث فى طلبهم. فلما جاءوا سألهم (١).

ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل؟

«فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب» قال: أيّها الملك، كُنّا قوماً أهل جاهليه، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسئ الجوار ويأكل القوى ممّن الضعيف. فكُنّا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً ممّن نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع

ص: ٢١٥

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٣٣٤/١-٣٣٥، بحار الأنوار: ٤١٤/١٨.

ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصله الرّحم وحسن الجوار والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة(١) والصيام - وعدّد عليه أمور الإسلام - فصدّقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده لا- نشرك به شيئاً وحرّمنا ما حرّم علينا وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث؛ فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك عليمين سواك ورجونا ألأنظلم عندك.

فقال النجاشي: هل معك ممّا جاء به عن الله من شيء تقرأه عليّ؟

قال جعفر: نعم، وتلا من سورة مريم إلى قوله تعالى:

فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا . ٢١٦ .

فلما سمع البطارقة هذا القول مصدّقاً لما في الإنجيل أخذوا وقالوا: هذه كلمات تصدر من النبع الذي صدرت منه كلمات سيّدنا يسوع المسيح. وقال

ص: ٢١٦

١- (١) الزكاة المفروضة شرّعت في المدينة وليس في مكّة قبل هجره المسلمين إلى الحبشه ولا يمنع من كونها الزكاة المستحبه أو بمعنى الإنفاق بشكل عام. انظر موسوعه التاريخ الإسلامى للشيخ محمّد هادى اليوسفى: ٥٧٨/١.

النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاه واحده. انطلقا، والله لا أسلمهم إليكما. فلما كان الغد عاد ابن العاص إلى النجاشي فقال له: إن المسلمين يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فسلمهم عما يقولون فيه. فلما دخلوا عليه قال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاء به نبينا، يقول هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

فأخذ النجاشي عوداً وخط به على الأرض - وقد بلغت منه المسره أكبر مبلغ -:

ليس بين دينكم وديننا أكثر من هذا الخط. وكذلك تبين للنجاشي بعد سماع الفريقين أن هؤلاء المسلمين يعترفون بعيسى ويقرون النصرانية ويعبدون الله (١). ووجد المسلمون في جوار النجاشي أمناً ودعه، حتى رجعوا إلى مكه للمره الأولى و «محمد» ما يزال بها، وحين تراءى لهم أن خصومه قريش هدأت. فلما رأوا المكيين وما يزالون ينزلون به وبأعوانه الأذى، عادوا إلى الحبشه في ثمانين رجلاً غير نسائهم وأطفالهم (٢). أفكانت هجرتاهم هاتان لمجرد الفرار من الأذى، أم كان لهما، ولو في تدبير «محمد» وحده، غايه سياسيه يجمل بالمؤرخ أن يجلوها؟

ومن حق مؤرخ «محمد» أن يتساءل: كيف أمن «محمد» على أصحابه هؤلاء أن يذهبوا إلى أرض الحبشه والنصرانية دين أهلها دين كتاب، ورسولها «عيسى» يقر «محمد» رسالته، ثم لا يخاف عليهم فتنه كفتنه قريش وإن تكن من نوع آخر؟ وكيف أمن هذه الفتنه والحبشه بلاد بها من الخصب ما ليس بمكّه فهي أشد من قريش فتنه؟ ولقد تنصّر بالفعل أحد

ص: ٢١٧

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٣٣٢/١-٣٣٨، والسيره الحلبيه: ٣٣٨/١-٣٤١، سيره ابن كثير: ١٠/٢، عيون الأثر: ١٣٨/١-١٣٩، تفسير القمى: ١٧٦/١-١٧٨، بحار الأنوار: ٤١٥/١٨.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٣٦٩/١.

المسلمين الذين ذهبوا إلى الحبشه (١)، فدلّ تنصّره على أنّ خوف هذه الفتنة كان جديراً بأن يساور «محمّداً» وهو ما يزال ضعيفاً، وما يزال الذين اتّبعوه في أشدّ الريب من قدرته على حمايتهم أو الانتصار به على عدوّهم! وأكبر الظنّ أنّ يكون ذلك قد دار بخاطر «محمّد» أنّ كانت سعه ذهنه وذكاء فؤاده وبعد نظره عدلاً لسموّ روحه وكرم نفسه وحسن أدبه ورقّه عاطفته. ولقد كان من هذه الناحية مطمئناً تمام الطمأنينه. فقد كان الإسلام يومئذٍ، وإلى يوم مات صاحب الرساله، فى صفاء جوهره لم تشب نقاءه ولا سمّوه شائبه. وكانت نصرانيه الحبشه كنصرانيه نجران والحيره والشام قد اندسّ إليها من شوائب الخلاف بين مؤلّهى مريم ومؤلّهى «عيسى» والمخالفين لهؤلاء وأولئك بمالاً يخشى معه على أولئك المسلمين، الذين كانوا ينهلون من نبع الرساله المصنّفى.

والحقّ أنّ أكثر الأديان ما كانت تتخطى على الزمان أجيالاً معدوده حتى يندسّ إليها نوع من الوثنيه، إن لم يكن من هذا الطراز الوضيع الشائع يومئذٍ فى بلاد العرب فإنّه وثنيه على كلّ حال. والإسلام نزل عدو الوثنيه اللدود فى جميع صورها وأوضاعها. ثمّ إن النصرانيه تعترف من ذلك التاريخ لطائفه رجال الدين بمكانه خاصه لم يعرفها الإسلام قطّ، وكان يومئذٍ أشدّ ما يكون عليها سمواً ومنها براءه. ثمّ إنّّه كان يومئذٍ وبقي فى جوهره دين السموّ بالنفس الإنسانيه إلى غايه الذروه من السموّ. حطّم كلّ صلّه بين المرء وربّه غير العمل الصالح والتقوى (٢)، وأن يحب الإنسان لأخيه ما يجب لنفسه. لم

ص: ٢١٨

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٢٢٣/١.

٢- (٢) كان المسلمون يتوسلون إلى الله برسوله، راجع التّوسل ضمن سلسله فى رحاب أهل البيت، طبع المجمع العالمى لأهل البيت عليهم السلام.

تبقى أصنام ولم يبق كهنه ولم يبق عزافون ولم يبق شيء يحول دون أن ترتفع الروح الإنسانيه لتتصل بالوجود كله صله خير ومعروف، ليكون جزاؤها عند الله أكبر من عملها أضعافاً مضاعفه. والروح! الروح الذى هو من أمر الله! الروح المتصل بأزل الزمن وأبدته! هذا الروح ماعمل صالحاً فلا- حجاب بينه وبين وجه الله ولا- سلطان لغير الله عليه. يستطيع الأغنياء والأقوياء والشريرون أن يعدبوا الجسد وأن يحولوا بينه وبين ملاذّه وشهواته وأن يهلكوه، لكنهم لن يصلوا إلى الروح مادام صاحبه يريد به سموّاً، فوق سلطان المادّه وفوق سلطان الزمن واتصالاً- بالوجود كله. إنّما يُجزى الإنسان عن أعماله يوم تُجزى كل نفس بما كسبت. يومئذٍ لا يجرى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً، ويومئذٍ لا ينفع الأغنياء مالهم، ولا الأقوياء قوتهم، ولا المتكلمين كلامهم. إنّما هي الأعمال وحدها تشهد لصاحبها أو تشهد عليه. ويومئذٍ يقف هذا الوجود جميعاً متسقه وحدته مجتمعاً أزلّه وأمدّه، لا يظلم ربك أحداً، ولا تجزون إلّما كنتم تعملون.

كيف يخاف «محمّد» الفتنه على من علمهم هذه المعانى ومن بثّها فى نفوسهم فحلتّ منهم فى سويداء القلب ومكان العقيدته والإيمان! ثمّ كيف يخاف عليهم الفتنه ومثله حاضر أمامهم بشخصه المحبوب، حتى ليحبّه أحدهم أكثر من حبّه نفسه وبنيه وأهله. شخصه الذى يضع هذه العقيدته فوق ملك الأرض والسماء والشمس والقمر، ويقول لعمّه:

«والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته»^(١) شخصه الذى يضىء

ص: ٢١٩

١- (١) عيون الأثر لابن سيّد الناس: ١/١٣٣، السيره النبويّه لابن كثير: ١/٤٧٤، سبل الهدى والرشاد للصالحي الشامي: ٢/٣٢٧، موسوعه التاريخ الإسلامى: ١/٥٠٢ و ٥٢٠.

بنور الإيمان والحكمه والعدل والخير والحق والجمال، الممتلئ إلى جانب ذلك تواضعاً وبراً ومودّة ورحمه. لذلك كان مطمئناً إلى هجره أصحابه هؤلاء إلى الحبشه كلّ الاطمئنان. وكان أمنهم عند النجاشى وسكينتهم إلى دينهم بين قوم لا تربطهم بهم أواصر عطف أو قُربى، ممّا جعل قريشاً تشعر بما فى إيدائها للمسلمين، وهم منهم وهم أهلهم وأنسابهم، من ظلم ومن عنت ومن إمعان فى الفجور، ومن تحميل كلّ ألوان الأذى لهؤلاء الذين ارتفعت نفوسهم فوق الأذى، فأصبح لا ينالهم سوء وأصبحوا يرون فى الصبر على البأساء قُربى إلى الله ومغفره منه.

وكان عمر بن الخطاب يومئذٍ رجلاً - فى فتوّه الرجوليه بين الثلاثين والخامسه والثلاثين. وكان مفتول العَضل قوَى الشكيمه حادّ الطبع سريع الغضب محباً للهو والخمر، وفيه إلى ذلك برّ بأهله ورقّه لهم. وكان من أشدّ قُريش أذى للمسلمين ووقيعه فيهم. فلَمّا رأهم هاجروا إلى الحبشه ورأى النجاشى حماهم شعر لفراقهم بوحشه، وبما لفراق وطنهم من ألم يحزّ فى الكبد ويفرى المهجه. وكان «محمّد» يوماً مجتمعاً مع أصحابه الذين لم يهاجروا فى بيت عند الصفا، ومن بينهم عمّه حمزه وابن عمّه عليّ بن أبى طالب وأبو بكر بن أبى قحافه وغيرهم من سائر المسلمين. وعرف عمر اجتماعهم، فقصد إليهم يريد أن يقتل «محمّداً» كى تستريح قُريش وتعود إليها وحدتها بعد أن فرّق أمرها وسفّه أحلامها وعاب آلهتها. ولقيه نعيم بن عبد الله فى الطريق وعرف أمره فقال له: «والله لقد غشّتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بنى عبدمناف تاركيك تمشى على وجه الأرض وقد قتلت محمّداً؟! أفلا ترجع إلى أهل بيتك وتقيم أمرهم». وكانت فاطمه أخت عمر وزوجها سعيد بن زيد قد أسلما. فلَمّا عرف عمر من نعيم أمرهما كزّ راجعاً

إليهما ودخل البيت عليهم، فإذا عندهما من يقرأ عليهما القرآن. فلما أحسوا دنو داخل عليهم اختفى القارئ وأخفت فاطمه الصحيفة. وسأل عمر: ما هذه الهينمه التي سمعت؟ فلما أنكرا صاح بهما: لقد علمت أنكما تابعتما «محمّداً» على دينه؛ وبطش بسعيد؛ فقامت فاطمه تحمى زوجها فضربها فشجّها، فهاج إذ ذاك هائج الزوجين وصاحا به: نعم أسلمنا، فاقض ما أنت قاض. واضطرب عمر حين رأى ما بأخته من الدم، وغلبه بزه وعطفه فارعوى وسأل أخته أن تُعطيه الصحيفة التي كانوا يقرأون، فلما قرأها تغيّر وجهه وأحس بالندم لصنيعه، ثم اهتزّ لما قرأ في الصحيفة وأخذه إعجازها وجلالها وسموّ الدعوه التي تدعو إليها، فزاد جانب البرّ غلبه عليه. وخرج وقد لال قلبه واطمأنت نفسه، فقصد إلى مجلس «محمّد» وأصحابه عند الصفا، فاستأذن وأعلن إسلامه، فوجد المسلمون فيه وفي حمزه للإسلام منعه وللمسلمين حمى (١).

وفتّ إسلام عمر في عضد قريش، فأتمرت مره أخرى ما تصنع؟ والحق أنّ هذا الحادث عزّز المسلمين بعنصر جديد قوى غايه القوه، جعل موقف قريش منهم وموقفهم من قريش غير ما كان؛ واستتبع بين الطرفين سياسه جديده مليئه بأحداث وتضحيات وقوى جديده أدّت إلى الهجره، وإلى ظهور «محمّد» السياسى إلى جانب «محمّد» الرسول.

ص: ٢٢١

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٣٤٦/١.

الفصل السادس: قصة الغرائق

عود مهاجري الحبشه، الغرائق العلا تمسك المستشرقين بقصتها، أسانيدهم في ذلك، ضعف هذه الأسانيد، القصة ظاهره، الكذب ينفىها التمهيد العلمي.

أقام المسلمون الذين هاجروا إلى الحبشه ثلاثه أشهر أسلم أثناءها عمر ابن الخطاب، فعاد كثير منهم - في روايه (١) - وعادوا كلهم - في روايه أخرى (٢) - إلى مكّه أن علموا برجوع قريش عن أذاها «لمحمد» ومن أتبعه.

فلما بلغوها رأوا قريشاً عادت إلى إيذاء المسلمين وإلى إمعان في عداوتهم أشد من كلّ ما عرف هؤلاء المهاجرون من قبل. فعاد منهم إلى الحبشه من عاد، ودخل مكّه من دخل مستخفياً أو بجواز. ويقال إنّ الذين عادوا استصحبوا وإياهم عدداً آخر من المسلمين، أقام بالحبشه إلى ما بعد الهجره وإلى حين استتباب الأمر للمسلمين بالمدينه (٣).

أى داع حفز مسلمى الحبشه إلى العوده بعد ثلاثه أشهر من مقامهم؟

ص: ٢٢٣

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٣٦٩/١.

٢- (٢) المنتظم: ٣٧٤/٢، وتاريخ الإسلام للذهبي: ١٨٦/١.

٣- (٣) المنتظم: ٣٧٥/٢.

هنا يرد حديث الغرائيق، الذي أورده ابن سعد في طبقاته الكبرى (١)، والطبرى فى تاريخ الرسل والملوك (٢)، وأورده كثيرون من المفسرين المسلمين (٣)، وكتاب السيره (٤)، وأخذ به جماعه المستشرقين ووقفوا يؤيدونه طويلاً (٥). وحديث الغرائيق (٤)، أن «محمدًا» لما رأى من تجنب قريش إياه وأذاهم أصحابه تمنى فقال:

ليته لا- ينزل على شىء ينفرهم عنى. وقارب قومه ودنا منهم ودنوا منه. فجلس يوماً فى ناد من تلك الأنديه حول الكعبه فقرأ عليهم سوره النجم، حتى بلغ قوله تعالى: أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ٧، فقرأ بعد ذلك: «تلك الغرائيق العلا. وإن شفاعتهم لترتجى». ثم مضى وقرأ السوره كلها وسجد فى آخرها وسجد القوم جميعاً لم يتخلف منهم أحد. وأعلنت قريش رضاها عمياً تلا النبى وقالوا: قد عرفنا أن الله يحيى ويميت ويخلق ويرزق، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده. أما إذا جعلت لها نصيباً فنحن معك. وبذلك زال وجه الخلاف بينه وبينهم. وفشا أمر ذلك فى الناس حتى بلغ أرض الحبشه، فقال المسلمون بها: عشائرتنا أحب إلينا، وخرجوا راجعين، حتى إذا كانوا دون مكه بساعه من نهار لقوا ركباً من كنانه، فسألوهم فقالوا: ذكر آلهتهم بخير فتابعه الملاء، ثم ارتد عنها فعاد لستم آلهتهم

ص: ٢٢٤

-
- ١- (١) الطبقات الكبرى: ٢٠٥/١.
 - ٢- (٢) تاريخ الطبرى: ٥٥١/١.
 - ٣- (٣) التفسير الكبير للفخر الرازى: ٤٩/٢٣.
 - ٤- (٤) السيره النبويه لابن كثير: ٥٦/٢.
 - ٥- (٥) كتاب التوحيد، الإسلام والغرب، إشكاليه التعايش والصراع، الدكتور سمير سلمان: ٤٠.
 - ٦- (٦) الغرائيق: طائر مائى من فصيله الكركيات، عريض الجناح طويل الساق. أو جنس زهر من فصيله الغرنوقيات، مهده الأصلى أفريقيا الجنوبيه، مستحب فى جميع البلدان أزهاره جميله ومختلفه الألوان. المنجد فى اللغه: ٥٤٩.

وَعَادُوا لَهُ بِالشَّرِّ. وَأَمَرَ الْمَسْلُومُونَ مَا يَصْنَعُونَ فَلَمْ يَطِيقُوا عَنْ لِقَاءِ أَهْلِهِمْ صَبْرًا فَدَخَلُوا مَكَّةَ.

وَأَمَّا ارْتِدَّ «مَحْمَدٌ» عَنْ ذِكْرِ آلِهِ قُرَيْشٍ بِالْخَيْرِ فِي مَخْتَلَفِ الرِّوَايَاتِ الَّتِي أَثْبَتَ هَذَا الْخَبْرَ، لِأَنَّهُ كَبُرَ عَلَيْهِ قَوْلُ قُرَيْشٍ: «أَمَّا إِذَا جَعَلْتَ لِأَهْلَتِنَا نَصِيبًا فَنَحْنُ مَعَكُمْ»، وَأَنَّهُ جَلِيسٌ فِي بَيْتِهِ حَتَّى إِذَا أَمْسَى أَتَاهُ جَبْرَيْلٌ فَعَرَضَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ سُورَةَ النُّجُومِ فَقَالَ جَبْرَيْلٌ: أَوْجَعَتْكَ بَهَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ؟! مَشِيرًا إِلَى تِلْكَ الْغَرَانِيقِ الْعَلَا، وَإِنْ شَفَاعَتَهُنَّ لَتَرْتَجِي. قَالَ «مَحْمَدٌ»:

قَلْتُ عَلَى اللَّهِ مَا لَمْ يَقُلْ. ثُمَّ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِينَا إِلَيْكَ لَتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَاتَّخَذُوكَ حَٰلِيلًا * وَ لَوْ لَا أَنْ جَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدَّتْ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذَا لَأَذْفَنَّاكَ فِي عُمْفِ الْحَيَاهِ وَ ضِعْفِ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝ ۱ وَبِذَلِكَ عَادَ يَذْكُرُ آلَهُ قُرَيْشٍ بِالشَّرِّ وَيَسْبَهُمُ، وَعَادَتْ قُرَيْشٌ لِمَنَاوَاتِهِ وَإِيْدَاءِ أَصْحَابِهِ (۱).

هَذَا حَدِيثُ الْغَرَانِيقِ، رَوَاهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ كُتُبِ السِّيَرِ، وَأَشَارَ إِلَيْهِ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمَفْسَرِينَ، وَوَقَفَ عِنْدَهُ كَثِيرُونَ مِنَ الْمُسْتَشْرِقِينَ طَوِيلًا. وَهُوَ حَدِيثٌ ظَاهِرُ التَّهَاتُفِ يَنْقُضُهُ قَلِيلٌ مِنَ التَّمْحِيسِ. وَهُوَ بَعْدَ حَدِيثٍ يَنْقُضُ مَا لِكُلِّ نَبِيٍّ مِنَ الْعَصْمَةِ فِي تَبْلِيغِ رِسَالَاتِ رَبِّهِ. فَمَنْ عَجِبَ أَنْ يَأْخُذَ بِهِ بَعْضُ كُتَّابِ السِّيَرِ وَبَعْضُ الْمَفْسَرِينَ الْمُسْلِمِينَ (۲). وَلِذَلِكَ لَمْ يَتَرَدَّدْ ابْنُ إِسْحَاقَ

ص: ٢٢٥

١- (٢) تاريخ الطبرى: ٥٥١/١-٥٥٢.

٢- (٣) وصنف محمّد بن إسحاق فى تفنيدها كتاباً، راجع البحر المحيط لأبى حيان: ٣٨١/٦. وقال القاضى عبدالجبار عن هذا الخبر: «لا- أصل له، ومثل ذلك لا يكون إلّا من دسائس الملحده» تنزيه القرآن عن المطاعن: ٢٤٣. وقال أبو حيان: أنه نزه كتابه عن ذكر هذه القصة فيه. عن تفسير المحيط: ٣٨١/٦. وانكرها البيضاوى طاعناً فى أسانيدها وكذا البيهقى، والنوى والنسفى، وابن العربى، والسيد -

حين سئل عنه في أن قال: إنه من وضع الزنادقه (١). لكنّ بعض الذين أخذوا به حاولوا تبرير أخذهم هذا فاستندوا إلى الآيات: وَ
إِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ وَإِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا
يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ
الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ٢.

ويفسّر بعضهم كلمه «تمنى» في الآية بمعنى قرأ، ويفسرها آخرون بمعنى

ص: ٢٢٦

١- (١) السيره الحلبيه: ٣٢٦/١.

الأمنيه المعروفه(١). ويذهب هؤلاء وأولئك، ويتابعهم المستشرقون، إلى أن النبيّ لما بلغ منه أذى المشركين، حتى كانوا يقتلون بعض أصحابه ويلقون بعضهم فى الصحراء يلفحهم لظى الشمس المحرقة، وقد أوقروهم بالحجاره كما فعلوا ببلا، وحتى اضطرّ النبيّ للاذن لأصحابه فى الهجره إلى الحبشه، ولما رأى من جفاء قومه إيّاه وإعراضهم عنه، ولأنه كان حريصاً على إسلامهم ونجاتهم من عباده الأصنام، تقرب إليهم وتلا- سوره النجم وأضاف إليها حكاية الغرانيق، فلما سجد سجدوا وإياه وأظهروا له الميل لاتباعه مادام قد جعل لآلهم نصيباً مع الله.

ويضيف (سير وليم موير) إلى هذه الروايه التى تروى كتب السير والمفسرون حجه يراها قاطعه فى نظره بصحه حديث الغرانيق. ذلك أنّ المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشه لم يك قد مضى على هجرتهم إليها غير ثلاثه أشهر أجارهم النجاشى أثناءها وأحسن جوارهم. فلو لم يكن قد ترمى إليهم خبر الصلح بين «محمد» وقريش لما دفعهم دافع إلى العود حرصاً على الاتصال بأهلهم وعشائهم. وأنى يكون صلح بين «محمد» وقريش إذا لم يسع «محمد» إليه، وقد كان فى مكّه أقل نفراً وأضعف قوّه، وقد كان أصحابه أعجز من أن يمنعوا أنفسهم من أذى قريش ومن تعذيبهم إيّاهم.

هذه هى الحجج التى يسوقها من يقولون بصحه حديث الغرانيق. وهى حجج واهيه لا تقوم أمام التمهيص. ونبدأ بدفع حججه المستشرق موير.

فالمسلمون الذين عادوا من الحبشه إنّما دفعهم إلى العود لمكّه سببان: أولهما

ص: ٢٢٧

أن عمر بن الخطاب أسلم بعد هجرتهم بقليل. وقد دخل عمر في دين الله بالحمية التي كان يحاربه من قبل بها. لم يخف إسلامه ولم يستتر بل ذهب يعلنه على رؤوس الملأ- ويقاثلهم في سبيله، ولم يرض عن استخفاء المسلمين وتسلمهم إلى شعاب مكة يقيمون الصلاه فيها بعيدين عن أذى قريش، بل دأب هو على نضال قريش حتى صلى عند الكعبه وصلى المسلمون معه(١). هنالك أيقنت قريش أن ما تنال به «محمداً» وأصحابه من الأذى يوشك أن يثير حرباً أهليه لا يعرف أحد مداها ولا من تدور عليه دائرتها. فقد أسلم من مختلف قبائل قريش وبيوتاتها رجال ثور لقتل أي واحد منهم قبيلته وإن كانت على غير دينه. فلا مفر إذاً من اللجوء في محاربه «محمداً» إلى وسيله لا- يترتب عليها هذا الخطر. وإلى أن تتفق قريش على هذه الوسيله هادنت المسلمين فلم تنل أحداً منهم بأذى. وهذا هو ما اتصل بالمهاجرين إلى الحبشه ودعاهم إلى التفكير في العود لمكة.

وربما تردّوا في هذا العود لو لم يكن السبب الثاني الذي ثبت عزمهم. ذلك أن الحبشه شبت بها يومئذٍ ثوره على النجاشي، كان دينه وكان ما أبدى من عطف على المسلمين بعض ما أذيع فيها من تهمة ووجهت إليه(٢).

ولقد أبدى المسلمون أحسن الأمانى أن ينصر الله النجاشي على خصومه.

لكنهم لم يكونوا ليشاركوا في هذه الثوره وهم أجانب، ولم يك قد مضى على مقامهم بالحبشه غير زمن قليل. أما وقد ترامت إليهم أخبار الهدنه بين

ص: ٢٢٨

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٣٤٢/١.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٣٤٠/١.

«محمّد» وقريش همدنه أنجت المسلمين ممّا كان يصيبهم من الأذى، فخير لهم أن يدعوا الفتنة وراء ظهورهم وأن يلحقوا بأهليهم. وهذا ما فعلوه كلّهم أو بعضهم.

على أنّهم ما لبثوا أن بلغوا مكّه، حتى كانت قريش قد ائتمرت ما تصنع ب «محمّد» وأصحابه، واتفقت عشائرها وكتبوا كتاباً تعاقدوا فيه على مقاطعه بنى هاشم مقاطعه تامه، فلا يُنكحوا إليهم ولا يُنكحوهم ولا يبيعوهم ولا يتاعوا منهم شيئاً. وبهذا الكتاب عادت الحرب العوان بين الفريقين ورجع الذين عادوا من الحبشه وذهب معهم من استطاع اللحاق بهم. وقد وجدوا هذه المرّه عنثاً من قريش إذ حاولت أن تمنعهم من الهجره (1).

ليس الصلح الذى يشير إليه المستشرق موير هو إذاً الذى دعا المسلمين إلى العوده من بلاد الحبشه. إنّما هي هذه الهدنه التى حدثت على إثر إسلام عمر وحماسته فى تأييد دين الله. فتأييد حديث الغرائق بحجّه الصلح تأييد إذاً غير ناهض.

أما احتجاج المحتجين من كتاب السير والمفسرين بالآيات إنّ كادُوا لَيُفْتِنُونَكَ ... وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ... فهو احتجاج أشدّ تهافتاً من قصه السير موير. ويكفى أن نذكر فى الآيات الأولى قوله تعالى: وَ لَوْ لَا أَنْ تَبْتَئَاكَ لَفَدَّتْ كَدَّتْ تَزَكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً لَنرى أَنَّهُ إِنْ كَانَ الشَّيْطَانُ قَدْ أَلْقَى فِي أُمْنِيَةِ الرَّسُولِ حَتَّى لَقَدْ كَادَ يَرْكُنُ إِلَيْهِمْ

ص: ٢٢٩

شيئاً قليلاً. فقد ثبته الله فلم يفعل، ولو أنه فعل لأذاقه الله ضعف الحياه وضعف الممات. وإذا فالاحتجاج بهذه الآيات احتجاج مقلوب. فقصة الغرائق تجري بأن «محمّداً» ركن إلى قريش بالفعل وأن قريشاً فتنته بالفعل فقال على الله ما لم يقل. والآيات هنا أن الله ثبته فلم يفعل، فإذا ذكرت كذلك أن كتب التفسير وأسباب النزول جعلت لهذه الآيات موضعاً غير مسأله الغرائق رأيت أن الاحتجاج بها في مسأله تتنافى مع عصمه الرسل في تبليغ رسالاتهم، وتتنافى مع تاريخ «محمّداً» كله، احتجاج متهافت، بل احتجاج سقيم.

أما الآيات: وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ فَلَا صِلَةَ لَهَا بِحَدِيثِ الْغَرَانِيقِ الْبَتَّةِ؛ فضلاً عن ذكرها أن الله ينسخ ما يلقي الشيطان ويجعله فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسيه قلوبهم، ويحكم الله آياته والله عليم حكيم.

وندد هذا إلى تمحيص القصة التمهحيس العلمى الذى يثبت عدم صحتها. وأول ما يدل على ذلك تعدد الروايات فيها. فقد رويت - كما سبق القول - على أنها: «تلك الغرائق العلا. وإن شفاعتهن لترتجى»^(١). ورواها بعضهم: [«الغرائق العلا. إن شفاعتهن لترتجى»]^(٢). وروى آخرون [«إن شفاعتهن لترتجى»]^(٣) دون ذكر الغرائق أو الغرائق. وفي روايه رابعه: «وإنها لهى الغرائق العلا»^(٤). وفي روايه خامسه: «وإنهن لهن الغرائق العلا. وإن شفاعتهن لهى التى ترتجى»^(٥). وهذا التعدد فى الروايات يدل على أن

ص: ٢٣٠

١- (١) تاريخ الطبرى: ٥٥٢/١.

٢- (٢) الدر المنثور: ٣٦٧/٤.

٣- (٣) جامع البيان: ٢٤٨/١٧، تفسير الطبرى: ١٣١/١٧.

٤- (٤) الدر المنثور: ٣٦٨/٤.

٥- (٥) تاريخ الإسلام للذهبي: ١٨٦/١.

الحديث موضوع، وأنه من وضع الزنادقة، كما قال ابن اسحاق، وأن الغرض منه التشكيك في صدق تبليغ «محمد» رسالات ربه.

ودليل آخر أقوى وأقطع سياق سورة النجم وعدم احتمال له لمسأله الغرائق. فالسياق يجرى بقوله تعالى: لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى * أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ مَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ١ . وهذا السياق صريح في أن اللات والعزى أسماء سماها المشركون هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان.

فكيف يحتمل أن يجرى السياق بما يأتي: «أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى» تلك الغرائق العلام- إن شفاعتهن لترتجى. ألكم الذكر وله الأنثى، تلك إذن قسمه ضيزى إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان». إن في هذا السياق من الفساد ومن الاضطراب والتناقض، ومن مدح اللات والعزى وذمها في أربع آيات متعاقبه ما لا يسلم به عقل ولا يقول به إنسان، وما لا تبقى معه شبهه في أن حديث الغرائق مفترى وضعه الزنادقة لغاياتهم، وصدقه من يسعون كل غريب ومن تقبل عقولهم ما لا يسوغ العقل.

وحجّه أخرى ساقها المغفور له الأستاذ الشيخ محمد عبده حين كتب يفند الغرائق: تلك أن وصف العرب لآلهتهم بأنها الغرائق لم يرد في نظمهم ولا- في خطبهم، ولم ينقل عن أحد أن ذلك الوصف كان جارياً على ألسنتهم، وإنما ورد الغرنوق والغرنيق على أنها لطائر مائي أسود أو أبيض،

والغرنيق الشاب الأبيض الجميل. ولا شيء من ذلك يلائم معنى الآلهة أو وصفها عند العرب.

بقيت حجّة قاطعه نسوقها للدلالة على استحاله قصه الغرائق هذه من حياه «محمّد» نفسه. فهو منذ طفولته وصباه وشبابه لم يجرب عليه الكذب قطّ حتى سمّى «الأمين» ولما يبلغ الخامسة والعشرين من عمره. وكان صدقه أمراً مسلماً به من الناس جميعاً، حتى لقد سأل قريشاً يوماً بعد بعثه: «أرأيتمكم لو أخبرتكم أنّ خيلاً بسفح هذا الجبل أكتتم تصدّقونني». فكان جوابهم: نعم، أنت عندنا غير متهم وما جرّبنا عليك كذباً قطّ (١). فالرجل الذي عُرف بالصدق في صلاته بالناس منذ نعومه أظفاره إلى كهولته كيف يصدّق إنسان أنّه يقول على ربّه ما لم يقل، ويخشى الناس واللّه أحقّ أن يخشاه! هذا أمر مستحيل يدرك استحالته الذين درسوا هذه النفوس القويه الممتازه التي تعرف الصلابه في الحقّ، ولا- تداجى فيه لأى اعتبار. وكيف ترى يقول «محمّد» لو وضعت قريش الشمس فى يمينه والقمر فى شماله على أن يترك هذا الأمر أو يموت دونه ما فعل (٢)، ثمّ يقول على اللّه ما لم يوح إليه، ويقوله لينقض به أساس الدين الذى بعثه اللّه به هدى وبشرى للعالمين!

ومتى يرجع إلى قريش ليمدح آلهم! بعد عشر سنوات أو نحوها من بعثه، وبعد أن احتمل هو وأصحابه فى سبيل الرساله من ألوان الأذى وصنوف التضحيه ما احتمل، وبعد أن أعزّ اللّه الإسلام بحمزه وعمره، وبعد أن بدأ المسلمون يصبحون قوه بمكّه، ويمتد خبرهم إلى بلاد العرب كلّها وإلى

ص: ٢٣٢

١- (١) تاريخ الطبرى: ٥٤٢/١، والمناقب لابن شهر آشوب: ٤٦-٤٧.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٢٦٦/١.

الحيثه وإلى مختلف نواحي العالم. إن القول بذلك حديث خرافه وأكذوبه ممجوجه. ولقد شعر الذين اخترعوها بسهولة افتضاحها فأرادوا سترها بقولهم: إن «محمدًا» ما كاد يسمع كلام قريش، إذ جعل لألتهم نصيباً في الشفاعة حتى كبر ذلك عليه، وحتى رجع إلى الله تائباً أول ما أمسى بيته وجاءه جبرئيل فيه. لكن هذا الستر أحرى بأن يفضحها. فما دام الأمر قد كان كبر على «محمدٍ» منذ سمع مقاله قريش، فما كان أحرى أن يراجع الوحي لساعته. وما كان أحرى أن يُجرى الوحي الصواب على لسانه! وإذا فلا أصل لمسألة الغرائق إلا للوضع والاختراع قامت بهما طائفه الذين أخذوا أنفسهم بالكييد للإسلام، بعد انقضاء الصدر الأوّل من الإسلام.

وأعجب ما في جراه هؤلاء المفترين! أنهم عرضوا للافتراء في أم مسائل الإسلام جميعاً: في التوحيد؛ في المسألة التي بعث محمد لتبليغها للناس منذ اللحظة الأولى، والتي لم يقبل فيها منذ تلك اللحظة هواده ولا أماله عنها ما عرض عليه قريش أن يعطوه ما يشاء من المال أو يجعلوه ملكاً عليهم.

وعرضوا ذلك عليه حين لم يكن قد اتبعه من أهل مكّه إلا عدد يسير. وما كان أذى قريش لأصحابه ليحمله يرجع عن دعوهِ أمره ربّه أن يبلغها للناس.

فاختيار المفترين لهذه المسألة التي كانت صلابه «محمدٍ» فيها غايه ما عرف عنه من الصلابه، تدل على جراه غير معقوله، وتدل في نفس الوقت على أن الذين مالوا إلى تصديقهم قد خدعوا فيما لا يجوز أن يُخدع فيه أحد.

لا أصل إذاً لمسألة الغرائق على الاطلاق، ولا صلته البتة بينها وبين

عوده المسلمين من الحبشه. إنّما عادوا - كما قدّمنا - بعد أن أسلم عمر(1) ونصر الإسلام بمثل الحميّة التي كان يحاربه من قبل بها، حتى اضطرت قُريش لمهادنه المسلمين. وعادوا حين شَبَّت الثورة في بلاد الحبشه ثوره خافوا مغبتها. فلَمَّا علمت قُريش بعودتهم ازدادت مخاوفها أن يعظم أمر «محمّد» بهم، فأُتمرت ما تصنع. وقد انتهت بوضع الصحيفة التي قرّروا فيها فيما قرّروا أَلْيَنَّا كحوا بنى هاشم ولا يبايعوهم ولا يخالطوهم؛ كما أجمعوا فيما بينهم أن يقتلوا «محمّدًا» إن استطاعوا.

ص: ٢٣٤

١- (١) لم يُشر أحد من المؤرّخين إلى وجود علاقه بين رجوع المهاجرين من الحبشه وإسلام عمر فإذا رجع المهاجرون بعد إسلامه فهذا لا- يعني أنّهم قد رجعوا بسبب إسلام عمر، ولماذا لا نقول إنّهم رجعوا بسبب إسلام حمزه عمّ النبيّ أو غيره من المسلمين؟ وهذا ما لا دخل له بالأحداث التي كان يسطّرها المسلمون جميعاً بقيادة الرسول صلى الله عليه و آله، وإذا صحّ ما يقوله الكاتب فلماذا لا تتوقف قُريش عن عدائتها للمسلمين بعد إسلام عمر بل نرى العكس إذ قرّرت قُريش مقاطعة بنى هاشم فكتبت صحيفه المقاطعه وبعد ذلك تحقّق قرارها الجماعى بقتل النبيّ صلى الله عليه و آله ممّا اضطّره للهجره؟! فهذا القول ممّا لا دليل عليه ولكن ساقه المؤلّف حسبما أملى عليه ذوقه وعواطفه.

إعلان عمر إسلامه و صلاه المسلمين عند الكعبه، صحيفه المقاطعه، جهود قريش في محاربه محمد، سلاح الدعايه، سحر البيان، جبر النصراني، تأثر قريش بالدعوه الجديده، الطفيل الدوسى، و فد النصارى، ما منع قريش أن تتابع محمدًا!، المنافسه، الخوف على مكانه مكّه، الفزع من البعث.

فت إسلام عمر في عضد قريش أن دخل ابن الخطاب في دين الله بالحميّه و الحماسه التي كان يحاربه من قبل بها. لم يخف إسلامه و لم يستتر بل ذهب يعلنه على رؤس المألأ و يقاتلهم في سبيله. و لم يرض عن استخفاء المسلمين و ذهابهم إلى شعاب مكّه يقيمون الصيلاه فيها بعيدين عن أذى قريش، بل دأب هو على نضال قريش حتى صلّى عند الكعبه و صلّى المسلمون معه (1). و أيقنت قريش أن ما تنال به «محمدًا» و أصحابه من الأذى

ص: ٢٣٥

١- (١) السيره النبويه لا- بن هشام: ٢٩٢/١ و ٣٤٢ و الصحيح إن ذلك كان بإسلام حمزه، كما جاء: «فلما أسلم حمزه عرفت قريش أن رسول الله صلى الله عليه و آله قد عزّ و امتنع، و أن حمزه سيمنعه، فكفّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه». (سيره ابن هشام: ٣١١/١، ٣١٢) و كذلك: «عزّ به النبي صلى الله عليه و آله - بإسلام حمزه - و أهل الإسلام، فشق ذلك على المشركين فعدلوا عن المنابذه الى المعاتبه و أقبلوا يرغبونه في المال و الأنعام و يعرضون عليه الأزواج». (البدء و التاريخ: ١٤٨/٤ و ١٤٩، و ٩٨/٥).

لن يحول دون إقبائل الناس على دين الله، ليحتموا من بعد ذلك بعمر و حمزه أو بالحشبه أو بمن يقدر على حمايتهم، فآتمرت من جديد ما ذا تصنع.

و اتفقوا فيما بينهم و كتبوا كتابا تعاقدا فيه على مقاطعه بنى هاشم و بنى المطلب مقاطعه تامه، فلا ينكحوا إليهم و لا ينكحوهم و لا يبيعوهم شيئا و لا يبتاعوا منهم. و علقوا صحيفه هذا العقد فى جوف الكعبه توكيدا لها و تسجيلا.

و كان أكبر ظنهم أن هذه السياسه السلبيه، سياسه التجويع و المقاطعه، ستكون أفضل أثرا من سياسه الأذى و الإعانات، و إن لم ينقطعوا عن الإعانات و لا عن الأذى. و أقامت قريش على حصار المسلمين و حصار بنى هاشم و بنى عبدالمطلب سنتين أو ثلاثا، كانت ترجو خلالها أن تصل من «محمد» إلى اعتزال قومه إياه، فيعود وحيدا و لا يبقى له و لا لدعوته من خطر(1).

فأمّا «محمد» فلم يزد ذلك إلا اعتصاما بحبل الله، و لم يزد أهله و الذين آمنوا به إلا ذودا عنه و عن دين الله، و لم يحل دون انتشار الدعوه إلى الإسلام انتشارا خرج بها من حدود مكّه. و ذاع أمر الدعوه بين العرب و قبائلها، بما جعل الدين الجديد يفشو ذكره فى شبه الجزيره بعد أن كان حبيسا بين جبال مكّه، و ما جعل قريشا تزيد إمعانا فى تفكيرها كيف تحارب هذا الخارج عليها و الذى يسب آلهتها، و كيف تقف دون انتشار دعوته بين قبائل العرب،

ص: ٢٣٦

١- (١) الطبقات الكبرى لا بن سعد: ٢٠٩/١، و أنساب الأشراف: ٢٧٠/١، و عيون الأثر: ١٤٧/١، و روضه الواعظين: ٥٣، و منتهى الآمال: ١١٦/١.

ولا غنى لمكّه عن هذه القبائل ولا غنى للقبائل عن مكّه فى التجاره المتّصله، التى تصدر عن أم القرى و ترد إليها.

و الحق « أن ما بذلته قريش من مجهود فى محاربه هذا الخارج عليها و على دينها و دين آبائها، و ما تابرت و صابرت السنين الطوال للقضاء على هذه الدعوه الجديده يعدو ما يتصوره العقل، هددت «محمّدا» و هددت أهله و أعمامه! تهكّمت به و بدعوته و سخرت منه و ممّن اتبعه! أرسلت شعائرها تهجوه و تفرى أديمه(1) نالته بالأذى و نالت من اتّبعه بالسوء و العذاب! عرضت عليه الرشوه و عرضت عليه الملك و عرضت عليه كل ما يطمع الناس فيه عاده! شرّدت أنصاره عن أوطانهم و أصابتهم فى تجارتهم و فى أرزاقهم! أنذرتهم و أنذرتهم الحرب و أهوالها و ما تجنى و ما تدمّر! و هاهى ذى تحاصرهم أخيرا لتميتهم جوعا إن استطاعت إلى ذلك سبيلا. و مع ذلك ظل «محمّد» يشدّد فى دعوه الناس بالحسنى إلى الحق الذى بعثه الله به للناس بشيرا و نذيرا. أفلم يأن لقريش أن تلقى سلاحها و أن تصدّق الأمين الذى عرفته منذ طفوليته و كل صباه و شبابه أمينا؟ أم أنّها لجأت إلى سلاح غير ما قدمنا من أسلحه النضال، و خيل إليها أنّها مستطيعه به أن تكسب الموقعه، و أن تستبقى لأصنامها مكانه الألوهيه التى تزعمها، و أن تستبقى بمكّه متحف هذه الأصنام و مكان قداستها و كل ما ينالها بسبب هذه الأصنام من قداسه؟!

كلا! لم يأن لقريش أن تدعن و أن تسلم. و هى الآن أشدّ ما تكون خوفا من انتشار دعوه «محمّد» بين قبائل العرب بعد أن انتشرت بمكّه؛ و قد بقى

ص: ٢٣٧

١- (١) تفرى أديمه: تقطع جلده، كناية عن كرامته.

لديها سلاح لجأت إليه منذ الساعه الأولى و لا يزال لها في قوته و في مضائه مطمع. ذلك سلاح الدّعايه، الدعايه بكل ما تنطوى عليه من مجادله و حجج و مهارته و ترويح اشاعات و تضعيف لحجه الخصم و استعلاء بالدليل على دليله، الدعايه ضد الفكره و ضد صاحب الفكره و اتاهامه فيها و اتّهامها لذاتها.

الدعايه التي لا تقف عند حدود مكّه و التي لم تكن مكّه بحاجه إليها، كحاجه الباديه و قبائلها و شبه الجزيره و سائر أهلها. كان التهديد و الاغراء و الارهاب و التعذيب بعض ما يغنى عن الدعايه في مكّه، لكنّها لم تكن لتغنى عنها شيئاً عن الألوف الذين يفسدون إلى مكّه كل عام في التجاره و الحجّ، و الذين يجتمعون في أسواق عكاظ و مجنه و ذى المجاز ليحجّوا إلى الكعبه بعد ذلك مقربين إلى أصنامهم ناحرين عندها ملتمسين منها البركه و المغفره. لذلك فكّرت قريش منذ استحرّت الخصومه بينها و بين «محمّد» في تنظيم الدعايه ضدّه. و كانت في تفكيرها هذا أشدّ إمعاناً منذ فكّر هو في مبادأه الحاجّ بدعوتهم إلى عباده الله وحده لا شريك له. و هو قد فكّر في هذا بعد السنين الأولى من بعثه. فهو قد بدأ نبياً منذ بعثه إلى أن جاءه الوحي أن ينذر عشيرته الأقربين. فلمّا أنذر قريشا و أسلم منها من أسلم و ألحّ في الكفر و العناد من ألحّ، ألقى عليه أن يدعو قومه العرب جميعاً، ليلقى عليه من بعد ذلك أن يدعو الناس كافه.

لمّا فكّر في مبادأه الحاجّ من مختلف قبائل العرب بالدعوه إلى الله اجتمع نفر من قريش إلى الوليد بن المغيره يتشاورون ما ذا عسى أن يقولوا في شأن «محمّد» للعرب القادمين إلى موسم الحجّ، حتى لا يختلف بعضهم

مع بعض و يكذب بعضهم بعضا. و اقترح بعضهم أن يقولوا: إن «محمدًا» كاهن؛ فردّ الوليد هذا الرأي أن ليس ما يقول «محمدًا» بززمه (١) الكاهن و لا بسجعه. و اقترح آخرون أن يزعموا أن «محمدًا» مجنون؛ فردّ الوليد هذا الرأي بأنه لا تبدو عليه لهذا الزعم ظاهره. و اقترح غيرهم أن يتهموا «محمدًا» بالسحر؛ فردّ الوليد بأن «محمدًا» لا ينفث في العقد و لا يأتي من عمل السحره شيئًا. و بعد حوار اقترح الوليد عليهم أن يقولوا للحاجّ من العرب: إن هذا الرجل ساحر البيان، و إن ما يقوله سحر يفرّق بين المرء و أبيه و بين المرء و أخيه و بين المرء و زوجه و بين المرء و عشيرته (٢). و كان لهم عند العرب من الحجّه على قولهم، هذا ما أصابهم في مكّه من فرقه و تخاذل و تناحر، بعد أن كانت مكّه مضرب المثل في العصبية و في قوه الرابطة. و انطلقت قريش في الموسم تحذّر الحاجّ من الاستماع إلى هذا الرجل و سحر بيانه حتى لا يصيبها ما أصاب مكّه، فتكون فتنه تصلى حرّها جزيره العرب جميعا (٣).

لكن دعايه كهذه لا يمكن أن تقوم و حدها أو تقاوم سحر هذا البيان الذي يومنون إليه. فإذا جاء الحقّ في هذا البيان الساحر فما يمنع الناس أن يؤمنوا به؟! و هل كان الاعتراف بالعجز و بتفوق الخصم دعايه ناجعه في يوم من الأيام؟! فلتنكّن لقريش إلى جانب هذه الدعايه دعايه أخرى. و لتلتمس قريش هذه الدعايه عند النضر بن الحارث. و قد كان هذا النضر من شياطين قريش، و كان قد قدم الحيره و تعلّم بها أحاديث ملوك الفرس و عباداتها

ص: ٢٣٩

١- (١) الزمزمه: الكلام الخفى المسموع.

٢- (٢) السيره النبويه لا بن هشام: ٢٧٠/١-٢٧١، و أنساب الأشراف: ١٥٠/١، مجمع البيان: ١٧٨/١٠.

٣- (٣) السيره النبويه لا بن هشام: ٢٧١/١-٢٧٢، السيره النبويه لا بن كثير: ٧٢/٢.

وأقوالها في الخير والشرّ وفي عناصر الكون. فأخذ نفسه، كلّما جلس «محمّد» مجلساً يدعو فيه قومه إلى الله ويحدّثهم عاقبه ما أصاب من قبلهم من الأمم التي أعرضت عن عباده الله، بأن يخلف «محمّداً» في مجلسه وأن يقصّ على قريش حديث فارس ودينها ثم يقول: بما ذا يكون «محمّداً» أحسن حديثاً مني؟ أليس «محمّداً» يتلوا من أساطير الأولين ما أتلو؟ و كانت قريش تذيع أحاديث النضر من طريق الرواية دعاه ضد ما ينذر «محمّد» الناس به وما يدعوهم إليه (١).

و كان «محمّد» يكثر من الجلوس عند المروه إلى مبيعه غلام نصراني يقال له جبر، فكانت قريش تزعم أن جبراً النصراني هذا هو الذي يعلم «محمّداً» أكثر ما يأتي به، فإذا كان لأحد أن يخرج على دين آباءه فالنصرانيه أولى. و روجت قريش لزعمها هذا، فنزل (٢) في ذلك قوله تعالى: وَ لَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ٣

بهذه الضروب وأمثالها من الدعاية جعلت قريش تحارب «محمّداً» تروجو أن تبلغ بها منه أكثر ممّا يبلغ منه الأذى وممن اتبعه العذاب. على أنّ قوه الحقّ في الصوره الواضحه البسيطة التي صور فيها على لسان «محمّداً» كانت تعلو على ما يقولون، وما تفتأ لذلك تزداد كلّ يوم بين العرب انتشاراً.

قدم الطفيل بن عمر الدوسى مكّه، وكان رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً، فمشت إليه قريش تحدّثه من «محمّد» وأن قوله كالسحر يفرّق بين المرء

ص: ٢٤٠

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٣٥٨/١، السيره النبويه لابن كثير: ٥٠/٢-٥١، مجمع البيان: ٢٨/٤-٢٩.

٢- (٢) التفسير الكبير للفخر الرازي: ١١٧/٢٠، السيره النبويه لابن كثير: ٨٤/٢، مجمع البيان: ٢٠٠/١٤.

وأهله، بل بين المرء ونفسه، وأنهم يخشون عليه وعلى قومه مثل ما أصابهم بمكّه، وأنّ الخير في أليكمه ولا يستمع إليه. وذهب الطفيل يوماً إلى الكعبه وكان «محمّداً» هناك، فسمع بعض قوله فإذا هو كلام حسن، فقال في نفسه: «واثكل أمي، والله إنني لرجل لبيب شاعر ما يخفى عليّ الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان حسناً قبلته وإن كان قبيحاً تركته». وأتبع «محمّداً» إلى بيته وأظهره على أمره ومادار بنفسه، فعرض «محمّداً» عليه الإسلام وتلا عليه القرآن، فأسلم وشهد شهادته الحقّ ورجع إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام، فلبّاه بعضهم وأبطأ بعض، وما زال الطفيل بهم يدعوهم سنين متعاقبه حتى أسلم أكثرهم وانضموا إلى النبيّ بعد فتح مكّه (١) وبعد أن بدأ النظام السياسي يأخذ في الإسلام صورته معينه.

وليس الطفيل الدوسيّ إلّامثالاً من كثير. ولم يكن عبّاد الأصنام وحدهم هم الذين يستجيبون إلى دعوته «محمّداً». قدم عليه وهو بمكّه عشرون رجلاً من النصارى حين بلغهم خبره، فجلسوا إليه وسألوه واستمعوا له فاستجابوا وآمنوا به وصدّقوه، ممّا غاظ قريشاً حتى سبّوهم وقالوا لهم:

«خبيكم الله من ركب، بعثكم من ورائكم من أهل دينكم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدّقتموه بما قال».

ولم تثنِ مقاله قريش هذا الوفد عن متابعه «محمّداً» ولم تردّه عن الإسلام، بل زادتهم باللّه إيماناً على إيمانهم إذ كانوا نصارى وإذ كانوا من قبل أن يستمعوا

ص: ٢٤١

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٣٨٢/١، السيره الحلبيه: ٣٦٤/١-٣٦٥.

بل لقد بلغ من أمر «محمد» ما هو أعظم من هذا. بدأ أشدّ قريش خصومه يسائلون أنفسهم: أحقاً أنه يدعو إلى الدين القيم، وأن ما يعدهم وما يندرهم هو الصحيح؟ خرج أبو سفيان بن حرب وأبوجهل بن هشام والأخنس بن شريق ليله ليستمعوا إلى «محمد» وهو في بيته، فأخذ كلّ منهم مجلساً يستمع فيه وكلّ منهم لا يعلم مكان صاحبه. وكان «محمد» يقوم الليل إلّا قليلاً يُرتل القرآن في هدوء وسكينه، ويردّد بصوته العذب آياته القدسيه على أوتار سمعه وقلبه وفؤاده. فلما كان الفجر تفرّق المستمعون عائدين إلى منازلهم، فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض: لا- تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأضعف ذلك من أمركم ولنصر «محمد» عليكم. فلما كانت الليلة الثانية شعر كل واحد منهم في مثل الموعد الذي ذهب فيه أمس كأنّ رجليه تحملاونه من غير أن يستطيع امتناعاً ليقتضى ليله حيث قضاه أمس، وليستمع إلى «محمد» يتلو كتاب ربّه. وتلاقوا عند عودتهم مطلع الفجر وتلاوموا من جديد، فلم يحل تلاومهم دون الذهاب في الليلة الثالثة. فلما أدركوا ما بهم لدعوه «محمد» من ضعف تعاهدوا ألما يعودوا لمثل فعلتهم وإن ترك ما سمعوا من «محمد» في نفوسهم من الأثر ما جعلهم يتساءلون فيما بينهم، وكلّهم تضطرب نفسه ويخاف أن يضعف وهو سيّد قومه فيضعف قومه ويتابعوا «محمد» معه (٢).

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٣٩١/١، عيون الأثر: ١٥٠/١.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٣١٥/١، تاريخ الإسلام للذهبي: ١٦٠-١٦١.

ما منعهم من أن يتابعوا «محمّداً؟» إنه لا يريد منهم مالا ولا فيهم سياده ولا عليهم ملكاً أو سلطاناً. وهو بعد رجل جمّ التواضع شديد الحبّ لقومه والبرّ بهم والحرص على هداهم، شديد حساب النفس، حتى ليخشى إساءه المسكين والضعيف، ويرى المغفّره عن أذى يحتمله طمأنينه لقلبه وراحه لضميره. ألم يقف مع الوليد بن المغيرة يوماً وقد طمع في إسلامه، والوليد سيّد من سادات قُريش، فمرّ به ابن أمّ مكتوم الأعمى وجعل يستقرئه القرآن وألحّ في ذلك حتى شقّ على «محمّد» إلحاحه، لما شغله عمّا كان فيه من أمر الوليد، فتولّى عنه وانصرف عابساً، فلمّا خلا إلى نفسه جعل يحاسبها عن صنيعها ويسائلها أهو أخطأ(1) حتى أنزل ٢ عليه الوحي بهذه الآيات: عَبَسَ

ص: ٢٤٣

١- (١) الآيات لا تدلّ على أنّ المراد بها هو النبيّ صلى الله عليه وآله والظاهر أنّ المعنى بها غيره، لأنّ العبوس ليس من صفات النبيّ صلى الله عليه وآله حتى مع الكافرين السافرين بالعداء له فكيف بالمؤمنين الذين يطلبون الهدايه منه. ثمّ إنّ الآيه تصف هذا الشخص العبوس بأنّه يتصدى للأغنياء وينجذب نحوهم وان كفروا ويعرض عن الفقراء ولا يميل إليهم وإن أرادوا الهدايه، هذه الصفات تتعارض مع أخلاق النبيّ صلى الله عليه وآله وصفاته الكريمة التي ينقلها القرآن فقد وصفه في سورة القلم وَ إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ وهذه الآيه نازله قبل سورة عبس وبعد سورة العلق اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ... فكيف يعقل أنّ الله يعظم خلقه في أوّل بعثته ثمّ يعود فيعاتبه على بعض ما ظهر من أعماله الخلقية ويذمّه. وهناك آيات أخرى تحدّثت بنفس السياق وقد نزلت في أوائل الدعوه، مثل قوله تعالى: وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَ اخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الشعراء: ٢١٤-٢١٥، وقوله تعالى: لا تَمِدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ اخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ الحجر: ٨٨. كلّ ذلك يؤكّد عدم تعقّل العبوس والإعراض عن المؤمنين، وقد أمر باحترامهم وخفض الجناح لهم وأنّ لا يمدّن عيناه إلى دنيا أهل الدنيا. نعم، روى عن الإمام الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام أنّها نزلت في رجل من بنى أميّة كان عند النبيّ صلى الله عليه وآله فجاء ابن أمّ مكتوم، فلمّا رآه تقدّر منه وجمع نفسه وعبس وأعرض بوجهه عنه فحكى الله سبحانه ذلك وأنكره عليه. ويقول العلّامة الطباطبائي في تفسيره: (غرض السورة عتاب من يقدم الأغنياء والمترفين على الضعفاء -

وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَ مَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَا مِنْ اسْتَعْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَ مَا عَلَيْكَ إِلَّا يَزَّكَّى * وَ أَمَا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَ هُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَى * كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ * فِي ضَيْحٍ مُكْرَمٍ * مَرْفُوعٍ مُطَهَّرٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۱ . فما دام ذلك أمره فما منع قريشاً أن يتابعوه؛ وأن يعينوه على دعوته؟! وبخاصه بعد إذ لانت قلوبهم، وإذ أنستهم السنون ما تدفع إليه المحافظه على القديم البالى من جمود النفس، وإذا رأوا فى دعوه «محمد» جلالاً وكمالاً!

ولكن! أحقاً تُنسى السنون النفوس جمودها ومحافظتها على القديم البالى؟ إنما يكون ذلك عند الممتازين ومن فى قلوبهم نزوع دائم إلى الكمال. هؤلاء ما يزالون حياتهم كلها يقبلون الحقائق التى آمنوا من قبل بها لينفوا ما يعلق بها من زيف بالغه ما بلغت تفاهته. هؤلاء قلوبهم وأفئدتهم وعقولهم كأنها بوتقه دائمه الاتقاد؛ تتقبل كل جديد من الرأى يلقى إليها، فتصهره وتطهره وتنقى خبثه وتستبقى ما فيه من خير وحق وجمال. هؤلاء يلتمسون الحق فى كل شىء وفى كل مكان وعلى كل لسان. لكن هؤلاء فى

كُلُّ أُمَّه وَعَصْرُهُمُ الصَّفْوَةُ الْمُخْتَارَةُ وَهُمْ لِذَلِكَ قَلَّةٌ أَبَدًا. وَهُمْ يَجِدُونَ الْخُصُومَةَ دَائِمًا نَاشِبَةً عَلَى أَشَدِّهَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ذَوِي الْمَالِ وَالجَّاهِ وَالسُّلْطَانِ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ يَخَافُونَ مِنْ كُلِّ جَدِيدٍ أَنْ يَجْنِيَ عَلَى مَالِهِمْ أَوْ جَاهِهِمْ أَوْ سُلْطَانِهِمْ، وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ غَيْرَ هَذِهِ فِي الْحَيَاةِ حَقَائِقَ مَلْمُوسَةً. كُلُّ مَا سِوَى هَذِهِ حَقٌّ إِذَا هُوَ أَدَّى إِلَى مَزِيدٍ مِنْهَا، بَاطِلٌ إِذَا بَعَثَ إِلَى أَصْحَابِهَا أَيْسَرَ ظِلٍّ مِنَ الرِّيْبِ إِزَاءَهَا. رَبُّ الْمَالِ عِنْدَهُ أَنَّ الْفَضِيلَةَ حَقٌّ إِذَا زَادَتْ فِي مَالِهِ، بَاطِلٌ إِذَا حَرَمَتْهُ مِنْهُ، وَأَنَّ الدِّينَ حَقٌّ إِذَا عَرَفَ كَيْفَ يَسْخَرُهُ لِشَهْوَاتِهِ، بَاطِلٌ إِذَا وَقَفَ فِي وَجْهِ هَذِهِ الشَّهْوَاتِ وَحَطَّمَهَا. وَرَبُّ الْجَّاهِ وَرَبُّ السُّلْطَانِ فِي ذَلِكَ كَرَبُّ الْمَالِ سِوَاءً. وَهَؤُلَاءِ فِي خُصُومَتِهِمْ لِكُلِّ جَدِيدٍ يَخَافُونَ مِنْهُ يَسْتَعِدُونَ السُّوَادَ الَّذِي يَفِيدُ مِنْهُمْ رِزْقَهُ عَلَى الْمَنَادَى بِهَذَا الرَّأْيِ الْجَدِيدِ. وَهُمْ يَسْتَعِدُّونَ السُّوَادَ بِتَقْدِيرِ الصُّرُوحِ الْقَدِيمَةِ، الَّتِي نَخَرُ السُّوسَ فِيهَا بَعْدَ أَنْ فَرَ الرُّوحَ مِنْهَا. وَهُمْ يَقِيمُونَ هَذِهِ الصُّرُوحَ هِيَ كُلُّ مَنْ مِنَ الْحَجَرِ لِيُزْعِمُوا لِلْسُّوَادِ الْبَرِيءِ أَنَّ الرُّوحَ الْمُقَدَّسَ، الَّذِي لَفُوهُ هُمْ فِي أَكْفَانِهِ، مَا يَزَالُ فِي جَلَالِهِ بَيْنَ مَحْبَسِ هَذِهِ الْهِيَائِ كُلِّهَا. وَالسُّوَادُ يَنْصُرُهُمْ أَكْثَرَ الْأَمْرِ؛ لِأَنَّهُ يَنْظُرُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ إِلَى رِزْقِهِ، وَلَا يَسْهَلُ عَلَيْهِ أَنْ يَدْرِكَ أَنَّ أَيْهَ حَقِيقَتِهِ لَا تَطِيقُ أَنْ تَبْقَى حَيِّسَةً بَيْنَ جَدْرَانِ مَعْبَدٍ مِنَ الْمَعَابِدِ بِالْغَايَةِ مَا بَلَغَ جَمَالَهُ وَجَلَالَهُ، وَأَنَّ فِي طَبْعِ الْحَقِيقَةِ أَنَّ تَكُونَ حَرَّةً طَلِيقَةً تَغْزُو النُّفُوسَ وَتَغْذُوهَا، لَا تَفْرُقُ فِيهَا بَيْنَ نَفْسِ سَيِّدٍ وَنَفْسِ عَبْدٍ، وَلَا يَقِفُ نِظَامٌ مِنَ النِّظَمِ فِي سَبِيلِهَا بِالْغَايَةِ مَا بَلَغَتْ قَسْوَتَهُ وَبَطْشَ أَصْحَابِهِ فِي حِمَايَتِهِ. فَكَيْفَ تَرِيدُ بِهِؤُلَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَتَسَلَّلُونَ لَوَادًا (١) يَسْتَمْعُونَ إِلَى الْقُرْآنِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَهُوَ يُؤَاخِذُهُمْ فِي كَثِيرٍ مِمَّا يَرْتَكِبُونَ، هُوَ لَا يَفْرُقُ بَيْنَ الْأَعْمَى وَمَنْ اسْتَعْنَى إِلَّا

ص: ٢٤٥

١- (١) لاذ به لواداً ولياداً؛ أى لجأ إليه وعاذ به - الصحاح، الجوهري: ٥٧٠/٢.

بطهاره النفس لا- بكثره المال، وهو ينادى الناس جميعاً: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ١ . فإذا ظلَّ أبو سفيان ومن معه على دين آبائهم، فليس ذلك إيمان منهم به بحقّ يحتويه، بل هو حرص على نظام قديم أقامه ثمّ أفاء الحظّ عليهم في ظلّ هذا النظام من بسطه المال والجاه ما يحرصون عليه ويحاربون الحياه كلّها دونه.

وإلى جانب هذا الحرص كان يقوم الحسد والتنافس والتنازع مانعاً من إقبال قريش على متابعه النبيّ. كان أميّه بن أبي الصلت ممّن حدّثوا عن نبيّ يقوم في العرب قبل ظهور «محمّد» حتى طمع في النبوه؛ وأكلت قلبه الغيره حين لم ينزل الوحي عليه، فلم يرض أن يتابع من ظنّه منافسه مع غلبه الحكمه على شعره، حتى قال عليه السلام يوماً وهذا الشعر يروى أمامه: «أميّه آمن شعره وكفر قلبه» (١). وكان الوليد بن المغيره يقول: «أينزل على محمّد وأترك أنا كبير قريش وسيدها ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيّد ثقيف نحن عظيمي القريتين؟!» (٢). وإلى هذا أشار قوله تعالى: وَ قَالُوا لَوْ لَّا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ * أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ٤ . ولما استمع أبو سفيان وأبو جهل والأخنس إلى القرآن ثلاث ليالٍ متتابعه في القصه التي رويها ذهب الأخنس إلى أبي جهل في بيته فسأله: يا أبا الحكم، ما رأيت فيما سمعنا من «محمّد؟!» فكان جواب أبي جهل: «ماذا سمعت؟: تنازعنا نحن وبنو عبدمناف الشرف، أطعموا فأطعمنا،

ص: ٢٤٤

١- (٢) البدايه والنهايه: ٢٨٧/٢، السيره النبويه لابن كثير: ١٣٨/١.

٢- (٣) السيره النبويه لابن هشام: ٣٦١/١، السيره النبويه لابن كثير: ٥٤/٢، مجمع البيان: ٧٨/٩-٧٩.

وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا مَنَّا نبيُّ يأتيه الوحي من السماء! فمتى ندرك مثل هذه؟! والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدّقه»(١). وللحسد والتنافس والتنازع في هذه النفوس البدويه من عميق الأثر ما يُخطئ الإنسان إذا هو حاول الاغضاء عنه أو لم يقدره حق قدره. ويكفى أن تذكر ما لهذه الشهوات على النفوس جميعاً من سلطان، لتقدّر أن التخلّص من أثرها يجب أن يسبقه تهذيب طويل يُصقل الفؤاد، ويرفع حكم العقل على نزعات الهوى، ويسمّو بالعاطفه وبالروح إلى مرقى يجعلك ترى الحقيقه على لسان خصمك، بل عدوك هي الحقيقه على لسان حميمك ووليّك، وتؤمن بأنك أكثر غنى بمملك الحقيقه منك بمال قارون وجاه الاسكندر ومُلك قيصر. هذه مكانه قلّ من يصل إليها إلّا من هدى الله قلبه للحق. أمّا سائر الناس فتعميهم العاجله من مال ونشب(٢)، ويعميهم الاستمتاع باللحظه التي يعيشون فيها، عن الارتفاع إلى هذه المعانى. وهم فى سبيل هذه العاجله واقتناص تلك اللحظه يحاربون ويقاتلون، لا يحول شىء دون أن ينشب أحدهم أظفاره وأنيابه فى عنق الحق والخير والفضيله، وأن يدوس تحت أقدام دنسه أظهر معانى الكمال. ما بالك بهؤلاء العرب من قريش وهم يرون «محمّداً» يزداد أنصاره كلّ يوم عدداً، ويخشون يوماً يكون للحقّ الذى يعلنه السلطان عليهم وعلى من يدين لهم بالطاعه، ويمتد من وراء ذلك إلى العرب فى مختلف أنحاء الجزيره! دون هذا قطّ الرقاب إذا استطاعوا قطعها. ودون هذا الدعايه والمقاطعه والحصار والتعذيب والتنكيل

ص: ٢٤٧

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٣١٦/١، تاريخ الإسلام للذهبي: ١٦١/١.

٢- (٢) النشب: المال الأصيل كتاب العين: ٢٦٩/٦.

يَصْبُونَهُ عَلَى هَامِ خُصُومِهِمْ صَبًّا.

وسبب ثالث منع قريشاً من متابعه محمّداً. ذلك فزعهم من البعث ومن عذاب جهنّم يوم الحساب (١). فقد رأيتهم قوماً مكبين على اللّهُ مسرفين فيه يتخذون من التجاره ومن الربّاء إليه الوسيله، ولا يرى الغنى منهم فى شىء من الأشياء رذيله يتجافى عنها. ثمّ كان لهم من التقرب إلى أصنامهم ما يزعمون أنّه يكفّر عن سيئاتهم وذنوبهم. بحسب الرجل أن يضرب القداح عند هبل قبل أن يقدم على أمر ليكون ما تشير به عليه القداح أمر هبل (٢). وبحسبه أن ينحر للأصنام لتمحو الأصنام سيئاته وذنوبه! هو فى حلّ من أن يقتل وينهب ويرتكب الفحشاء ولا يعفّ عن الخنا (٣) ما دام قديراً على رشوه هذه الآلهة بالقرابين والنحور! وهذا «محمّد» يعلن إليهم فى آيات مرعبه تنخلع من هولها القلوب وتضطرب الأفئده أن ربّهم لهم بالمرصاد، وأنهم مبعوثون فى اليوم الآخر خلقاً جديداً، وأن أعمالهم هى وحدها الشفيعه (٤) لهم: فإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ * وَوَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْنَا * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجْرَةُ ٥. والصاخه تجىء: يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ * وَلَا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبْصِرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ

ص: ٢٤٨

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٣١٦/١.

٢- (٢) تفسير الرازى: ١٣٥/١١، تفسير الطبرى: ٤١٥/٤، مجمع البيان: ٢٧٢/٣.

٣- (٣) الخنا من الكلام: أفحشه - كتاب العين: ٣١٠/٤.

٤- (٤) حصر الشفاعة فى الأعمال ونفيها عمّا سواها، ينافى كثيراً من الأحاديث النبويه الشريفه الصحيحه والثابته و كثيراً من أخبار أئمه أهل البيت عليهم السلام، بل وإشارات من القرآن الكريم قبل ذلك، راجع سلسله فى رحاب أهل البيت العدد (٩) الصادر عن المجمع العالمى لأهل البيت عليهم السلام.

لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِنَبِيِّهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَ أَخِيهِ * وَ فَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ * كَلَّا إِنَّهَا لَأُظَى * نَزَاعَهُ لِلشَّوَى * تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلَّى * وَ جَمَعَ فَأَوْعَى ١ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَهُ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيهِ * إني ظننتُ أَنني مُلاقٍ حَسَابِيهِ * فَهُوَ فِي عِيشِهِ رَاغِبًا * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أُسْرِفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * وَ أَمَا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَسْرٍ مَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيهِ * وَ لَمْ أَذِرْ مَا حَسَابِيهِ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أُغْنِي عَنِّي مَالِيهِ * هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ * خُدُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَ لَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ * فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَ لَا طَعَامَ إِلَّا مِنْ غَشِيلِينَ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ٢ . أتلوت هذا؟! أسمعته؟ ألم يأخذك الهول ويتولك الفرع؟ وليس هذا إلا قليلاً مما كان ينذر محمداً به قومه. وأنت تتلوه اليوم وقد تلوته وسمعته من قبل مرات. وأنت تعيد إلى ذهنك إذ تتلوه ما في القرآن من تصوير جهنم:

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَ نَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ٣ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ٤ . يسيرٌ عليك إذ ترى روع نفسك أن تقدر ما كان يتولى قريشاً والمترفين منها خاصة، إذ كانوا يستمعون إلى هذا القول بعد إذ كانوا من قبل ما ينذرهم به من العذاب بنجوه في حمى آلهتهم وأوثانهم.

ويسيرٌ بعد ذلك أن تقدر مبلغ حماستهم في تكذيب «محمداً» والدعاية ضده ومناواته والتأليب عليه. فهم لم يكونوا يعرفون البعث ولم

يكونوا يعترفون بما يسمعون عنه. لم يكن أحدهم ليتوهم أنه مجزى عن عمل هذه الحياه بعد مفارقتة الحياه، إنما كان خوفهم من المستقبل في هذه الحياه. كان خوفهم من المرض ومن الاصابه في الأموال والبنين وفي المكانه والجاه. كانت الحياه عندهم غايه الحياه، فكان كل همهم منصرفاً لجمع كل أسباب الاستمتاع فيها ودفع كل ما يخشونه منها. وإذا كان المستقبل غيباً محجوباً أمامهم، وكانت نفوسهم تحس أن من أعمالهم شراً قد يصيبهم الغيب من أجله بأذى، فقد كانوا يتفاءلون ويتطيرون، وكانوا يضربون القداح، وكان عندهم السانح والبارح، وكانوا ينحرون للأوثان، كل ذلك يدعون به ضد ما يخافون من هذا المستقبل القريب في الحياه. أميا الجزاء بعد الموت! أميا البعث والنشور يوم ينفخ في الصور! أميا الجنه التي أعدت للمتقين وجهنم التي أعدت للظالمين! أما ذلك كله فلم يكن يدور بخاطرهم، وذلك كله قد سمعوا به في دين اليهود وفي دين النصارى، ولكنهم لم يسمعوا عنه تصويراً قوياً رهيباً كالذى يسمعه الوحي على لسان «محمّد»، والذى يُنذرههم، إن هم ظلّوا فيما هم فيه من لهو الحياه، أو الاستكثار من المال بظلم الضعيف وأكل مال اليتيم وإهمال المسكين والغلو في الربا، بعذاب خالد في درك سقر تصطك القلوب فزعاً من هولته لمجرد سماع صورته، ما بالك به مُحققاً تراه البصيره جاثماً وراء الخطوه الضيقه التي يتخطى الإنسان من جانب الحياه إلى ناحيه الموت، بعده البعث والنشور والرّضا أو الثبور.

أمّا ما وعد الله المتقين جنه عرضها السموات والأرض، لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلاّ قليلاً سلاماً سلاماً، فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين، فكانت قُريش في ريب منها، وكان يزيدُها ريباً تعلقها بالعاجله وحرصها على أن ترى هذا النعيم محققاً لها في حياه هذا العالم، وضيقتها بالانتظار إلى

يوم الجزاء على حين لم تكن هي تؤمن بيوم الجزاء.

ولقد يأخذ الإنسان العجب كيف أفقلت قلوب العرب دون تصوّر الحياه الأخرى والجزاء فيها في حين لا تزال معركة بين الخير والشرّ قائمه أمام هذا العالم الإنساني منذ الأزل لم تعرف يوماً هواده ولا هي اطمأنت يوماً إلى سكينه. كان المصريون القدماء قبل أُلوف السنين من بعث محمّد يزودون الميت بزاد الدار الآخره ويضعون معه في أكفانه كتاب الموتى وأغنياته ونذره، ويصورون على معابدهم صور الميزان والحساب والتوبه والعقاب. وكان الهنود يصوِّرون رضا النفس الراضيه في «النرفانا» وتناسخ روح المسىء في صور من الخلق تتعذب أثناءها الوف السنين وملايينها حتى تُلهم الحق فتطهر وتعود كره أخرى إلى الخير طمعاً في بلوغ «النرفانا»⁽¹⁾. ولم يكن مجوس فارس لينكروا معركة الخير والشرّ وآلهه الظلمه والنور. والموسويّه والعيسويّه تصفان حياه الخلد ورضا الله وغضبه.

أفلم يبلغ هؤلاء العرب شيء من ذلك كلّ وقد كانوا أهل تجاره يتصلون في رحلاتهم وأسفارهم بأهل هذه النحل جميعاً؟! وكيف لا يبلغهم وكيف لا تكون لهم صوره خاصه منه وهم أهل باديه أشدّ اتصالاً باللانهايه وأقرب لتصوّر ما يشتمل عليه هذا الوجود من أرواح تتبدّى في لهب الظهيره وفي غسق الليل؟! أرواح خيره وأخرى شريره! أرواح هي التي يحسبونها تسكن جوف الأصنام التي تقربهم إلى الله زلفى. لا ريب أنّه كانت عندهم فكره من

ص: ٢٥١

١- (١) الفناء في الذات العُلّيا أو الإتحاد بها، وتلتمس بأن يسلك المرء طريقاً ذا ثمانى مراحل يُعرف ب (الطريق الثمانى النبيل) حتّى إذا تمّ له ذلك تحرّر من الألم ونعم بالطمأنينه والسعاده القصوى ولفظه «نرفانا» سنسكريتيه الأصل ومعناها الفناء. عن موسوعه المورد لمنير البعلبكي: ١٣٥/٧ ماده «نرفاتا».

هذا الغيب المحيط بهم. لكنهم كأهل تجاره، كانت نفوسهم أكثر للواقع المحسوس قدراً؛ وكأهل لهو وخمر أشدّ لجزاء الآخرة إنكاراً. فكانوا يحسبون ما يلقاه الإنسان في هذه الحياه من خير أو شرّ جزء عمله ولا جزء عنه بعد الحياه. ولذلك كان أكثر ما نزل من الوحي نذيراً وبشيراً قد نزل بمكّه في أوّل الرساله، حرصاً على الخلاص لأرواح هؤلاء الذين بعث «محمّد» بينهم. ولقد كان جديراً بأن ينبههم إلى ما هم فيه من غيّ وضلاله؛ جديراً بأن يرتفع بهم من عباده الأصنام إلى عباده الله الواحد القهار.

وفي سبيل هذا الخلاص الروحي لأهله وللناس كافة احتمل «محمّد» من آمن به من ألوان الأذى وصور التضحيه، ومن آلام النفس والجسد، ومن الارتحال عن الوطن، ومن عداوه الأهل والولد، ما مرّ بك شيء منه. وكأنما كان «محمّد» يزداد لأهله حباً وعلى خلاصهم حرصاً كلما ازدادوا إيذاء ومساءه. ويوم البعث والحساب كان آيه الآيات التي يجب أن يتبّهوا لها، لتنفذهم من شرّ وثبتهم ومن التورط في آثامهم. ولذلك لم يكن الوحي في السنوات الأولى يفتر عن إنذارهم بها وتفتيح عيونهم عليها، برغم إمعانهم في إنكارها وفي الازورار عنها، ممّا دعاهم إلى إشعال هذه الحرب الضروس التي لم تهدأ بينهم وبين «محمّد» ثائرتها، حتى تمّ للإسلام النصر، وحتى أظهر الله دينه على الدين كلّه.

الفصل الثامن: من نقض الصحيفة إلى الإسراء

فرار المسلمين من مكة إلى شعاب الجبل، عدم اختلاطهم بالناس إلّا في الأشهر الحرم، قيام زهير وأصحابه في نقض الصحيفة، وفاه أبي طالب وخديجه، إيذاء قُريش محمّداً، ذهاب محمّد إلى الطائف وردّ ثقيف إيّاه، الإسراء والمعراج

ظلت الصحيفة التي تعاقدت قُريش فيها على مقاطعه «محمّد» وحصار المسلمين نافذه ثلاث سنوات متتابعه، احتتمى «محمّد» وأهله وأصحابه خلالها في شّعب من شعاب الجبل خارج مكة، يعانون الحرمان ألواناً، ولا يجدون في بعض الأحيين وسيله إلى الطعام يدفعون به جوعهم.

ولم يكن يتاح ل «محمّد» ولا للمسلمين الاختلاط بالناس والتحدث إليهم إلّا في الأشهر الحرم، حين يفد العرب إلى مكة حاجّين، وحين تضع الخصومات أوزارها، فلا قتل ولا تعذيب ولا اعتداء ولا انتقام. في هذه الأشهر كان

«محمّد» ينزل إلى العرب يدعوهم إلى دين الله ويبشّرهم بثوابه ويُنذّرهم عذابه. وكان ما أصاب «محمّداً» من الأذى في سبيل دعوته شفيعه عند كثيرين؛ كانوا يسمعون من ذلك ما يزيدهم عليه عطفاً وعلى دعوته إقبالاً.

وهذا الحصار الذي أوقعته قُريش واحتماله إيّاه صابراً في سبيل رسالته، كسب له كثيراً من القلوب التي لم تبلغ منها القسوه ما بلغت من قلب أبي جهل وأبي لهب وأمثالها(١).

على أنّ طول الزمن وكثره ما أصاب المسلمين من عنت قُريش، وهم منهم وإخوانهم وأصهارهم وأبناء عموماتهم، جعل كثيرين يشعرون بفداحه ما ارتكبوا من ظلم وقسوه؛ فلولا أن كان من أهل مكّه رجال لهم على المسلمين عطف يحملون إليهم الطعام في الشّعب الذي احتموا به لهلكوا جوعاً. وكان هشام بن عمرو من أحسن قُريش في هذا الظرف عطفاً على المسلمين. كان يأتي بالبعير قد أوقره طعاماً أو بزاً فيسير به جوف الليل، حتى إذا استقبل فم الشّعب خلع خطامه ثمّ ضرب على جنبه فدخل البعير الشّعب عليهم(٢). ولما ضاق بما يحتمل «محمّد» وأصحابه من الأذى صدرأ، مشى إلى زهير بن أبي أميّة، وكانت أمّه عاتكه بنت عبدالمطلب، فقال: يا زهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء وأخوالك حيث قد علمنا، لا يبتاعون ولا يبتاع منهم ولا- ينكحون ولا- ينكح إليهم! أما إنّي أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثمّ دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبداً. وتعاهد الرجلان على نقض الصّحيفه، على أن

ص: ٢٥٤

-
- ١- (١) تاريخ الطبري: ٥٥٠/١-٥٥٥، والطبقات الكبرى لابن سعد: ٢٠٨/١-٢٠٩، وإعلام الوري: ١٢٥/١.
 - ٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٣٧٤/١. بل هو حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد، تاريخ الطبري: ٥٥٠/١.

يستعينوا على ذلك بغيرهم يقنعونهم به سراً. واتفق معهما المطعم بن عدى وأبوالبختری بن هشام وزمعه ابن الأسود. وأجمع الخمسة أمرهم وتعاهدوا على القيام فى أمر الصحيفه حتى ينقضوها. وغدا زهير بن أميه فطاف بالبیت سبعا ثم نادى فى الناس: يا أهل مكه، أناكل الطعام ونلبس الثياب وبنوهاشم هلکى لا يتعاون ولا يتتاع منهم. والله لا أقعد حتى تنشق هذه الصحيفه القاطعه الظالمه. وما كان أبو جهل يسمعه حتى صاح به: كذبت والله لا تنشق! فتجاوبت أصوات زمعه وأبى البختری والمطعم وهشام بن عمرو كلهم يكذبون أباجهل ويؤيدون زهيراً. وأدرك أبو جهل أن الأمر قُضى بلیل، وأن القوم اتفقوا عليه، وأن مخالفتهم قد تثير شراً، فأوجس خيفه وتراجع. وقام المطعم ليشق الصحيفه فوجد الأرضه قد أكلتها إلفاتحتها «باسمك اللهم» (١)(٢). وبذلك أُتيح ل «محمد» وأصحابه أن يعودوا من الشعب إلى مكه

ص: ٢٥٥

١- (١) سيره ابن هشام: ٣٧٥/١-٣٧٦، إعلام الوری: ١٢٧/١.

٢- (٢) وهناك تصوير آخر لمسأله الصحيفه: لقد عزم أبو طالب مع ابن أخيه (محمد صلى الله عليه وآله) على مواجهه قرارات المقاطعه، وتلقاها بقوه وصبر عظيمين، ولم يستجب لضغوطات قريش، وكان لأبى طالب دور رسالى بارز أثناء حضور المسلمين فى الشعب. فقد كان يراقب فراش الرسول فى كل ليله لئلا يتعرض النبى صلى الله عليه وآله لسوء من قبل قريش. وتراه عند نيام المسلمين فى الليل كان يأمر أبناءه وإخوانه أو بنى عمه أن يضطجعوا على فراش الرسول، ويريد من الرسول صلى الله عليه وآله أن يرقد على بعض فرشهم، وابتغى أبوطالب من هذا الأسلوب أن يحافظ على حياه الرسول من الخطر. كما روى ابن اسحاق ونقله الأمينى فى الغدير: (٤٠٤/٧). وبعد أن مضى زمن طويل على المحاصره فى داخل الشعب؛ جاء النبى يوماً إلى أبى طالب باعتباره القطب الذى تدور حوله فعاليات الشعب وقال له: بأن الله قد أخبره بأن الأرضه قد أكلت الصحيفه - أى وثيقه قرارات المقاطعه - ولم تدع شيئاً منها إلا اسم الله. وكان أبو طالب يدرك هذا المعنى، كما أنه كان يثق بقول رسول الله ويصدقه مطلقاً، لذا تحرّك أبو طالب نحو -

وأن يبيعوا قريشاً ويبتاعوا منها، وإن بقيت صلوات الفريقين كما كانت وبقي كل منهم متحفزاً ليوم يستعلى فيه على صاحبه (١).

ذهب بعض كتّاب السير: إلى أنّ الذين قاموا في نقض الصحيفة ممّن كانوا لا يزالون على عباده الأوثان، ذهبوا إلى «محمّد» يسألونه، منعاً للشرّ، أن يتصالح وقريشاً على شيء، كأنّ يسلم بالهتهم ولو يطوف بأصابعه؛ فمالت نفسه إلى شيء من هذا تقديراً لجميلهم، وقال فيما بينه وبين نفسه:

«وما عليّ لو فعلت والله يعلم أنّي بارٌّ» (٢) أو إلى أن هؤلاء الذين نقضوا الصحيفة وجماعه معهم خلوا ب «محمّد» ذات ليله إلى الصبح يكلمونه ويفخّمونه ويسوّدونه

ص: ٢٥٦

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٣٧٥-٣٧٦، وإعلام الوري: ١٢٩/١.

٢- (٢) ما هو موجود في المصادر: «وما عليّ لو فعلت والله يعلم أنّي لكاره» تفسير الفخر الرازي: ٢٠/٢١، وتفسير الطبري: ١١٨/٨، أو «ما عليّ لو فعلت والله يعلم مني خلافه؟» تفسير الدر المنثور: ٣٥٢/٤.

ويقاربونه ويقولون له: أنت سيّدنا، يا سيّدنا؛ وأنهم مازالوا به حتى كان يقاربهم في بعض ما يريدون(1). وهاتان الروايتان هما بعض ما حدّث به سعيد

ص: ٢٥٧

١- (١) وهذا الكلام مردود من عدّه وجوه: أولاً: لم يذكر أحد من المؤرخين ولا من المفسرين بأن هؤلاء الذين نقضوا مقررات الصحيفه قد ذهبوا إلى النبيّ صلى الله عليه وآله كهيئه مساعى تُصلح بينه وبين قريش والنبيّ تعاطف مع نواياهم فمالت نفسه لطلبهم تقديراً لرّد جميلهم المتمثّل بنقض الصحيفه. ثانياً: العبارات التي ساقها المؤلف ينقلها المفسرون وأصحاب التواريخ في جماعه من ثقيف حين لمس النبيّ صلى الله عليه وآله الحجر الأسود فمنعته قريش وقالوا: لا ندعه حتى يلمّ بالهتها فحدّث نفسه. تاريخ الطبرى: ١٨/٨. وهذه الجماعه لا صله لها بمسأله النفر الذين اخترقوا مقرّرات الصحيفه من هنا ينبغى التفريق بين النفر الذين هم من ثقيف وبين النفر الذين اخترقوا مقرّرات الصحيفه. ثالثاً: لم نجد من المصادر التفسيريه أو التاريخيه المعتبره ما يشير إلى علاقه أسطوره الغرائق التي سبقت الإشارة إليها وهى من الخرافات فى نظر المؤلف مع العرض القريشى الجديد وميل النبيّ صلى الله عليه وآله إليه. رابعاً: تناول المفسرون ميل النبيّ صلى الله عليه وآله لمقترح المشركين تحت تفسير قوله تعالى: لَوْ لَا أَنْ تَبْنَاكَ لَفَعَدَ كَذَبَتْ تَزَكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً... مستقلاً عن أى حدث سوى الطرح الذى تقدّم به النفر من ثقيف سابق الذكر فلا ينبغى الخلط بين هؤلاء الذين من ثقيف مع مسائل أخرى لا صله لها بالحدث. خامساً: وحتى الطبرى فى تاريخه لم يُصرّح بهذا الربط وحسب الظنّ أنّ المؤلف قد اعتمده لأنّه الأقرب لهذا التصوير علماً أنّ نقل الطبرى قد ساد الاضطراب والخلخله فقد يوحى للقارئ من خلال تسلسله لذكر الأحداث ابتداءً من مبادره حكيم بن حزام الذى اخترق مقرّرات الصحيفه فعلاً بنقله الطعام إلى خديجه التي كانت داخل الشّعب سرّاً عن طريق غلامه وذكر الطبرى بعدها مباشرة فكره الدمج بين الوثنيه والتوحيد التي اقترحها البعض من قريش ونزول قوله تعالى: قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ... إلى أنّ ذكر فيما بعد قصه الغرائق، وهذا التشويش من قبل الطبرى أملى على هيكل هذا الربط بين الأحداث لينتهى بأنّ هذا الحدث دفع بالنبيّ صلى الله عليه وآله أن يتعاطف معهم ومن الواضح أنّه لا- ربط بين الأحداث وإن وجد فلا- أحد يقول بأنّ النبيّ قد حدّث نفسه بالميل إلى المشركين. سادساً: لا معنى لتوجيه النصوص والأحداث التاريخيه وترقيعها بهذه الطريقه لأجل أنّ تلائم الأذواق كما لا مصلحه سوى التهاون وعدم التدقيق بالنصوص، نعم تعميق هذه الأفكار يمهد ذهن القارئ لأن يقبل نصوص أخرى تُسىء لنبىّ الرّحمه أو تتناوله صلى الله عليه وآله كشخص عادى. سابعاً: النبيّ صلى الله عليه وآله أرفع من أن تميل نفسه فيتنازل عن شعار التوحيد الذى طالما قاتل من أجله وحارب الأقربين وهو قبل فتره وجيزه على مبنى المؤلف فى ذكره الأحداث قد أجاب عمّه أبا طالب - حول الطرح -

ابن جبير في الأولى وقتاده في الثانيه. ويذكرون أن الله عصم محمداً بعد ذلك وأنزل عليه قوله: وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلاً * وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتَنَّاكَ لَقَد كُنَّا مِنْهُمْ شَيْئاً قَلِيلاً * إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ١١. وهذه الآيات قد نزلت في رأى أصحاب قصه الغرائيق في تلك القصه المكذوبه كما قد رأيت (١). وهذان المحدثان يردانها إلى قصه نقض الصحيفه. وقد نزلت هذه الآيات في حديث عطاء، عن ابن عباس في وفد ثقيف، إذ طلبوا إلى «محمداً» أن يحرم واديهم كما حرمت مكة، شجرها وطيرها ووحشها، فتردد النبي عليه السلام حتى نزلت (٢). ومهما تكن الحقيقه الثابته التي لا تختلف الروايات عليها للواقعه أو الوقائع التي نزلت الآيات فيها، فإنها تصوّر ناحيه من نواحي العظمه النفسيه

ص: ٢٥٨

١- (٢) راجع الفصل السادس قصه الغرائيق: ٢١٧.

٢- (٣) ويضاف هنا في الرد على مزعومه الغرائيق الخرافيه حين يستدل مرّوجوها بقوله تعالى: وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ... حيث يقولون إنها نزلت في هذه المناسبه.. فإن هذه الآيات تناقض وتنافي هذه القضية؛ فكيف تكون قد نزلت من أجلها؟! إذ إنها تقول: إنه لم يركن إليهم، بل لم يقرب إلى الركون إليهم، وأن الله قد ثبته، وأنه لو ركن لعوقب.. وقضيه الغرائيق تقول: إنه قد زاد على الركون، فاستجاب، وافترى، وأدخل في القرآن ما ليس فيه. ومعنى الآية: أن المشركين قد أصروا على أن يتركهم وشأنهم، وتفاوضوا معه ومع أبي طالب كثيراً، فلربما يكون النبي صلى الله عليه وآله قد فكر في أن يمهلهم قليلاً لعلهم يفكرون ويرجعون؛ فجاءت الآية لتقول له: إن الصلاح في عدم الامهال، بل في الشده... سوى هذا كله... فإنهم يقولون: إن آيات سوره الإسراء قد نزلت في ثقيف، حينما اشترطوا لإسلامهم شروطاً تزيد في شرفهم. وقيل: نزلت في قريش حينما منعتهم من استلام الحجر، تفسير البيضاوى: ٣/٤٦٠ وقيل: نزلت في يهود المدينه، عندما طلبوا منه أن يلحق بالشام. وقد اقتصر القاضى البيضاوى على هذه الوجوه...

ل «محمد» كما تصوّر صدق إخلاصه تصويراً قوياً. وهذه الناحية تصوّرها كذلك الآيات التي نقلنا من سوره «عبس»؛ ويشهد بها تاريخ «محمد» كله.

تلك أنّه كان يصارح الناس بأنه بشر مثلهم يوحي ربّه إليه لهدايتهم، وأنّه وهو بشر مثلهم معرّض للخطأ لولا عصمه الله إياه. فهو قد أخطأ حين عبس لابن أمّ مكتوم وتولّى عنه (1)، وهو قد كاد يخطئ فيما نزلت آيات الإسراء بشأنه، وكاد يفتن عن الذى أوحى إليه ليفترى غيره. فإذا نزل عليه الوحي يتبّه إلى ما صنع فى أمر الأعمى. وفى أمر هذه الفتنة التى كادت قريش تدفعه إليها، صدق فى تبليغ هذا الوحي إلى الناس صدقه فى تبليغ رسالات ربّه، ولم يقف حائل من أنفه أو كبرياء ولا وقف اعتبار إنسانى، حتى ممّا يسىغ الفضلاء، دون إعلان هذا الحقّ فى أمر نفسه. فالحقّ إذاً، والحقّ وحده كان رسالته. وإذا كان احتمال أذى الغير فى سبيل ما تؤمن به بعض ما تطيق النفوس الكبيره، فإنّ إقرار العظيم بأنه كاد يُفتن ليس ممّا أُلّف الناس حتى من العظماء؛ إنّما يخفى هؤلاء أمثال ذلك من الأمر ويكتفون بحساب النفس عليه ولو حساباً عسيراً. فهو شىء إذاً أكبر من العظمه وأعظم من كلّ عظيم، ذلك الذى يتيح للنفس هذا السموّ فتكشف عن الحقّ كله. ذلك الشىء الأكبر من العظمه والأعظم من كلّ عظيم هو صدق الاخلاص فى إبلاغ رساله الحقّ جلّ شأنه.

عاد «محمد» ومن معه من الشّعب بعد تمزيق الصحيفة، وجعل من جديد يذيع دعوته فى مكّه وفى القبائل التى تجىء إليها فى الأشهر الحرم.

ومع ما ذاع من أمر «محمد» بين قبائل العرب جميعاً وما كان من كثره الذين

ص: ٢٥٩

١- (١) كيف يجتمع هذا الكلام من المؤلف مع قول المؤلّف نفسه: معرّض للخطأ لولا- عصمه الله إياه؟! انظر الهامش (١) من الصفحه (٢٤٣) الذى ناقشنا فيه زعم خطأ النبىّ صلى الله عليه و آله فى تعامله مع ابن أمّ مكتوم.

اتبعوه، فإنه ظلّ لا يسلم أصحابه من أذى قريش، ولا يستطيع هو لهم منعاً.

ولم تمض إلّا شهر على نقض الصحيفة، حتى فجأت «محمّداً» فى عام واحد فاجعتان اهتزت لهما نفسه، هما موت أبى طالب وخديجه معاً (١). وكان أبوطالب يومئذٍ قد تيف على الثمانين. فلما اشتكى وبلغ قريشاً أنه موف على ختام حياته خشيت ما يكون بينها وبين محمّد وأصحابه من بعد، وفيهم حمزه وعمر المعروفان بشدّتهما وبطشهما؛ فمضى أشرافها إلى أبى طالب وقالوا له: يا أباطالب، أنت منّا حيث ما قد علمت، وحضرك ما ترى وتخوّفنا عليك. وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك، فادعه فخذ له منّا وخذ لنا منه، ليكفّ عنّا ونكفّ عنه، وليدعنا وديننا وندعه ودينه. وجاء «محمّد» والقوم فى حضره عمّه. فلما عرف ما جاءوا فيه: قال:

نعم كلمه واحده تعطونها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم!! قال أبو جهل: نعم وأبيك، وعشر كلمات. قال:

تقولون: لا إله إلّا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه. قال بعضهم: أتريد يا «محمّد» أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ ثمّ قال بعضهم لبعض: والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً ممّا تريدون (٢). وانطلقوا، وتوفى أبوطالب والأمر بين «محمّد» وقريش

ص: ٢٦٠

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٤١٦/١، وعيون الأثر: ١٥١/١، وإعلام الورى: ١٢٩/١.

٢- (٢) وهنا تدعو الحاجه لأنّ نوجز حياه أبى طالب وعلاقته بالرساله وصاحبها دحضاً للمزاعم التى تحاول الوقيعه بعلّى بن أبى طالب عن طريق الطعن بأبيه من كونه مات كافراً ضمن عدد من النقاط: ١- أبو طالب يدعو الله بسقوط المطر: أصاب مكّه قحطٌ شديد فى سنه من السنين، فطلبت قريش من أبى طالب أن يستسقى لها، فخرج ومعه غلام - وهو رسول الله صلى الله عليه وآله - كأنه شمس دجن تجلّت عنها سحابه قتماء وحوله أغيلمه، فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبه، ولاذ الغلام بإصبعه (أى أشار بها إلى السّماء وما فى السّماء قزعه)، فأقبل السّحاب من هاهنا وهاهنا، وأغدق، واغرورق وانفجر له الوادى وأخصب البادى والتّادى (مناقب آل أبى طالب لابن شهر آشوب: ١١٩/١، بحار الأنوار: ٣/١٨، باب معجزاته صلى الله عليه وآله واستجابته دعائه، الغدير: ٣٤٦/٧، سبل -

ومن بعد أبي طالب توفيت خديجه (٢)، خديجه التي كانت سند «محمد» بما توليه من حبها وبرها ومن رقه نفسها وطهاره قلبها وقوه إيمانها. خديجه التي كانت تهون عليه كل شدة وتزيل من نفسه كل خشيه، والتي كانت ملك رحمة يرى في عينيها وعلى ثغرها من معاني الإيمان به ما يزيد إيماناً بنفسه. وتوفى أبوطالب الذي كان ل «محمد» حمى وملاذاً من خصومه وأعدائه. أى أثر تركت هاتان الفاجعتان الأليمتان في نفس محمد عليه السلام!! إنهما لجديرتان بأن تترك أقوى النفوس كلمه (٣) مضععه يدس إليها سموم الضعف، ويدفع إليها الأسى والحزن من لواذع الهم المبرح ما يجعلها تنهد أمامها ولا تفكر فى شىء سواهما.

ما لبث «محمد» بعد أن فقد هذين النصيرين حتى رأى قريشاً تزيد فى إيذائه، وكان من أيسر ذلك أن اعترضه سفيه من سفهاء قريش فرمى على

ص: ٢٤٤

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٤١٧/١، وعيون الأثر: ١٥٢/١، ومناقب آل أبي طالب: ٥٨/١.

٢- (٢) السيره الحلييه: ٣٤٦/١، امتاع الأسماع: ٤٥/١، ومناقب آل أبي طالب: ٦٨/١.

٣- (٣) الكلم: الجرح، والجمع: الكلوم - كتاب العين: ٣٧٨/٥.

رأسه تراباً. أفندرى ما صنع «محمد»؟ دخل إلى بيته والتراب على رأسه؛ فقامت إليه «فاطمه» ابنته وجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكى. وليس أوجع لنفوسنا من أن نسمع بكاء أبنائنا، وأوجع منه أن نسمع بكاء بناتنا. كل دمعه ألم تسيل من مآقي البنت قطره حمم يهوى على قلبنا فينقبض انزعاجاً، حتى لنكاد من شده انزعاجه نصيح ألماً؛ وكل أنه حزن تثير في الحشا وفي الكبد أنات ما أقساها، تختنق لها حلوقنا وتكاد تهوى بالدمع من وقعها عيوننا. وقد كان محمد أبز أب بيناته وأحناه عليهن. فماذا تراه صنع لبكاء هذه البنت التي فقدت منذ قريب أمها، ولبكائها هي من أجل ما أصاب أبها؟! لم يزد ذلك كله إلّا توجهاً بقلبه لله وإيماناً بنصره إياه. قال لابنته وعينها تهمل بالدمع:

لا تبكى يا بتيه فإن الله مانع أباك. ثمّ كان يردد:

والله ما نالت منى قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبوطالب(١).

وكرت مساءات قريش من بعد ذلك ل «محمد» حتى ضاق بهم ذرعاً، فخرج إلى الطائف وحيداً منفرداً لا يعرف بأمره أحد يلتمس من ثقيف النصره والمنعه بهم من قومه ويرجو إسلامهم. لكنّه رجع منهم بشرّ جواب فرجهم ألا يذكروا من استنصاره بهم شيئاً حتى لا- يشمت به قومه. أمّا هم فلم يسمعوا له بل أغروا به سفهاءهم يسبونهم ويصيحون به، ففر منهم إلى حائط لعتبه وشيبهه ابني ربيعه فاحتمى به، فرجع السفهاء عنه. وجلس إلى ظل شجره من عنب وابنا ربيعه ينظران إليه وإلى ماهو فيه من شدّه الكرب. فلما اطمأنّ رفع عليه السلام رأسه إلى السماء ضارعاً في شكايه وألم وقال:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين. أنت ربّ المستضعفين وأنت

ص: ٢٤٥

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٤١٦/١، والطبرى: ٥٥٤/١ والبدايه والنهايه: ٥٠٥/٢-٥٠٦، ومناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب: ٦١/١ وحليه الأبرار: ٦٦/١.

رَبِّي. إِلَى مَنْ تَكَلَّنِي؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمَنِي أَوْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَكَتْهُ أَمْرِي. إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أَبَالِي، وَلَكِنْ عَافَيْتَكَ أَوْسَع لِي. أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ تَنْزِلَ بِي غَضَبِكَ أَوْ تَحِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ. لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ.».

وطال تحديق ابني ربيعه به، فتحركت نفساهما شفقةً عليه. وإشفاقاً من سوء مالمقى، فبعثنا غلامهما النصراني عداساً إليه بقطف من عنب الحائط؛ فلما وضع «محمد» يده فيه، قال:

باسم الله، ثم أكل، ونظر عداس دهشاً وقال: هذا كلام لا يقوله أهل هذه البلاد! فسأله «محمد» عن بلده ودينه؛ فلما علم أنه نصراني نينوي، قال له:

أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ فسأله عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ قال «محمد»:

ذاك أخي كان نبياً وأنا نبي. فأكب عداس على «محمد» يقبل رأسه ويديه وقدميه. وعجب ابنا ربيعه لما رأيا وإن لم يصرفهما ذلك عن دينهما، ولم يمنعهما من التحدث إلى عداس حين عاد إليهما يقولان: يا عداس، لا يصرفنك هذا الرجل عن دينك فهو خير من دينه (١).

وكأن ما رأيا خفف من سخط ثقيف وإن لم يغير من جمودهم عن متابعه النبي، وعرفت قريش الأمر فازدادت ل «محمد» إيذاءً، فلم يصرفه ذلك عن الدعوه إلى دين الله. وجعل يعرض نفسه في المواسم على قبائل العرب يدعوهم إلى الحق ويخبرهم أنه نبي مرسل ويسألهم أن يصدقوه. غير أن عمه عبدالعزيز بن عبدالمطلب أبا لهب لم يكن يدعه؛ بل كان يتبعه أيان

ص: ٢٤٤

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٤١٩/١-٤٢١، والسيره النبويه لابن كثير: ١٤٩/٢-١٥١، وإعلام الوري: ١٣٤/١-١٣٥، وحليه الأبرار: ٨٠/١.

ذهب ويحرض الناس على ألا يستمعوا له (١). ولم يكتف بعرض نفسه على قبائل العرب في مواسم الحج بمكّه، بل أتى كنده في منازلها وأتى كلباً في منازلهم وأتى بني حنيفه وبني عامر بن صعصعه فلم يسمع له منهم أحد، وردّوه جميعاً ردّاً غير جميل. بل ردّه بنو حنيفه ردّاً قبيحاً. أما بنو عامر فطمعوا إذا هو انتصر بهم أن يكون لهم الأمر من بعده؛ فلما قال لهم:

إنّ الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء، لؤوا عنه وجوههم وردّوه كما ردّه غيرهم (٢).

هل أصرت هذه القبائل على عناد «محمّد» لمثل الأسباب التي أصرت قريش من أجلها على عناده؟ لقد رأيت بني عامر وكيف كانوا يطمعون في الملك إذا هم انتصروا وإيّاها. أمّا ثقيف فكان لها رأى آخر؛ فهي فضلاً على أنّها كانت مصيف أهل مكّه لجمال طقسها وحلو أعنابها، قد كانت مستقر عباده اللات وكان لها هناك صنم يعبد ويحجّ إليه (٣). فلو أنّ ثقيفاً تابعت «محمّداً» لفقدت اللات التي عندها مكانتها، ولقامت بينها وبين قريش خصومه تترك لا-ريب أثرها الاقتصادي في موسم الاصطياف. وكذلك كانت لكل قبيلة على محليه اقتصاديه كانت أقوى أثراً في إعراضها عن الإسلام من تعلقها بدينها ودين آباؤها وعباده أصنامها.

زاد عناد هذه القبائل «محمّداً» عزله، كما زاد إمعان قريش في أذى أصحابه ألماً وهمّاً. وانقضى زمن الحداد على خديجه، ففكر في أن يتزوج لعله يجد في زوجه من العزاء ما كانت خديجه تأسو به جراحه. على أنه رأى

ص: ٢٦٧

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٤٢٣/١، والسيره النبويه لابن كثير: ١٥٦/٢.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٤٢٢/١، والسيره النبويه لابن كثير: ١٥٧/٢-١٥٨.

٣- (٣) السيره النبويه لابن هشام: ٨٥/١-٢٢٦.

أن يزيد الأواصر بينه وبين السابقين إلى الإسلام متانته وقربى، فخطب إلى أبي بكر ابنته عائشه. ولما كانت ماتزال طفله في السابعة من عمرها عقد عليها ولم يبن بها إلّا بعد سنتين حين بلغت التاسعه. وفي هذه الأثناء تزوّج من سوده أرملة أحد المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشه وعادوا إلى مكّه وماتوا بها(١). وأحسب القارئ يلمح مافى هاتين الصلتين من معنى يزداد وضوحاً من بعد فى صِلات زواج «محمّد» ومصاهرتة.

فى هذه الفتره كان الإسراء والمعراج. وكان «محمّد» ليله الإسراء فى بيت ابنه عمّه هند ابنه أبى طالب، وكنيتها أمّ هانئ. وقد كانت هند تقول: (إنّ رسول الله نام عندى تلك الليله فى بيتى فصلّى العشاء الآخره ثمّ نام ونمنا. فلمّا كان قبيل الفجر أهبنا رسول الله؛ فلمّا صلّى الصبح وصلينا معه، قال:

يا أمّ هانئ لقد صليت معكم العشاء الآخره كما رأيت بهذا الوادى، ثمّ جئت بيت المقدس فصليت فيه، ثمّ قد صليت صلاه الغداه معكم الآن كما ترين. فقلت له: يا نبىّ الله لا تحدّث بها الناس فيكذبوك ويؤذوك؛ قال:

والله لأحدّثنهموه»(٢).

ويضيف أصحاب الرأى: بأنّ الإسراء والمعراج إنّما كانا بروح «محمّد عليه السلام» إلى حديث أمّ هانئ هذا ما كانت تقول عائشه: ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولكنّ الله أسرى بروحه(٣)، وأنّ معاويه بن أبى سفيان كان إذا سئل عن مسرى الرسول قال: كانت رؤيا من الله صادقه(٤). وهم يستشهدون

ص: ٢٤٨

١- (١) الإصابه: ٣٣٨/٤ و ٣٥٩.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٤٠٢/١، السيره النبويه لابن كثير: ٩٦-٩٧.

٣- (٣) السيره النبويه لابن هشام: ٣٩٩/١.

٤- (٤) السيره النبويه لابن هشام: ٤٠٠/١.

إلى جانب ذلك كله بقوله تعالى في سورة الإسراء: وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ۗ

وفى رأى آخرين أنّ الإسراء من مكّه إلى بيت المقدس كان بالجسد، مستدلّين على ذلك بما ذكر «محمّد» أن شاهده فى البادية أثناء مسراه ممّا سيأتى خبره، وأنّ المعراج إلى السماء كان بالروح (١). ويذهب غير هؤلاء وأولئك إلى أنّ الإسراء والمعراج كانا جميعاً بالجسد (٢). وقد كثرت مناقشات الفقهاء والمتكلمين فى هذا الخلاف حتى كتبت فيه ألوف الصحف. ولنا فى حكمه الإسراء رأى بُدييه، ولسنا ندرى لعلّه قد سبقنا إليه أحد. لكننا قبل أن نبدى هذا الرأى، بل لكى نبديه، يجب أن نروى قصه الإسراء والمعراج على نحو ما جاءت به كتب السيره.

سرد المستشرق درمنجم هذه القصة مستخلصه من مختلف كتب السيره فى عبارته طليه شيقه هذه ترجمتها: «فى منتصف ليله بلغ السكون فيها غايه جلاله وصممت فيها طيور الليل نفسها وسكنت الضوارى وانقطع الغدران وشفير الرياح استيقظ «محمّد» على صوت يصيح به: أيها النائم قم».

وقام فإذا أمامه الملك جبريل وضّاء الجبين أبيض الوجه كيباض الثلج مرسل شعره الأشقر، واقفاً فى ثيابه المزركشه بالدر والذهب ومن حوله أجنحه من كلّ الألوان ترعش، وفى يده دابه عجيبه هى البراق، لها أجنحه كأجنحه النسر، إنحنت أمام الرسول فاعتلاها وانطلقت به انطلاق السهم فوق جبال

ص: ٢٦٩

١- (٢) التفسير الكبير للفخر الرازى: ١٤٧/٢٠.

٢- (٣) التفسير الكبير للفخر الرازى: ١٤٧/٢٠، والإسراء والمعراج بهذا المعنى من متبنيات مدرسه أهل البيت عليهم السلام.

مكّه، ورمال الصحراء متّجهه إلى الشمال... وصحبهم الملك في هذه الرحله، ثمّ وقف بهم عند جبل سيناء حيث كلم الله موسى، ثمّ وقف بهم مرّه أخرى في بيت لحم حيث وُلد عيسى، وانطلقوا بعد ذلك في الهواء في حين حاولت أصوات خفيّه أن تستوقف النبيّ، الذي رأى في اخلاصه لرسالته أن ليس لغير الله أن يستوقف حيث شاء دابته. وبلغوا بيت المقدس، فقَيّد «محمّد» دابته وصلّى على أطلال هيكل سليمان ومعه إبراهيم وموسى وعيسى. ثمّ أتى بالمعراج فارتكز على صخره يعقوب وعليه صعد «محمّد» سراعاً إلى السماوات. وكانت السماء الأولى من فضه خالصه علّقت إليها النجوم بسلاسل من ذهب، وقد قام على كلّ منها ملك يحرسها حتى لا تعرج الشياطين إلى علو عليها، أو يستمع الجنّ منها إلى أسرار السماء. في هذه السماء ألقى «محمّد» التحية على آدم، وفيها كانت صور الخلق جميعاً تسبح بحمد ربّها. والتقى «محمّد» في السماوات الستّ الأخرى بنوح وهارون وموسى وإبراهيم وداود وسليمان وإدريس ويحيى وعيسى، ورأى ملك الموت عزرائيل؛ بلغ من ضخامته أن كان ما بين عينيه مسيره سبعين ألف يوم، ومن سلطانه أن كانت تحت إمرته مائه ألف فرقه، وكان يسجل في كتاب ضخّم أسماء من يولدون ومن يموتون. ورأى ملك الدمع يبكي خطايا الناس، وملك النقمه ذا الوجه النحاسي المتصرف في عنصر النار والجالس على عرش من لهب. وقد رأى كذلك ملكاً ضخماً نصفه من نار ونصفه من ثلج، وحوله من الملائكه فرقه لا تفتر عن ذكر الله قائله: اللهمّ قد جمعت الثلج والنار وجمعت كلّ عبادك في طاعه سنّتك. وكان في السماء السابعه مقر أهل

العدل ملك أكبر من الأرض كلها له سبعون ألف رأس، في كل رأس سبعون ألف فم، في كل فم سبعون ألف لسان، يتكلم كل لسان سبعين ألف لغة، من كل لغة سبعين ألف لهجه، كلها تسبح بحمد الله وتقدس له.

وفيما هو يتأمل هذا الخلق الغريب إذا به ارتفع إلى قمه صدره المنتهى، تقوم إلى يمين العرش وتظل ملايين ملايين من الأرواح الملائكية. وبعد أن تخطى في أقل من لمح البصر بحاراً شاسعه، ومناطق ضياء يعشى وظلمه قاتم وملايين الحجب من ظلمات ونار وماء وهواء وفضاء يفصل بين كل واحد منها وما بعده مسيره خمسمائه عام، تخطى حجب الجمال والكمال والسر والجلال والوحده، قامت وراءها سبعون ألف فرقه من الملائكة سجداً لا يتحركون ولا يؤذن لهم فينطلقون. ثم أحس بنفسه يرتفع إلى حيث المولى جل شأنه، فأخذه الدهش. وإذا الأرض والسماء مجتمعتان لا يكاد يراهما، وكأنما ابتلعهما الفناء فلم ير منهما إلا حجم سمسمة في مزرعه واسعه. وكذلك يجب أن يكون الإنسان في حضره ملك العالم.

ثم كان في حضره العرش وكان منه قاب قوسين أو أدنى، يشهد الله بعين بصيرته، ويرى أشياء يعجز اللسان عن التعبير عنها، وتفوق كل ما يحيط به فهم الإنسان. ومد العلي العظيم يداً على صدر «محمد» والأخرى على كتفه. فأحس النبي كأنه أثلج إلى فقاره، ثم بسكينه راضيه وفناء في الله مستطاب(1).

ص: ٢٧١

١- (١) للعلماء المسلمين ثلاث اتجاهات في هذه المسألة: الأول: قال بالتجسيم والرؤية، والثاني: قال بالرؤية بلا كيفية، والثالث: قال بالتنزيه واستحاله الرؤية، واستدل الأخير على عدم الرؤية من كونها تستلزم التجسيم والتشبيه ويرد في القول على أن إضافته نفي الكيفية أمر صوري لا يمكن الالتزام به لعدم حلّ الاشكال، فيما يعلل الأدلة التي يفهم منها الرؤية أنها تحمل على الرؤية القلبية. وهذا هو ما عليه الإمامية. نعم، اليهود يذهبون إلى القول بالتجسيم ولعل هذا القول تسرب منهم إلى الفكر الإسلامي.

وبعد حديث لم تحترم كتب الأثر المددقه قداسته، أمر الله عبده أن يصلّي كل مسلم خمسين صلاه في كل يوم. فلما عاد «محمّد» يهبط من السماء التقى بموسى، فقال ابن عمران له:

كيف ترجو أن يقوم أتباعك بخمسين صلاه في كل يوم؟ لقد جرّبت الناس قبلك وحاولت مع أبناء إسرائيل كل ما يدخل في الطوق محاولته، فصدّقتني وعُدّ إلي ربّنا واطلب إليه أن ينقص الصلوات.

وعاد «محمّد» فنقّص عدد الصلوات إلى أربعين، وجدها موسى فوق الطاقه، وجعل يرد خليفته في النبوه إلى الله مرّات عدة، حتى انتهت الصلوات إلى خمس.

وذهب جبرئيل بالنبى فزار الجنه التي أُعدّت للمتقين بعد البعث؛ ثمّ عاد «محمّد» على المعراج إلى الأرض، ففكّ البراق وامتطاه وعاد من بيت المقدس إلى مكّه على الدابه المجنّحه»(١).

هذه روايه المستشرق درمنجم عن قصه الاسراء والمعراج. وأنت تقع على ما قصّه منشوراً في كثير من كتب السيره جميعاً، وإن كنت تجد فيها جميعاً خلافاً بزياده ونقص في بعض نواحيها. من ذلك مثلاً ما روى ابن هشام على لسان النبى عليه السلام بعد أن لقي آدم في السماء الأولى، أنّه قال:

«ثمّ رأيت رجالاً لهم مشافر كمشافر الإبل، في أيديهم قطع من نار كالأفهار يقذفونها في أفواههم

ص: ٢٧٢

فتخرج من أدبارهم. فقلت: من هؤلاء يا جبرائيل؟ قال: هؤلاء أكله مال اليتامى ظلماً. ثم رأيت رجالاً لهم بطون لم أر مثلها قط بسبيل آل فرعون يمرّون عليهم كالإبل المهيومه حين يعرضون على النار، يطئونهم لا يقدرّون على أن يتحوّلوا من مكانهم ذلك. قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكله الربا. ثم رأيت رجالاً بين أيديهم لحم سمين طيب إلى جانبه لحم غث منتن، يأكلون من الغث المنتن ويتركون السمين الطيب. قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يتركون ما أحلّ الله من النساء، ويذهبون إلى ما حرّم الله عليهم منهن. ثم رأيت نساء معلقات بشديهنّ، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء اللاتي أدخلن على الرجال من ليس من أولادهم.. ثم دخل بي الجنة فرأيت فيها جاريه لعساء، فسألته لمن أنت؟ - وقد أعجبتني حين رأيتها - فقالت: لزيد بن حارثه، فبشر بها رسول الله صلى الله عليه وآله زيد بن حارثه»(١).

وأنت واجد في غير ابن هشام من كتب السيره(٢) وفي كتب التفسير(٣) اموراً أخرى غير هذه. ومن حقّ المؤرخ أن يتساءل عن مبلغ التدقيق والتمحيص في أمر ذلك كله، وما يمكن أن يسند منه إلى النبيّ بسند صحيح، وما يمكن أن يكون من خيال المتصوّفه(٤) وغيرهم. ولئن لم يكن ها هنا مجال للحكم في ذلك أو لاستقصائه، كما أنّه ليس ها هنا مجال القول في المعراج والإسراء بالجسم، أو المعراج بالروح والإسراء بالجسم، أو المعراج والإسراء جميعاً بالروح، فمما لاشكّ فيه أنّ لكل رأى من هذه الآراء سنداً عند

ص: ٢٧٣

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٤٠٧/١. ولكنه خبر مرسل عن أبي سعيد الخدري.

٢- (٢) السيره الحلبيه: ٣٦٥/١.

٣- (٣) تفسير الطبري: ٥/٨.

٤- (٤) مرّ التعليق على هذه المسأله وكان رأى مدرسه أهل البيت عليهم السلام في الإسراء والمعراج من أنّه كان بالجسم والروح.

الفقهاء والمتكلمين، وأنه لا جناح على من يقول بواحد دون غيره من هذه الآراء. فمن شاء أن يرى الإسراء والمعراج كانا بالروح فله من السند ما قدمنا وما تكرر في القرآن وعلى لسان الرسول: **إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ۗ وَإِن كَانَ اللَّهُ هُوَ وَحْدَهُ مَعْبُودُهُ** (١)، **وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ** ٣. ولصاحب هذا الرأي أكثر من غيره أن يسأل عن حكمه الإسراء والمعراج ماهي. وهنا موضع الرأي الذي نريد أن نبديه ولا ندرى لعله قد سبقنا إليه أحد.

ففي الإسراء والمعراج في حياه «محمّد» الروحيه معنى سام غايه السموّ، معنى أكبر من هذا الذي يصوّرون والذي قد يشوب بعضه من خيال المتكلم المخلص حظّ غير قليل. فهذا الروح القويّ قد اجتمعت فيه في ساعه الإسراء والمعراج وحده هذا الوجود بالغه غايه كمالها. لم يقف أمام ذهن «محمّد» وروحه في تلك الساعه حجاب من الزمان أو المكان أو غيرهما من الحجب التي تجعل حكمنا نحن في الحياه نسبياً محدوداً بحدود قوانا المُحسّسه والمدبّره والعاقله. تداعت في هذه الساعه كلّ الحدود أمام بصيره «محمّد» واجتمع الكون كلّ في روحه، فوعاه منذ أزلّه إلى أبده وصوّره في تطوّر وحدته إلى الكمال عن طريق الخير والفضل والجمال والحقّ في مغالبتها وتغلّبها على الشرّ والنقص والقبح والباطل بفضل من الله ومغفره.

وليس يستطيع هذا السموّ إلّاقوه فوق ما تعرف الطبائع الإنسانيه. فإذا جاء بعد ذلك ممّن اتبعوا «محمّداً» من عجز عن متابعتة في سموّ فكرته وقوه

ص: ٢٧٤

١- (٢) بل كانت له صلى الله عليه و آله معاجز أخرى كثيرة ثابتة وصحيحه من غير القرآن الكريم.

إحاطته بوحده الكون في كماله وفي جهاده لبلوغ هذا الكمال، فلا- عجب في ذلك ولا- عيب فيه. والممتازون من الناس والموهوبون منهم درجات.

وبلوغنا الحقيقه معرّض دائماً لهذه الحدود التي تعجز قوانا عن تخطيها. وإذا كان من القياس مع الفارق أن نذكر، لمناسبه ما نحن الآن بصدده، قصه أولئك المكفوفين الذين أرادوا أن يعرفوا الفيل ماهو؛ فقال أحدهم: إنّه جبل طويل لأنّه صادف ذنبه، وقال الآخر: إنّه غليظ كالشجره لأنّه صادف رجله، وقال ثالث: إنّه مدبّب كالرمح لأنّه صادف سنّه، وقال الرابع: إنّه مستدير ملتو كثير الحركه لأنّه صادف خرطومه، فإنّ هذا المثل مقروناً إلى الصوره التي تتكوّن لدى المبصر من الفيل لأوّل ما يراه، يسمح لنا بموازنه ما بين إدراك «محمّد» كنه وحده الكون والوجود وتصويره في الإسراء والمعراج حيث يتصل بأوّل الزمن من قبل آدم إلى آخره يوم البعث، حيث تنعدم نهائيه المكان، إذ يُطلّ بعين البصيره من لدن سدره المنتهى إلى هذا الكون يصبح أمامه سديماً^(١)، وبين ما يستطيع الكثيرون إدراكه من حكمه هذا الإسراء والمعراج، إذ يقفون عند تفاصيل ليست من وحده الكون وحياته إلّا كذرات الجسم، بل كالذرات العالقه به من غير أن يتأثر بها نظامه. أين الواحد من هذه الذرات من حياه هذا الجسم ومن نبض قلبه وإشراق روحه وضياء ذهنه وامتلائه بالحياه التي لا تعرف حدّاً، لأنّها تتصل من الوجود بكل حياه الوجود.

والإسراء بالروح هو في معناه كالإسراء والمعراج بالروح جميعاً سموّاً وجمالاً وجلالاً. فهو تصوير قوى للوحده الروحيه من أزل الوجود إلى أبده.

ص: ٢٧٥

١- (١) السديم جمع سُدم: الضباب أو الرقيق منه. المنجد في اللغة: ٣٢٧.

فهذا التعرّيج على جبل سيناء، حيث كلّم الله موسى تكليماً، وعلى بيت لحم، حيث ولد عيسى؛ وهذا الاجتماع الروحي ضمت الصّلاه فيه «محمّداً» وعيسى وموسى وإبراهيم، مظهر قوى لوحده الحياه الدينيه على أنّها من قوام وحده الكون في مؤرّه(١) الدائم إلى الكمال.

والعلم في عصرنا الحاضر يُقرّ هذا الإسراء بالروح ويقرّ المعراج بالروح؛ فحيث تتقابل القوى السليمه يشعّ ضياء الحقيقه، كما أنّ تقابل قوى الكون في صورته معينه قد طوّع «لماركوني» إذ سلّط تياراً كهربائياً خاصّاً من سفينته التي كانت راسيه بالبندقية أن يضيء بقوه موجات الأثير مدينه سدني في استراليا(٢). وفي عصرنا هذا يقرّ العلم نظريات قراءه الأفكار ومعرفه ما تنطوي عليه، كما يقرّ انتقال الأصوات على الأثير بالراديو وانتقال الصور والمكتوبات، كذلك ممّا كان يعتبر فيما مضى بعض أفانين الخيال. وما تزال القوى الكمينه في الكون تتكشف لعلّمنّا كلّ يوم عن جديد. فإذا بلغ روح من القوّه ومن السلطان ما بلغت نفس «محمّد» فأسرى به الله ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بارك حوله ليريه من آياته، كان ذلك ممّا يقرّ العلم، وكانت حكمه ذلك هذه المعاني القويه الساميه في جمالها وجلالها، والتي تصوّر الوحده الروحيه ووحده الكون في نفس «محمّد» تصويراً صريحاً، يستطيع الإنسان أن يصل إلى إدراكه، إذ هو حاول السموّ بنفسه عن أوهام العاجله في الحياه، وحاول الوصول إلى كنه الحقيقه العليا

ص: ٢٧٦

-
- ١- (١) مؤر: مار الشىء يمور موراً: ترهياً، أى تحرك وجاء وذهب، كما تكفأ النخله العيدانه - الصحاح، الجوهري: ٨٢٠/٢.
٢- (٢) موسوعه المورد: ١٩٤/٦، دار العلم للملايين بيروت الطبعة الأولى، ١٩٨١.

ليعرف حقيقه مكانه، ومكان العالم كله منها.

لم يكن العرب من أهل مكه ليستطيعوا إدراك هذه المعاني. لذلك ما لبث «محمّد» أن حدّثهم بأمر إسرائه حتى وقفوا عند الصوره الماديه من أمر هذا الإسراء وإمكانه وعدم إمكانه، وحتى ساور أتباعه والذين صدّقوه أنفسهم بعض الريب فيما يقوله. وقال كثيرون: هذا والله الأمر البين. والله إن العير لتطرد شهراً من مكه إلى الشام مدبره وشهراً مقبله، أيذهب «محمّد» ذلك في ليله واحده ويرجع إلى مكه؟! وارتدّ كثير ممّن أسلم. وذهب من أخذتهم الريبه في الأمر إلى أبي بكر وحدّثوه حديث «محمّد»؛ فقال أبو بكر: إنكم تكذبون عليه. قالوا: بلى، هاهو ذاك في المسجد يحدث الناس. قال أبو بكر:

والله لئن كان قد قاله لقد صدق، إنّه ليخبرني أنّ الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعه من ليل أو نهار فأصدّقه، فهذا أبعد ممّا تعجبون منه. وجاء أبو بكر إلى النبيّ واستمع إليه يصف بيت المسجد، وكان أبو بكر قد جاءه. فلما أتمّ النبيّ صفه المسجد، قال له أبو بكر: صدقت يا رسول الله. ومن يومئذٍ دعا «محمّد» أبا بكر بالصدّيق (١).

ويدلّل الذين يقولون: إنّ الإسراء بالجسد على رأيهم، بأنّ قريشاً لما سمعت بأمر إسرائه سألته وسأله بعض الذين آمنوا به عن آيه ذلك، فإنّهم لم يسمعوا بشيء من مثله. فوصف لهم عيراً مرّ بها في الطريق فضلّت دابه من العير فدلّهم عليها، وأنّه شرب من عير أخرى وغطى الاناء بعد أن شرب منه.

ص: ٢٧٧

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٣٩٨/١. ولكنّه خبر مرسل عن الحسن البصرى التابعى: وحُدّث عن الحسن.. وهو بلا إسناد. أما في أخبار أئمه أهل البيت عليهم السلام فإنّما لقب بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله عليّاً عليه السلام.

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٤٠١/١، السيره الحلبيه: ٣٨٠/١. ويرى البعض: أن الإسراء كان بالروح فقط في عالم الرؤيا، ويحتجون بما عن عائشه: ما فقدت جسد رسول الله صلى الله عليه وآله. تاريخ الخميس: ٣٠٨/١، والمواهب اللدنيه: ٢/٢، وبحار الأنوار: ٢٩١/١٨، وفي المناقب لابن شهر آشوب: ١٧٧/١: أن الجهميه قالت بهذا. وعن معاويه: إنها رؤيا صالحه، وحكى مثل ذلك عن الحسن البصرى.. بحار الأنوار: ٢٩١/١٨، عن: المقاصد وشرحه، وراجع تاريخ الخميس: ٣٠٨/١. ولكن الصحيح هو ما ذهب إليه الإماميه ومعظم المسلمين من أن الإسراء إنما كان بالروح والجسد معاً.. أما المعراج فذهب الأكثر إلى أنه كان بالروح والجسد أيضاً.. ونحن نشير هنا إلى ما يلي: أولاً: قال القسطلاني: «وأجيب: بأن عائشه لم تحدث به عن مشاهدته؛ لأنها لم تكن إذا ذاك زوجاً، ولا- في سن من يضبط، أو لم تكن ولدت بعده، على الخلاف في الإسراء متى كان (المواهب اللدنيه: ٢/٢). وأما معاويه فحاله معلوم. ثانياً: لقد قال تعالى: سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى (الإسراء: ١). وقال في سورة النجم - إذا كانت الآيات ناظره إلى المعراج، ويرجع الضمير فيها إلى النبي صلى الله عليه وآله لا إلى جبرئيل: - فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (النجم: ٩-١٠) فَإِنَّ لَفْظَ الْعَبْدِ إِنَّمَا يُطْلَقُ عَلَى الرُّوحِ وَالْجَسَدِ مَعًا، وَلَوْ كَانَ مَنْفَعًا، لَكَانَ قَالَ: بِرُوحِ عَبْدِهِ، وَإِلَى رُوحِ عَبْدِهِ.. كما أن قوله تعالى: مَا زَاغَ الْبَصِيرُ وَمَا طَغَى ظَاهِرٌ فِي الْبَصْرِ الْحَقِيقِيِّ أَيْضًا. (راجع هذا الاستدلال في بحار الأنوار: ٢٨٤/١٨ عن الرازي، والمواهب اللدنيه: ٤/٢، تاريخ الخميس: ٣٠٨/١). أضف إلى ذلك: أن آيه سورة الإسراء، وآيات سورة النجم واردة في مقام الامتنان. وفيها ثناء على الله، وعجيب قدرته، ولذلك لا- يحسن، ولا يتم لمجرد رؤيا رآها النبي صلى الله عليه وآله؛ إذ ربما يرى غير النبي، وحتى الفاسق الفاجر رؤيا أعظم من ذلك... أضف إلى ذلك: أن الرؤيا عند عامه الناس لا تدل على عظيم قدرته تعالى، إذ ربما تُفسّر على أنها نوع من الأوهام والخيالات، فيفوت الغرض المقصود من الإسراء والمعراج، كما هو ظاهر. (راجع: تفسير الميزان: ٢٤/١٣). وثالثاً: إنه لو كان الإسراء مجرد رؤيا صالحه؛ فلا يبقى فيه إعجاز؛ ولما أنكره المشركون والمعاندون، ولما ارتدّ ناس ممن كان أسلم، كما سنشير إليه... ورابعاً: كما أنه لو كان مجرد رؤيا، لم يخرج أبوطالب والهاشميون في طلبه... وكان العباس يناديه حتى أجابه من بعض النواحي... حسبما ورد في بعض الروايات... وأما لماذا ينكرون أن يكون ذلك بالروح والجسد معاً؟ فهو إما لعدم قدرتهم على تعقل ذلك، أو لأجل الحطّ من كرامه النبي صلى الله عليه وآله، أو لعدم قدرتهم على اقتناع الناس بأمر مبهم كهذا. راجع (الصحيح من سيره النبي: ٢٧٥/١).

لو سألت الذين يقولون بالإسراء بالروح في هذا لما رأوا فيه عجباً بعد الذى عرف العلم فى وقتنا الحاضر من إمكان التنويم المغناطيسى التحدث عن أشياء واقعه فى جهات نائيه. ما بالك بروح يجمع وحده الحياه الروحيه فى الكون كله ويستطيع بما وهبه الله من قوه أن يتصل بصوره الحياه من أزل الكون إلى أبده.

ص: ٢٧٩

ردّ القبائل ل «محمّد» ردّاً غير جميل، بشائر الفوز من ناحيه يثرب، صلات اليهود بالأوس والخزرج، إسلام بعض اليثريين وقعه بعث، بيعه العقبة الصغرى، مصعب بن عمير، عوده مع الحاجّ إلى مكّه بعد عام، المسلمون فى يثرب، بيعه العقبة الكبرى، أنباؤها عند قريش، ائتمارها ب «محمّد» كى تقتله، إذنه لمسلمى مكّه بالهجره إلى يثرب.

لم تدرك قريش معنى الإسراء، ولم يدرك كثير ممّن أسلموا معناه الذى قدّمنا. لذلك انصرف جماعه من هؤلاء عن متابعه «محمّد» بعد أن اتبعوه زمناً طويلاً^(١). ولذلك ازدادت مساوات قريش ل «محمّد» وللمسلمين حتى ضاقوا

ص: ٢٨١

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٣٩٨/١-٣٩٩، العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين: ٣٧٩/١، دار الكتب العلميه بيروت الطبعه الأولى، ١٤١٩ هـ، وتاريخ الإسلام للذهبي: ٢٥١/١، وإمتاع الأسماع: ٤٨/١، والسيره الحلبيه: ٣٧٨/١. نعم، تشير بعض المصادر إلى ارتداد البعض من المسلمين حينما سمعوا بأنّ النبى قد أُسرى به وأحجمت عن ذكر أسماء هؤلاء الذين ارتدّوا. وتذكر لنا كتب تاريخيه أخرى بأنّ المشركين قد كذبوا دعوى النبى صلى الله عليه و آله على أنّه أُسرى به وسألوا عن أمارات تثبت صدق ما ادّعاه وقد جاءهم بما طلبوا منه وكذبوه على الرغم ممّا بين لهم من أمارات الصدق. ولم تذكر تلك المصادر بأنّ المسلمين قد ارتدّوا. انظر إعلام الورى: ١٢٥/١، ومناقب ابن شهر آشوب: ١٨٠/١.

بها ذرعاً. ولم يبق ل «محمّد» رجاء في نصره القبائل إيّاه بعد إذ ردتة ثقيف من الطائف بشرّ جواب، وبعد إذ ردّته كنده و كلب وبنو عامر وبنو حنيفه لما عرض نفسه عليها في موسم الحجّ. وشعر «محمّد» بعد ذلك كلّه بأنه لم يبق له مطمع في أن يهدى إلى الحقّ من قريش أحداً، كما أن غير قريش من القبائل التي تجاورها، والتي تجيء من مختلف أنحاء بلاد العرب حاجّه إليها، قد رأّت ما وصل «محمّد» إليه من عزله، وما أحاطته به قريش من عداوه تجعل كل نصير له عدوّاً لها وعوناً عليها. ومع اعتزاز «محمّد» بحمزه وعمر، ومع طمأنينته إلى أن قريشاً لن تنال منه أكثر ممّا نالت لمنعته بقومه من بني هاشم وبني عبدالمطلب، فإنّه رأى رساله ربّه تقف في دائره من اتّبعه إلى يومئذٍ، ممّن يشكون لقلّتهم ولضعفهم أن يبيدوا أو أن يُفتنوا عن دينهم، إذا لم يأتهم نصر الله والفتح. وتطاولت الأيام ب «محمّد» وهو يزداد بين قومه عزله وتزداد قريش عليه حقداً. فهل ضعفت هذه العزله من نفسه، أو أوهنت له عزماً؟! كلا! بل زاده الإيمان بالحق الذي جاءه من ربّه سموّاً على هذه الاعتبارات التي تفتّت في عضد ذوى النفوس العاديه، ولا تزيد أصحاب النفوس الممتازه إلّاسموّاً وإيماناً. وظلّ «محمّد» وأصحابه من حوله وهو أشدّ ما يكون في عزلته ثقّه بنصرالله له وإعلاء دينه على الدين كلّه. لم تزعزع منه أعاصير الحقد، بل جعل يقيم بمكّه طوال عامه لا يعنيه أن ذهب مال خديجه وماله، ولا يضعضع من نفسه ضيق ذات يده، ولا يتطلع بروحه إلى شىء غير هذا النصر الذي لا ريب عنده في أنّ الله مؤتيه إيّاه. فإذا جاء موسم الحجّ واجتمع الناس من أنحاء شبه الجزيره بمكّه، بادأ القبائل فدعاها إلى

الحقّ الذى جاء به، غير آبه أن تبدى هذه القبائل الرغبه عن دعوته والاعراض عنه، أو تردّه ردّاً غير جميل. ويتحرّش به بعض سفهاء قريش حين إبلاغه الناس رسالته وينالونه بالسوء. فلا تغير مساءاتهم رضا نفسه وطمأنينته إلى غده. إنّ الله ذا الجلال قد بعثه بالحقّ، فهو لا ريب ناصر هذا الحقّ ومؤيده. وهو قد أوحى إليه أن يجادل الناس بالتي هي أحسن: فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ١. وأن يقول لهم قولاً لئناً لعلهم يذكرون أو يخشون. فليصبر على أذاهم، إنّ الله مع الصابرين.

ولم يطل ب «محمّد» الانتظار أكثر من بعض سنين حتى بدت له فى الأفق تباشير الفوز آتية طلائعها من ناحيه يثرب. ول «محمّد» يثرب علاقه غير علاقه التجاره، له بها علاقه قري، وله فيها قبر كانت أمّه تحجّ إليه قبل موتها فى كلّ عام مرّه. أمّا ذوو قرباه بها فأولئك بنو النجار أحوال جدّه عبدالمطلب. وأمّا ذلك القبر فقبر أبيه عبدالله بن عبدالمطلب. إلى هذا القبر كانت تحجّ آمنه الزوج الوفيه، وكان يحجّ عبدالمطلب الأب الذى فقد ابنه وهو فى شرح شبابه وريعان قوته. وقد صحب «محمّد» امه إلى يثرب فى السادسة من عمره فزار معها قبر أبيه ثمّ قفلا عائدين، فمرضت آمنه فى الطريق وماتت ودفنت بالأبواء فى منتصف الطريق بين يثرب ومكّه. فلا عجب أن تبدأ تباشير الفوز ل «محمّد» من ناحيه بلد له به هذه الصله، وإلى ناحيته كان يتجه حين يصلّى جاعلاً قبلته المسجد الأقصى بيت المقدس، مقام سلفيه موسى وعيسى. ولا عجب أن تُهيئ المقادير ليثرب هذا الحظّ،

ليتم ل «محمّد» بها النصر، وللإسلام بها الفوز والانتشار.

هيأت المقادير ليثرب هذا الحظّ بما لم تهينّه لبلد آخر. فقد كان الأوس والخزرج من عبّاد الأوثان يثرب يتجاورون مع يهودها جواراً كثيراً ما شابهته البغضاء وما تعدّى البغضاء إلى القتال. وإنّ التاريخ ليروى أنّ المسيحيين فى الشام ممّن كانوا يتبعون الدوله الرومانيه الشرقيه، وكانوا يمقتون اليهود أشدّ المقت لاعتقادهم أنّهم هم الذين صلبوا المسيح ونكّلوا به، قد أغاروا على يثرب ليقتلوا يهودها، فلمّا لم يظفروا بهم استعانوا بالأوس والخزرج لاستدراجهم، ثمّ قتلوا عدداً منهم غير قليل ممّا أنزل اليهود عن مكان السيادة الذى كان لهم، ورفع عرب الأوس والخزرج إلى مكانه غير مكانه العمال التى كانوا مقصورين من قبل عليها(1). وقد حاول العرب من بعد ذلك أن يوقعوا باليهود مرّه أخرى ليزدادوا فى المدينه العامره بالزراعه وبالماء سلطاناً، فنجحوا فى غدّهم بعض النجاح، ثمّ فطن اليهود لوقيعتهم بهم. بذلك تمكّنت العداوه والبغضاء فى نفوس يهود يثرب لأوسها والخزرج، وفى نفوس الأوس والخزرج لليهود. ورأى أتباع موسى أن مقابله القتال بالقتال قد تهوى بهم إلى الفناء، أن قد يجد الأوس والخزرج حلفاً من بنى دينهم العرب على أهل الكتاب هؤلاء. لذلك سلكوا فى سياستهم خطه غير خطه الغلب فى المعارك، فلجأوا إلى سياسه الوقيعه والتفريق؛ إذ دسّوا بين الأوس والخزرج وملأوا نفوس هؤلاء وأولئك حفيظه بعضهم على بعض، ممّا جعل هؤلاء وأولئك على أهبه مستمره للقتل والقتال، وجعل اليهود بمأمن منهم ومن

ص: ٢٨٤

١- (١) دائره المعارف: ٣٧٤/٧-٣٧٥ راجع ماده (خزرج).

عدوانهم، يزدون في تجارتهم وفي ثروتهم ويستعيدون ما فقدوا من سياده، ويستردون ما أضاعوا من دار ومن عقار.

كان لجوار اليهود والعرب يثرب فيما خلا هذا النزاع على السيادة والسلطان، أثر آخر أعمق عند الأوس والخزرج ممّا كان عند سائر أهل جزيره العرب، ذلك هو الأثر الروحي. فقد كان اليهود، كأهل كتاب ودعاه وحدانيه، يأخذون على جيرانهم الوثنيين اتخاذهم الأوثان زُلفى إلى الله وينذرونهم بعث نبيّ يقضى عليهم ويشايح اليهود(1). ولم تصل هذه الدعوه إلى تهويد العرب لسبيين:

أولهما: أنّ ما كان بين النصرانيه واليهوديه من حرب جعل يهود يثرب لا- يطمعون في أكثر من السلامه التي تهتّى لهم سعه التجاره.

الثاني: أنّ اليهود يحسبون أنفسهم شعب الله المختار، ولا يرضون أن تكون لشعب غيرهم هذه المكانه، فلا يدعون لذلك لدينهم ولا- يرضونه يخرج من بنى إسرائيل. برغم هذين السبيين كان اتصال الجوار والتجاره في يثرب بين اليهود والعرب من شأنه أن يجعل أوس يثرب وخزرجها أكثر استماعاً للحديث في الشؤون الروحيه وفي سائر شؤون الدين من غيرهم من العرب. يدلّك على ذلك أنّ العرب لم تستجب لدعوه «محمّد» الروحيه مثلما استجابت يثرب.

كان سُويد بن الصامت من كبار أشراف يثرب، حتى كان قومه يسمّونه

ص: ٢٨٥

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٤٢٨/١-٤٢٩، وامتناع الأسماع: ٤٩/١، وعيون الأثر: ١٨١/١، إعلام الوري: ١٣٧/١.

الكامل لجلده وشعره وشرفه ونسبه. وفي هذه الفتره التي نتحدث عنها قدم سويد مكّه حاجّاً، فتصدّى له «محمّد» فدعاه إلى الله وإلى الإسلام. فقال له سويد: لعل الذي معك مثل الذي معي. قال «محمّد»:

وما الذي معك؟ قال:

حكّمه لقمان. فطلب إليه «محمّد» أن يعرضها عليه فعرضها؛ فقال له «محمّد»:

إنّ هذا الكلام حسن والذي معي أفضل. هو قرآن أنزله الله عليّ هدى ونوراً. تلا عليه القرآن ودعاه إلى الإسلام؛ فطاب سويد نفساً بما سمع وقال: هذا حسن، وانصرف يفكر فيه. وإن قوماً ليقولون حين قتلته الخزرج: إنّه مات مسلماً (١).

وليس سويد بن الصامت هو المثل الوحيد الذي يدل على أثر تجاوز اليهود والعرب بيثرب من الناحية الروحية. فقد كان بين الأوس والخزرج من العداوة التي بثّ اليهود ما علمت. وكان كلّ منهم يلتمس الحلف من قبائل العرب ليقاتل الآخر. وكان من ذلك أن أبا الحيسر أنس بن رافع أتى مكّه ومعهُ فتية من بنى عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج. وسمع بهم «محمّد» فأتاهم فجلس إليهم ودعاهم إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن. فقال إياس بن معاذ - وكان غلاماً حدثاً -: أي قوم، هذا والله خير ممّا جئتم فيه. وعاد القوم إلى يثرب لم يسلم منهم غير إياس؛ لأنهم كانوا في شغل بالتماس الحلف استعداداً لواقعه بُعث التي اصطلح الأوس والخزرج جميعاً بناها بعد قليل من عود أبي الحيسر ومَن معه من مكّه. لكنّ كلام «محمّد صلى الله عليه وآله» ترك في نفوسهم بعد هذه الواقعة من الأثر ما دعا الأوس والخزرج جميعاً ليلتمسوا في «محمّد» نبياً ورسولاً

ص: ٢٨٦

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ١/٤٢٥، وسيره ابن كثير: ٢/١٧٣-١٧٤.

كانت وقعه بعث بعد قليل من عود أبي الحيسر ومن معه إلى يثرب؛ اقتتل فيها الأوس والخزرج قتالاً شديداً أملتة عداوه متأصله، حتى لكان كل قوم يسائل بعضهم بعضاً إذا هم انتصروا؛ أيقنون على أصحابهم أم يستأصلونهم ويجهزون عليهم. وكان أبو أسيد حُضير الكتائب على رأس الأوس، وكان في نفسه من الحقد على الخزرج أشده. فلما بدأ القتال دارت على الأوس دائره فولوا فراراً نحو نجد، فعيرتهم الخزرج. فلما سمع حُضير تعييرهم طعن بسنان رمحه فخذة ونزل وصاح: واعقراه! والله لا أريم حتى اقتل، فإن شئتم يا معشر الأوس أن تُسلموني فافعلوا. فعاد الأوس للقتال وبهم من الألم مميًا أصابهم ما جعلهم يستبسلون مستيئسين، حتى انهزمت الخزرج شرّ هزيمة. وجعلت الأوس تحرق عليها نخلها ودورها، حتى أجارها سعد بن معاذ الأشهلي. وأراد حُضير أن يأتي الخزرج قصرًا قصرًا ودارًا دارًا يقتل ويهدم حتى لا يبقى منهم على أحد، لولا أن منعه أبو قيس بن الأسلت إبقاء على بنى دينهم: «فجوارهم خير من جوار الثعالب» (٢).

واستعادت اليهود بعد هذا اليوم مكانتها بيثرب، حتى رأى المنتصر والمهزوم من الأوس والخزرج جميعاً سوء ما صنعوا، وفكروا في عاقبه أمرهم. وتطلّعوا إلى إقامة ملك عليهم، واختاروا لذلك عبدالله بن محمّد من الخزرج المهزومه لمكانته وحسن رأيه. لكنّ تطور الأحوال تطوراً سريعاً

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٤٢٧/١-٤٢٨، سيره ابن كثير: ١٧٤/٢-١٧٥، إعلام الوري: ١٣٧/١.

٢- (٢) دائره المعارف: ٤٩٢/٥، راجع ماده بُعث، إعلام الوري: ١٣٧/١.

حال دون ما أرادوا(١). ذلك أنّ نَفراً من الخزرج خرجوا إلى مكّة في موسم الحجّ، فلقّاهم «محمّد» فسألهم عن شأنهم وعرف أنّهم من موالى يهود. وقد كان اليهود يثرب يقولون لهم إذا اختلفوا وإياهم: إنّ نبياً مبعوثاً الآن قد أظلم زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم. فلمّا كلم النبيّ أوّلتك النفر ودعاهم إلى الله، نظر بعضهم إلى بعض وقالوا: والله إنّ للنبيّ الذي تواعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه. وأجابوا «محمّداً» إلى دعوته وأسلموا وقالوا له: «إنّا قد تركنا قومنا - أي الأوس والخزرج - ولا قوم بينهم من العداوة والشرّ ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، وإن يجمعهم عليك فلا رجل أعزّ منك. وعاد هؤلاء النفر إلى المدينة ومن بينهم اثنان من بنى النّجار أخوال عبدالمطلب جدّ «محمّد» الذي كفله منذ مولده. عادوا فذكروا لقومهم إسلامهم؛ فألفوا قلوباً مفتوحة ونفوساً متلهفة لدين يجعلهم موحدين كاليهود، بل يجعلهم خيراً منهم. فلم تبق دار من دور الأوس والخزرج جميعاً إلّا وفيها ذكرٌ من «محمّد عليه السلام». فلمّا استدار العام وعادت الأشهر الحرم وجاء موعد الحجّ لمكّة. أتى الموسم اثنا عشر رجلاً من أهل يثرب، فالتقوا بالنبيّ بالعقبه فبايعوه ببيعة العقبة الأولى.

بايعوه على ألاّ يشرك أحدهم بالله شيئاً ولا يسرق ولا يزني ولا يقتل أولاده ولا يأتي بهتاناً يفتره بين يديه ورجليه ولا يعصيه في معروف، فإنّ وفي ذلك فله الجنة، وإن غشّى من ذلك شيئاً فأمره إلى الله، إن شاء عذب وإن شاء غفر. وأنفذ «محمّد» مُصعب بن عمير يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين(٢).

ص: ٢٨٨

١- (١) دائره المعارف: ٣٧٦/٧ راجع ماده (خزرج)، وإعلام الورى: ١٣٩/١.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٤٢٩/١-٤٣١، وسيره ابن كثير: ١٧٦/٢-١٧٨، إعلام الورى: ١٣٩/١.

ازداد الإسلام بعد هذه البيعة يثرب انتشاراً. وأقام مصعب بين المسلمين من الأوس والخزرج يعلمهم دينهم ويلاحظ مغتبطاً ازدياد الأنصار لأمر الله ولكلمه الحق. فلما آذنت الأشهر الحرم أن تعود، لحق بمكة وقصّ على «محمد» خبر المسلمين بالمدينه وماهم عليه من منعه قوه، وأنهم سيجيئون إلى مكة موسم حجّ هذا العام الجديد أكثر عدداً وأعظم بالله إيماناً(١).

ودعت أخبار مصعب «محمدًا» ليفكر في الأمر طويلاً. هاهم أولاء أتباعه يثرب يزدادون كل يوم عدداً وسلطاناً، ولا يجدون من أذى اليهود ولا من أذى المشركين ما يجده زملاؤهم بمكة من أذى قريش! وهاهي ذى يثرب بها من الرخاء أكثر ممّا بمكة: بها زروع ونخيل وأعناب! أوليس من الخير أن يهاجر المسلمون المكيون إلى إخوانهم هناك ليجدوا عندهم أمناً وليسلموا من فتنه قريش إياهم عن دينهم؟ وذكر «محمد» أثناء تفكيره أولئك نفر من يثرب الذين كانوا أول من أسلم، والذين ذكروا له ما بين الأوس والخزرج من عداوه، وأنهم إذا جمعهم الله به فلا رجل أعزّ منه. أوليس من الخير، وقد جمعهم الله به، أن يهاجر هو أيضاً؟ إنّه لا- يجب أن يردّ على قريش مساءاتها وهو يعلم أنّه أضعف منها، وأنّ بنى هاشم وبنى المطلب إن منعوه من الاعتداء عليه فلن ينصروه معتدياً، ولن يمنعوا الذين اتبعوه من اعتداء قريش عليهم ومن إصابتها إياهم بأنواع المساءه. وإذا كان الإيمان أقوى سند يجعلنا نستعين بكلّ شيء ونضحى عن طيب خاطر في سبيله بالمال والراحه والحريه والحياه، وإذا كان الأذى من طبعه أن يزيد الإيمان

ص: ٢٨٩

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٤٣٨/١، وسيره ابن كثير: ١٩٢/٢، وإعلام الورى: ١٤١/١.

استعاراً، فإن استمرار الأذى والتضحيه يشغل المؤمن بهما عن دقه التأمل التي تزيد في أفق المؤمن سعه، وفي إدراكه للحق قوه وعمقاً. وقد أمر «محمّد» الذين اتبعوه من قبل أن يهاجروا إلى الحبشه المسيحيه أن كانت بلاد صدق، وكان بها ملك لا يُظلم عنده أحد. فأولى بالمسلمين ثم أولى أن يهاجروا إلى يثرب وأن يتقّوا بأصحابهم المسلمين فيها، وأن يتآزروا لذلك على دفع ما يمكن أن يصيبهم من شرّ، ليكون لهم بذلك من الحريره في تأمّل دينهم والجهربه ما يكفل إعلاء كلمته، كما يكفل نجاح الدعوه إليه، دعوه لا تعرف الإكراه، بل أساسها الرفق والاقناع والمجادله بالتى هى أحسن.

وكان الحاج من يثرب فى هذه السنه - سنه ٦٢٢ ميلاديه - كثيراً بالفعل.

وكان من بينهم خمسه وسبعون مسلماً منهم ثلاثه وسبعون رجلاً وامرأتان.

فلما عرف «محمّد» مقدمهم فكّر فى بيعه لا تقف عند الدعوه إلى الإسلام على نحو ما ظلّ هو يدعو إليه ثلاث عشره سنه متتابعه فى رفق وهواده مع احتمال صنوف التضحيه والألم جميعاً؛ بل تمتد إلى ما وراء ذلك وتكون حلفاً يدفع به هؤلاء المسلمون عن أنفسهم الأذى بالأذى والعدوان بالعدوان.

واتّصل «محمّد» سرّاً بزعمائهم وعرف حسن استعدادهم، فواعدهم أن يلتقوا معه عند العقبه جوف الليل فى أوسط أيام التشريق. وكنتم مسلمو يثرب من معهم من المشركين أمرهم وانتظروا حتى إذا مضى ثلث الليل من يوم موعدهم مع النبى خرجوا من رحالهم يتسلّلون تسلّل القطا مستخفين مخافه أن ينكشف سرّهم. فلما كانوا عند العقبه تسلّقوا الشّعب جميعاً وتسلّقت المرأتان معهم ينتظرون مقدم صاحب الرساله.

وأقبل «محمّد» ومعه عمّه العباس بن عبدالمطلب (1)، وكان ما يزال على دين قومه. لكنّه عرف من قبل من ابن أخيه أن فى الأمر حلفاً، وأن الأمر قد يجزّ إلى حرب، وذكر أنّه قد تعاهد مع من تعاهد من بنى المطلب وبنى هاشم أن يمنعوا «محمّداً». فليستوثق لابن أخيه ولقومه حتى لا تكون كارثته يُصلى بنوهاشم وبنو المطلب بناها، ثمّ لا يجدون من هؤلاء اليشرييين نصيراً.

لذلك كان هو أوّل من تكلم فقال: يا معشر الخزرج، إنّ «محمّداً» منّا حيث قد علمتم. وقد منعناه من قومنا ممّن هو على مثل رأينا فيه. وهو فى عزّ من قومه ومنعه فى بلده. وقد أبى إلّا الانحياز إليكم واللحوق بكم. فإن كنتم ترون أنّكم وافون له فيما دعوتموه إليه، ومانعوه ممّن خالفه، فأنتم وما تحمّلتكم من ذلك؛ وإن كنتم مسلّموه وخاذلوه بعد خروجه إليكم فمن الآن فدعوه.

قال اليشرييون - وقد سمعوا كلام العباس -:

سمعنا ما قلت، فتكلّم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربّك ما أحببت.

فأجاب «محمّد» - بعد أن تلا القرآن ورغب فى الإسلام -:

أبايعكم على أن تمنعوني ممّا تمنعون منه نساءكم وأبناءكم.

وكان البراء بن معرور سيّد قومه وكبيرهم. وكان قد أسلم بعد العقبة الأولى وقام بكلّ ما يفرض الإسلام. إلّا أنّه جعل قبله صلّاته الكعبة. وكان «محمّد» والمسلمون جميعاً يومئذٍ ما تزال قبلتهم المسجد الأقصى. ولما اختلف قومه معه واحتكموا إلى النّبى أوّل وصولهم مكّه ردّ «محمّد» البراء

ص: ٢٩١

١- (١) ذكر ذلك اليعقوبى فى تاريخه، وهو من موالى بنى العباس، بل هو العباس بن فضله بن عباده الأوسى كما يأتى فى الصفحة التالىة بقول مشابه. مسند أحمد: ٣/٤٦١.

عن اتخاذ الكعبه قبلته. فلَمَّا طلب «محمّد» إلى مسلمي يثرب أن يمنعوه ممّا يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، مدّ البراء يده يبايعه على ذلك وقال:

بايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر.

ولمّا يتم البراء كلامه إذ اعترض أبو الهيثم بن التّيهان، قائلاً:

يا رسول الله، إنّ بيننا وبين الرجال - أي اليهود - حبّالاً نحن قاطعوها.

فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثمّ أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

فتبسّم «محمّد» وقال:

بل الدّم الدّم والهدم الهدم. أنتم مني وأنا منكم، أحارب من حاربتكم وأسالم من سالمتم.

وهمّ القوم للبيعه، فاعترضهم العباس بن عباده، قائلاً:

يا معشر الخزرج: أتعلمون علّام تبايعون هذا الرجل؟ إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنّكم إذا نهكت أموالكم مصيبه وأشرافكم قتلاً أسلمتموه فمن الآن فدعوه، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة. وإن كنتم ترون أنّكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكته الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة.

فأجاب القوم: إنّنا نأخذة على مصيبه الأموال وقتل الأشراف. فما لنا يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك؟

وردّ عليهم «محمّد» مطمئن النفس، قائلاً:

الجّه.

ومدّوا إليه أيديهم، فبسط يده فبايعوه. فلَمَّا فرغوا من البيعه قال لهم

النبي:

أخرجوا لي منكم اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم. فاختار القوم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. فقال النبي لهؤلاء النقباء:

أنتم على قومكم بما فيهم كغفلاء ككفاله الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي. وكانت بيعتهم الثانية هذه أن قالوا: يايعنا على السمع والطاعة في عُسرنا ويُسرنا وَمَنْشَطْنَا وَمَكْرَهْنَا وَأَنْ نَقُولَ الْحَقَّ أَيُّنَمَا كُنَّا لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ.

تمَّ ذلك كله جوف الليل في شَّعب العقبة في عزله من الناس والقوم على ثقته من أنه لا تطلع عليهم عين إلا الله. لكنهم ما كادوا يتمونه حتى سمعوا صوتاً يصيح بقريش: إنَّ «محمّداً» والصبأه معه قد اجتمعوا على حربكم. ذلك رجل خرج لبعض شأنه فعرف من أمر القوم قليلاً. اتصل بسمعه، فأراد أن يفسد عليهم تدبيرهم وأن يدخل في روعهم أن ما بيتوا بليل افتضح. لكن الخزرج والأوس كانوا عند عهدهم، حتى لقال العباس بن عباد ل «محمّد» بعد أن سمع هذا المتجسس: والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيا فإنا. فكان جواب «محمّد» أن قال:

«لم تؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم»، فرجعوا إلى مضاجعهم وناموا حتى أيقظهم الصبح.

على أن الصبح ما كاد يتنفس حتى علمت قريش نبأ هذه البيعة.

فانزعجت فغدت جلتها على الخزرج في منازلهم يعاتبونهم ويقولون لهم:

إنهم لا يريدون حربهم فما بالهم يحالفون «محمّداً» لقتالهم! وانبعث المشركون من الخزرج يحلفون بالله ما كان من هذا شيء. أمّا المسلمون فاعتصموا بالصمت أن رأوا قريشاً مالت لتصديق شركائها في الدين. وعادت

ص: ٢٩٣

قُرَيْشٌ لَا تُؤَكِّدُ الْخَبْرَ وَلَا تَنْفِيهِ وَجَعَلَتْ تَنْتَظِسُهُ (١) عَلَّهَا تَقْفَ عَلَى جَلِيَّةِ الْأَمْرِ فِيهِ. وَاحْتَمَلَ أَهْلُ يَثْرِبَ رِحَالَهُمْ وَعَادُوا قَاصِدِينَ بِلَدِّهِمْ قَبْلَ أَنْ تَثِقَ قُرَيْشٌ بِشَيْءٍ مِمَّا حَصَلَ. فَلَمَّا عَرَفَتْ أَنَّ الْخَبْرَ حَقٌّ، خَرَجَتْ تَطْلُبُ أَهْلَ يَثْرِبَ، فَلَمْ تَلْحَقْ مِنْهُمْ إِلَّا بِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، أَدْرَكَهُ وَرَدَّوهُ إِلَى مَكَّةَ وَعَذَّبُوهُ حَتَّى أَجَارَهُ جُبَيْرُ بْنُ مَطْعَمِ بْنِ عَدَى وَالْحَارِثُ بْنُ أُمِّيَّةَ، أَنْ كَانَ يَجِيرُ لَهُمَا مِنْ يَخْرُجُونَ فِي تِجَارَتِهِمَا إِلَى الشَّامِ حِينَ مَرُّوهُمْ بِيَثْرِبَ (٢).

لَمْ تَبَالِغْ قُرَيْشٌ قَطُّ فِي فِزْعِهَا وَلَا فِي تَتَبِعِهَا الَّذِينَ بَايَعُوا «مُحَمَّدًا» عَلَى قِتَالِهَا. فَقَدْ عَرَفْتَهُ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً مُتَتَابِعَةً مِنْذُ بَدَأَ نَبْوَتَهُ، وَوَقَفَتْ مِنَ الْجُهُودِ لِلْحَرْبِ السَّلْبِيَّةِ الَّتِي أَعْلَنْتَ عَلَيْهِ مَا أَجْهَدَهَا وَأَجْهَدَهُ، وَنَالَ مِنْهَا وَنَالَ مِنْهُ.

عَرَفْتُ ذَلِكَ الْقَوِيَّ بِاللَّهِ الْمُسْتَمْسِكِ بِرِسَالَةِ الْحَقِّ لَا يَلِينُ فِيهَا وَلَا يَدَاجِي وَلَا يَخَافُ فِيهَا أَذَى وَلَا مَسَاءَهُ وَلَا قِتْلًا. وَلَقَدْ خُتِلَ إِلَى قُرَيْشٍ بَعْدَ أَنْ أَرَهَقْتَهُ وَمَنْ مَعَهُ بِالْوَانِ الْأَذَى وَبَعْدَ أَنْ حَاصَرْتَهُ فِي الشُّعْبِ وَبَعْدَ أَنْ أَدَخَلْتَ إِلَى نَفْسِ أَهْلِ مَكَّةَ جَمِيعًا مِنَ الرُّوْعِ مَا صَدَّهُمْ عَنِ اتِّبَاعِهِ، أَنَّهَا تَوْشِكُ أَنْ تَظْفِرَ بِهِ، وَأَنْ تَحْصُرَ نَشَاطَهُ فِي الدَّائِرَةِ الضَّيِّقَةِ مِنَ الْآتِبَاعِ الَّذِينَ ظَلُّوا عَلَى دِينِهِ؛ وَأَنَّهُ وَمَنْ مَعَهُ لَا يَلْبَثُونَ إِلَّا قَلِيلًا. حَتَّى تَضْنِيَهُمُ الْعِزْلَةَ فَيَعُودُونَ إِلَى حُكْمِهَا طَائِعِينَ. أَمَّا الْيَوْمَ وَإِذَا هَذَا الْحَلْفِ الْجَدِيدِ فَقَدْ انْفَتَحَ أَمَامَ «مُحَمَّدٍ» وَالَّذِينَ مَعَهُ بَابُ الرَّجَاءِ فِي الْغَلْبِ، أَوْ عَلَى الْأَقْلِ بَابُ الرَّجَاءِ فِي حَرِيهِ الدَّعْوَةِ إِلَى عَقِيدَتِهِمُ وَالطَّعْنِ عَلَى الْأَصْنَامِ وَعِبَادَتِهَا. وَمَنْ يَدْرِي مَا يَكُونُ أَمْرُ الْقَوْمِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فِي

ص: ٢٩٤

١- (١) التنتس: المبالغة في التطهر. وكل من أدق النظر في الأمور واستقصى علمها فهو منتس - الصحاح، الجوهري: ٩٨٣/٣.

٢- (٢) السيرة النبوية لابن هشام: ٤٤٨/١-٤٥٠ وإعلام الوري: ١٤١/١-١٤٣.

شبه جزيره العرب كلها وقد نصرتهم يثرب بأوسها وخزرجها. وقد جعلتهم بمأمن من العدوان وفسحت لهم حريه القيام بفروض دينهم ودعوه غيرهم للانضمام إليهم. فإذا لم تقض قريش على هذه الحركه وما تزال في مهدها، فالخوف من المستقبل لن يزال يساورها وفوز «محمد» عليها لن يزال يُقضى مضجعتها.

لذلك أمعت تفكر فيما تفعل لتحبط ما قام به «محمد» ولتقضى على هذه الحركه الجديده. ولم يكن هو من ناحيته أقل من قريش تفكيراً. إنّ هذا الباب الذى فتح الله أمامه هو باب العزّه لدين الله والسموّ لكلمه الحقّ.

فالمعركه الناشبه اليوم بينه وبين قريش هى أشد ما وقع منذ يوم بعثه، وهى معركه حياه أو موت بالنسبه له ولها. والغلب لا ريب للصادقين. فليجمع أمره وليستعن بالله وليكن لما تكيد قريش أشدّ ازدراء ممّا كان فى كلّ ما سلف، وليتقدم ولكن فى حكمه وأناه ودقه؛ فالموقف موقف حنكه السياسى والقائد الدقيق المناوره.

وأمر أصحابه أن يلحقوا الأنصار بيثرب على أن يتركوا مكّه متفرقين حتى لا يثيروا ثائره قريش عليهم. وبدأ المسلمون يهاجرون فرادى أو فى نفر قليل. لكنّ قريشاً فطنت للأمر فحاولت أن تردّ كلّ من استطاعت رده إلى مكّه لتفتنه عن دينه أو لتعذّبه وتنكّل به. وبلغت من ذلك أنّها كانت تحول بين الزوج وزوجه إذا كانت المرأه من قريش فلا تدعها تسير معه، وأنّها كانت تحبس من لم يطعها وتستطيع حبسه. لكنّها لم تكن تقدر على أكثر من ذلك حتى لا تكون حرب أهليه بين مختلف قبائلها إذا هى همّت بقتل واحد

من أهل هذه القبائل. وتتابع هجره المسلمين إلى يثرب و «محمّد» مقيم حيث هو، لا يعرف أحد: أهو قد اعتزم الإقامة أم قرر الهجره؟ وما كانوا ليعرفوا وقد أذن لأصحابه في الهجره إلى الحبشه من قبل، وظلّ هو بمكّه يدعو سائر أهلها إلى الإسلام. وبلغ من ذلك أن أبا بكر استأذنه في الهجره إلى يثرب، فقال له:

لا تعجل لعلّ الله يجعل لك صاحباً. ولم يزد على ذلك(١).

على أن قريشاً كانت تحسب لهجره النبيّ إلى يثرب ألف حساب. لقد كثر المسلمون فيها كثره جعلتهم يكادون يكونون أصحاب اليد العليا. وهامهم أولاء المهاجرون من مكّه ينضمّون إليهم فيزيدونهم قوّه، فإذا لحق «محمّد» بهم وهو على ما يعرفون من ثبات وحسن رأى وبُعد نظر، خشوا على أنفسهم أن يدهم اليثريون مكّه أو يقطعوا عليها طريق تجارتها إلى الشام، وأن يجيعوها، كما حاولوا هم أن يجيعوا «محمّداً» وأصحابه حين وضعوا الصحيفة بمقاطعتهم وأكرهوهم على أن يلزموا الشّعب وأن يقضوا فيه ثلاثين شهراً.

وإذا بقى «محمّد» بمكّه وحاولوا منعه الخروج منها فهم معرّضون إلى مثل هذا الأذى من جانب اليثريين دفاعاً عن نبيّهم ورسولهم. فلم يبق إلّا أن يقتلوه ليستريحوا من كلّ هذا الهمّ الواصب. لكنّهم إن قتلوه طالب بنوهاشم وبنو المطلب بدمه وأوشكت الحرب الأهليه أن تفسو في مكّه فتكون شرّاً عليها ممّا يخشونه من ناحيه يثرب. واجتمع القوم بدار الندوه يفكّرون في هذا كلّه وفي وسيله اتقائه. قال قائل منهم: احبسوه في الحديد واغلقوا عليه باباً ثمّ تربّصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله، زهيراً والنابعه

ص: ٢٩٦

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٤٦٨/١. ولكّنه فيه خبر مرسل بلا إسناد.

ومن مضى منهم، حتى يصيبه ما أصابهم. لكنَّ هذا الرأى لم يلق سميعاً. وقال قائل: نخرجه من بين أظهرنا وننفيه من بلادنا ثمَّ لا نبالى بعد ذلك من أمره شيئاً. لكنَّهم خافوا أن يلحق بالمدينه وأن يصيبهم ما يفرقون منه. وانتهوا على أن يأخذوا من كلِّ قبيله فتى شاباً جليداً وأن يعطوا كلَّ فتى سيفاً صارماً بتياراً فيضربونه جميعاً ضربه رجل واحد، فيتفرق دمه بين القبائل، ولا تقدر بنوعبدمناف على قتالهم جميعاً، فيرضون فيه بالديه وتستريح قريش من هذا الذى بدد شملها وفرق قبائلها شيعاً. وأعجبهم هذا الرأى فاطمأنوا إليه واختاروا فتيانهم وباتوا يحسبون أن أمر «محمد» قد فرغ منه، وأنه بعد أيام سيواري وتواري دعوته فى التراب، وسيعود الذين هاجروا إلى يثرب إلى قومهم وإلى دينهم وآلهتهم، وتعود بذلك لقريش ولبلاذ العرب وحدتها التى تمزقت، ومكانتها التى تضععت أو كادت (١).

ص: ٢٩٧

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٤٨٠/١، إمتاع الأسماع: ٥٦/١.

الأمر بالهجرة، عليّ في فراش النبيّ، في غار ثور، الخروج إلى يثرب، قصه سراقه بن جعشم، مسلمو يثرب في انتظار الرسول، الإسلام بيثرب، دخول محمد المدينة.

اتّصل ب «محمد» نبأ ما بيّنت قريش لقتله مخافه هجرته إلى المدينة واعتزازه بها، وما قد يجرّ ذلك على مكّه من أذى وعلى تجارتها مع الشام من بوار. ولم يكن أحد يشك في أنّ «محمدًا» سينتهز الفرصه فيهاجر؛ على أنّ ما أحاط به نفسه من كتمان لم يجعل لأحد إلى سرّه سبيلًا. حتى أبو بكر، الذي أعدّ راحلتين منذ استأذن النبيّ في الهجره فاستمهله (١)، قد بقى لا يعرف من الأمر إلّا قليلاً. ولقد ظلّ «محمد» بمكّه حتى علم من أمر قريش ما علم وحتى لم يبق من المسلمين بها إلّا القليل. وإنه لينتظر أمر ربّه إذ أوحى إليه أن يهاجر (٢). هنالك ذهب إلى بيت أبي بكر وأخبره بأنّ الله أذن له في الهجره،

ص: ٢٩٩

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٤٨٠/١.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٤٨٢/١.

وطلب الصديق أن يصحبه في هجرته فأجاب إلى ما طلب (١).

هنا تبدأ قصة من أروع ما عرف تاريخ المغامرة في سبيل الحقّ والعقيدة والإيمان. كان أبو بكر قد أعدّ راحتيه ودفعهما إلى عبدالله بن أريقط يرعاهما لميعادهما (٢). فلمّا اعتزم الرجلان مغادره مكّه لم يكن لديهما ظلّ من ريب في أنّ قريشاً ستتبعهما. لذلك اعتزم «محمّد» أن يسلك طرقاً غير مألوفه وأن يخرج إلى سفره في موعد كذلك غير مألوف. وكان هؤلاء الشبان الذين أعدت قريش لقتله يحاصرون داره في الليل مخافه أن يفترّ. ففي ليله الهجره أسرّ «محمّد» إلى عليّ بن أبي طالب أن يتسجّى برده الحضرمي الأخضر وأن ينام في فراشه (٣)، وأمره أن يتخلف بعده بمكّه حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس (٤). وجعل هؤلاء الفتية من قريش ينظرون من

ص: ٣٠٠

١- (١) ابن إسحاق في السيره: ١٢٨/٢ ولكنه خبر مرسل عن عروه عن عائشه، ولم ينقل عن غير هذا الطريق. ثمّ الخبر يقول: أتانا رسول الله بالهاجر، وليس فيه خبر عن عودته إلى بيته ثمّ رجوعه إليه ليلاً، بينما من المسلم به المفروغ عنه أنّ خروجه من داره كان ليلاً. فكيف التوفيق!؟

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٤٨٤/١-٤٨٥.

٣- (٣) حيث إنّ لبطوله مبيت الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في فراش الرسول صلى الله عليه وآله من الحوادث التي أرّخ لها القرآن ونزلت بحقّها آيه وذكرتها الصحاح والتفاسير والسير، لكنّ الكاتب غصّ النظر عنها وتمرّ عليها مرور الكرام.

٤- (٤) ويضاف أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال لعليّ عليه السلام: «يا عليّ إنّ قريشاً اجتمعت على المكر بي وقتلي وأنه أوحى إليّ عن ربّي أن أهجر دار قومي، فتمّ على فراشي والتحف ببرد الحضرمي لتخفي بمبيتك عليهم أثري فما أنت قائل وصانع؟ فقال عليه السلام: أو تسلمنّ بمبيتي هناك يا نبيّ الله؟ فقال: نعم، فتبسّم عليّ عليه السلام ضاحكاً مسروراً وهوى إلى الأرض ساجداً شاكراً لله تعالى لما أنبأه رسول الله صلى الله عليه وآله في سلامته وقال عليه السلام: امض لما أمرت فداك سمعي وبصري وسويداء قلبي. (راجع مسند أحمد: ٣٣١/١ ط ١، وتفسير الطبري: ١٤٠/٩، ومستدرک الحاكم: ٤/٣ طبعه حيدرآباد الدكن. وبهذه المناسبه نزلت الآيه الكريمة: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ الْبَقْرَه: ٢٠٧ في حقّ عليّ عليه السلام حيث أحاط المشركون بالدار فأوحى الله إلى جبرئيل وميكائيل: إنّي قد آخيت بينكما وجعلت عمر -

فرجه إلى مكان نوم النبي فيرون في الفراش رجلاً فتطمئن نفوسهم إلى أنه لم يفتر (١). فلَمَّا كان الثلث الأخير من الليل خرج في غفله منهم إلى دار أبي بكر (٢) وخرج الرجلان من خوخه في ظهرها وانطلقا جنوباً إلى غار ثور، أن كان اتجاهاهما نحو اليمن مما لا يرد بالبال. لم يعلم بمخبئتهما في الغار غير عبدالله بن أبي بكر وأختيه عائشه وأسماء ومولاهم عامر بن فهيره. أما عبدالله فكان يقضى نهاره بين قُريش يستمع ما يأترون «بمحمد» ليقصه ليلاً على النبي وعلى أبيه. وأما عامر فكان يرعى غنم أبي بكر، وكان إذا أمسى أراح عليهما فاحتلبا وذبحا، وإذا عاد عبدالله بن أبي بكر من عندهما تبعه عامر بالغنم فعفى على أثره. وأقاما بالغار ثلاثه أيام كانت قُريش أثناءها تجدد في طلبهما أيّ جدّ. وكيف لا تفعل وهي ترى الخطر محدقاً بها إن هي لم تدرك «محمدًا» ولم تحل بينه وبين يثرب (٣). أمّا الرجلان فأقاما بالغار و«محمد» لا يفتر عن ذكر الله، إليه أسلم أمره وإليه تصير الأمور؛ وأبو بكر يُرهب أذنه يريد أن يعرف هل الذين يقفون أثرهما قد أصابوا من ذلك نجاحاً. وأقبل فتیان قُريش، من كل بطن رجل، بأسيافهم وعصيهم وهراواتهم يدورون باحثين في كل الأنحاء، حتى إذا التقوا براع سألوه فكان جوابه: وقد يكون

ص: ٣٠١

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٤٨٢/١-٤٨٣.

٢- (٢) مرّ التعليق عليه.

٣- (٣) السيره النبويه لابن هشام: ٤٨٥/١-٤٨٦.

بالغار وإن كنت لم أرَ أحداً أُمَّه.

وتصيّب أبو بكر عرقاً حين سمع جواب الراعى، وخاف أن يقتحم الباحثون الغار عليهما، فأمسك أنفاسه وبقي لا حراك به وأسلم لله أمره. وأقبل بعض القرشيين يتسلقون إلى الغار ثم عاد أحدهم أدراجه، فسأله أصحابه:

مالك لم تنظر في الغار؟ فقال: إن عليه العنكبوت من قبل ميلاد «محمّد»، وقد رأيت حمامتين وحشيتين بقم الغار، فعرفت أن ليس أحد فيه. ويزداد «محمّد» إمعاناً في الصّلاه، ويزداد أبو بكر خوفاً، فيقترب من صاحبه ويلصق نفسه به، فيهمس «محمّد» في أذنه: لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا.

وفى روايه كتب الحديث: أنّ أبا بكر لما شعر بدنوّ الباحثين، قال هامساً:

لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا.

فأجابه النبيّ:

يا أبا بكر، ما ظنّك باثنين الله ثالثهما.

وزاد القرشيين اقتناعاً بأنّ الغار ليس به أحد أن رأوا الشجره تدلّت فروعها إلى فوهته، ولا سبيل إلى الدخول إليه من غير إزاله هذه الفروع. إذ ذاك انصرفوا، وسمع اللاجئان تناديهم للأوبه من حيث أتوا، فازداد أبو بكر إيماناً بالله ورسوله، ونادى «محمّد»: الحمد لله، الله أكبر.

نسيج العنكبوت والحمامتان والشجره، تلك هي المعجزه التي تقص كتب السير في أمر الاختفاء بغار ثور. ووجه المعجزه فيها أنّ هذه الأشياء لم تكن موجوده، حتى إذا لجأ النبيّ وصاحبه إلى الغار أسرع العنكبوت إلى نسيج بيتها تستر به من الغار عن الأعين، وجاءت الحمامتان فباضتا عند بابه، ونمت الشجره ولم تكن ناميه(1). وفي هذه المعجزه يقول

ص: ٣٠٢

«هذه الأمور الثلاثة هي وحدها المعجزه التي يقصّ التاريخ الإسلامى الجّد: نسيج عنكبوت وهوى حمامه ونماء شجيره.. وهى أعاجيب ثلاث لها كلّ يوم فى أرض الله نظائر...»(١).

على أن هذه المعجزه لم ترد فى سيره ابن هشام، بل كل ما أورد هذا المؤرخ فى سياق قصه الغار ما يأتى: «عمدا إلى غار بثور - جبل أسفل مكّه - فدخلاه، وأمر أبوبكر ابنه عبد الله أن يتسمّع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره، ثمّ يأتيهما إذا أمسى بما يكون فى ذلك اليوم من الخبر. وأمر عامر بن فهيره مولاة أن يرعى غنمه نهاره، ثمّ يريحها إذا أمسى فى الغار. وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما.. فأقام رسول الله صلى الله عليه وآله فى الغار ثلاثاً. وجعلت قريش فيه حين فقدوه مئه ناقه لمن يرده عليهم. وكان عبد الله بن أبى بكر يكون فى قريش نهاره ومعهم، يسمع ما يأترون وما يقولون فى شأن رسول الله صلى الله عليه وآله وأبى بكر، ثمّ يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر. وكان عامر بن فهيره مولى أبى بكر يرعى فى رعيان أهل مكّه، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبى بكر فاحتلبا وذبحا، فإذا عبد الله بن أبى بكر من عندهما إلى مكّه تبع عامر بن فهيره أثره بالغنم حتى يعفّى عليه. حتى إذا مضت الثلاث وسكن عنهما الناس، أتاهما صاحبهما الذى استأجرا ببيعيريهما وبعير له... الخ» هذا ما ذكر ابن هشام عن قصه الغار نقلناه إلى حين خروج «محمّد» وصاحبه منه(٢).

١- (١) Lavie de Mahomet par Emiledermenghem

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ١/٤٨٥-٤٨٦. والخبر هو الخبر المرسل: حدّثنى من لا آتّهم عن عروه عن -

وفى مطارده قريش «محمدًا» لقتله، وفى قصه الغار هذه(١)، نزل قوله تعالى: وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ٢، وقوله فى سورة التوبه: إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ

ص: ٣٠٤

١- (١) الآية تقصّ الحاله التى عليها النبى صلى الله عليه و آله وهو فى الغار من جهه النصر الإلهى الخاص له وكذا إنزال السكينه عليه خاصه. لكنّ النصّ قد وُظف لأغراض مذهبيه خلافًا لظاهره، ونحن لا نريد أن نطعن بالخليفه بقدر ما نريد أن نقول إنّ الاستدلال به كفضيله ليس بصحيح. لا تتأولوا قوله تعالى: ثَانِيًا إِثْنَيْنِ فهذا مجرد إخبار أنّ النبى صلى الله عليه و آله خرج ومعه غيره وهكذا قوله تعالى: إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ خبر عن كونهما فيه إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا مدح فيه ولا فضيله أيضاً، لأنّ كلمه الصاحب تدل على الجليس والملازم للمسافر بغضّ النظر عن إيمانه وكفره، ألا- ترى أنّ الله تعالى قال فى صفه المؤمن والكافر قال لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ... وقد يقول الرجل المسلم أرسلت إليك صاحبي اليهودى ولا يدل ذلك على الفضل. وقوله تعالى: لا- تَحْزَنْ إن لم يكن فى هذا القول ذمّ فليس فيه مدح بل هو نهى محض عن الخوف والاضطراب ثمّ لا يكون قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا كفضيله أيضاً لأنه يمكن أن يكون ذلك قد جاء على وجه التهديد كما يقول القائل لغيره إذا رآه يفعل فعلاً- لا- يلقى: لا تفعل إنّ الله معنا يريد أن يقول له إنّ الله مطلع علينا عالم بحالنا. وقوله تعالى: فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ أى على النبى لا- على أبى بكر ولا- عليهما لأنها فى مورد بيان نصر الله تعالى الخاص لنبىه فى ظرف لم يكن له ناصر إلّا الله إِلا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ من هنا جاءت السكينه عليه من قبله سبحانه خاصه كتقويته بالجنود وهى الدعم والنصر الإلهى الخاص له، ثمّ إنّ رجوع الضمير فى قوله تعالى: فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ لا يعود لأبى بكر لأنّ الضمائر التى قبل هذا الضمير كلّها عائده للنبى (إلّا تنصروه) و (نصره) و (أخرجه) و (يقول) و (لصاحبه) و (أَيَّدَهُ) فلا- سبيل إلى رجوع الضمير فى (عليه) من بين كل تلك الضمائر إلى غير رسول الله من دون قرينه قاطعه تدل على هذا الإرجاع.

وفى اليوم الثالث حين عرفنا أن قد سكن الناس عنهما أتاها صاحبهما ببعيريهما وبعير له، وأتتهما أسماء بنت أبى بكر بطعامهما. فلما ارتحلا لم تجد ما تعلق به الطعام والماء فى رحالهما فشقت نطاقها وعلقت الطعام بنصفه وانتطقت بالنصف الآخر، فسُميت لذلك «ذات النطاقين». وامتطى كل رجل بعيده، ومعهما طعامهما ومع أبى بكر خمسه آلاف درهم هى كل ماله.

وزادهما اختفاؤهما بالغار وعلمهما بامعان قُريش فى تتبعهما حرصاً وحذراً، فاتخذتا إلى يثرب طريقاً غير الطريق الذى ألف الناس. سلك بهما دليلهما عبدالله بن أريقط أحد بنى الدؤل ممعناً إلى الجنوب بأسفل مكّه، ثم متجهاً إلى تهامه على مقربه من شاطئ البحر الأحمر. فلما كانا فى غير الطريق الذى ألف الناس اتجه بهما شمالاً محاذياً الشاطئ مع الابتعاد عنه، متخذاً من السبل ما قل أن يطرقه أحد. وأمضى الرجلان ودليلهما طيله الليل وصدر النهار على رواحلهم، لا يعبان بمشقه ولا يضمنيهما تعب (١). وأيه مشقه أخوف مما يخافان من قُريش لصدّهما عن الغايه التى يبتغيان بلوغها فى سبيل الله والحق! صحيح أن «محمّداً» لا تساوره ريبه فى أن الله ناصره. ولكن لا تُلَقوا بأيديكم إلى التهلكه. والله فى عون العبد مادام العبد فى عون نفسه، وفى عون أخيه. ولئن كانا قد تخطيا فى أمان أيام الغار، فإن ما جعلته قُريش لمن يردّهما أو يدل عليهما جدير بأن يستهوى نفوساً يغريها الكسب المادى ولو جاء من طريق الجريمه. ما بالك وهؤلاء العرب من قُريش يعتبرون «محمّداً» عدواً

١- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٤٨٦/١. إن الذى هياً للنبيّ الزاد والراحله على بن أبى طالب، إعلام الورى: ١٤٩/١.

لهم، وفي نفوسهم من خُلِق الغيله ما لا يأنف من الفتك بالأعزل والاعتداء على من لا يستطيع عن نفسه دفاعاً. فليكونا إذاً على أشد الحذر وليكونا كليهما أعيناً ترى وآذاناً تسمع وقلوباً تشعر وتعى.

ولم يخنهما حدسهما فقد أقبل على قريش رجل أخبرها أنه رأى ركبته ثلاثة مرّوا عليه يعتقدهم «محمّداً» وبعض أصحابه. وكان سراقه بن مالك حاضراً، فقال: إنّما هم بنو فلان، ليضلّل الرجل ليفوز بمغنم النوق المئنه.

ومكث مع القوم قليلاً. ثمّ عاد إلى بيته فتدجّج بسلاحه، وأمر بفرسه فأرسل إلى بطن الوادي حتى لا يراه أحد ساعه خروجه، وامتطاه ودفعه إلى الناحية التي ذكر ذلك الرجل. وكان «محمّداً» وصاحبه قد أناخوا في ظلّ صخره ليقيلوا ويرفّوها عن أنفسهم بعض ما أرهقها من وصب، ولينالوا من الطعام والشراب قليلاً علّهم يستعيدون قوتهم وصرهم. وبدأت الشمس تنحدر، وبدأ «محمّداً» وأبو بكر يفكران في امتطاء جمالهم إذ كانوا من سراقه قيد البصر. وكان جواد سراقه قد كبا به قبل ذلك مرتين لشده ما جهده. فلما رأى الفارس أنه وشيكة النجاح وأنه مدرّك الرجلين فرأدّهما إلى مكّه أو قاتلهما إن حاولا عن نفسيهما دفاعاً، نسي كبوتي جواده ولزّه ليمسك بيده ساعه الظفر.

لكنّ الجواد في قومته كبا كبوه عنيفه ألقى بها الفارس من فوق ظهره يتدحرج في سلاحه. وتطير سراقه وألقى في روعه أن الآلهه مانعه منه ضالّته، وأنه معرّض نفسه لخطر داهم إذا هو همّ مرّه رابعه لإنفاذ محاولته. هنالك وقف ونادى القوم: أنا سراقه بن جعشم. أنظروني أكلمكم. فوالله لا أريكم ولا يأتيكم منّي شيء تكرهونه. فلما وقفا ينظرانه طلب إلى «محمّداً» أن يكتب له كتاباً يكون آيه بينه وبينه. وكتب أبو بكر بأمر النبيّ كتاباً على عظم أو خزف ألقاه إلى سراقه، فأخذه وعاد أدراجه وأخذ نفسه بتضليل من يطاردون

المهاجر العظيم بعد أن كان هو يطارده(١).

وانطلق «محمّد» وصاحبه يقطعان بطون تهامة في قيظ محرق تتلظى له رمال الصحراء، ويجتازان آكاماً ووهاداً ولا يجدان أكثر الأمر ما يتقيان به شواظ الهاجرة، ولا يجدان إلأى صبرهما وحسن ثقتهما بالله وعظيم إيمانهما بالحقّ الذي أنزل على رسوله، ملجأ من قسوه ما يحيط بهما، وأمناً ممّا يتخوّفان أن يفجأهما. وظللاً كذلك سبعة أيام متتابعه ينيخان(٢) في حمّاره القيظ ويسريان على سفينه الصحراء الليل كلّه، يجدان في سكينته وفي ضوء النجوم اللامعه في ظلمته ما يطمئن له قلباهما وتستريح له نفساهما. فلما بلغا مقام قبيله بنى أسلم وجاء إليهما شيخها بريدة يُحييها زالت مخاوفهما واطمأنت لنصر الله قلبوهما وقد صارا من يثرب قاب قوسين أو أدنى(٣).

في فتره رحلتها هذه المضنيه كانت الأخبار قد ترامت إلى يثرب بهجره النبيّ وصاحبه ليلحقا أصحابهما فيها، وكانت قد عرفت ما لقيها من عنت قريش ومن تتبعها إياهما. لذلك ظلّ المسلمون جميعاً بها وهم ينتظرون مقدم صاحب الرساله بنفوس مُمتلئه شوقاً لرؤيته والاستماع له.

وكان الكثيرون منهم لَمّا يروه وإن كانوا قد سمعوا من أمره ومن سحر بيانه ومن قوه عزمه ماجعلهم للقياه أشدّ اشتياقاً، وفي انتظاره أشدّ تطلّعاً. وإنك لتقدّر مبلغ ما كانت تجيش به هذه النفوس حين تعلم أن من ساده يثرب من لم يروا قطّ «محمّداً». ومن اتبعوه بعد أن سمعوا أصحابه ممّن كانوا أشدّ المسلمين لدين الله دعوه ولرسول الله حبّاً. جلس سعد بن زُراره ومُصعب بن

ص: ٣٠٧

١- (١) السيره الحلبيه: ٤٢/٢-٤٤، وإعلام الورى: ٧٨/١.

٢- (٢) أناخ الرجل الجمل: أبركه - مجمع البحرين: ٤٤٧/٢.

٣- (٣) السيره الحلبيه: ٥١/٢. هو بريدة بن الحُصيب الأسلمى التميمى حامل رايه النبيّ صلى الله عليه و آله في مواقع منها لأسامه بن زيد، ثمّ كان مع عليّ عليه السلام وحضر جنازه فاطمه عليها السلام، وليس من بنى سهم من قريش.

عُمير في حائط من حوائط بني ظفر واجتمع إليهما رجال ممن أسلم؛ فبلغ نبأهما سعد بن معاذ وأسيد بن حُضير، وكانا يومئذٍ سيدي قومهما. فقال سعد لحضير: انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دارنا ليسفها ضعفاءنا، فازجرهما وانهما، فإن سعد بن زراره ابن خالتي ولا- أصبر عليه. فذهب أُسيد إليهما يزجرهما؛ فقال له مصعب: أوتجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته وإن كرهته كفّ عنك ما تكره؟ قال أُسيد: أنصفت. ورکز حربته وجلس إليهما، وسمع إلى مصعب فقام مسلماً وعاد إلى سعد بوجه غير الوجه الذي تركه به؛ فغاض ذلك سعداً وقام هو إلى الرجلين فكان أمره كأمر صاحبه، وكان من أثر ذلك أن ذهب سعد إلى قومه فقال:

يا بني عبدالأشهل، كيف تعلمون أمرى فيكم؟

قالوا: سيدنا وأوصلنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبه.

قال: فإن كلام نساءكم ورجالكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله.

فأسلم بنوعبدالأشهل جميعاً رجالاً ونساءً(١).

وبلغ من انتشار الإسلام ييثرب ومن بأس المسلمين فيها من قبل هجره النبي إليها ما لم يحلم به مسلمو مكة، وما طوّع لبعض الشبان من المسلمين أن يعبثوا بأصنام المشركين من أهلهم. كان لعمر بن الجُموح صنم من خشب يدعو مناه، قد اتخذ في داره، كما كان الأشراف يصنعون. وكان عمرو سيداً من سادات بني سلمه وشريفاً من أشرافهم. فلما أسلم فتیان قومه كانوا يريحون بالليل على صنمه يحملونه فيطرحونه على رأسه في إحدى الحفر التي يخرج أهل يثرب لقضاء حاجاتهم بها. فإذا أصبح عمرو فلم يجد الصنم التمسه حتى يعثر به ثمّ غسله وطهره وردّه مكانه وهو يبرق ويرعد ويتهدّد

ص: ٣٠٨

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٤٣٥/١-٤٣٨.

ويتوعد. وكثر فتیان بنی سلمه عبثهم بمناء ابن الجموح، وهو كل يوم يغسله ويطهره. فلما ضاق بهم ذرعاً علّق على الصنم سيفه وقال له: إن كان فيك خير فامتنع، فهذا السيف معك. وأصبح فالتمسه فوجده في بئر مقروناً إلى كلب ميت والسيف ليس معه. فلما كلمه رجال قومه أسلم بعد أن رأى بعينه ما في الشرك والوثنيه من ضلال يهوى بنفس صاحبه إلى درك لا- يجمل بإنسان(١).

يسيرُ عليك أن تقدّر، مع ما بلغ الإسلام من علوّ الشأن يثرب، تحرّق أهلها في انتظارهم مقدم «محمّد» عليهم بعد إذ علموا بهجرته من مكّه. كانوا يخرجون كلّ يوم بعد صلاتهم الصبح إلى ظاهر المدينة يتلمسونه حتى تغلبهم الشمس على الظلال في هذه الأيام الحارّه من شهر يوليه. وبلغ هو قباء على فرسخين من المدينة فأقام بها أربعة أيام ومعه أبوبكر. وفي هذه الأيام الأربعة أسس مسجدها. وبينما هم بها وصلها عليّ بن أبي طالب الذي ردّ الودائع التي كانت عند «محمّد» لأصحابها من أهل مكّه ثمّ غادرها يقطع الطريق إلى يثرب على قدميه، يسير الليل ويستخفي بالنهار، ويحتمل هذا الجهد المضنى أسبوعين كاملين، ليلحق باخوانه في الدين(٢).

وإن مسلمي يثرب لينتظرون يوماً كعادتهم إذ صاح بهم يهوديّ كان قد رأى ما يصنعون: «يا بني قَيْله، هذا صاحبكم قد جاء». وكان هذا اليوم يوم

ص: ٣٠٩

١- (١) السيره النبويّه لابن هشام: ٤٥٢/١-٤٥٣.

٢- (٢) وتريث النبيّ صلى الله عليه وآله في (قباة) أيّاماً كان انتظاراً منه لقدم ابن عمّه الإمام عليّ بن أبي طالب والفواطم عليه ليدخلوا جميعاً يثرب في حين دخل صاحب النبيّ في سفره إلى يثرب تاركاً الرسول في قباة، وما أن وصل الإمام منهمكاً من تعب الطريق ومخاطره اعتنقه رسول الله صلى الله عليه وآله وبكى رحمه لما به. راجع الكامل في التاريخ: ١٠٦/٢. وأضاف مصادر مدرسه أهل البيت: أن رسول الله صلى الله عليه وآله بعث بكاتبه إلى عليّ عليه السلام يأمره فيه بالمسير إليه والإسراع في اللحاق به، وكان قد أرسل إليه أبا واقد الليثي... أمالي الطوسي: ٨٤/٢ وعنه بحار الأنوار: ٦٤/١٩.

جمعه فصلًاها «محمّد» بالمدينه. وهناك فى المسجد الذى ببطن وادى رأتونا أقبل عليه مسلمو يثرب وكلّ يحاول أن يراه وأن يقترب منه، وأن يملأ عينيه من هذا الرجل الذى لم ير من قبل، والذى امتلأت مع ذلك نفسه بحبه وبالإيمان برسالته، والذى يذكره كل يوم أثناء صلواته مرّات. وعرض عليه رجال من سادته المدينه أن يقيم عندهم فى العدد والعُدّه والمنعه، فاعتذر لهم وامتطى ناقته وألقى لها خطابها فانطلقت فى طريق يثرب والمسلمون من حولها فى حفل حافل يخلون لها طريقها. وسائر أهل يثرب من اليهود والمشرّكين ينظرون إلى هذه الحياه الجديده التى دبت إلى مدينتهم، وإلى هذا القادم العظيم الذى اجتمع عليه من الأوس والخزرج من كانوا من قبل أعداء متقاتلين، ولا يجول بخاطر أحدهم فى هاته البرهه التى اعتدل فيها ميزان التاريخ إلى وجهته الجديده ما أعدّ القدر لمدينتهم من جلال وعظمه يبقيان على الزمن ما بقى الزمن. وجعلت الناقه تسير حتى كانت عند مربد لغلّامين يتيمين من بنى النّجار، هنالك بركت (١)، ونزل الرسول عنها، وسأل لِمَنْ المِريّد؟ فأجابه معاذ بن عفراء: إنّه لسهل وسهيل ابني عمرو وهما يتيمان له وسيرضيهما، ورجا «محمّد» أن يتّخذ مسجداً، وقيل «محمّد» وأمر أن يُبنى فى هذا المكان مسجد وأن تُبنى داره (٢).

ص: ٣١٠

١- (١) الصحيح أنّ الناقه بركت عند مربد يعود لغلّامين يتيمين من بنى النّجار أمام دار أبى أيوب الأنصارى فأسرعت زوجته فأدخلت رحل رسول الله فى دارها فنزل عندهم رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أن تمّ بناء المسجد النبوى وبنيته. راجع السيره النبويه لابن هشام: ٤٩٢/١-٤٩٥.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٤٩٢/١-٤٩٥.

استقبال يثرب للمهاجر العظيم، بناء المسجد ومنزل النبىؐ، تفكير «محمّد» فى حريه العقيدته لأهل يثرب جميعاً، يهود المدينه، مؤاخاه «محمّد» بين المهاجرين والأنصار، معاهدته مع اليهود لتقرير حريه الاعتقاد، زواج «محمّد» من عائشه، الأذان للصلاه، مُثل «محمّد» وتعاليمه، قوه الدين الجديد وخوف اليهود منها، تحويل القبله من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، وفد نصارى نجران إلى المدينه، التقاء الأديان الثلاثة بيثرب، تفكير المسلمين فى موقفهم من قريش.

خرج أهل يثرب لاستقبال «محمّد» زرافات ووحداناً، رجالاً ونساءً، بعد الذى ترامى إليهم من أخبار هجرته ومن ائتمار قريش به، ومن احتمالته فى أشد القَيْظ هذه الرحله المضنيه بين كئبان تهامه وصخورها التى تردّ ضوء الشمس لظى وسعيراً. وخرجوا يثريهم تطلعهم، لمّا انتشر من خبر دعوته فى أنحاء شبه الجزيره وما تقضى عليه هذه الدعوه من عقائد ورثها أهلها عن آبائهم كانت عندهم موضع التقديس. لكنّ خروجهم لم يكن راجعاً إلى هذين السببين وكفى، بل كان راجعاً أكثر من ذلك إلى أنّه هاجر من مكّه إلى يثرب

ليقيم بها. فكل طائفه و كل قبيله من أهل يثرب كانت ترتب على هذا المقام، من الناحيه السياسيه و الاجتماعيه، آثارا شتى، هي التي استخفتهم أكثر مما استخفهم التطلع ليخرجوا فينظروا إلى هذا الرجل و ليروا هل تؤيد سيماه حدسهم أو هي تدعوهم إلى تعديله. لذلك لم يكن المشركون و لا كان اليهود أقل إقبالا من المسلمين، مهاجريهم و الأنصار، على استقبال النبي. و لذلك أحاطوا به جميعا و كل يخفق قلبه خفقا مختلفا عن صاحبه باختلاف ما يجول بنفسه إزاء القادم العظيم. و قد أتبعوه إذ ألقى بخطام ناقتة على غاربها في شيء من عدم النظام أدى إليه حرص كل على أن يجتلي محيآه، و أن يحيط من نواحيه جميعا بنظره ترسم في نفسه صورته من هذا الذي عقد بيعه العقبه الكبرى مع من بايعه من أهل هذه المدينه لحرب الأسود و الأحمر من الناس، و الذي هجر و طنه و فارق أهله و احتمل عدوانهم و أذاهم ثلاث عشره سنه متتابعه في سبيل توحيد الله توحيدا أساسه النظر في الكون، و اجتلاء الحقيقه من طريق هذا النظر.

و بركات ناقه النبي عليه السلام على مربد سهل و سهيل ابني عمرو، فابتاعه لبينيه مسجدا له. و أقام أثناء بنائه في دار أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري.

و عمل «محمّد» في بناء المسجد بيديه، و دأب المسلمون من المهاجرين و الأنصار على مشاركته في بنائه حتّى أتموه و أقاموا من حوله مساكن الرسول.

و ما كان بناء المسجد و لا كان بناء المساكن ليرهق أحدا و قد كانت كلّها من البساطه بما يتفق و تعاليم «محمّد». كان المسجد فناء فسيحا بنيت جدرانها الأربعة من الآجر و الترائب، و سقف جزء منه بسعف النخل و ترك الجزء الآخر مكشوفًا، و خصّصت إحدى نواحيه لإيواء الفقراء الذين لم يكونوا

يملكون سكننا(١). و لم يكن المسجد يضاء ليلاً إلا ساعه صلاه العشاء إذ توقد فيه أنوار من القش أثناءها. و كذلك ظل تسع سنوات متتابعه شدت بعدها مصايح إلى جذوع النخل التي كان يعتمد سقفه عليها. و لم تكن مساكن النبي أكثر من المسجد ترفاً، و إن كانت بطبيعتها أكثر منه استناره.

بنى «محمّد» مسجده و مساكنه و أوى من بيت أبي أيوب إليها(٢). ثم جعل يفكر في هذه الحياه الجديده التي استفتح و التي نقلته و نقلت دعوته خطوه جديده واسعه. فقد ألقى هذه المدينه و بين عشائرها من التنافر ما لم تعرف مكّه، لكنّه ألقى قبائلها و بطونها تصبو إلى حياه فيها من السكينه ما يجنبها الخلاف و الحزازات التي مزقتها في الماضي شرّ ممزق، و ما يهيئ لها في المستقبل طمأنينه تطمع معها أن تكون أوفر من مكّه ثروه و أعظم جاهاً.

و ما كانت ثروه يثرب و لا- كان جاهها أول ما يعنى «محمّداً» و إن كان بعض ما يعنيه(٣)؛ إنّما كان همّه الأول و الآخر هذه الرساله التي ألقى الله عليه تبليغها و الدعوه إليها و الانذار بها. لقد حاربها أهل مكّه من يوم بعثه إلى يوم هجرته أهول الحرب، فحال ذلك دون امتلاء كل القلوب بنورها و كل الأنفس إيماناً بها من خوف أذى قريش و عنتها. و الأذى و العنت يحولان بين الإيمان و القلوب التي لثما يدخل الإيمان إليها. فيجب أن يؤمن المسلمون و أن يؤمن غيرهم بأن من أتبع الهدى و دخل في دين الله بمأمن أن يصيبه الأذى، ليزداد المؤمنون إيماناً، و ليقبل على الإيمان المتردّد و الخائف و الضعيف. في هذا

ص: ٣١٣

١- (١) بل كان ذلك بعد حرب خيبر في السنه السابعه للهجره.

٢- (٢) السيره النبويه لا بن هشام: ٤٩٦/١، امتاع الأسماع: ٦٧/١، و مناقب آل أبي طالب لا بن شهر آشوب: ١٨٥/١.

٣- (٣) كان النبي يسعى لقيام حكومه إسلاميه يتولّى فيها صلى الله عليه و آله القياده، كنبى مبلغ عن الله رسالته و شريعته من جهه، و كحاكم يدير الشؤون السياسيه و الإداريه و العسكريه و غيرها في البلاد من جهه ثانيه.

كان يفكر «محمد» أول طمأنينته إلى مسكنه يثرب، و إلى هذا كانت تتجه سياسته. و في هذا الاتجاه يجب أن يترجم لحياته. هو لم يكن يفكر في ملك و لا- في مال و لا في تجاره. إنما كان كل همّه توفار الطمأنينه لمن يتبعون رسالته، و كفاله الحريه لهم في عقيدتهم ككفالتها لغيرهم في عقيدتهم. يجب أن يكون المسلم و اليهودى و النصرانيّ سواء في حريه العقيده، و في حريه الرأى و حريه الدعوه إليه(1). فالحريه و حدها هي الكفيله بانتصار الحق - و بتقدّم العالم نحو الكمال في وحدته العليا. و كل حرب للحريه تمكين للباطل و نشر لجيوش الظلام، لتقضى على جذوه النور المضيئه في النفس الإنسانية، و التي تصل بينها و بين الكون كلّ من أزله إلى أبده، صله اتساق و محبّه و و حده، لا صله نفور و حرب و فناء.

هذه الوجهه في التفكير هي التي نزل بها الوحي على «محمد» منذ الهجره، و هي التي جعلته جنوحا للسلم، راغبا عن القتال، مقتصدا طول حياته أشدّ القصد فيه، غير لا جئ إليه إلّا لضروره تقتضيه الدفاع عن الحريه، دفاعا عن الدين و عن العقيده. أ لم يقل له أهل يثرب ممّن بايعوه في العقبه الثانيه حين سمعوا المتجسس عليهم يصيح بقريش ينهاها لأمرهم: «والله الذى بعثك بالحق - إن شئت لنميلن - على أهل منى غدا بأسيافا». فكان جوابه:

«لم

ص: ٣١٤

١- (١) لم يكن من بنود المعاهده التي عقدها النبيّ صلى الله عليه و آله مع أهل الذمه في أن يكون لهم حريه الدعوه إلى دينهم، بل عمل النبيّ صلى الله عليه و آله لا يجاد معاهده صلح و تعاون بين المسلمين و اليهود لبناء دوله تعود بمركزيتها إلى النبيّ صلى الله عليه و آله و ارجاع قرار الفصل في الخصومات إليه، و يتمتع فيها الجميع بالحقوق الإنسانية على السواء بلا تعدّد للقياده و صياغه القرارات، و كانت المعاهده تتضمن بأنّ لليهود الحقّ في البقاء على دينهم بشرط عدم ممارسه أعمال تتقاطع مع تعاليم الدين الجديد و تضرّ بمصالح الأئمه و سيادتها الإسلاميه، مثل التعاون أو التحالف مع مشركى قريش ضد المسلمين. و سيأتى مزيد من التفصيل في بنود صحيفه المعاهده أو قل دستور المدينه الجديد بصياغه رسول الله صلى الله عليه و آله.

نؤمر بذلك»(١). ألم تكن أول آيه فى القتال(٢): أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ١٣ ألم تكن الآيه التى تلت هذه فى أمر القتال قوله تعالى:

وَ قَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ٤ . فنفكير «محمّد» إذاً إنّما كان متجهاً لغايه واحده عليا هى كفاله حريه العقيده والرأى كفاله فى سبيلها وحدها أحلّ القتال، ودفاعاً عنها أبيع دفع المعتدى حَتَّى لَا يُفْتَنَ أَحَدٌ عَن دِينِهِ، ولا يظلم أحد بسبب عقيدته أو رأيه.

بينما كانت هذه وجهه «محمّد» فى التفكير فى أمر يثرب وما يجب لكفاله الحريه فيها، كان أهل هذه المدينة ممن استقبلوه يفكر، وإن كان فريق يفكر على نحو يخالف تفكير غيره. فقد كان يثرب يومئذ المسلمون من مهاجرين وأنصار، وكان بها المشركون من سائر الأوس والخزرج، وكان بين هؤلاء وأولئك ما علمت، ثمّ كان بها اليهود يقيم منهم بنو قينقاع داخلها ويقيم بنو قريظه فى فدك وبنو النضير على مقربه منها وإلى هؤلاء يهود خيبر. أمّا المهاجرون والأنصار فقد ألف الدين الجديد بينهم بأوثق رباط، وإن بقيت فى نفس «محمّد» بعض المخاوف أن تثور البغضاء القديمه بينهم يوماً، ممّا جعله يفكر فى وسيله للقضاء على كلّ شبهه من هذا النوع تفكيراً كان له من بعد أثره. وأمّا المشركون من سائر الأوس والخزرج، فقد ألقوا أنفسهم بين المسلمين واليهود ضعافاً نهكتهم الحروب الماضيه، فاتّجه همهم للوقيعه بين هؤلاء وأولئك. وأمّا اليهود فبادروا بادئ الرأى إلى حسن

ص: ٣١٥

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٤٤٨/١، والطبقات الكبرى: ٢٢٣/١.

٢- (٢) التفسير الكبير للفخر الرازى: ٣٩/٢٣.

استقبال «محمد» ظناً منهم أن في مقدورهم إستمالته إليهم وإدخاله في دينهم، والاستعانة به على تهويد جزيره العرب حتى تقف في وجه النصرانية التي أجلت اليهود، شعب الله المختار، عن فلسطين أرض الميعاد ووطنهم القومي. وانطلق كل على أساس تفكيره يمهد أسباب النجاح لبلوغ غايته.

هنا يبدأ دور جديد من أدوار حياه «محمد» لم يسبقه إليه أحد من الأنبياء والرسل. هنا يبدأ الدور السياسي الذي أبدى «محمد» فيه من المهاره والمقدره والحنكه ما يجعل الإنسان يقف دهشاً، ثم يطأطئ الرأس إجلالاً وإكباراً. كان أكبر همّه أن يصل بيثرب موطنه الجديد إلى وحده سياسيه ونظاميه لم تكن معروفه من قبل في سائر أنحاء الحجاز، وإن كانت قد عرفت إلى ما قبل ذلك بكثير ببلاد اليمن. فتشاور هو ووزيره أبو بكر وعمر، فكذلك كان يسميهما (1). وقد كان أول ما انصرف إليه تفكيره بطبيعته الحال تنظيم صفوف المسلمين وتوكيد وحدتهم، للقضاء على كل شبهه في أن تثور

ص: ٣١٦

١- (١) كتب التاريخ حين تذكر المؤاخاه لم تذكر بأن النبي صلى الله عليه وآله قد إستشار أحداً في شأنها كطبقات ابن سعد والسيره النبويه لابن هشام وأنساب الأشراف وامتاع الاسماع وعيون الأثر وسيره ابن كثير وغيرها. نعم جاء عن ابن عمر عن رسول الله أنه قال للإمام عليّ: «أنت أخي ووزيري تقضى ديني وتنجز موعدي» مجمع الزوائد: ١٢/٩، وكنز العمال: ١٥٥/٦ عن الطبراني. وفي نهج البلاغه الخطبه (١٩٠) أنّ رسول الله قال للإمام عليّ: «ولكنك وزيري». وجاء في ما نظم على لسان الأشعث في جوابه لكتاب الإمام عليّ أنه (وزير النبي وذو صهره). وروت أسماء بنت عميس فقالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «اللهم انى أقول كما قال أخى موسى: اللهم اجعل لى وزيراً من أهلى أخى عليّاً أشدّ به أزرى» الرياض النضرة: ١٦٣/٢ عن مناقب أحمد بن حنبل. هذا ما نفهمه من الروايات بأنّ وزيره الإمام عليّ لا غير فحين الرجوع للمصادر التي ذكرناها يتبين لنا بأنّ النبي صلى الله عليه وآله لم يشاور أحداً في مسأله المؤاخاه كما لم تذكر بأنّ أبابكر وعمر وزيراه. فما هو المصدر الذى اعتمده الكاتب ليقول تشاور هو ووزيره بعد أن ثبت أنّ وزيره أمير المؤمنين عليه السلام لا غير؟ كما يأتى فى الهامش اللاحق ولكنّ الكاتب عوّدنا بكثرة اجتهاداته وفرضها على التاريخ.

العداوة القديمه بينهم. ولتحقيق هذه الغايه دعا المسلمين ليتآخوا في اللّمه أخوين أخوين. فكان هو وعلّي بن أبي طالب أخوين (١). وكان عمّه حمزه ومولاه زيد أخوين. وكان أبو بكر وخارجه بن زيد أخوين. وكان عمر بن الخطاب وعتبان ابن مالك الخزرجي أخوين. وتآخى كذلك كلّ واحد من المهاجرين الذين كثر عددهم يثرب، بعد أن تلاحق إليها سائر من كان منهم بمكّه في أعقاب هجره الرسول إليها، مع واحد من الأنصار إزاء جعل له الرسول حكم إخاء الدم والنسب سواء. وبهذه المؤاخاه ازدادت وحده المسلمين توكيداً (٢).

وأظهر الأنصار من كرم الضيافه إزاء إخوانهم المهاجرين ما تقبله هؤلاء أول الأمر مغتربين. ذلك بأنهم تركوا مكّه وتركوا وراءهم ما يملكون فيها من مال ومتاع ودخلوا المدينة ولا يكاد الكثيرون منهم يجدون قوتهم.

ص: ٣١٧

١- (١) قد مرّ عليك في حديث الانذار الذي قد تضمن نصب الوزاره للإمام عليّ بن أبي طالب بصريح قوله صلى الله عليه و آله: «فأيّكم يؤازرنى على هذا الأمر»، وكذا الروايات سابقه الذكر وتأتى مسأله المؤاخاه بين النّبى والإمام المذكوره هنا والمؤكده في كتب الحديث والسير ممّا يؤيد بأنّ الوزاره قد جعلها النّبى صلى الله عليه و آله لعلّي عليه السلام. وجاءت في شأن المؤاخاه نصوص عديده تؤكّد أنّ النّبى صلى الله عليه و آله لّمّا آخى بين أصحابه، آخى بين أبي بكر وعمر، وآخى بين عثمان وعبد الرحمن بن عوف، ولكنّه لم يؤاخ بين عليّ بن أبي طالب وبين أحد منهم. فقال عليّ عليه السلام: «يا رسول الله! لقد ذهبت روحى وانقطع ظهري حين رأيتك فعلت بأصحابك ما فعلت بغيرى، فإن كان هذا سخطاً عليّ، فلك العتبي والكرامه». فقال رسول الله صلى الله عليه و آله: «والذى بعثنى بالحقّ ما أخرتك إلّالنفسى، وأنت منى بمنزله هارون من موسى غير أنّه لا نبى بعدى، وأنت أخى ووارثى». فقال عليّ عليه السلام: «ما أرث منك؟» قال صلى الله عليه و آله: «ما ورث الأنبياء من قبلى، كتاب ربهم وسنّه نبيهم وأنت معى فى قصرى فى الجنّه». وأمّا المؤاخاه الثانيه فقد كانت فى المدينه بعد أشهر قليله من الهجره. والمصادر التاليه ذكرت المؤاخاه الأولى والثانيه: صحيح الترمذى: ٣٠٠/٥ ح ٣٨٠٤، كفايه الطالب، المراجعات ٢٨٦ المراجعة ٣٤ تتمه الهامش ٢.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٥٠٤-٥٠٦، وإعلام الورى: ٣٦٣/١، وآمالى الطوسى: ٥٨٧ ح ١٢١٥.

ولم يكن منهم على جانب من الثراء والنعمة غير عثمان بن عفّان. أمّا الآخرون فقليل منهم من احتمل من مكّه شيئاً ينفعه. وقد ذهب حمزه عمّ الرسول يوماً يطلب إليه أن يجد له ما يقتات به. وكان عبدالرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين، ولم يكن عبدالرحمن يملك بيثرب شيئاً. فعرض سعد عليه أن يشاطره ماله. فأبى عبدالرحمن وطلب إليه أن يدله على السوق، وفيها بدأ ببيع الزبده والجبن، واستطاع بمهارته التجاريه أن يصل إلى الثروه في زمن قصير، وأن يمهر إحدى نساء المدينه وأن تكون له قوافل تذهب في التجاره وتجيء. وصنع غير عبدالرحمن من بعض المهاجرين صنيعه، أن كان لهؤلاء المكّيين من الدرايه في شؤون التجاره ما قيل معه عن أحدهم: إنّه ليحيل بالتجاره رمل الصحراء ذهباً(١).

أمّا الذين لم يشتغلوا بالتجاره، ومن بينهم أبو بكر وعمر وعلّي بن أبي طالب وغيرهم، فقد عملت أسرهم في الزراعه في أراضي الأنصار مزارعه مع مُلاكها(٢). وكان غير هؤلاء وأولئك يلقون من الحياه شده وبأساء. لكنّهم كانوا يأبون أن يعيشوا كلّاً على غيرهم؛ فكانوا يجهدون أنفسهم في العمل أشدّ الاجهاد، ويجدون في ذلك من لذه الطمأنينه لأنفسهم ولعقيدتهم مالم يكونوا يجدون بمكّه. على أنّ جماعه من العرب الذين وفدوا على المدينه وأسلموا، كانوا في حال من العوز والمتربه، حتّى لم يكن لأحدهم سكن يلجأ إليه.

هؤلاء أفراد «محمّدي» لهم ضيّفه المسجد - وهي المكان المسقوف منه - بيتون بها ويأوون إليها، ولذلك سمّوا أهل الضيّفه، وجعل لهم رزقاً من مال

ص: ٣١٨

١- (١) السيره النبويه لابن كثير: ٣٢٨/٢.

٢- (٢) السيره النبويه لابن كثير: ٣٢٨/٢-٣٢٩.

المسلمين من المهاجرين والأنصار الذين آتاهم الله رزقاً حسناً^(١).

اطمأنَّ «محمَّد» إلى وحده المسلمين بهذه المؤاخاه. وهي لا-ريب حكمه سياسيه تدلّ على سلامه تقدير وبعد نظر، نتبين مقدارهما حين نقف على ما كان من محاوله المنافقين الوقيعه بين الأوس والخزرج من المسلمين وبين المهاجرين والأنصار لافساد أمرهم. لكنّ العمل السياسى الجليل حقاً والذي يدلّ على أعظم الاقتدار، فذلك ما وصل به «محمَّد» إلى تحقيق وحده يثرب وإلى وضع نظامها السياسى بالاتفاق مع اليهود على أساس متين من الحريه والتحالف. وقد رأيت اليهود كيف أحسنوا استقباله أملاً فى استدارجه إلى دينهم. وقد بادر هو إلى ردّ تحيتهم بمثلها، وإلى توثيق صلته بهم، فتحدث إلى رؤسائهم وتقرب إليه كبارؤهم وربط بينه وبينهم برابطه المودّه كأهل كتاب موحدين. وبلغ من ذلك أن كان يصوم يوم صومهم، وكانت قبلته فى الصلاه ما تزال إلى بيت المقدس قبله أنظارهم ومثابه بنى إسرائيل جميعاً.

وما كانت الأيام لتزيده باليهود أو لتزيد اليهود به إلّامودّه وقربى. كما أنّ سيرته وعظيم تواضعه وجميل عطفه وحسن وفائه وفيض بزه بالفقير والبائس والمحروم وما أورثه ذلك من قوه السلطان على أهل يثرب، كلّ ذلك وصل بالأمر بينه وبينهم إلى عقد معاهدته^(٢) صداقه وتقرير لحريه الاعتقاد وتحالف؛ هي، فى اعتقادنا، من الوثائق السياسيه الجديده بالاعجاب على ممّر التاريخ. وهذا الدور من حياه الرسول لم يسبقه إليه نبى أو رسول. فقد

ص: ٣١٩

١- (١) السيره الحلييه: ٨١/٢. بل كان ذلك بعد حرب خيبر فى السنه السابعه للهجره.

٢- (٢) سيره ابن هشام: ٥٠١/١، وعيون الأثر: ٢٢٧/١.

كان عيسى وكان موسى وكان من سبقهما من الأنبياء يقفون عند الدعوه الدينيه يبلغونها للناس من طريق الجدل، ومن طريق المعجزه، ثم يتركون لمن بعدهم من الساسه وذوى السلطان أن ينشروا هذه الدعوه بالمقدره السياسيه وبالدفاع عن حريه إيمان الناس بها، ولو دفاعاً مسلحاً، فيه الحرب والقتل والقتال. انتشرت المسيحيه على يد الحواريين من بعد عيسى، فظلوا ومن تبعهم يعدّون، حتى جاء من الملوك من لان قلبه لهذا الدين فأواه ونشره. وكذلك كان أمر سائر الأديان فى شرق العالم وغربه. فأما «محمّد» فقد أراد الله أن يتم نشر الإسلام وانتصار كلمه الحقّ على يديه، وأن يكون الرسول والسياسيّ والمجاهد والفاتح، كلّ ذلك فى سبيل الله وفى سبيل كلمه الحقّ التى بُعث بها. وهو قد كان فى ذلك كلّه عظيماً، وكان مثل الكمال الإنسانى على ما يجب أن يكون.

كتب «محمّد» بين المهاجرين والأنصار كتاباً واعد فيه اليهود وعاهدهم وأقرّهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط لهم. وهذا الكتاب يقرّر أنّ: «المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمّه واحده من دون الناس، وكلّ طائفه منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وأنّ المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم - والمفرح المثقل بالدين والعيال(1) - أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل. وألّا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه. وأن المؤمنين المتقين على من

ص: ٣٢٠

١- (١) نقله عن ابن هشام فى السيره: ١٤٨/٢. والأولى أن يكون مفدوحاً من الفداحه، راجع مجمع البحرين: ٣٩٧/٢.

بغى منهم أو ابتغى دسيعه - أى طبيعه - ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمناً فى كافر ولا ينصر كافراً على مؤمن، وأن ذمه الله واحده يجير عليهم أذناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس.. وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأُسوه غير مظلومين ولا متناصرٍ عليهم، وأن اليهود ينفقون مع المسلمين ماداموا محاربين، وأن يهود بنى عوف أمه مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، ويهود بنى النخار وبنى الحارث وبنى ساعده وبنى جُشم وبنى ثعلبه وبنى الأوس ومواليهم وبطانتهم كبنى عوف سواء، وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفه وبينهم النصح والنصيحه والبرّدون الإثم، واليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين، وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفه، وأن الجار كالنفس غير مضارّ ولا آثم، ولا تُجار حرمه إلّاباذن أهلها، ولا- تُجار قريش ولا- من نصرها. وأن بينهم النصر على من دهم يثرب، واذا دُعوا إلى صلح يصلحونه ويلبسونه فإنهم يصلحونه ويلبسونه، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفه من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإنّ مردّه إلى الله وإلى محمّد رسول الله»(1).

هذه هى الوثيقه السياسيه التى وضعها «محمّد» منذ ألف وثلاثمائه وخمسين سنه، والتى تُقرّر حريه العقيدته وحريه الرأى وحرمه المدينه وحرمه الحياه وحرمه المال وتحريم الجريمه. وهى فتح جديد فى الحياه السياسيه والحياه المدينه فى عالم يومئذٍ؛ هذا العالم الذى كانت تعبت به يد

ص: ٣٢١

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: / ٥٠١-٥٠٤، وعيون الأثر: ٢٢٧/١، وإعلام الورى: ١٥٨/١.

الاستبداد وتعيث فيه يد الظلم فساداً. ولئن لم يشترك في توقيع هذه الوثيقة من اليهود بنوقريظه وبنوالنضير وبنوقينقاع فإنهم مالبثوا بعد قليل أن وقّعوا بينهم وبين النبي صحفاً مثلها. وكذلك أصبحت المدينة وما وراءها حرماً لأهلها، عليهم أن ينضحوا عنها ويدفعوا كلّ عاديه عليها، ويتكافلوا فيما بينهم لاحترام ما قرّرت هذه الوثيقة فيها من الحقوق ومن صور الحرّيه.

طاب «محمد» نفساً بهذه النتيجة، وسكن المسلمون إلى دينهم وجعلوا يقيمون فرائضه مجتمعين وقيمونها فرادى لا يخافون أذى ولا يخشون فتنه. إذ ذاك بنى «محمد» بعائشه بنت أبي بكر، وكانت في العاشره أو الحاديه عشره من عمرها. وكانت فتاه رقيقه حلوه القسّمات محبّبه العشره، وكانت تخطو دراكماً من الطفوله إلى الصبا، وكانت ذات ولع باللعب والمرح.

لكنّها كانت ناميه نموّاً حسناً، ووجدت في «محمد» أوّل انتقالها إليه بمسكنها إلى جانب مسكن سوده في جوار المسجد أباً بارّاً عطوفاً، وزوجاً مشفقاً رقيقاً، لا يأبى عليها أن تعبت وتلهو بالأعيانها. وتسليّه بذلك عن دائم تفكيره في العبء العظيم الذي ألقى عليه. وفي سياسه يثرب التي بدأ بتوجيهها إلى خير وجهه(١).

في هذه الفتره التي سكن فيها المسلمون إلى دينهم فرضت الزكاه وفرض الصيام وقامت الحدود، وتمكّنت بيثرب شوكة الإسلام(٢). وكان «محمد» حين قدم المدينة إنّما يجتمع إليه الناس للصلاه لحين مواقيتها بغير دعوه، ففكر في أن يدعو للصلاه ببوق، كالبوق الذي يدعو به اليهود

ص: ٣٢٢

١- (١) أسد الغابه: ٥٠١/٥.

٢- (٢) تاريخ اليعقوبى: ٣٦١/١، والسيره النبويه لابن هشام: ٥٠٨/١. بل إنّما فرضت الزكاه في مفتتح السنه التاسعه للهجره.

لصلاتهم. لكنّه كره البوق فأمر بالناقوس، فُنحت ليضرب به للصلاه، كما تفعل النصارى. على أنّه بعد مشوره عمرٍ وطائفه من المسلمين على روايه (١)، وبأمر الله على لسان الوحي في روايه أُخرى، عدل عن الناقوس أيضاً إلى

ص: ٣٢٣

١- (١) الأذان عباده والعبادات توقيفيه لا يجوز الاختراع فيها، والخروج عمّا رسمه الشارع بخصوصها يُعد تشريعاً باطلاً، وهذه المسأله موضع اتفاق عند جميع المسلمين. راجع المغنى لابن قدامه: ٥٠٦/١، والفوائد الحائريه: ٤٧٨. ثمّ إنّ تشريع الأحكام - كما هو معروف - لا يتم عبر المنامات أو عن طريق التشاور مع المسلمين ليتسنى للنبي أن يؤيد هذا الحلم أو ذاك الرأى، لتصاغ بعد ذلك كيفيه هذا التشريع وفق هذه الطريقه أو تلك. كما هي الروايات التى تحدثت عن كيفيه تشريع الأذان. ولهذا وردت على هذه الروايات عدّه ملاحظات، منها: التعارض فى دلالاتها، فنجد البخارى ينقلها بكيفيه غير ما تنقلها المصادر الأخرى، راجع صحيح البخارى: ٣٠٦/١، وتهذيب التهذيب: ١٨٨/١٢، وفتح البارى لابن حجر: ٨١/٢، وسنن البيهقى: ٦٠٨/١، والسيره الحلبيه: ٩٥/٢. ولكنّ القوشجى ينهى النزاع حين ينقل لنا قول الخليفه الثانى: (ثلاث كنّ على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وأنا أنهى عنهم وأحرمهم وأعاقب عليهم: متعه النساء، ومتعه الحجّ، وحى على خير العمل). شرح التجريد للقوشجى: ٤٨٤. ويؤكد هذه المسأله من جهه أخرى الروض النضير فقد جاء فيه: قال الزركشى: كان ابن عمر وهو عميد أهل المدينه يرى أفراد الأذان والقول فيه (حى على خير العمل): ٥٤٢/١. وفى الروض النضير أيضاً، قال: كثير من علماء المالكيه وغيرهم من الحنفيه والشافعيه: أنّه كان (حى على خير العمل) من ألفاظ الأذان. ٥٤٢/١. وقال الشوكانى نقلاً من كتاب الأحكام: وقد صحّ لنا أن (حى على خير العمل) كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله يؤذن بها، ولم تطرح إلّافى زمن عمر. نيل الأوطار: ٣٢/٢. أمّا لو لاحظنا الروايات المخالفه لهذه كيفيه لوجدناها تتحدث أن الأذان فى زمن رسول الله كان خالياً من التثويب (الصلاه خير من النوم) وله كيفيه أخرى، وقد أضيف التثويب بعد عصر التشريع وبالتحديد فى زمن الخليفه الثانى. راجع شرح الزرقانى على موطأ الإمام مالك: ٢٤٣/١ ح ٤٠، وكنز العمال: ٣٥٥/٨، ووسائل الشيعه للحرّ العاملى: ١٤٦/٥. وبهذا يمكن القول بأنّ الأذان فى زمن رسول الله صلى الله عليه وآله كان متضمناً لذكر (حى على خير العمل) وخالياً من (الصلاه خير من النوم). راجع سلسله فى رحاب أهل البيت رقم ١٩ و ٢٤ الصادره عن المجمع العالمى لأهل البيت عليهم السلام قُسم المُقدّسه شبكه المعلومات (الإنترنت)

gro.tyab-lu-lha.www

خريطة بلاد العرب

ص: ٣٢٤

الأذان، وقال لعبدالله بن زيد بن ثعلبه:

«قم مع بلال فألقها عليه - أى صيغه الأذان -

فليؤذن بها فإنه أندى صوتاً منك». وكان لامرأه من بنى النجار منزل إلى جانب المسجد أعلى منه، فكان بلال يرقاه فيؤذن عليه. وكذلك صار أهل يثرب جميعاً يسمعون منذ الفجر من كل يوم دعوة إلى الإسلام مرتله ترتيلاً حسناً بصوت رطب جميل يوجهها بلال مع كل ريح إلى كل النواحي ويلقى في أذن الحياه نداءه: «الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حتى على الصلاة، حتى على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله»^(١).

وكذلك انقلبت مخاوف المسلمين أمناً، وأصبحت يثرب مدينه الرسول، وأصبح غير المسلمين من أهلها يشعرون بقوه المسلمين، قوه منبعته من أعماق قلوب عرفت التضحية في سبيل الإيمان وذاقت الأذى بسببه ألواناً، وهاهى ذى اليوم تحصد ثمره الصبر وتستمتع من حريه العقيدته بما قرّر الإسلام من أن ليس لإنسان على إنسان سياده، ومن أن الدين لله وحده والعبوديه له وحده، والناس أمام وجهه الأكرم سواسيه لا يُجزون إلا بأعمالهم وبالتيه التي تصدر هذه الأعمال عنها.

وانفسح المجال أمام «محمّد» ليعلن تعاليمه، وليكون بذاته وبتصرفاته المثل الأسمى لهذه التعاليم، وليضع بذلك حجر الأساس للحضاره الإسلاميه.

وحجر الأساس هذا هو الإخاء الإنسانى إخاء يجعل المرء لا يكمل إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه^(٢)، وحتى يصل به هذا الإخاء إلى

ص: ٣٢٥

١- (١) مرّ التعليق بخصوص حكم الأذان وكيفيته من حيث حذف جمله (حتى على خير العمل) فى زمن الخليفه الثانى، متجاوزاً بذلك الصيغه التي عرفت منذ عهد الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله فى هامش الصفحه السابقه فراجع.

٢- (٢) صحيح مسلم: ١٦/٢.

غايه البرّ و الرحمه من غير ضعف و لا استكانه. سأل رجل «محمّدا»: أى الإسلام خير؟ فقال:

«تطعم الطعام و تقرأ السلام على من عرفت و من لم تعرف»^(١).

و فى أوّل خطبه ألقاها بالمدينه، قال:

«من استطاع أن يقى وجهه من النار و لو بشقّه من تمر فليفعل، و من لم يجد فبكلّمه طيبه فإنّ بها تجزى الحسنه عشر أمثالها»^(٢).
و فى خطبته الثانيه، قال:

«اعبدوا الله و لا تشركوا به شيئا، و اتقوه حقّ تقاّته و أصدقوا الله صالح ما تقولون، و تحابّوا بروح الله بينكم، إنّ الله يغضب أن ينكث عهده»^(٣). بهذا و بمثله كان يحدّث أصحابه و كان يخطب الناس فى مسجده، مستندا إلى جذع من جذوع النخل التى يعتمد عليها سقفه، حتّى أمر فصنع له منبر من ثلاث درجات كان يقوم على درجته الأولى خطيبا، و كان يجلس على درجته الثانيه^(٤).

و لم تكن أقواله و حدها دعامه الدعوه إلى هذا الإخاء الذى جعل منه حجر الزاويه فى حضاره الإسلام، بل كانت أعماله و كان مثله هو هذا الإخاء فى أسمى صور كماله كان رسول الله. لكنّه كان يأبى أن يظهر فى أى من مظاهر السلطان أو الملك أو الرياسه الزمنيه. كان يقول لأصحابه:

«لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم؛ إنّما أنا عبد الله، فقولوا عبد الله و رسوله»^(٥). و خرج على جماعه من أصحابه متوكّنا على عصا، فقاموا له فقال:

«لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظّم بعضهم بعضا»^(٦)، و كان إذا بلغ فى مسيره أصحابه جلس منهم حيث انتهى

ص: ٣٢٤

١- (١) صحيح مسلم: ٩/٢.

٢- (٢) سيره ابن هشام: ٥٠١/١، إمتاع الأسماع: ٦٦/١.

٣- (٣) السيره النبويّه لا بن هشام: ٥٠١/١.

٤- (٤) الطبقات الكبرى لا بن سعد: ٢٤٩/١. بل إنّما كان ذلك فى السنه التاسعه للهجره.

٥- (٥) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٢٣/١، خلاصه عبقات الأنوار: ٣٠٥/٣.

٦- (٦) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٢٥٣/٥، منيه المرید للشهيد الثانى: ٢٠٩.

به المجلس. و كان يمازح أصحابه و يخالطهم و يحادثهم، و يداعب صبيانهم و يجلسهم فى حجره، و يجيب دعوه الحرّ و العبد و الأعمه و المسكين، و يعود المرضى فى أقصى المدينه، و يقبل عذر المعتذر، و يبدأ من لقيه بالسلام، و يبدأ أصحابه بالمصافحه، و لا يجلس إليه أحد و هو يصلى إلّا خفف صلاته و سأله عن حاجته، فإذا فرغ عاد إلى صلاته. و كان أكثر الناس تبسّماً و أطيبيهم نفساً ما لم ينزل عليه قرآن أو يعظ أو يخطب. و كان فى بيته فى مهنه أهله يلقى ثوبه و يرقعه و يحلب شاته و يخصف نعله و يخدم نفسه، و يعقل البعير و يأكل مع الخادم، و يقضى حاجه الضعيف و البائس و المسكين. و كان إذا رأى أحداً فى حاجه آثره على نفسه و أهله و لو كان بهم خصاصه. و كان لذلك لا يدخر شيئاً لغده، حتى لقد توفى و درعه مرهونه عند يهودى فى قوت عياله. و كان جمّ التواضع، شديد الوفاء، حتى لقد و فد للنجاشى و فد فقام يخدمهم، فقال له أصحابه: نكفيك. فقال:

إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين و إنى أحب أن أكافئهم. و بلغ من و فائه أنه ما ذكرت خديجه إلّا ذكرها أطيب الذكر؛ حتى كانت عائشه تقول: ما غرت على امرأه ما غرت على خديجه، لئما كنت أسمعها يذكرها. و دخلت عليه امرأه فهشّ لها و أحسن السؤال عنها؛ فلما خرجت قال:

إنها كانت تأتينا أيام خديجه، و إن حسن العهد من الإيمان(١). و بلغ من طيبه نفسه و رقه قلبه أنه كان يدع بنى بناته يداعبونه أثناء صلاته. بل لقد صلى بأمامه ابنه بنته زينب يحملها على عاتقه، فإذا سجد وضعها و إذا قام حملها(٢).

ص: ٣٢٧

١- (١) عيون الأثر: ٢/٤٠٠-٤٠٤، و كحل البصر: ٥٧-٥٨ و ٧٢.

٢- (٢) الإصابه: ٢٤/٨ / رقم ١٠٨٢٨.

ولم يقف بالبزّ والرّحمه اللذين جعلهما دعامة الإخاء الذى قامت الحضاره الجديده على أساسه عند الإنسان، بل عدّاهما إلى الحيوان كذلك.

كان يقوم بنفسه فيفتح بابه لهزّه تلمس عنده ملجأ، و كان يقوم بنفسه على تمريض ديك مريض، و كان يمسح لجواده بكم قميصه. و ركب عائشه بعيرا فيه صعوبه فجعلت تردّده؛ فقال لها:

عليك بالرفق. و كذلك شملت رحمته كل ما اتصل بها، و أظلت كل من كان بحاجة إلى فيء ظلالها(١).

و هى لم تكن رحمه ضعف و لا استكانه، و لم تشبها شائبه من و لا استعلاء؛ إنّما كانت إخاء فى الله بين «محمّد» و الذين اتصلوا به جميعا. و من ثم يفترق أساس حضاره الإسلام عن كثير من سائر الحضارات. الإسلام يضع العدل إلى جانب الإخاء و يرى أن الإخاء لا يكون إخاء إلابه. فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ٢ وَ لَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ٣. يجب أن يكون الدافع النفسانى وحده و الإراده الحرّه المطلقه و ابتغاء وجه الله دون أى اعتبار آخر، مصدر الإخاء و ما يدعو إليه من بزّ و رحمه، و يجب أن يصدر ذلك عن نفس قويه لا تعرف لغير الله إسلاما و لا تضعف و لا تتهالك باسم الورع أو التقوى، و لا- يتسرب إليها خوف أو وهن إلّا عن معصيه تجترحها أو إثم تقترفه. و لا تكون النفس قويه إذا كانت فى حكم غيرها، و لا تكون قويه إذا خضعت لحكم أهوائها و شهواتها. و قد هاجر

ص: ٣٢٨

١- (١) الأدب المفرد للبخارى: ١٠٥، السنن الكبرى، للبيهقى: ١٩٣/١٠، صحيح مسلم: ٢٣/٨، مسند أحمد: ١٢٥/٦، و كحل البصر: ٧٠.

«محمّد» و أصحابه من مكّه حتّى لا- يكونوا فى حكم قريش و لا- يضعف أذاها نفس أحد منهم. و النفس إنّما تخضع لحكم الأهواء و الشهوات إذا تحكّم الجسد فى الروح و غلبت الشهوه العقل، و أصبحنا نقيم للحياه الخارجه عنّا سلطانا على حياتنا نحن، على حين أنا فى غنى عنها و أنّا أصحاب السلطان عليها.

و كان «محمّد» المثل الأعلى فى القوه على الحياه، قوه جعلته لا يأبى أن يعطى غيره كل ما عنده، حتّى قال أحدهم: إن «محمّدا» يعطى عطاء من لا لا يخشى فاقه (١). و لكى لا يكون لشيء ممّا فى الحياه سلطان عليه، و ليكون له هو كل السلطان عليها، كان شديد الزهد فى مادّتها، على شدة رغبته فى الإحاطه بها و فى معرفه أسرارها، و توقه إلى غايه الحقيقه من أمرها. بلغ من زهده فيها، أن كان فراشه الذى ينام عليه أدمًا حشوه ليف (٢)، و أنّه لم يشبع قطّ و لم يطعم خبز الشعير يومين متواليين (٣). و كان السويق طعام أكلته الكبرى (٤)، و كان التمر طعام سائر يومه (٥). و كان الثريد ممّا لا يكثر له و لأهله تناوله (٦). و لقد عانى الجوع غير مرّه، حتّى كان يربط على بطنه حجرا يكظم به على صيحات معدته (٧). ذلك كان معروف أمره فى طعامه، و إن لم يمنع

ص: ٣٢٩

-
- ١- (١) عيون الأثر: ٣٩٨/٢، و الوفا: ٤٤٦، بحار الأنوار: ١١٨/١٦ و حليه الأبرار: ٢٩٣/١ و كحل البصر: ٦٢.
 - ٢- (٢) دلائل النبوه للبيهقى: ٣٤٤/١، مناقب آل أبى طالب لا بن شهر آشوب: ١٤٧/١، و حليه الأبرار: ١١٨/١.
 - ٣- (٣) دلائل النبوه: ٣٤٣/١، مكارم الأخلاق للطبرسى: ٢٨، و حليه الأبرار: ١٢٠/١-١٢١.
 - ٤- (٤) الوفا: ٦٣٧.
 - ٥- (٥) الوفا: ٦٢٥-٦٢٦، حليه الأبرار: ١٢٢/١.
 - ٦- (٦) الوفا: ٦٢٠.
 - ٧- (٧) الوفا: ٤٨٠، الكافى للكلىنى: ٢١٧/٨، حليه الأبرار: ١٣٣/١.

ذلك عن أن ينال في بعض الأحيان من أطايب الرزق، و أن يعرف عنه حبه زند الخروف و القرع و العسل و الحلوى(١).

و كان زهده في اللباس كزهده في الطعام، أعطته امرأه يوما ثوبا كان بحاجه إليه، فطلب إليه أحدهم ما يصلح كفنا لميت فأعطاه الثوب(٢). و كان معروف ثيابه القميص و الكساء، و كانا من صوف أو قطن أو تيل(٣). على أنه في بعض الظروف لم يكن يأبى أن يلبس من أقمشه اليمن لباسا فخما يناسب الطرف(٤). و كان يحتذى حذاء بسيطا، و لم يلبس خفا إلا حين أهداه النجاشي خفين و سراويل(٥).

و لم يكن هذا الزهد و لا هذه الرغبة عن الدنيا تقشفا للتقشف، و لا كانا من فرائض الدين. فقد جاء في القرآن: كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ٦، و في الأثر:

«إعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا و اعمل لآخرتك كأنك تموت غدا»(٦). لكن «محمدا» أراد أن يضرب للناس المثل الأعلى في القوه على الحياه، قوه لا- يتطرق إليها ضعف، و لا- يستعبد صاحبها متاع أو مال أو سلطان، أو أى مما يجعل لغير الله عليه سياده. و الإخاء الذى يستند إلى هذه القوه و يكون له من

ص: ٣٣٠

١- (١) الوفا: ٦١٩ و ٦٢٢ و ٦٢٥ و حليه الأبرار: ١٢٨/١.

٢- (٢) صحيح البخارى: ٩٨/٢، ٨٠/٣، ١٨٩/٧، و مسند أحمد: ٤٥٦/٦، ح ٢٢٣١٨.

٣- (٣) الوفا: ٥٧٥ و ٥٧٧ و ٥٨٣.

٤- (٤) الوفا: ٥٧٩.

٥- (٥) الوفا: ٥٨٥.

٦- (٧) مأثور عن رسول الله صلى الله عليه و آله في تنبيه الخواطر: ٢٣٤/٢، و عن سبطه الإمام الحسن في مستدرک و سائل الشيعة: ٥٨/١٣.

المظهر ما ضرب «محمّد» له المثل الأعلى فيما رأيت، إخاء محض بالغ غايه الاخلاص والسموّ. إخاء لا تشوبه شائبه؛ لأنّ العدل يتصافر فيه مع الرحمه، ولأنّ صاحبه لا يرضى أن تحمله عليه إلّا إرادته الحرّه المطلقه. لكنّ الإسلام إذ يضع العدل إلى جانب الرحمه يضع العفو إلى جانب العدل، على أن يكون عفوا عن مقدره، ليكون مظهر الرحمه صريحا صحيحا، و ليكون القصد منه إلى الاصلاح صادقا.

هذا الأساس الذي وضعه «محمّد» للحضاره الجديده التي يقيّمها يتلخص خير تلخيص فيما روى عن عليّ بن أبي طالب أنّه سأله رسول الله عن سنّته فقال:

«المعرفه رأس ما لى، و العقل أصل دينى، و الحب أساسى، و الشوق مركبى، و ذكر الله أنيسى، و الثقه كنزى، و الحزن رقيقى، و العلم سلاحى، و الصبر رداى، و الرضا غنيمتى، و الفقر فخرى، و الزهد حرفتى، و اليقين قوتى، و الصدق شفيعى، و الطاعه حسبى، و الجهاد خلقى، و قره عينى فى الصلاه» (١).

تركت تعاليم «محمّد» هذه و ترك مثله و قدوته فى النفوس أعمق الأثر، حتّى لقد أقبل كثيرون على الإسلام، و زاد المسلمون بالمدينه شوكة و قوه. هنالك بدأ اليهود يفكّرون من جديد فى موقفهم من «محمّد» و أصحابه. لقد عقدوا معه عهدا، و كانوا يطمعون فى أن يضمّوه إلى دينهم و فى أن يزدادوا به على النصارى منعه و قوه. و هذا هو أقوى من هؤلاء و أولئك جميعا، و هذه كلمته تزداد ثباتا. بل هذا هو يفكّر فى أمر قريش و إخراجها إياه و إخراجها المهاجرين من مكّه، و فتنها من استطاعت فتنته من المسلمين

ص: ٣٣١

١- (١) تذكره الموضوعات، للفتنى: ٨٦، الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض: ١٤٧/١.

عن دينه. أترى اليهود يتركون دعوته تنتشر و سلطانه الروحي يمتد، مكتفين بالأمن في جواره أمنا يزيد تجارتهم سعه و ثروتهم ربحا؟ لعلهم كانوا يسيغون هذا لو أنهم آمنوا ألأتمتد دعوته إلى اليهود و ألما تفسو في عامتهم، على حين تقتضيههم تعاليمهم ألليعترفوا بنبي من غير بني إسرائيل. لكن حبرا عالما من كبار أحبارهم و علمائهم هو عبد الله بن سلام لم يلبث أن أتصل بالنبى حتى أسلم و أمر أهل بيته فأسلموا معه. و خشى عبد الله أن يقول اليهود فيه، إذا علموا بإسلامه، غير ما اعتادوا. فطلب إلى النبى أن يسألهم عنه ما شأنه؟ قبل أن يعرف أحد منهم إسلامه. قالوا: سيّدنا و ابن سيّدنا و حبرنا و عالمنا. فلما خرج عبد الله إليهم و تبيّنوا ما صنع، و دعائهم هو إلى الإسلام، خافوا عاقبه أمره فوقعوا به و أذاعوا عنه قاله السوء في أحياء اليهود كلّها؛ و أجمعوا أمرهم على أن يكيدوا ل «محمّد» و ينكروا نبوته (١). و لم يكن بأسرع من أن اجتمع إليهم من بقى على الشرك من الأوس و الخزرج و من أسلم منهما نفاقا جريا وراء مغنم أو إرضاء لذي عصبه و بأس.

وهنا بدأت حرب جدل بين «محمّد» و اليهود أشدّ لهدا و أكبر مكرًا من حرب الجدل التي كانت بينه و بين قريش بمكّه. فى هذه الحرب اليثريه تعاونت الدسيسه و النفاق و العلم بأخبار السابقين من الأنبياء و المرسلين، أقامتها اليهود جميعا صفوفًا متراصّه يهاجمون بها «محمّد» و رسالته و أصحابه المهاجرين و الأنصار. دسّوا من أحبارهم من أظهر إسلامه و من استطاع أن يجلس بين المسلمين يظهر غايه التقوى، ثم ما يلبث الحين بعد

ص: ٣٣٢

الحين أن يبدى من الشكوك و الريب و يلقي على «محمد» من الأسئلة ما يحسبه يززع في نفس المسلمين عقيدتهم به و برساله الحق التي يدعو إليها. و انضم إلى اليهود جماعه من الأوس و الخزرج الذين أسلموا هم أيضا نفاقا ليسألوا و ليقعوا بين المسلمين (١). و بلغ من تعنتهم أن اليهود منهم كانوا ينكرون ما في التوراه، و أنهم جميعا، و كلهم يؤمنون بالله سواء منهم بنو إسرائيل و المشركون الذين يتخذون أصنامهم إلى الله زلفى، كانوا يسألون «محمد»: إذا كان الله قد خلق الخلق فمن خلق الله؟! و كان «محمد» يجيبهم بقوله تعالى: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ * وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ٢ . و فطن المسلمون لأمر خصومهم و عرفوا غايه سعيهم، و رأوهم يوماً في المسجد يتحدثون بينهم خافضى أصواتهم قد لصق بعضهم ببعض، فأمر بهم «محمد» فأخرجوا من المسجد إخراجاً عنيفاً (٢). و لم يثنهم ذلك عن دسائسهم و سعيهم في الوقيعه بين المسلمين. مرّ أحدهم: شاس بن قيس على نفر من الأوس و الخزرج في مجلس جمعهم، فغاظه صلاح ذات بينهم و قال في نفسه: قد اجتمع ملأ بنى قيله بهذه البلاد؛ و ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار. و أمر فتى شاباً من اليهود كان معهم أن ينتهز فرصه يذكر فيها يوم بُعث و ما كان من ظفر الأوس فيه على الخزرج. و تكلم الغلام، فذكر القوم ذلك اليوم و تنازعوا و تفاخروا و اختصموا، و قال بعضهم لبعض: إن شئتم عُيدنا إلى مثلها. و بلغ «محمد» الأمر، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه فدكرهم بما أَلف الإسلام بين قلوبهم، و جعلهم إخواناً متحابين، و مازال بهم حتى بكى

ص: ٣٣٣

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٥١٥/١.

٢- (٣) السيره النبويه لابن هشام: ٥٢٨/١.

القوم و عانق بعضهم بعضا و استغفروا الله جميعا(١).

بلغ الجدل بين «محمّد» و اليهود مبلغا من الشدّه يشهد به ما نزل من القرآن فيه، فقد نزل صدر سورة البقره إلى الآيه الحاديه و الثمانين منها و نزل قسم عظيم من سورة النساء، و كلّه يذكر هؤلاء الكتابيين و إنكارهم ما فى كتابهم، و يلعنهم لكفرهم و إنكارهم أشدّ اللعنه: وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَ قَفَيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَ آتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَ أَيْدِنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَ فَكَلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسِكُمْ اسْتَكَبَرْتُمْ فَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ * وَ قَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ * وَ لَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ٢ .

و بلغ الجدل بين اليهود و المسلمين حدّا كان يصل أحيانا، برغم ما بينهم من عهد، إلى الاعتداء بالأيدى، و حسبك لتقدّر هذا أن تعلم أن أبا بكر، على ما كان عليه من دماثة الخلق و طول الأناه و لين الطبع، تحدّث إلى يهودى يدعى فنحاص يدعوه إلى الإسلام؛ فردّ فنحاص بقوله: (والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر و إنّه إلينا لفقير، و ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا. و إنّا عنه أغنياء و ما هو عنّا بغنى. و لو كان غنيا عنّا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا و يعطيناه، و لو كان عنّا غنيا ما أعطانا). و فنحاص يشير هنا إلى قوله تعالى: إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ ٣ لكنّ

ص: ٣٣٤

١- (١) السيره النبويه لا بن هشام: ٥٥٥/١-٥٥٦.

أبأبكر لم يطلق على هذا الجواب صبراً، فغضب و ضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً، و قال: و الذى نفسى بيده لو لا العهد الذى بيننا و بينكم لضربت رأسك يا عدو الله. و شكاً فنحاص أمره إلى النبى و أنكر ما قاله لأبى بكر فى الله (١)؛ فنزل قوله تعالى: لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَ قَتَلَهُمُ الْآنبيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ نَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ٢ .

لم يكتف اليهود بالوقيعه بين المهاجرين و الأنصار و بين الأوس و الخزرج من هؤلاء، و لم يكفهم فتنه المسلمين عن دينهم و محاوله ردهم إلى الشرك دون محاوله تهويدهم، بل زادوا على ذلك أن حاولوا فتنه

ص: ٣٣٥

١- (١) السيره النبويه لا بن هشام: ٥٥٨/١.

«محمد» نفسه. ذلك أن «أخبارهم و أشراً فهم و ساداتهم ذهبوا إليه و قالوا له:

(إنك قد عرفت أمرنا و منزلتنا، و إننا إن «اتبعتك اليهود و لم يخالفونا، و إن «بيننا و بين بعض قومنا خصومه فاحتكم إليك فتقضى لنا فتتبعك و تؤمن بك»). فنزل فيهم (١) قوله تعالى: وَ أَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَ اخِذْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصَيِّبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أ فَحُكِّمِ الْجَاهِلِيَّةَ يَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٢ .

ضاق اليهود ذرعاً ب «محمد» ففكروا في أن يمكروا به و أن يقنعوه بالجلء عن المدينة، كما أجلاه أذى قريش إياه و أصحابه عن مكة. فذكروا له من سبقه من الرسل ذهبوا جميعاً إلى بيت المقدس و كان به مقامهم، و أنه إن يكن رسولا حقاً فجدير به أن يصنع صنيعهم و أن يعتبر المدينة وسطاً في هجرته بين مكة و مدينة المسجد الأقصى. لكن «محمد» لم يحتج إلى طويل تفكير فيما عرضوا عليه ليعلم أنهم يمكرون به. و أوحى إليه الله يومئذ، على رأس سبعة عشر شهراً من مقامه بالمدينة، أن يجعل قبلته إلى المسجد الحرام بيت إبراهيم و إسماعيل (٢)، فنزلت الآية: فَدَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ حَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ

ص: ٣٣٦

١- (١) سيره ابن هشام: ٥٦٧/١، تفسير القرطبي: ٢١٣/٦، تفسير الأمل: ٣٠/٤.

٢- (٣) تفسير القرطبي: ١٥٨/٢.

شَطْرَهُ ١. و أنكر اليهود عليه ما فعل و حاولوا فتنته مرّه أخرى بقولهم: إنهم يتبعونه إذا هو رجع إلى قبلته (١)؛ فنزل قوله تعالى: سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسِيطًا لِتُكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَ يُكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَ مَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنُعَلِّمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَ إِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ٣.

في هذا الظرف و فد على المدينة و فد من نصارى نجران عدّتهم ستون راكبا، من بينهم من شرف فيهم و درس كتبهم و حسن علمه في دينهم، فكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه و مؤلوه و أخدموه و بنوا له الكنائس و بسطوا عليه الكرامات (٢). و لعلّ هذا الوفد إنّما جاء إلى مدينة النبيّ حين علم بما بينه و بين اليهود من خلاف، طمعا في أن يزيد هذا الخلاف شدّه حتّى يبلغ به العداوة، فيريح النصرانية المتاخمة في الشام و في اليمن من دسائس اليهود وعدوان العرب. و اجتمعت الأديان الثلاثة الكتابية بمجيء هذا الوفد و بجداله النبيّ و بقيام ملحمه كلاميه عنيفه بين اليهوديه و المسيحيه و الإسلام. فأما اليهود فكانوا ينكرون رساله عيسى و «محمّد» إنكارا فيه من العنت ما رأيت، و يزعمون أن عزيرا ابن الله (٣). و أمّا النصارى فكانوا يقولون

ص: ٣٣٧

١- (٢) تفسير الطبرى: ١٤٢/٢.

٢- (٤) سيره ابن هشام: ٥٧٣/١، و إقبائل الأعمال لا بن طاووس: ٤٩٦-٥١٣.

٣- (٥) سيره ابن هشام: ٥٧٠/١، تفسير مجمع البيان: ٤٠٣/١ و ٤٠٦.

بالتثليث و ألوهيه عيسى(١). و أمّا «محمّد» فكان يدعو إلى توحيد الله، و إلى الوحده الروحيه تنتظم العالم من أزلّه إلى أبده. كان اليهود و النصرارى يسئلونه عمّن يؤمن بهم من الرسل(٢)، فيقول: آمَنَّا بِاللَّهِ وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَ مَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطِ وَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَ عِيسَىٰ وَ مَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ٣. و كان ينكر عليهم أشدّ الانكار كلّ ما يلقي أيّه شبهه على و حده الله، و يذكر لهم أنّهم حرّفوا الكلم ممّا فى كتبهم عن مواضعه، و أنّهم يذهبون إلى غير ما ذهب إليه النبيون و الرسل الذين يقرون لهم بالنبوه، و أنّ ما جاء به عيسى و موسى و من سبقهم لا يختلف فى شىء عمّا جاء هو به؛ لأنّ ما جاؤ به إنّما هو الحقيقه الأزليه الخالده، التى تتكشف فى جلال و ضوحها و عظمه بساطتها لكلّ من نزه نفسه عن الخضوع لغير الله فى عظمه و وحدته، و نظر فى الكون على أنّه و حده متصله نظره ساميه فوق أهواء الساعه و مطامع العاجله و شهوات الماده، مجرّده عن الخضوع الأعمى لأوهام العامه و لما وجد عليه آباءه و أجداده.

أىّ مؤتمر أعظم من هذا المؤتمر الذى شهدت يثرب تلتقى فيه الأديان الثلاثه التى ماتزال حتّى اليوم تتجاذب مصاير العالم، و تلتقى فيه لأسمى فكره و أجلّ غايه؟ لم يكن مؤتمرا اقتصاديا و لا كان مرماه أىّ غرض من هذه الأغراض الماديه التى ينطح عالمنا اليوم عبثا صخرتها؛ إنّما كانت غايه

ص: ٣٣٨

١- (١) سيره ابن هشام: ٥٧٥/١، تفسير مجمع البيان: ٤٠٣/١ و ٤٠٦.

٢- (٢) سيره ابن هشام: ٥٦٧/١، تفسير مجمع البيان: ٤٠٥/١.

روحيه تقف من ورائها في أمر النصرانية و اليهوديه مطامع السياسه و مآرب أرباب المال و ذوى الملك و السلطان، و يقف فيه «محمّد» لغايه روحيه إنسانيه بحته، يملى عليه الله في سبيلها الصيغه التي يلقي بها إلى اليهود و إلى النصارى و إلى الناس كافه (1) ، يقول لهم فيها: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ٢ .

ما ذا يستطيع اليهود أو يستطيع النصارى أو يستطيع غيرهم أن يقولوا في هذه الدعوه: أَلَّا يَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ وَ لَا يَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، و لا يَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ فَأَمَّا الرُّوحُ الْمَخْلُصَةُ الصَّادِقَةُ، فَأَمَّا النَّفْسُ الْإِنْسَانِيَّةُ الَّتِي كَرَّمَتْ بِالْعَقْلِ وَ الْعَاطِفَةِ، فَلَا تَسْتَطِيعُ إِلَّا أَنْ تَوْمَنَ بِهَذَا دُونَ غَيْرِهِ. لكن في الحياه الإنسانية إلى الجانب النفساني جانبها المادى. فيها هذا الضعف الذى يجعلنا نقبل لغيرنا علينا سلطانا بئس يشرى به أنفسنا و أرواحنا و قلوبنا. فيها هذا الغرور القتال للكرامه و للعاطفه و لنور النفس العاقله. هذا الجانب المادى المصوّر فى المال و فى الجاه، و فى كاذب الألقاب، و الرتب هو الذى جعل أبا حارثه أكثر نصارى نجران علما و معرفه يدلى إلى فريق له باقناعه بما يقول «محمّد»؛ فلما سأله رفيقه: فما يمنعك منه و أنت تعلم هذا؟ كان جوابه:

يمنعنى ما صنع بنا هؤلاء القوم، شرفونا و مؤلونا و أكرمونا و قد أبوا إلاّ الاخلافه،

ص: ٣٣٩

١- (١) تفسير القرطبي: ١٠٥/٤، و تفسير مجمع البيان: ٣١٤/٢.

فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى (١).

دعا «محمد» اليهود والنصارى إلى هذه الدعوه أو يلاعن النصارى.

فأما اليهود فكان بينه وبينهم عهد الموادعه. إذ ذلك تشاور النصارى ثم أعلنوا إليه أنهم رأوا الأيلاعنوه و أن يتركوه على دينه و يرجعوا على دينهم (٢).

ص: ٣٤٠

١- (١) السيره النبويه لا بن هشام ٥٧٣/١، و إعلام الوري: ٢٥٤/١.

٢- (٢) و يجدر بالأستاذ هيكل أن لا يتجاوز حادثه المباهله بهذه الطريقه، و ذلك لما لها من قيمه فى حياه النبى صلى الله عليه و آله و أهل بيته، و اهتمام الوحي فيها، و دخوله المباشر فى ترتيب المسأله و كيفيتها و اختيار أشخاصها، حيث نزل قوله تعالى: «فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعِيدٍ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ وَ نِسَاءَنَا وَ نِسَاءَكُمْ وَ أَنْفُسَنَا وَ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ» آل عمران: ٦١. ليبين ما جرى فى هذه الواقعه البالغه الأهميه، و ما جرى بين الرسول صلى الله عليه و آله و بين و فد دينى من نصارى نجران. فقد قدموا إلى يثرب ليناظروا الرسول صلى الله عليه و آله فى أمر الإسلام، و بعد حديث دار بينهما اتفقوا على الابتهاال أن يجعل الله تعالى لعنته، و ينزل عذابه على الكاذبين و الحائدين عن الحق، و عتينوا للمباهله و قتا خاصا، و لما حان الوقت خرج النبى صلى الله عليه و آله للمباهله، و قد صحب معه أفضل المسلمين و أكرمهم عند الله تعالى، و هم باب مدينه علمه و أبو سبطيه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، و بضعته الطاهره سيده نساء العالمين فاطمه الزهراء عليها السلام، و الحسن و الحسين سيذا شباب أهل الجنه. و أقبل و فد النصارى و فى طليعتهم السيد و العاقب يصحبان ولديهما و عليهما الحلى و الحلل، و معهم فرسان الحرب، و هم على أحسن هيئه و استعداد، و لما رأوا هيئه الرسول صلى الله عليه و آله مع أهل بيته امتلأت نفوسهم رعبا و هلعاً، و جثا النبى صلى الله عليه و آله للمباهله، فتقدم إليه السيد و العاقب، و قد أخذتهما هيئته فقال له: - يا أبا القاسم بمن تباهلنا؟... فأجابهم النبى صلى الله عليه و آله قائلا: «أباهلكم بخير أهل الأرض، و أكرمهم إلى الله» و أشار إلى الإمام على و فاطمه و الحسنين عليهم السلام. و طفقا قائلين: - و لم لا تباهلنا بأهل الكرامه و الكبير، و أهل الشاره ممن آمن بك و أتبعك؟ فأكد لهم النبى صلى الله عليه و آله أن - أهل بيته هم أفضل الخلق و أكرمهم عند الله تعالى قائلا: «أجل أباهلكم بهؤلاء خير أهل الأرض و أفضل الخلق...». فذهلوا، و عرفوا أن - الرسول صلى الله عليه و آله على حق، فسارعوا إلى زعيمهم الأسقف قائلين له: -

لكنهم رأوا حرص «محمّد» على العدل حرصا احتذى أصحابه فيه مثاله، فطلبوا إليه أن يعث معهم رجلا يحكم بينهم فى أشياء
اختلفوا عليها من أقوالهم. و بعث «محمّد» معهم أبا عبيده بن الجراح ليقضى بينهم فيما اختلفوا فيه(١).

و جعل «محمّد» يمكّن للحضاره التى وضع حجر الأساس فيها بتعاليمه و مثله، و جعل يفكر هو و أصحابه من المهاجرين فيما لم
يفتهم التفكير لحظه فيه منذ هجرتهم من مكّه، فيما يجب أن يكون موقفهم من قريش و أمرهم

ص: ٣٤٢

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ١/٥٨٣-٥٨٤.

معهم. ولقد كان يدفعهم إلى هذا التفكير أكثر من دافع. ففي مكة كانت الكعبة بيت إبراهيم ومكان حجيجهم وحجيج العرب جميعاً. أتراهم ينقطعون عن هذا الواجب الديني المقدس عندهم اليوم أكثر ممّا كان مقدساً عندهم في الجاهلية! وفيها ما يزال لهم أهل تهوى إليهم نفوسهم وتشفق لبقائهم على الشرك أفئدتهم وقلوبهم. وفيها بقيت أموالهم ومتاعهم وتجارتهم ممّا منعهم قريش منه حين هجرتهم. ثمّ إنهم إذ حضروا المدينة كانت موبوءة بالحمى فأصابهم منها عنت شديد، وبلغت منهم حتى جهدوا مرضاً وكانوا يصلّون قعوداً^(١)، فزاد ذلك في تحنانهم إلى مكة. وهم قد أُخرجوا من مكة كارهين، فكأنهم خرجوا مغلوبين على أمرهم. وليس في طبع هؤلاء القرشيين أن يصبروا على الضيم أو يذعنوا للغلب دون تفكير في الثأر لأنفسهم منه. وإلى جانب هذه الدوافع جميعاً الدافع الطبيعي، دافع الحنين إلى الوطن. الحنين إلى المكان الذي منه نبتنا وفيه نشأنا وإلى أرضه وسهله وجبله ومائه، كان أوّل حديثنا وأوّل صداقتنا وأوّل ودنا. هذه البقعة من الأرض نمّتنا صغاراً فإليها مَثوانا كباراً. بها تتعلق قلوبنا وعواطفنا وأفئدتنا، وعنّها ندود بقوتنا وبمالنا ونضحى بمجهودنا وبحياتنا، وفيها نود أن ندفن بعد موتنا لنعود إلى ترابها الذي خرجنا منه. هذا الدافع الطبيعي أذكى في نفس المهاجرين سائر الدوافع وجعلهم لا ينفكون يفكرون في قريش وفيما يجب أن يكون موقفهم منها.

لن يكون هذا الموقف موقف استسلام أو استخذاء وقد صبروا فيها على

ص: ٣٤٣

١- (١) السيرة النبويّة لابن هشام: ٥٨٨/١.

الأذى ثلاثة عشر عاماً سويّاً. والدين الذي احتملوا فيه هذا الأذى والذي هاجروا فى سبيله لا يقرّ الضعف ولا اليأس ولا الاستكانه. وإذا كان يمقت الاعتداء وينكره ويقرّر الإخاء ويدعو إليه، فإنّه يفرض الدفاع عن النفس وعن الكرامه وعن حريه العقيدته وعن الوطن. ولهذا الدفاع أتم «محمّد» مع أهل يثرب بيعه العقبه الكبرى. فكيف يؤدّى المهاجرون هذا الفرض عليهم لله ولييته الحرام ولوطنهم مكّه المحبب إلى قلوبهم؟! هذا ما ستتجه إليه سياسه «محمّد» والمسلمين معه حتّى يتم له فتح مكّه، وحتّى يعلو دين الله وتعلو كلمه الحقّ فيها.

ص: ٣٤٤

الفصل الثاني عشر: السرايا والمناوشات الأولى

تفكير «محمد» في أمر قريش، إيفاده السرايا لتخويف قوافلهم، غزوه عبدالله بن جحش في الشهر الحرام، الإسلام والقتال.

استقرّ للمسلمين المقام بالمدينة بعد أشهر من الهجره، فبدأ تحنان المهاجرين لمكّه يزداد، وبدأوا يفكّرون فيمن تركوا وما تركوا بها، وما أنزلت قريش بهم من الأذى، فماذا عساهم يصنعون؟ تذهب الكثره من المؤرخين إلى أنّهم فكّروا وفكّر «محمد» على رأسهم في الانتقام من قريش لأنفسهم وفي مبادأتهم بالعداوه والحرب(1). بل إنّ بعضهم ليذهب إلى أنّهم فكّروا في هذه الحرب منذ مقدّمهم إلى المدينة، وإنّما منعهم من إشعال نارها أنّهم كانوا ما يزالون في شغل باعداد مساكنهم وتنظيم وسائل معاشهم.

ويستدل على ذلك بأنّ «محمدًا» إنّما عقد بيعه العقبه الكبرى لحرب الأحمر والأسود من الناس. وطبيعي أنّ تكون قريش أول من يتّجه إليهم نظره ونظر أصحابه، ممّا فطنت له قريش بكره العقبه، فخرجت في فرع تسأل الأوس والخزرج عنه.

ص: ٣٤٥

١- (١) سيره ابن هشام: ٥٩٠/١، وعيون الأثر: ٢٥٧/١.

ويؤيد هذا البعض قوله بما وقع بعد ثمانيه أشهر من مقام الرسول والمهاجرين بالمدينه، إذ بعث «محمّد» عمّه حمزه بن عبدالمطلب في ثلاثين راكباً من المهاجرين دون الأنصار إلى شاطئ البحر من ناحية العيص حيث لقي أبا جهل بن هشام في ثلاثمائه راكب من أهل مكّه، وبأنّ حمزه كان على أهبة مقاتله قريش لولا أن حجز بينهم مجدى بن عمرو الجهنى، وكان موادعاً الفريقين جميعاً، فانصرف بعض القوم عن بعض دون قتال(١)؛ وإذ بعث «محمّد» عبّيده بن الحارث في ستين راكباً من المهاجرين دون الأنصار فساروا إلى ماء بالحجاز بوادى رابغ، فلقّيهم به جمع من قريش يزيد على مئتين على رأسهم أبوسفيان، فانسحبوا من غير قتال، إلّما روى من أنّ سعد ابن أبى وقاص رمى يومئذٍ بسهم «فكان أوّل سهم رُمى به فى الإسلام»(٢)؛ وإذ بعث سعد بن أبى وقاص فى ثمانيه من المهاجرين على روايه، وفى عشرين منهم على روايه أخرى، فخرجوا إلى أرض الحجاز ثمّ عادوا أن لم يصيبوا ما أرسلوا فيه.

ويزيد هذا البعض دليله تأييداً بأنّ النبى خرج بنفسه على رأس اثنى عشر شهراً من مقدّمه إلى المدينه، واستعمل عليها سعد بن عباده، وسار إلى غزوه الأبواء حتّى بلغ ودان يريد قريشاً وبني ضميره؛ فلم يلق قريشاً وحالفته بنو ضميره(٣)؛ وأنّه بعد شهر من ذلك خرج على رأس مئتين من المهاجرين

ص: ٣٤٦

-
- ١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٥٩٥/١، والطبقات الكبرى: ٦/٢، إعلام الورى بأعلام الهدى: ١٦٣/١، بحار الأنوار: ١٨٦/١٩.
 - ٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٥٩٥/١، والطبقات الكبرى: ٦/٢، إعلام الورى بأعلام الهدى: ١٦٤/١، بحار الأنوار: ١٨٧/١٩.
 - ٣- (٣) السيره النبويه لابن هشام: ٥٩٠-٥٩١، وإمتاع الأسماع: ٧٣/١، إعلام الورى بأعلام الهدى: ١٦٦/١، وبحار الأنوار: ١٨٧/١٩.

والأنصار إلى بواط، يريد قافله يقودها أميّه بن خلف عدّتها ألفتان وخمسائه بعير ويحميها مئه محارب فلم يُدرّكها، أن اتّخذت طريقاً غير طريق القوافل المعبد (١)؛ وأنه بعد شهرين أو ثلاثه من عودته من بواط من ناحيه رَضْوَى استعمل على المدينة أبا سلمه بن عبدالأسد، وخرج في أكثر من مئتين من المسلمين حتّى نزل العُشيره من بطن يَنبع، فأقام بها جمادى الأولى وليالى من جمادى الثانيه من السنه الثانيه للهجره (اكتوبر سنه ٦٢٣ م) ينتظر مرور قافله من قريش على رأسها أبو سفيان ففاته، وكسب من رحلته هذه أن وادع بنى مُدلج وحلفاءهم من بنى ضَمَره (٢)؛ وأنه ما كاد يرجع إلى المدينة ليقيم بها عشر ليالٍ، حتّى أغار كُرز بن جابر الفهري من المتصلين بمكّه وبقریش على إبل المدينة وأغنماها، فخرج النبيّ في طلبه، واستعمل على المدينة زيد بن حارثه، وتابع مسيره حتّى بلغ وادياً يقال له «سَفَوان» من ناحيه بدر وفاته كُرز فلم يدركه. وهذه هي التي يطلق عليها كتاب السيره اسم غزوه بدر الأولى (٣).

أفلا- يقوم هذا كلاً دليلاً- على أنّ المهاجرين فكّروا وفكّر «محمّد» على رأسهم في الانتقام من قريش لأنفسهم وفي مبادأتهم بالعداوه والحرب؟ وهو على أقل تقدير - في رأى هؤلاء المؤرخين - يشهد بأنهم قصدوا من غزواتهم المبادئه هذه - والمؤرخون يسمّون هذه الرحلات سرايا وغزوات (٤) - إلى غايتين:

ص: ٣٤٧

١- (١) الطبقات الكبرى: ٨/٢، الوفا: ٦٩٧/١، إعلام الورى بأعلام الهدى: ١٦٤/١، وبحار الأنوار: ١٨٧/١٩.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٥٩٨-٥٩٩، والوفا: ٦٩٨/١، إعلام الورى بأعلام الهدى: ١٦٥/١، وبحار الأنوار: ١٨٧/١٩.

٣- (٣) السيره النبويه لابن هشام: ٦٠١/١، والطبقات الكبرى: ٩/٢، إعلام الورى بأعلام الهدى: ١٦٥/١، وبحار الأنوار: ١٨٨/١٩.

٤- (٤) بل المؤرخون وأصحاب السيره اصطلمحوا عليها بالسرايا وليست غزوات إلّا إذا كان النبيّ فيها.

الأولى: الوقوع على قوافل قريش في ذهابها إلى الشام أو عودتها منها حين رحله الصيف، واحتمال ما يمكن احتمالاه من الأموال التي تذهب هذه القوافل وتعود بالتجاره فيها.

والثانية: أخذ الطريق على قريش في رحلتها إلى الشام بعقد الموادعات والأحلاف مع القبائل المتصله ما بين المدينه وشاطئ البحر الأحمر، بما يستهل على المهاجرين مهاجمه هذه القوافل دون أن تلقى في جوار هاته القبائل ما يحميها من «محمّد» وأصحابه، حمايه تمنع أخذ المسلمين رجالها ومالها أخذ عزيز مقتدر. وهذه السرايا التي عقد النبي عليه السلام ألويتها لحمزه ولعييده بن الحارث ولسعد بن أبي وقاص، وهذه المحالفات التي عقدها مع بني ضمره وبني مُدَلج وغيرهم، تؤيد الغايه الثانيه ويشهد بأن أخذ طريق الشام على أهل مكّه كان بعض ما قصد المسلمون إليه.

فأما أنّهم بهذه السرايا التي بدأت بعد سته أشهر من مقامهم بالمدينه، والتي اشترك فيها المهاجرون وحدهم، كانوا يقصدون حرب قريش وغزو قوافلها، فذلك ما يقف الإنسان منه موقف التردّد والتفكير. فلم تكن سريره حمزه لتزيد على ثلاثين رجلاً من المهاجرين، ولم تزد سريره عبيده على ستين، وكانت سريره سعد لا تتجاوز ثمانيه نفر على قول، وعشرين على قول آخر. وكان الموكلون بحمايه قوافل قريش عاده أضعاف هذه الأعداد. وقد زادتهم قريش عدداً وعدّه منذ أقام «محمّد» بالمدينه وبدأ يحالف القبائل التي بها والقريبه منها. ومهما يكن من بأس حمزه وأبي عبيده وسعد ممّن كانوا يرأسون سرايا المهاجرين، فإنّ عدّه من معهم لم تكن لتشجعهم على

الحرب، ممّا جعلهم يعودون من هذه السرايا كلّها دون قتال إلّما قيل عن السهم الذى أطلقه سعد.

ثمّ إنّ قوافل قريش كان يحميها من أهل مكّه من تصلهم بالكثيرين من المهاجرين أواصر القربى وصلات الدم، فلم يكن يسيراً عليهم أن يقتل بعضهم بعضاً، وأن يتعرض هؤلاء وأولئك لطلب الثأر، وأن يعرضوا مكّه والمدينه جميعاً لحرب أهليه استطاع المسلمون والوثنيون جميعاً اتقاءها بمكّه ثلاث عشره سنه متتابعه من يوم بعث «محمّد» إلى يوم هجرته.

والمسلمون كانوا يعلمون أنّ بيعه العقبه كانت بيعه دفاعيه تعهّد فيها الأوس والخزرج بحمايه «محمّد»، ولم يعاهدوه ولا عاهدوا أحداً ممّن معه على العدوان؛ فليس من اليسير مع هذا كلّه التسليم مع المؤرخين، الذين لم يبدأوا بكتابه تاريخ النبى إلّابعد قرنين من وفاته، بأنّ هذه السرايا والرحلات الأولى كان يقصد بها إلى القتال بالفعل. فلا بدّ لها إذاً من تأويل أقرب إلى العقل وأكثر اتفاقاً مع سياسه المسلمين فى هذه الفتره الأولى من مقامهم بالمدينه، وأدقّ تمثيلاً مع سياسه الرسول التى كانت قائمه يومئذٍ على قواعد التفاهم والاتفاق مع مختلف القبائل، لكفاله حريه الدعوه الدينيه من ناحيه، وكفاله حسن المعامله والجوار من الناحيه الأخرى.

والراجح عندى أن هذه السرايا الأولى إنّما قُصد بها إلى إفهام قريش أنّ مصلحتهم تقتضيهم التفاهم مع المسلمين من أهلهم الذين اضطروا إلى الجلاء عن مكّه بسبب ما عانوا من الاضطهاد، تفاهماً يقى الطرفين ثمرات العداوه والبغضاء، ويكفل للمسلمين حرّيه الدعوه إلى الدين، ولأهل مكّه سلامه

تجارتهم فى طريقها إلى الشام. وقد كانت هذه التجاره التى تبعث بها مكّه والطائف جميعاً، والتى كانت تجيء إلى مكّه من بلاد الجنوب، تجاره واسعه النطاق، حتّى لقد كانت بعض القوافل تسير فى ألفى بغير، حمولتها تزيد على خمسين ألف دينار؛ وكانت صادرات مكّه السنويه، على ما قدّرها المستشرق سبرنجر، توازى مئتين وخمسين ألفاً من الدنانير، أى نحو مئه وستين ألف جنيه ذهباً. فإذا أيقنت قريش تعرّض هذه التجاره للخطر آتياً من ناحيه أبنائها الذين هاجروا إلى المدينه. دعاها ذلك إلى التفكير فى التفاهم معهم، تفاهماً طمع المسلمون فى أن يكفل لهم ما كانوا يطعمون فيه من حريه الدعوه إلى دينهم، ومن حريه الدخول إلى مكّه لأداء فرائض حجّهم. ولم يكن مثل هذا التفاهم ممكناً مالم تقدّر قريش قوه المهاجرين من أبنائها على الايقاع بها، وإيجاد طريق التجاره فى وجهها. وهذا هو ما يفسّر عندى رجوع حمزه ومن معه من المهاجرين الذين لقوا أبا جهل بن هشام عند ساحل الجزيره لأوّل ما حجّ مجدى بن عمرو الجهنى بينهما، كما يفسّر كثره اتجاه المسلمين بسراياهم إلى طريق تجاره مكّه فى عدد لا يسهل معه تصورهم مُقدمين على الحرب. وهذا كذلك هو الذى يفسّر حرص النبى، بعد ما بدا من صلّف قريش وعدم اعتدادها بقوه المهاجرين، على موادعه القبائل المقيمه على طريق هذه التجاره، والتحالف معها تحالفاً نمي خبره إلى قريش لعلّها ترعوى وتعود إلى التفكير فى التفاهم والاتفاق.

يدعم هذا الرأى بأقوى سند أن النبى عليه السلام لمّا خرج إلى بواط وإلى العُشيره كان من بين الذين صحبوه عدد غير قليل من الأنصار أهل المدينه.

والأنصار إنّما بايعوه ليدفعوا عنه، لا ليهاجموا معه. وسرى ذلك صريحاً حين

غزوه بدر الكبرى إذ يتردد «محمّد» دون القتال حتّى يوافق أهل المدينة عليه. و إذا كان الأنصار لا يرون مخالفه لبيعتهم فى أن يعاهد «محمّد» غيرهم من الناس، فليس معنى هذا أن يخرجوا معه لحرب أهل مكّه و ليس بين الفريقين من أسباب الحرب ما تجيزه أخلاق العرب، أو يجيزه نظام صلاتهم بعضهم ببعض. و مهما يكن فى هذه المواعيد التى يعقد «محمّد» من تقوية المدينة و من إضعاف ما تطمع تجاره قريش فيه من أسباب الحمايه، فشتان ما بين ذلك و بين إعلان الحرب أو السعى إليها. فالقول إذا بأن حمزه أو عبيده بن الحارث أو سعد بن أبى وقاص إنما خرجوا لحرب قريش، و تسميه سراياتهم غزوات (1) مرجوح عندنا فلا نكاد نسيغه. و القول كذلك بأن «محمّد» إنما خرج إلى الأواء و بواط و العشيره غازيا، فيه تجوز كبير تردّ عليه الاعتراضات التى قدّمتنا. و لا يفسّر أخذ مؤرخى «محمّد» به إلّا أنّهم لم يترجموا ل «محمّد» إلّا فى أواخر القرن الثانى للهجره، و أنّهم كانوا متأثرين بالمغازى التى حدثت بعد ذلك منذ بدر الكبرى، فاعتبروا ما سبقها من مناقشات يقصد بها إلى غير الحرب سرايا و مغازى تضاف أيضا إلى حروب المسلمين أيام النبى.

و الظاهر أن كثيرين من المستشرقين قد فطنوا لهذا الاعتراض و إن لم يشيروا بشىء فى كتبهم إليه. و إنّما يدعوننا إلى الظنّ بفطنتهم له أنّهم، مع مجاراتهم مؤرخى المسلمين فى قصد المهاجرين و «محمّد» على رأسهم إلى حرب أهل مكّه منذ الساعه الأولى من مقامهم بالمدينه، قد أشاروا إلى أن هذه السرايا الأولى إنما كان يقصد بها إلى نهب تجاره القوافل، و أنّ النهب كان

ص: ٣٥١

١- (١) مرّ بيان الفرق بين السرايا و الغزوات.

بعض طباع أهل البادية، و أن أهل المدينة إنما أغرتهم الغنيمه و السلب باتباع «محمّد» على خلاف عهدهم فى العقبه. و هذا كلام مردود، لأن أهل المدينة كأهل مكّه لم يكونوا أهل بادية يعيشون على السلب و النهب، و أنّهم أكثر من أهل مكّه كان فى طبعهم ما فى طبع من يعيشون على الزراعه مثلهم من حب الاستقرار، ممّا يجعلهم لا يتحركون إلى قتال إالّالدافع قوى. أمّا المهاجرون فكان من حقّهم أن يستخلصوا من أيدي قريش ما أخذت من أموالهم، و إن لم يستعجلوا ذلك قبل بدر، و لا هو كان الدافع للسرايا و الغزوات الأولى. ثم إن القتال لم يشرع فى الإسلام و لم يقم به «محمّد» و أصحابه لهذه الغايه البدويه التى يتوهم المستشرقون، و إنّما شرع و قام به «محمّد» و أصحابه حتّى لا يفتنهم عن دينهم أحد، و حتّى يكون لهم من حريه الدعوه له ما يشاؤون.

و سنرى من بعد تفصيل هذا و الدليل عليه. و عندئذ يزداد أماننا و ضوحا أن «محمّدا» إنّما كان يرمى من المعاهدات التى عقد إلى تعزيز المدينة، حتّى لا يتطرق إلى قريش فيها مطمع، فلا يحاولوا إعنات المسلمين فيها، كما حاولوا من قبل إعادتهم من بلاد الحبشه؛ و أنّه كان لا يأبى فى نفس الوقت أن يعاهد قريشا على أن تترك حريه الدعوه لدين الله طليقه، حتّى لا تكون فتنه و يكون الدين كله لله.

و لعل «محمّدا» رمى من وراء هذه السرايا و الرحلات المسلّحه إلى غرض آخر. لعلّه رمى إلى إرهاب اليهود المقيمين فى المدينة و على مقربه منها، فقد رأيت أن هؤلاء اليهود بعد أن طمعوا أوّل و صول «محمّد» إلى المدينة فى ضمّه إليهم، و بعد أن و ادعوه و عاهدوه على حريه الدعوه للدين، و على إقامه المسلمين شعائره و فرائضه، لم يلبثوا أن رأوا أمر «محمّد» يستقرّ ولواء الإسلام يسمو و يرتفع حتّى بدأوا يقلبون للنبيّ ظهر المجنّ و يعملون

على الوقيعه به. و لئن قعدوا عن مصارحته العداوه خشيه أن تتعرض مصالحهم التجاربه للارتباك إذا نشبت بين أهل المدينه حرب أهليه، أو محافظه على عهد موادعتهم، فإنّهم لجأوا إلى كلّ و سيله للدسّ بين المسلمين، و لإثاره البغضاء بين المهاجرين و الأنصار، و لا يقاظ الأحقاد الماضيه بين الأوس و الخزرج بذكر يوم بعثت و باعاده ما قيل من الشعر فيه (1).

و قد فطن المسلمون لدسّهم و لمبالغتهم فيه، و بلغوا من ذلك حتّى حشروهم فى زمره المنافقين، بل اعتبروهم شرّاً منهم، فأخرجوهم من المسجد إخراجاً عنيفاً، و أبوا عليهم أن يجلسوا إليهم أو أن يتحدّثوا معهم، و انتهى النّبى عليه السلام إلى الإعراض عنهم، بعد إذ حال إقناعهم بالحجّه و الدليل.

و طبيعى أن لو ترك حبل يهود المدينه هؤلاء على غاربهم أن يستفحل أمرهم، و أن يثيروا الفتنه التى يسعون لإثارتها. و ليس يكفى فى عرف الدقه السياسيه التحذير منهم و التنبيه لكيدهم؛ بل لا بدّ من إشعائهم أن للمسلمين من القوّه ما يمكنهم من إخماد أيه فتنه تقوم، و من القضاء على أسبابها و اجتثاث أصولها. و خير و سيله لهذا الإشعائر إرسال السرايا و القيام بالمناورات الحربيه فى مختلف الأنحاء، على ألاّ تتعرض قوّات المسلمين إلى هزيمه تطمع اليهود كما تطمع قريشا فيهم. و هذه المناوره هى ما وقع، و وقع من رجال كحمزه سريعين إلى الغضب لا تكفى لصدّهم عن القتال و ساطه موادع يدعو إلى السلم، ما لم تكن المناوشه الحربيه، ثم الامساک عن القتال فى عزّه و كرامه، سياسه مرسومه، و خطه مبيته يقصد بها إلى درك غايات معينه، هى ما ذكرنا من تخويف اليهود من ناحيه و الاتفاق مع قريش من

ص: ٣٥٣

الناحية الأخرى، على ترك الدعوة للدين وإقامه شعائره حرّه مطلقه من غير حاجه إلى حرب أو قتال.

و ليس معنى هذا أن الإسلام كان يومئذ ينكر القتال دفاعا عن النفس و دفاعا عن العقيدة، و دفعا لمن يريد فتنه صاحبها عنها. كلاً! بل إن الإسلام ليفرض هذا الدفاع. و إنما معناه أن الإسلام كان يومئذ، كما هو اليوم و كما كان دائماً، ينكر حرب الاعتداء وَ لَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ١ . و إذا كان لدى المهاجرين يومئذ ما يبيح لهم اقتضاء ما حجزت قريش من أموالهم عند هجرتهم، فإن دفع فتنه المؤمنين عن دينهم كان أكبر عند الله و رسوله، و كان الغايه الأولى التى شرع من أجلها القتال.

و الحجّه على ذلك ما نزل من الآيات فى سريه عبد الله بن جحش الأسدى؛ فقد بعثه رسول الله فى رجب من تلك السنه الثانيه للهجره و معه جماعه من المهاجرين، و دفع إليه كتابا و أمره ألا ينظر فيه إلّا بعد يومين من مسيره، فىمضى لما أمره و لا يستكره من أصحابه أحدا. و فتح عبد الله الكتاب بعد يومين، فإذا فيه:

«إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نخله بين مكّه و الطائف، فترصّد بها قريشا و تعلم لنا من أخبارهم». و علم أصحابه بالأمر و بأنّه لا يستكره أحدا منهم، فمضوا معه جميعا خلا سعد بن أبى و قاص الزهرى و عتبه بن غزوان اللذين ذهبا يطلبان بعيرا لهما ضلّ فأسرتهما قريش. و سار عبد الله و من معه حتى نزلوا نخله. هناك مرّت بهم غير لقريش تحمل تجاره عليها عمر بن الحضرمى، و كان يومئذ آخر رجب. و ذكر عبد الله بن جحش و من معه من المهاجرين ما صنعت قريش بهم و ما حجزت من أموالهم

وتشاوروا، و قال بعضهم لبعض: «والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فلميتنعن منكم به. و لئن قتلتموهم لتقتلنهم فى الشهر الحرام».

و تردّدوا و هابوا الإقدام، ثم شجّعوا أنفسهم و أجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم و أخذ ما معهم. و رمى أحدهم عمر بن الحضرمى بسهم فقتله و أسر المسلمون رجلين من قريش.

و أقبل عبد الله بن جحش بالغير و الأسيرين حتّى قدموا المدينة على الرسول. و حجز القوم ل «محمّد» من مغنمهم الخمس. فلما رأهم قال لهم:

ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام. و وقف العير و الأسيرين و أبى أن يأخذ من ذلك شيئا. و أسقط فى يد عبد الله بن جحش و أصحابه و عنفهم إخوانهم من المسلمين بما صنعوا. و انتهزت قريش الفرصه فأثارت ثأره الدعايه و نادت فى كل مكان: إن «محمّد» و أصحابه استحلّوا الشهر الحرام و سفكوا فيه الدم و أخذوا فيه الأموال و أسروا الرجال. و أجاب المسلمون الذين كانوا بمكّه أن إخوانهم فى الدين من المهاجرين إلى المدينة، إنّما أصابوا ما أصابوا فى شعبان. و دخلت يهود تريد إشعال نار الفتنة. إذ ذلك نزل (١) قوله تعالى:

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَ صَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَ كُفْرٌ بِهِ وَ الْمَشْجَدِ الْحَرَامِ وَ إِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَ الْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَ لَا- يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرْدُوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتِطَاعُوا ٢١. و سرى عن المسلمين بنزول القرآن بهذا الأمر و قبض النبى العير و الأسيرين فافتدتهما منه قريش؛ فقال:

ص: ٣٥٥

«لا- نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا - يعنى سعد بن أبى وقاص و عتبه بن غزوان - فإننا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم». و قدم سعد و عتبه و أفداهما النبى من الأسيرين. فأما أحدهما الحكم بن كيثان فأسلم و أقام بالمدينه. و أما الآخر فرجع إلى مكه و ظل بها حتى مات على دينه و دين آبائه(١).

جدير بنا أن نقف عند سريره عبد الله بن جحش هذه و الآيات الكريمة التي نزلت فيها. فهي في رأينا مفترق طرق في سياسته الإسلام، و حادث جديد في نوعه يدل على روح قوى في سموه، إنساني في قوته، ينتظم نواحي الحياه الماديّه و المعنويه و الروحيه كأشد ما يكون النظام قوه و رفعه و توجهها إلى الكمال. فالقرآن يجيب المشركين على تساؤلهم عن القتال في الشهر الحرام و إن كان من الكبائر، و يقزهم على أنه كذلك أمر كبير. لكن هناك ما هو أكبر من هذا الأمر. فالصدّ عن سبيل الله و الكفر به أكبر من القتال في الشهر الحرام.

و المسجد الحرام و إخراج أهله منه أكبر من القتال في الشهر الحرام و القتل فيه. و فتنه الرجل عن دينه بالوعد و الوعيد و الاغراء و التعذيب أكبر من القتل في الشهر الحرام و في غير الشهر الحرام. و قريش و المشركون الذين ينعون على المسلمين ما قتلوا في الشهر الحرام لن يزالوا يقاتلون المسلمين حتى يردّوهم عن دينهم إن استطاعوا. فإذا كانت قريش و كان المشركون يرتكبون هذه الكبائر جميعا، فيصدّون عن سبيل الله و يكفرون به و يخرجون أهل المسجد الحرام منه و يفتنونهم عن دينهم، فلا جناح على من تقع عليه أوزارهم و كبائرهم هذه إن هو قاتلهم في الشهر الحرام، و إنّما

ص: ٣٥٦

١- (١) السيره النبويه لا بن هشام: م ٦٠١/١-٦٠٤، و مغازى الواقدي: ١٦/١-١٧.

الكبيره أن يقاتل فى الشهر الحرام من لا يجترح من هذه الأوزار وزرا.

الفتنه أكبر من القتل. وحقّ بل و اجب على من يرى غيره يحاول فتنته عن دينه أو يصدّد عن سبيل الله أن يقاتل فى سبيل الله، حتّى لا يفتن و حتّى ينصر دين الله. هنا يرفع المستشرقون و المبشرون عقائرهم صائحين: أرايتم! هذا «محمّد» يدعو دينه إلى الحرب و إلى الجهاد فى سبيل الله، أى إلى إكراه الناس بالسيف على اعتناق الإسلام. أليس هذا هو التعصب بعينه؟ و هذا فى حين تنكر المسيحيه القتال و تمقت الحرب و تدعو إلى السلام و تنادى بالتسامح و تربط بين الناس برابطه الإخاء فى الله و فى السيد المسيح. و لست أريد، لكى أناقش هؤلاء أن أذكر كلمه الإنجيل: «ما جئت لألقى على الأرض سلاما بل سيفا... الخ» (١) و لا- ما تنطوى عليه هذه الكلمه من المعانى، فالمسلمون يقرون دين عيسى كما نزل به القرآن. و إنّما أريد بادئ الرأى أن أردّ قولهم: إن «محمّد» دعا دينه إلى القتال لإكراه الناس بالسيف على اعتناق الإسلام. فهذه فريه ينكرها القرآن فى قوله تعالى: لا إكراه فى الدينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ٢. و فى قوله تعالى: وَ قَاتِلُوا فى سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَ لَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ٣. و فى كثير غير هاتين الآيتين الكريمتين.

والجهاد فى سبيل الله معناه الصريح، على نحو ما ورد فى الآيات التى ذكرناها، و التى نزلت فى سريه عبداللّه بن جحش، قتال الذين يفتنون المسلم عن دينه و يصدّون عن سبيل الله. و هذا هو القتال فى سبيل حريه الدعوه إلى

ص: ٣٥٧

١- (١) العهد الجديد، إنجيل متى، يسوع والعالم: ١٥/١٠.

اللّٰه وإلى دينه، وبعبارة تتمشى مع أسلوب عصرنا الحاضر: الدفاع عن الرأى بالوسائل التى يُقاتل بها أصحاب الرأى. فإذا أراد أحد أن يفتن رجلاً- عن رأيه بالدعاوه وبالمنطق، دون أن يحمله على ترك هذا الرأى بالقوه وبغير القوه من وسائل الرشوه والتعذيب، لم يكن لأحد أن يدفع هذا الرجل إلّابدحض حجّته وتفنيده منطقته. لكنّه إذا حاول بالقوه المسلّحه أن يصدّ صاحب رأى عن رأيه وجب دفع القوه المسلحه بالقوه المسلحه متى استطاع الإنسان إليها سبيلاً.

ذلك بأنّ كرامه الإنسان تتلخص فى كلمه واحده: عقيدته. العقيده أئمن، عند من يقدر معنى الإنسانيه، من المال ومن الجاه ومن السلطان ومن الحياه نفسها، من هذه الحياه الماديه التى يشترك الإنسان والحيوان فيها، يأكلون ويشربون وتنمو أجسامهم وتقوى عضلاتهم. والعقيده هى هذه الصله المعنويه بين الإنسان والإنسان، والصله الروحيه بين المرء وربّه؛ هى هذا الحظ الذى يمتاز به الإنسان على سائر الحيوان ممّا فى الحياه، والذى يجعله يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويؤثر البائس و الفقير و المسكين على أهله ولو كان به وبهم خصاصه، ويتصل بالكون كلّه ليعمل دائماً كى يبلغ الكون ما قدر الله له من كمال.

إذا ملكت هذه العقيده إنساناً من الناس فحاول غيره فتنته عنها، ولم يستطع دفاعاً عن نفسه، فعل ما فعل المسلمون قبل هجرتهم إلى المدينه، فاحتمل المساء والأذى وصبر على الهوان والضميم ولم يصدّه جوع ولا حرمان أياً كان نوعه عن التمسك بعقيدته. وهذا الذى فعل المسلمون الأوّلون هو الذى فعل المسيحيون الأوّلون. لكنّ الصابرين لعقيدتهم ليسوا هم سواد

الناس ولا جماعتهم، وإنما هم الصفوه والمختارون ومن وهبهم الله من قوه الإيمان ما يصغر معه كل أذى وكل ضيم، وما يدك الرواسي، وما تقول معه للجبل انتقل من مكانك ينتقل، على حدّ تعبير الإنجيل (١). لكنك إذا استطعت أن تدفع الفتنه بسلاح من يحاول الفتنه وأن تقف في وجه من يصدّ عن سبيل الله بوسائله، وجب عليك أن تفعل، وإلّا كنت مزعزع العقيدته ضعيف الإيمان.

وهذا ما فعل «محمد» وأصحابه بعد أن استقرّ لهم الأمر بالمدينه؛ وهذا ما فعل المسيحيون بعد أن استقرّ لهم السلطان في روميه وبعد أن لان قلب بعض عواهل روميه لدين المسيح (٢).

يقول المبشرون: لكنّ روح المسيحيه تنكر القتال على إطلاقه. ولست أقف لأبحث صحه هذا القول. لكنّ تاريخ المسيحيه أمامنا شاهد عدل، وتاريخ الإسلام أمامنا شاهد عدل. فمنذ فجر المسيحيه إلى يومنا هذا خُضبت أقطار الأرض جميعاً بالدماء باسم السيد المسيح. خضبت روميه وخضبت أمم أوروبا كلها. والحروب الصليبيه إنّما أذكى المسيحيون ولم يُذكّ المسلمون لهيبتها؛ وظلّت الجيوش باسم الصليب تنحدر من أوروبا خلال مئات السنين قاصده أقطار الشرق الإسلاميه، تقاتل وتحارب وتُهرق الدماء (٣). وفي كلّ مرّه كان البابوات خلفاء المسيح يباركون هذه الجيوش الزاحفه للاستيلاء

ص: ٣٥٩

-
- ١- (١) العهد الجديد: إنجيل متى / يسوع يشفى صبيّاً فيه شيطان: ٢٧/١٧.
 - ٢- (٢) العهد الجديد، الرساله الثانيه بي مؤمني كورنثوس، الردّ على التهم الموجهه إليهم: ٢٧٧/١٠، ودائرته معارف القرن العشرين: ٤٥٥/٤ راجع ماده روميه.
 - ٣- (٣) تاريخ الحروب الصليبيه لوليم رئيس أساقفه صور: ١١٣٠-١١٨٥، ترجمه للعرييه د. سهيل زكار، دارالفكر بيروت. ط ١ ١٩٩٠ م.

على بيت المقدس وعلى الأماكن النصرانية المقدسه. أفكان هؤلاء البابوات جميعاً هراطقه وكانت مسيحتهم زائفه؟ أم كانوا أدياء جهالاً لا يعرفون أن المسيحيه تنكر القتال على إطلاقه؟ أم يقولون: تلك كانت العصور الوسطى عصور الظلام فلا يحتج على المسيحيه بها؟! إن يكن ذلك بعض ما قد يقولون، فإن هذا القرن العشرين الذي نعيش فيه والذي يسمونه عصر الحضاره الإنسانيه العليا، قد رأى ما رأت تلك العصور الوسطى المظلمه؛ فقد وقف لورد اللبني ممثل الحلفاء، انجلترا وفرنسا واطاليا ورومانيا وأمريكا، يقول في بيت المقدس في سنه (١٩١٨ م) حين استيلائه عليه أثناء الحرب الكبرى: اليوم انتهت الحروب الصليبيه.

وإذا كان من بين المسيحيين قديسون أنكروا القتال في مختلف العصور وسموا بذواتهم إلى الذروه من معنى الإخاء الإنساني، بل من معنى الإخاء بين عناصر الكون كله، فمن بين المسلمين كذلك قديسون سمت نفوسهم هذا السموا واتصلوا بكل الوجود اتصال إخاء ومحبه وإشراق ملاً منهم النفوس بوحده الوجود. لكن هؤلاء القديسين من النصارى والمسلمين، وإن صوّروا المثل الأعلى، فإنهم لا يمثلون حياه الإنسانيه أثناء تطورها الدائم وفي دأب جهادها إلى الكمال؛ إلى هذا الكمال الذي نحاول تصوّره ثمّ يقعد بنا العلم ويقعد بنا الفن ويقعد بنا الخيال دون شيء من الدقه في إدراكه، وإن نحن جازفنا بتصويره تمهيداً لما يحاول من جهود في سبيله.

وهذه أربع وخمسون وثلاثمئه وألف سنه قد انقضت منذ هجره النبي العربي من مكّه إلى يثرب والناس في مختلف العصور يزدادون في القتال افتناناً وفي

صنع آلاته الجهنمية المدمّره دقّه وإتقاناً. وما تزال كلمات نبذ الحرب وإلغاء التسلّح والتحكيم لا تزيد على أنها كلمات تقال في أعقاب كلّ حرب تنهك الأمم، أو على أنّها دعاوات تُلقى في جوّ الحياه من أناس لم يستطيعوا حتّى اليوم - ومن يدرى فلعلّهم لا يستطيعون يوماً - أن يحقّقوا منها شيئاً، وأن يحلّوا السلام الصحيح الإخاء والعدل محل السلام المسلّح نذير الحرب وطلّيعه ويلاتها.

والإسلام ليس دين وهم وخيال، ولا هو دين يقف عند دعوه الفرد وحده إلى الكمال. إنّما الإسلام دين الفطره التي فطر الناس جميعاً عليها أفراداً وجماعات؛ وهو دين الحقّ والحريه والنظام. ومادامت الحرب في فطره الناس، فتهذيب فكرتها في النفوس وحصرها في أدق الحدود الإنسانيه هي غايه ما تحتل فطره البشر وما يحقق للإنسانيه اتصال تطورها في سبيل الخير والكمال. وخير تهذيب لفكره الحرب ألا تكون إلاللدفاع عن النفس وعن العقيدته وعن حريه الرأى والدعوه إليه، وأن ترعى فيها الحُرّمات الإنسانيه تمام الرعايه. وهذا ما قرّر الإسلام على ما رأينا و ما سنرى من بعد.

وهذا ما نزل به القرآن، وضعناه وسنضعه تحت نظر القارئ، في الظروف والمناسبات التي نزل فيها.

ص: ٣٤١

الفصل الثالث عشر: غزوه بدر الكبرى

خروج أبي سفيان إلى الشام، محاوله المسلمين قطع الطريق عليه، نجاته في الذهاب، انتظارهم إياه في أوبته، علم قريش بتجهيز المسلمين، خروجهم إلى بدر، نجاه أبي سفيان بتجارته، تردد قريش والمسلمين في القتال، زوال التردد، موقف الفريقين في بدر، حماسه المسلمين وانتصارهم.

كانت سرية عبدالله بن جحش مفترق طرق في سياسة الإسلام، أن رمى فيها واقد بن عبدالله التميمي عمر بن الحضرمي بسهم فقتله؛ فكان أول دم أراق المسلمون؛ وأن نزلت فيها الآيات التي قدّمنا؛ وأن شُرع على إثرها قتال الذين يفتنون المسلمين عن دينهم ويصدونهم عن سبيل الله. وكانت هذه السرية مفترق طرق كذلك في سياسة المسلمين إزاء قريش، أن جعلت الفريقين يتناظران بأساً وقوه، وأن جعلت المسلمين يفكرون تفكيراً جدياً في استخلاص أموالهم من قريش بغزوهم وقتالهم. ذلك بأن قريشاً حاولت إثارة شبه الجزيره كلها على «محمّد» وأصحابه أن قتلوا في الشهر الحرام، حتى لقد أيقن «محمّد» أن لم يبق في مصانعتهم أو في الاتفاق معهم رجاء.

وقد خرج أبو سفيان في أوائل الخريف من السنه الثانيه للهجره في تجاره

كبيره يقصد الشام، وهى التجاره التى أراد المسلمون اعتراضها حين خرج النبى عليه السلام إلى العُشيره(١). لكنهم إذ بلغوها كانت قافله أبى سفيان قد مرّت بها ليومين قبل وصولهم إليها. إذ ذاك اعترم المسلمون انتظارها فى عودتها. ولما تحين «محمد» انصرافها من الشام بعث طلحه بن عبيدالله وسعيد بن زيد ينتظران خبرهما، فسارا حتى نزلا على كشد الجهني بالحوراء وأقاما عنده فى خباء حتى مرّت العير فأسرعا إلى «محمد» ليُفضيا إليه بأمرها وما رأيا منها(٢).

على أنّ «محمدًا» لم ينتظر رسوله إلى الحوراء وما يأتیان به من خبر العير، فقد ترمى إليه أنّها عير عظيمه، وأنّ أهل مكّه جميعاً اشتركوا فيها، لم يبق منهم رجل ولا- بقيت امرأه استطاعت أن تساهم بحظ إلمافعت وفعل، حتى قُوم ما فيها بخمسين ألفاً من الدنانير. ولقد خشى إن هو انتظرهما أن تفوته العير فى عودتها إلى مكّه كما فاتته فى ذهابها إلى الشام. لذلك ندب المسلمين وقال لهم: هذه عير قریش فاخرجوا إليها لعلّ الله ينقلكموها.

وخفّ بعض الناس وثقل بعض، وأراد جماعه لم يُسلموا أن ينضموا طمعاً فى الغنيمه، فأبى «محمد» عليهم الانضمام أو يؤمنوا بالله ورسوله(٣).

أمّا أبو سفيان فكان قد اتّصل به خروج «محمد» لاعتراض قافلته حين رحلتها إلى الشام، فخاف أن يعترضه المسلمون حين أوبته بعد أن ربحت

ص: ٣٦٤

١- (١) المغازى للواقدي: ١٢/١، والطبقات الكبرى: ١٠/٢، وبحار الأنوار: ١٨٧/١٩.

٢- (٢) المغازى للواقدي: ٢٠/١، والطبقات الكبرى: ١١/٢ وشرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد: ١٤-٨٤-٨٥. وبحار الأنوار: ٣٢٨/١٩.

٣- (٣) المغازى للواقدي: ٢٧/١، والسيره النبويه لابن هشام: ٦٠٧/١ ومجمع البيان: ٤٣١/٤، وبحار الأنوار: ٢١٥/١٩.

تجارته، وجعل ينتظر أخبارهم. وكان الجُهني الذي نزل عليه رسولا «محمّد» بالحوراء بعض من سأل. ومع أنّ الجُهني لم يصدّقه الخير فقد بلغه من أمر «محمّد» والمهاجرين والأنصار معه مثل ما ترامى إلى «محمّد» من خبره، فخاف عاقبه أمره أن لم يكن من قريش في حراسه العير إلّا ثلاثون أو أربعون رجلاً. عند ذلك استأجر ضَمَم بن عمرو الغفاري فبعثه مسرعاً إلى مكّه ليستنفر قريشاً إلى أموالهم، ويخبرهم أن «محمّداً» قد عرض لها في أصحابه.

ووصل ضَمَم من مكّه إلى بطن الوادي فقطع أذني بعيره وجدع أنفه وحول رحله ووقف هو عليه، وقد شقّ قميصه من قبل ومن دُبُر وجعل يصيح: يا معشر قريش! اللّطيمه اللّطيمه! أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها «محمّد» في أصحابه لا- أرى أن تدركوها. العوّث العوّث! (واللّطيمه: المال والتجاره) (١). وما لبث أبوجهل أن سمعه حتّى صاح بالناس من عند الكعبه يستنفرهم. وكان أبوجهل على ما بلغ السبعين، رجلاً خفيفاً حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر (٢). ولم تكن قريش بحاجه إلى من يستنفرها، أن كان لكلّ منها في هذه العير نصيب.

على أنّ طائفه من أهل مكّه كانت تشعر بما ظلمت قريش المسلمين من أهلها، حتّى اضطرتهم إلى الهجره إلى الحبشه، ثمّ الهجره إلى المدينه، فكانت تتردد بين النفير للذود عن أموالها والقعود رجاء ألاّ يصيب العير مكروه. وهؤلاء كانوا يذكرون أنّ قريشاً وكنانه بينهما ثأر في دماء تبادل الفريقان إراققتها. فإذا هي خفت إلى لقاء «محمّد» لمنع عيرها منه خافت بنى

ص: ٣٤٥

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٦٠٧/١ و ٦٠٩، والطبقات الكبرى: ١٣/٢، والمغازي للواقدي: ٢٨/١، ومجمع البيان ٤٣١/٤، وبحار الأنوار: ٢١٥/١٩-٢١٦.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٣٨٥/٢، والمغازي للواقدي: ٣١/١.

بكر أن تهاجمها من خلفها. وكادت هذه الحجة ترجح وتؤيد رأى القائلين بالعودة لولا أن جاء مالك بن جعشم المدلجى وكان من أشرف بنى كنانة فقال: أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء (١). تكرر هونته. إذ ذاك رجحت كفه أبى جهل وعامر الحضرمى والدعاه إلى الخروج لدفع «محمد» والذين معه؛ ولم يبق لكل قادر على القتال عذر فى التخلف أو يرسل مكانه رجلاً. ولم يتخلف من أشرف قريش إلا أبى لهب الذى بعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة، أن كان مديناً له فى أربعة آلاف درهم وأفلس بها. وكان أمية بن خلف قد أجمع على العودة. وكان شيخاً جليلاً جسيماً ثقيلاً. فأتاه بالمسجد عقبه بن أبى مغيط وأبوجهل، ومع عقبه مجمره فيها بخور ومع أبى جهل مكحله ومزود، فوضع عقبه المجمره بين يديه وقال: يا أبى على استجبر فإنما أنت من النساء، وقال أبوجهل: اكتحل أبى على فإنما أنت امرأه.

فقال أمية: ابتاعوا لى أفضل بعير فى الوادى؛ وخرج معهم، فلم يبق بمكة متخلف قادر على القتال (٢).

أما النبى عليه السلام فقد خرج فى أصحابه من المدينة لثمان ليال (٣) خلون من شهر رمضان لسنه الثانيه من الهجره، وجعل عمرو بن أم مكتوم فيها على الصلاه بالناس، وردّ أبى لُبابه من الرّوحاء واستعمله على المدينة. وكانت أمام المسلمين فى مسيرتهم رايتان سوداوان، وكانت إبلهم سبعين بعيراً جعلوا

ص: ٣٦٦

-
- ١- (١) السيره لابن هشام: ٦١٢/١، السيره الحلبيه: ١٤٦/٢ تذكران سراقه بن مالك بن جعشم المدلجى، وليس مالك بن جعشم المدلجى، بينما يذكر الواقدى فى مغازيه: ٣٨/١ سراقه بن جعشم المدلجى.
 - ٢- (٢) المغازى للواقدى: ٣٦/٢-٣٩، تاريخ الطبرى: ٢٤/٢-٢٥.
 - ٣- (٣) ذكر الواقدى فى مغازيه: ٢٣/١-٢٥ أنّ خروج النبى كان لاثنى عشر خلون من شهر رمضان، وفى الطبقات: ١٢/٢، والإمام فتح الدين الشافعى: ٢٨٦/١، والمقرئزى فى إمتاع الأسماع: ٨١/١.

يعتقبونها، كل اثنين منهم وكل ثلاثه وكل أربعة يعتقبون بغيراً. وكان حظ «محمّد» في هذا كحظ سائر أصحابه. فكان هو وعليّ بن أبي طالب ومرشد ابن مرشد الغنويّ يعتقبون بغيراً^(١). وكان أبو بكر وعمر وعبدالرحمن بن عوف يعتقبون بغيراً. وكانت عدّه من خرج مع «محمّد» إلى هذه الغزوه خمسّه وثلاثه رجل، منهم ثلاثه وثمانون من المهاجرين وواحد وستون من الأوس والباقون من الخزرج. وانطلق القوم مسرعين من خوف أن يفلت أبوسفیان منهم، وهم يحاولون حيثما مروا أن يقفوا على أخباره. فلما كانوا بعزق الطيبه لقوا رجلاً من الأعراب فسألوه عن القوم فلم يجدوا عنده خبراً.

وانطلقوا حتّى أتوا وادياً يقال له ذفران نزلوا فيه، وهناك جاءهم الخبر بأنّ قريشاً قد خرجوا من مكّه ليمنعوا غيرهم^(٢). هنالك تغيّر وجه الأمر. لم يبق هؤلاء المسلمون مهاجروهم والأنصار أمام أبي سفیان وعيره والثلاثين أو الأربعين رجلاً معه، لا يملكون مقاومه «محمّد» وأصحابه؛ بل هذه مكّه خرجت كلّها وعليّ رأسها أشرفها للدفاع عن تجارتها^(٣). فهبّ^(٤) المسلمون أدركوا أباسفیان وتغلّبوا على رجاله وأسروا منهم من أسروا واقتادوا إبله وما

ص: ٣٦٧

١- (١) بحار الأنوار: ٣٢٩/١٩، الملفت للنظر هنا: أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله والإمام عليّاً عليه السلام لم يفترقا، فنجدهما قد اشتركا في بغير واحد، كما هو شأن المؤاخاه وغيرها، ولم يغلب على فعل الرسول صلى الله عليه وآله في هذا الاختيار العفويه وعدم القصد.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٦١٢/١-٦١٤، وبحار الأنوار: ٣٢٩/١٩.

٣- (٣) تكشف لنا معركه بدر عمق الصراع، وخلفيته حيث لا يمكن حصره بمسأله التجاره، ولهذا لم يتخلف أحد من قريش إلّا بعث مكانه بعيناً، ولهذا مشت قريش إلى أبي لهب فقالوا: إنّك سيّد من سادات قريش، وإنّك إن تخلفت عن النفير يعتبر بك غيرك من قومك، فاخرج أو أبعث أحداً، فقال: واللّات والعزى لا- أخرج ولا أبعث أحداً، فجاءه أبوجهل فقال: قم أبا عتبه، فوالله ما خرجنا إلّا غضباً لدينك ودين آبائك. الواقدي: ٢٤/١، فيما يذكر المؤلّف بعد سطور أن اصرار قريش على الحرب كان بعد نجاه تجارتهم.

٤- (٤) هب: احسب بمعنى احتمل، لسان العرب: ٨٠٤/١.

عليها، فلن تلبث قريش أن تدركهم يحفزها حرصها على ما لها و الدفاع عنه و توازرها كثره عديدها وعددها، و أن توقع بهم و أن تسترد الغنيمه منهم أو تموت دونها. و لكن إذا عاد «محمد» من حيث أتى طمعت قريش و طمعت يهود المدينة فيه، و اضطرّ إلى موقف المصانعه و اضطرّ أصحابه إلى أن يحتملوا من أذى يهود المدينة مثل ما احتملوا من أذى قريش بمكّه.

و هيهات إن هو و قف هذا الموقف أن تعلق كلمه الحق و أن ينصر الله دينه.

استشار الناس و أخبرهم عمّا بلغه من أمر قريش؛ فأدلى أبو بكر و عمر برأيهما(١)، ثم قام المقداد بن عمر فقال: يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، و الله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى:.... فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقَاتِلَا- إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ٢، و لكن اذهب أنت و ربك فقاتلا إِنَّا معكما مقاتلون.

و سكت الناس؛ فقال الرسول:

أشيروا على أيها الناس. و كان يريد بكلمته هذه

ص: ٣٦٨

١- (١) كان رأى أبى بكر الذى أدلى به لرسول الله صلى الله عليه و آله حين سأل صلى الله عليه و آله المسلمين حول قدوم المشركين من مكّه و عزمه لغزوه بدر (الغير أحب اليكم أم النفير؟). قال يا رسول الله: أنّها قريش و خيلاؤها، ما آمنت منذ كفرت، و لا- ذلت منذ عزّت، و لم نخرج على هيئه الحرب، فقال رسول الله صلى الله عليه و آله: إجلس، فجلس. أمّا رأى عمر: فقال مثل مقاله أبى بكر فقال له رسول الله صلى الله عليه و آله: إجلس. جاء ذلك فى دلائل النبوه: ٤٧/٣، و ابن كثير: ٢٦٣/٣، عن أنس بن مالك. و السيره لدحلان: ١٩٣/١، و فى بحار الأنوار: ٢٤٧-٢٤٨ عن تفسير القمى: ٢٨٥/١.

الأنصار الذين بايعوه يوم العقبة على أن يمنعوه ممّا يمنعون منه أبناءهم و نساءهم و لم يبايعوه على اعتداء خارج مدينتهم. فلّمّا أحسّ الأنصار بأنه يريدهم، و كان سعد بن معاذ صاحب رأيهم، التفت إلى «محمد» و قال:

لكأنتك تريدنا يا رسول الله. قال: أجل. قال سعد: لقد آمنا بك و صدّقناك و شهدنا أن «ما جئت به هو الحق» و أعطيناك على ذلك عهدنا و موثيقنا على السمع و الطاعة، فامض لما أردت فنحن معك. فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك و ما تخلف ممّنّا رجل واحد. و ما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا. إنا لصبر فى الحرب، صدق فى اللقاء. لعلّ الله يراك منا ما تقرّ به عينك. فسر بنا على بركة الله. و لم يكده سعد يتم كلامه حتّى أشرق وجه «محمد» بالمسرّه و بدا عليه كلّ النشاط و قال:

سيروا و أبشروا فانّ الله قد وعدنى إحدى الطائفتين؛ و الله لكأنّى الآن أنظر إلى مصارع القوم(١). و ارتحلوا جميعا، حتّى إذا كانوا على مقربه من بدر انطلق «محمد» على بعيره، حتّى و قف على شيخ من العرب و سأله عن قريش و عن «محمد» و أصحابه، و منه عرف أنّ «عير قريش منه قريب.

إذ ذلك عاد إلى قومه فبعث علىّ بن أبى طالب و الزبير بن العوّام و سعد ابن أبى و قاص فى نفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون له الخبر عليه.

و عادت هذه الطليعه و معها غلامان عرف «محمد» منهما أنّ «قريشا وراء الكئيب الذى بالعدوه القصوى. و لمّا أن أجابا: إنّهما لا يعرفان عدّه قريش، سألهما «محمد»:

كم ينحرون كلّ يوم؟ و أجابا: يوما تسعا و يوما عشرا. فاستنبط

ص: ٣٦٩

١- (١) المغازى للواقدي: ٤٨/١-٤٩، و الطبقات الكبرى: ١٤/٢، و السيره النبويه لابن هشام: ٦١٥/١، تفسير التبيان: ٨١/٥-٨٢، و بحار الأنوار: ٢١٧/١٩-٢١٨.

النبي من ذلك أنهم بين التسعمائه والألف، و عرف من الغلامين كذلك أن أشراف قريش جميعا خرجوا لمنعه؛ فقال لقومه: (هذه مكّه قد ألفت إليكم افلاذ كبدها)(١). إذا فلا بدّ له و لهم أمام قوم يزيدون عليهم فى العدد ثلاثه أضعاف أن يشحدوا عزائمهم و أن يوطنوا على الشدّه أفئدتهم و نفوسهم، و أن ينتظروا موقعه حاميه الوطيس لا يكون النصر فيها إلّا لمن ملأ الإيمان بالنصر قلبه.

و كما عاد علىّ و من معه بالغلامين و بخبر قريش معهما، فقد ذهب اثنان من المسلمين حتّى نزلا بدرا، فأناخا إلى تل قريب من الماء و أخذوا وعاء لهما يستقيان فيه. و إنهما لعلى الماء إذ سمعا جاريه تطالب صاحبها بدين عليها و الثانيه تجيبها: إنّما تأتي العير غدا أو بعد غد، فأعمل لهم ثم أفضيك الذى لك. و عاد الرجلان فأخبرا «محمّدا» بما سمعا(٢). فأما أبوسفیان فسبق العير يتنطس الأخبار حذر أن يكون «محمّد» قد سبقه إلى الطريق. فلما ورد الماء وجد عليه مجدىّ بن عمرو فسأله: هل رأى أحدا؟ و أجاب مجدىّ بأنّه لم ير إلّا راكبين أناخا إلى هذا التل، و أشار إلى حيث أناخ الرجلان من المسلمين.

فأتى أبوسفیان مناخهما فوجد فى روث بعيرهما نوى عرفه من علائف يثرب، فأسرع عائدا إلى أصحابه وعدل بالسير عن الطريق مساحلا البحر مسرعا فى مسيره، حتّى بعد ما بينه و بين «محمّد» و نجا(٣).

ص: ٣٧٠

١- (١) المغازى للواقدي: ٥٠١-٥٣، و الطبقات الكبرى: ١٥/٢، و السيره النبويه لا بن هشام: ٦١٦-٦١٧، تفسير القمى: ٢٦٠/١ و مجمع البيان: ٤٣٣/٤، و بحار الأنوار: ٢١٨/١٩-٢١٩.

٢- (٢) المغازى للواقدي: ٤٠/١، و السيره النبويه لا بن هشام: ٦١٧/١، و تفسير القمى: ٢٥٧/١-٢٥٨، و بحار الأنوار: ٢٤٦/١٩.

٣- (٣) راجع المغازى للواقدي: ٤١/١، و السيره النبويه لا بن هشام: ٦١٨/١، و تفسير القمى: ٢٥٨/١، و بحار الأنوار: ٢٤٦/١٩-٢٤٧.

وأصبح الغد و المسلمون فى انتظار مروره بهم، فإذا الأخبار تصلهم أنه فاتاهم و أن مقاتله قريش هم الذين ما يزالون على مقربه منهم، فيذوى(١) فى نفوس جماعه منهم ما كان يملؤها من أمل فى الغنيمه، و يجادل بعضهم النبى كى يعودوا إلى المدينه و لا يلقوا القوم الذين جاؤ من مكه لقتالهم. و فى ذلك نزل(٢) قوله تعالى فى سوره الأنفال: وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِخِيدَ الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَهِ تَكُونُ لَكُمْ وَ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَ يَقَطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ٣.

وقريش، هى أيضاً، ما حاجتها إلى القتال وقد نجت تجارتهم؟ أليس خيراً لهم أن يعودوا من حيث أتوا، وأن يتركوا المسلمين يرجعون من رحلتهم بخفى حنين؟ كذلك فكر أبو سفيان، وبذلك أرسل إلى قريش يقول لهم: إنكم قد خرجتم لتمنعوا غيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله فارجعوا. ورأى من قريش رأيه عدد غير قليل. لكن أباجهل ما لبث أن سمع هذا الكلام حتى صاح: والله لا نرجع حتى نرد بدرأ فنقيم عليه ثلاثاً نحر الجزر ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها. ذلك أن بدرأ كانت موسماً من مواسم العرب، فانصراف قريش عنها بعد أن نجت تجارتهم قد تفسره العرب، فيما رأى أبوجهل، بخوفهم من «محمد» وأصحابه. ممّا يزيد

ص: ٣٧١

١- (١) ذوى يذوى ذيا، وهو أن لا يصيب النبات والحشيش ريه، أو يضربه الحر فيذبل ويضعف - كتاب العين: ٢٠٦/٨.

٢- (٢) تفسير الطبرى: ١٨٤/٦-١٨٧، وزاد المسير: ٣٢٢/٣، ومجمع البيان: ٤٣١/٤، وبحار الأنوار: ٢١٤/١٩.

«محمّداً» شوكة ويزيد دعوته انتشاراً وقوّه، وبخاصه بعد الذي كان من سرّيه عبد الله بن جحش وقتل الحضرمي وأخذ الأسرى والغنائم من قريش.

وتردّد القوم بين اتّباع أبي جهل مخافه أن يتّهموا بالجن، وبين الرجوع بعد أن نجت غيرهم، فلم يرجع إلّا بنو زُهره الذين اتبعوا مشوره الأخنس بن شريق وكان فيهم مطاعاً. واتبعت سائر قريش أباجهل حتّى ينزلوا منزلاً. يتهيئون فيه للحرب، ثمّ يتشاورون بعدها. ونزلوا بالعِدوه القصوى خلف كثيب من الرمل يحتمون به (١). أمّا المسلمون الذين فاتتهم الغنيمه، فقد أجمعوا أن يصمدوا للعدوّ إذا أجمع محاربتهم. لذلك بادروا إلى ماء بدر، ويسرّ لهم مطر أرسلته السماء مسيرتهم إليها. فلما جاءوا أدنى ماء منها نزل «محمّداً» به. وكان الحُباب بن المنذر بن الجموح عليماً بالمكان. فلما رأى حيث نزل النبيّ قال: يا رسول الله، أرايت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله، فليس لنا أن نتقدّمه ولا نتأخّر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيد؟ قال «محمّد»:

بل هو الرأى والحرب والمكيد. فقال: يا رسول الله، فإنّ هذا ليس بمنزل؛ فانفضّ بالناس حتّى نأتى أدنى ماء من القوم فننزل ثمّ نُعَوِّر (٢) ما وراءه من القلب (٣)، ثمّ نبني عليه حوضاً فتملأه ماء، ثمّ نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. ولم يلبث «محمّد» أن رأى صواب ما أشار الحُباب به حتّى قام ومن معه واتّبع رأى صاحبه (٤)، معلناً إلى قومه أنّه بشرٌ مثلهم وأنّ الرأى شورى بينهم، وأنّه لا

ص: ٣٧٢

١- (١) المغازى للواقدي: ٤٣/١-٤٥، والسيره النبويه لابن هشام: ١/٤١٨-٤٢٠، وبحار الأنوار: ١٩/٢١٩-٢٢٠.

٢- (٢) عور عيون المياه: إذا دفنها وسدّها.

٣- (٣) القلب: الآبار، واحدها قليب وهي البئر. غريب الحديث: ٣٥/١.

٤- (٤) السيره النبويه لابن هشام: ١/٦٢٠، والمغازى للواقدي: ١/٥٣-٥٤. ولا يخفى الفرق بينهما، فروايه المؤلف على روايه ابن إسحاق بدون استشاره من النبيّ صلى الله عليه وآله، بينما زاد الواقدي استشارته، وذلك لا ينسجم مع سؤال الحباب: أنزلكم الله؟ إذ لو أنزله الله فهل هو يستشير في أمر الله؟! فالراجح ما رواه ابن إسحاق، ولعلّهم زادوا استشارته صلى الله عليه وآله لكي يخرجوا مقال الحباب عن صورته الاعتراض.

يقطع برأى دونهم، وأنه بحاجة إلى حسن مشوره صاحب المشوره الحسنه منهم.

ولمّا بنوا الحوض أشار سعد بن مُعاذ، قائلاً: «يا نبيّ الله، نبني لك عريشاً^(١) تكون فيه وتُعدّ عندك ركائبك ثمّ نلقى عدوّنا؛ فإن أعزّنا الله وأظهرنا على عدوّنا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام يا نبيّ الله ما نحن بأشدّ لك حبّاً منهم. ولو ظلّوا أنك تلقى حرباً، ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك». وأثنى «محمّد» على سعد ودعا له بخير^(٢)، وبُني العريش للنبيّ حتّى إذا لم يكن النصر في جانبه وجانب أصحابه لم يقع في يد عدوّه واستطاع اللحاق بأصحابه يشرب.

هنا موضع لوقفه إعجاب بصدق إيمان المسلمين وعظيم محبّتهم ل «محمّد» وإيمانهم برسالته. فهاهم أولاء يعلمون أنّ قريشاً تفوقهم في العدد

ص: ٣٧٣

١- (١) لم يكن معروفاً من سلوك النبيّ صلى الله عليه وآله ولا من سيرته في الحروب أن يميّز نفسه، فيجلس تحت ما يسمّى بالعريش، بل كان يدخل المعركة كأحد الجنود ويصيبه ما يصيبهم ومعركة أحد تشهد له بذلك، والأكثر من هذا أنّ المسلمين في الحروب حيث يشتدّ أوارها، وقد تضيق بهم المخارج كانوا يلوذون برسول الله مستجيرين به وسط المعركة. قال ابن أبي الحديد: لا- عجب من أمر العريش، من أين كان لهم، أو معهم من سعف النخل ما يبنون به عريشاً، وليس تلك الأرض - أعنى أرض بدر - أرض نخل والذي كان معهم سعف النخل يجرى مجرى السلاح كان يسيراً جداً... والصحيح ما خلا أحد منهم عن سلاح... فلا أرى لبناء عريش من جريد النخل هناك وجهاً. (شرح نهج البلاغه، ابن أبي الحديد: ١١٨/١٤).

٢- (٢) المغازي للواقدي: ٤٩/١.

وأنها ثلاثة أمثالهم، وهم مع ذلك قد اعتزموا الوقوف في وجهها وقتالها.

وهاهم أولاء يرون الغنيمه فاتتهم، فلم يصبح الطمع المادى هو الذى يحفزهم للقتال، وهم مع ذلك يقفون إلى جانب النبى يؤيدونه ويعززونه. وهاهم أولاء تتردد نفوسهم بين الطمع فى النصر وخوف الهزيمه، وهم مع ذلك يفكرون فى حمايه النبى وتوقيته أن يظفر به عدوه ويمهدون له سبيل الاتصال بمن ترك المدينه. فأى موقف أدعى للاعجاب من هذا الموقف، وأى إيمان يكفل النصر كهذا الإيمان!

ونزلت قريش منازل القتال، ثم بعثوا من يقص لهم خبر المسلمين، فجاءهم بأنهم ثلاثمائة أو يزيدون قليلاً أو ينقصونه، ولا كمين لهم ولا مورد؛ ولكنهم مع ذلك قوم ليس لهم مَنَعَه ولا ملجأ إلا سيوفهم، فلا يموت منهم رجل قبل ان يقتل رجلاً مثله. ولما كانت صفوه قريش قد خرجوا فى هذا الجيش خشى بعض ذوى الحكمة منهم أن يقتل المسلمون كثرتهم فلا تبقى لمكته مكانتها. لكنهم مع ذلك خافوا حدّه أبى جهل ورميه إياهم بالجبن والخوف. على أنّ ذلك لم يمنع عتبه بن ربيعه من أن يقف بينهم، قائلاً: (يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا «محمداً» وأصحابه شيئاً. والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل قتل ابن عمّه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته. فارجعوا وخلوا بين «محمداً» وسائر العرب. فإن أصابوه فذاك الذى أردتم، وإن كان غير ذلك لم نتعرض منه لئما تكرهون). فلتما بلغت أبا جهل مقاله عتبه استشاط غيظاً وبعث إلى عامر بن الحضرمي يقول له: «هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس وقد رأيت تارك بعينك، فقم فانشد مقتل أخيك». وقام عامر فصرخ: «واعمراه». ولم يبق بعد ذلك من الحرب

مفرّ (١). وأعجل القتال أن اندفع الأسود بن عبد الأسد المخزومي من بين صفوف قريش إلى صفوف المسلمين يريد أن يهدم الحوض الذي بنوا، فعاجله حمزه بن عبدالمطلب بضربه أطاحت بساقه فسقط إلى ظهره تشخب رجله دمًا، ثمّ أتبعه حمزه بضربه أخرى قضت عليه دون الحوض (٢). ولا شيء أُرهِف لظُبَا (٣) السيوف من منظر الدم. ولا شيء أشدّ إثارةً في الإنسان لعواطف القتال والحرب كمرأى رجل مات بيد العدوّ وقومه إياه وقوف ينظرون.

وما أن سقط الأسود حتّى خرج عتبه بن ربيعة بين أخيه شيبه وابنه الوليد بن عتبه ودعا إلى المبارزه. وخرج إليه فتية من أبناء المدينة. فلما عرفهم، قال لهم: ما لنا بكم من حاجه، إنّما نريد قومنا. ونادى مناديتهم:

يا «محمّد» أخرج إلينا أكفءنا من قومنا. وخرج إليهم حمزه بن عبدالمطلب وعلّى بن أبي طالب وعبيده بن الحارث. ولم يُمهّل حمزه شيبه ولا أمهل على الوليد أن قتلاهما (٤)، ثمّ أعانا عبيده وقد ثبت له عتبه (٥). فلما رأّت قريش من ذلك ما رأّت تراحف الناس والتقى الجمعان صبيحه الجمعه لسبعه عشر يوماً خلت من شهر رمضان، و «محمّد» على رأس المسلمين يعدل صفوفهم. فلما

ص: ٣٧٥

-
- ١- (١) المغازى للواقدي: ٦٣/١-٦٥، والطبقات الكبرى: ١٦/٢، وسيره ابن هشام: ٦٢٢/١-٦٢٣، وشرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد: ١٢٥/١٤، وبحار الأنوار: ٢٤٩/١٩-٢٥٠.
 - ٢- (٢) السيره النبويّه لابن هشام: ٦٢٤/١-٦٢٥، والمغازى للواقدي: ٦٨/١، وتاريخ الطبري: ٣١/٢-٣٢، ذخائر العقبى: ١٧٥.
 - ٣- (٣) ظبا: الظبه: حدّ السيف والسنان والنصل والخنجر وما أشبه ذلك - لسان العرب: ٢٢/١٥.
 - ٤- (٤) يُذكر أنّ في هذه المعركه المهمه كان علّى بن أبي طالب صاحب رايه رسول الله صلى الله عليه وآله. الاستيعاب لابن عبد البرّ بهامش الإصابه: ٢٣/٣، وتاريخ دمشق لابن عساکر: ١٤٢/١.
 - ٥- (٥) السيره النبويّه لابن هشام: ٦٢٥/١، والمغازى للواقدي: ٦٩/١، مناقب آل أبي طالب: ٣١١/٢، وبحار الأنوار: ٢٩٠/١٩ و ٢٩٦.

(رأى كثره قريش وقلة رجاله وضعف عدتهم إلى جانب عدو المشركين) عاد إلى العريش ومع أبو بكر، وهو أشد ما يكون خوفاً من مصير ذلك اليوم، وأشد ما يكون إشفاقاً مما يصير إليه أمر الإسلام إذا لم يتم للمسلمين النصر، واستقبل «محمد» القبلة واتجه بكل نفسه إلى ربه وجعل ينشده ما وعده ويهتف به أن يتم له النصر. وبالغ في التوبه والدعاء والابتهال، وجعل يقول: «اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك»، اللهم فنصرك الذي وعدتني؛ اللهم فنصرك الذي وعدتني؛ اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد. وما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه؛ وجعل أبو بكر من ورائه يرد على منكيه رداءه ويهيب به: يا نبي الله، بعض مناشدتك ربك فإن الله منجز لك ما وعدك. لكن «محمدًا» ظل فيما هو فيه أشد ما يكون توجهاً لله، وأشد ما يكون تضرعاً وخشيه واستعان به على هذا الموقف الذي لم يتوقع المسلمون فلم يتخذوا له عدته، حتى خفق خفقته من نعاس رأى خلالها نصر الله، وانتبه بعدها مستبشراً، وخرج إلى الناس يحرضهم ويقول لهم: والذي نفس «محمد» بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً متحسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة (1).

وسرت من نفسه القوي، أمدها الله من لدنه بما سما بها فوق كل قوه، إلى نفوس هؤلاء المؤمنين برسالته، قوه ضاعفت عزمهم، وجعلت كل رجل منهم يعدل رجلين بل يعدل عشره رجال. ويسير عليك أن تقدّر هذا إذا

ص: ٣٧٦

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٦٢٦/١-٦٢٧، وبحار الأنوار: ٢٢١/١٩. ومن الثابت أن الرسول صلى الله عليه وآله هو الهادي ولا يهتدى بغيره وهو يعلم بأن الله منجز له وعده حيث يقول: «لا يقاتلنهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة»، إلا أن النص الذي يصوغه الكاتب يظهر منه كأن الصحابي أبابكر حين يقول: يا نبي الله ناشدتك ربك، أكثر تعقلاً وادراكاً واحاطه من النبي بمصائر الأمور وحين تشتد المحن.

ذكرت ما لازدياد القوه المعنويه من أثر فى النفس، متى توافرت أسباب ازدياد هذه القوه المعنويه فيها. فدافع الوطنيه يزيدها، وهذا الجندى الذى يقف مدافعاً عن وطنه المهتد بالخطر ويحس بحب الوطن إحساساً صادقاً، تتضاعف قوته المعنويه بمقدار حبه لوطنه وإيمانه به، وبمقدار تخوفه من الخطر الذى يتهدد العدو الوطن به. ولهذا تغرس الأمم فى نفس أبنائها منذ نعومه أظفارهم حب الوطن والاستهان بالتضحيه فى سبيله. والإيمان بالحق وبالعدل وبالحرية وبالمعاني الإنسانية الساميه يزيد القوه المعنويه فى النفس بما يضاعف القوه الماديه فيها. والذين يذكرون ما قام به الحلفاء فى الحرب الكبرى من دعوه واسعه النطاق ضد الألمان أساسها أنهم يدافعون عن قضيه الحرية والحق، ويحاربون فى ألمانيا الجنديه المسلحه ويمهدون لعهد سلام نور، يدركون ما كانت تضاعف هذه الدعوه من قوه فى نفوس جنود الحلفاء بمقدار ما كانت تحيطهم به من عطف أكثر الأمم العالم. وما الوطنيه وما قضيه السلام إلى جانب ما كان «محمد» يدعو إليه! إلى اتصال الإنسان بالوجود كله اتصالاً يندمج به فيه، ويصبح معه قوه من قوى الكون الموجهه له سبيل الخير والنعمه والكمال. نعم، ما الوطنيه وما قضيه السلام إلى جانب الوقوف فى جانب الله ودفع الذين يفتنون المؤمنين عنه، والذين يصدون عن سبيله، والذين ينزلون بالإنسان إلى درك الوثنيه والاشراك! إذا كانت النفس يزيدها حب الوطن قوه بمقدار ما فى الوطن كله من قوه، ويزيدها حب السلام للإنسانيه قوه بمقدار ما فى الإنسانيه كلها من قوه، فما أكثر ما يزيدها الإيمان بالوجود كله وبخالق الوجود كله من قوه!! إنه ليجعلها قديره على أن تُسير

الجبال وتحرك العوالم وتهيمن بسلطانها المعنوي على كل من كان أقل منها في هذا الأمر إيماناً. وهذا السلطان المعنوي يزيد في قوتها الماديّة أضعافاً مضاعفه. فإذا لم يصل هذا السلطان المعنوي إلى غايه كماله بسبب ما كان بين المسلمين من خلاف قبل الموقعة، لم تبلغ القوه الماديّه كلّ ما تطمح إلى بلوغه؛ وإن هي زادت بفعل هذا الإيمان الذي ازداد قوه بتحريض «محمّد» أصحابه فعوّضهم بذلك عن قلّه عددهم وعدتهم. وفي حال النبي وأصحابه هذه، نزلت الآية: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * أَلَا نَخَفُ اللَّهُ عَنْكُمْ وَاعْلَمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ۱ .

ازداد المسلمون قوه بتحريض «محمّد» إياهم ووقوفه بينهم ودفعهم لمقاتله العدو والصيحه بهم أنّ الجنه لمن أحسن البلاء منهم ومن غمس يده في العدو حاسراً. ووجه المسلمون أكبر همهم إلى سادات قريش وزعمائها يريدون استئصالهم، جزاءً وفاقاً لما عدّبوهم بمكّه، ولما صدّوهم عن المسجد الحرام وعن سبيل الله. رأى بلالٌ أميّه بن خلف وابنه ورأى بعض المسلمين الذين عرفوه بمكّه حوله، وكان أميّه هو الذي عدّب بلالاً، إذ كان يخرجّه إلى رمضاء مكّه فيضجعه على ظهره ويأمر بالصخره العظيمه فتوضع على صدره ليفتنه عن الإسلام، فيقول بلال: أحدٌ أحدٌ. رأى بلالٌ أميّه فصاح به: أميّه رأس الكفر، لا- نجوت إن نجا! وحاول بعض المسلمين من حول أميّه أن يحولوا دون قتله وأن يأخذوه أسيراً، فصرخ بلال بأعلى صوته في الناس:

يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلف لا- نجوت إن نجا. واجتمع الناس ولم ينصرف بلال حتى قتل أمية (١). وقتل معاذ بن عمرو بن الجموح أباجهل بن هشام (٢). وخاض حمزه وعلي وأبطال المسلمين وطيس المعركة وقد نسي كل منهم نفسه ونسى قلبه أصحابه وكثره عدوه، فثار النقع وامتلاً الجو بالغبار وجعلت هام قريش تطير من أجسادها. والمسلمون يزدادون بإيمانهم قوه ويصيحون مهللين: أحدهم أحد (٣)، وقد انهارت أمامهم حجب الزمان والمكان وأمدهم الله بالملائكة يبشرونهم ويزيدونهم ثبتيًا وإيمانًا، حتى لكان الواحد منهم إذ يرفع سيفه ويهوى به على عنق عدوه إنما تحرك قوه الله يده (٤).

ووقف «محيّد» وسط هذه المعركة، يتمشى خلالها ملك الموت يقط رقبه الكفر، فأخذ حفنه من الحصباء فاستقبل بها قريشاً وقال: شامت الوجوه! ثم نفحهم بها وأمر أصحابه فقال: شدوا (٥)، وشد المسلمون، وما يزالون أقل من قريش عدداً. لكن كل واحد منهم امتلأت بنفحه من أمر الله نفسه، فلم يكن هو الذى يقتل العدو ولا كان هو الذى يأسر من يأسر لولا هذه النفحة التى ضاعفت قوته المعنوية، بما ضاعف قوته الماديّة. وفى ذلك نزل (٦) قوله تعالى: إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ٧، وقوله تعالى (٧):

ص: ٣٧٩

- ١- (١) السيره النبويّه لابن هشام: ٦٣١/١-٦٣٢، والمغازى للواقدي: ٨٣/١.
- ٢- (٢) السيره النبويّه لابن هشام: ٦٣٤-٦٣٥، والمغازى للواقدي: ٨٧/١.
- ٣- (٣) السيره النبويّه لابن هشام: ٦٣٤/١.
- ٤- (٤) السيره النبويّه لابن هشام: ٦٣٣/١، والمغازى للواقدي: ٧٠/١-٧١.
- ٥- (٥) السيره النبويّه لابن هشام: ٦٢٨/١، والمغازى للواقدي: ٨١/١، وإعلام الورى: ١٦٩/١.
- ٦- (٦) تفسير الطبرى: ١٩٦/٦، وتفسير زاد المسير: ٣٢٩/٣، ومجمع البيان: ٤٣٩/٩.
- ٧- (٧) تفسير الطبرى: ٢٠٢/٦.

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ۚ وَلَمَّا آتَسَّ الرَّسُولُ أَنْ اللَّهَ أَنْجَزَهُ وَعَدَهُ وَآتَمَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ النَّصْرَ عَادَ إِلَى الْعَرِيشِ. وَفَزَتْ قَرِيشٌ فَطَارَدَهُمُ الْمُسْلِمُونَ يَأْسِرُونَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُقْتَلْ وَلَمْ يَسَاعَفْهُ حَسَنُ فِرَارِهِ بِالنَّجَاهِ (١).

هذه غزوه بدر التي استقرَّ بها الأمر للمسلمين من بعدُ في بلاد العرب جميعاً، والتي كانت مقدمه وحده شبه الجزيره في ظلال الإسلام، ومقدمه الامبراطوريه الإسلاميه المتراميه الأطراف، والتي أفرَّت في العالم حضاره ما تزال ولن تزال ذات أثر عميق في حياته. ولقد تعجب إذ تعلم أنَّ «محمّداً»، على ما كان من تحريضه أصحابه و ما كان يرجو من استئصال عدوّ الله وعدوّه، قد طلب إلى المسلمين منذ اللحظه الأولى من المعركه ألما يقتلوا بنى هاشم وألما يقتلوا بعض رجال من سادات قريش، مع أنّهم اشتركوا في قتال المسلمين، ومع أنّهم كانوا سيقتلون من المسلمين من يستطيعون قتله. ولا تحسب أنّه في ذلك أراد أن يحابي أهله أو أحداً ممّن يمتّون له بصله القربى، فنفس «محمّداً» أسمى من أن تتأثر بمثل هذا، وإنّما ذكر لبني هاشم منعهم إيّاه مدى ثلاثه عشر عاماً من يوم بعثه إلى يوم هجرته، حتّى كان عمّه العباس معه ليله بيعه العقبه (٢). وذكر لغير بنى هاشم من قريش من قاموا وهم على الكفر يطالبون بنقض الصحيفة التي اضطرت به قريش أن يلزم هو وأصحابه الشّعب أن قطعت قريش بهم كلّ صله وكل علاقته. فهذا المعروف الذي تقدّم

ص: ٣٨٠

١- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ١/٦٢٨، والمغازي للواقدي: ١/٧٩.

٢- (٣) مرّت المناقشه في ذلك في محلها، فراجع.

به هؤلاء وأولئك قد اعتبره «محمد» حسنه يُجزى من قدمها بمثلها بل يُجزى بعشر أمثالها، ولذلك كان شفيحاً لهؤلاء وأولئك عند المسلمين ساعه القتال، وإن أبي بعض هؤلاء القرشيين أن يستظلوا بهذا العفو على نحو ما فعل أبو البختري أحد الذين قاموا في نقض الصحيفة، فقد أبي وقتل (١).

ولى أهل مكة الأدبار كاسفاً بالهم خُشعاً من الذل أبصارهم، ما يكاد أحدهم يلتقى نظره بنظر صاحبه حتى يوارى وجهه خجلاً من سوء ما حلّ بهم جميعاً. أما المسلمون فأقاموا ببدر إلى آخر النهار، ثمّ جمعوا الذين قتلوا من قريش فحفروا لهم قليلاً فدفنوهم فيه. وقضى «محمد» وأصحابه تلك الليلة في الميدان في شغل بجمع الغنيمه والسهر على الأسرى. وإذا جنّ الليل جعل «محمد» يفكر في نصر الله المسلمين على قله عددهم، وخذلانه المشركين الذين لم يكن لهم من قوه الإيمان عضد تعتر به كثرتهم. جعل يفكر في هذا حتى سمعه أصحابه في جوف الليل وهو يقول:

«يا أهل القلب. يا عتبه بن ربيعه ويا شيبه بن ربيعه. ويا أميه بن خلف، ويا أبا جهل بن هشام؛ واستمر يذكر من في القلب واحداً بعد واحداً!

يا أهل القلب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً! فإنني وجدت ما وعدني ربي حقاً». قال المسلمون: يا رسول الله، أتنادى قوماً جئفوا؟ قال عليه السلام:

«ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني» (٢). ونظر رسول الله في وجه أبي حذيفه بن عتبه فألفاه كنيياً قد تغير لونه؛ فقال له:

لعلك يا أبا حذيفه قد دخلك من شأن أبيك شيء؟ قال أبو حذيفه: «لا والله يا رسول الله. ما شككت في

ص: ٣٨١

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٦٢٨/١-٦٢٩، والمغازي للواقدي: ٨٠/١-٨١، وتاريخ الطبري: ٣٤/٢، وبحار الأنوار: ٣٠٣/١٩، الكافي للكليني: ٢٠٣/٨.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٦٣٨/١-٦٣٩، والمغازي للواقدي: ١١٢/١، وتاريخ الطبري: ٣٧/٢، وبحار الأنوار: ٣٤٦/١٩.

أبى و لا- فى مصرعه و لكننى كنت أعرف من أبى رأيا و حلما و فضلا، فكنت أرجو أن يهديه ذلك للإسلام. فلما رأيت ما أصابه و ذكرت ما كان عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجو له أحزنى أمره». فطمأنه رسول الله و دعا له بخير(١).

و لما أصبح الصبح و آن للمسلمين أن يرتحلوا قافلين إلى المدينة، بدأوا يتساءلون فى الغنيمه لمن تكون؟ قال الذين جمعوها: نحن جمعناها فهى لنا.

و قال الذين كانوا يطاردون العدو حتى ساعه هزيمته: نحن و الله أحق بها، فلو لانا لما أصبتموها. و قال الذين كانوا يحرسون «محمّد» مخافه أن يرتد إليه العدو: ما أنتم و لا هم أحق بها منّا، و كان لنا أن نقتل العدو و نأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه، و لكننا خفنا على رسول الله كره العدو فقمنا دونه. فأمر «محمّد» الناس أن يردّوا كل ما فى أيديهم من الغنائم، و أمر بها أن تحمل حتى يرى فيها رأيه أو يقضى الله فيها بقضائه.

و بعث «محمّد» إلى المدينة عبد الله بن رواحه و زيد بن حارثه بشيرين يلقيان إلى أهلها بما فتح الله على المسلمين من النصر. و قام هو و أصحابه قافلين إلى المدينة و معه الأسرى و ما أصاب من المشركين من غنيمه جعل عليها عبد الله بن كعب، و سار القوم، حتى إذا تخطّوا مضيق الصفراء نزل «محمّد» على كتيب فقسم هناك النفل الذى أفاء الله على المسلمين، بين المسلمين على سواء(٢). يقول بعض المؤرخين(٣): إنّه قسّمه بينهم بعد إذ أخذ

ص: ٣٨٢

١- (١) السيره النبويه لا بن هشام: ١/٦٢٨-٦٣٠، و المغازى للواقدي: ١/١١٢، و تاريخ الطبرى: ٢/٣٧.

٢- (٢) السيره النبويه لا بن هشام: ١/٦٤١-٦٤٢، و تاريخ الطبرى: ٢/٣٧-٣٨.

٣- (٣) السيره النبويه لا بن كثير: ٢/٤٦٧، و السيره الحلبيه: ٢/١٨٤.

منه الخمس، لقوله تعالى: وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِاتِّدَى الْقُرْبَى وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ ١ . و يذهب الأكثرون (١) من كتاب السير، و المتقدمون منهم خاصة، إلى أن هذه الآية نزلت بعد بدر و بعد قسم فيثها. و أن «محمدا» جعل القسمة بين المسلمين على سواء، و أنه جعل للفرس مثل الفارس، و جعل للورثة حصه من استشهد ببدر، و جعل حصه لمن تخلف بالمدينة فلم يشهد بدرا ما كان قائما فيها بعمل للمسلمين، و من حرّضهم حين الخروج إلى بدر و تخلف هو لعذر قبله الرسول. و كذلك قسم الفياء بالقسط. فليس المقاتل وحده هو الذى اشترك فى الحرب و النصر، بل اشترك فى الحرب و النصر كل من كان لعمله فى الفوز حظّ أيا كان هذا العمل؛ و سواء أكان فى ميدان القتال أم كان بعيدا عنه (٢).

و فيما المسلمون فى طريقهم إلى مكّه قتل من الأسرى رجلا؛ أحدهما النضر بن الحارث و الآخر عاقبه بن أبى معيط. و لم يكن «محمدا» و لا كان أصحابه إلى هاته اللحظه قد وضعوا للأسرى نظاما يكون على مقتضاه قتلهم أو اقتداؤهم أو استرقاقهم. لكن النضر و عاقبه كانا على المسلمين أيام مقامهم بمكّه شرّا مستطيرا، و كانا لا ينفكان يوصلان لهم من الأذى كل ما يستطيعان. قتل النضر حين عرض الأسرى على النبى عليه السلام عند بلوغهم الاثيل.

فقد نظر إلى النضر نظره ارتعد لها الأسير، و قال لرجل إلى جنبه: محمّد و الله

ص: ٣٨٣

١- (٢) المغازى للواقدي: ٩٩/٢، و السير النبويّه لا بن هشام: م ٦٦٦-٦٦٧.

٢- (٣) السير الحلييه: ١٨/٢، و إمتاع الأسماع: ١١٢/١.

قاتلى، لقد نظر إليّ بعينين فيهما الموت. قال الذى إلى جنبه: ما هذا والله منك إلا رعب. وقال النضر لمصعب بن عمير و كان أقرب من هناك به رحما: كَلِمَ صاحبك أن يجعلنى كرجل من أصحابه، فهو والله قاتلى إن لم تفعل. فكان جواب مصعب: إنك كنت تقول فى كتاب الله و فى نبيّه كذا و كذا، و كنت تعذب أصحابه. قال النضر: لو أسرتك قريش ما قتلتك أبدا و أنا حيّ. قال مصعب:

و الله إنى لا- أراك صادقا، ثم إنى لست مثلك فقد قطع الإسلام اليهود. و كان النضر أسير المقداد و كان يطمع أن ينال فى افتدأ أهله إياه مالا كثيرا. فلما رأى الحديث حول قتله صاح: النضر أسير. قال النبي عليه السلام:

إضرب عنقه، و اللهم اغن المقداد من فضلك. فقتله على بن أبى طالب ضربا بالسيف.

و لمّا كانوا من طريقهم بعرق الظبية أمر النبي بقتل عاقبه بن أبى معيط فصاح عاقبه: فمن للصبية يا «محمّد»؟. قال: النار. و قتله على بن أبى طالب أو قتله عاصم بن ثابت، على اختلاف فى الرواياه (1).

و قبل أن يصل النبي و المسلمون المدينه بيوم، و صلها رسولا زيد بن حارثه و عبد الله بن رواحه، و دخل كل واحد من ناحيه منها؛ فجعل عبد الله ينادى على راحلته يبشّر الأنصار بنصر رسول الله و أصحابه و يذكر لهم من قتل المشركين. و جعل زيد بن حارثه يصنع صنيعه و هو ممتط القصى ناقة النبي. و سرّ المسلمون و اجتمعوا و خرج من كان منهم فى داره و انطلقوا يهللون لهذا النصر العظيم. أمّا الذين بقوا على الشرك، و أمّا اليهود فقد كتبوا

ص: ٣٨٤

١- (١) سيره ابن هشام: ٦٤٤/١، و المغازى للواقدي: ١٠٦/١-١٠٧، و تاريخ الطبرى: ٣٨/٢، و إمتاع الأسماع: ١٠٩/١ و ١١٤، و تفسير القمى: ٢٩٦/١.

لهذا النبأ و حاولوا أن يقنعوا أنفسهم و أن يقنعوا الذين أقاموا فى المدينه من المسلمين بعدم صحته، فصاحوا: إن «محمدا قتل و أصحابه هزموا و هذه ناقته نعرفها جميعا، و لو أنه انتصر لبقيت عنده، و إنما يقول زيد ما يقول هذيانا من الفزع و الرعب. لكن» المسلمين مالبثوا أن تثبتوا من الرسولين، و أن اطمأنوا إلى صحه الخبر حتى زاد بهم السرور لو لا حادث طراً خفف من سرورهم.

ذلك الحادث هو موت رقيه بنت النبى، و كان تركها عند ذهابه إلى بدر مريضه و ترك معها زوجها عثمان بن عفان يمرضها. و لما أيقن المشركون و المنافقون بنصر «محمّد» أسقط فى أيديهم و رأوا موقفهم من المسلمين قد أصبح موقف هوان و مذله، حتى قال أحد زعماء اليهود: بطن الأرض خير من ظهرها، بعد أن أصيب أشرف الناس و ساداتهم و ملوك العرب و أهل الحرم و الأمن (١).

و دخل المسلمون المدينه قبل أن يدخلها الأسارى بيوم. فلما جرى بهم و رجعت سوده بنت زمعه زوج النبى من مناحه ابني عفراء و كانت بها، رأت أبا يزيد سهيل بن عمرو أحد الأسرى مجموعه يدها إلى عنقه بحبل، فلم تملك نفسها أن توجه إليه الكلام قائله: أى أبا يزيد! أسلمتم أنفسكم و أعطيتم بأيديكم. ألامتم كراما! فناداها «محمّد» من البيت:

يا سوده! أعلى الله عزّ و جلّ و على رسوله تحرّضين! فأجابت: يا رسول الله! و الله الذى بعثك بالحقّ ما ملكت نفسى حين رأيت ما رأيت أن قلت ما قلت (٢). و فرّق «محمّد» الأسارى بين

ص: ٣٨٥

١- (١) سيره ابن هشام: ٦٤٢/١، و المغازى للواقدي: ١٢١/١، و تاريخ الطبرى: ٣٨/٢، و السيره الحلبيه: ١٨٢/٢-١٨٣.

٢- (٢) سيره ابن هشام: ٦٤٥/١، و تاريخ الطبرى: ٣٩/٢.

أصحابه و قال لهم:

استوصوا بهم خيرا. و طفق من بعد ذلك يفكر فيما يصنع بهم.

أفيقتلهم أم يأخذ منهم الفداء؟! إن منهم لأشداء في الحرب أقوياء في النضال، و من امتلأت بالحقد و الضغينه نفوسهم بعد الذي كان من هزيمتهم بيد و ما لحقهم من عار الأسر، فإن هو قبل الفداء كانوا عليه حربا و ألبا، و إن هو قتلهم أثار في نفوس أهليهم من قريش ما ربما هدا لو أنهم افتدوهم.

و عرض الأمر على المسلمين يستشيرهم و يترك لهم الخيار. و كان المسلمون قد أنسوا من الأسرى طمعا في الحياه و استعدادا لفديه عظيمه. فقال هؤلاء: لو بعثنا إلى أبي بكر فإنه أوصل قريش لأرحامنا و أكثرهم رحمه و عطفًا. و لا نعلم أحدا آثر عند «محمّد» منه. و بعثوا إلى أبي بكر فقالوا له: يا أبا بكر إن فينا الآباء و الإخوان و العمومه و بنى العم «و أبعدنا قريب. كلم صاحبك يمن «علينا أو يفادنا. فوعدهم خيرا. و خافوا أن يفسد ابن الخطاب عليهم أمرهم فأرسلوا إليه فجاءهم فقالوا له مثل قولهم لأبي بكر، فنظر إليهم شزرا. و ذهب وزير «محمّد» إليه فجعل أبا بكر يلينه و يفتؤه (1) و يقول: يا رسول الله، بأبي أنت و أمي، قومك فيهم الآباء و الأبناء و العمومه و بنو العم «و الإخوان، و أبعدهم منك قريب. فامنن عليهم من «الله عليك أو فادهم يستنقذهم الله بك من النار، فتأخذ منهم ما أخذت قوه للمسلمين، فلعل «الله أن يقبل بقلوبهم. و سكت «محمّد» فلم يجبه، فقام فتنحى. و جاء عمر فجلس مجلسه و قال: يا رسول الله، هم أعداء الله كذبوك و قاتلوك و أخرجوك، إضرب رقابهم؛ هم رؤس الكفر و أئمه الضلاله يوطئ الله بهم الإسلام و يذل بهم أهل

ص: ٣٨٤

١- (١) فتأت عنك فلانا: كسرتة عنك (بقول و غيره) - كتاب العين: ٢٤٦/٨.

الشرك، و لم يجب «محمّد». فعاد أبو بكر إلى مقعده الأول و جعل يتلطف و يستعطف و يذكر القرابه و الرحم و يرجوا لهؤلاء الأسرى الهدى إن هم أبقى على حياتهم. و عاد عمر مثال العدل الصارم لا تأخذه فيه هواده و لا رحمه.

و لَمَّا فرغ أبو بكر و عمر من كلامهما قام «محمّد» فدخل قنبرته فمكث فيها ساعه، ثم خرج و الناس يخوضون فى شأنهم، يقف بعضهم فى صف أبى بكر، و يقف آخرون فى صف عمر. فشاورهم فيما يصنع، و ضرب لهم فى أبى بكر و عمر مثلاً. فأما أبو بكر فمثله كمثل ميكال ينزل برضاء الله و عفوه عن عباده، و مثله فى الأنبياء كمثل إبراهيم، كان ألين على قومه من العسل. قدمه قومه إلى النار و طرحوه فيها، فما زاد على أن قال: أُمَّ لَكُمْ وَ لِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ ١ ، و أن قال: فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَ مَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٢ ، و مثله فى الأنبياء كمثل عيسى، إذ يقول: إِنَّ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٣ . و مثل عمر فى الملائكه كمثل جبرئيل ينزل بالسخط من الله و النقمه على أعداء الله، و مثله فى الأنبياء كمثل نوح، إذ يقول: رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ٤ ، و كمثل موسى، إذ يقول:

رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَ اشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ٥ .

ثُمَّ قَالَ: وَإِنْ بَكِم عَيْلَهُ فَلَا يَفُوتَنَّكُمْ رَجُلٌ مِنْ هَؤُلَاءِ إِلَّا بَفْدَاءٍ أَوْ ضَرْبِهِ عُنُقٍ.

وتشاور القوم فيما بينهم. وكان من بين الأسرى شاعر، هو أبو عزة عمرو بن عبد الله بن عمير الجُمحى، رأى خلاف القوم واستعجل النجاه، فقال: لى خمس بنات لىس لهنّ شىء فتصدّق بى عليهنّ يا «محمّد»، وإنّى لمعطيك موثقاً لا أقاتلك ولا أكثر عليك أبداً. فأمنه النبى وأرسله من غير فداء، وكان هو وحده الأسير الذى ظفر بهذا الأمان. على أنه ما لبث أن نكث بعهده وأن عاد فقاتل بعد عام فى أحد فأسر وقُتل. وظلّ المسلمون فى تشاورهم زمناً انتهوا بعده إلى قبول الفداء (١). وفى قبولهم نزلت (٢) هذه الآية: ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ٣.

يقف غير واحد من المستشرقين عند أسرى بدر هؤلاء وعند مقتل النضر وعقبه، ويتساءلون: أليس فى ذلك ما يدل على ظمأ هذا الدين الجديد للدم، ظمأ لولاه لما قتل الرجال، ولكان أكرم للمسلمين بعد أن كسبوا الموقعة أن يرّدوا الأسرى وأن يكتفوا بالشىء الذى غنموا؟ وذلك تساؤل الذى يريد أن يثير فى النفوس عوامل إشفاق لم يكن له يومئذ موضع، ليكون له بعد ألف سنه من هذه الغزوه وما تلاها من غزو وسيله للنيل من الدين ومن صاحب الدين. على أن هذا التساؤل ما يلبث أن ينهار ويتداعى إذا نحن وازننا مقتل النضر وعقبه بما يجرى اليوم وما سيجرى دائماً ما دامت الحضاره الغربيه، التى تتشعح بوشاح المسيحيه، متحكمه فى الأرض. فهل تراه يوازى

ص: ٣٨٨

١- (١) المغازى للواقدي: ١١١/١.

٢- (٢) تفسير الطبرى: ٢٨٦/٦، وتفسير مجمع البيان: ١٧٨/١-١٧٩، وتفسير زاد المسير: ٣٧٩/٣.

شيئاً إلى جنب ما يقع باسم قمع الثورات في بلاد يحكمها الاستعمار على كره من أهلها وبالرغم منهم؟ وهل تراه يوازي شيئاً إلى جانب ما وقع من مجازر الحرب الكبرى؟ ثم هل هو يوازي شيئاً ممّا حدث أثناء الثورة الفرنسيه الكبرى، وأثناء الثورات المختلفه التي وقعت وتقع في أمم أوروبا المختلفه؟

وليس ريب في أنّ الأمر بين «محمّد» وأصحابه كان ثوره قويّه من «محمّد» بعثه الله ليقوم بها في وجه الوثنيه والمشركين من عبّادها، ثوره قامت أوّل أمرها بمكّه واحتمل «محمّد» وأصحابه من أجلها ألوان العذاب ثلاثه عشر عاماً سويّاً. ثمّ انتقل المسلمون إلى المدينه وحشدوا جموعهم وقوّاتهم بها، وما تزال مبادئ الثوره قائمه على أشدّها في نفوسهم وفي نفوس قريش جميعاً. وانتقال المسلمين إلى المدينه وموادعتهم اليهود من أهلها وما قاموا به من مناوشات سبقت بدرأ، وغزوه بدر هذه، ذلك كلّه كان سياسه الثوره ولم يكن مبادئها، كان السياسه التي قرّر القائم بهذه الثوره وأصحابه أن يتبعوا لإقرار أسمى المبادئ التي جاء الرسول بها. وسياسه الثوره شيء ومبادئها شيء آخر، والخطه التي تتبع قد تختلف تمام الاختلاف عن الغايه المقصوده من هذه الخطه. وإذا كان الإسلام يقصد إلى إعلان الأخوّه في الأرض كمبدأ، فيجب أن يسلك لذلك سبله وإن اقتضى ذلك من العنف والشده ما لا مفرّ منه.

وهذا الذي صنع المسلمون بأسرى بدر آيه في الرحمه وفي الحسنى إلى جانب ما يقع في الثورات التي يتغنّى أهلها بمعانى العدل والرحمه، وهو لا شيء إلى جانب المجازر الكثيره التي قامت باسم المسيحيه من مثل

مجزره سان بارتلمى. هذه المجزرة التي تعتبر سببه في تاريخ المسيحية لا شيء من مثلها قط في تاريخ الإسلام. هذه المجزرة التي دبرت بليل وقام فيها الكاثوليك بذبح البروتستنتيين في باريس وفي فرنسا غدراً وغيلة في أحط صور الغدر وأبشع صور الغيلة. فاذا قتل المسلمون اثنين من أسرى بدر الخمسين لأنهم كانوا قساة على المسلمين مدى الأعوام الثلاثة عشر التي احتل المسلمون فيها صنوف الأذى بمكّه، فقد كان في ذلك من مزيد الرحمة ومن اعتبار الفائده العاجله ما نزلت معه الآية: ما كان لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُنْجَخَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝۱ .

بينما كان المسلمون في فرحهم بنصر الله وما أفاء عليهم من المغانم كان الحيسمان بن عبدالله الخزاعي يحث الطريق إلى مكّه، حتّى كان أوّل من دخلها وأخبر أهلها بهزيمة قريش ومصابها في كبرائها وأشرفها وسادتها.

وقد ذهلت مكّه أوّل الأمر فلم تصدّق الخبر. وكيف لا تذهل وهي تسمع أخبار هزيمتها ومقتل الساده والأشراف منها! لكنّ الحيسمان لم يكن يهذى، وكان يؤكّد ما يقول وهو أشدّ من قريش جزعاً لما أصابهم. فلما استوثقوا من روايته خزّوا صعقين، حتّى لقد حمّ أبو لهب ومات بعد سبعة أيّام. وتشاورت قريش ما تصنع، فأجمعت على ألماتنوح على قتلاها مخافه أن يبلغ «محمّداً» وأصحابه فيشمتوا بهم، وألاً تبعث في أسراها حتّى لا يارب عليها «محمّد» وأصحابه ويغلوا في الفداء (1). وانقضى زمن وقريش صابره على محنتها حتّى

ص: ٣٩٠

سنتحت فرصه افتدائها أسراها. إذ ذاك قدم مكرز بن حفص فى فداء سهيل بن عمرو. وكأئما عزّ على عمر بن الخطاب أن يُفتدى وينجو من غير أن يصيبه مكروه، فقال: يا رسول الله، دعنى أنزع ثبتي سُهَيْل بن عمرو ويدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً فى موطن أبداً. فكان جواب النبىّ هذا الجواب البالغ غايه السمو:

لا أمثل به فيمثل الله بى وإن كنت نبياً(١).

وبعثت زينب ابنة النبىّ تفتدى زوجها العاصى بن الربيع، وكان فيما بعثت قلاده لها كانت خديجه أدخلتها بها على أبى العاصى حين بنى عليها؛ فلما رآها النبىّ رقّ لها رقه شديده، فقال صلى الله عليه وآله:

إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردّوا عليها مالها فافعلوا(٢). ثمّ إنّه اتفق فيما بينه وبين أبى العاصى على أن يفارق زينب وقد فرّق الإسلام بينه وبينها. وبعث «محمّد» زيد بن حارثه وصاحباً معه فجاءا بها إلى المدينه على أن أبى العاصى ما لبث بعد مده إساره أن خرج إلى الشام فى مال لقريش؛ حتّى إذا كان على مقربه من المدينه لقيته سريره ل «محمّد» فأصابوا ما معه، فانحدر تحت الليل إلى أن دخل على زينب واستجارها فأجارته. وردّ المسلمون على الرجل ماله فانطلق به آمناً إلى مكّه.

فلما رده لأصحابه من قريش قال: يا معشر قريش! هل بقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه؟ قالوا: لا! جزاك الله خيراً فقد وجدناك وفياً كريماً. قال:

فانى أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمّداً عبده ورسوله. والله ما منعنى من الإسلام عنده إلا مخافه أن تظنّوا أنّى إنّما أردت أن آكل أموالكم، فلما أذاها الله إليكم

ص: ٣٩١

١- (١) تاريخ الطبرى: ٤١/٢.

٢- (٢) إمتاع الأسماع: ١١٨/١-١١٩.

و فرغت منها أسلمت (١). وعاد إلى المدينة وردّ عليه النبيّ زينب. واستمرت قريش تفتدى أسراها، وكان الفداء يومئذٍ أربعة آلاف، درهم للرجل إلى ألف إلا من لا شيء عنده، فقد منّ عليه «محمد» بحريته (٢).

لم يهون ذلك على قريش مصابها، ولا هو دعاها إلى أن تهادن «محمدًا»، أو أن تنسى هزيمتها؛ بل ناحت من بعد ذلك نساء قريش على قتلاها شهراً كاملاً، فجززن شعر رؤوسهنّ، وكان يؤتى براحله الرجل أو بفرسه فينحن حولها. ولم يخالفهنّ في هذا إلا هند بنت عتبة زوج أبي سفيان.

ولقد مشى نساء منهنّ يوماً إليها فقلن: ألا- تبكين على أبيك وأخيك وعمك وأهل بيتك! فقالت: أنا أبكيهم فيبلغ «محمدًا» وأصحابه فيشمتوا بنا ويشمت بنا نساء بني الخزرج! لا- والله حتى أثار من «محمدًا» وأصحابه! والدّهن على حرام حتى نغزو «محمدًا». والله لو أعلم أن الحزن يذهب من قلبي لبكيت؛ ولكن لا- يذهب إلا أن أرى ثأري بعيني من قتله الأحمق. ومكثت لا تقرب الدهن ولا تقرب فراش أبي سفيان وتحرض الناس حتى كانت واقعه أحد. أمّا أبو سفيان فنذر بعد بدر ألا يمس رأسه ماء من جنابه حتى يغزو «محمدًا» (٣).

ص: ٣٩٢

١- (١) السيرة النبويّة لابن هشام: ٦٥٨/١-٦٥٩، وتاريخ الطبري: ٤٤/٢.

٢- (٢) السيرة النبويّة لابن هشام: ٦٦٠/١، وإمتاع الأسماع: ١١٨/١.

٣- (٣) المغازي للواقدي: ١٢١/١ و ١٢٤.

الفصل الرابع عشر: بين بدر وأحد

المسلمون واليهود، غزوه بنى قينقاع، جلاء اليهود عن المدينة، قريش تتحرك، غزوه السويق، القبائل تتحرك فتفرّ، هزيمة صفوان بن أمية.

تركت بدرٌ بمكّه من عميق الأثر ما رأيت، تركت الحرص على الثأر من «محمّد» والمسلمين يوم تنهياً فرصه الثأر. لكن أثرها بالمدينة كان أوضح وأكثر اتصالاً بحياه «محمّد» والمسلمين معه. فقد شعر اليهود والمشركون والمنافقون بعد بدر بمزيدة قوّه المسلمين. ورأوا هذا الرجل الأجنبي الذي وفد عليهم من أقل من عامين فارقاً مهاجراً من مكّه يزداد سلطاناً وبأساً، ويكاد يكون صاحب الكلمه فى أهل المدينة جميعاً لا فى أصحابه وحدهم. وكان اليهود، على ما رأيت، قد بدأ تدمّرهم من قبل بدر وبدأت مناوشاتهم المسلمين، حتّى لكان ما بين الفريقين من عهد الموادعه هو الذى حال فى أكثر من ظرف دون الانفجار. لذلك ما كاد المسلمون يعودون من بدر معتزّين بالنصر، حتّى جعلت طوائف المدينة الأخرى تتغامز وتأتمر،

وحتى بدأت تُغرى بهم وترسل الأشعار في التحريض عليهم. بذلك انتقل ميدان الثورة من مكة إلى المدينة، وانتقل من الدين إلى السياسة. فلم تبق دعوته «محمّدياً» إلى الله هي وحدها التي تُحارب، ولكن سلطانته ونفوذه أمره وكلمته هو الذي كان موضع الرهبة والخوف، وسبب الائتمار به والتفكير في اغتياله. ولم يكن «محمّدياً» لتخفي عليه من ذلك كله خافية: بل كان يقع على أخباره جميعاً ويتصل بعلمه كلّ ما يدبر ضده. وجعلت النفوس من جانبي المسلمين واليهود تمتلئ بالغلّ والضغينة شيئاً فشيئاً، رويداً رويداً، وجعل هؤلاء وأولئك يتربص كلّ بصاحبه الدوائر.

وكان المسلمون إلى حين نصرهم الله ببدر يخشون مواطنيهم من أهل المدينة؛ فلا تبلغ منهم الجرأة إلى الاعتداء على من يعتدى على مسلم منهم.

فلما عادوا منتصرين أخذ سالم بن عمير نفسه بالقضاء على أبي عَفْكَ أحد بني عمرو بن عوف؛ لأنه كان يرسل الأشعار يطعن بها على «محمّدياً» وعلى المسلمين، ويحرّض بها قومه على الخروج عليهم؛ وظلّ كذلك بعد بدر يُغرى بهم الناس. فذهب إليه سالم في ليله صائفه كان أبو عَفْكَ نائماً فيها بفناء داره، فوضع سالم السيف على كبده حتى خَشَّ (١) في الفراش (٢). وكانت عصماء بنت مروان من بني أمية بن زيد تعيب الإسلام وتؤذي النبي وتحرّض عليه؛ وظلّت كذلك إلى ما بعد بدر. فجاءها يوماً عمير بن عوف في جوف الليل

ص: ٣٩٤

١- (١) خَشَّ: نفذ، لسان العرب: ٢٩٥/٦.

٢- (٢) المغازي للواقدي: ١٧٤/١-١٧٥، والطبقات الكبرى لابن سعد: ٢٨/٢، وعيون الأثر: ٣٤١/١.

حتى دخل عليها بيتها وحولها نفر من ولدها نيام ومنهم من ترضعه؛ وكان عمير ضعيف البصر، فجسها بيده فوجد الصبي ترضعه، فنجاه عنها، ثم وضع سيفه في صدرها حتى أنفذه من ظهرها. ورجع عمير من عند النبي بعد أن أخبره الخبر، فوجد بنيتها في جماعه يدفنونها؛ فأقبلوا عليه فقالوا: يا عمير أنت قتلتها؟ قال: «نعم! فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون. فوالذي نفسي بيده لو قتلتم بأجمعكم ما قالت لضربتكم بسيفي حتى أموت أو أقتلكم». وقد كان من أثر جراه عمير هذه أن ظهر الإسلام في بني خنظله، وكانت عصماء زوج رجل منهم، فأظهر منهم من كان يفي إسلامه وانضم إلى صف المسلمين وسار معهم (١).

ويكفي أن نضيف إلى هذين المثليين أن كعب بن الأشرف هو الذي قال حين علم بمقتل سادات مكة: هؤلاء أشرف العرب وملوك الناس. والله لئن كان «محمّد» أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها، وأنه لما تيقن الخبر ذهب إلى مكة يحرض على «محمّد» ويُنشد الأشعار ويبكى أصحاب القليب، وأنه رجع بعد ذلك إلى المدينة فجعل يُشَبِّب (٢) بنساء المسلمين. وأنت تعرف طبائع العرب وأخلاقها وتعرف مبلغ تقديرهم للعرض وثورتهم من أجله. وقد بلغ من غيظ المسلمين أنهم أجمعوا على قتل كعب، واجتمع في ذلك عدّه منهم، وذهب إليه أحدهم يستدرجه بالطعن على «محمّد» إذ يقول له: كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء من البلاء، عادتنا العرب

ص: ٣٩٥

١- (١) المغازي للواقدي: ١٧٢/١-١٧٤، الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢٧/٢-٢٨، وإمتاع الأسماع: ١٢٠/١-١٢١.

٢- (٢) شبب بالمرأه: قال فيها الغزل والنسيب - لسان العرب: ٤٨١/١.

ورمونا عن قوس واحده وقطعت عَنَّا السَّبيل حَتَّى ضاع العيال وجهُدت الأنفُس. ولَمَّا أنسَ إلى كعب وأنسَ إليه كعب طلبه إليه مالا لنفسه ولجماعه من أصحابه على أن يرهنوه دروعهم. ورضى كعب على أن يجيئوه من بعد.

وإنه لفي داره على بعدٍ من المدينه إذ ناداه صدر الليل أبونائله أحد المؤتمرين به، فنزل إليه رغم تحذير عروسه إياه النزول في مثل هذه الساعه من الليل.

وسار الرجال حَتَّى التقيا بأصحاب أبي نائله وكعب آمنٌ لا يخافهم. وخرج القوم يتماشون حَتَّى مشوا ساعه بَعُدُوا بها عن دار كعب وهم يتجاذبون أطراف الحديث ويذكرون من حالهم وما وصلوا إليه من شدّه ما يزيد في طمأنينه كعب. وفي هذه الأثناء كان أبو نائله يضع يده في رأس كعب ويشمها ويقول: ما رأيت كالليله طيباً أعطر قطّ. ولَمَّا لم تبق لدى كعب شبهه فيهم، عاد أبونائله فوضع يده على شعر كعب ثمَّ أخذ بفؤد(١) رأسه وقال: اضربوا عدوّ الله، فضربوه بأسيافهم حَتَّى مات.

زاد هذا الحادث في مخاوف اليهود، فلم يبق منهم إلّا من يخاف على نفسه(٢). على أنّ ذلك لم يُسكتهم عن «محمّد» ولا عن المسلمين حَتَّى فاضت النفوس أي فيض. قَدِمَت امرأه من العرب إلى سوق اليهود من بني قَيْنُقَاع ومعها حليه جلست إلى صائغ منهم بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها وهي تأبى، فجاء يهوديٌ من خلفها في سرّ منها فأثبت طرف ثوبها بشوكه إلى ظهرها فلَمَّا قامت انكشفت سواتها فضحكوا بها؛ فصاحت فوثب

ص: ٣٩٦

١- (١) الفؤد: أحد فؤدى الرأس، وهما معظم شعره اللّمه مما يلي الأذنين - كتاب العين: ٧٩/٨.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٥١/٢-٥٧، وطبقات ابن سعد: ٣١/٢-٣٢، وإمتاع الأسماع: ١٢٥/١-١٢٦.

رجل من المسلمين على الصائغ وكان يهودياً فقتله؛ وشدت اليهود على المسلم فقتلوه؛ فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فوقع الشرّ بينهم وبين بنى قينقاع. وطلب «محمّد» إلى هؤلاء أن يكفّوا عن أذى المسلمين وأن يحفظوا عهد الموادعه أو ينزل بهم ما نزل بقريش، فاستخفّوا بوعيده وأجابوه: «لا يغرنك يا «محمّد» أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة. إنّنا والله لئن حاربناك لتعلمنّ أنّنا نحن الناس» فلم يبق بعد ذلك من سبيل لعدم مقاتلتهم إلّا أن يتعرّض المسلمون ويتعرض سلطانهم بمكّه للتداعى ويصبحوا أحدوثة قريش وقد جعلوا قريشاً بالأمس أحدوثة العرب.

وخرج المسلمون فحاصروا بنى قينقاع فى دورهم خمسة عشر يوماً متتابعه لا يخرج منهم أحد ولا يدخل عليهم بطعام أحد، حتّى لم يبق لهم إلّا النزول على حكم «محمّد» والتسليم بقضائه. فلمّا سلّموا قرّر «محمّد»، بعد مشوره كبار المسلمين، قتلهم جميعاً. فقام إليه عبد الله بن أبيّ بن سلّول، وكان لليهود كما كان للمسلمين حليفاً، فقال: يا «محمّد» أحسن فى موالىّ. فأبطأ عليه النبىّ فكزّر الطلب، فأعرض النبىّ عنه فأدخل يده فى جيب درع «محمّد»، فتغير «محمّد» وقال له: ارسلنى؛ وغضب حتّى رأوا لوجهه ظللاً، ثمّ أعاد وأثرّ الغضب فى نبرات صوته: «ارسلنى ويحك!» قال ابن ابى: لا والله لا أرسلك حتّى تُحسن فى موالىّ. أربعمائه حاسر وثلاثمائه دارع قد منعونى من الأحمر والأسود تحصّدهم فى غداه واحده! إنى والله امرؤ أخشى الدوائر.

وكان عبد الله ذا سلطان ما يزال فى المشركين من الأوس والخزرج، وإن كان

هذا السلطان قد ضُفِّ بقوه المسلمين. فرأى النبيّ في إلحاحه ما جعله يعود إلى سكّينته، وبخاصه بعد إذ جاءه عبّاده بن الصامت يحدّثه حديث ابن أبي، وما جعله يفكّر في أن يُسدى هذه اليد لعبد الله وللمشركين موالى يهود جميعاً حتّى يصبحوا مدينين لاحسانه ورحمته؛ على أن تجلو بنوقينقاع عن المدينه جزاءً لها على صنيعها، وقد حاول ابن أبي أن يتحدّث مرّه أُخرى إلى «محمّد» في بقائهم ومقامهم. لكنّ أحد المسلمين حال دون ابن أبي ولقاء «محمّد»، واشتجرا حتّى شجّ عبد الله. فقالت بنوقينقاع: والله لا نقيم ببلد تُشجّ فيه يابن أبي ولا نستطيع عنك دفاعاً. وعلى ذلك سار بهم عبّاده بعد الذي كان من تسليمهم وإذعانهم تاركين المدينه، تاركين وراءهم السلاح وأدوات الذهب الذي كانوا يصوغون، حتّى بلغوا وادى القرى. هناك أقاموا زمناً، ومن هناك احتملوا ما معهم وساروا صوب الشمال حتّى بلغوا أذرعات على حدود الشام وبها أقاموا(١). ولعلّهم إنّما استهوتهم إلى الشمال أرض الميعاد التي كانت وما تزال تهوى إليها أفئده اليهود.

خلت المدينه من اليهود بعد جلاء بنى قينقاع عنها. فقد كان سائر اليهود المنتسبين للمدينه بعيداً عنها بخير وبأَمّ القرى. ولهذه النتيجة كان يقصد «محمّد» من إجلائهم. وهذا تصرّف سياسى آيه فى الدلاله على الحكمه وبعْد النظر. وهو مقدمه لم يكن منها بدٌ للآثار السياسيه التي ترتبت بعد ذلك على خطه «محمّد». فليس شىء أضرّ على وحده مدينه من المدن من تنازع الطوائف فيها. وإذا كان نضال هذه الطوائف لا بدّ منه فهو لا بدّ منتهٍ إلى تغلب

ص: ٣٩٨

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٤٧/٢-٤٩، المغازى للواقدي: ١٧٦/١-١٨٠، والطبقات الكبرى: ٢٨/١-٣٠، وإعلام الورى: ١٧٥/١.

طائفه على سائرها غلبه تنتهي إلى سيادتها. وقد تحدّث بعض المؤرخين منتقداً تصرّف المسلمين إزاء اليهود، زاعماً أنّ حكاية المسلمه التي ذهبت إلى الصائغ كانت من اليسير تسويتها مادام قد قتل من المسلمين رجل ومن اليهود رجل. وقد نستطيع دفع هذا القول بأنّ مقتل اليهودى والمسلم لم يمخّ ما لحق المسلمين من إهانته فى شخص المرأه التي عبث اليهودى بها، وأنّ مثل هذه المسأله عند العرب أكثر منها عند غيرهم من الأمم جديره أن تثار لها الثائرات، وأن يقوم من أجلها القتال بين قبيلتين أو طائفتين سنوات متتابعه. وفى تاريخ العرب من ذلك أمثال يعرفها المطلعون على هذا التاريخ.

لكن هنالك إلى جانب هذا الاعتبار اعتباراً آخر أقوى منه. فحادث المرأه كان من حصار بنى قينقاع وإجلانهم عن المدينه ما كان مقتل ولى عهد النمسا بسيراجيفو سنه (١٩١٤ م) من الحرب الكبرى التي اشتركت فيها أوربا جميعاً، هو إنّما كان الشراره التي ألهبت ما تأجج به نفوس المسلمين واليهود جميعاً لهباً أدى إلى انفجارها وإلى كلّ ما يُحدث الانفجار من الآثار. والحق أنّ وجود اليهود والمشركين والمنافقين إلى جانب المسلمين بالمدينه، وما أذكى ذلك من أسباب الفرقة، قد جعل المدينه من الناحيه السياسيه على بُر كان لا مفرّ له من أن ينفجر، وقد كان حصار بنى قينقاع وجلاؤهم عن المدينه أوّل مظاهر هذا الانفجار.

كان طبيعياً أن ينكمش غير المسلمين من أهل المدينه بعد جلاء بنى قينقاع عنها، وأن تبدو من الهدوء والسكينه فى المظهر الذى يعقب كلّ عاصفه وكلّ إعصار، وعلى هذا الهدوء ظلّ الناس شهراً كاملاً كان جديراً أن يزداد إلى أشهر، لولا أنّ أباسفيان لم يُطق البقاء بمكّه قابلاً تحت خزى هزيمه بدر، دون أن يُعيد إلى أذهان العرب بشبه الجزيره أنّ قريشاً ما تزال

لها قوتها وعصبيتها ومقدرتها على الغزو وعلى القتال. لذلك جمع مئتين، وقيل: أربعين، من رجال مكه وخرج فيهم مستخفين، حتى إذا كانوا على مقربه من المدينه خرجوا سَحْرًا فَأَتَوْا نَاحِيَةَهَا: العَرِيضُ، فوجدوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له في حرث لهما فقتلوهما، وحرّقا بيتين بالعريض ونخيلاً، ثُمَّ رَأَى أَبُو سَفِيَانَ أَنَّ يَمِينَهُ بَغَزُو «مَحْمَدٍ» بَرَّتْ فَاذْكُفَّا هَارِبًا، خَائِفًا أَنْ يَطْلُبَهُ النَّبِيُّ وَأَصْحَابُهُ. وَنَدَبَ «مَحْمَدٌ» أَصْحَابَهُ فَخَرَجُوا فِي أَثَرِهِ وَهُوَ عَلَى رَأْسِهِمْ، حَتَّى بَلَغُوا قَرْقَرَةَ الْكُدَّرِ وَأَبُو سَفِيَانَ وَمَنْ مَعَهُمْ جَادُّونَ فِي الْفِرَارِ يَتَزَايِدُ خَوْفُهُمْ فَيُلْقُونَ مَا يَحْمِلُونَ مِنْ زَادِهِمْ مِنَ السُّوَيْقِ، فَإِذَا مَرَّ الْمُسْلِمُونَ بِهَا أَخَذُوهَا. وَلَمَّا رَأَى «مَحْمَدٌ» أَنَّ الْقَوْمَ أَمْعَنُوا فِي الْفِرَارِ عَادَ وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَقَدْ انْقَلَبَ فِرَارَ أَبِي سَفِيَانَ عَلَيْهِ، بَعْدَ أَنْ كَانَ يَحْسِبُ الْغَزْوَةَ تَرْفَعُ رَأْسَ قَرِيشٍ مِنْ مِصَابِ بَدْرٍ. وَبِسَبَبِ السُّوَيْقِ الَّذِي أَلْقَتْ قَرِيشٌ، سُمِّيَتْ هَذِهِ الْغَزْوَةُ مِنْ غَزَوَاتِ «مَحْمَدٍ» غَزْوَةَ السُّوَيْقِ (١).

تداولت أنباء «محمّد» هذه سَمِعَ الْعَرَبُ جَمِيعًا. فَأَمَّا الْقَبَائِلُ الْبَعِيدَةُ عَنْهُ فَظَلَّتْ فِي مَأْمَنِهَا لَا تُعْنَى إِلَّا قَلِيلًا بِأَمْرِ هَؤُلَاءِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ كَانُوا إِلَى يَوْمِ بَدْرٍ - أَيْ إِلَى أَشْهُرٍ قَلِيلَةٍ خَلَّتْ - أَذْلَهُ يَلْتَمِسُونَ بِالْمَدِينَةِ مَلْجَأً وَالَّذِينَ أَصْبَحُوا الْيَوْمَ يَقِفُونَ فِي وَجْهِ قَرِيشٍ، وَيُجْلُونَ بَنِي قَيْنِقَاعٍ، وَيُرْسِلُونَ الرَّعْبَ إِلَى رُوحِ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ أَبِي وَيَطَارِدُونَ أَبَاسَفِيَانَ، وَيُظْهِرُونَ مَظْهَرًا لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ مَا لَوْفًا.

فَأَمَّا الْقَبَائِلُ الْقَرِيبَةُ مِنَ الْمَدِينَةِ فَقَدْ بَدَأَتْ تَرَى مَا يَتَهَدَّدُ مَصِيرُهَا مِنْ قُوَّةِ «مَحْمَدٍ» وَأَصْحَابِهِ، وَمِنْ تَعَادُلِ هَذِهِ الْقُوَّةِ مَعَ قُوَّةِ قَرِيشٍ بِمَكَّةَ تَعَادُلًا تُخْشَى

ص: ٤٠٠

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٤٤/٢-٤٥، المغازي للواقدي: ١٨١/١-١٨٢، وتاريخ الطبري: ٥٠/٢-٥١، وإعلام الوري: ١٧٢/١، والمناقب: ١٩٠/١.

نتائجه. ذلك بأن طريق الشاطئ إلى الشام هي الطريق المُعبّده المعروفه.

وتجاره مكّه في مرورها بها تُفيد هذه القبائل فائده اقتصاديه تذكر. وقد عاهد «محمّد» كثيراً من القبائل التي تتاخم الشاطئ، فهُدّد هذا الطريق وعزّض رحله الصيف لمخاطر قد تُضطر معها قريش إلى العدول عن متاخمه الشاطئ.

فماذا عسى أن يصيب هذه القبائل إذا انقطعت تجاره قريش؟ وكيف تراهم يحتملون شظف الحياه في هذه البقاع الشديده الشظف بطبعها؟ فمن حقّها إذاً أن تفكّر في مصيرها، وفيما عساه يصيبها من أثر هذا الموقف الجديد الذي لم يُعرف قبل هجره «محمّد» وأصحابه إلى يثرب، والذي لم يصل إلى ما وصل إليه من تهديد حياه هذه القبائل قبل بدر وانتصار المسلمين فيها.

لكنّ بدرًا أدخلت الرعب إلى قلوب هذه القبائل. أفترأها تُغير على المدينه وتحارب المسلمين، أم ماذا تراها تصنع؟! بلغ «محمّدًا» أنّ جمعاً من غطفان وسُيَلم اعتمز الاعتداء على المسلمين؛ فخرج إلى قزقره الكدر ليأخذ عليهم الطريق. فلَمّا وصل إلى ذلك المكان رأى آثار النعم ولم يجد في المجال أحداً، فأرسل نفرًا من أصحابه في أعلى الوادي وانتظر هو في بطنه، فالتقى بـغلام اسمه يسار، فسأله فعلم منه أنّ الجمع ارتفع إلى الماء؛ فجمع المسلمون ما وجدوا من نَعَم فاققسموه بعد أن أخذ «محمّد» الخمس، لنص القرآن. قيل: وكان ما غنموا خمسمئه بعير أُخرج خمسها وقسم الباقي فأصاب كلّ رجل بعيران(1). وبلغ «محمّدًا» أنّ جمعاً من بنى ثعلبه ومُحارب بنى أمرّ قد تجمّعوا يريدون أن يصيبوا من أطرافه. فخرج عليه السلام في أربعمئه

ص: ٤٠١

١- (١) المغازي للواقدي: ١٨١/١-١٨٢، والطبقات الكبرى: ٣١/٢، وإمتاع الأسماع: ١٢٤/١-١٢٥، والمناقب: ١٩٠/١، وإعلام الوري: ١٧٣/١.

وخمسين من المسلمين، فلقى رجلاً من ثعلبه فسأله عن القوم فدله الرجل على مكانهم، وقال له: إنهم يا «محمّد» إن سمعوا بمسيرك هربوا في رؤوس الجبال، وأنا سائر معك ودالك على عورتهم. فما لبث المغيرون أن سمعوا باقتراب «محمّد» منهم حتّى فرّوا فوق الجبال (١). وبلغه أنّ جمعاً كبيراً من بنى سُليم يبحران تهيأوا لقتاله، فخرج في ثلاثمئة رجل فأغذوا السير، حتّى إذا كان دون بحران بلبه لقيهم رجل من بنى سُليم، فسأله «محمّد» عنهم، فأخبره أنّهم تفرّقوا وعادوا أدراجهم (٢). وكذلك كان هؤلاء الأعراب في فزع من «محمّد» وفي فزع على مصيرهم، ما يكادون يفكّرون في الكيد ل «محمّد» وفي السير لملاقاته حتّى تنخلع قلوبهم لمجرّد سماعهم بسيره للقائهم.

وفي هذه الأثناء وقع مقتل كعب بن الأشرف على نحو ما قدّمنا، فأصاب اليهود أيضاً من الفزع ما جعلهم يلزمون دورهم لا يخرج أحد منهم مخافه أن يصيبه ما أصاب كعباً. وزاد في فزعهم أن أهدر «محمّد» دماءهم بعد الذي كان من أمر بنى قينقاع ممّا أدّى إلى حصارهم. فجاءوا إلى «محمّد» يشكون إليه أمرهم ويذكرون له مقتل كعب غيلةً بلا جرم ولا حدث علموه. فكان جوابه لهم:

إنّه آذانا وهجانا بالشعر، ولو قرّ كما قرّ غيره ممّن هو على مثل رأيه ما أصابه شرّ. وبعد حديث طال بينهم دعاهم إلى أن يكتب معهم كتاباً يحترمونه. وخافت اليهود وذلت وإن بقي في نفسها من «محمّد» ما بدا من بعد أثره (٣).

ماذا تصنع قريش بتجارتها إلى الشام وقد أخذ «محمّد» عليها

ص: ٤٠٢

١- (١) السيرة النبويّة لابن هشام: ٤٦/٢، المغازي للواقدي: ١٩٤/١، والطبقات الكبرى: ٣٤/٢-٣٥، وإعلام الوري: ١٧٣/١.

٢- (٢) المغازي للواقدي: ١٩٤/١، والطبقات الكبرى: ٣٥/٢، وإمتاع الأسماع: ١٢٩/١، وإعلام الوري: ١٧٢/١.

٣- (٣) المغازي للواقدي: ١٩٢/١، والطبقات الكبرى ٣٤/٢، وإمتاع الأسماع: ١٢٦-١٢٧، المناقب: ١٩٠/١.

طريقها؟! إنَّ مكَّهَ تعيش من التجاره، فإذا لم تجد الوسيله إليها تعرّضت لشرّ ما تعرّض له مدينه مثلها. وهذا «محمّد» أراد حصارها والقضاء في نفس العرب على مكانتها. وقف صفوان بن أميّه يوماً في قريش وقال لهم: إنَّ «محمّداً» وأصحابه قد عوّروا علينا متّجّرنًا، فما ندرى كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل، وأهل الساحل، قد وادعهم ودخل عامّتهم معه، فما ندرى أين نسكن. وإن أقمنا في دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا، فلم يكن لها من بقاء. وإنّما حياتنا بمكَّه على التجاره إلى الشام في الصيف وإلى الحبشه في الشتاء. قال له الأسود بن المطلب: تنكّب الطريق على الساحل وخذ طريق العراق. ودلّه على فرات بن حيّان من بني بكر بن وائل يدلّهم على الطريق. وقال لهم فرات: طريق العراق ليس يطؤها أحد من أصحاب «محمّد» فإنّما هي أرض نجد وقيافٍ. ولم يخف صفوان الفيافي أن كان الفصل شتاءً وحاجتهم إلى الماء قليله، وتجهّز صفوان من الفضه والبضائع بما قيمته مئه ألف درهم. وكان بمكَّه حين تدبير قريش خروج تجارتها، يثريّ هو نُعيم بن مسعود الأشجعيّ عاد إلى المدينه، وجرى على لسانه ذكر حديث قريش وما صنعت، لأحد المسلمين. فأسرع هذا فنقل الخبر إلى «محمّد».

وما لبث النبيّ أن بعث زيد بن حارثه في مئه راكب اعترضوا التجاره عند القَرَدَه - ماء من مياه نجد - ففرّ الرجال وأصاب المسلمون العير. فكانت أوّل غنيمه ذات قيمه غنمها المسلمون. وعاد زيد ومن معه فخمّسها «محمّد»، وقسّم ما بقى على رجاله، وجرى بفرات بن حيّان فعرض عليه أن يسلم لينجو فأسلم ونجا(1).

ص: ٤٠٣

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٥٠/٢، المغازي للواقدي: ١٩٧/١-١٩٨، والطبقات الكبرى: ٣٦/٢، إعلام الوري: ١٧٤/١-١٧٥.

هل اطمأنَّ «محمَّد» بعد هذا كَلِّه إلى أن الأمر قد استقرَّ له؟ هل خدعه يومه عن غده، وهل خيَّل له فزع القبائل منه وما غنم من قريش أن كلمه الله وكلمه رسوله قد اطمأنت ولم يبق للخوف عليها محل؟ وهل جعل إيمانه بنصر الله إياه يلقي حبال الأمور على غواربها علماً منه بأن الأمر كله لله!! كلاً! فالأمر كله حقاً لله. لكنك لن تجد لسنة الله تبديلاً. وما ركب الله في النفوس من سلائق لا سبيل إلى إنكاره. وقريش لها سياده العرب، وهي لا يمكن أن تنى عن الأخذ بثأرها. وما أصاب قافلته صفوان بن أمية لن يزيدا على الثأر إلا حرصاً، وفي التهيؤ للأخذ به إلأشده. وما كان شيء من هذا ليغيب عن «محمَّد»، وتُعد نظره وسلامه سياسته. فلا بد له إذاً من أن يزيد المسلمين به تعلقاً وارتباطاً. ومهما يكن الإسلام قد شدَّ من عزائمهم وجعلهم كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضه بعضاً، فإنَّ حسن رعايتهم تزيد عزائمهم شدَّة وتضامنهم قوَّة. ومن حسن رعايتهم أن يزيد «محمَّد» رابطته بهم. لهذا تزوج من حفصه بنت عمر بن الخطاب، كما تزوج من عائشه بنت أبي بكر من قبل.

وكانت حفصه من قبله زوج خنيس أحد السابقين إلى الإسلام. وقد مات عنها قبل زواج «محمَّد» بسبعة أشهر. وكما تزوج من حفصه فزاد ابن الخطاب به تعلقاً (١)، زوج ابنته فاطمه من ابن عمه عليّ أشدَّ الناس محبَّة للنبي، وإخلاصاً له منذ طفولته. ولما كانت رقيه ابنته قد اختارها الله إلى جواره، فقد زوَّج عثمان بن عفَّان بعدها ابنته أمَّ كلثوم (٢)، وكذلك جمع حوله برابطه المصاهرة

ص: ٤٠٤

-
- ١- (١) أسد الغابه: ٤٢٥/٥-٤٢٦. أضف إلى تأليفه قلوبهم للإسلام أنه كان أباً للأرامل والأيتام.
 - ٢- (٢) السيره النبويه لابن كثير: ٥٤٥/٢-٥٤٦. ذلك أولاً: لأنه كان قد خطب حفصه وتزوَّج بها النبي فأراد تأليفه، وثانياً: لتكون أمَّ كلثوم لعبدالله بن عثمان من رقيه أختها كأمه. وإن كان عبدالله مات بعد ذلك صغيراً.

أبأكر وعمر وعثمان وعلياً، وجمع بذلك أربعه من أقوى المسلمين الذين كانوا معه، بل أقواهم إن شئت. بهذا كفل للمسلمين مزيداً من القوة، كما كفل لهم بما غنموا في مغازيهم إقداماً على الحرب يجمع فيها الرجل بين الجهاد في سبيل الله والمغنم من المشركين. وهو في هذه الأثناء يتتبع بدقه كل الدقه أخبار قريش وما تُعدّ. فقد كانت قريش تُعد للثأر ولتفتح لنفسها طريق التجاره إلى الشام حتّى لا تهوى مكانه مكّه التجاربه ومكانتها الدينيه إلى حيث لا تقوم لها من بعد ذلك قائمه.

ص: ٤٠٥

الفصل الخامس عشر: غزوه أحد

استعداد قريش بمكة، خروجها للغزو، كيف علم به «محمّد»، تشاور المسلمين في التحصن بالمدينة أو الخروج لملاقاة العدو، انتصار المسلمين ثم هزيمتهم، خروج النبي من المدينة غداً أحد ليلحق بالمنتصرين فيغزوهم، عوّد أبي سفيان وقريش إلى مكة.

لم يهدأ منذ بدر لقريش بال، ولم تُغنّها غزوه السوق شيئاً، وزادتها سرّيّه زيد بن حارثه التي أخذت تجارتها حين سلوكها سبيل العراق إلى الشام حرصاً على الثأر وادّكاراً لقتلى بدر. وكيف لقريش بنسيانهم وهم أشراف مكة وساداتها وذوو النخوة والكرامة من كبارها! وكيف لها بنسيانهم وما تزال نساء مكة تذكر كلّ منهنّ في القتلى لها ابناً أو أخاً أو أباً أو زوجاً أو حميماً، فهي له تتوجّع وعليه تبكى وتؤلّل. هذا، وكانت قريش منذ قدم أبوسفيان بن حرب بالغير التي كانت سبب بدر من الشام، وعاد الذين شهّدوا بدرًا وسيلّموا من القتل فيها، قد وقفت العير بدار الندوة واتفق كبارها: جبير ابن مطعم وصفوان بن أمية وعكرمه بن أبي جهل والحارث بن هشام وحويطب بن عبدالعزّي وغيرهم على أن تباع العير وأن تعزل أرباحها وأن

يجهز بها جيش لقتال «محمد» جرّار في عدده وعدّته، وأن تستنفر بها القبائل ليشاركوا قريشاً في أخذهم بالثأر(1) من المسلمين. وقد استنفروا معهم أبا عزة الشاعر الذي عفا عنه النبيّ من أسرى بدر، كما استنفروا معهم من أتبعهم من الأحابيش. وأصرت النسوة من قريش على أن يسرن مع الغزاه؛ فتشاور القوم؛ فمن قائل بخروجهنّ: «فإنّه أقمّن أن يحفظكم ويذكركم قتلى بدر، ونحن قوم مستميتون لا نريد أن نرجع إلى دارنا حتّى ندرّك ثأرنا أو نموت دونه». ومن قائل: «يا معشر قريش! هذا ليس برأى أن تعرّضوا حرمكم لعدوّكم، ولا آمن من أن تكون الدبره عليكم فتفتضحوا في نساءكم». وفيما هم يتشاورون صاحبت هند بنت عتبة زوج أبي سفيان بمن يعترض خروج النساء: «إنك والله سلّمت يوم بدر فرجعت إلى نساءك. نعم! نخرج فنشهد القتال ولا يردنا أحد كما ردت الفتيات في سفرهم إلى بدر حين بلغوا الجحفة - والجحفة مكان - فقتلت الأحمه يومئذٍ أن لم يكن من يحرضهم وخرجت قريش ومعها نساءها وعلى رأسهنّ هند وهى أشدّهنّ على الثأر حرقه. أن قُتل يوم بدر أبوها وأخواها وأعزّ الناس عليها. خرجت قريش تقصد المدينة في ثلاثه ألويه عُقدت في دار الندوه، وعلى اللواء الأكبر منها طلحه بن أبي طلحه وهم ثلاثه آلاف ليس بينهم غير مئه رجل من ثقيف، وسائرهم من مكّه سادتها ومواليها وأحايشها. وقد أخذوا معهم من العدّه والسلاح الشىء الكثير، وقادوا مئتي فرس وثلاثه آلاف بعير

ص: ٤٠٨

١- (١) المغازى للواقدي: ١٩٩/١-٢٠٠، إمتاع الأسماع: ١٣١/١، والسيره الحلبيه: ٢١٦/٢-٢١٧، تفسير مجمع البيان: ٤٦٤/٤، وبحار الأنوار: ٢٣١/١٩.

ومن بينهم سبعمئة دارع(١).

تهيأ القوم للمسير بعد أن أجمعوا عليه والعبّاس بن عبدالمطلب عمّ النبيّ بينهم واقف على أمرهم مطّلع على كلّ دقيق وجليل من شأنهم. وكان العبّاس على حرصه على دين آبائه ودين قومه، يحسّ ل «محمّد» عليه بشعور العصبية وشعور الإعجاب، ويذكر له حسن معاملته إيّاه يوم بدر. ولعلّ الإعجاب والعصبية اللّذين جعلاه يشهد مع «محمّد» بيعه العقبة الكبرى، ويخاطب الأوس والخزرج بأنّهم إن لم يكونوا مانعي ابن أخيه ممّا يمنعون منه نساءهم وأولادهم فليدعوه إلى أهله يذودون عنه زيادهم من قبل(٢)، هما اللّذان دفعاه حين أجمعت قريش المسير في هذا العدد العظيم إلى أن يكتب كتاباً يصف فيه صنيعهم وجمعهم وعدّتهم وعديدهم، ويدفع به إلى رجل غفاريّ يسير به إلى النبيّ حتّى يبلغ المدينة في ثلاثة أيّام فيدفعه إليه. فأما قريش فسارت حتّى بلغت الأبواء ومرت بقبر آمنه بنت وهب، فدفعت الحميّة بعض الطائشين منها إلى التفكير في نبشه. لكنّ زعماءها أبوا عليهم هذه الفعلة حتّى لا تكون سبّه عند العرب، وقالوا: لا تذكروا من هذا شيئاً، فلو فعلنا نبشت بنوبكر وبنوخزاعه موتانا. وتابعت قريش مسيرها حتّى بلغت العقيق ثمّ نزلت عند بعض السفوح من جبل أحدٍ على خمسة أميال من المدينة(٣).

ص: ٤٠٩

١- (١) المغازي للواقدي: ٢٠٣/١، والطبقات الكبرى: ٣٧/١، وإمتاع الأسماع: ١٣١/١، والمناقب لابن شهر آشوب: ١٩١/١.

٢- (٢) المغازي للواقدي: ٢٠٤/١.

٣- (٣) المغازي للواقدي: ٢٠٦/١، والسيره الحلييه: ٢١٨/٢.

وبلغ الغفارى الذى بعثه العباس بن عبدالمطلب بكتابه المدينه، فوجد «محمدًا» بقاء؛ فذهب إليه فوجده على باب المسجد هناك يركب حماره، فدفع إليه الكتاب، فقرأه عليه أبى بن كعب، فاستكتمه «محمد» ما فيه وعاد إلى المدينه فقصده إلى سعد بن الربيع فى داره، فقص عليه ما بعث العباس به إليه واستكتمه أيضاً إياه. على أن زوج سعد كانت بالمنزل وكانت تسمع ما دار فلم يبق سرًّا (١). وبعث «محمد» أنسًا ومؤنسًا ابني فضاله يتنطسان خبر قريش، فألفياها قاربت المدينه وأطلقت خيلها وإبلها ترعى زروع يثرب المحيطه بها (٢). وبعث «محمد» من بعدهما الحباب بن المُنذر بن الجَموح.

فلما جاء من خبرهم بمثل ما أخبره العباس أخذته عليه السلام الحيره (٣). وخرج سلمه بن سلامه، فإذا طليعه خيل قريش تقترب من المدينه وتكاد تدخلها، فعاد فخبّر قومه بما رأى، وخشى الأوس والخزرج وأهل المدينه جميعاً عاقبه هذه الغزوه التى أعدت لها قريش خير ما أعدت فى تاريخ حروبها، حتى لقد بات وجوه المسلمين من أهل المدينه وعليهم السلاح بالمسجد خوفاً على النبى، وحُرست المدينه كلها طيله الليل (٤). فلمّا أصبحوا جمع النبى أهل الرأى من المسلمين ومن المتظاهرين بالإسلام - أو المنافقين على ما كانوا يدعون يومئذٍ وما نعتوا فى القرآن - وجعلوا يتشاورون كيف يلقون عدوهم؟

رأى النبى عليه السلام أن يتحصنوا بالمدينه وأن يدعوا قريشاً خارجها، فإذا

ص: ٤١٠

-
- ١- (١) المغازى للواقدي: ٢٠٤/١، والسيره الحلييه: ٢١٧/٢-٢١٨.
 - ٢- (٢) المغازى للواقدي: ٢٠٦/١-٢٠٧، والسيره الحلييه: ٢١٨/٢.
 - ٣- (٣) المغازى للواقدي: ٢٠٧/١-٢٠٨، والطبقات الكبرى: ٣٧/٢.
 - ٤- (٤) المغازى للواقدي: ٢٠٨/١، والطبقات الكبرى: ٣٧/٢.

حاولوا اقتحامها كانوا أهلها فكانوا أقدر على دفعهم والتغلب عليهم. ورأى عبدالله بن أبي بن سلول رأى النبي وقال: «لقد كنا يا رسول الله نقاتل فيها، ونجعل النساء والأطفال في هذه الصياصي، ونجعل معهم الحجارة ونشيك المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية. فإذا أقبل العدو رمته النسوة والأطفال بالحجارة وقاتلناه باسيافنا في السكك. إنَّ مدينتنا يا رسول الله عذراء ما فُضت علينا قطّ وما دخل علينا عدوّ فيها إلّا أصبناه، وما خرجنا إلى عدوّ قطّ منّا إلّا أصاب منّا، فدعهم يا رسول الله وأطعني في هذا الأمر، فأنتي ورثت هذا الرأي عن أكابر قومي وأهل الرأي منهم.

وكان كلام ابن أبيّ هذا هو رأي الأكابر من أصحاب الرسول من المهاجرين ومن الأنصار كما كان رأى الرسول عليه السلام (١). لكنّ فتياناً ذوى حمية لم يشهدوا بدرأً ورجالاً شهدوها وأمتعهم الله بالنصر فيها وملاً الإيمان قلوبهم أن ليس لقوّه أن تغالبهم أو تتغلب عليهم أحبوا الخروج إلى العدو وملاقاته حيث نزل، مخافة أن يظنّ أنّهم كرهوا الخروج وتحصّنوا بالمدينة جنباً عن لقائه. ثمّ إنّهم إلى جانب المدينة وعلى مقربة منها أقوى منهم يوم كانوا ببدر لا يعرف أهلهم من أمرهم شيئاً. قال قائل منهم: «إنّي لأحبّ أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون: حصرنا «محمّداً» في صياصي (٢) يثرب وآطامها (٣) فتكون هذه مُجرّته لقريش، وهاهم قد وطئوا سعفنا، فإذا لم نذبّ عن عرضنا لم يزرع، وإنّ

ص: ٤١١

-
- ١- (١) السيرة النبويّة لابن هشام: ٦٣/٢، والمغازي للواقدي: ٢٠٩/١-٢١٠، والسيرة الحليية: ٢١٩/٢، ومجمع البيان: ١٨٣/٤.
 - ٢- (٢) صيبيه القوم: قلعتهم التي يتحصنون فيها كقلاع اليهود من قريظه حيث أنزلهم الله من صياصيهم - كتاب العين: ١٧٦/٨.
 - ٣- (٣) آطام، وهي حصون لأهل المدينة - الصحاح، الجوهري: ١٨٦٢/٥.

قريشاً قد مكثت حولاً- تجمع الجموع وتستجلب العرب من بواديها ومن تبعها من أحابيشها، ثمَّ جاءونا قد قادوا الخيل وامتطوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا، أفبحسوننا في بيوتنا وصياصينا، ثمَّ يرجعون وافرين لم يُكلموا! لئن فعلنا لآزدادوا جرأه ولشئوا الغارات علينا وأصابوا من أطرافنا ووضعوا العيون والأرصاد على مدينتنا، ثمَّ لقطعوا الطريق علينا». وتعاقب الدعاه إلى الخروج يتحدث كل حديثه ويذكرون جميعاً أنهم إذا ظفروهم الله بعدوهم فذلك الذي أرداوا وذلك الذي وعد الله ورسوله بالحق، وإن هم انهزموا واستشهدوا كانت لهم الجنة(١).

وهزَّ حديث الشجاعه وحديث الاستشهاد القلوب، واستنفر روح الجماعة الأنفس لتجرى كلُّها في هذا التيار، ولتحدث كلُّها على هذه النغمه، فلم يبق تلك اللحظه أمام الجمع المائل في حضره «محمّد» الممتلئ القلب بالإيمان بالله ورسوله وكتابه وحسابه، إلّا صورته الظفر بهذا العدو المعتدى تفرّقه سيوفهم أيدي سبا، ويبعثه بأسهم بدماءً شَدَرَ مَدَرَ، وتستولى أيديهم على مغانمه ومحارمه؛ وصوره الجَنَّةُ أُعدَّت للذين قُتلوا في سبيل الله، فيها ما تشتهي الأنفس وتلذُّ الأعين، يلقون فيها أحبَّتهم الذين شهدوا بدرًا واستشهدوا فيها، لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْتِيماً * إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً ٢. قال خيثمه أبوسعده بن خيثمه: «عسى الله أن يُظفرنا بهم أو تكون الأخرى فهي الشهاده. لقد أخطأتني وقعه بدر وكت عليها حريصاً، حتى بلغ من حرصي عليها أن ساهمت ابني في الخروج فخرج سهمه فَرَزَقَ الشهاده، وقد رأيت

ص: ٤١٢

ابنى البارحه فى النوم وهو يقول: إلحق بنا ترافقنا فى الجنه، فقد وجدت ما وعدنى ربى حقاً. وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته فى الجنه؛ وقد كبرت سنّى ورقّ عظمى وأحببت لقاء ربّى»^(١). فلما ظهرت الكثره واضحه فى جانب الذين يقولون بالخروج إلى العدو وملاقاته، قال لهم «محمد»:

«إنى أخاف عليكم الهزيمه»^(٢)؛ فأبوا مع ذلك إلّا الخروج. فلم يكن له إلّا أن ينزل على رأيهم. وقد كانت الشورى أساس نظامه لهذه الحياه، فلم يكن ينفرد بأمر إلّا ما أوحى إليه من عند الله.

وكان اليوم يوم جمعه، فصلّى بالناس وأخبرهم أنّ لهم النصر ما صبروا، وأمرهم بالتهيؤ لعدوّهم. ودخل «محمد» بيته بعد صلاه العصر ودخل معه أبوبكر وعمر فعمّاه وألبساه درعه وتقلّد سيفه^(٣)، والناس أثناء غيبته هذه فى جدل يتحاورون. قال أسيد بن حضير وسعد بن معاذ وكانا ممّن أشار بالتحصّن بالمدينه للذين رأوا الخروج منها: «لقد رأيتم رسول الله يرى التحصّن بالمدينه، فقلتم ما قلتم واستكرهتموه على الخروج وهو له كاره.

فردّوا الأمر إليه، فما أمركم فافعلوه، وما رأيتم له فيه هوى أو رأياً فأطيعوه.

ولأنّ الداعون للخروج لما سمعوا، وحسبوا أنّهم خالفوا الرسول إلى شىء قد يكون لله فيه آيه. فلما خرج لهم وعليه درعه وقد تقلّد سيفه أقبل عليه الذين كانوا يرون الخروج فقالوا: «ما كان لنا يا رسول الله أن نخالفك فاصنع ما بدا لك، وما كان لنا أن نستكرهك، والأمر إلى الله ثمّ إليك». قال «محمد»:

«قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم. وما ينبغى لنبى إذا لبس لامته أن يضعها حتّى يحكم الله

ص: ٤١٣

١- (١) المغازى للواقدى: ٢١٢/١-٢١٣، ودلائل النبوه: ٢٤٩/٣.

٢- (٢) بحار الأنوار: ١٢٥/٢٠، بشرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد: ٢٢٥/١٤.

٣- (٣) المغازى للواقدى: ٢١٣/١، والسيره النبويه لابن هشام: ٦٣/٢.

بينه وبين أعدائه. أنظروا ما أمركم به فاتبعوه، والنصر لكم ما صبرتم» (١). وكذلك وضع «محمّد» إلى جانب مبدأ الشورى أساس النظام. فإذا تمّ للكثرة رأى بعد بحث، لم يكن لها أن تنقضه لهوى أو لغايه، بل يجب أن ينفذ الأمر على أن يُحسن من يتولّى تنفيذه ويوجهه إلى حيث يتحقق نجاحه (٢).

ص: ٤١٤

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٦٣/٢، المغازي للواقدي: ٢١٣/١-٢١٤، والسيره الحلبيه: ٢١٩/٢.

٢- (٢) مبدأ الشورى من المبادئ التى دعا إليها الإسلام، لكنّ مجال الشورى الذى يُلزم فيه المتشاورون بالالتزام بنتيجته الشورى هو ما ينبغى تحديده. وقد عدّاه البعض الى كل مجال منصوص حتى أنه قد جعل منها نظريه للحكم والتنصيب، والحال أنّ نظريه النصّ فى الإمامه بعد الرسول صلى الله عليه وآله لا تتعارض مع مبدأ الشورى، كما هو ثابت فى محلّه وإليك بياناً موجزاً لمبدأ الشورى: تمسّك أصحاب نظريه الشورى بقوله تعالى: «وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ» وزاعمين أن هذه الآيه تلزم الإمام الحاكم بوجوب الشورى على رأى من يقول إنّ الآيه بخطابها للرسول صريحه فى الأمر بالشورى والأمر ظاهر فى الوجوب، والآيه تدعو لاستشاره المسلمين «وشاورهم» وحيث لا يمكن استشاره المسلمين جميعاً فلا بدّ من الأخذ باليسور فى هذه الاستشاره وهو استشاره ذوى الرأى والخبره، تفسير مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازى: ٨٣/٢. ولا شك أنّ الشورى ليست هدفاً مطلوباً فى حدّ نفسها ولا هى موضوع مستقل للطلب، وإنّما الشورى طريق إلى تحقيق غايات أخرى وأهم هذه الغايات التعرف على وجهات نظر الآخرين وتصوراتهم ومناقشاتهم وأفكارهم. وهذه التصورات والأفكار عندما تتوارد من منابع مختلفه وتجتمع فى موضع واحد تكون لها قيمه كبيره فى توجيه سياسه الحكم والإداره والاقتصاد والأمن والحرب وغير ذلك فى البلد، وهذا الوجه يتم فى غير المعصومين من أولياء الأمور. ولو صحّ هذا الغرض من تشريع الشورى يبقى السؤال عن القيمه الشرعيه التى تتمتع بها الشورى وهل تعتبر النتيجة التى تتمخض عنها الشورى بالإجماع أو بالأكثرية قراراً ملزماً لولى الأمر أم لا؟ يتجه العلماء فى الإجابة على هذا السؤال اتجاهين: الأوّل: يرى بأنّ نتيجة الشورى ملزمه لولى الأمر وللنظام بشكل عام. ومن هؤلاء: الشيخ محمّد عبده؛ يقول فى تفسير «أولى الأمر» معناه أصحاب أمر الأمّه فى حكمها وهو الأمر المشار إليه فى قوله تعالى: «وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ» ولا يمكن أن يكون شورى بين جميع أفراد الأمّه، فتعين أن يكون شورى بين جماعه تمثل الأمّه... وما هؤلاء إلّا أهل الحلّ والعقد الذين تكرر ذكرهم، ويضيف: «ويجب على الحكّام الحكم بما يقرره أولو الأمر - أصحاب الشورى - وتنفيذه» تفسير المنار: -

وتقدّم «محمّد» بالمسلمين متّجهاً إلى أحد، حتّى نزل مكاناً به صنمان، اسمهما الشيخان. كان يُتحدّث في الجاهليه إليهما بشيخ
أعمى وشيخه عمياء.

ص: ٤١٥

وهناك بصر بكتيبة لا يعرف أهلها، فسأل عنها ف قيل: هؤلاء حلفاء ابن أبي من يهود، قال عليه السلام:

«لا يُستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك ما لم يُسلموا»، فانصرف اليهود عائدين إلى المدينة. إذ ذاك جعل حلفاء ابن أبي يقولون له: لقد نصحتك وأشرت عليه برأى من مضى من آباءك فكان رأيه مع رأيك، ثمّ أبى أن يقبله وأطاع الغلمان الذين معه. وصادف حديثهم هوى من نفس ابن أبي، فلما أصبحوا انخزل مع كتيبه من أصحابه. وبقى النبيّ ومعه المؤمنون حقاً وعدّتهم سبعمئة، ليقاتلوا ثلاثة آلاف قرشيّ من أهل مكّه كلّهم موتور من يوم بدر، وكلّهم على ثأره حريص(١).

وسار المسلمون مع الصبح حتّى بلغوا أحداً فاجتازوا مسالكه وجعلوه إلى ظهرهم. وجعل «محمّد» يصفّ أصحابه وقد وضع منهم خمسين من الرماه على شعب في الجبل، وقال لهم:

«احموا لنا ظهورنا فإننا نخاف أن يجيئونا من ورائنا، والزموا مكانكم لا تبرحوا منه. وإن رأيتمونا نهزمهم حتّى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم، وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنّا، وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل، فإن الخيل لا تُقدّم على النبل». ثمّ نهى غير الرماه أن يقاتل أحد حتّى يأمر هو بالقتال(٢). (٣)

ص: ٤١٦

١- (١) المغازى للواقدي: ٢١٦/١-٢١٧، و السيره النبويه: ٢٢٠/٢، والطبقات الكبرى: ٣٠/٢ و ٣٧.

٢- (٢) في هذه المعركة كانت رايه رسول الله صلى الله عليه و آله بيد الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، حين ورّع الرايات على وجوه المهاجرين والأنصار. السيره النبويه لابن هشام: ٦٤/٣، وانساب الأشراف: ١٠٦/٢، الكامل في التاريخ: ١٥/٢، أسد الغابه: ٢٠/٤. وجاء عن ابن عباس أنّه قال: لعلّي أربع ما هنّ لأحد هو أول عربي وأعجمي صلّى مع رسول الله صلى الله عليه و آله وهو صاحب لوائه في كلّ زحف وهو الذي ثبت معه يوم المهراس وفرّ الناس وهو الذي أدخله قبره. مستدرک الحاكم: ١١١/٣، ومناقب الخوارزمي: ٢٢/٢١، وذخائر العقبى: ٧٥.

٣- (٣) المغازى للواقدي: ٢٢٠/١ و ٢٢٤، والطبقات الكبرى: ٤٠/٢، السيره الحلييه: ٢٢٢/٢.

فأثراً قريش فصفت صفوفها وجعلت على الميمنه خالد بن الوليد، وعلى الميسره عكرمه بن أبي جهل(١) ودفعت اللواء إلى عبدالعزى طلحه بن أبي طلحه(٢). وجعلت نساء قريش يمشين خلال صفوفها يضربن بالدفوف والطبول، فيكنن تاره في مقدمه الصفوف وتاره في مؤخرتها، وعلى رأسهن هند بن عتبة زوج أبي سفيان، وهن يقلن:

ويها بنى عبدالدارويها حماه الأدبار

ضرباً بكل بتار(٣)

ويقلن:

إن تقبلوا نعاتي

واستعد الفريقان للقتال وكل يحرض رجاله. فأما قريش فتذكر بدراناً وقتلاها، وأما المسلمون فيذكرون الله ونصره. و«محمداً» يخطب ويحرض على القتال ويعيد رجاله النصر ما صبروا(٤). مديده بسيف، فقال:

من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فقام إليه رجال فأمسكه عنهم، حتى قام أبودجانه سيماك بن خرشه أخو بني ساعده فقال: وما حقه يا رسول الله؟ قال:

أن تضرب به في العدو حتى ينحني. وكان أبودجانه رجلاً شجاعاً له عصابه حمراء إذا اعتصب بها علم

ص: ٤١٧

١- (١) المغازي للواقدي: ٢٢١/١، والطبقات الكبرى: ٣٠/٢.

٢- (٢) المغازي للواقدي: ٢٢١/١، ودلائل النبوه للسيهقي: ٢٠٩/٣ وتفسير مجمع البيان: ٣٧٨/٢ وبحار الأنوار: ٥٠/٢٠-٥١.

٣- (٣) السيره النبويه لابن هشام: ٦٨/٢، والمغازي للواقدي: ٢٢٧/٢، وتاريخ الطبري: ٦٢/٢.

٤- (٤) المغازي للواقدي: ١٩٩/١-٢٧٧.

الناس أنه سيقاتل، وأنه أخرج عصابه الموت. فأخذ السيف وأخرج عصابته وعصّب بها رأسه وجعل يتبختر بين الصّفين على عادته إذ يختال عند الحرب. فلما رآه «محمّد» يتبختر، قال:

إنّها لمشيئة يُبغضها الله إلّافي مثل هذا الموطن»(١).

وكان أوّل من أنشب الحرب بين الفريقين أبو عامر بن صيفى الأوسى، وكان قد انتقل من المدينة إلى مكّه يحرض قريشاً على قتال «محمّد»؛ ولم يكن شهد بدرًا، فخرج إلى أحد في خمسه عشر رجلاً من الأوس وفي عبيد أهل مكّه. وكان يزعم أنه إذا نادى أهله من الأوس المسلمين الذين يحاربون في صف «محمّد»، استجابوا له وانحازوا معه ونصروا قريشاً. فخرج فنادى:

يا معشر الأوس، أنا أبو عامر. فأجابه الأوس المسلمون: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق! ثمّ نشب القتال بينهم. وحاول عبيد قريش وحاول عكرمه بن أبى جهل، وكان على الميسره، أن يأخذ المسلمين من جناحهم، لكنّ المسلمين رشقوهم بالحجاره حتّى ولى أبو عامر مدبراً(٢). هنالك صاح حمزه ابن عبدالمطلب صيحه القتال يوم أحد(٣): أمّث، أمّث، واندفع إلى قلب جيش قريش. فلقى طلحه بن أبى طلحه حامل لواء أهل مكّه فضربه حمزه بالسيف على يده اليمنى فتناول اللواء باليسرى، فقطعها حمزه بسيفه؛ فضمّ طلحه اللواء بذراعيه إلى صدره، فدقّف عليه حمزه بضربه أردته صريعاً(٤). واندفع

ص: ٤١٨

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٦٦/٢-٦٧.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٦٧/٢، والمغازى للواقدي: ٢٢٣/١.

٣- (٣) السيره النبويه لابن هشام: ٦٨/٢.

٤- (٤) جاء فى المغازى للواقدي: ٢٢٦/٢، أنّ الإمام عليّ بن أبى طالب عليه السلام، هو الذى خرج لطلحه، وكذا ابن -

أبوذُجانَه وفي يده سيفُ النَّبِيِّ وعلى رأسه عصابة الموت فجعل لا يلقى أحداً إلا قتلَه، حتَّى شقَّ صفوفَ المشركين، فرأى إنساناً يخمس الناس خمشاً شديداً، فحمل عليه بالسيف فَوَلَّوْا، فإذا هند بنت عتبة فارتدَّ عنها مُكرماً سيفُ الرسول أن يضرب به امرأه(١).

واندفعت قريش إلى القتال أيضاً، يثور في عروقتها طلب الثأر لمن مات من أشرفها وساداتها منذ عام بدر. ووقفت بذلك قوتان غير متكافئتين في العدد ولا في العُدَّة. يحرك الكثرة العظيمة ثأراً لا يهدأ منذ بدر في النفوس ثأره، ويحرك القليله عاملان: الدفاع عن العقيدة وعن الإيمان وعن دين الله، والدفاع عن الوطن وعمّا يشتمل عليه هذا الوطن من مصالح. فأما المطالبون بالثأر فكانوا أعزّ نفراً وأكثر جنداً، وكان من ورائهم الظعن يحركهم وقد أعدت غير واحده منهم مولى وعدته الخير الوفير لينتقم لها ممن فجعها في أب أو أخ أو زوج أو عزيز. كان حمزه بن عبدالمطلب من أعظم أبطال العرب وشجعانهم، وكان قد قتل يوم بدر عتبه أبا هند كما قتل أخاها ونكل بكثير من الأعزّه عليها. وكان يوم أحد كما كان يوم بدر أسد الله وسيفه البتار. قتل أرطاه بن عبدشُرَّحِيل وقاتل سباع بن عبدالعُزَّى العُشَّانِي،

ص: ٤١٩

وجعل يهذ (١) كل من لقي بسيفه فتسيل من جسده روحه. وكانت هند بنت عتبة قد وعدت وحشياً الحبشياً مولى جبير خيراً كثيراً إن هو قتل حمزه، كما قال له جبير بن مطعم - مولاة وكان عمه قد قُتل بيسدر -: إن قتلت حمزه عمّ «محمّد» فأنت عتيق. روى وحشياً، قال: «فخرجت مع الناس وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قذف الحبشه قلماً أخطئ بها شيئاً. فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزه وأتبصيره حتى رأيت في عرض الناس مثل الجمل الأورق يهذ الناس بسيفه هذاً، فهزرت حربتي، حتى إذا رضيت عنها دفعتها عليه ف وقعت في ثنته حتى خرجت من بين رجله وتركته وإياها حتى مات، ثم أتيت فأخذت حربتي ورجعت إلى المعسكر وقعدت فيه ولم يكن لي بغيره حاجة، إنما قتلته لأعتق. فلما قدمت مكة أعتقت» (٢).

أما المدافعون عن الوطن فكان لهم مثل في قرمان أحد المنافقين الذين أظهروا الإسلام. تخلف عن الخروج يوم خرج المسلمون لأحد، فلما أصبح عيره نساء بنى ظفر فقلن: يا قرمان، ألا تستحي لما صنعت! ما أنت إلا امرأة! خرج قومك فبقيت في الدار فدخل قرمان بيته مغيضاً محنقاً فأخرج قوسه وجعبته وسيفه، وكان يعرف بالشجاعه، فخرج يعدو حتى كان عند الجيش والنبى يسوى صفوف المسلمين، فتخطاها حتى كان في الصف الأول منها فكان فيه. وكان أول من رمى بنفسه من المسلمين، وجعل يرسل نبلاً كأنها الرماح. فلما كان آخر النهار فضل الموت على الفرار وقتل نفسه بعد أن

ص: ٤٢٠

١- (١) الهذ: سرعه القطع وسرعه القراءة - كتاب العين: ٣٤٩/٣.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٧٠/٢-٧٢، والمغازي للواقدي: ٢٨٧/١، وإمتاع الأسماع: ١٦٦/١ وتفسير مجمع البيان: ٣٧٨/٢، بحار الأنوار: ٥٥/٢٠.

أصاب من قريش سبع رجال فى سويعه غير من قتل منهم بدء المعركه. ومرّ به أبو الغيداق وهو يُسلم الروح فقال له: هنيئاً لك الشهاده يا قزمان! قال قزمان: إننى والله ما قاتلت يا أبا عمر على دين. ما قاتلت إلا على الحفظ أن تسير قريش إلينا فتقتحم حرمانا وتطأ سعفنا. والله إن قاتلت إلا عن أحساب قومي، ولولا ذلك ما قاتلت (١).

أما المؤمنون حقاً، وكان عددهم لا يزيد على سبعمائه يقاتلون ثلاثه آلاف، فقد رأيت من فعال حمزه وأبى دُجانة ما يصور لك صوره من قوتهم المعنويه؛ قوه انشئت أمامها صفوف قريش وكأنها الخيزران، وتراجع أمامها أبطال قريش وكانوا بين العرب مضرب المثل فى الاقدام والشجاعه.

وانكشف المشركون منهزمين لا- يلوون على شىء حتى أحيط بنسائهم وحتى وقع الصنم الذى احتملوا يتيامنون به من فوق الجمل الذى كان يحمله ومن خلال الهودج الذى كان يحتويه. والحق أن ظفر المسلمين فى صبيحه يوم أحد كان معجزه من معجزات الحرب، قد يفشّرها بعضهم بمهاره «محمد» فى وضعه الرماه فى شجج الجبل يصدّون الفرسان بالنبل فلا يتقدّمون ولا يأتون المسلمين من خلفهم. وهذا حق. ولكن من الحق أيضاً أن ستّ المئه من المسلمين الذين هاجموا عدداً يوازي خمسه أمثالهم وعديداً فى مثل هذه النسبه، إنما دفعهم إلى معجزات البطوله التى أتوا شىء أعظم من مهاره القيادة؛ ذلك هو الإيمان، الإيمان الصادق بأنهم على الحق. ومن آمن بالحق لم تزعه قوه مادّيه مهما عظمت، ولم تضعع من عزمته كلّ قوّات

ص: ٤٢١

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٨٨/٢، والمغازى للواقدي: ٢٢٣/١، وبحار الأنوار: ١٨٢/١ و ٩٨/٢٠.

الباطل وإن اجتمعت. وهل رأيت مهاره القيادة وحدها كانت تُغنى والرماء الذين وضعهم النبي في الشعب لم يكونوا إلا خمسين. فلو أن مئتين أو ثلاثمئة رجل هاجمهم مستقتلين لما صمدوا ولا صبروا أمامهم. لكن القوه الكبرى، قوه الفكره، قوه العقيده، قوه الإيمان الصادق بالحق العلي الأعلى، هذه القوه لا غالب لها ما أراد صاحبها وجه الحق وحده. ولذلك تمزقت قريش في ثلاثه آلاف من فرسانها أمام هجمات ستمائه مسلم، وأوشكت نسوتها أن يؤخذن أسرى ذليلات. وتبع المسلمون عدوهم يضعون السلاح فيه حيث شاءوا حتى يُعيد عن معسكره، فجعل المسلمون ينتهبون الغنيمه، وما أكثر ما كانت! وصرفهم ذلك عن اتباع عدوهم ابتغاء عرض الدنيا.

ورآهم الرماه الذين أمرهم الرسول ألا يبرحوا الشعب ولو رأوه وأصحابه يقتلون، فقال بعضهم لبعض وقد سال لمرأى الغنيمه لعابهم: «لم تقيمون هاهنا في غير شىء وقد هزم الله عدوكم وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرهم، فادخلوا فاغنموا مع الغانمين». قال قائل منهم: «ألم يقل لكم رسول الله لا تبرحوا مكانكم وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا؟» قال الأولون: «لم يرد رسول الله أن نبقى بعد أن أذل الله المشركين». واختلفوا؛ فخطبهم أميرهم عبد الله بن جبير ألا يخالقوا أمر الرسول؛ فعصاه أكثرهم وانطلقوا ولم يبق معه إلا نفر دون العشره. واشترك المنطلقون في النهب وشغلوا كما شغل سائر المسلمين به. إذ ذاك اهتبل الفرصه خالد بن الوليد، وكان على فرسان مكه، فشد برجاله على مكان الرماه فأجلاهم (1)، والمسلمون ما يزالون نسوا

ص: ٤٢٢

١- (١) المغازى للواقدي: ٢٢٩/١-٢٣٠، والطبقات الكبرى: ٤١/٢-٤٢، وإمتاع الأسماع: ١٤٤/١-١٤٥، ومجمع البيان: ١٨٤/٤ و ٤٩٨/٢.

إيمانهم ونسوا الوطن، ولم يبق أمامهم إلا هذه المغانم يعبّون منها حتى لم يبق رجل منهم وقع في يده شيء إلا أخذته؛ وإنهم كذلك وقد صاح ابن الوليد صيحه أدركت قريش معها أنه دار برجاله وراء جيش المسلمين، حتى عاد منهم كل هزيم وحتى أثنوا في المسلمين ضرباً وقتلاً. هنالك دارت الدائرة؛ فألقى كل مسلم ما كان بيده مما انتهب وعاد إلى سيفه يسله ليقاتل به (١).

ولكن هيهات هيهات! لقد تفرقت الصفوف وتمزقت الوحدة وابتلع البحر اللجج من رجال قريش هذه الصفوف من المسلمين كانت إلى ساعه تقاتل بأمر ربها تنضح عن إيمانها، وهي الساعه تقاتل لتنجو من براثن الموت ومخالب الذله. وكانت تقاتل متراضه متضامنه، وهي الآن تقاتل مبعثره متناكره.

وكانت تقاتل تحت قياده قويه حازمه حكيمه، وهي الآن تقاتل ولا قياده لها.

فلم يكن عجباً أن ترى مسلماً يضرب مسلماً بسيفه ولا يكاد يعرفه. وصاح صائح بالناس: إن «محمداً» قد قُتل، فازدادت الفوضى وعظمت البليه، واختلف المسلمون وصاروا يقتلون ويضرب بعضهم بعضاً ولا يشعرون لما هم فيه من العجله والدهش. قتل المسلمون مواطنهم المسلم حُسيل بن جابر أباحذيفه وهم لا يعرفونه (٢). وكان أكبر هم كل مسلم أن ينجو بنفسه إلا من عصم الله من أمثال علي بن أبي طالب (٣)(٤). وازدادت قوه المشركين المعنويه

ص: ٤٢٣

-
- ١- (١) المغازي للواقدي: ٢٣١/١.
 - ٢- (٢) المغازي للواقدي: ٢٣٣/١، وإمتاع الأسماع: ١٤٥/١.
 - ٣- (٣) المغازي للواقدي: ٢٤٠/١، وإمتاع الأسماع: ١٤٨/١، وشرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد: ٢٤١/١٤ والإرشاد للمفيد: ٨٣-٨٤/١.
 - ٤- (٤) وجاء أيضاً أنه كان قريباً من رسول الله ملازماً له، حيث كان الرسول يوجهه ليرد المهاجمين عليه وأيضاً -

حتى صاح حامل لوائهم أبوسعد ابن أبي طلحه: أترعمون أن قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار! واللآت إنكم لتكذبون. ولو كنتم تؤمنون بما تقولون حقاً فليقدم منكم من يقاتلني، وسمعه عليّ فضربه بسيفه ضربه فلقته هامته(١).

فتقدمت عمّره بنت علقمه الحارثية فتناولت اللواء من يد طلحه ثم أخذته منها صواب الحبشي(٢) فقتله سعد بن أبي وقاص(٣). فتناوله بعده أربعة من قريش كان نصيبهم الموت متتابعين.

على أنّ قريشاً ما لبثت أن سمعت بمقتل «محمد» حتى تدافعت تدافع السيل إلى الناحية التي كان فيها، وكلُّ يريد أن يكون له في قتله أو التمثيل به ما يفاخر الأجيال به. هنالك أحاط المسلمون القريبون من نبيهم به يدفعون عنه ويحمونه، وقد عاد الإيمان فملاً نفوسهم وملك قلوبهم وحبب إليهم الموت وهون عليهم الحياه الدنيا. وزادهم إيماناً واستماتة أن رأوا الحجاره التي تقذفها قريش قد أصابت النبي فوق لشفه فأصيبت رباعيته وشجّ

ص: ٤٢٤

١- (١) مستدرک الحاكم: ١١١/٣، وتفسير القمى: ١١٢/١-١١٣، وبحار الأنوار: ٥٠/٢٠-٥١.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٧٤/٢.

٣- (٣) السيره النبويه لابن هشام: ٦٨/٢، بل قتله عليّ عليه السلام أيضاً، وروى المفيد في الارشاد: ٨٥/١-٨٦، عن تفسير القمى: ١١٢/١٠-١١٣.

فى وجهه وكَلِمَت شفته، ودخلت حلقتان من المغفر الذى يستر به وجهه فى وجنته - وكان رامى الحجر الذى أصابه عتبه بن أبى وقاص - فتمالك وسار وأصحابه من حوله، فإذا به يقع فى حفره حفرها أبوعامر ليقع فيها المسلمون.

هناك أسرع إليه على بن أبى طالب فأخذ بيده ورفع طلحه بن عبيدالله حتى استوى وجعل يسير وأصحابه، متسلقين أهداً، ناجين من العدو وأتباعه إياهم(١).

وفى لحظه قاموا كان قد اجتمع حولهم من المسلمين من استماتوا فى الدفاع عن رسول الله استماتة لا يقهر صاحبها أبداً. كانت أم عماره الأنصارية قد خرجت أول النهار ومعها سقاء فيه ماء تدور به على المسلمين المجاهدين تسقى منهم من استسقى. فلما انهزم المسلمون ألقت سقائها واستلت سيفاً وقامت تباشير القتال تذب عن «محمد» بالسيف، وترمى عن القوس حتى خلصت الجراح إليها(٢). وترس أبوذجانة بنفسه دون رسول الله فحنى ظهره والنبل يقع فيه. ووقف سعد بن أبى وقاص إلى جانب «محمد» يرمى بالنبل دونه و «محمد» يناوله النبل ويقول له:

إرم فداك أبى وأمى. وكان «محمد» قبل ذلك يرمى بنفسه عن قوسه، حتى اندقت سببتها(٣)(٤). هذا، فأما الذين ظنوا أن «محمد» قد مات ومن بينهم أبوبكر وعمر فانتحلوا الجبل وألقوا بأيديهم.

فرآهم أنس بن النضر فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله. قال: فما

ص: ٤٢٥

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٧٩/٢-٨٠، والمغازى للواقدي: ٢٤٤/٢، وإمتاع الأسماع: ١٥١/١، ومناقب آل أبى طالب: ١٦٦/١.
٢- (٢) المغازى للواقدي: ٢٧٠/٢. وهى نسيه بنت كعب المازنيه الخزرجيه، بحار الأنوار: ١٣٢/٢٠-١٣٤، وشرح النهج: لابن أبى الحديد: ٢٦٦/١٤.

٣- (٣) سیه القوس وسنتها: طرفها المعطوف المعرب - كتاب العين: ٢٥٤/١.

٤- (٤) المغازى للواقدي: ٢٤١/٢، وعيون الأثر: ٢٢/٢.

تصنعون بالحياه بعده! قوموا فموتوا على ما مات عليه. ثم استقبل القوم فقاتل قتالاً شديداً وأبلى بلاء منقطع النظير، حتى إنه لم يقتل إلا بعد أن ضرب سبعين ضربه، وحتى إنه لم يعرفه أحد إلا أخته، عرفته من بنانه (١).

وفرحت قريش بما اعتقدت من موت «محمد»، فراح أبو سفيان يفتقده في القتلى. ذلك بأن الذين كانوا ينضحون عنه عليه السلام لم يكذب أحد منهم خبر قتله، إطاعه لأمره حتى لا تتكاثر عليهم قريش فتغلبهم دونه. على أن كعب بن مالك أقبل إلى ناحيه أبي دجانة ومن معه فعرف «محمدًا» حين رأى عينيه تزهرا تحت المغفر، فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أبشروا! هذا رسول الله. فأشار النبي إليه ليسكت. لكن المسلمين مالبثوا أن عرفوا حتى نهضوا بالنبي ونهض معهم نحو الشعب، ومن حوله أبو بكر وعمر (٢) وعلى ابن أبي طالب والزبير بن العوام ورهط غيرهم. وكان لصيحه كعب عند قريش كذلك أثرها. صحيح أن أكثرهم لم يصدقها وحسبها صيحةً أريد بها شد عزائم المسلمين، إلا أن بعضهم اندفع وراء «محمد» والذين ساروا معه.

وقد أدركهم أبي بن خلف وهو يقول: أين «محمد»؟ لا- نجوت إن نجا! فطعنه الرسول بحربه الحارث بن الصمّه طعنه جعلته يتقلب على فرسه ويعود أدراجه ليموت في الطريق (٣). فلما انتهى المسلمون إلى فم الشعب خرج على فملاً- درفته ماء فغسل «محمد» به الدم عن وجهه وصب منه على رأسه؛ ونزع

ص: ٤٢٤

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٨٣/٢، ومناقب آل أبي طالب: ٣١٦/٢، وبحار الأنوار: ٨٧/٢٠.

٢- (٢) هذا وقد اعترف أنفاً أنهما كانا ممن ظن أن محمداً قد مات فانتحلوا الجبل وألقوا بأيديهم، فكيف يقول الآن إنهما نهضا معه نحو الشعب؟! بل نصّ الواقدي: وتوجه النبي يريد أصحابه في الشعب.. وليس مع أصحابه فضلاً عما ذكره الدكتور المؤلف.

٣- (٣) المغازي للواقدي: ٢٣٦/١، وعيون الأثر: ٢٣/٢، وإعلام الوري: ١٧٨/١.

أبو عبيده بن الجراح حلقتي المغفر من وجه الرسول فسقطت ثيبتاه (١). وإنهم لكذلك إذ علا خالد بن الوليد على رأس فرسان معه الجبل. فقاتلهم عمر بن الخطاب (٢) ورهط من أصحاب الرسول فردّوهم. وازداد المسلمون في الجبل تصعيداً وقد نهكهم التعب وهدهم الجهد، حتى صلى النبي قاعداً من الجراح التي أصابته، وصلى المسلمون خلفه قعوداً.

فأما قريش فطارت بنصرها سروراً وحسبت نفسها انتقمت لبدر أشد الانتقام؛ حتى صاح أبو سفيان: يومٌ بيوم بدر والموعود العام المقبل. فأما هند بنت عتبة زوجة فلم يكفها النصر، ولم يكفها قتل حمزه بن عبدالمطلب، بل انطلقت هي والنسوة اللاتي معها يمتلن بالقتلى من المسلمين يُحدّ عن الأذان والأنوف، وجعلت هند لنفسها منها قلائد وأقراطاً، ثمّ إنّها بقرت بطن حمزه وجذبت بين يديها كبده وجعلت تلوّكها بأسنانها فلا تستطيع أن تسيغها. وبلغ من شناعه ما فعلت وما فعل النسوة ممن معها، بل ما فعل الرجال كذلك من الفظائع، أن تبرّأ أبو سفيان من تبعها وأعلن أنّه لم يأمر به وإن كان قد اشترك فيه، بل قال يخاطب أحد المسلمين: إنّهُ قد كان في قتلاكم مثلاً واللّه ما رضيت وما سخطت وما نهيت وما أمرت (٣).

وانصرف قريش بعد أن دفنت قتلاها وعاد المسلمون إلى الميدان لدفن قتلاهم. وخرج «محمّد» يلتمس عمّه حمزه. فلما رآه قد بقر بطنه ومثّل به حزن من أجله أشدّ الحزن، وقال:

لن أصاب بمثلك أبداً، ما وقفت موقفاً قطّ أغیظ

ص: ٤٢٧

-
- ١- (١) المغازي للواقدي: ٢٤٧/١، وعيون الأثر: ٢٥/٢، وتفسير العياشي: ٢٠١/١، وبحار الأنوار: ٩١/٢٠.
 - ٢- (٢) السير النبوي لابن هشام: ٨٦/٢. والنص: فما صلى الظهر إلّا جالساً. وليس فيه صلاه أصحابه خلفه.
 - ٣- (٣) السير النبوي لابن هشام: ٩١/٢، والمغازي للواقدي: ٢٧٤/١ و ٢٨٦، وإمتاع الأسماع: ١٦٣/١-١٦٤ و ١٦٦ ومجمع البيان: ١٨٥/٤.

التي من هذا. ثُمَّ قَالَ:

وَاللَّهِ لئن أظهرنا الله عليهم يوماً من الدهر لأُمُتُنَّ بهم مُثله لم يمثّلها أحد من العرب (١). وفي هذا نزل قوله تعالى: وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ٢,٣ فعفا رسول الله وصبر ونهى عن المثل؛ وسجى حمزه ببرده وصلى عليه. وجاءت أخته صفية بنت عبدالمطلب فنظرت إليه وصلت عليه واستغفرت له. ودُفن حمزه، وأمر النبي بالقتلى فدفنوا حيث لقوا مصارعهم (٢).

وانصرف المسلمون إلى المدينة و «محمد» على رأسهم، تاركين وراءهم سبعين من القتلى، يحزّ في نفوسهم الألم لما أصابهم من هزيمه بعد نصر، ومن مدله وهوان بعد ظفر لا ظفر مثله، وذلك كله لعصيان الرماه أمر النبي واشتغال المسلمين عن العدو بغنائمه.

ودخل النبي إلى بيته وجعل يفكر. هاهم أولاء أهل يثرب من اليهود

ص: ٤٢٨

١- (١) المثل بالميّ من القيم الجاهليه التي نبذتها رساله وحرمتها، قال النبي صلى الله عليه و آله: «إياكم والمُثله ولو بالكلب العقور» نهج البلاغه: ١٧/٦٠، والمعجم الكبير للطبراني: ١/١٠٠، والنبي الكريم أرفع خلقاً وهو المنتزه عن رجس الجاهليه وآثامها أن يصدر منه هذا القول، فلطالما كان صلى الله عليه و آله يوصى الغزاه المسلمين: «أغزوا باسم الله وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله ولا تغدروا ولا تغلّوا ولا تمثّلوا...» المغازي للواقدي. مجمع الزوائد: ٥/٣١٦، مسند أحمد: ١/٣٠٠، الكافي: ٥/٣٠.

٢- (٤) السيره النبويه لابن هشام: ٢/٩٧، والمغازي للواقدي: ١/٣١١، ومناقب عليّ بن أبي طالب: ١/١٦٧، وبحار الأنوار: ٢٠/٦٣.

والمنافيين والمشركين يُظهرون السرور أشدَّ السرور، لما كان من هزيمته وهزيمه أصحابه (١). وهذا سلطان المسلمين بالمدينه كان قد استقر فلم يبق لأحد أن ينازع فيه، وهذا هو يوشك أن يضطرب ويتزعزع. وهذا عبدالله بن أبي بن سلول قد خرج على الجماعه وعاد من أحد ولم يشترك في القتال بدعوى أن «محمداً» لم يسمع رأيه، أو أن «محمداً» غضب على مواليه من اليهود. فلو أن هزيمه أحد بقيت الكلمه الأخيره بين المسلمين وقريش لهان أمر «محمداً» وأصحابه على العرب من ناحيه، ولتضعض سلطانهم بيثرب من ناحيه أخرى، ولكانوا عرضه لاستخفاف قريش بهم وارسالها دعايه السخر والاستهزاء منهم في أنحاء شبه الجزيره جميعاً. أضف إلى هذا ما قد يكون من اجترأ المشركين وعباد الأوثان على دين الله فتكون الطامه الكبرى.

فلا بد إذاً من ضربه جريئه تخفف من وقع هزيمه أحد وتردّ إلى المسلمين قوتهم المعنويه، وتدخل إلى روع اليهود والمنافيين الهيبه، وتعيد إلى «محمداً» وأصحابه سلطانهم بيثرب قوياً كما كان.

فلما كان الغد من يوم أحد؛ وكان الأحد لست عشره ليله مضت من شوال، أذن مؤذن النبي في المسلمين بطلب العدو واستنفرهم لمطاردته، على ألا يخرج إلّا من حضر الغزوه. وخرج المسلمون. فوقع في روع أبي سفيان أن أعداءه جاءوا من المدينه بمدد جديد فخاف لقاءهم. وبلغ «محمداً» حمراء الأسد، وكان أبوسفيان وأصحابه بالرّوحاء، فمرّ به معبد الخزاعي وكان قد مرّ ب «محمداً» ومن معه، فسأله عن شأنهم فأجابهم معبد - وكان ما يزال على الشرك - «أنّ محمداً قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، وقد

ص: ٤٢٩

١- (١) المغازي للواقدي: ٣١٧/١، وإمتاع الأسماع: ١٧٧/١، والسيره النبويه لابن كثير: ٩٦/٣.

اجتمع معه من كان قد تخلف عنه، وكلهم أشد ما يكون عليكم حنقاً ومنكم للثأر طلباً». على أن أباسفيان فكر من جانبه فيما يكون لفراره من «محمد» ومن عدم مواجهته إياه بعد انتصاره عليه بأحد من الأثر. أفلا تقول العرب في قريش ما كان يودّ هو أن تقوله في «محمد» وأصحابه! ولكن هبّه رجح إلى «محمد» فهزّمه المسلمون، إذاً ليكون ذلك القضاء الأخير على قريش قضاءً لا تقوم لها من بعده قائمه أبداً. فلجأ إلى الحيلة، فبعث مع ركب من عبدالقيس يقصدون المدينة أن يبلغوا «محمدًا» أنه قد أجمع السير إليه وإلى أصحابه ليستأصل بقيتهم. فلما أبلغ الركب رساله إلى «محمد» بحمراء الأسد لم يتضعضع عزمه ولم تهن قوته، بل ظلّ في مكانه يوقد النار طيله ثلاثه أيام متتابعه، ليدلّ قريشاً على أنه على عزمه وأنه منتظر رجعتهم. وأخيراً تدعدعت (١) همّه أبى سفيان وقريش وآثروا أن يبقوا على نصرهم بأحد وعادوا أدراجهم ميممين مكّه. ورجع «محمد» إلى المدينة وقد استردّ كثيراً من مكانه تزعزت على إثر أحد، وإن كان المنافقون قد بدؤوا يرفعون رؤوسهم ضاحكين من المسلمين يسألونهم: إذا كانت بدر آيه من الله برساله «محمد»، فماذا عسى أن تكون آيه أحد وماذا تكون دلالتها؟! (٢).

ص: ٤٣٠

١- (١) تفرقت. بل تزعزت أى تضعضعت وتزلزلت.

٢- (٢) السير النبوي لابن هشام: ١٠١/٢، والمغازي للواقدي: ٣٣٤/١-٣٤٠، وعيون الأثر: ٥٣/٢-٥٤ ومجمع البيان: ٢٨٦/٤، وبحار الأنوار: ٦٥/٢٠.

ائتمار القبائل المجاورة بالمسلمين، غزوه بنى أسد، أمر الهذلي، مقتل خبيب وأصحابه بالرجيع، مقتل المسلمين بيثر معونه، إجلاء بنى النضير عن المدينة، غزوه بدر الآخرة، غزوه دومه الجندل.

عاد أبو سفيان من أحد إلى مكّة وقد سبقته إليها أخبار النصر وهو ممتلئ النفس غبطة وسروراً بما زال عن قريش من عار بدر. ولم يلبث أن بلغها حتّى قصد الكعبة قبل أن يدخل إلى بيته، وبها رفع إلى كبير آلهم هُبل آى الثناء والحمد. ثُمَّ حَلَقَ لِمَتِهِ ورجع إلى داره موفياً نذره ألا يقرب زوجه حتّى ينتصر على «محمّد»^(١). أمّا المسلمون فألفوا المدينة قد تنكر لهم الكثير من أمرها، رغم مطاردتهم عدوّهم وصمودهم له ثلاثة أيّام متتابعه من غير أن يجترئ على الرجعه إليهم، وهو المنتصر قبل أربع وعشرين ساعة عليهم. ألفوا المدينة وقد تنكر لهم الكثير من أمرها، وإن بقى سلطان «محمّد» فيها السلطان الأعلى. وشعر عليه السلام بدقه الموقف وخرج المركز، لا فى

ص: ٤٣١

١- (١) إمتاع الأسماع للمقريزى: ١٧٢/١.

المدينه وحدها، بل عند سائر قبائل العرب ممّن كان الرعب منه قد داخل نفوسها، بل ردّت أحد إليها من السكينة ما يسمح لها أن تفكّر في معارضته ومناوئته. لذلك حرص على أن يقف من أخبار أهل المدينه ومن أخبار العرب جميعاً، على ما يمكنه من استعادة مكانه المسلمين وسطوتهم وهيبتهم في النفوس.

وكان أول ما بلغه بعد شهرين من أحد أن بنى أسد، وعلى رأسهم طليحه وسلمه ابنا خويلد قد ساروا في قومهما ومن أطاعهما يدعونهم إلى مهاجمه المدينه والسير إلى «محمّد» في عُقر داره ليصيبوا من أطرافه وليغنموا من نعم المسلمين التي ترعى الزروع المحيطه بمديتهم. إنّما شجّعهم على ذلك اعتقادهم أنّ «محمّداً» وأصحابه ما يزالون مضععين من أثر أحد. فما لبث النبي أن اتصل به الخبر حتّى دعا إليه أبا سلمه بن عبدالأسد وعقد له لواء سريه تبلغ عدّتها مئه وخمسين، منهم أبو عبيده بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وأسيد بن حُضير، وأمرهم بالسير ليلاً والاختفاء نهاراً وسلوك طريق غير مألوف حتّى لا يطّلع أحد على خبرهم، فيفجئوا العدو بالإغاره عليه على غرّه منه. ونفّذ أبو سلمه ما أمر به حتّى جاء القوم ولم يستعدّوا لنضال، فأحاط بهم في عمايه الصبح، وحضّ رجاله وحرّضهم على الجهاد؛ فلم يستطع المشركون أن يثبتوا لهم، فوجّه لواءين في طلبهم وطلب الغنيمه، وأقام هو ومن معه حتّى عاد المطاردون بماغنموا، فنحّوا الخمس لله ورسوله وللمسكين وابن السبيل، واقتسموا الباقي ورجعوا إلى المدينه ظافرين وقد أعادوا إلى النفوس من هيبه المسلمين شيئاً ممّا ضيّعت أحد. على أنّ أبا سلمه

لم يعيش بعد السريه طويلاً؛ فقد كان جرح بأحد ولم يكن التئام جرحه إلا ظاهراً. فلما أجهد نفسه نَعَرَ (١) الجرح وظلَّ به حتى قضى عليه (٢).

واتصل ب «محمّد» من بعد ذلك أنّ خالد بن سفيان بن ثبيح الهذلي مقيم بنخله، أو بعرنه وأنّه يجمع الناس ليغزوه، فدعا إليه عبدالله بن أنيس وبعثه يتجسس حتى يقف على جليته الخبر. وسار عبدالله حتى التقى بخالد وهو في ظعن يرتاد لهنّ منزلاً. فلما انتهى إليه سأله خالد: من الرجل؟ فأجابه:

أنا رجل من العرب سمع بك وبجمعك ل «محمّد» فجاءك لذلك، فلم يخف خالد أنّه يجمع الجموع ليغزو المدينة. ولما رآه عبدالله في عزله من الرجال وليس معه إلا أولئك النسوة استدرجه للمسير معه، حتى إذا أمكنته منه الفرصه حمل عليه بالسيف فقتله، ثمّ ترك ظعائنه منكبات عليه يبكيه، وعاد إلى المدينة فأخبر الرسول الخبر. وهدأت بنو لحيان من هذيل بعد موت زعيمها زمناً، ثمّ فكّرت تحتال لتثأر له (٣).

في هذا الظرف وفد رهط من قبيله تجاورهم إلى «محمّد» يقولون له:

إنّ فينا إسلاماً، فابعث معنا نفرّاً من أصحابك يعلّموننا شرائعه ويقرّوننا القرآن. وكان «محمّد» يبعث من أصحابه كلّمًا دعى إلى ذلك ليؤدوا هذه المهمه الدينيه الساميه. وليدعوا الناس إلى الهدى ودين الحقّ، وليكونوا ل «محمّد» وأصحابه عيوناً على خصومهم وأعدائهم، على نحو ما رأيت من ذلك كلّه فيمن بعثهم إلى المدينة على أثر العقبه الكبرى. لذلك بعث سته من

ص: ٤٣٣

-
- ١- (١) نَعَرَ الجرح: علا وارتفع واحمُر، نفرت القدر: غلت - كتاب العين: ٤/٤٠٥.
 - ٢- (٢) مغازى الواقدي: ١/٣٤٠-٣٤١، والطبقات الكبرى: ٢/٥٠، وإمتاع الأسماع: ١/١٨١.
 - ٣- (٣) طبقات ابن سعد: ٢/٥٠-٥١، وعيون الأثر: ٢/٥٦-٥٧.

كبار أصحابه خرجوا مع الرهط و ساروا معهم، حتى إذا كانوا جميعا على ماء لهذيل بالحجاز بناحية تدعى «الرّجيع» غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلًا.

و لم يرع المسلمون الستة و هم في رحالهم إلّا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم. فأخذ المسلمون أسيافهم ليقاتلوا، لكن هذيلًا قالت لهم: إنا و الله ما نريد قتلكم و لكننا نريد أن نصيب بكم من أهل مكّة، و لكم عهد الله و ميثاقه ألا نقتلكم. و نظر المسلمون بعضهم إلى بعض و قد أدركوا أن الذهاب بهم إلى مكّة فرادى إنّما هو المذلّة و الهوان و ما هو شرّ من القتل. فأبوا ما وعدت هذيل و انبروا لقتالها و هم يعلمون أنّهم في قلّة عددهم لا يطيقونه. و قتلت هذيل ثلاثة منهم، و لان الثلاثة الباقون، فأمسكت بتلابيبهم و أخذتهم أسرى و خرجت بهم إلى مكّة تبيعهم فيها. فلمّا كانوا في بعض الطريق انتزع أحد المسلمين الثلاثة، عبد الله بن طارق، يده من غل الأسر، ثم أخذ سيفه فاستأخر عنه القوم و طفقوا يرمونه بالحجارة حتى قتلوه، أمّا الأسيران الآخرا فقدمت بهما هذيل مكّة و باعتهما من أهلها. باعت زيد بن الدثنه لصفوان بن أميّة الذي اشتراه ليقته بأبيه أميّة بن خلف، فدفع به إلى مولى يقال له نسطاس ليقته. فلما قدم سأله أبوسفيان: أنشدك الله يا زيد، أتحب أن «محمّدًا» الآن عندنا في مكانك تضرب عنقه و أنت في أهلك؟ قال زيد: و الله ما أحب أن «محمّدًا» الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه و أنا جالس في أهلي! فعجب أبوسفيان و قال: «ما رأيت من الناس أحدا يحبّه أصحابه ما يحب أصحاب «محمّد» «محمّدًا». و قتل نسطاس زيدا، فذهب شهيد أمانته لدينه و لنيته. أمّا خبيب فحبس حتى خرجوا به ليصلبوه، فقال لهم: إن رأيتم

تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا؛ فأجازوه ما أراد؛ فركع الركعتين أتمهما و أحسنهما، ثم أقبل على القوم و قال: أما و الله لو لا أن تظنوا أنني إنما طوّلت جزعا من القتل لاستكثرت من الصلاة. و رفعوه إلى خشبه، فلما أوثقوه إليها نظر إليهم بعين مغضبه و صاح: اللهم - احصاهم عددا، و اقتلهم بددا، و لا تغادر منهم أحدا. فأخذت القوم الرجفه من صيحته و استلقوا إلى جنوبهم حذر أن تصيبهم لعنته ثم قتلوه. و كذلك استشهد خبيب كما استشهد زيد في سبيل بارئه و في سبيل دينه و نبيه؛ و كذلك ارتفع إلى السماء هذان الروحان الطاهران، كان في استطاعه صاحبيهما أن يستنقذاهما من القتل إذا رضيا الردّه عن دينهما، لكنهما في يقينهما بالله و بالروح و بيوم البعث، يوم تجزى نفس بما كسبت و لا تزر وازره و زر أخرى، رأيا الموت و هو غايه كل - حتى خير ما يكون غايه للحياه في سبيل العقيده و في سبيل الإيمان بالحق - و لكنهما آمنا بأن - دمهما الزكى الطهور الذى أريق على أرض مكّه سيدعو إليها إخوتهم المسلمين يدخلونها فاتحين يحطمون أصنامها و يطهرونها من رجس الوثنيه و الشرك، و يردون فيها إلى الكعبه بيت الله ما يجب لبيت الله من قداسه و تنزّه عن أن يذكر فيه اسم غير اسم الله.

حزن المسلمون و حزن «محمّد» لما أصاب أصحاب أصحابهم الستة الذين استشهدوا في سبيل الله بغدر هذيل بهم، و أرسل حسان بن ثابت أشعائره يرثي فيها خبيبا و زيدا أحرّ الرثا(1). و ازداد «محمّد» تفكيرا في أمر المسلمين

ص: ٤٣٥

١- (١) مغازى الواقدي: ٣٥٤/٢-٣٦٣، و طبقات ابن سعد: ٥٥/٢-٥٦، و إمتاع الأسماع: ١٨٤/١-١٨٧، و بحار الأنوار: ١٥٠/٢٠-١٥٤.

وخشى إن تكررت مثل هذه الأمور أن تستخفّ العرب بشأنهم. ولا شيء أقتل لهيبتك من استخفاف الغير بشأنك. وإنه لفي تفكيره إذ قدم عليه أبو براء عامر بن مالك ملاعب الأسنه، فعرض «محمّد» عليه أن يسلم فلم يقبل، ولكنّه لم يظهر للإسلام عداوه؛ بل قال: يا «محمّد»، لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك. فخاف «محمّد» على أصحابه أهل نجد وخشى أن يغدروا بهم ما غدرت هذيل بخبيب وأصحابه. ولم يقتنع ولم يجب طلب أبي براء، حتّى قال: أنا لهما جار، فابعثهم فليدعوا إلى أمرك. وكان أبو براء رجلا مسموع الكلمه فى قومه لا يخاف من أجاره عاديه أحد عليه. وبعث «محمّد» المنذر بن عمرو وأخا بنى ساعده فى أربعين رجلا من خيار المسلمين فساروا حتّى نزلوا بئر معونه بين أرض بنى عامر وحرّه بنى سليم. ومن هناك بعثوا حرام بن ملحان إلى عامر بن الطفيل بكتاب «محمّد». فلم ينظر عامر فى الكتاب بل قتل الرجل واستصرخ بنى عامر كى يقتلوا المسلمين. فلمّا أبوا أن يخفروا ذمّه أبى براء وجواره استصرخ عامر قبائل أخرى أجابته وخرجت معه حتّى أحاطوا بالمسلمين فى رحالهم. فلمّا رأهم المسلمون أخذوا سيوفهم وقاتلوا حتّى قتلوا عن آخرهم، لم ينج منهم إلّا كعب بن زيد؛ إذ تركه ابن الطفيل و به رمق فعاش و لحق بالمدينه، و إلّا عمرو بن أميّه الذى أعتقه عامر بن الطفيل عن رقبه زعم أنّها كانت على أمّه. ولقى عمرو رجلين فى الطريق حين عودته بعد انطلاقه، فخشيهما من القوم الذين عدوا على أصحابه فأمهلهما حتّى إذا ناما عدا عليهما فقتلتهما، و تابع مسيرته حتّى بلغ المدينه فأخبر الرسول عليه السلام بما صنع، فإذا

الرجلان عامريان من قوم أبي براء، و إذا معهما عقد جوار من رسول الله اقتضاه أن يؤدى ديتهما.

و وجد «محمّد» لقتلى بئر معونه أشدّ الوجد و حزن من أجلهم أعمق الحزن، و قال: هذا عمل أبي براء، لقد كنت لهذا كارها متخوفا. و شقّ على أبي براء إخفار عامر بن الطفيل إياه، حتّى لقد ذهب ابنه ربيعه فطعن عامرا بالرمح انتقائما منه لأبيه. و بلغ من حزن «محمّد» أنّه ظلّ شهرا كاملا يدعو الله بعد أداء فريضة الفجر لينتقم لهم من قتلهم. و تأثر المسلمون جميعا لهذه الكارثة التى أصابت إخوانهم فى الدين و إن آمنوا بأنهم جميعا استشهدوا و بأنهم جميعا لهم الجنة(1).

على أن أهل المدينة من المنافقين و اليهود قد وجدوا فيما أصاب المسلمين بالزّجيع و بئر معونه ما أعاد إلى ذاكرتهم انتصار قريش باحد، و ما أنساهم نصر المسلمين على بنى أسد، و ما أضعف فى نفوسهم من هيبه «محمّد» و أصحابه. و فكّر النبىّ عليه السلام فى هذه الحالة تفكير سياسى دقيق النظر بعيد مرامى الرأى؛ فليس شىء أشدّ على المسلمين يومئذ خطرا من أن تضعف فى نفوس مساكنهم بالمدينة هيبتهم، و ليس ما يطمع قبائل العرب فيهم أكثر من أن تشعر بهذا الانقسام الداخلى يوشك أن يثير حربا أهليه إذا غزا المدينة غاز من جيرانها. ثم إنّه قد رأى اليهود و المنافقين كأنهم يتربصون به الدوائر. فقدّر أن لا شىء خير من أن يستدرجهم لتتضح نياتهم.

ص: ٤٣٧

١- (١) مغازى الواقدي: ٣٤٦/١-٣٥٣، و الطبقات الكبرى: ٥١/٢-٥٤، و السير النبويّه لا بن هشام: ١٨٣/٢-١٨٦، و تفسير مجمع البيان: ٤٤٠/٢-٤٤١، و بحار الأنوار: ١٤٧/٢٠-١٤٩.

ولمّا كان اليهود من بنى النضير حلفاء لبني عامر، فقد ذهب إلى محلّتهم على مقرّبه من قباء في عشره من كِبار المسلمين، بينهم أبوابكر و عمر و عليّ، و طلب إليهم معاونتهم في ديه القتيلين اللذين قتل عمرو بن أمّيه خطأ و من غير أن يعلم أن «محمّدا» أجارهما. فلما ذكر لهم ما جاء فيه أظهروا الغبطه و البشر و حسن الاستعداد لإجابته. لكنّه ما لبث أثناء تبسّط بعضهم معه أن رأى سائرهم يتآمرون و يذهب أحدهم إلى ناحيه و يبدو عليهم كأنّهم يذكرون مقتل كعب بن الأشرف، و يدخل أحدهم (عمرو بن جحاش بن كعب) البيت الذي كان «محمّد» مستندا إلى جداره. إذ ذلك رابه أمرهم، و زاده ريبه ما كان يبلغه من حديثهم عنه و ائتمارهم به. لذلك ما لبث أن انسحب من مكانه تاركا أصحابه وراءه يظنون أنّه قام لبعض أمره. أمّا اليهود فقد اختلط عليهم الأمر و لم يعودوا يعرفون ما يقولون لأصحاب «محمّد» و لا ما يصنعون بهم. فان هم غدروا بهم ف «محمّد» لا ريب منتقم منهم شرّ انتقام. و إن هم تركوهم فلعلّ ائتمارهم بحياه «محمّد» و أصحابه لا يكون قد افتضح فيظلّ ما بينهم و بين المسلمين من عهد قائما. و حاولوا أن يقنعوا ضيوفهم المسلمين بما يزيل ما قد يكون رابهم من غير أن يشيروا إلى شيء منه. لكنّ أصحاب «محمّد» استبطئوه فقاموا في طلبه فلقوا رجلا مقبلا من المدينه عرفوا منه أن «محمّدا» دخلها و أنّه قصد تّوا إلى المسجد فيها، فذهبوا إليه. فلما ذكر لهم ما رابه من أمر اليهود و من اعتزامهم الغدر به و تّبّهوا إلى ما كانوا رأوا، آمنوا بنفاذ بصيره الرسول و ما أوحى إليه. و بعث النبيّ يدعو إليه محمّد بن مسلمه، و قال له:

«إذهب إلى يهود بنى النضير و قل لهم: إن رسول الله أرسلنى اليكم أن اخرجوا من

بلادى. لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما همتم به من الغدر بى. لقد أجتكم عشرا، فمن رثى بعد ذلك ضربت عنقه». و أبلست بنو النضير فلم يجدوا لهذا الكلام دفعا و لم يحيروا جوابا إلا أن قالوا لا بن مسلمه: يا محمّد، ما كنا نرى أن يأتى بهذا رجل من الأوس. و ذلك إشاره إلى تحالفهم و إياهم من قبل فى حرب الخزرج.

فكان كل ما أجاب به ابن مسلمه: تغيرت القلوب.

و مكث القوم على ذلك أياما يتجهّزون. و إنهم لكذلك إذ جاء رسولان لعبد الله بن أبى يقولان: لا- تخرجوا من دياركم و أموالكم و أقيموا فى حصونكم، فإن- معى ألفين من قومي و غيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم و يموتون عن آخرهم قبل أن يوصل إليكم. و تشاورت بنو النضير فى مقاله ابن أبى و هم أشد ما يكونون حيره. فمنهم من لم يكن له با بن أبى أيه ثقه. أ لم يعد بنى قينقاع من قبل مثل ما يعد بنى النضير اليوم، فلما جدّ الجدّ تخلى عنهم و ولى مدبرا! و هم يعلمون أن بنى قريظه لا ينصرونهم لما بينهم و بين «محمّد» من عهد. ثم إنهم إن جلوا عن ديارهم إلى خيبر و إلى محله قريبه استطاعوا أن يعودوا حين يثمر نخيلهم إلى يثرب يجنون ثمره و يعودون أدراجهم فلا- يكونون قد خسروا كثيرا. قال كبيرهم حبي بن أخطب: كلا! بل أنا مرسل إلى «محمّد»: إننا لا نخرج من ديارنا و أموالنا، فليصنع ما بداله. و ما علينا إلا أن نرم- حصوننا، ندخل إليها ما شئنا و ندرّب أزقتنا و نقل الحجاره إليها، و عندنا من الطعام ما يكفينا سنه، و ماؤنا لا ينقطع و لن يحصرنا «محمّد» سنه كامله. و انقضت الأيام العشره

ولم يخرجوا من ديارهم.

فأخذ المسلمون السلاح و ساروا إليهم فقاتلوهم عشرين ليلة كانوا أثناءها إذا ظهروا على الدرب أو الدار تأخر اليهود إلى الدار التي من بعدها بعد تخريبهم إياها. ثم أمر «محمّد» أصحابه أن يقطعوا نخل اليهود و أن يحرقوه حتّى لا تبقى اليهود في شدة تعلقها بأموالها تتحمس للقتال و تقدم عليه. و جزع اليهود و نادوا: يا محمّد، قد كنت تنهى عن الفساد و تعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخل و تحريقها! و فى ذلك نزلت هذه الآية من سورة الحشر: مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنِهِ أَوْ تَرَكَتُمْوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَ لِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ١ . و عبثا انتظر اليهود نصر ابن أبى أو تقدّم أحد من العرب لنجدتهم، حتّى لم تبق لديهم ريبه فى سوء مصيرهم إذا هم أصرّوا على متابعه القتال. فلمّا ملأ اليأس قلوبهم رعبا، سألوا «محمّد» أن يؤمنهم على أموالهم و دمائهم و ذراريتهم حتّى يخرجوا من المدينة. فصالحهم «محمّد» على أن يخرجوا منها، و لكل ثلاثة منهم بغير يحملون عليه ما شاءوا من مال أو طعام أو شراب، ليس لهم غيره. و احتمل اليهود و على رأسهم حبيّ بن أخطب، فنزل منهم من نزل خيبرا، و سار آخرون إلى أذرعات بالشام، و تركوا وراءهم للمسلمين مغانم كثيره من غلال و سلاح بلغ خمسين درعا و ثلاثمائة و أربعين سيفاً، ثم كان ما خلت اليهود من الأرض التي كانوا يملكون خير ما غنم المسلمون. على أن هذه الأرض لم تعتبر أسلاب حرب، و لذلك لم تقسم بين المسلمين، بل كانت لرسول الله خاصة يضعها حيث يشاء. و قد قسمها على المهاجرين الأوّلين دون الأنصار بعد أن استبقى قسما خصّصت غلته للفقراء و المساكين. و بذلك أصبح المهاجرون فى غنى عن معونه الأنصار و أصبح لهم

ص: ٤٤٠

مثل ثروتهم. و لم يشرك في القسمة من الأنصار إلا أبادجانه و سهل بن حنيف، فقد ذكرا فقرا فأعطاهما «محمّدا» كما أعطى المهاجرين. و لم يسلم من يهود بنى النضير غير رجلين، أسلما على أموالهما فأحرزاهما(١).

ليس عسيرا أن يقدر الإنسان قيمه نصر المسلمين و إجلاء بنى النضير عن المدينة بعد الذى قدّمنا من تقدير الرسول عليه السلام لما كان يخلقه بقاؤهم من تشجيع عوامل الفتنه، و من دعوه المنافقين إلى أن يرفعوا رؤسهم كلما أصاب المسلمين شرّ، و من التهديد بالحرب الأهليه إذا غزا المسلمين غاز من الأعداء. و فى جلاء بنى النضير نزلت سوره الحشر(٢) و جاء فيها: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَ لَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَ إِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَ لَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَ لَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلِّنَنَّ الْأُذُنَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ * لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ٣ . و تجرى السوره بعد ذلك بذكر الإيمان و سلطانه؛ الإيمان بالله وحده لا تعرف النفس الإنسانية التى تعرف قيمتها و كرامتها لغيره سلطانا: هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقَدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهِيمُنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٤ .

ص: ٤٤١

-
- ١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ١٩٠/٢-١٩٢، المغازى للواقدي: ٣٦٣/١-٣٨٣، طبقات ابن سعد: ٥٧/٢-٥٩، وإمتاع الأسماع: ١٨٨/١-١٩٢، وراجع تفسير القمى: ١٨٩/٢-١٩٠، ومجمع البيان: ٤٢٦/٩، وبحار الأنوار: ١٦٣/٢٠-١٦٤ و ١٦٨-١٧٣.
- ٢- (٢) تفسير الطبرى: ٤٤/١٢، وتفسير مجمع البيان: ٤٣٥/٩.

كان كاتب سرّ النبيّ إلى حين إجلاء بني النضير عن المدينة، من اليهود، ليتسنى له أن يبعث من الرسائل بالعبرية و السريانية ما يريده. فلما جلا اليهود خاف النبيّ أن يستعمل في أسراره غير مسلم، فأمر فتعلم زيد بن ثابت من شبّان المدينة المسلمين اللغتين المذكورتين، و أصبح كاتب سرّ النبيّ في كلّ شأنه. و زيد بن ثابت هذا هو الذي جمع القرآن في خلافه أبي بكر، و هو الذي عاد فراقب حين اختلفت القراءات في خلافه عثمان، فوضع مصحف عثمان و أحرقت سائر المصاحف (1).

اطمأنت المدينة بعد إجلاء بني النضير عنها، و لم يعد المسلمون يخشون المنافقين فيها، و اغتبط المهاجرون بما أصابوا من أرض اليهود، و اغتبط الأنصار أن لم يبق عليهم عيال غيرهم، و تنفّس الكلّ الصعداء، و كانت فتره سكينه و هدوء و طمأنينه استراح إليها المهاجرون و الأنصار جميعا. و ظلّوا كذلك حتّى استدار العام منذ أحد، و ذكر «محمّد عليه السلام» قوله أبي سفيان يوم بيوم بدر و الموعد العام المقبل و دعوته «محمّدا» للقاءه ببدر مرّه أخرى. و كان العام عام جدب، و كان أبو سفيان يودّ لو يؤجّل اللقاء إلى عام آخر. فبعث نعيما إلى المدينة يقول للمسلمين: إن قريشا جمعت جيشا لا قبل لجيش في العرب بمواجهته لتحاربهم به، حتّى تقضى عليهم قضاء لا يعتبر ما تم بأحد إلى جانبه شيئا. و بدا للمسلمين أن يجتنبوا الخطر، فأظهر الكثيرون الرغبة عن النهوض و السير لبدر. لكن «محمّدا» غضب لهذا الاستضعاف

ص: ٤٤٢

١- (١) أسد الغابه: ٢٢١/٢-٢٢٢. و راجع للتوسع: تلخيص التمهيد في علوم القرآن: ١٥٦/١ مؤسسه النشر الإسلامى، قم إيران، الطبعة الثانية ١٤١٧ هـ للعلامة معرفه، و البيان للمرحوم الخوئي: ٢٤٠، منشورات أنوار الهدى، الطبعة الثامنة، قم - إيران ١٤٠١ هـ، و القرآن في الإسلام للمرحوم الطباطبائي: ١١٣ دار الكتاب الإسلاميه، قم - إيران الطبعة الخامسة ١٣٧٠ هـ. ش.

والتراجع و صاح بهم مقسما أنه ذاهب إلى بدر و لو ذهب وحده.

لم يبق بعد هذه الغضبه العظيمه إلا أن يذوب كل - تردد و يتلاشى كل - خوف، و أن يحمل المسلمون سلاحهم و أن يذهبوا إلى بدر مع «محمد» الذي استعمل على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول. و نزل المسلمون بدرا ينتظرون قريشا مستعدين لقتالها. و خرجت قريش مع أبي سفيان من مكه في أكثر من ألفي رجل. لكن - أباسفيان بداله أن يرجع بعد مسيره يومين، فنأدى في الناس: يا معشر قريش؛ إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب و إن عامكم هذا جدد، و إني راجع فارجعوا. و رجع الناس، و أقام «محمد» في جيش المسلمين ينتظرهم ثمانية أيام متتابعه، أئجر المسلمون ببدر فيها فربحت تجارتهم ثم - عادوا إلى المدينة مستبشرين بفضل من الله و نعمه (1). و في بدر الآخره هذه نزل قوله تعالى في سوره آل عمران (2): الَّذِينَ قَالُوا لِلْإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَ فَضْلِهِ وَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَ اتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالُوا لَهُمْ النَّاسُ إِنْ النَّاسُ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَ قَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَ فَضْلِهِ لَمْ يَمَسُّهُمْ سُوءٌ وَ اتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَ خَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ٣ .

ص: ٤٤٣

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٢٠٩/٢-٢١٠، والمغازي للواقدي: ٣٨٤/١، وطبقات ابن سعد: ٥٩/٢.

٢- (٢) تفسير الطبري: ٥٢٣/٣، ومجمع البيان: ٤٤٩/٢.

وكذلك محت غزوه بدر الآخـره أثر أحد محوّاً تامّاً ولم يبق لقريش إلّا أن تنتظر عاماً آخر رازحه تحت عار من جنبها لا يقل وطأه عن عار هزيمتها في بدر الأولى.

وأقام «محمد» بالمدينه مستريحاً إلى نصر الله إياه مطمئناً إلى ما عاد للمسلمين من هيبتهـم، حذراً دائماً غدره العدو، باثناً عيونـه في كل النواحي.

وإنّه لكذلك إذ اتصل به أنّ جماعه من غطفان بنجد يجمعون يريدون حربـه.

وكانت خطته أن يأخذ عدوّه على غزّه قبل أن يُعدّ العدّه لدفعه. لذلك خرج في أربعته من رجاله حتّى نزل ذات الرّقاع، حيث اجتمع بنو مُحارب وبنو ثعلبه من غطفان، فخافوه حين رأوه طلع عليهم في عيّدـه حربـه مهاجماً مساكنهم، وتفزّقوا تاركين وراءهم نساءهم ومتاعهم. واحتمل المسلمون ما استطاعوا وعادوا أدراجهم إلى المدينه. على أنّهم خافوا رجعه العدو عليهم فتناوبوا الحراسه ليل نهار، وجعل «محمد» يصلّي بهم أثناء ذلك كلّ صلاه الخوف.

فكان جماعه منهم يظنون مستقبلين العدو مخافه لحاقه بهم في حين يصلّي الآخرون مع «محمد» ركعتين. ولم يبدُ للعدو من أثر، بل عاد النبي وأصحابه إلى المدينه بعد غيابهم خمسـه عشر يوماً عنها وهم بظفرهم جدّ فرحين (١).

وخرج النبي بعد قليل من ذلك إلى غزوه أخرى هي غزوه دؤمه الجندل. ودؤمه الجندل واحه على حدود ما بين الحجاز والشام، تقع في منتصف الطريق بين البحر الأحمر وخليج فارس. ولم يقابل «محمد» القبائل التي أراد مقاتلتها هناك، والتي كانت تغير على القوافل، لأنّها ما لبثت أن

ص: ٤٤٤

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٢٠٣/٢-٢٠٤، والمغازي للواقدي: ٣٩٥-٣٩٦، وطبقات ابن سعد: ٦١/١، وراجع: مجمع البيان: ١٧٧/٣-١٧٨، وإعلام الوري: ١٨٩/١، و بحار الأنوار: ١٧٥/٢٠-١٧٦.

سمعت باسمه حتى أخذها الفزع وولت مدبره و تركت للمسلمين ما احتملوا من غنائم(1). و أنت ترى من هذا التحديد الجغرافي لدومه الجندل مبلغ ما اتسع نفوذ «محمد» و أصحابه و ما بلغ إليه سلطانهم و خوف شبه الجزيره إيّاهم، كما ترى كيف كان المسلمون يحتملون المتاعب فى غزواتهم مستهينين بالقيظ و الجذب و قلّه الماء، مستهينين بالموت نفسه، يحركهم إلى هذا النصر و الظفر شيء واحد هو سبب قوتهم المعنويه: الإيمان بالله وحده لا شريك له.

آن ل «محمد» من بعد ذلك أن يطمئن بالمدينه عدّه أشهر متتابعه، ينتظر فيها موعد قريش لعامه القادم - سنه خمس من الهجره - و يقوم بأمر ربّه باتمام التنظيم الاجتماعى للجماعه الإسلاميه الناشئه تنظيمًا كان يتناول عدّه ألوف يومئذ ليتناول الملايين و مئات الملايين من بعد ذلك، و يقوم باتمام هذا التنظيم الاجتماعى فى دقه و حسن سياسه، يوحى إليه ربّه منه بما يوحى، و يقر هو ما يتفق و أمر الوحى و تعاليمه، و يضع من تفاصيل ذلك ما كان موضع التقديس من أصحابه يومئذ، و ما ظل من بعد ذلك قائما على الأجيال و الدهور، لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه.

ص: ٤٤٥

١- (١) السير النبويه لا- بن هشام: ٢/٢١٣، و المغازى للواقدي: ١/٤٠٢، و طبقات ابن سعد: ٢/٦٢، بل أنّما كانت غزوه دومه الجندل ضمن غزوه تبوك فى التاسعه للهجره، لا بين أحد و الخندق.

زينب بنت خزيمة و أم سلمه، قصه زينب بنت جحش و كلام المستشرقين فيها، و قائعها كما يرويها التاريخ الصحيح.

في الفتره التي وقعت فيها حوادث الفصلين السابقين تزوج «محمد» من زينب بنت خزيمة، ثم من أم سلمه بنت أبي أميه بن المغيره، ثم من زينب بنت جحش بعد أن طلقها زيد بن حارثه الذي تبناه «محمد» و أعتقه منذ اشتراه يسار لخديجه (1). هاهنا يصيح المستشرقون و يصيح المبشرون:

انظروا! لقد انقلب «محمد» الذي كان بمكّه داعيه قناعه و زهد و توحيد و رغبه عن شهوات هذه الحياه الدنيا، رجل شهوه يسيل منظر المرأه لعبه، و لا يكفيه ثلاث نسوه في بيته، بل يتزوج أولئك الثلاث اللاتي ذكرنا، و يتزوج من بعدهن ثلاثا أخريات غير ريحانه. و هو لا يكفيه أن يتزوج ممن لا بعوله لهن؛ بل هو يشغف حبًا بزينب بنت جحش و هي تحت زيد بن حارثه مولاه، لغير شيء إلا أنه مرّ بيت زيد و هو غائب فاستقبلته زينب،

ص: ٤٤٧

١- (١) إمتاع الأسماع للمقريزي: ١٣٠/١ و ٢٠٢، و الإصابه في تمييز الصحابه: ٣١٣/٤، ٣١٥، ٤٥٨. و عيون الأثر: ٣٧٠/٢-٣٧٢، و المناقب لابن شهر آشوب: ١٦٠/١ و ١٧١.

وكانت في ثياب تبتدي محاسنها، فوقع منها في قلبه شيء لجمالها، فقال:

سبحان مقلب القلوب، ثم كثر هذه العبارة ساعه انصرافه؛ فسمعتها زينب و رأت في عينه و هج الحب، فأعجبت بنفسها و أبلغت زيدا ما سمعت. فذهب من فوره إلى النبي يذكر له استعدادة لتسريحها؛ فقال له:

أمسك عليك زوجك و اتق الله. لكن زينب لم تحسن من بعد عشرته فطلّقها. و أمسك «محمد» عن زواجها و قلبه في شغل بها حتى نزل قوله تعالى في سورة الأحزاب: وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَ اتَّقِ اللَّهَ وَ تُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ١. إذ ذلك تزوجها فأطفأ بزواجها لا ذع حبه و متوهج غرامه. فأى نبي هذا! و كيف به يبيح لنفسه ما يحرمه على غيره! و كيف به لا يخضع للقانون الذي يقول إن الله أنزل عليه! و كيف به يخلق هذا «الحريم» الذي يثير في النفس ذكر الملوك المترفين، بدل أن يثير فيها ذكر الأنبياء الصالحين المصلحين! ثم كيف به يبلغ منه الخضوع لسلطان الحب في شأن زينب حتى يصل بمولاه زيد إلى تطليقها ثم يتزوجها هو، و قد كان ذلك محرّمًا في الجاهلية فأباحه نبي المسلمين إرضاء لهواه، و إطفاء لداعى حبه.

و يطلق المبشرون و المستشرقون لخيالهم العنان حين يتحدثون من تاريخ «محمد» في هذا الموضوع، حتى يصور بعضهم زينب ساعه رآها النبي و هي نصف عاريه أو تكاد، و قد انسدل ليل شعائرها على ناعم جسمها الناطق

بما يكتنه من كل معانى الهوى، و ليذكر آخرون أنه حين فتح باب بيت زيد لعب الهواء بأستار غرفه زينب و كانت ممدده على فراشها فى ثياب نومها، فعصف منظرها بقلب هذا الرجل الشديد الولع بالمرأه و مفاتها، فكتم ما فى نفسه و إن لم يطق الصبر على ذلك طويلا... و أمثال هذه الصور - التى أبدع الخيال - كثير، تراه فى موير و فى درمنجم و فى و اشنطن إرفنج و فى لا منس، و غيرهم من المستشرقين و المبشرين(١). و مما يدعو إلى أشد الأسف أن هؤلاء جميعا اعتمدوا فى روايتهم على ما ورد فى بعض كتب السيره و بعض كتب التفسير(٢). و ثم أقاموا على ما صوّروا قصورا من الاستنباط فى شأن «محمد» و صلته بالمرأه، و استدّلوا على ذلك بكثرة أزواجه حتى بلغن تسعا فى القول الراجح(٣)، و حتى بلغن أكثر من ذلك فى بعض الروايات(٤).

كان فى مقدورنا أن نجبه هذه الأقوال جميعا بقولنا: فلتكن صحيحه، فما ذا فيها مما يطعن على عظمه «محمد» أو على نبوته و رسالته؟! إن القوانين التى تجرى على الناس لا سلطان لها على العظماء، و لا سلطان لها من باب أولى على المرسلين و الأنبياء. ا لم ير موسى عليه السلام خلافا بين رجلين هذا من شيعته و هذا من عدوه فاستتغائه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى

ص: ٤٤٩

١- (١) (١) Life of Mohamet Washington Irving Life of Mohamet by Sir William, Life of (١) (١)
,Mohamet par Emil Edermenghem, L'Islam par Lammens

٢- (٢) تاريخ الطبرى: ٨٩/٢.

٣- (٣) التفسير الكبير للفخر الرازى: ٣٧٤/٩.

٤- (٤) عيون الأثر: ٣٦٧/٢-٣٧٧.

عَلَيْهِ) ١. وهذا قتل محرّم في غير حرب ولا شبه حرب، وهذا مخالف للقانون، ومع ذلك لم يخضع موسى لقانون، ولم يطعن ذلك في نبوته ولا في رسالته، ولم يطعن في عظمته. وشأن عيسى في مخالفه القانون أكبر من شأن موسى ومن شأن «محمّد» ومن شأن الأنبياء والمرسلين جميعاً. فليس يقف أمره عند بسطه في القوه أو في الرغبة، بل خرج بمولده و بحياته على قوانين الطبيعه و سننها جميعاً. تمثّل لأمّه مريم روح الرحمن بشرا سوياً، ليهب لها غلاماً زكياً، فعجبت وقالت: أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَ لَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَ لَمْ أَكُ بَعْثًا!، قال الرسول:

إن الله يريد أن يجعله آية للناس. فلمّا جاءها المخاض، قالت يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَ كُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا * فناداها مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا *...

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا . فحدّثهم عيسى في مهده، قال: إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ... إلى آخر ما قال (١). ومهما يكن من إنكار اليهود لهذا كله ومن نسبتهم عيسى إلى يوسف النجار نسبة ما يزال بعض العلماء أمثال: رينان يأخذون اليوم بها، فقد كانت عظمه عيسى ونبوته ورسالته دليل معجزه الله فيه وخرقه لنواميس الكون و سنن الطبيعه وقوانين الخلق من أجله. فمن عجب أن يدعو المسيحيون المبشّرون إلى الإيمان بهذا الخروج على سنّه الكون في أمر عيسى، وأن يأخذوا «محمّداً» بما هو دونه، وما لا يزيد على أنّه سموّ عن الخضوع لقانون المجتمع يُسمح به لكلّ عظيم، ويُسمح به للملوك ورؤساء الدول الذين تقدّسهم الدساتير وتجعل ذاتهم مصونه لا تمسّ.

ص: ٤٥٠

كان في مقدورنا أن نجبه هذه جميعا بهذا الرد، و كان فيه من غير شك - ما يسقط حججه المبشرين و من يتهجون نهجهم من المستشرقين. لكننا في هذا كنا نجنى على التاريخ و نجنى على عظمه «محمد» و جلال رسالته. فهو لم يكن كما صورته هؤلاء و أولئك رجلا يأخذ بعقله الهوى. و هو لم يتزوج من تزوج من نسائه بدافع من شهوه أو غرام. و إذا كان بعض الكتاب المسلمين في بعض العصور قد أباحوا لأنفسهم أن يقولوا هذا القول و أن يقدموا لخصوم الإسلام عن حسن نيه هذه الحجج، فذلك لأنهم انحدر بهم التقليد إلى الماديه، فأرادوا أن يصوروا «محمد» عظيمًا في كل شيء، عظيمًا حتى في شهوات الدنيا، و هذا تصور خاطئ ينكره تاريخ «محمد» أشد إنكار، و تأبى حياته كلها أن تقره. فهو قد تزوج من خديجه و هو في الثالثة و العشرين من عمره، و هو في شرخ الصبا و ريعان الفتوه و وسامه الطلعه و جمال القسمات و كمال الرجوليه. و مع ذلك ظلت خديجه و حدها زوجه ثمانيا و عشرين سنه حتى تخطى الخمسين. هذا على حين كان تعدد الزوجات أمرا شائعا بين العرب في ذلك الحين، و على حين كان ل «محمد» مندوحه في التزوج على خديجه أن لم يعيش له منها ذكر، في وقت كانت توأد فيه البنات، و كان الذكور و حدهم هم الذين يعتبرون خلفا. و قد ظل «محمد» مع خديجه سبع عشره سنه قبل بعثه و إحدى عشره سنه بعده، و هو لا يفكر قط في أن يشرك معها غيرها في فراشه. و لم يعرف عنه في حياه خديجه و لم يعرف عنه قبل زواجه منها أنه كان ممن تغريهم مفاتن النساء في وقت لم يكن فيه على النساء حجاب، بل كانت النساء تتبرج فيه و يبدين من زينتهن - ما حرّم الإسلام من بعد. فمن غير

الطبيعى أن تراه وقد تخطى الخمسين ينقلب فجأه هذا الانقلاب الذى يجعله ما يكاد يرى بنت جحش و عنده نساء خمس غيرها، من بينهن عائشه التى أحبّ و ظلّ يحب طوال حياته، حتّى يفتن بها و حتّى تأخذ تفكيره ليله و نهاره.

و من غير الطبيعى أن تراه و قد تخطى الخمسين يجمع فى خمس سنوات أكثر من سبع زوجات، و فى سبع سنوات تسع زوجات، و ذلك كلّه بدافع من الرغبة فى النساء رغبة صوّرها بعض كتّاب المسلمين و هذا الافرنج حذوهم تصويرا لا يليق فى ضعته برجل مادى، كله عظيم استطاعت رسالته أن تنقل العالم و أن تغتير مجرى التاريخ، و ما تزال على استعداد لأن تنقل العالم مرّه أخرى و تغتير مجرى التاريخ طورا جديدا.

و إذا كان هذا عجيبا و كان غير طبيعى، فمن العجيب كذلك أن نرى «محمّد» تلد له خديجه ما ولدت من بنيه و بناته إلى ما قبل الخمسين، و أن نرى ماريه تلد له إبراهيم و هو حوالى الستين، و ألا تلد غير هاتين من نساءه، و كلهنّ بين شابه فى مقتبل العمر لا يمنع مانع من ناحيتها و لا من ناحيته أن تحمل و أن تلد، و بين امرأه كملت لها أنوثتها فتخطت الثلاثين أو تخطت الأربعين و كان لها ولد من قبل. فكيف تفسّر هذه الظاهره العجيبه من ظاهرات حياه النبى، هذه الظاهره التى لا تخضع للقوانين الطبيعیه فى تسع نسوه جميعا! هذا و قد كانت نفس «محمّد» كإنسان تهفو من غير ريب إلى أن يكون له ولد، و إن كان مقام النبوه و الرساله قد جعله من الناحيه الروحيه أبا للمسلمين جميعا.

ثم إن التاريخ و منطق حوادثه أصدق شاهد يكذب روآيه المبشرين

والمستشرقين فى شأن تعدّد زواج النّبىّ. فهو - كما قدّمنا - لم يشرك مع خديجه أحدا مدى ثمان و عشرين سنه. فلّمّا قبضها الله إليه تزوّج سوده بنت زمعه أرملة السكران بن عمرو بن عبدشمس. و لم يرو راو أن سوده كانت من الجمال أو من الثروه أو من المكانه بما يجعل لمطمع من مطامع الدنيا أثرا فى زواجه منها. إنّما كانت سوده زوجا لرجل من السابقين إلى الإسلام الذين احتملوا فى سيّله الأذى و الذين هاجروا إلى الحبشه بعد أن أمرهم النّبىّ بالهجره عبر البحر إليها. و قد أسلمت سوده و هاجرت معه، و عانت من المشاق ما عانى و لقيت من الأذى ما لقى. فإذا تزوّجها «محيّد» بعد ذلك ليعولها و ليرتفع بمكانتها إلى أمومه المؤمنين، فذلك أمر يستحق من أجله أسمى التقدير و أجل الحمد.

أمّا عائشه و حفصه، فكانتا ابنتى وزيريه (1) أبى بكر و عمر. و هذا

ص: ٤٥٣

١- (١) مرّ فى هامش الصفحات ١٨٩ و ١٩٤ و ١٩٥ من أن وزيره الإمام علىّ بن أبى طالب عليه السلام، و لم يمنح لقب الوزاره فى صدر الإسلام لغير علىّ، و الوزاره تعنى الخلافه بعده و هى و زاره شبيهه بوزاره هارون من بعد موسى. من الثابت أن الوزير للنّبىّ هو الإمام علىّ بن أبى طالب بلا منازع، و بالإمكان مراجعه قول النّبىّ صلى الله عليه و آله لعلىّ: «أنت منى بمنزله هارون من موسى...» و الذى نقله نفس المؤلف فى الطبعة الأولى لكتابه و هو المسمّى بحديث الإنذار و الذى جاء فيه: «فأيكم يؤازرنى على أمرى هذا؟» فقال علىّ: «أنا يا رسول الله أكون وزيراك عليه...». و فى حديث آخر حين حدّث الإمام مرّه فقال له: «أنت أخى و وزيرى تقضى دينى و تنجز وعدى و تبرىء ذمّتى». و هذا الحديث أخرجه الطبرانى فى الكبير عن ابن عمر و نقله المتقى الهندى فى كتره و فى منتخبه فى هامش ص ٣٢ من الجزء الخامس و فى مجمع الزوائد: ١٢١/٩، و شرح نهج البلاغه لا بن أبى الحديد: ٢٢٨/١٣.

الاعتبار هو الذى دعا «محمدًا» أن يرتبط و إياهما برابطه المصاهرة بالتزوّج من ابنتيهما، كما دعاه أن يرتبط بعثمان (١)(٢) و بعلى برابطه المصاهرة بتزويجه ابنتيه منهما (٣). و لئن صحّ القول فى عائشه (٤) و فى حبّه إياها، فإنّما ذلك حب نشأ بعد الزواج لا حينه. فهو قد خطبها إلى أبيها و ما تزال فى التاسعه من عمرها، و هى بقيت سنتين قبل أن يا بنى بها. فليس ممّا يقبل العقل أو يرضاه المنطق أن يكون قد أحبها و هى فى هذه السن الصغيره (٥). يؤيد ذلك زواجه من حفصه بنت عمر فى غير حبّ بشهاده أبيها نفسه. قال عمر: «والله إن كُنّا فى الجاهليه ما نعدّ للنساء أمرًا حتّى أنزل الله فيهنّ ما أنزل و قسم لهنّ ما قسم.

فبينما أنا فى أمر أأتمره إذ قالت لى امرأتى: لو صنعت كذا و كذا! فقلت لها:

و ما لك أنت و لما هاهنا؟ و ما تكلفك فى أمر اريده؟ فقالت لى: عجباً لك يا بن

ص: ٤٥٤

١- (١) سبقت إشاره الى أسباب زواج الخليفه الثالث عثمان من بنات النبى صلى الله عليه و آله.

٢- (٢) صحيح البخارى: ٦٩/٦، و صحيح مسلم: ١٩٠/٤.

٣- (٣) مع ما بين تزويج أمّ كلثوم و رقيه بعثمان و بين تزويج الزهراء بعلى عليهما السلام بإذن الله تعالى بل بأمره من البون الشاسع و الفرق الواضح اللائح، و هيهات ما بين الأمرين، و إن كان بنو أمّيه لقبوا عثمان لذلك بذى النورين، و لم يلقّب على عليه السلام لذلك بذى النور. لم يتم إجماع أو دليل تاريخى على أن رقيه و أمّ كلثوم هما ابنتان للنبي بل كانتا ربيبتين فإنّهما بنتا أخت خديجه كما ورد فى بعض المصادر. راجع الصحيح من سيره النبى صلى الله عليه و آله، للسيد جعفر مرتضى العاملى.

٤- (٤) و هذا موضع ترديد، راجع: أمّ المؤمنين عائشه للعلامة السيد مرتضى العسكرى.

٥- (٥) بل هو لم يخطبها و عمرها ٧ سنين، و إنّما اقترحها عليه أبوها، فما رأى الرسول إلّا القبول، كما هو المعقول.

الخطاب! ما تريد أن تراجع أنت و إن ابنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم حتى يظل يومه غضبان. فأخذ ردائي ثم أخرج مكاني حتى أدخل على حفصه، فقلت لها: يا بنيه إنك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم حتى يظل يومه غضبان؟ فقالت حفصه: و الله إنا لنراجعه. فقلت: تعالين أنى أحذرك عقوبه الله و غضب رسوله. يا بنيه لا يغزئك هذه التي قد أعجبها حسننها و حب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم إياها. و الله لقد علمت أن رسول الله لا- يحبك و لو لا- أنا لطلقك»(١). أفرأيت إذا أن «محمدًا» لم يتزوج من عائشه و لم يتزوج من حفصه لحب أو لرغبه، و إنما تزوج منهما ليتمن أواصر هذه الجماعه الإسلاميه الناشئه في شخص وزيريه(٢) كما تزوج من سوده، ليعلم المجاهدون من المسلمين أنهم إذا استشهدوا في سبيل الله فلن يتركوا وراءهم نسوه و ذريه ضعافا يخافون عليهم عيله.

يقطع في ذلك زواجه من زينب بنت خزيمة و من أم سلمه. فقد كانت زينب زوجا لعبيده بن الحارث بن المطلب، الذي استشهد يوم بدر، و لم تكن ذات جمال، و إنما عرفت بطيبتها و إحسانها حتى لقبّت أم المساكين. و كانت قد تخطت الشباب، فلم تك إلأسنه أو سنتين ثم قبضها الله، فكانت بعد خديجه الوحيدة من أزواج النبي التي توفيت قبله. أمّا أم سلمه فكانت زوجا لأبي سلمه و كان لها منه أبناء عدّه. و قد سبق القول: إن أم سلمه جرح في أحد ثم برأ جرحه، فعقد له النبي لحرب بني أسد، فشتتهم و عاد إلى المدينه بما غنم ثم نغر عليه جرح أحد و مازال به حتى قضى عليه. و قد حضره النبي و هو

ص: ٤٥٥

١- (١) صحيح البخارى: ٦٩/٦.

٢- (٢) لا ذكر لوزارتيهما في حياه النبي صلى الله عليه و آله في أى مصدر تاريخى، و إنما استحدث هذا العنوان لهما بعد أن وليا الخلافه الى يومنا هذا.

على فراش موته و ظلّ إلى جانبه يدعو له بخير حتى مات فأسبل عينيه. و بعد أربعة أشهر من وفاته طلب «محمد» إلى أم سلمه يدها، فاعتذرت بكثرة العيال و بأنها تخطت الشباب، فما زال بها حتى تزوج منها و حتى أخذ نفسه بالعنايه بتنشئه أبنائها(١). أفيزعم المبشرون و المستشرقون بعد ذلك أن أم سلمه كانت ذات جمال هو الذى دعا «محمد» إلى التزوج منها؟ إن يكن ذلك فقد كانت غيرها من بنات المهاجرين و الأنصار من تفوقها جمالا و شبابا و ثروه و نضره و من لا يبهظه عبء عيالها. لكنّه إنّما تزوج منها لهذا الاعتبار السامى الذى دعا ليتزوج زينب بنت خزيمة، و الذى زاد المسلمين به تعلقا و جعلهم يرون فيه نبي الله و رسوله، و يرون فيه إلى جانب ذلك أبا لهم جميعا؛ أبا لكل مسكين و محروم و ضعيف و بائس و عاجز؛ أبا لكل من فقد أباه شهيدا فى سبيل الله.

ما ذا يستنبط التمحيص التاريخى التزيه ممّا تقدّم؟ يستنبط أن «محمد» نصح بالزوجه الواحده فى الحياه العاديه. هو قد دعا إلى ذلك بمثله الذى ضربه فى حياه خديجه، و به نزل القرآن فى قوله تعالى: فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَ ثُلَاثَ وَ رُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ۚ وَ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَ لَوْ حَرَصْتُمْ ۚ ۳. ولقد نزلت هذه الآيات فى أخريات السنه الثامنه للهجره بعد أن كان قد بنى بأزواجه جميعاً، و نزلت لتحدد عدد الزوجات

ص: ٤٥٦

بأربع وقد كان إلى حين نزولها لا حدّ له (١)، ممّا يسقط قول القائلين: إنّ «محمّداً» أباح لنفسه ما حرّم على الناس. ثمّ نزلت للتشديد بفضل الزوجه الواحده وتأمّر بها لمجرد الخوف من عدم العدل، ومع التأكيد بأنّ العدل غير مستطاع (٢). على أنّه رأى في ظروف حياه الجماعه الاستثنائيه إمكان الحاجه للتعدد إلى أربع على شرط العدل. وهو قد دعا إلى ذلك بمثله الذي ضرب أيام غزوات المسلمين واستشهاد من استشهد منهم. ولعمرك هل تستطيع أن تقطع بأنّ الاقتصار على الزوجه الواحده حين تحصّد الحروب أو الأوبئه أو الثورات ألوف الرجال وملايينها، خير من هذا التعدد الذي أبيض على طريق الاستثناء؟ وهل يمكن لأهل أوروبا في هذا العصر الذي عقب الحرب الكبرى أن يقولوا بأنّ نظام الزوجه الواحده نظام نافذ بالفعل، إن استطاعوا أن يقولوا إنّ نافذ بالقانون؟ أو لا يعود سبب الاضطراب الاقتصادي والاجتماعي الذي عقب الحرب إلى عدم التعاون المشروع بين الجنسين بالزواج تعاوناً قد كان من شأنه أن يعيد إلى الحال الاقتصاديه شيئاً غير قليل من التوازن؟ إنني لا أريد أن أقطع بالحكم. لكنني أترك الأمر لتفكير المفكّر وتدبّر المتدبّر، مع القول دائماً بأنّه متى عادت الحياه العاديه فخير ما يكفل سعادته الأسره وسعادته الأئمه اقتصار الرجل على زوجه واحد.

ص: ٤٥٧

١- (١) التفسير الكبير للرازي: ١٧٤/٩-١٧٥، ومجمع البيان: ١٤/٣.

٢- (٢) قد يرى البعض غموضاً والتباساً حين يريد الجمع بين قوله تعالى في الآيه (٣) من سوره النساء المذكوره في المتن وبين قوله تعالى في الآيه (١٢٩) في السوره نفسها. وينكشف الغموض ويرتفع الالتباس إذا علمنا أنّ للعدل معنيين في هذا المجال عدل غير مستطاع وهو العدل في الحبّ والهوى الذي تحدّثت عنه الآيه الثانيه وعدل مستطاع وهو العدل في الإنفاق وليالي المتاع وهو عدل عملي لا قلبي حين تتعدد الأزواج وهذا الذي تحدّثت عنه الآيه الأولى وبهذا التفريق بين العدلين يرتفع الغموض الذي اكتنف الآيتين.

أما قصه زينب بنت جحش، و ما أضفى بعض الرواه و أضفى المستشرقون و المبشرون عليها من أستار الخيال حتى جعلوها قصه غرام و وله، فالتاريخ الصحيح يحكم بأنها من مفاخر «محمد»، و أنه، و هو المثل الكامل للإيمان، قد طُبِقَ فيها حديثه الذى معناه: لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه (١)، و قد جعل نفسه أول من يضرب المثل لما يضع من تشريع يمحو به تقاليد الجاهليه و عاداتها، و يقرّ به النظام الجديد الذى أنزل الله هدى و رحمه للعالمين. و يكفى لهدم كل القصه التى قرأت عنها من أساسها، أن تعلم أن زينب بنت جحش هذه هى ابنه أميمه بنت عبدالمطلب عمه رسول الله عليه السلام، و أنها ربيت بعينه و عنايته، و أنها كانت لذلك منه بمقام البنت أو الأخت الصغرى، و أنه كان يعرفها و يعرف أهى ذات مفانن أم لا قبل أن تتزوج زيدا، و أنه شهدها فى نموّها تحبو من الطفوله إلى الصّبا إلى الشباب، و أنه هو الذى خطبها على زيد مولاه (٢). إذا عرفت ذلك تداعت أمام نظرك كل تلك الخيالات و الأقاصيص، من أنه مرّ بيت زيد و لم يكن فيه، فأرى زينب فبهره حسنها و قال: سبحان مقلب القلوب؛ أو أنه لَمّا فتح باب زيد عبث الهواء بالستار الذى على غرفه زينب، فألفاها فى قميصها ممدده و كأنها «مدام ركاميه»، فانقلب قلبه فجأه، و نسى سوده و عائشه و حفصه و زينب بنت خزيمه و أم سلمه، و نسى كذلك ذكر خديجه التى كانت عائشه تقول: إنّها لم تجد فى نفسها غيره من أحد من نساء النبيّ ما وجدت

ص: ٤٥٨

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد: ١٥/١٨، صحيح مسلم: ٤٩/١.

٢- (٢) الإصابه: ٣١٣/٤، و مجمع البيان: ١٦٠/٨-١٦١.

من ذكره خديجه(١). و لو أن شيئا من حبها علق بقلبه لخطبها إلى أهلها على نفسه، بدل أن يخطبها على زيد. و هذه الصلة بين زينب و «محمّد» و هذا التصوير الذى صوّرناها به لا يدعان بعدهما لتلك القصة الخياليه التى يروون أى أساس أو أى حق من البقاء.

و ما ذا يثبت التاريخ أيضا؟ يثبت أن «محمّد» خطب ابنه عمته زينب على مولاه زيد، فأبى أخوها عبد الله بن جحش أن تكون قرشيه هاشميه، و هى فوق ذلك ابنه عمه الرسول، و أن تكون تحت عبد رق اشتريته خديجه ثم أعتقه «محمّد»؛ و رأى فى ذلك على زينب عارا كبيرا(٢). و كان ذلك عارا حقًا عند العرب كبيرا. فلم تكن بنات الأشراف الشريفات ليتزوجن من موال و إن اعتقوا. لكن «محمّد» يريد أن تزول مثل هذه الاعتبارات القائمه فى النفوس على العصبية و حدها، و أن يدرك الناس جميعا أن: لا- فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى. إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ٣ و هو لا يرى أن يستكره لذلك امرأه من غير أهله. فلتكن زينب بنت جحش بنت عمته هى التى تحتل هذا الخروج على تقاليد العرب، و هذا الهدم لعاداتها، مضحيه فى ذلك بما يقول الناس عنها ممّا تخشى سماعه. و ليكن زيد مولاه الذى تبنى و الذى أصبح بحكم عادات العرب و تقاليدها صاحب حق فى أن يرثه كسائر أبنائه سواء، هو الذى يتزوجها، فيكون مستعدًا للتضحية التى أعدّ الشارع الحكيم للأدعياء الذين اتّخذوا أبناء. و ليبد «محمّد» إصراره على أن تقبل زينب، و أن

ص: ٤٥٩

١- (١) صحيح البخارى: ٢٣٠/٤.

٢- (٢) تفسير زاد المسير: ٣٨٥/٦، و تفسير مجمع البيان: ١٦١/٨.

يقبل أخوها عبد الله بن جحش زيدا زوجها لها. و لينزل (١) في ذلك قوله تعالى: وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ٢.

لم يبق أمام عبد الله و أخته زينب بعد نزول هذه الآية إلّا الاذعان، فقالا:

رضينا يا رسول الله. و زوجت زينب من زيد، و سائق النبي إليها عنه مهرها.

فلما سارت زينب إلى زوجها لم يسلس له قيادها و لا لان إباؤها، بل جعلت تؤذى زيدا و تفخر عليه بنسبها و بأنها لم يجر عليها رق. و اشتكى زيد إلى النبي غير مره من سوء معاملتها إياه و استأذنه غير مره في تطليقها (٢)، فكان النبي يجيبه: أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَ اتَّقِ اللَّهَ ٤. لكن زيد لم يطق معاشره زينب و إباها عليه طويلا فطلقها (٣).

و كان الشارع الحكيم قد أراد أن يبطل ما كانت تدين به العرب من التصاق الأدياء بالبيوت و اتصاليهم بأنسابها، و من إعطاء الدعي جميع حقوق الابن، و من إجرائهم عليه أحكامه حتى في الميراث و حرمة النسب، و ألا تجعل للمتبنّي و اللصيق إلّا حق المولى و الأخ في الدين، فنزل (٤) قوله تعالى:

وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ٧. و معنى هذا أنه يجوز للمدعي أن يتزوج ممن كانت زوجها لمن ادعاه. و يجوز للمتبنّي أن يتزوج ممن كانت زوجها لمتبناه. و لكن كيف

ص: ٤٦٠

١- (١) التفسير الكبير للرازي: ٢١١/٢٥، تفسير مجمع البيان: ١٦٠/٨.

٢- (٣) تفسير زاد المسير: ٣٩٠/٦.

٣- (٥) تفسير زاد المسير: ٣٨٧/٦، تفسير مجمع البيان: ١٦٢/٨.

٤- (٦) تفسير الطبري: ٢٥٥/١٠-٢٥٦، تفسير مجمع البيان: ١١٩/٨.

السبيل إلى تنفيذ هذا؟ و من من العرب يستطيعه و ينقض به تقاليد الأجيال السالفه جميعاً؟ إن «محمداً» نفسه على قوه عزيمته و عميق إدراكه لحكمه الله في أمره، قد وجد على نفسه الغضاضه في تنفيذ هذا الحكم، بأن «يتزوج زينب بعد تطليق زيد إياها، و دار بخاطره ما يمكن أن يقول الناس في خرقه هذه العاده القديمه المتأصله في نفوس العرب؛ و ذلك ما يريده تعالى في قوله (١): وَ تُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ٢ . لكن «محمداً» كان القدوه في كل ما أمر الله به و ما ألقى عليه أن يبلغ رسالته؛ فليخش ما يقول الناس في تزوجه من زوج زيد مولاه، فذلك لا شيء إلى جانب خشيه الله بتنفيذ أمره. وليتزوج من زينب ليكون قدوه فيما أبطل الشارع الحكيم من الحقوق المقرره للتبني والادعاء. وفي ذلك نزل قوله تعالى: فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ٣ .

هذه روايه التاريخ الصحيح في أمر زينب بنت جحش و زواج «محمداً» منها. فهي ابنه عمته، و كان يراها و يعرف مبلغ جمالها قبل أن تتزوج زيدا.

وهو الذي خطبها على زيد. وهو كان يراها بعد أن تزوجت زيدا أن لم يكن الحجاب معروفاً يومئذ، على أنه كان من شأنها، بحكم صله القرابه من ناحيه و أنها زوج دعيه زيد من ناحيه أخرى، أن تتصل به لمصالحها و لتكرار شكوى زيد منها. وقد نزلت هذه الأحكام جميعاً فأيدها ما حصل من زواج زيد لزينب و تطليقه إياها و زواج «محمداً» منها بعد ذلك. هذه الأحكام التي ترفع المُعتق إلى مكانه الحر الشريف، والتي تُبطل حقوق الأدياء و تقضى

ص: ٤٤١

عليها بصورة عملية لا محل للبس ولا لتأويل بعدها. أفريقي بعد ذلك أثر لهذه الأقايص التي يكررها المستشرقون والمبشرون ويرددها موير وإرفنج وسبرنجر وفيل ودرمنجم ولامنس وغيرهم ممن تناولوا كتابه حياه «محمد»! لكنّها شهوه التبشير المكشوف تاره، والتبشير باسم العلم أُخرى، والخصومه القديمه للإسلام خصومه تأصّلت في النفوس منذ الحروب الصليبيه هي التي تُملئ على هؤلاء جميعاً ما يكتبون، وتجعلهم في أمر أزواج النبيّ، وفي أمر زواجه من زينب بنت جحش، يتجنّون على التاريخ ويلتمسون أضعف الروايه فيه، ممّا دسّ عليه ونسب إليه.

ولو أنّ ما ذكروا كان صحيحاً، لكان في مقدورنا أن نجبهه بأنّ العظمه لا تخضع لقانون، وبأنّ موسى وعيسى ويونس من قبل قد سمّوا في مولد بعضهم وفي حياه بعض فوق نواميس الطبيعه وسنن الاجتماع، فلم يطعن ذلك في عظمتهم. لكنّ «محمد» كان يضع سنن الاجتماع الصالحه بوحى ربّه وكان ينقّذها بأمر ربّه، وكان بذلك المثل الأسمى والأسوه الحسنه في تنفيذ ما أمر ربّه. أفكان أولئك المبشرون يريدونه على أن يُطلّق أزواجه فلا يزيد على الأربع كما شرّع للمسلمين من بعد زواجه إياهنّ جميعاً؟ وهل كانوا يومئذ يعفونه من نقدهم؟! على أنّ معامله «محمد» لأزواجه معامله بلغت من السموّ ما رأيت شيئاً منه في حديث عمر بن الخطاب الذي سقنا(1) وفيما سنذكر خلال فصول هذا الكتاب، ستكون المثل الناطق على أنّه لم يحترم المرأه أحد ما احترامها «محمد»، ولم يسّم بها إلى المكان اللائق ما سما بها «محمد».

ص: ٤٤٢

١- (١) راجع الهامش رقم (٢) في الصفحه (٤٥٦) من هذا الفصل.

الفصل الثامن عشر: غزوات الخندق وبنى قريظة

حُيِّ بن أخطب و تأليه العرب جميعاً على المسلمين، عشره آلاف مقاتل يقصدون المدينة، سلمان الفارسي يشير بحفر الخندق حولها، حصار قريش و غطفان إياها، نقض بنى قريظة عهدهم مع المسلمين، ضياع الثقة بين العرب واليهود، انسحاب العرب عن المدينة، محاصره بنى قريظة والقضاء عليهم بالقتل.

آن للمسلمين بعد إجلائهم بنى النضير عن المدينة، وبعد بدر الآخره وبعد غزوتى غطفان ودومه الجندل، أن يركنوا إلى شىء من الطمأنينه إلى الحياه بالمدينه. وذهبوا ينظّمون عيشهم، وكان من بعد أقل شظفأ بما غنموا فى غزواتهم هذه، وإن كانت قد صرفتهم فى كثير عن الزرع والتجاره. وكان «محمّد» على طمأنينته حذرأ دائماً غدره العدو، باثأ دائماً عيوننه وأرصاده فى أنحاء شبه الجزيره ينقلون إليه من أخبار العرب وما يأترون به، ما يمهد له دائماً فرصه الأهبه للدفاع المسلمين عن أنفسهم، ويسير عليك أن تقدّر ضروره الحذر والحيظه بعد كلّ الذى رأيت من غدرات قريش وغير قريش بالمسلمين، ومن أنّ بلاد العرب كلّها كانت فى ذلك الحين، وكانت من بعد

ذلك في أكثر ظروف تاريخها الخاص؛ أشبه بمجموعه جمهوريات، مستقلة كل واحد منها عن سائرهما، تتخذ كل واحد منها نظاماً هو إلى نظام القبائل أقرب، مضطّره لذلك إلى الاحتماء بعادات وتقاليد لا يألفها تصوّرنا في الأمم المنظّمة. وكان «محمّد» أشدّ ما يكون حذراً أن كان عربياً يقدر ما ركب في الغريزة العربيّة من الحرص على الثأر، وأن كانت قريش وكان يهود بني قينقاع ويهود بني النضير وعرب غطفان وهذيل والقبائل المتاخمة للشام تتربّص كل واحد منها ب «محمّد» وبأصحابه الدوائر، وتود كل واحد منها لو تستطيع أن تجد الفرصة لإدراك ثأرها من هذا الرجل الذي فرّق العرب في دينها شيعاً، والذي خرج من مكّة مهاجراً لا حول له ولا قوه إلّما يملأ نفسه الكبيره من الإيمان، وهاهو ذا في خمس سنوات قد أصبح له من الحول ومن القوه ما جعله مرهوب الجانب من أشدّ مدائن بلاد العرب، ومن أشدّ قبائلها حولاً وقوه.

ولقد كان اليهود أبصر خصوم «محمّد» بتعاليمه وبمصير دعوته، وكانوا أكثرهم تقديراً لما يصيبهم بانتصاره. فهم كانوا في بلاد العرب دعاه التوحيد، وكانوا ينافسون المسيحيين سلطانهم ويأملون مغالبتهم والتغلب عليهم. ولعلّهم كانوا على حقّ أن كانت النفس الساميه أميل بطبعها إلى فكره التوحيد، وأن كان التثليث المسيحي ممّا لا يسهل على هذه النفس الساميه مساعه. وهذا «محمّد» من صميم العرب و من صميم الساميين يدعو إلى التوحيد بعبارات قويه حاره تأخذ بما جمع الفؤاد، و تصل إلى أعماق القلب، و تسمو بالإنسان إلى ما فوق نفسه. وهذا هو قد بلغ من القوه حتّى أخرج

بنى قينقاع من المدينة و حتىّ أجلى بنى النضير عن ديارهم. فهل يتركونه و شأنه منصرفين إلى الشام و إلى و طنهم الأوّل بيت المقدس فى أرض الميعاد، أم تراهم يحاولون تأليب العرب عليه ليأخذوا بالثأر منه؟!

كانت فكره تأليب العرب هى الفكره التى اختمرت فى نفوس أكابر بنى النضير. و تنفيذها له خرج نفر منهم من بينهم حييّ بن أخطب و سلّام بن أبى الحقيق و كنانه بن أبى الحقيق و معهم من بنى وائل هوذاه بن قيس و أبوعمّار، حتىّ قدموا على قريش مكّه. فسأل أهلها حييّا عن قومه فقال: تركتهم بين خيبر و المدينة يترددون حتىّ تأتوهم فتسيروا معهم إلى «محمّد» و أصحابه، و سألوه عن قريظه فقال: أقاموا بالمدينة مكراب «محمّد» حتىّ تأتوهم فيميلوا معكم. و ترددت قريش أن تقدم أم تحجم؛ فليس بينها و بين «محمّد» خلاف إلّا على الدعوه التى يدعو إلى الله. أفليس من الممكن أن يكون على حقّ و هاهو ذا تزداد كلمته كلّ يوم رفعة و سموّا! و قالت قريش لليهود: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأوّل و أصحاب العلم ممّا أصبحنا نختلف فيه نحن و «محمّد»، أفديننا خير أم دينه؟ قالت اليهود: بل دينكم خير من دينه، و أنتم أولى بالحقّ منه (1)، و إلى ذلك يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَ يَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيْلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَ مَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ نَجِدَ لَهُ نَصِيْرًا ٢٠ .

وفى موقف اليهود هذا من قريش و تفضيلهم و تثبتهم على توحيد «محمّد»،

ص: ٤٤٥

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٢/٢١٤، و المغازى للواقدي: ١/٤٤١-٤٤٢، و إمتاع الأسماع: ١/٢٢٢-٢٢٣، و مجمع البيان: ٨/١٢٥، و بحار الأنوار: ٢٠/١٩٧ و ٢٥٠-٢٥١.

يقول الدكتور إسرائيل ولفنسون في كتابه (تاريخ اليهود في بلاد العرب):

«كان من واجب هؤلاء اليهود ألا يتورطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش، وألا يصرّحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامى ولو أدى بهم الأمر إلى عدم إجابته مطلبهم، لأنّ بنى اسرائيل الذين كانوا مدّه قرون حاملى رايه التوحيد فى العالم بين الأمم الوثنيه باسم الآباء الأقدمين.

والذين نكبوا بنكبات لا- تحصى من تقتيل واضطهاد بسبب إيمانهم بإله واحد فى عصور شتى من الأدوار التاريخيه، كان من واجبههم أن يضخّوا بحياتهم وكلّ عزيز لديهم فى سبيل أن يخذلوا المشركين. هذا فضلاً عن أنّهم بالتجائهم إلى عبده الأصنام إنّما كانوا يحاربون أنفسهم، ويناقضون تعاليم التوراه التى توصيهم بالنفور من أصحاب الأصنام والوقوف معهم موقف الخصومه».

لم يكف حُيَيّ بن أخطب واليهود الذين معه هذا الذى قالوا لقريش فى تفضيل وثنيتهما على توحيد «محمّد»، حتّى تنشط لمحاربهته، وأن يأخذوا وإيّاهم لذلك بعد أشهر موعداً؛ بل خرج أولئك اليهود إلى غطفان من قيس بن عيلان ومن بنى مُرّه ومن بنى فزاره ومن أشجع ومن سُليم ومن بنى سعد ومن أسد ومن كلّ من لهم عند المسلمين ثأر، وما زالوا بهم يحرضونهم على الأخذ بثأرهم ويذكرون لهم متابعه قريش إيّاهم على حرب «محمّد»، ويحمدون لهم وثنيتهم ويعدّونهم النصر لا محاله (1).

وخرجت الأحزاب التى جمع

ص: ٤٤٤

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٢/٢١٥، والمغازى للواقدي: ١/٤٤٢-٤٤٣، والسيره الحلبيه: ٢/٣١٠، وتفسير مجمع البيان: ٨/١٢٥، والإرشاد للمفيد: ١/٩٥، وبحار الأنوار: ٢٠/١٩٧.

اليهود لحرب «محمد» وأصحابه. خرجت قريش وعلى رأسها أبوسفيان في أربعة آلاف مُجَنَّد وثلاثمئة جواد وخمسمئة وألف ممتط بعيره. وعقد اللواء في دار الندوة لعُثمان بن طلحة الذي قُتل أبوه وهو يحمل لواء قريش في أحد. وخرجت بنوفزاره وعلى رأسها عُيينة بن حصن بن حُذيفة في رجال كثير وألف بعير. أمّا أشجع ومّره فجاء كلّ منهم في أربعمئة محارب يتزعم الحارث بن عوف مّره. ويتزعم مسدّ بن زُخيلة أشجع، وجاءت سُليم أصحاب بئر معونه في سبعمئة رجل، واجتمع هؤلاء وانحاز إليهم بنوسعد وأسد، فصاروا في عشرة آلاف رجل أو نحوها، وساروا جميعاً تحت إمرة أبي سفيان قاصدين المدينة. فلما بلغوها تداول زعماء هاته القبائل الزعامه أثناء الحرب كلّ واحد منهم يوماً على التوالي (١).

واتصل نبأ هذا السير ب «محمد» والمسلمين معه في المدينة ففرعوا.

هاهى ذى العرب كلّها قد أجمعت أمرها لتسحقنهم ولتقضين عليهم ولتستأصلنهم، وهاهى ذى قد جاءت فى عدّه وعديد ما لها فى حروب العرب جميعاً من قبل مثل. وإذا كانت قريش قد انتصرت فى أحد عليهم لمّا خرجوا من المدينة وكانت أقل من هاته الأحزاب عدداً أضعافاً، فماذا عسى أن يصنع المسلمون لمقابله الألوّف المؤلّفه من رجال وخيل وإبل وأسلحه وذخيرته؟! لم يكن إلى غير التحصّن بيثرب العذراء، على ما وصفها عبدالله ابن أبى سبيل. لكن! أفيكفى هذا التحصّن أمام تلك القوه الساحقه؟ وكان

ص: ٤٤٧

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٢/٢١٥ و ٢١٩-٢١٠، والمغازى للواقدي: ١/٤٤٢-٤٤٣، وإمتاع الأسماع: ١/٢٢٣-٢٢٤، والإرشاد: ١/٩٥، وبحار الأنوار: ٢٠/١٩٧.

سلمان الفارسي يعرف من أساليب الحرب ما لم يكن معروفاً في بلاد العرب.

فأشار بحفر الخندق حول المدينة وتحصين داخلها. وسارع المسلمون إلى تنفيذ نصيحته فحفر الخندق وعمل فيه النبي عليه السلام بيديه. فكان يرفع التراب ويشجع المسلمين بذلك أعظم التشجيع، ويدعوهم إلى مضاعفه الجهد. وأخذ المسلمون آلات الحفر من مساح وكرازين ومكاتل من بني قريظة اليهود الذين بقوا على ولائهم. وبهذا الدأب والجهد المتصل تم حفر الخندق في ستة أيام (1). وفي هذه الأثناء كذلك حصّنت جدران المنازل التي تواجه مآتى العدو، والتي يفصل الخندق بينه وبينها بنحو فرسخين. وعند ذلك أُخليت المساكن التي ظلت خارج الخندق وجرى بالنساء والأطفال في هذه المنازل التي حصّنت، ووضعت الأحجار إلى جانب الخندق من ناحيه المدينة لتكون سلاحاً يرمى به عند الحاجة إليه (2).

وأقبلت قريش وأحزابها، وهي ترجو أن تلقى «محمّداً» بأحد فلم تجد عنده أحداً. فجاوزته إلى المدينة حتى فاجأها الخندق، فعجبت أن لم تكن تتوقع هذا النوع من الدفاع المجهول منها، وبلغ منها الغيظ حتى زعمت الاحتماء وراءه جنباً لا عهد للعرب به (3). وعسكرت قريش ومن تابعها بمجتمع الأسيال من رومه وعسكرت غطفان ومن تبعها من أهل نجد بذنب

ص: ٤٤٨

١- (١) المغازى للواقدي: ٤٤٤-٤٤٤/١ و ٤٥٤، وإمتاع الأسماع: ٢٢٥-٢٢٦، والسيره الحلييه: ٣١١/٢، وتفسير مجمع البيان: ١٢٦/٨، وبحار الأنوار: ١٩٨/٢٠.

٢- (٢) المغازى للواقدي: ٤٥١/١، وتاريخ الطبري: ٩٣/٢، والسيره الحلييه: ٣١٤/٢، وتفسير مجمع البيان: ١٢٩/٨، بحار الأنوار: ٢٠٠/٢٠.

٣- (٣) المغازى للواقدي: ٤٧٠/١، والسيره النبويه لابن هشام: ٢٢٤/٢، والسيره الحلييه: ٣١٥/٢، و مناقب آل أبي طالب: ١٧١/١، وبحار الأنوار: ٢٠٢/٢٠.

نَقَمَى (١). أما «محمد» فخرج في ثلاثه آلاف من المسلمين فجعل ظهره إلى جبل سَلْع وجعل الخندق بينه وبين أعدائه. وهناك ضرب عسكره ونصبت له خيمته الحمراء (٢). ورأت قريش والعرب معها أن لا سبيل إلى اجتياز الخندق فاكتفت بتبادل الترامى بالنبال عدة أيام متتابعه (٣).

وأيقن أبوسفیان والذين معه أنهم مقيمون أمام يثرب وخندقها طويلاً دون أن يستطيعوا اقتحامها، وكان الوقت آنثذ شتاءً قارساً برده، عاصفه رياحه، يخشى فى كلّ وقت مطره. وإذا كان يسيراً أن يحتمى أهل مكّه وأهل غطفان من ذلك كلّ بمنازلهم فى مكّه وفى غطفان، فالخيام التى ضربوا أمام يثرب لا تحميهم منه فتيلاً. وهم بعد قد جاءوا يرتجون نصراً ميسوراً لا يكلفهم غير يوم كيوم أحد، ثمّ يعودون أدراجهم يتغنون بأناشيد الفوز ويستمتعون باقتسام الغنائم والأسلاب. وماذا عسى أن يمسك غطفان عن أن تعود أدراجها وهى إنّما اشتركت فى هذه الحرب، لأنّ اليهود وعدّتها متى تمّ النصر ثمار سنه كامله من ثمار مزارع خيبر وحدائقها (٤). وهاهى ذى ترى النصر غير ميسور، أو هو على الأقل غير محقق؛ وهو يحتاج من المشقه فى هذا الفصل القارس إلى ما ينسبها الثمار والحدائق. فأما انتقام قريش لنفسها من بدر ومما لحقها بعد بدر من هزائم فأمره مُدرك على الأيام مادام هذا

ص: ٤٦٩

-
- ١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٢١٩/٢-٢٢٠، والمغازى للواقدي: ٤٤٤/١، والسيره الحلبيه: ٣١٦/٢.
 - ٢- (٢) سيره ابن هشام: ٢١٩/٢-٢٢٠، والمغازى للواقدي: ٤٥٣/١ و ٤٥٤، وإمتاع الأسماع: ٢٢٥/١، وتفسير مجمع البيان: ١٢٩/٨، بحار الأنوار: ٢٠٠/٢.
 - ٣- (٣) المغازى للواقدي: ٤٦٨/١، وإمتاع الأسماع: ٢٣٤/١، وعيون الأثر: ٩٠/٢، وتفسير مجمع البيان: ١٢٩/٨، وبحار الأنوار: ٢٠٠/٢٠.
 - ٤- (٤) مغازى الواقدي: ٤٤٣/١، والسيره الحلبيه: ٣١٠/٢.

الخذق يحول دون إمساك «محمّد» بالتلابيب، ومادامت بنوقريظه تمسّد أهل يثرب بالمؤونه مدداً يطيل أمد مقاومتهم شهوراً وشهوراً. أفليس خيراً للأحزاب أن يعودوا أدراجهم؟! نعم!.. لكنّ جمع هؤلاء الأحزاب لحرب «محمّد» مرّه أخرى ليس بالأمر الميسور. وقد استطاع اليهود وحَيّ بن أخطب على رأسهم أن يجمعوها هذه المره للانتقام لأنفسهم من «محمّد» وأصحابه عمّا أوقع بهم وبينى قينقاع من قبلهم، فإن أفلتت الفرصه فهيئات هيئات أن تعود. وإن انتصر «محمّد» بانسحاب الأحزاب فالويل ثمّ الويل لليهود.

قدّر حَيّ بن أخطب هذا كلّه وخاف مغبته ورأى أن لا-مفرّ من أن يقامر بآخر سهم عنده، فأوحى إلى الأحزاب أنّه مقنع بنى قريظه بنقض عهد موادعتهم «محمّداً»، والمسلمين وبالانضمام إليهم، وأنّ قريظه متى فعلت انقطع المدد والميره عن «محمّد» من ناحيه، وفتح الطريق لدخول يثرب من الناحيه الأخرى، وسيرت قريش وغطفان بما ذكر حَيّ. وسارع هو فذهب يريد كعب بن أسد صاحب عقد بنى قريظه. وقد أغلق كعب دونه باب حصنه لأوّل ما عرف مقدمه عليه، مقدراً أن غدر قريظه ب «محمّد» ونقضها عهده وانضمامها إلى عدوّه قد يفيدها ويُفيد اليهود إذا دارت الدوائر بالهزيمه على المسلمين، لكنّه جدير بأن يحوها محوّاً إذا هزمت الأحزاب وانصرفت قوّاتها عن المدينه. لكنّ حَيّاً ما زال به حتّى فتح له باب الحصن، ثمّ قال له:

«ويحك يا كعب! جئتك بعز الدهر وبيحر طام. جئتك بقريش وبغطفان مع قادتها وسادتها، وقد عاهدوني وعاهدوني على اللّايبرحوا حتّى نستأصل «محمّداً» ومن معه. وتردّد كعب وذكر وفاء «محمّد» وصدقه لعهدّه، وخشى

مغبه ما يدعوه حَيِّىَ إليه. لكنَّ حَيِّياً مازال به يذكر له ما أصاب اليهود من «محمّد»، وما يوشك أن يصيبهم منه إذا لم تنجح الأحزاب فى القضاء عليه، ويصف له قوّه الأحزاب وعدّتها وعددها، وأنّها لم يمنعها غير الخندق من أن تقضى فى سويعه على المسلمين جميعاً، حتّى لا ين كعب له، فسأله: وماذا يكون إذا ارتدّت الأحزاب؟ هناك أعطاه حَيِّىَ موثقاً إن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا «محمّداً» أن يدخل معه فى حصنه فيشاركه حظه.

وتحرّكت فى نفس كعب يهوديته فقبل ما طلب حَيِّىَ، ونقض عهده مع «محمّد» والمسلمين وخرج من حيّاده(1).

واتصل نبأ انضمام قريظه إلى الأحزاب ب «محمّد» وأصحابه فاهتزوا له وخافوا مغبته. وبعث «محمّد» سعد بن معاذ سيّد الأوس وسعد بن عباده سيّد الخزرج، ومعهما عبد الله بن رواحه وخوات بن جبير ليقفوا على جليبه الأمر، على أن يخلوا به عند عودتهم إن كان حقّاً حتّى لا يفتّوا فى أعضاء الناس. فلمّا أتى هؤلاء الرسل ألفوا قريظه على أخبث ما بلغهم عنهم. فلمّا حاولوا ردّهم إلى عهدهم طلب سعد إليهم أن يردّوا إخوانهم يهود بنى النضير إلى ديارهم.

وأراد سعد بن معاذ، وكان حليفه قريظه، أن يُقنعها مخافه أن يحلّ بها ما حلّ ببني النضير أو ما هو شرّ منه، فانطلقت اليهود ووقعوا فى «محمّد» عليه السلام، وقال كعب: من رسول الله! لا عهد بيننا وبين «محمّد» ولا عقد. وكاد الفريقان يتشاتمان.

رجع رسل «محمّد» إليه بما رأوا(2). هنالك عظم البلاء واشتد الخوف

ص: ٤٧١

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٢٢٠/٢-٢٢١، المغازى للواقدي: ٤٥٥/١-٤٥٦، وإمتاع الأسماع: ٢٣١/١، وتفسير القمى: ١٧٩/٢، وتفسير مجمع البيان: ١٢٩/٨، وبحار الأنوار: ٢٠٠/٢٠-٢٠١.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٢٢١/٢-٢٢٢، والمغازى للواقدي: ٤٥٧/١-٤٥٩، وإمتاع الأسماع: ٢٣٢/١، وتفسير مجمع البيان: ١٣٠/٨، وبحار الأنوار: ٢٠١/٢٠.

ورأى أهل المدينة طريق قريظه وقد فتح للأحزاب فدخلوا عليهم واستأصلوهم. ولم يكن ذلك محض خيال ووهم؛ فهم قد رأوا قريظه تقطع المدد والميره عنهم. ورأوا قريشاً وغطفان منذ عاد حُيَيِّ بن أخطب ينبئهم بانضمام قريظه إليهم، قد تغيرت نفسيتهم وأخطوا يعدون أنفسهم للقتال.

وذلك أن قريظه استمهلت الأحزاب عشره أيام تعدّ فيها عدتها على أن تقاتل الأحزاب المسلمين في هذه الأيام العشره أشدّ القتال. وذلك ما فعلوا. فقد ألقوا ثلاث كتائب لمحاربه النبي. فأنت كتبه ابن الأعرور السلمي من فوق الوادي.

وأنت كتبه عيينه بن حصن من الجنب ونصب له أبوسفيان من قبل الخندق.

وفي هذا الموقف نزلت (١) هذه الآيات من سوره الأحزاب: إِذْ جَاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا * وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا .

ولأهل يثرب أبلغ العذر إن هم بلغ منهم الفزع وزلزلت قلوبهم، ولمن قال منهم العذر، في أن يقول: كان «محمد» يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط (٢). وللذين

ص: ٤٧٢

١- (١) تفسير مجمع البيان: ١٢٤/٨، وتفسير الطبري: ٢٦٥/١٠.

٢- (٢) المغازي للواقدي: ٤٥٩/١-٤٦٠، وتفسير الطبري: ٢٦٦/١٠.

زاغت أبصارهم العذر في أن تزيع، وللذين بلغت قلوبهم الحناجر العذر في أن تبلغها. أليس هو الموت الذي يرون آتياً تقدر بالشر عينه، مصوره في بريق هذه السيوف تلمع في أيدي قريش وفي أيدي غطفان، وتدب إلى القلب مخافته متسلله من منازل بني قريظة الغدره الخائنين! ألا ويل لليهود! ما كان أجدر «محمداً» بأن يقضى على بني النضير، وأن يستأصلهم بدل أن يذرهم يرتحلون موفورين، وأن يذر حياً والذين معه يؤلبون العرب على المسلمين ليستأصلوهم. ألا إنها الطامه الكبرى والفرع الأكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وسمت روح الأحزاب المعنويه حتى دفعت بعض فوارس من قريش، منهم عمرو بن عبد ود^(١) وعكرمه بن أبي جهل وضرار بن الخطاب، أن يقتحموا الخندق، فتميموا مكاناً منه ضيقاً فضربوا خيلهم فاجتازته فجالت بهم في السبخه بين الخندق وسلع. وخرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين، فأخذوا عليهم الثغره التي اقتحموا منها خيلهم، وتقدم عمرو بن عبد ود ينادى: من يبارز؟ ولما دعاه ابن أبي طالب إلى النزال، قال في صلف:

لم يابن أخي؟ فوالله ما أحب أن أقتلك. قال علي: لكنني أحب والله أن أقتلك.

فتنازلا فقتله علي^(٢)، وفرت خيل الأحزاب منهزمه، حتى اقتحمت الخندق من جديد موليه الأديبار لا تلوى على شيء. وأقبل نوفل بن عبد الله بن المغيرة على فرس له بعد ما غربت الشمس يريد أن يجتاز الخندق، فهوى هو

ص: ٤٧٣

١- (١) ود: من قوله سبحانه: «وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا» أسماء أصنام، وكان ود صنم بني عامر ومنهم عمرو بن عبد ود.

٢- (٢) المغازي للواقدي: ٤٧٠/١-٤٧١ و ٤٧٤، وإمتاع الأسماع: ٢٣٦/١ و ٢٣٨، والسيره الحلبيه: ٣١٨/٢-٣٢٠، والإرشاد للمفيد: ٩٨/١، وبحار الأنوار: ٢٠٦/٢٠.

والفرس فيه فصيِّرعاً وتحطماً. وأرسل أبوسفيان يعرض ديه جثته مئه من الإبل، فرفض النبي عليه السلام وقال: خذوه فإنه خبيث، خبيث الديه(١).

وأعظمت الأَحزاب نيرانها مبالغه في تخويف المسلمين وإضعافاً لروحهم، وبدأ المتحمسون من قريظه ينزلون من حصونهم وآطامهم إلى منازل المدينه القريبه منهم يريدون إرهاب أهلها. كانت صفيه بنت عبدالمطلب في فارع حصن حسان بن ثابت، وكان حسان فيه مع النساء والصبيان. فمَرَّ بهم يهودى ضليل يُطيف بالحصن. قالت صفيه مخاطبه حسان: إنَّ هذا اليهودى يُطيف يا حسان بالحصن كما ترى، وإني والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من اليهود، ورسول الله وأصحابه قد سُغِلوا عنا، فانزل إليه فاقتله. قال حسان: يغفر الله لك يا بنه عبدالمطلب. والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا. فأخذت صفيه عموداً ونزلت من الحصن وضربت به اليهودى حتى قتلتها. فلمّا رجعت قالت: يا حسان. إنزل إليه فاسلبه فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل. قال حسان: مالي يا بنه عبدالمطلب بسلبه من حاجه(٢).

وظلَّ أهل المدينه في فزعهم وزلزال قلوبهم على حين جعل «محمّد» يفكر في الوسيله للخلاص. ولم تكن الوسيله مواجهه العدو بطبيعته الحال.

فلتكن الحيله إذاً. فبعث إلى غطفان يعدها ثلث ثمار المدينه إن هي ارتحلت.

ص: ٤٧٤

١- (١) حين طلب النبي صلى الله عليه وآله من المسلمين مبارزه عمرو بن ود أحجم المسلمون عن الخروج إليه، وعندما تقدم الإمام وهو شاب في سن الثامنة والعشرين قال النبي صلى الله عليه وآله مَثَمناً هذا الموقف الإلهي: «برز الإيمان كله إلى الشرك كله»، السيره النبويه لابن هشام: ٢٨١/٣، شرح النهج: ٢٨٣/١٣.

٢- (٢) سيره ابن هشام: ٢٨٨/٢، والمغازي: ١/٤٦٠-٤٦٣، الأمالى للطوسى: ٢٦١، وبحار الأنوار: ٢٠/٢٤٥.

وكانت غطفان قد بدأت تملّ فأظهرت امتعاضاً من طول هذا الحصار وما لقوا من العنت أثناءه لغير شىء إلا إيجابه حيى بن أخطب واليهود الذين معه(١). ثم إن نعيم بن مسعود ذهب بأمر الرسول إلى قريظه، كانت لا تعرف أنه أسلم، وكان لها نديماً فى الجاهليه، فذكرهم بما بينه وبينهم من موّده، ثم ذكر لهم أنهم ظاهروا قريشاً وغطفان على «محمّد»، وقريش وغطفان قد لا تستطيعان المقام طويلاً فتخليان ما بينهما وبين «محمّد» فينكل بهم. ونصحهم لذلك ألا يقاتلوا مع القوم حتى يأخذوا منهم رهناً يكونون بأيديهم حتى لا تتنحى قريش وغطفان عنهم. واقتنعت قريظه بما قال. ثم إنه ذهب إلى قريش فأسرّ لهم أن قريظه ندموا على ما فعلوا من نكث عهد «محمّد»، وأنهم عاملون على استرضائه وكسب موّده بأن يقدموا له من أشرف قريش من يضرب أعناقهم، ولذلك نصحهم إن بعث إليهم اليهود يلتمسون رهائن من رجالهم ألا يبعثوا منهم أحداً. وصنع نعيم مع غطفان ما صنع مع قريش وحدّهم مثلما حدّدهم. ودبّت الشبهه من كلام نعيم إلى نفس قريش وغطفان، فتشاور زعماءهم، فأرسل أبوسفيان إلى سعد سيّد بنى قريظه يقول له: قد يا سعد طالت إقامتنا وحصارنا هذا الرجل، وقد رأيت أن تعمدوا إليه فى الغداه ونحن من ورائكم. فعاد رسول أبى سفيان إليه يقول زعيم قريظه:

إنّ غداً السبت، وإنّا لا نستطيع القتال والعمل يوم السبت. فغضب أبوسفيان وصدّق حديث نعيم، وأعاد الرسول يقول لقريظه: اجعلوا سبتاً مكان هذا السبت، فإنّه لا بدّ من قتال «محمّد» غداً. ولئن خرجنا لقتاله ولستم معنا لنبرأ من حلفكم ولنبدأنّ بكم قبل «محمّد». فلمّا سمعت قريظه كلام

ص: ٤٧٥

أبى سفيان كررت أنها لا تتعدى السبت وقد غضب الله على قوم منهم تعدّوه فجعلهم قرده وخنازير. ثم أشاروا إلى الرهائن حتى يطمئنوا لمصيرهم. فلما سمع أبوسفيان لم يبق لديه في كلام نعيم ريبه وبات يفكر ماذا عساه يصنع؟ وتحدث إلى غطفان فإذا هي تتردد دون الإقدام على قتال «محمّد» متأثره بما كان قد بدأها به من وعداها ثلث ثمار المدينة وعداً لم يتم أن اعترضه سعد بن معاذ وساده المدينة من الأوس والخزرج ومن أصحاب مشوره رسول الله (١).

فلما كان الليل عصفت ريح شديده وهطل المطر هاتناً وقصف الرعد وخطف البرق. واشتدت العاصفه فاقتلعت خيام الأحزاب وكفأت قدورهم وأدخلت الرعب إلى نفوسهم، وخُيل إليهم أنّ المسلمين انتهزوها فرصه ليعبروا إليهم ولئوقعوا فيهم فقام طليحه بن خويلد فنادى: إنّ «محمّداً» قد بدأكم بشر فالنجاه النجاه. وقال أبوسفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام. لقد هلك الكراع والخفّ وأخلفتنا بنوقريظه وبلغنا منهم ما نكره. ولقينا من شدة الريح ما ترون، فارتحلوا فأتى مرتحل. فاستخفّ القوم ما استطاعوا حملة من متاع وانطلقوا وما تزال الريح تعصف بهم، وفزوا هارين، وتبعتهم غطفان. حتى إذا كان الصبح لم يجد «محمّد» منهم أحداً فانصرف راجعاً إلى المدينة والمسلمون معه يرفعون أكفّ الضراعه إلى الله شكراً، أن رفع الضرّ عنهم وأن كفى المؤمنين شرّ القتال (٢).

عاد «محمّد» بعد رحيل الأحزاب يفكر في موقفه. لقد أذهب الله عنه

ص: ٤٧٦

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٢٢٩-٢٣١، والمغازي للواقدي: ٤٨٠/١-٤٨٥، والسيره الحلبيه: ٢٢٤/٢-٢٢٥، وتفسير مجمع البيان: ١٣٤/٨، وبحار الأنوار: ٢٠/٢٠٧-٢٠٩.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٢٣٢/٢-٢٣٣، والمغازي للواقدي: ٤٨٠/١-٤٨٦، وإمتاع الأسماع: ٢٤٢/١، والكافي للكليني: ٢٧٩/٨-٢٨٠، وتفسير مجمع البيان: ١٣٥/٨-١٣٦، وبحار الأنوار: ٢٠/٢٠٩.

عدوّه الذى كان يهدّده. لكنّ اليهود قادرون على أن يعودوا لمثلها وأن يختاروا فصلاً من السنه غير الشتاء القارص، الذى كان جند الله فى هزيمه عدوّه. ثمّ إن قريظه، لولا- ارتحال الأ-حزاب ولولا ما وقع فى صفوفها من شقاق وانقسام، كانت على أهبه النزول إلى المدينه والفتك بالمسلمين والمعاونه على استئصالهم. لا تقطعنّ إذاً ذنب الأفعى وتتركها. ولا بدّ من القضاء على بنى قريظه بما فعلت. وأمر عليه السلام مؤذناً فأذن فى الناس: من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلينّ العصر إلّا بنى قريظه؛ وقدم علياً برايته إليها(١). ومع ما كان عليه المسلمون من نصّب بعد طول حصار قريش وغطفان إياهم، فقد خفوا لهذا القتال الذى لم يكن لديهم أى شكّ فى نتيجه. صحيح أن بنى قريظه يقيمون فى حصون محصّنه كالتى كانت لبنى النضير. لكنّ هذه الحصون إن أغنتهم فى الدفاع عن أنفسهم فلن تغنيهم فى مهاجمه المسلمين، والميره قد أصبحت فى متناول يد أهل المدينه بعد جلاء الأحزاب عنها.

لذلك خفّ المسلمون فرحين وراء علىّ حتّى أتوا بنى قريظه، فإذا يهودها ومعهم حبيّ بن أخطب النضرى يقعون فى «محمّد» بأقبح مقاله، يكذبونه ويطعنون عليه وينالون من عرض نسائه... وكأنّما شعروا بعد انخزال الأحزاب عن المدينه بما هُيئ لهم، ولما جاء الرسول لقيه علىّ وطلب إليه ألاّ يدنو من حصون اليهود. فسأله «محمّد»:

ولم أظنك سمعت منهم لى أذى! قال:

نعم. قال رسول الله:

لو رأونى لمّا قالوا من ذلك شيئاً. فلمّا دنا من حصونهم ناداهم:

ص: ٤٧٧

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٢٣٤/٢، والمغازى للواقدي: ٤٩٧/١، وإمتاع الأسماع: ٢٤٥/١، وعيون الأثر: ١٠٠/٢-١٠١، والسيره النبويه لابن كثير: ٢٢٧/٣، والسيره الحلبيه: ٣٣٣/٢، وبحار الأنوار: ٢١٠/٢٠.

يا إخوان القردة! هل أخزاكم الله وأنزل بكم نعمته؟ قالوا: يا أبا القاسم ما كنت جهولاً.

وجعل المسلمون بقيه نهارهم يتوافدون إلى بنى قريظة حتى اجتمع جمعهم عندها؛ فأمرهم «محمد» بحصارها. (١)

ظلّ هذا الحصار خمساً وعشرين ليلة لم يقع خلالها إلاّ بعض تراشق بالنبل والحجارة، ولم يجرؤ بنو قريظة أن يخرجوا من الآطام طول مدة الحصار مرّة واحدة، فلمّا جهدوا وأيقنوا أن لن تمنعهم حصونهم من الهلاك شيئاً، وأنهم لا بدّ أن يقعوا في قبضه المسلمين وإن طال الزمن، بعثوا إلى الرسول أن ابعث إلينا أبا لُبابة لنستشيره في أمرنا. وكان أبو لُبابة من الأوس حلفائهم. فلمّا رأوه قام إليه الرجال وأجهش النسوة والصبيان بالبكاء حتى رقّ لهم. فقالوا له: أترى يا أبا لُبابة أن ننزل على حكم «محمد»؟ قال: نعم. وأشار بيده إلى حلقه، إنّه الذبيح إن لم تفعلوا (٢). وقد ندم أبو لُبابة على إشارته هذه فيما روت السير. فلما انصرف أبو لُبابة عنهم عرض كعب بن أسد أن يتابعوا «محمد» على دينه، وأن يُسلموا فيأمنوا على دمائهم وأموالهم وأبنائهم. فرفض أصحاب سعد أن يسمعوا هذا الكلام منه وصاحوا به: لا- نفارق حكم التوراه أبداً ولا نستبدل به غيره. فعرض عليهم أن يقتلوا نساءهم وأبنائهم وأن يخرجوا إلى «محمد» وأصحابه رجالاً- مُصلتين بالسيوف لم يتركوا وراءهم ثقلاً- حتى يحكم الله بينهم وبين «محمد». فإن هلكوا لم يتركوا وراءهم نسلاً يخشون عليه وإن ظهروا اتخذوا النساء والأبناء. فرفضوا هذا العرض أيضاً قائلين:

ص: ٤٧٨

١- (١) السير النبويّه لابن هشام: ٢/٢٣٤، والمغازي للواقدي: ١/٤٩٩-٥٠٠، وإمتاع الأسماع: ١/٢٤٥-٢٤٦.

٢- (٢) غريب هذا المعنى، ولو كان كذلك لما كان ذنباً بحاجه إلى التوبه، بل الصحيح العكس، فهو بلسانه أمر بالمعروف للإسلام، ويده أشار إلى رقبته قاصداً بأن لا تنزلوا لحكمه فأنه ذبحكم!

نقتل هؤلاء المساكين! فما خير العيش بعدهم! قال لهم سعد: لم يبق إذاً إلّا أن تنزلوا على حكم «محمّد» وقد سمعتم ما أعدّ لكم (١). وتشاور القوم فيما بينهم وقال قائل منهم: إنهم لن يكونوا أسوأ من بنى النضير مصيراً، وإن أولياءهم من الأوس سيدفعون عنهم الشرّ، وإنهم إن عرضوا أن يرتحلوا إلى أذرعات بالشام لم يجد «محمّد» بأساً من قبول عرضهم.

وبعث قريظه إلى «محمّد» تعرض عليه الخروج إلى أذرعات تاركه وراءها ما تملك، فأبى ذلك عليها إلّا أن تنزل على الحكم. فأرسلت إلى الأوس تقول لهم: ألا تأخذون لآخوانكم مثلما أخذت الخزرج لآخوانهم! فمشى جماعه من الأوس إلى «محمّد» فقالوا: يا نبيّ الله، ألا تقبل من حلفائنا مثل الذي قبلت من حلفاء الخزرج؟ قال محمّد:

يا معشر الأوس، ألا ترضون أن أجعل بيني وبين حلفائكم رجلاً منكم؟ قالوا: بلى، قال:

فقولوا لهم فليختاروا من شاءوا. فاختر اليهود سعد بن معاذ، وكأنا أعماهم القدر الذي كتب لهم لوح حظهم فأنسأهم مقدم سعد إليهم أول نقضهم عهدهم، وتحذيره إياهم، ووقوعهم في «محمّد» أمامه، وسبهم المسلمين بغير حقّ. وأخذ سعد الموثيق على الفريقين أن يُسلم كلاهما لقضائه وأن يرضى به. فلمّا أعطوه الموثيق، أمر بنى قريظه أن ينزلوا وأن يضعوا السلاح ففعلوا، فحكم سعد فيهم أن تُقتل المقاتلة، وتُقسّم الأموال وتُسبى الذّرية والنساء. فلمّا سمع «محمّد» هذا الحكم قال:

والذي نفسى بيده لقد رضى بحكمك هذا، الله والمؤمنون وبه أمرت. ثمّ خرج إلى سوق

ص: ٤٧٩

١- (١) السيرة النبويّة لابن هشام: ٢/٢٣٥-٢٣٦، والمغازي للواقدي: ١/٤٩٧-٥٠٧، وإمتاع الأسماع: ١/٢٤٦-٢٤٧.

المدينه فأمر فحُفرت بها خنادق تُمَّ جىء باليهود أرسالاً فضربت أعناقهم، وفي هذه الخنادق دفنوا. ولم يكن بنوقريظه يتوقعون هذا الحكم من سعد بن معاذ حليفهم، بل كانوا يحسبونه يصنع بهم ما صنع عبدالله بن أبي مع بنى قينقاع. ولعلَّ سعداً ذكر أن الأحزاب لو انتصرت بخيانه بنى قريظه لما كان أمام المسلمين إلَّا أن يستأصلوا وأن يقتلوا وأن يمثّل بهم، فجزاهم بمثل ما عرّضوا المسلمين له.

وقد أظهر اليهود من الجلد أمام القتل ما تراه فى حديث حِيّ بن أخطب حين قُدّم لتضرب عنقه، فنظر إليه النبى وقال:

ألم يُخزك الله يا حِيّ! فأجاب حِيّ: كلّ نفس ذائقة الموت ولى أجل لا أعدوه، ولا ألوم نفسى على عداوتك.

ثمّ التفت إلى الناس فقال: أيها الناس، إنّه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمه كتبها الله على بنى إسرائيل. ثمّ إنّ الزبير بن باطا القرظى كان قد منّ على ثابت بن قيس فى يوم بُعث بأن خلّى سبيله بعد أسره، فأراد ثابت أن يجزيه بعد حكم ابن معاذ على اليهود عن يده عنده، فذكر لرسول الله منه الزبير عليه واستوهبه دمه، وأجاب رسول الله طلبته. فلما عرف ما فعل ثابت، قال له: شيخ كبير مثلى لا أهل له ولا ولد ماذا يصنع بالحياه! فاستوهب ثابت رسول الله دم امرأته وأولاده فوهبه إياه، ثمّ استوهبه ماله فوهبه إياه كذلك.

فلَمّا اطمأنّ الزبير إلى أهله وولده وماله سأل عن كعب بن أسد وعن حِيّ بن أخطب وعن عزّال بن سيموءل وعن زعماء بنى قريظه، فلما علم أنّهم قُتلوا، قال: إنى أسألك يا ثابت بيدى عندك إلّا ألحقنتى بالقوم، فوالله ما فى العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر لله فتلّه دلو حتّى ألقى الأحبّه، وكذلك

ضربت عنقه بمشيئته. وكان المسلمون لا يقتلون في غزواتهم النساء والذراري؛ ولكنهم يومئذ قتلوا امرأه طرحت الرحا على مسلم فقتلته. وكانت عائشه تقول: والله ما أنسى عجباً منها طيب نفسها وكثره ضحكها وقد عرفت أنها تقتل. وأسلم يومئذ من اليهود أربعة فنجوا من القتل (١).

وفى رأينا أنّ دمّ بنى قريظه معلق فى عنق حُيى بن أخطب، وإن كان قد قتل معهم. فهو قد حنث بالعهد الذى عاهد قومه من بنى النضير حين أجلاهم «محمّد» عن المدينة، ولم يقتل منهم بعد النزول على حكمه أحداً. وهو بتأليه قريشاً وخطفان وتحزيبه العرب كلها لقتال «محمّد» قد جسّم العداوه بين اليهود والمسلمين، وجعل هؤلاء يعتقدون أنّ بنى إسرائيل لا تطيب نفوسهم إلا باستئصال «محمّد» وأصحابه. وهو الذى حمل بنى قريظه من بعد ذلك على نقض عهدها والخروج من حيادها، ولو أنّها بقيت عليه لما أصابها من الشرّ شيء. وهو الذى دخل حصن بنى قريظه بعد ارتحال الأحزاب ودعاهم لمواجهه المسلمين والدفاع عن أنفسهم بمقاتلتهم، ولو أنّهم نزلوا على حكم «محمّد» منذ اليوم الأوّل واعترفوا بخطئهم فى نقض عهدهم لما أهدرت دماؤهم وضربت أعناقهم. لكنّ العداوه بلغت من التّأصل فى نفس حُيى وانتقلت منه إلى نفوس بنى قريظه حدّاً جعل سعد بن معاذ نفسه، وهو حليفهم، يؤمن بأنّهم إن أبقي على حياتهم فلن تهدأ لهم نفس حتّى يؤلّبوا الأَحزاب من جديد، وحتّى يجمعوا العرب لقتال المسلمين وحتّى يقتلوهم

ص: ٤٨١

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٢٣٩/٢-٢٤٣، والمغازى للواقدي: ٥١٠/١-٥٢١، وإمتاع الأسماع: ٢٤٨/١-٢٥٠ و ٢٥٢، وتفسير مجمع البيان: ١٤٨/٨-١٤٩، وبحار الأنوار: ٢١١/٢٠-٢١٢.

عن آخرهم إن ظفروا بهم. فالحكم الذى أصدره على قسوته وشدته إنما كان متأثراً فيه بالدفاع عن النفس واعتباره بقاء اليهود أو زوالهم مسألة حياه أو موت بالنسبه للمسلمين.

وقسم النبى أموال بنى قريظه ونساءهم على المسلمين، بعد أن أخرج منه الخمس. قسيمه بأن كان للفارس سهمان ولفرسه سهم وللراجل سهم.

وكانت الخيل يوم قريظه سته وثلاثين فرساً. ثم بعث سعد بن زيد الأنصارى بطائفه من سبايا بنى قريظه إلى نجد، فابتاع بها خيلاً وسلاحاً زياده فى قوه المسلمين الحريه.

وكانت ريحانه إحدى سبايا بنى قريظه قد وقعت فى سهم «محمّد» فعرض عليها الإسلام فأصرت على يهوديتها، وعرض عليها أن يتزوجها، فقالت: بل تتركنى فى ملكك فهو أخفّ علىّ وعليك. ولعلّ حرصها على اليهوديه ورفضها الزواج يرجعان إلى عصبيتها لقومها، وما كان باقياً فى نفسها من كراهيه للمسلمين ولنبيهم. ولم يتحدّث أحد عن جمال ريحانه ما تحدّثوا عن جمال زينب بنت جحش، وإن ذكر بعضهم أنها كانت جميله وسيمه. وقد اختلفت السّير فيها: أهى قد ضرب عليها الحجاب كما ضرب على نساء النبى، أم أنها ظلّت كسائر نساء العرب يومئذ لم يضرب عليها حجاب. وبقيت ريحانه فى ملكه حتى ماتت عنده. (١)

وطّدت غزوه الأحزاب ووطّدت القضاء على بنى قريظه للمسلمين فى

ص: ٤٨٢

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٢/٢٤٥، والمغازى للواقدي: ١/٢٢١-٢٢٥، وإمتاع الأسماع: ١/٢٥٢-٢٥٣، وبحار الأنوار: ٢٠/٢٧٨.

المدينه فلم يبق للمناققين فيها صوت قطّ. وذهبت العرب كلّها تتحدّث بقوه المسلمين وسلطانهم وبمقام «محمّد» وقوّته ورهبه جانبه. لكنّ الرساله لم تكن للمدينه وحدها، بل كانت للعالم بأسره. فما يزال على النبيّ وأصحابه إذاً أن يمهدوا لكلمه الله وأن يدعوا الناس لدينه الحقّ، وأن يصدّوا عنه كلّ معتدّ عليه، وهذا ما فعلوا.

ص: ٤٨٣

المرأه والرجل فى الإسلام، غزو بنى لحيان، قتل عيينه بن الأقرع، غزو بنى المصطلق، حديث الإفك.

استتب الأمر «محمّد» والمسلمين بعد غزوه الخندق وبعد القضاء على بنى قريظه، استتباً جعل العرب تخافهم أشدّ الخوف، وجعل الكثيرين من قريش يفكرون: أليس خيراً لقريش لو أنّها هادنت «محمّداً» وصافته وهو منها وهى منه، والمهاجرون معه بينهم كبراؤها وسادتها. واستراح المسلمون بعد الذى اطمأنوا إليه من القضاء على اليهود بجوار المدينه قضاء لا تقوم لهم قيامه بعده. ومكثوا بالمدينه لذلك سته أشهر يباشرون من تجاره الحياه ما يستمتعون معه بشىء من نعمه الحياه، ويزدادون برساله «محمّد» إيماناً ولتعاليمه تمثلاً، ويسيرون وإياه فى طريق تنظيم الجماعه العربيه، تنظيمًا لم يكن مألوفاً عندها من قبل، ولكنه لم يكن منه بدّ فى جماعه منظمه ذات كيان ووحده، كالجماعه التى كانت تتكوّن تحت سلطان الإسلام رويداً رويداً. فقد كانت العرب فى الجاهليه لا تعرف لها نظاماً ثابتاً إلّما أقرته عاداتها. ولم يكن لها فى أمر الأسره ونظامها والزوج وحدوده والطلاق

وقيوده وصّلات الزوجين والأبناء، إلّما تُملى به طبيعه ذلك الجو الذى يغلو فى الإباحه تاره، ليصل من الجمود والتقييد إلى حدود الرقّ وعسفه تاره أُخرى، فليَنظّم الإسلام الجماعه الإسلاميه الناشئه التى لَمّا تتكوّن تقاليدها.

ليمهدّها فى وقت قصير لتضع نواه حضاره تنتظم من بعد ذلك حضاره الفرس والروم والمصريين، وتطبعها بطبعها الإسلامى الذى يتدرّج رويداً رويداً حتّى يصل إلى كماله يوم ينزل قوله تعالى: **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِيناً ۗ**

ومهما يكن الرأى فى حضاره بلاد العرب قبل الإسلام وبدواتها، وهل كانت القرى من أمثال مكّه والمدينه ذات حضاره لا تعرفها الباديه، أو أنّها كانت أيضاً فى أوليات مراتب الحضاره، فإنّ صلات الرجل والمرأه فى هذه الجماعه العربيه كلّها لم تكن تعدو، بشهاده القرآن وبشهاده ما بقى من آثار ذلك العهد، صلات الذكور والأنوثة، مع تفاوت تملى به مراتب الطوائف والعشائر لا- يخرجها عن هذا الوضع القريب من مراتب الإنسان الأوّل، ولذلك كان النسوه يتبرجن فى الجاهليه الأولى ويبيدين من زينتهنّ ما لا يقف أمره عند بعولتهنّ، وكن يخرجنّ فرادى ومثنى وزرافات لحاجتهنّ يقضينها فى غوطه فى الصحراء، فيلقاهنّ الشبان والرجال وهن يتهادين فى جماعاتهنّ فلا يابى هؤلاء ولا أولئك أن يتبادلوا أشهى النظرات ومعسول

الحديث ممّا يستريح له الذكر وتطمئن له الأنثى. وبلغ من أمر هذه الصلّه وما وقرت في النفوس، أن لم تأب هند زوج أبي سفيان أن تقول في أشدّ مواقف الجِدِّ والشدّه، وهى تحثّ قريشاً حين الحرب يوم أحد(١):

إن تقبلوا نعايق

ولم يكن الزنا يومئذٍ بالجريمه ذات الخطر والشأن. ولقد ذكر الرواه عن هند هذه، على ما كان لأبي سفيان من مكانه وخطر، أحاديث غرام وهوى لم تعيّر من مكانتها في قومها ولا- بين أهلها. ثمّ إنّ المرأه كانت إذا ولدت، ولم يعرف لمولودها أب، لم تأب أن تذكر من لامسها من الرجال ليُنسب مولودها إلى أيّهم كان أقرب إليه شبيهاً. ولم يكن إلى ذلك لتعداد الزواج ولا للرق حدٌّ أو قيد. كان للرجل أن يتزوّج ما شاء. وأن يتسرّى ما شاء، وكان لهؤلاء ولأولئك أن يلدوا ما شاءوا. وكان الأمر في ذلك لا خطر له إلّا أن يفتضح وتخشى معرّته وما قد يجر وراءه من أهاج تتبادل لا يدرى أحد ما ينجم عنها من خصومه وقاتل. هنالك يتبدّل الأمر غير الأمر، وترى ما كانت المودّه قد سترت من قبل من ملاحم الهوى ووثبات الغرام، قد هتكته الخصومه فجعلته سبباً لملاحم القتال ووثبات النزال. وإذا شبّت الخصومه فلكلّ أن يتقول ما شاء وأن يزعم ما يريد. وخيال العربي خصب بطبيعته عيشه تحت السماء وتجواله الدائم في طلب الرزق، واضطراره للمغلاّه وللكذب أحياناً في شؤون التجاره. والعربي كع بطبعه، حتّى لقد كانت لكاعه العرب وما تزال مضرب المثل، فإذا وقف زيد في السلم يحادث هنداً حديث هوى

ص: ٤٨٨

لم يزد على شهى اللفظ تساقطه لآلى الثنايا العذاب، رأيت زيدا حين الخصومه والحرب يرفع عقيرته بهند وقد لقيها أمامه متجردة يقول فى نحرها وصدرها ونهدها وخصرها وعجزها وما دون ذلك ما شاءت له أفانين الخصومه واهتياج الخيال الذى لا يعرف فى المرأه غير الأثنى، وغير ما تفرش من التمارق. ومع ما قضى الإسلام على هذه النفسيه فقد بقى من آثارها ما تقرؤه فى مثل شعر عمر بن أبى ربيعه وما تأثر به شعر الغزل فى العريه إلى عصور كثيره، وما لا يزال له أثره - ولو إلى حد قليل - فى شعر عصرنا الحاضر.

ربما بدا هذا التصوير للقارئ المّعجب بالعرب وحضارتهم، وللمّعجب حتى بعرب الجاهليه، مشوباً بشيء من الغلو. وللقارئ العذر من ذلك، إذ يوازن بين هذه الصوره التى وضعنا أمامه، وبين ما هو واقع بالفعل فى عصرنا الحاضر، وبين ما نرجو أن تصل اليه صلات الرجل والمرأه فى الزواج والطلاق وصّلات الزوجين والأبناء. لكنّ موازنه كهذه مخطئه جديره أن تجرّ إلى أفحش الضلال. إنّما يجب أن توازن الجماعه العريه التى صوّرنا إحدى نواحيها فى القرن السّابع المسيحى بالجماعات الإنسانيه فى ذلك العصر. وما أحسبنا نغالى إذا قلنا: إنّ الجماعه العريه كانت - مع ما وصفنا من أمرها - خيراً بكثير من الجماعات المعاصره لها فى آسيا وفى أوروبا. ولسنا نقف عندما كان من ذلك فى الصين أو فى الهند، فما لدينا من المعلومات عنه قليل لا يساعفنا.

لكنّ أوروبا الشماليه وأوروبا الغريه كانت يومئذٍ فى ظلمات تبيح لك أن تصوّر من نظام الأسره فيها ما تريد ممّا يقرب من أوليات مراتب الإنسانيه. وكانت

روميه وهى صاحبه الشرع يومئذٍ وصاحبه الغلب والسياده والمنافس الوحيد القوى للفرس، تجعل المرأة من الرجل فى مكانه دون مكانه المرأة العربيه من الرجل حتى فى الباديه. كانت المرأة فى شرائع روميه يومئذٍ معتبره متاعاً مملوكاً للرجل يتصرف فيه كيف يشاء، ويملك من أمره ما يريد، ويقدر له على الحياه والموت. كانت تُعامل معاملة الرقيق سواء، لا فارق بينها وبينه فى نظر الشرع الرومانى. كانت مملوكه لأبيها ثم لزوجها ثم لابنها. وكان ملكهم إياها تاماً كملكهم الرقيق وملكهم الحيوان والجماد. وكان ينظر إلى المرأة على أنها مثار الشهوه وعلى أنها لا سلطان لها على أنوثتها الحيوانيه، حتى لم يكن بدّ من اصطناع نطاق العفّه ومن التمسك بذلك قروناً متواليه، بعد هذا العصر الذى نصف فيه أحوال جزيره العرب. ومع أن السيد المسيح عليه السلام كان برّاً بالنساء عطوفاً عليهنّ، حتى لقد قال حين أظهر بعض رجاله العجب لحسن معاملته مريم المجدليه: «من لم يكن منكم ذا خطيئه فليرمها بحجر»، مع هذا ظلّت أوروبا المسيحيه، كما كانت أوروبا الوثنيه من قبل، تزدرى المرأة شرّاً ازدراء. ولم تكن تنظر إلى صلاتها بالرجل على أنها صلات الذكوره والأنوثه وكفى؛ بل على أنها صله عبوديه ورقّ ومهانته، ممّا طوّع لبعض المتكلمين فى عصور مختلفه أن يتساءلوا: ألمرأة روح وأنها ستحاسب، أم أنها كالحیوان لا روح لها ولا تعرف عند الله حساباً وليس لها فى ملكوت الله متسع.

وكان «محمّد» يقدر بما أوحى إليه أن لا صلاح للجماعه إلّا بتعاون الرجل والمرأة، على أنهما أخوان متضامنان تضامن مودّه ورحمه، وأنّ للنساء

مثل الذى عليهنّ بالمعروف وللرجال عليهنّ درجه. لكنّ الأخذ فى ذلك بالطّفره لم يكن أمراً ميسوراً. ومهما يكن من إيمان العرب الذين أتبعوه به، فإنّ أخذهم باليسير من الأمر وعدم تعريضهم للحرج، أدعى إلى مزيد إيمانهم، أدّى إلى ازدياد أنصاره. وكذلك كان الشأن فى كلّ إصلاح اجتماعى فرضه الله على المسلمين، بل كذلك كان الشأن فى فروض الدين ذاتها، فى الصلاه والصوم والزكاه والحجّ، وكذلك كان الشأن فى المحرمات كالخمر والميسر ولحم الخنزير وما إليها من مثلها. وقد بدأ «محيّد» فى شأن الاصلاح الاجتماعى وتقرير صّلات ما بين الرجل والمرأه بالمثل يضربه فيما بينه وبين أزواجه ممّا كان المسلمون جميعاً يرونه، أن لم يكن الحجاب قد فرض على نساء النّبىّ إلى ما قبيل غزوه الأحزاب، كما لم يفرض تحديد الزوجات بأربع مع شرط العدل إلى ما بعد غزوه الأحزاب، بل إلى ما بعد غزوه خيبر بأكثر من سنه. فكيف يصل النّبىّ إلى توطيد علاقات الرجل والمرأه على أساس صالح، تمهيداً لهذه المساواه التى انتهى الإسلام إليها مساواه تجعل للنساء مثل الذى عليهنّ بالمعروف وللرجال عليهنّ درجه.

كانت صّلات الرجل والمرأه عند المسلمين كما كانت عند سائر العرب - على ما وصفنا - مقصوره على صّلات الذكوره والأنوثه. وكان التبرّج وإبداء الزينه بصوره تدعو إلى تحرّش الرجال بالنساء، كلّما وجدوا الفرصه لذلك، بعض ما يُذكى عواطف الجنس عند الرجل والمرأه على سواء، وما يحول لذلك دون التقريب بينهما تقريباً أساسه المعنى الإنسانى السامى، وأساسه الاشتراك الروحى فى العبوديه لله وحده. وقد نشأ عن قيام طوائف اليهود

والمناققين في المدينة وخصومتهم لـ «محمّد» وللمسلمين أن بلغ تحرش هذه الطوائف بالمسلمات حداً أدى إلى حصار بني قينقاع كما رأيت، وإلى إيصال الأذى بالمسلمات مما كانت تنشأ عنه مشاكل لا ضروره لها. فلو أنّ المسلمات لم يُبدن زينتتهنّ أثناء خروجهنّ لكان ذلك أدنى أن يُعرفن فلا يُؤذِن، ولَوْفَر ذلك هذه المشاكل، وكان بدءاً حسناً لهذه المساواه التي يريد الإسلام تحقيقها بين الجنسين، من غير أن يشعر المسلمون رجالاً ونساءً بانتقال في الفكره لم يمهدوا له. وفي هذا الطرف نزل قوله تعالى من سوره الأحزاب: وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقُفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا * سَنَّهَ اللَّهُ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّهَ اللَّهِ تَبْدِيلًا .

بهذا التمهيد سهل على المسلمين أن يُقلعوا عن عادات العرب الأولى، كما أنّ ما قصد إليه شارع الإسلام من تنظيم الجماعه على أساس الأسره، طاهره من أدران الدخيله مما جعل الزنا جريمه كبرى، قد جعل يسيراً على كلّ مسلم أن يقدر ما في تبرج الأنثى تتبدى به للذكر من عيب ومعرّه، ما لم تكن صلّه ما بين الرجل والمرأه تسمح بهذا التبرج. وذلك قوله تعالى: قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ *

وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَا يَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ ۱ .

وكذلك عمل الإسلام، فتدرّجت صله ما بين الرجل والمرأة إلى غير ما كانت. فلم تبق صله ذكوره وأنوثة إلّا حيث لا فتنه من مثل هذه الصله؛ فأتمّ في تجاره الحياه وفي علاقات الرجال والنساء جميعاً فالكلّ سواسيه، والكلّ عباد الله، والكلّ متضامنون للخير ولتقوى الله. فإذا فرط من أحدهم أو من إحداهنّ ما يذكي في النفس معانى الجنس فذلك إثم يجب على من فرط منه أن يتوب إلى الله إنه هو التّواب الرّحيم.

لكنّ ذلك كلّه لم يكن كافياً لينقل النفس العربيّه في أعوام قلائل من اعتباراتها الأولى جميعاً ليغيّرها في هذا الشأن كما غيرها في الإيمان بالله وعدم الشرك به نفساً جديده. وذلك طبيعيّ. فالماده إذا تكيفت على صورته ما لم يكن يسيراً أن تحوّلها إلّارويداً رويداً. ومهما تحوّلها فلن تحوّلها إلّالقليلاً.

ذلك شأن حياه الإنسان المادّيه. تطبعه العادات المتوارثه، وتطبعه تقاليد البيئه في تجاره حياهه، فإذا أُريد به أن يتغيّر فقد وجب أن يتدرّج في انتقاله وتغيره.

ثُمَّ إِنَّهُ لَنْ يَسْتَطِيعَ هَذَا التَّدْرَجَ إِلَّا إِذَا غَيَّرَ مَا بِنَفْسِهِ. وَقَدْ يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَغَيِّرَ جَانِبًا مِنْ جَوَانِبِ نَفْسِهِ بِإِزَالِهِ مَا أَمَامَهَا مِنْ حَوَائِلِ تَعَوُّقِ تَمَدُّدِهَا وَانْتِشَارِهَا لِتَمَثُّلِ الْكُونِ كُلِّهِ، وَهَذَا مَا فَعَلَ الْإِسْلَامُ بِالْمُسْلِمِينَ فِي شَأْنِ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ وَبِرَسُولِهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ لَكِنَّ كَثِيرًا مِنْ جَوَانِبِ النَّفْسِ الْعَرَبِيَّةِ لَمْ تُحَطَّمْ أَمَامَهُ الْعَوَاقِقُ، وَخَاصَّةً فِي شُؤْنِ الْحَيَاةِ الْمَادِيَّةِ، فَبَقِيَ الْمُسْلِمُونَ فِيهِ قَرِيبِينَ مِمَّا كَانُوا قَبْلَ إِسْلَامِهِمْ. وَكَذَلِكَ كَانَ شَأْنُهُمْ فِيمَا طَبَعَتْهُمْ عَلَيْهِ حَيَاةُ الصَّحْرَاءِ مِنْ تَلَكُّوهُ، وَفِيمَا دَرَجُوا عَلَيْهِ مِنْ حُبِّ التَّحَدُّثِ إِلَى النِّسَاءِ.

وَبِرَغْمِ مَا أَسْلَفْنَا مِنْ تَعْدِيلِ الدِّينِ الْجَدِيدِ نَظَرْتُهُمْ لَصِّمَاتِ مَا بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ فَقَدْ ظَلُّوا فِيمَا سِوَى ذَلِكَ كَمَا كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَوْ عَلَى مَقْرَبِهِ مِنْهُ. وَكَثِيرًا مَا كَانَ أَحَدُهُمْ يَحِبُّ أَنْ يَدْخُلَ إِلَى النَّبِيِّ بَيْتِهِ وَأَنْ يَمْكُثَ عِنْدَهُ وَأَنْ يَتَحَدَّثَ إِلَيْهِ وَأَنْ يَتَحَدَّثَ إِلَى نِسَائِهِ. وَقَدْ كَانَتْ مَهَامُ النَّبَوَّةِ الْعَظْمَى أَكْبَرَ مِنْ أَنْ تَدْعَ «مَحْمَدًا» يَشْغَلُ نَفْسَهُ بِحَدِيثِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَجِئُونَ إِلَيْهِ وَالَّذِينَ يَتَحَدَّثُونَ إِلَى نِسَائِهِ وَمَا يَنْقَلُ نِسَاؤُهُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَادِيثِهِمْ. لِذَلِكَ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْلَى نَبِيِّهِ مِنْ هَذِهِ الْمَشَاغِلِ الصَّغْرَى، فَأَنْزَلَ (١) عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ سُورَةِ الْأَحْزَابِ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاطِرِينَ إِنَاءً وَ لَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا أَرْوَاجَهُ مِنْ

ص: ٤٩٤

١- (١) أسباب النزول للواحدى: ٢٤٢، وتفسير مجمع البيان: ١٧٣/٨.

بَعِيدِهِ أُيِّدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ۱ . وكما نزلت هذه الآيات حديثاً للمؤمنين وإرشاداً إليهم إلى واجبه إزاء النبي وأزواجه فقد نزلت الآيات الآتية من سورة الأحزاب كذلك موجهة إلى أزواج النبي في هذا الشأن نفسه (١) ؛ قال تعالى: يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنَّ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۳ .

هذا هو التوسيد الاجتماعي الجديد الذي أراد الإسلام للجماعة الإسلامية. أقام أساسه على تغيير نظره الرجل والمرأة لما بينهما من صلات، وأراد أن يمحو من النفوس تسلط فكره الجنس واعتبارها وحدها المتغلبه على كل اعتبار، وأراد بذلك أن يوجه الجماعة وجهتها الإنسانية العليا التي لا تُنكر على الإنسان استمتاعه بالحياه استمتاعاً لا يُضعف من حريته في أن يريد، ومن باب أولى لا يسلبه هذه الحرية في أن يريد، والتي تجعل من الإنسان صلة ما بين الكائنات جميعاً، فترتفع به من مراتب زراعه الأرض ومن الصناعة، ومن تجاره الحياه أياً كانت لتصل به إلى مجاوره القديسين والاتصال بالملائكة المقربين. وقد جعل الإسلام من الصوم والصلاة والزكاة وسائل لهذا السمو بما تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، وبما تطهر النفس والقلب من شوائب الخضوع لغير الله، وبماتقوى من أسباب الأخوة بين

ص: ٤٩٥

المؤمنين، و بين الإنسان و سائر ما فى الكون.

هذا التنظيم للحياه رويدا رويدا، تمهيدا إلى الانتقال العظيم الذى أعدّ الإسلام له الإنسانیه. لم يمنع قريشا و العرب من أن ترتبص ب «محمّد» الدوائر، و لم يمنع «محمّدا» من أن يكون دائم الحذر من ناحیه، سريعا إلى النشاط لإلقاء الرعب فى قلوب خصومه من ناحیه أخرى. من ذلك أنّه بعد ستة أشهر من القضاء على بنى قريظه شعائر بشىء من الحركة فى ناحیه مكّه، ففكر فى أن ينتقم لخبيب بن عدى و أصحابه ممّن قتل بنولحيان عند ماء الرّجيع منذ سنتين خلتا. على أنّه لم يجهر بقصده خيفه أن يتخذ العدوّ الحيظه لنفسه، فأظهر أنّه يريد الشام ليصيب من القوم غزّه فأخذ قوّاته و يممّ بها شمالا. فلما اطمأنّ إلى أن قريشا و جيرانها لم يبق منهم من يفتن لمقاصده انفتل راجعا إلى ناحیه مكّه و أغدّ السير مسرعا حتّى بلغ منازل بنى لحيان بغيران. لكن قوما رأوه أوّل انحداره إلى الجنوب فعرف منهم بنولحيان قصده إيّاهم، فاعتصموا برؤس الجبال هم و متاعهم. و فأت النبى أن يصيبهم؛ فبعث أبابكر فى متى راكب حتّى بلغوا عسفان على مقربه من مكّه؛ ثم كزّ رسول الله قافلا إلى المدينه فى يوم قانظ بلغ من قيظه حتّى كان النبى يقول:

«آثيون تائبون إن شاء الله لرّبنا حامدون. أعوذ بالله من و عثاء السفر و كآبه المتقلب و سوء المنظر فى الأهل و المال»(١).

و لم يكد «محمّد» يقيم بالمدينه لىالى بعد أوبته إليها حتّى أغار عينه

ص: ٤٩٦

١- (١) سيره ابن هشام: ٢٧٩/٢-٢٨٠، و المغازى للواقدى: ٥٣٦-٥٣٧، و إمتاع الأسماع: ٢٥٨/١، و المناقب لابن شهر آشوب:

١٩٧/١.

بن حصن على أطرافها. و كان بظاهاها إبل ترعى يحرسها رجل و امرأته.

فقتل عينه و أصحابه الرجل و ساقوا الإبل و احتملوا المرأة و انصرفوا يحسبون أنهم من اللّحاق بمنجاه. لكن سلمه بن عمرو بن الأكوخ الأسلمي كان قد غدا يريد الغابه متوشحا قوسه و نبله. فلما مرّ على ثنيه الوداع و أشرف على ناحيه من سلع بصر بالقوم قد اقتادوا الإبل و احتملوا المرأة، فصاح: واصباحاه؛ و جعل يشدد في آثار القوم حتّى إذا اقترب منهم رماهم بالنبل. و هو في أثناء ذلك لا- ينفك يصيح. و بلغ «محمّدا» صياح سلمه، فنادى في أهل المدينة: الفرع الفرع، فترامى الفرسان إليه من مختلف النواحي، فأمرهم فانطلقوا في أثر القوم، و جهّز هو قوّاته و سار على رأسها يتبعهم. و كان عينه و من معه قد أغدوا السير مسرعين يريدون اللّحاق بغطفان نجاه من المسلمين، لكن فرسان المدينة أدركوا مؤخّرتهم و استخلصوا شطر الإبل منهم، و لحق بهم «محمّدا» فأعانهم، و نجت المرأة المؤمنه التي كان العرب قد احتملوها. و أراد جماعه من أصحاب النبي أخذت منهم الحماسه مأخذها أن يتأثروا عينه.

فردّهم رسول الله، أن علم أن عينه و أصحابه قد أدركوا غطفان و احتموا بهم.

و رجع المسلمون إلى المدينة و جاءت امرأه الحارس في آثارهم على ناقه المسلمين. و كانت المرأة قد نذرت إن أنجتها الناقه لتتحرّنها قربانا إلى الله.

فلما أخبرت النبي بنذرها قال:

بئس ما جزيتها أن حملك الله عليها و نجاك بها ثم تنحرينها. إنّه لا نذر في معصيه الله و لا فيما لا تملكين (1).

ص: ٤٩٧

١- (١) سيره ابن هشام: ٢٨١/٢-٢٨٥، و المغازي للواقدي: ٥٣٧/١-٥٤٩، و السيره النبويه لا- بن كثير: ٢٩٣/٣-٢٩٤، و المناقب:

وأقام «محمّد» بالمدينه بعد ذلك قرابه الشهرين. ثم كانت غزوه بنى المصطلق بالمريسيه، هذه الغزاه التي يقف عندها كل كاتب و كل مؤرخ سيره النبي العربي لا لأنها غزاه ذات قيمه، أو لأن المسلمين أو عدوهم أبلوا فيها بلاء خارقا للعادة، بل لأن الشقاق كاد يفشو بعدها في صفوف المسلمين فحسمه الرسول بأحسن ما يكون عزيزه و حزما، ولأن من أثرها أن تزوج الرسول من جويزيه بنت الحارث، ولأن هذه الغزوه أثمرت حديث الإفك عن عائشه حديثا كان موقفها منه، و هي لما نزل في السادسة عشره، موقف إيمان و قوه تحطمت على جنباتهما كل القوى و عنت لجلالهما كل الوجوه.

فقد بلغ «محمّد» أن بنى المصطلق، و هم فرع من خزاعه، يجمعون له في حينهم على مقربه من مكه، و أنهم يحرضون عليه يريدون قتله و على رأسهم قائدهم الحارث بن أبي ضرار. و وقف «محمّد» من أحد البدو على سر جمعهم فأسرع في الخروج ليأخذهم على غزاه، كعادته في أخذ أعدائه، و جعل لواء المهاجرين لأبي بكر (1) ولواء الأنصار لسعد بن عباد. و نزل المسلمون على ماء قريب من بنى المصطلق يقال له المريسيه، ثم أحاطوا ببنى المصطلق ففرّ من جاؤ لنصرتهم. قتل من بنى المصطلق عشره و لم يقتل من المسلمين إلّا رجل يقال له: هشام بن صبابه أصابه رجل من الأنصار و هو يحسبه خطأ من العدو. و لم يجد بنو المصطلق بعد قليل من التراشق بالنبال مفرا من التسليم تحت ضغط المسلمين القوى السريع، فأخذوا أسرى هم

ص: ٤٩٨

١- (١) بل ردّد الواقدي في المغازي: ٤٠٧/١ الرأيه بينه و بين عمّار بن ياسر.

ونسأؤهم و إبلهم و ماشيتهم(١).

و كان لعمر بن الخطاب فى الجيش أجير يقود فرسه، فازدحم بعد انتهاء الموقعه مع أحد الرجال الخزرج على الماء، فاقبتلا فتصايحا، يقول الخزرجى يا معشر الأنصار، و يقول أجير عمر: يا معشر المهاجرين، و سمع عبد الله بن أبى النداء، و كان قد خرج مع المنافقين فى هذه الغزاه ابتغاء الغنيمه، فثار ما فى نفسه على المهاجرين و على «محمّد» من حفيظه، و قال لجلسائه: لقد كاثرنا المهاجرون فى ديارنا. و الله ما أعدنا و إياهم إلّا كما قال الأول: سمّن كلبك يا كلك. أما و الله لئن رجعنا إلى المدينه ليخرجن الأءعز منها الأذل. ثم قال لمن حضر من قومه: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، و قاسمتموهم أموالكم. أما و الله لو أمستكم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير داركم. و مشى بحديثه هذا ماش إلى رسول الله بعد فراغه من عدوّه، و كان عنده عمر بن الخطاب، فهاج عمر لما سمع و قال: مر به بلالا فليقتله! هنا ظهر النبى كدأبه مظهر القائد المحنك و الحكيم البعيد النظر، إذ التفت إلى عمر و قال:

فكيف يا عمر إذا تحدّث الناس و قالوا إن محمّدا يقتل أصحابه(٢)!

لكنّه قدر فى نفس الوقت أنّه إن لم يتخذ خطه حازمه فقد يستفحل الأمر.

لذلك أمر أن يؤذّن فى الناس بالرحيل فى ساعه لم يكن يرتحل المسلمون فيها.

و ترامى إلى ابن أبى ما بلغ النبى عنه، فاسرع إلى حضرته ينفى ما نسب إليه، و يحلف بالله ما قاله و لا تكلم به. و لم يغير ذلك من قرار «محمّد» الرحيل

ص: ٤٩٩

١- (١) السيره النبويه لا- بن هشام: ٢٩٠/٢، و المغازى للواقدى: ٤٠٤/١-٤٠٧، و السيره النبويه لا- بن كثير: ٢٩٧/٣، و المناقب: ٢٠١/١.

٢- (٢) السيره النبويه لا بن هشام: ٢٩٠-٢٩١، و المغازى للواقدى: ٤١٦/١ و ٤١٨، و السيره النبويه لا بن كثير: ٢٩٩/٣، مجمع البيان: ٢٢/١٠.

شيئا، بل انطلق بالناس طيله يومهم حتى أمسى، و طيله ليلتهم حتى أصبح، و صدر يومهم الثاني حتى آذتهم الشمس. فلما نزل الناس لم تلبث جنوبهم أن مسّت الأرض حتى وقعوا من فرط تعبهم نياما، و أنسى التعب الناس حديث ابن أبي، و عادوا بعد ذلك إلى المدينة، و معهم ما حملوا من غنائم بنى المصطلق و أسراهم و سبيهم، و معهم جويريه بنت الحارث قائد الحى الهزيم و زعيمه(١).

بلغ المسلمون المدينة و أقام ابن أبي بها و لا تهدأ له نفس حسدا ل «محمد» و للمسلمين، و إن تظاهر بالإسلام بل الإيمان، و إن أصرّ على إنكار ما نقل عنه لرسول الله عند ماء المريسيع. أثناء ذلك نزلت(٢) سورة المنافقين و فيها قوله تعالى: هُم الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَ لِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ٣. هنالك حسب قوم أنّ هذه الآيات قضاءً على ابن أبي، و أنّ «محمدًا» لا ريب أمر بقتله. فذهب عبدالله بن عبدالله بن أبي، و كان مسلماً حسن الإسلام فقال: «يا رسول الله إنه بلغنى أنك تريد قتل عبدالله بن أبي فيما بلغك عنه. فإن كنت فاعلاً فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه. فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبرّ بوالده منى. و إنى لأخشى أن تأمر به غيرى

ص: ٥٠٠

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٢٩٢/٢ و ٢٩٤، و المغازى للواقدي: ٤١٩/١، السيره النبويه لابن كثير: ٣٠٠/٣ و ٣٠٢، مجمع البيان: ٢٣/١٠.

٢- (٢) أسباب النزول للواحدى: ٢٨٧، مجمع البيان: ٢١/١٠ و ٢٤.

فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشى في الناس فأقتله فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر فأدخل النار». كذلك قال عبدالله بن عبدالله بن أبي ل «محمد».

وما أحسب عبارته أبلغ من عبارته على إيجازها في قوة التعبير، عن حاله نفسيه تضطرب فيها أقوى العوامل في النفس أثراً: تضطرب فيها عوامل البرّ بالأب وصدق الإيمان والنخوه العرييه، والحرص على سكينه المسلمين حتّى لا تتواتر الثارات بينهم! فهذا ابن يرى أباه سيقتل فلا يطلب إلى النبيّ ألاً يقتله، لأنّه يؤمن بأنّ النبيّ إنّما يصدع بأمر ربّه، ويوقن بكفر أبيه. وهو، من خيفه ما يقتضيه البرّ بأبيه، وما تقتضيه الكرامه والنخوه أن يثار له ممّن قتله، يريد أن يحمل على نفسه وأن يقتل هو أباه وأن يحمل بنفسه إلى النبيّ رأسه، وإن تقطع لذلك قلبه وإن فرى ذلك كبده! وهو يجد في إيمانه بعض العزاء عن هذا الشطط الذي يكلف نفسه مخافه أن يدخل النار إن هو قتل المؤمن الذي يأمر النبيّ بقتل أبيه، أيّ جلد بين الإيمان والعاطفه والخلق أشدّ من هذا الجلد! وأيه مأساه نفسيه أفتك بصاحبها من هذه المأساه! أفتدري بم أجاب النبيّ عبدالله بعد أن سمع قوله؟ قال له:

إنّا لا نقتله بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا(١). يا لروعه العفو وجلاله! «محمد» يترفق بهذا الذي يؤلّب أهل المدينه عليه وعلى أصحابه، فيكون رفقاً ويكون عفو أبعد أثراً من عقوبته لو أنّه أنزلها. فقد كان عبدالله بن أبي بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه يعاتبونه ويعنفونه ويشعرون أنّ حياته بعض هبات «محمد» إيّاه. وتذاكر النبيّ مع

ص: ٥٠١

١- (١) المغازي للواقدي: ٤٢٠/١-٤٢١، السيره النبويه لابن هشام: ٢٩٢/٢-٢٩٣، والسيره النبويه لابن كثير: ٣/٣٠١، ومجمع البيان: ٢٣/١٠.

عمر يوماً شؤون المسلمين، وجاء ذكر ابن أبي وما يعاتبه قومه ويعنفونه، فقال «محمد»:

«كيف ترى يا عمر! أما والله لو قتلته يوم قلت لى أقتله لأرعدت له أنف لو أمرتها اليوم قتله لقتلته. قال عمر: والله علمت لأمر رسول الله صلى الله عليه وآله أعظم بركه من أمرى(١)..»

حدث ذلك كله بعد أن عاد المسلمون إلى المدينة ومعهم ما معهم من السبي والغنائم. على أن أمراً حدث لم يترك بادئ الرأي أثراً، ثم كان له بعد ذلك حديث طويل. ذلك أن النبي كان إذا غزا، أقرع بين نسائه فأيهن خرج سهمها خرج بها معه. وخرج سهم عائشه عشيه(٢) غزاه بنى المصطلق فخرج بها. وكانت عائشه نحيفه خفيفه، فكانوا إذا جاءوا بالهودج إلى بابها خرجت إليه فأخذت الرجال به فشده به إلى ظهر البعير وهم لا يكادون يشعرون بها فيه لخفه زنتها.

ولما فرغ النبي من سفره وسار هو ومن معه مسيرتهم الطويله المضنيه التي ذكرنا، اتجه بعد ذلك إلى المدينة، حتى إذا كان قريباً منها نزل منزلاً بات به بعض الليل، ثم أذن في الناس بالرحيل. وكانت عائشه قد خرجت من خيمه النبي لبعض حاجتها والهودج موضوع أمام الخيمه في انتظار دخولها فيه. وكان لعائشه عقد انسل من عنقها وهي في بعض حاجتها، فلما قامت عائده إلى الرحل التمسست العقد فلم تجده فرجعت أدراجها تبحث عنه.

ووجدته ورجعت إلى المعسكر لتستقل هودجها، فإذا القوم قد شدوه إلى

ص: ٥٠٢

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٢/٢٩٣، والسيره النبويه لابن كثير: ٣/٣٠١.

٢- (٢) بل الصحيح في العربية: ليله غزاه.. فإن العشيّه تعنى مساء ذلك اليوم، والذي هنا غير صحيح.

ظهر البعير وهم يحسبونها فيه، وإذا هم قد ارتحلوا يحسبون أنهم حملوا معهم أشدَّ أمهات المؤمنين حظوه عن النبي (١)، ولم تجدهى فى المعسكر داعياً ولا مجيباً. فلم يساورها الخوف وأيقنت أن القوم إذا افتقدوها فلم يجدوها رجعوا إليها؛ فخبر لها أن تبقى مكانها من أن تضرب فى الصحراء على غير هدى فتضلَّ السبيل.

لم يساورها الخوف فالتقت فى جلبابها واضطجعت مكانها منتظره عوده الباحث عنها. وإنها لفى ضجعتها إذ مرَّ بها صفوان بن المَعطَّل السلمى وكان قد تخلف عن العسكر لبعض حاجته، وكان يراها قبل أن يضرب الحجاب على نساء النبي. فلما بصُرَّ بها على هذه الحال تراجع دهشاً وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! طعنه رسول الله صلى الله عليه وآله. ما خلَّفك رحمك الله؟ فلم تجبه، فقرب هو لها البعير واستأخر عنه وقال: اركبى، فركبت، وانطلق بالبعير سريعاً يطلب الناس فلم يدر كهم أن كانوا يُعجلون سيرهم يريدون المدينة ليستريحوا بها من عناء السير الذى أمر به رسول الله إطفاءً للفتنة التى كادت تقوم بسبب حديث ابن أبي، ودخل صفوان المدينة فى وضح النهار بأعين الناس وعائشه على ظهر بعيره، حتى إذا كانت عند منزلها من بين منازل نسوة الرسول نزلت فدلقت إليه، ولا- يجول بخاطر أحد أن يحدث فى أمرها قولٌ أو يثير حول تأخرها عن الركب شبهه، ولا يدور بخاطر الرسول ظنه سوء فى ابنه أبى بكر أو فى صفوان المؤمن الحسن الإيمان.

وما كان لحديث أن يدور وهامى ذى تدخل بأعين الناس المدينة فى

ص: ٥٠٣

١- (١) بل قبل هذا نقل المؤلف عنها ذلك بشأن خديجه وأنها كانت تغار منه!

أعقاب العسكر الذين جاءوا لم يمض بين مجيئهم ومجيئها وقت يحمل على ظنه أو يبعث إلى نفس ريبه، وهاهي ذى تدخل بأعين الناس صافيه الجبين مشرقه الوجه، ليس فى شىء من مظهرها ما يُريب (١). فلتجر إذا شؤون المدينة كما هي، وليقتسم المسلمون الأسلاب والغنائم والسيايا ممّا أسروا من بنى المصطلق، ولينعموا بهذه الحياه الرخيه التي تزداد على الأيام رخاء كلما زدهم إيمانهم على عدوّهم عزّاً، وكلّما أظفرتهم به عزيמתهم الصادقه، واستهانتهم بالموت فى سبيل الله وفى سبيل دينه وفى سبيل حريه العقيده، حريه كان العرب من قبل يأبونها عليهم.

وكانت جويريه بنت الحارث من سبايا بنى المصطلق، وكانت امرأه مخلوه مُلاحه، وقد وقعت فى سهم أحد الأنصار، فأرادت أن تفتدى نفسها منه، فأعلى الفداء علماً منه بأنّها ابنه زعيم بنى المصطلق، وأنّ أباهما على أداء ما طلب قدير. وخشيت جويريه أثر شططه، فذهبت إلى النبىّ وكان فى دار عائشه فقالت: «أنا جويريه بنت الحارث بن أبى ضرار سيّد قومه، وقد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك، فوقع فى سهم فلان فكاتبته على نفسى فجتتك أستعينك على كتابتى». قال:

فهل لك فى خير من ذلك؟ قالت:

وما هو؟ قال:

أقضى كتابتك وأتزوجك. فلما بلغ الناس الخبر أطلقوا ما بأيديهم من أسرى بنى المصطلق إكراماً لصهر رسول الله إياهم، حتّى لكانت عائشه تقول عن جويريه: ما أعلم امرأه كانت أعظم على قومها بركه منها (٢).

ص: ٥٠٤

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٢٩٧/٢-٢٩٨.

٢- (٢) المغازى للواقدي: ٤١١/١.

هذه روايه. وتجرى روايه أخرى بأن الحارث بن ضَرَار جاء إلى النبي بفداء ابنته، وأنه أسلم بعد أن آمن برسالة النبي، وأنه أخذ ابنته جويريه فأسلمت كما أسلم أبوها. فخطبها «محمد» إليه فزوجه إياها وأصدقها أربعمئة درهم (١).

وفي روايه ثالثة: أن أباه لم يكن راغباً في هذا الزواج، بل لم يكن راضياً عنه، وأن أحد أقارب جويريه هو الذي زوجه من النبي على غير إرادته أبيها (٢).

تزوج «محمد» من جويريه، وبنى لها منزلها إلى جانب منازل نسائه في جوار المسجد، وأصبحت بذلك من أمهات المسلمين. وبينما هو في شغله بها كان قوم قد بدءوا يتهايمسون: ما بال عائشه تأخرت عن العسكر وجاءت مع صفوان على بعيره، وصفوان شاب وسيم الطلعه مكتمل فتوه الشباب!.

وكان لزينب بنت جحش أخت تُدعى حَمْنَه، وكانت تعلم ما لعائشه عند «محمد» من حظوه تقدّمها على أختها. فجعلت حَمْنَه هذه تذيع ما يهمس به الناس من أمر عائشه، وكانت تجد من حسان بن ثابت عوناً (٣)، ومن علي بن أبي طالب سميعاً (٤). فأما عبدالله بن أبي فوجد في هذا الحديث مرعى خصياً

ص: ٥٥

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٢٩٥/٢-٢٩٦.

٢- (٢) سير أعلام النبلاء: ٢٦٣/٢ دار الرساله بيروت لبنان الطبعه السابعه ١٩٩٠.

٣- (٣) المغازي للواقدي: ١/٤٣٤.

٤- (٤) هذا الاستبطان النفسى الذى اعتمده هيكل لنفوس الصحابه إزاء أم المؤمنين عائشه لا يناسب مقامهم وقربهم من رسول الله صلى الله عليه وآله، خصوصاً الإمام أمير المؤمنين أخى رسول الله ووزيره الذى يهّمه ما يهّم النبي صلى الله عليه وآله، وازواج النبي مُحترمات عنده، كما لم يسجل لنا التاريخ ولو حادثه واحده تسمى لأم المؤمنين، قد صدرت من علي عليه السلام وان صدر منها ما يكشف عن حساسيتها منه فى زمن رسول الله صلى الله عليه وآله، ولمزيد من التفصيل راجع أم المؤمنين عائشه للسيد مرتضى العسكري.

لشفاء ما فى نفسه من غلٍّ، وجعل يذيعه جهد طاقته(١). لكنّ جماعه الأوس وقفوا موقف الدفاع عن عائشه وقد كانت مضرب المثل فى الطهر وسُمُو النفس. وكاد الحديث يؤدى إلى فتنه فى المدينه. وبلغت هذه الأخبار «محمّداً» فاضطرب لها، ماذا؟! عائشه هذه تخونه! هذا مستحيل. إنّها الأنفه والإباء؛ وإنّ لها من حبه إياها وشده عطفه عليها ما يجعل مجرد ظنّ كهذا إثماً دونه كلّ إنثم. نعم! ولكنّ أف للنساء! من ذا يستطيع أن يسبر غورهنّ وأنّ يصل إلى قراره ما فى نفوسهنّ. وعائشه بعد طفله يافعه الشباب، وأى شىء هذا العقد الذى فقدت فذهبت تلمسه جوف الليل؟! وما بالها لم تُحدّث له وهم ما يزالون فى المعسكر من أمره ذكراً؟! وتقلّب النبى على أشواك الحيره، ما يدرى أيصدّق أم يكذب(٢).

أمّا عائشه فلم يجرؤ أحد على أن يبلغها من كلّ هذا الذى يقول الناس شيئاً، وإنّ أنكرت من زوجها جفاءً لم تعرفه منه، ولا يتفق فى شىء مع لطفه بها وحبه إياها. ثمّ إنّها مرضت من بعد ذلك مرضاً شديداً، فكان إذا دخل عليها وأمّها تمرّضها لم يزد على قوله: كيف تيكم؟! ووجدت عائشه فى نفسها لما رأت من جفاء النبى إياها، وجعلت تحدّث نفسها: ألا تكون جويريه قد حلّت من قلبه محلّها! وبلغ من ضيق ذرعها بجفاء «محمّد» إياها أن قالت له يوماً: لو أذنت لى فانتقلت إلى أمى فمرّضتنى! وانتقلت إلى أمّها وفى نفسها من الدهشه لهذا التفريط فى أمرها ما آذاها وآلمها. وظلّت فى

ص: ٥٠٦

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٣٠٠/٢.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٢٩٨-٢٩٩.

مرضها بضعه وعشرين يوماً حتى نقهت، وهي لا تعرف من كل ما يدور حول اسمها من حديث شيئاً (١). أمّا «محمد» فقد بلغ من تأذيه بترامى هذه الأخبار إليه أن قام يوماً في الناس يخطبهم فقال:

«أيها الناس. ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق! واللّه ما علمت منهم إلّا خيراً. ويقولون ذلك لرجل واللّه ما علمت منه إلّا خيراً، وما يدخل بيتاً من بيوتى إلّا معي». فقام أسيد بن حُضير فقال: يا رسول الله إن يكونوا من إخواننا الأوس نكفكهم، وإن يكونوا من إخواننا الخزرج فمرنا بأمرك، فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم. وردّ عليه سعد بن عباده بأنّه إنّما تقدّم بهذه المقالته لأنّه يعرف أنّهم من الخزرج ولو كانوا من الأوس ما قالها. وتشاور الناس وكادت تقوم الفتنة لولا حكمه الرسول وحسن مُداخلته (٢).

وانتهى الخبر آخر الأمر إلى عائشه، حدّثتها به امرأه من المهاجرين، فلتّياً عرفته كاد يُغشى عليها من هولها، وانطلقت تبكي لا يحبس دمعها حابس، حتى شعرت كأنّ كبدها تتصدع. وذهبت إلى أمّها وقد أثقل الهمّ كاهلها حتى كاد ينوء بها، وقالت لها والعبره تخنقها: يغفر الله لك يا أمّاه! تحدّث الناس بما تحدّثوا به ولا تذكّرين لي من ذلك شيئاً! ورأت أمّها الهمّ الذي بها، فحاولت تخفيف أثره في نفسها فقالت: أي بُنيه، خفّى عليك

ص: ٥٠٧

١- (١) لم تكن حيره النبيّ صلى الله عليه وآله من قبيل عدم معرفته بأصل الحادث، ومن هو البريء ومن هو العاقد في الإثارة، وإنّما النبيّ صلى الله عليه وآله كان بصدد تربيته الأمّيه وترشيدها، لئلا تكون ضحيه لمخططات الأعداء والمنافقين داخل الصف الإيماني والانجرار وراء أقاويلهم فالمشكلة مشكله أمّه، وماهى المواقف الواعيه التي ينبغى العمل بها إزاء تلك الأحداث وما شاكلها. هذا هو الهمّ الذي يراود النبيّ ويشغله في هذه اللحظات الحرجه من تاريخ الرساله. وسيأتى مزيد من التفصيل في هذه الحادثه.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٣٠٠/٢.

الشأن. فوالله لقلما كانت امرأه حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلاكثرن وكثر الناس عليها(١). ولكن عائشه لم تتعزّ بهذا القول، وزادها ألماً أن ذكرت جفاء النبي إياها بعد الذي كان من لطفه بها، وأن شعرت بأنه قد وقع في نفسه من هذا الحديث أثر وقامت بنفسه منه ريبه. لكن! ماذا عساها تستطيع أن تفعل؟! أفتاتحه القول وتذكر له الخير وتقسم له أنها بريئه؟! هي إذاً اتهم نفسها ثمّ تدفع التهمه بالإيمان والتوسلات. أفتعرض عنه كما أعرض عنها وتجفوه كما جفاها؟ لكنّه رسول الله وهو قد اصطفاه على نساءه، وليس من ذنبه أن تحدّث الناس عنها بسبب تأخرها عن العسكر وعودها مع صفوان.

ربّاه! ألهمها في هذا الموقف الدقيق مخرجاً يتضح ل «محمّد» معه الحقّ في أمرها ليعود إلى مثل ما كان من حبّها والعطف عليها والّلطف بها.

ولم يكن «محمّد» خيراً منها مكاناً، فقد آذاه ما يتحدث به الناس حتّى اضطرّ آخر الأمر إلى أن يتشاور مع خالصائه ماذا يصنع. فذهب إلى بيت أبي بكر ودعا عليّاً وأسامة بن زيد فاستشارهما. فأمرّا أسامة فنفي كلّ ما نسب إلى عائشه على أنّه الكذب والباطل، وأنّ الناس لا يعرفون كما لا يعرف النبي عنها إلّا خيراً، وأمّا عليّ فقال: يا رسول الله، إنّ النساء لكثير. ثمّ أشار باستجواب جاريه عائشه لعلّها تصدقه. ودُعيت الجاريه وقام لها عليّ فضربها ضرباً موجعاً وهو يقول: أصدّقني رسول الله، والجاريه تقول: والله ما أعلم إلّا خيراً، وتنفي عن عائشه قاله السوء(٢)(٣). أخيراً لم يبق أمام «محمّد» إلّا أن

ص: ٥٠٨

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٢٩٩/٢-٣٠٠.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٣٠١/٢. وهل كانت الجاريه معها لتشهد؟! فما بالها لم تذكر؟!.

٣- (٣) لم يكن معروفاً من خلق النبي صلى الله عليه و آله أن ينتزع الاعتراف من المتّهمين عن طريق التعذيب مع احتمال كون -

يواجه زوجه وأن يطلب إليها أن تعترف. ودخل عليها وعندها أبواها وعندها امرأه من الأنصار، وهي تبكى والمرأه تبكى معها وقد هوى الأسى بنفسها إلى أعمق قرارات الحزن من هول ما ترى من ربيبه «محمّد» بها؛ من ربيبه هذا الرجل الذى تحب وتقدّس، والذى به تؤمن وفيه تفنى. فلما رأته كفكفت دمعها وسمعت إليه وهو يقول:

يا عائشه، إنّه قد كان ما بلغك من قول الناس فاتقى الله، وإن كنت قارفت سوءاً ممّا يقولون فتوبى إلى الله فإنّ الله يقبل التوبه عن عباده. فما أن أتّم حديثه حتّى ثار فى عروقها دمها وجفّ من عينها دمعها، وتلفّتت إلى ناحيه أمّها وإلى ناحيه أبيها تنظر بيم يجيبان. لكنّهما سكتا فلم ينسبا بكلمه.

فازدادت ثوره نفسها وصاحت بهما: ألا تجيبان! قالوا: والله ما ندرى بيم نجيب، وعادا إلى وجومهما. هنالك لم تملك نفسها دون النسيج بالبكاء؛ وساعفتها دموعها لتهدئ من الثوره المضطرمه بين ضلوعها تكاد تحرقها.

ثمّ وجّهت الكلام إلى النبىّ وهى تبكى فقالت: والله لا أتوب إلى الله ممّا ذكرت أبداً! والله إننى لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس والله يعلم أنى بريئه لأقولن ما لم يكن. ولئن أنا أنكرت لا تصدّقوننى. ثمّ سكتت برهه وعادت تقول: إنّما أقول كما قال أبو يوسف: فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ

فتره سکوت تلت هذه الثوره لم يعرف حاضروها طالت أو قصرت.

علی أن «محمداً» لم يبرح مجلسه حتى تغشاه من نزول الوحي ما كان يتغشاه، فسجى بثوبه ووضعت وساده من آدم تحت رأسه. قالت عائشه: أما أنا فوالله ما فرعت ولا باليت حين رأيت من ذلك ما رأيت، قد عرفت أنى بريته وأن الله غير ظالمى. وأما أبواى فما سرى عن رسول الله صلى الله عليه وآله حتى ظننت لتخرجن نفسيهما فرقا من أن يأتى من الله تحقيق ما قال الناس. فلما سرى عن «محمداً» جلس يتصبب عرقاً، فجعل يمسحه عن جبينه ويقول: أبشرى يا عائشه:

قد أنزل الله براءتك، قالت عائشه: الحمد لله. وخرج «محمداً» إلى المسجد فألقى على المسلمين هذه الآيات التي نزلت (١) من سورة النور: إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِلَى قَوْلِهِ: وَ لَوْ لَا - إِذْ سَجِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٣ . وفى هذا الظرف كذلك نزلت عقوبه رمى المحصنات: وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُولَئِكَ هُمُ

ص: ٥١٠

١- (٢) أسباب النزول للواحدى: ٢١٧. المعروف أن سورة النور نزلت بعد الفتح وحادثه بنى المصطلق كانت قبل الحديدية فكيف التوفيق، راجع الاتقان: ١٠/١.

أَلْفَاسِقُونَ ١ وتنفيذاً لحكم القرآن أمر بمسطح بن أثاثه وحسان بن ثابت وحنمة بنت جحش وكانوا ممن أفصح بالفاحشه فضرب كل منهم ثمانين جلده (١). وعادت عائشه إلى مثل مكانها الأول من بيت «محمد» ومن قلبه.

يقول السير وليم موير تعليقاً على هذا الحادث ما ترجمته: «إن حياه عائشه قبل هذا الحادث وبعده تدعونا إلى القطع ببراءتها وعدم التردد في دحض أية شبهة أُثيرت حولها» (٢).

وقد استطاع حسان بن ثابت من بعد أن يعود إلى رضا «محمد» وعطفه عليه (٣)، كما طلب «محمد» إلى أبي بكر الأيحرم مسطحاً عطفه الذي عوّده إياه (٤). وكذلك انقضى هذا الحادث ولم يبق له في المدينة كلها من أثر.

وأسرعت النقاهاه إلى عائشه وعادت إلى دارها من مساكن الرسول وإلى مكانتها من قلبه وإلى مركزها الرفيع من نفوس أصحابه المسلمين جميعاً (٥).

ص: ٥١١

١- (٢) السير النبويه لابن هشام: ٣٠١/٢-٣٠٢.

٢- (٣) Live of Mohammad by William Muir .

٣- (٤) السير النبويه لابن هشام: ٣٠٦/٢.

٤- (٥) السير النبويه لابن هشام: ٣٠٣/٢.

٥- (٦) وقد اختلف المُفسِّرون والمؤرخون في مسأله أسباب نزول آيات الإفك في سوره النور ومن هو الشخص الذى برأته الآيات؟ الذى يستفاد من الآيات هو أن المنافقين اتهموا شخصاً بريئاً وكان وجهاً اجتماعياً محترماً بتهمه الزنا تحقيقاً لأغراضهم الشريره، وقد ردّهم القرآن أيما ردّ وأبطل خطّتهم. والخلاف وقع في المصداق فقال: الأكثر إن الشخص الذى دافع عنه القرآن وانتصر له هو عائشه زوجة النبيّ وقال آخرون: بأنّها ماريه أم إبراهيم زوجة النبيّ أيضاً. ويستفيد أصحاب الاتجاه الأول من روايه عائشه نفسها كدليل على أنّها المبرّاه التى نزل بحقها القرآن. راجع -

وبذلك فرغ النبي إلى رسالته وإلى سياسه المسلمين استعداداً لعهد الحديبيه يفتح به الله على المسلمين فتحاً مبيناً.

ص: ٥١٦

بعد ست سنوات بالمدينه، دعوه «محمّد» الناس للحجّ، لاقتال و لا حرب، قريش تقرّر الحيلوله بين المسلمين و دخول مكّه، مفاوضات الصلح، أناه «محمّد» و سياسته، عهد الحديبيه فتح ميين.

انقضت ست سنوات منذ هجره النبيّ و أصحابه من مكّه إلى المدينه، و هم فيما رأيت من جهاد مستمر و غزو متصل بينهم و بين قريش تاره، و بينهم و بين اليهود أخرى. و الإسلام أثناء ذلك يزداد انتشارا و يزداد قوه و منعه.

و منذ السنه الأولى (١) من الهجره عدل «محمّد» بقبلته عن المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، و جعل المسلمون وجهتهم بيت الله الذي بنى إبراهيم بمكّه، و الذي تجدد بناؤه بعد ذلك حين رفع «محمّد» حجره الأسود إلى مكانه من جداره و هو ما يزال في فتوه الشباب، و قبل أن يرد بخاطره (٢).

ص: ٥١٧

١- (١) بل السنه الثانيه بعد ١٧ شهرا من الهجره في منتصف شهر رجب الحرام. الاحتجاج للطبرسي: ٤٣/١ و ١٩٤، مسند أحمد: ٣٠٤/٤، صحيح البخارى: ١٣٤/٨، تفسير مجمع البيان: ٤١٥/١.

٢- (٢) حياه النبيّ صلى الله عليه و آله الخاصّه قبل مرحله النبوه الوارده في كتب التاريخ لهي خير دليل على وجود علاقته له مع الله سبحانه بمستوى التسديد لأقواله و أفعاله فيما يذهب اتباع مدرسه أهل البيت إلى عصمته قبل البعثه و أوضح الإمام أميرالمؤمنين هذا المعنى بقوله: «و لقد قرن الله به صلى الله عليه و آله من لدن أن كان فطيما أعظم ملك من ملائكته، يسئلك به طريق المكارم و محاسن أخلاق العالم، ليله و نهاره» نهج البلاغه الخطبه ١٩٢ (القاصعه).

أو بخاطر أحد من الناس ما سيلقى الله عليه من رساله.

و كان هذا المسجد الحرام إلى مئات من السنين خلت (١) وجهه العرب في عبادتهم يحجّون إليه كل عام في الأشهر الحرم، فمن دخله أثناءها كان آمناً، فإذا التقى المرء بأشدّ الناس له عداوه، لم يستطع عنده أن يجرد سيفاً أو يسفك دماً. لكن قريشا آلت على نفسها منذ هاجر «محمد» والمسلمون معه أن يصدّوهم عن المسجد الحرام، و أن يحولوا بينهم و بينه دون سائر العرب.

و في ذلك نزل (٢) قوله تعالى منذ السنه الأولى للهجره: يَسْتَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَ صَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَ كُفْرٌ بِهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ إِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ٣.

ونزل كذلك قوله تعالى من بعد غزوه بدر في سورة الأنفال: وَ مَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَ هُمْ يَصِيدُونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ مَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَ مَا كَانَ صِيَ لَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مَكَاءً وَ تَصَدِيحَهُ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ٤. وفي هذه السنوات الست نزلت الآيات كثيره متتابعه في هذا المسجد الحرام الذي جعله الله مثابه للناس و أمناً. لكن قريشا كانت ترى محمداً و الذين معه كفورا بآلهه هذا البيت هبل

ص: ٥١٨

١- (١) بل «مله إبراهيم عليه السلام» و سننه الحنيفيه مع ما تخللها من البدع.

٢- (٢) تفسير الرازي: ٣٠/٦، و الزمخشري: ٢٥٨/١.

واللآلت والعزى وسائر الأصنام معها، وكانت لذلك ترى حربهم وحرمانهم من الحج إلى الكعبة، حتى يثوبوا إلى آلهة آبائهم، واجباً عليها.

والمسلمون فى أثناء ذلك يذوقون ألم الحرمان من أداء هذا الواجب الدينى المفروض عليهم، كما كان مفروضاً من قبل على آبائهم. والمهاجرون منهم يذوقون إلى جانب ذلك همماً واصباً وألماً لذاعاً: ألم النفى وهم الحرمان من الوطن ومن أهلهم فيه. وهؤلاء وأولئك كانوا فى ثقتهم بنصر الله رسوله ونصره إياهم وإعلاء دينهم على الدين كله، يؤمنون بأن يوماً قريباً لابد، آت يفتح الله لهم فيه أبواب مكة ليطوفوا بالبيت العتيق، وليؤدوا فريضه فرضها الله على الناس جميعاً. وإذا كانت السنه تمرّ تلو السنه فتساجل الغزوه الغزوه وتكون بدر ثمّ أحد ثمّ الخندق ثمّ ما بين هذه الغزوات وما بعدها، فإنّ هذا اليوم الذى يؤمنون به لا ريب آت. وما أشدهم لهذا اليوم شوقاً! وما أشدّ ما يشاركنهم «محمّد» فى شوقهم، وما يؤكّد لهم أنّ هذا اليوم آت عمّا قريب!.

والحقّ أنّ قريشاً ظلّموا «محمّداً» وأصحابه بمنعهم من زياره الكعبة وأداء فرائض الحجّ والعمره. فلم يكن هذا البيت العتيق ملكاً لقريش، ولكنّه كان ملكاً للعرب جميعاً^(١). وإنّما كانت فى قريش سدانه الكعبة وسقايه الحاجّ، وما إلى ذلك من العنايه بالبيت ورعايه زائريه. ولم يكن اتجاه قبيله بعبادتها إلى صنم دون آخر ليبيح لقريش منعها من زياره الكعبة والطواف

ص: ٥١٩

١- (١) بل هو كما قال: عتيق عن التملك لأحد إلالله الواحد القهار، لا للعرب ولا لغيرهم: «مثابه للناس». هذا الاعتقاد الجاهلى بأنّ البيت ليس ملكاً لقريش وإنّما هو ملك للعرب ناتج عن تصوّر وثقافه قوميه مرفوضه إسلامياً بل حتى فى نظر العرب آنذاك، فكلّمه البيت العتيق كافيه لنفى هذا النفور أى عتيق عن التملك لأحد إلالله الواحد القهار فهو ليس ملكاً للعرب ولا لغيرهم وإنّما هو مثابه للناس وكلّمه الناس أعمّ من العربى وغيره.

بها والقيام بما تفرضه عباده هذا الصنم من طقوس. فاذا جاء «محمد» ليدعو الناس إلى نبد عباده الأصنام، وإلى التطهر من رجس الوثنيه والشرك، والسمو بالنفس إلى عباده الله وحده لا شريك له، والارتفاع في سبيل ذلك فوق كل نقص، والارتقاء بالروح إلى حيث يستطيع إدراك وحده الوجود والتوحيد بالله. وكان من فرائض ذلك حج البيت والعمرة، فمن العدوان مع أصحاب هذا الدين الجديد منع أداء هذه الفريضة. لكن قريشاً خافت إن جاء «محمد» ومن حوله المؤمنون بالله وبرسالته، وهم من صميم أصل مكّه، أن يتعلّق سواد المكّيين بهم وأن يشعروا بما في بقائهم بعيدين عن أهلهم وأبنائهم من ظلم فتكون هذه نواه حرب أهليه. ثم إن رؤساء قريش وأكابر أهل مكّه لم ينسوا لمحّمّد والذين معه ما حطموا تجارتهم وحالوا بينهم وبين طريقهم المعبده إلى الشام، وما أثاروا بذلك في نفوسهم من حقد وبغضاء لن يخفف منها أنّ البيت لله وللعرب جميعاً^(١)، وأنهم لا يملكون من أمره إلّا العناية به ورعايه زائريه.

انقضت ست سنوات منذ الهجرة والمسلمون يتحرّقون شوقاً يريدون زياره الكعبه ويريدون الحج والعمرة. وإنهم لمجتمعون بالمسجد ذات صباح إذ أنبأهم النبيّ بما في رؤياه الصادقه: ذلك أنّهم سيدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون^(٢). فما كاد القوم يسمعون إلى رؤيا رسول الله حتّى علا بحمد الله صوتهم، وحتّى انتقل نبأ هذه الرؤيا إلى سائر أنحاء المدينه في سرعه البرق الخاطف. ولكن كيف يدخلون

ص: ٥٢٠

١- (١) بل هو لله الواحد القهار «مثابه للناس» لا العرب فحسب!

٢- (٢) المغازي للواقدي: ٥٧٢/١، وتاريخ يعقوبى: ٣٧٣/١، وإمتاع الأسماع: ٢٧٤/١، وتفسير القمى: ٣٠٩/٢، وبحار الأنوار: ٣٤٧/٢٠.

المسجد الحرام؟ أفيحاربون في سبيله؟ أيجلون قريشاً عنه عنوه؟! أم ترى تفتح قريش لهم طريقه مذعنه صاغره؟!.

كلّا! لا قتال ولا حرب. بل أذن «محمّد» في الناس بالحجّ في شهر ذي القعدة الحرام. وأوفد رسله إلى القبائل من غير المسلمين يدعوهم إلى الاشتراك وإياه في الخروج إلى بيت الله آمنين غير مقاتلين. وحرص «محمّد» في نفس الوقت على أن يكون معه من المسلمين أكبر عدد مستطاع.

وحكمته في ذلك أن تعلم العرب كلّها أنّه خرج في الشهر الحرام حاجاً ولم يخرج غازياً، وأنّه أراد أداء فريضة فرضها الإسلام، كما فرضتها أديان العرب من قبل؛ وأنّه أشرك العرب معه ممّن ليسوا على دينه في أداء هذه الفريضة. فإن أصرت قريش مع ذلك على مقاتلته في الشهر الحرام ومنعه من أداء ما يؤمن العرب على اختلاف آلهتهم به، لم تجد قريش من العرب من يؤيدها في موقفها ومن يعينها على قتال المسلمين، وكانت بامعانها في الصّدّ عن المسجد الحرام، تصرف الناس عن دين إسماعيل وعن مله أبيهم إبراهيم، فأمن المسلمون بذلك أن تجتمع العرب عليهم اجتماع الأحزاب من قبل، وكان لدينهم بذلك ما يزيد شأنه، عند العرب الذين لا يؤمنون به، رفعه على رفعتة. وما عسى أن تقول قريش لقوم جاءوا محرمين، لا سلاح معهم إلّا سيوفهم في غمودها، يتقدّمهم الهدى الذي ينحرون، ولا همّ لهم إلّا أن يؤدّوا بتطواف البيت فريضة تؤديها العرب جميعاً؟!

أذن «محمّد» في الناس بالحجّ، وطلب إلى القبائل من غير المسلمين الخروج معه، فأبطأ عليه كثير من الأعراب وخرج في أوّل ذي القعدة أحد

الأشهر الحرم بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب (١)، يتقدمهم على ناقته القصى، فكانت عدّه الذين خرجوا ألفاً وأربعمئة. وساق «محمّد» معه الهدي سبعين بدنه، وأحرم بالعمرة ليعلم الناس أنه لا يريد قتالاً، وأنه إنما خرج زائراً بيت الله الحرام معظماً له. فلما بلغ ذا الحليفة عقص الناس الرؤوس ولثوا بالحجّ وعزلوا الهدي ومازوا جوانبها اليمنى، ومن بينها بعير أبي جهل الذي أخذوا بيد. ولم يحمل أحد من هذا الحاجّ سلاحاً إلّا ما يحمل المسافر من سيف مغمد. وكانت أم سلمة زوج النبيّ معه في هذه الرحلة (٢).

وبلغ قريشاً أمر «محمّد» ومن معه وأنهم يسرون قبلهم حاجين، فامتأنت نفس قريش بالمخاوف وجعلوا يقبلون هذا الأمر على وجوهه، يحسبونه حيلة أراد «محمّد» أن يحتال بها لدخول مكّه، بعد أن صدّهم والأحزاب معهم عن دخول المدينة. ولم يشتمهم ما علموا من إحرام خصومهم بالعمرة وإذاعتهم في أنحاء الجزيرة كلّها أنّهم لا تحركهم إلّا العاطفه الدينيه لقضاء فرض يقره العرب جميعاً، عن أن يقرروا الحيلولة دون «محمّد» ودخول مكّه، بالغاً ما بلغ الثمن الذى يدفعونه لتنفيذ قرارهم هذا. لذلك عقدوا لخالد بن الوليد وعكرمه بن أبي جهل على جيش يبلغ عدد فرسانه وخدمهم مئتين (٣). وتقدّم هذا الجيش حتّى يحول بين «محمّد» وأمّ القرى، وبلغ من

ص: ٥٢٢

١- (١) بل لم يتبعه منهم أحد، سيره ابن إسحاق: ٣٢٢/٣، وتفسير القمى: ٣١/٢.

٢- (٢) السير النبويّ لابن هشام: ٣٨/٢-٣٩، والمغازى للواقدي: ٥٧٢/١-٥٧٤، وتاريخ الطبرى: ١١٦/٢، وإعلام الورى: ٢٠٣/١، وتاريخ ابن خلدون: ٤٤٧/٢.

٣- (٣) المغازى للواقدي: ٥٧٩/١، وتاريخ ابن خلدون: ٤٤٧/٢، والطبقات الكبرى: ٩٥/٢، وإعلام الورى: ٢٠٤/١.

تقدمه أن عسكر بذي طوى.

أما «محمّد» فتابع مسيرته، حتّى إذا كان بعسفان لقيه رجل من بنى كعب سأله النّبىّ عمّا قد يكون لديه من أخبار قريش، فكان جوابه: «قد سمعت بمسيرتك فخرجوا وقد لبسوا جلود النمر ونزلوا بذي طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً. وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدّموها إلى كراع الغميم». قال «محمّد»:

«يا ويح قريش لقد أهلكتهم الحرب؛ ماذا عليهم لو خلّوا بينى وبين سائر العرب، فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوه! فما تظن قريش! فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتّى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفه» (١). ثمّ وقف يفكر ماذا عساه يصنع. إنّه لم يخرج من المدينه غازياً وإنّما خرج محرماً يريد بيت الله يؤدى عنده إلى الله فرضه، وهو لم يتخذ للحرب عدتها؛ فلعلّه إن حارب فلم ينتصر جعلت قريش من ذلك موضع فخارها؛ بل لعلّها إنّما أوفدت ابن الوليد وعكرمه قصد إدراك هذه البغيه حين علمت أنّه لم يخرج مقاتلاً.

وفيما كان «محمّد» يفكر كانت فرسان مكّه تبدو على مرمى النظر، يدل مرآها على أنّه لا سبيل للمسلمين إلى درك غايتهم إلّا أن يقتحموا هذه الصفوف اقتحاماً، وأن تدور معركة تقف فيها قريش مدافعه عن كرامتها وعن شرفها وعن وطنها؛ معركة لم يردّها «محمّد» وإنّما حملته قريش عليها حملاً. وألزمته خوض غمارها إلزاماً. إنّ المسلمين ممّن معه لا تنقصهم الحميه، وقد تكفيهم سيوفهم إذا جرّدت من غمودها لدفع عدوان المعتدى؛

ص: ٥٢٣

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٣٠٩/٢، و تاريخ الطبرى: ١١٦/٢، والسيره الحلبيه: ١٠/٣، وراجع بحار الأنوار: ٣٣٠/٢٠-٣٣١ وتفسير مجمع البيان: ١٩٦/٩.

لكنه يفوت بذلك قصده، وقد يجعل لقريش عند العرب حجه عليه، وهو أبعد من هذا نظراً وأكثر حنكاً وأدق سياسة. إذاً.. نادى فى الناس قائلاً: مَنْ رجلٌ يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها؟ وكذلك ظلّ مستقراً رأيه على سلوك سياسة السلم التى رسم منذ خرج من المدينة، و منذ اعتزم الذهاب إلى مكّه حاجّاً. وخرج رجل يسلك بهم طريقاً وعرّاً بين شتّاب مضميه وجد المسلمون فى سلوكها مشقه أى مشقه، حتّى أفضت بهم إلى سهل عند منقطع الوادى سلکوا فيه ذات اليمين حتّى خرجوا على ثبته المرار مهبط الحديدية من أسفل مكّه. فلَمّا رأت خيل قريش ما صنع «محمّد» وأصحابه، ركضوا راجعين أدراجهم ليقفوا مدافعين عن مكّه إذا دهمها المسلمون. ولَمّا بلغ المسلمون الحديدية بركت القُصوى (ناقه النبى) وظنّ المسلمون أنّها جهدت. قال رسول الله:

«إتّما حبسها حابس الفيل عن مكّه. لا تدعونى قريش اليوم إلى خطه يسألونى فيها صله الرحم إلّا أعطيتهم إياها.» ثمّ دعا الناس إلى النزول؛ فقالوا له: يا رسول الله، ما بالوادى ماء ننزل عليه. فأخرج هو سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً نزل به إلى بئر من الآبار المنتوره فى تلك الأنحاء فغرزه فى الرمال من قاع البئر فجاش الماء، فاطمأنّ الناس ونزلوا. (1)

ص: ٥٢٤

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٣٠٩/٢-٣١٠، وتاريخ الطبرى: ١١٧/٢، والسيره النبويه لابن كثير: ٣١٤/٣، ومناقب آل أبى طالب: ٩٠/١، والخرائج والجرائح، لقطب الدين الراوندى: ١٢٣/١، وبحار الأنوار: ٣٥٧/٢٠. قال الواقدى: وكان نفر من المنافقين جلوس ينظرون إلى الماء وقد جاشت البئر وهم على شفيرها، فقال أوس بن خولى لعبدالله بن أبى بن أبى سلول: ويحك يا أبا الحباب: أما آن لك أن تبصر ما أنت عليه؟ أبعد هذا شىء وردنا بئراً يتربض ماؤها فتوضأ رسول الله فى الدلو ومضمض فاه فيه، ثمّ أفرغ الدلو فيها ونزل بالسهم فحثوها فجاشت بالرواء. فقال ابن أبى: قد رأيت مثل هذا! فقال أوس: قبحك الله وقبح رأيك! وقال له رسول الله: أى أبا الحباب، أين رأيت مثل ما رأيت اليوم؟ قال: ما رأيت مثله قط! فقال رسول الله: فلم قلت ما قلت؟ قال استغفر الله، مغازى الواقدى: ٥٨٨/٢، من هنا لا يمكن حصر معجزه الرسول صلى الله عليه وآله بالقرآن فقط.

نزلوا، ولكن قريشاً بمكّه لهم بالمرصاد. وهى تؤثر الموت على أن يدخل «محمّد» عليهم إيّاهما. فهل يعدّون لقريش عدّه النزال فيحاربوها حتّى يحكم الله بينهم وبينها وحتّى يقضى الله أمراً كان مفعولاً؟! فى هذا فُكّر بعضهم، و فى احتمالاه فُكّرت قريش. وهو إذا كان وانتصر المسلمون فقد قضى على قريش عند العرب كلّها قضاءً أخيراً، وقد تعرّضت قريش لأن ينزع «محمّد» منها سدانه الكعبه وسقايه الحاجّ وكل ما تُفاخر به العرب من مراسم وطقوس دينيه. ماذا تصنع إذا؟! وقف المعسكران يفكّر كلّ فى الخطه التى يتبع. فأما «محمّد» فظل على خطته التى رسم منذ أعدّ للعمرة عدّته، خطه السلم والجنوح عن القتال إلّا أن تهاجمه قريش أو تغدر به، وهنالك لا يبقى من انتضاء السيف مفزّ. وأمّا قريش فتردّدت ثمّ فُكّرت فى أن توفد إليه من رجالها من يتعرّف قوّته من ناحيه، ومن يصدّه عن دخول مكّه من الناحيه الأخرى. وجاءه بديل بن ورقاء فى رجال من خزاعه يسألونه ما الذى جاء به. فلمّا اقتنعوا من حديثه بأنّه لم يأت يريد حرباً وإنّما جاء زائراً للبيت ومعظماً لحرمة، رجعوا إلى قريش يريدون إقناعهم ليخلّوا بين الرجل وأصحابه وبين البيت العتيق. لكنّ قريشاً اتّهموهم وجبهوهم وصاحوا بهم:

لئن جاء لا يريد قتالاً فوالله لا يدخل علينا عنوه أبداً ولا تتحدث بذلك عنّا العرب (١). ثمّ بعثت قريش رسولاً آخر لم يسمع إلّا ما سمع صاحبه ولم يغامر بأن يتّهم عند قريش (٢). وكانت قريش تعتمد فيما أعدّت من قتال «محمّداً»

ص: ٥٢٥

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٢١١/٢، والمغازى للواقدي: ٥٩٣/١-٥٩٤، وتاريخ الطبرى: ١١٨/٢، وراجع: مناقب آل أبى طالب: ١٧٥/١، وبحار الأنوار: ٣٣١/٢٠.

٢- (٢) وهو مكرز بن حفص راجع السيره النبويه لابن هشام: ٣١٢/٢، والمغازى للواقدي: ٥٩٩/١، و تاريخ يعقوبى: ٣٧٣/١، وراجع: تفسير مجمع البيان: ١٩٧/٩، وبحار الأنوار: ٣٣٣/٢٠.

على حلفائهم من الأحابيش، ففكرت أن توفد سيدهم لعله إذا رأى أن «محمداً» لا يسمع له ولا يتفاهم و إياه ازداد لقريش نصره فزادهم على «محمداً» قوه. وخرج الحليس سيد الأحابيش قاصداً معسكر المسلمين. فلما رآه النبي مقبلاً أمر بالهدي أن تطلق أمامه، لتكون تحت نظره دليلاً مادياً على أن هؤلاء الذين تريد قريش حربهم إنما جاءوا حاجين معظمين البيت.

ورأى الحليس الهدي سبعين بدنه تسيل عليه من عرض الوادي قد تأكلت أوبارها، فتأثر لهذا المنظر وثار في نفسه ثائرات دينه، وأيقن أن قريشاً ظالمه هؤلاء الذين لا يريدون حرباً ولا عدواناً؛ فانقلب إلى قريش دون أن يلقي «محمداً» وذكر لهم ما رأى. فلما سمعوا حديثه غاظهم وقالوا له: اجلس فأنما أنت أعرابي لا علم لك. وغضب الحليس لمقاتلتهم وأنذرهم أنه ما حالفهم ليصد عن البيت من جاء معظماً إياه، وأنهم إن لم يخلوا بين «محمداً» و ما جاء به نفر بالأحابيش عن مكة. و خشيت قريش عاقبه غضبه فاسترضوه وطلبوا إليه أن ينظرهم حتى يفكروا في أمرهم (١).

ثم رأوا أن يوفدوا حكيماً يطمثون إلى حكمته، فتحدثوا في ذلك إلى عروه بن مسعود الثقفي، فاعتذر لهم بما رأى من تعنيفهم وسوء مقابلتهم لمن سبقه من رسلهم. فلما اعتذروا له وأكدوا أنه عندهم غير متهم وأنهم يطمثون إلى حكمته و حسن رأيه، خرج إلى «محمداً» وذكر له: أن مكة بيضته. وأنه إن يفضضها على أهله المقيمين بها بمن جمع من أوشاب (٢) الناس ثم

ص: ٥٢٤

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٣١٢/٢، المغازي للواقدي: ٥٩٩/١-٦٠٠، وتاريخ الطبري: ١١٩/٢، والكافي للكليني: ٣٢٣/٨، وبحار الأنوار: ٣٦٦/٢٠.

٢- (٢) الأوشاب من الناس: الأخلاط، الواحد: وشب. والشب: شبيه بالإشابه، يقال: رجل من أوشاب الناس - كتاب العين: ٢٩١/٦.

انصرف هؤلاء الأوشاب عنه، كان العار الخالد لقريش عاراً لا يرضاه «محمد» وإن اتصلت الحرب بينه وبين قريش ما اتصلت. فصاح أبو بكر بعروه منكرأ أن ينصرف الناس عن رسول الله. وكان عروه يتناول لحيه «محمد» وهو يكلمه، وكان المغيرة بن شعبه واقفاً على رأس الرسول يضرب يد عروه كلما تناول لحيه «محمد»، مع علمه بأن عروه هو الذي دفع عنه قبل إسلامه ثلاث عشرة دية عن قتلى كان المغيرة قتلهم. ورجع عروه بعد أن سمع من «محمد» مثل ما سمع الذين سبقوه من أنه لم يأت يريد حرباً وإنما جاء معظماً البيت مؤدياً فرض ربّه. فلما كان عند قريش قال لهم:

«يامعشر قريش، إني جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل «محمد» في أصحابه، لا يتوضأ إلّا ابتدروا وضوءه، ولا يسقط من شعره شيء إلّا أخذوه، وإنهم لن يسلموه ليشيء أبداً، فزروا رأيكم»^(١).

وطالت المحادثات على النحو الذي قدمنا؛ ففكر «محمد» في أن رسل قريش قد لا يكون لديهم من الإقدام ما يقنعون به قريشاً بالرأى الذي يرى.

فبعث من جانبه رسولاً يبلغهم رأيه هو. لكنهم عقروا جمل هذا الرسول وأرادوا قتله لو لا أن منعته الأحابيش فخلّوا سبيله. وقد دل أهل مكّة بتصرفهم هذا على ما يسودهم من روح الخصومة والبغضاء ممّا قلق له صبر المسلمين، حتى لقد فكّر بعضهم في القتال^(٢). وفيما هم كذلك يتبادلون الرسل يحاولون أن يصلوا إلى اتفاق، كان بعض السفهاء من قريش يخرجون

ص: ٥٢٧

١- (١) السيرة النبويّة لابن هشام: ٣١٣/٢-٣١٤، والمغازي للواقدي: ٥٩٥/١-٥٩٩، والسيرة الحلبية: ١٥/٣، وتفسير مجمع البيان: ١٩٦/٩، وبحار الأنوار: ٣٣٢/٢٠.

٢- (٢) السيرة النبويّة لابن هشام: ٣١٤/٢، والمغازي للواقدي: ٦٠٠/١، السيرة الحلبية: ١٦/٣.

ليلاً- يرمون عسكر النبي بالحجاره؛ حتى خرج منهم أربعون أو خمسون رجلاً- يوماً ليصيبوا من أصحاب النبي، فأخذوا أخذاً وجيء بهم إليه. أفترى ماذا صنع؟! عفا عنهم و خلى سبيلهم(١). تشبثاً منه بخطفه السلم واحتراماً للشهر الحرام أن يُسفك فيه دم في الحديبيه، وهى من حرم مكه. و بُهتت قريش حين عرفوا هذا وسقطت كل حجة لهم يريدون أن يزعموا بها أن «محمداً» يريد حرباً، وأيقنوا أن كل اعتداء من جانبهم على «محمداً» لن تنظر إليه العرب إلا على أنه غدر دنىء، لمحمد الحق في أن يدفعه بكل ما أُوتى من قوه.

ثم إنّه عليه السلام حاول أن يمتحن صبر قريش مرّه أخرى بارسال رسول يفاوضهم؛ فدعا إليه عمر بن الخطاب كى يبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له.

قال عمر: «يا رسول الله إنى أخاف قريشاً على نفسى، وليس بمكّه من بنى عدى بن كعب أحد يمنعنى، وقد عرفت قريش عداوتى إياها وغلظتى عليها.

ولكنى أدلك على رجل أعزّ بها منى: عثمان بن عفان. فدعا النبيّ عثمان زوج ابنته وبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش. فخرج عثمان فى رسالته؛ فلقيه لأوّل ما دخل مكّه أبان بن سعيد فأجاره الزمن الذى يفرغ فيه من رسالته، وانطلق عثمان إلى سادّه قريش فأبلغهم رسالته. قالوا: يا عثمان إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. قال: ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله؛ إنّما جئنا لنزور البيت العتيق ولنعظم حرمة و لنؤدى فرض العباده عنده. وقد جئنا بالهدى معنا، فإذا نحرناها رجعنا بسلام. وأجابت قريش بأنّها أقسمت

ص: ٥٢٨

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٣١٤/٢، والمغازى للواقدي: ٦٠٢/١، والسيره الحلييه: ١٨/٣، وتفسير مجمع البيان: ٢٠٥/٩، وبحار الأنوار: ٣٢٦/٢٠.

لن يدخل «محمّد» مكّه هذا العام عنوه. وطال الحديث وطال احتباس عثمان عن المسلمين، وترامى إليهم أنّ قريشاً قتلته غيله وغدراً (١) ولعلّ سادّه قريش كانوا فى هذه الأثناء يبحثون مع عثمان عن صيغه توفّق بين قسمهم ألا يدخل «محمّد» هذا العام مكّه عنوه، وبين حرص المسلمين على أن يطوّفوا بالبيت العتيق ويؤدّوا إلى ربّ البيت فرضه؛ ولعلّهم قد أنسوا إلى عثمان، و كانوا فى هذه الأثناء يبحثون وإياه عن تنظيم علاقاتهم بمحمّد و تنظيم علاقات «محمّد» بهم.

مهما يكن من الأمر فقد قلق المسلمون بالحديبيه على عثمان أشدّ القلق، وتمثّل أمامهم غدر قريش وقتلهم إياه فى هذا الشهر الذى لا- تجيز فيه أديان العرب جميعاً لعدوّ أن يقتل فى حرم الكعبه ولا فى حرم مكّه عدوّه، وتمثّل أمامهم غدر قريش برجل ذهب إليهم فى رساله سلم وموادعه. ووضع كلّ منهم يده على قبضه سيفه سمه النذير وسمه البطش والغضب. ودخل فى روع النبى عليه السلام أنّ قريشاً قتلت عثمان فغدرت فى الشهر الحرام، فقال:

«لا نبرح حتّى نناجز القوم». ودعا أصحابه إليه، وقد وقف تحت شجره فى هذا الوادى فبايعوه جميعاً على ألا يفزوا حتّى الموت. بايعوه وكلّهم ثابت الإيمان، قوى العزيمه، ممتلى حماسه للانتقام ممّن غدر وقتل. بايعوه بيعه الرضوان (٢)، التى نزل (٣) فيها قوله تعالى فى سوره الفتح: لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ

ص: ٥٢٩

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٣١٥/٢، والمغازى للواقدى: ٦٠٠/١-٦٠٢، وتاريخ الطبرى: ١٢١/٢، وتفسير مجمع البيان: ١٩٥/٩، وبحار الأنوار: ٣٢٩/٢-٣٣٠.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٣١٥/٢-٣١٦، المغازى للواقدى: ٦٠٣/١، وعيون الأثر: ١٦٠/٢، إعلام الوريبأعلام الهدى: ٢٠٤/١، وبحار الأنوار: ٣٦١/٢٠.

٣- (٣) تفسير الطبرى: ٣٤٧/١١، وتفسير زاد المسير: ٤٣٤/٧، وتفسير مجمع البيان: ١٩٥/٩.

تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۖ فَلَمَّا أَتَمَّ الْمُسْلِمُونَ الْبَيْعَةَ، ضَرَبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَاحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى بَيْعَهُ لِعَثْمَانَ كَأَنَّهُ حَاضِرٌ مَعَهُمْ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ؛ وَبِهَذِهِ الْبَيْعَةِ اهْتَزَّتِ السِّيُوفُ فِي غَمُودِهَا، وَتَبَدَّى لِلْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا أَنَّ الْحَرْبَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَجَعَلَ كُلٌّ يَنْتَظِرُ يَوْمَ الظَّفَرِ، أَوْ يَوْمَ الاسْتِشْهَادِ بِنَفْسِ رَاضِيهِ وَفُؤَادِ مَرْتَاحِ وَقَلْبِ مَطْمَئِنٍ. وَإِنَّهُمْ لَكَذَلِكَ إِذْ تَرَامَى إِلَيْهِمْ أَنَّ عَثْمَانَ لَمْ يُقْتَلْ، ثُمَّ لَمْ يَطَّلِ بِهِمُ الْأَمْرَ حَتَّى جَاءَ عَثْمَانُ بِنَفْسِهِ إِلَيْهِمْ. عَلَى أَنَّ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ هَذِهِ بَقِيَتْ مَعَ ذَلِكَ، كَبَيْعَةِ الْعَقْبَةِ الْكُبْرَى، عَلَمًا فِي تَارِيخِ الْمُسْلِمِينَ كَانَ «مُحَمَّدًا» يَسْتَرِيحُ إِلَى ذِكْرِهَا، لَمَّا كَشَفَ مِنْ مَتَانَةِ الرُّوَاطِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَصْحَابِهِ، وَلَمَّا دَلَّ عَلَيْهِ مِنْ مَبْلَغِ إِقْدَامِهِمْ عَلَى خَوْضِ مَخَاطِرِ الْمَوْتِ لَا يَخَافُونَ. وَمَنْ أَقْدَمَ عَلَى مَخَاطِرِ الْمَوْتِ خَافَهُ الْمَوْتُ وَعَنْتَ لَهُ جِبْهَةُ الْحَيَاةِ وَكَانَ مِنَ الْفَائِزِينَ.

عاد عثمان فأبلغ «محمدًا» ما قالت قريش. فهم لم تبق عندهم ريبه في أنه وأصحابه إنما جاءوا حاجين معظمين للبيت. وهم يقدرون أنهم لا يملكون منع أحد من العرب عن الحج والعمرة في الأشهر الحرم، وهم مع ذلك قد خرجوا من قبل تحت رايه خالد بن الوليد لقتاله وصدّه عن دخول مكّه، وقد وقعت بين بعض رجالهم وبعض رجاله مناوشات؛ فإذا هم بعد الذي حدث تركوه يدخل مكّه تحدّثت العرب بأنهم انهزموا أمامه، فتضعضت في نظر العرب مكانتهم و سقطت هيبتهم. لذلك هم يُصِرُّون على موقفهم منه هذا العام إبقاء على هذه الهيبة واستبقاء لتلك المكانة. فليفكر وإياهم، وهذه ظروفه وظروفهم، لعلهم جميعاً يجدون من هذا الموقف

مخرجاً، وإلا فليس إلا الحرب يدخلونها طوعاً أو كرهاً. بل إنهم لها لكارهون في هذه الأشهر. تقديراً لحرمتها من ناحيه، ولأنها من الناحيه الأخرى، إذا لم تُحترم اليوم حُرمتها ووقعت الحرب فيها، لم يأمن العرب في مستقبل أيامهم أن يجيئوا إلى مكّه وأسواقها مخافه انتهاك الأشهر الحُرّم مرّةً أُخرى، فيجنى ذلك على تجاره مكّه وعلى أرزاق أهلها.

واتصل الحديث وعادت المفاوضات بين الفريقين كره أُخرى.

وأوفدت قريش سهيل بن عمرو وقالوا له: ائت «محمّداً» فصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنّا عامه هذا. فوالله لا تحدّث العرب عنّا أنه دخلها علينا عنوهً أبداً. فلما انتهى سهيل إلى الرسول جرت محادثات طويله للصلح و شروطه كانت تكاد تنقطع في بعض الأحيان، ثمّ يعيد اتصالها حرص الجانبيين على النجاح. و كان المسلمون من حول النبيّ يسمعون أمر هذه المحادثات ويضيق بعضهم بأمرها صبراً، لتشدّد سهيل في مسائل يتساهل النبيّ في قبولها. و لولا ثقة المسلمين المطلقه في نبيّهم، ولولا إيمانهم به، لما ارتضوا ما تمّ الاتفاق عليه، ولقاتلوا ليدخلوا مكّه، أو لتكون الأخرى. فقد ذهب عمر بن الخطاب في أعقاب انتهاء المحادثات إلى أبي بكر و دار بينهما الحديث الآتى:

عمر: يا أبا بكر، أليس برسول الله؟!

أبوبكر: بلى!

عمر: أولسنا بالمسلمين؟!

أبوبكر: بلى!

عمر: فعلام نعطي الدّنيه في ديننا؟!

أبوبكر: يا عمر إلزم مكانك، فإنّي أشهد أنه رسول الله!

ص: ٥٣١

عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله!

وانقلب عمر بعد ذلك إلى «محمّد»، وتحدّث وإياه بمثل هذا الحديث وهو مغيظ محقّق؛ لكنّ ذلك لم يغيّر من صبر النبيّ ولا من عزمه. وكلّ الذي قاله في ختام الحديث لعمر:

«أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يُضَيِّعني». ثمّ كان بعد ذلك من صبر «محمّد» حين كتابه العهد ما زاد في حفيظه بعض المسلمين (١). فقد دعا عليّ بن أبي طالب و قال له:

اكتب بسم الله الرّحمن الرّحيم.

فقال سهيل: أمسك؛ لا أعرف الرّحمن الرّحيم، بل أكتب باسمك اللهم. قال رسول الله:

أكتب باسمك اللهم. ثمّ قال:

أكتب هذا ما صالح عليه «محمّد» رسول الله سهيل بن عمرو. فقال سهيل: أمسك، لو شهدت أنّك رسول الله لم أفاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. قال رسول الله:

أكتب هذا ما صالح عليه «محمّد» بن عبد الله. ثمّ كتبت العهده من الطرفين وفيها أنّهما تهادنا عشر سنين، في رأى أكثر كتّاب السيره (٢)، و سنتين في قول الواقدي (٣)، وأنّ من أتى «محمّدًا» من قريش بغير إذن وليه ردّه عليهم، ومن جاء قريشاً من رجال «محمّد» لم يردّه عليه، وأنّه من أحبّ من العرب محالفه «محمّد» فلا جناح عليه، ومن أحبّ محالفه قريش فلا جناح عليه، وأن يرجع «محمّد» وأصحابه عن مكّه عامهم هذا، على أن يعودوا إليها في العام الذي يليه فيدخلوها ويقيموا بها ثلاثه أيام، ومعهم من السلاح السيوف في قُرْبها ولا سلاح غيرها. (٤)

ص: ٥٣٢

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٣١٦/٢-٣١٧، والمغازي للواقدي: ٦٠٥-٦٠٧، وتاريخ الطبري: ١٢٢/٢، وعيون الأثر: ١٦١/٢، والسيره الحلييه: ١٩/٣، وتفسير مجمع البيان: ١٩٨/٩-١٩٩، وبحار الأنوار: ٣٣٥/٢٠، ونقل هذه المحادثات في مجمع البيان وبحار الأنوار بين عمر ورسول الله صلى الله عليه وآله.

٢- (٢) تفسير القمّي: ٣١٤/٢، مجمع البيان: ١٧٩/٩ عن الزهري.

٣- (٣) بل عشر سنين: ٦١١/٢ وأوهم المؤلف، نعم انفراد يعقوبى بثلاث سنين: ٥٤/٢.

٤- (٤) السيره النبويه لابن هشام: ٣١٧/٢-٣١٨، والمغازي للواقدي: ٦١٠/١-٦١٢، وتاريخ الطبري: ١٢٢/٢-١٢٣، والسيره الحلييه:

١٩/٣-٢١، وإمتاع الأسماع: ٢٩٥/١، وعيون الأثر: ١٦١/٢، وتفسير مجمع البيان: ١٩٨/٩، وبحار الأنوار: ٣٣٤/٢٠.

وما كاد هذا العهد يوقَّع حتَّى حالفت خزاعه «محمّداً» وحتَّى حالفت بنوبكر قريشاً^(١). وما كاد هذا العهد يوقَّع حتَّى أقبل أبو جندل بن سهيل بن عمر على المسلمين يريد أن ينضم إليهم ويسير وإياهم. فلَمَّا رأى سهيل ابنه ضرب وجهه وأخذ بتليبيه وجعل يجرّه ليردّه إلى قريش وأبو جندل يصيح بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أُرُدُّ إلى المشركين يفتنونني في ديني! وزاد ذلك في قلق المسلمين وعدم رضاهم عن العهد الذي عقد الرسول مع سهيل. لكنّ «محمّداً» وجّه إلى أبي جندل قوله: «يا أبا جندل، اصبر واحتسب فإنّ الله جاعل لك ولَمَن معك من المستضعفين مخرجاً. إنّنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطيناهم عهد الله وإنّا لا نغدر بهم»^(٢). وعاد أبو جندل إلى قريش نفاذاً لعهد النبي ووعده. وقام سهيل راجعاً إلى مكّه. وأقام «محمّداً» مضطرباً ممّا رأى من شأن من حوله. ثُمَّ صَلَّى واطمأنّ، ثُمَّ قام إلى هديّه فنحره، ثُمَّ جلس فحلق رأسه إيذاناً بالعمرة، وقد إمتلأت نفسه بالسكينة والرضا. فلَمَّا رأى الناس صنيعه ورأوا سكينته تواتبوا ينحرون ويحلقون. وإنّ منهم من حلق ومنهم من قَصَّر. قال «محمّد»: يرحم الله المحلّقين. فتنادى الناس: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: يرحم الله المحلّقين. فتنادى الناس في قلق: والمقصرين يا رسول الله؟ قال:

والمقصرين. قال بعضهم: فلم ظاهرت يا رسول الله الترحيم للمحلّقين دون

ص: ٥٣٣

١- (١) السيره النبويّه لابن هشام: ٣١٨/٢، والمغازي للواقدي: ٦١٢/١، وتاريخ الطبري: ١٢٣/٢، وتفسير القمّي: ٣١٤/٢، وبحار الأنوار: ٣٥٣/٢٠.

٢- (٢) السيره النبويّه لابن هشام: ٣١٨/٢، والمغازي للواقدي: ٦٠٧/١-٦٠٨، وتاريخ الطبري: ١٢٣/٢.

لأنهم لم يشكوا(١).

لم يبق للمسلمين إلّا أن يرجعوا إلى المدينة في انتظار أن يعودوا إلى مكّه العام المقبل. وقد كان أكثرهم يحتمل هذه الفكرة على مضض ولا يهونها على نفسه، إلّا أنّها أمر الرسول. فهم ليس لهم عادة بهزيمه ولا تسليم من غير قتال. وهم في إيمانهم بنصر الله رسوله ودينه لم تخالجهم ريبه في اقتحام مكّه لو أنّ «محمّداً» أمر باقتحامها. وأقاموا بالحديبه أياماً، منهم من يتساءلون في حكمه هذا العهد الذي عقد النبي، ومنهم من تحدّثه نفسه بالشك في حكمته. ثمّ تحمّلوا وقفلوا راجعين. وإنهم لفي طريقهم بين مكّه والمدينة إذ نزل(٢) الوحي على النبي بسوره الفتح. فتلا النبي على أصحابه قوله تعالى: إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ يَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا٣ إلى آخر السوره. لم يبق إذّا ريب في أنّ عهد الحديبيه فتح مبين، وهو قد كان كذلك. وقد أثبت الأيام أنّ هذا العهد حكمه سياسيه وبعُد نظر كان لهما أكبر الأثر في مستقبل الاسلام وفي مستقبل العرب كلّه. فقد كانت هذه أوّل مرّه اعترفت قريش فيهما ب «محمّداً» لا على أنّه نائر بها خارج عليها؛ ولكن على أنّه ندها وعدلها،

ص: ٥٣٤

-
- ١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٣١٩/٢، والمغازي للواقدي: ٦١٣/١-٦١٥، وتاريخ الطبري: ١٢٤/٢، وتفسير القمي: ٣١٤/٢، وبحار الأنوار: ٣٣٥/٢٠. السؤال والجواب الأخير لا يوجد في تفسير القمي والبحار. وقال الواقدي: لما فرغ رسول الله من الكتاب قال لأصحابه: قوموا فانحروا واحلقوا! فلم يجبه منهم رجل إلى ذلك فقالها رسول الله ثلاث مرات كلّ ذلك يأمرهم فلم يفعل واحد منهم ذلك! وهذا يدل على أنّ النبي قد لاقى من صحبه من ظواهر الشك والعصيان ثمّ الطاعه بعد التلكؤ والبطؤ.
- ٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٣٢٠/٢، والمغازي للواقدي: ٦١٨/١، وعيون الأثر: ١٦٣/٢، وإعلام الوريبأعلام الهدى: ٢٠٥/١، وبحار الأنوار: ٣٦٣/٢٠.

فاعترفت بذلك بالدولة الإسلامية وقيامها. ثم إن إقرارها للمسلمين بحق زيارته البيت وإقامته شعائر الحج اعتراف منها بأن الإسلام دين مقرر معترف به من أديان شبه الجزيرة، وهدنه السنتين (١) أو السنوات العشر قد جعلت المسلمين يطمئنون من ناحيته الجنوب ولا يخشون غاره قريش، ومهدت للإسلام أن يزداد انتشاراً. أفليست قريش ألد أعدائه وأشدّ محاربيه قد انتهت بالاذعان لما لم تكن تدعن له من قبل قط؟! وقد انتشر الإسلام بالفعل بعد هذه الهدنة انتشاراً أسرع أضعافاً من انتشاره من قبل. كان الذين جاءوا إلى الحديبية ألفاً وأربعمائة. فلما كان بعد عامين اثنين وجاء «محمد» لفتح مكة جاء في عشرين ألفاً. وأشدّ ما اعترض عليه من ساورتهم الشكوك في حكمه عهد الحديبية ما نصّ عليه العهد من أن من أتى «محمداً» من قريش بغير إذن وليه ردّه عليهم، ومن جاء قريشاً من المسلمين لم يرده على «محمد».

وكان رأى «محمد» في هذا أن من ارتدّ عن الإسلام ولجأ إلى قريش لم يكن جديراً بأن يعود إلى جماعه المسلمين؛ وأن من أسلم وحاول اللحاق بمحمد فسيجعل الله له مخرجاً. وقد صدقت الظروف رأى «محمد»، في ذلك بأسرع مما كان يظن أصحابه، ودلت على أن الإسلام كسب من صلح الحديبية أعظم الكسب، ومهد إلى ما جاء بعد ذلك بشهرين اثنين من بدء «محمد» مخاطبه الملوك ورؤساء الدول الأجنبية يدعوهم إلى الإسلام.

صدقت الظروف رأى «محمد» بأسرع مما كان يظن أصحابه. فقد وفد أبو بصير من مكة إلى المدينة مسلماً ينطبق عليه العهد برده إلى قريش، لأنه خرج بغير رأى مولاة. فكتب أزهر بن عوف والأخنس بن شريق إلى النبي

ص: ٥٣٥

كى ىردّه، وبعثا بكتابهما مع رجل من بنى عامر ومعه مولى لهم. قال النبى:

يا ابا بصير، انا قد اعطينا هؤلاء القوم ماقد علمت، ولا يصح لنا فى ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، فانطلق إلى قومك. قال أبو بصير:

يا رسول الله أتردنى إلى المشركين يفتنونى فى دينى! فكزّر عليه النبى قوله، فانطلق مع الرجلين؛ حتى إذا كان بذى الحليفه سأل أبا بصير ما يرى سيفه، وما أن استوت قبضته فى يده حتى علا به العامرى فقتله، فخرج المولى يعدو ناحيه المدينه حتى أتى النبى. فما رآه قال: إن هذا رجل قد رأى فرعاً. ثم قال للرجل: ويحك! مالك؟ قال: قتل صاحبك صاحبى. ثم ما برح حتى طلع أبو بصير متوشحاً بالسيف موجهاً الحديث إلى «محمّد»، وهو يقول: يا رسول الله، وفّت ذمتك وأذى الله عنك، أسلمتني بيد القوم وقد امتنعت بدينى أن افتن فيه، أو يُعبث بى. ولم يخف الرسول إعجابه به وتمنيه أن لو كان معه رجال. ثم خرج أبو بصير حتى نزل العيص على ساحل البحر على طريق قريش، التى كانوا يأخذون إلى الشام. وكان عهد «محمّد» وقريش أن تترك هذه الطريق للتجاره لا- يقطعها هو ولا تقطعها قريش. فلما ذهب أبو بصير إليها وسمع المسلمون المقيمون بمكّه بأمره وبما كان من إعجاب الرسول به فرّ إليه منهم نحو سبعين رجلاً- اتّخذوه لهم إماماً، وجعلوا وإيّه يقطعون على قريش طريقها، حتى كانوا لا يظفرون بأحد منهم إلّا قتلوه ولا تمر بهم غير إلّا اقتطعوها. هنالك رأت قريش أنّها أكبر خساره بحرصها على هؤلاء المسلمين أن يظفروا بمكّه، وقدّرت أنّ الرجل الصادق الإيمان محاوله حبسه شرّ من إطلاق سراحه، فهو لابدّ منتهز فرصه الفرار، مقيم على الذين حاولوا حبسه حرباً عواناً هم فيها الأخسرون. وكأنّما ذكرت قريش «محمّداً» حين هاجر إلى المدينه وقطع عليهم طريق القوافل، وخشيت أن

يكرّر أبو بصير هذا الصنيع؛ فبعثت إلى النبيّ تسألُه بأرحامها إلّا آوى هؤلاء المسلمين حتّى يتركوا الطريق آمنًا^(١). ونزلت قريش بذلك عمّا أصرّ عليه سهيل بن عمرو من ردّ المسلمين من قريش إلى مكّه إذا هم ذهبوا إلى «محمّد» بغير رأى مواليتهم. وسقط بذلك الشرط الذي أحفظ عمر بن الخطاب والذي كان سبباً في ثورته التي ثار على أبي بكر. وآوى «محمّد» أصحابه وعاد طريق الشام آمنًا.

أمّا المهاجرات من قريش إلى المدينة فكان ل «محمّد» فيهن رأى آخر. خرجت أمّ كلثوم بنت عقبه بن أبي معيط من بعد الهدنه، فخرج أخوها عماره والوليد يطلبان إلى رسول الله أن يردها عليهما بحكم عهد الحديبيه.

لكنّ النبيّ أبى ورأى أنّ هذا العهد لا ينسحب على النساء حكمه؛ وأنّ النساء إذا استجرن وجبت إجارتهنّ^(٢). ثمّ إنّ المرأه إذا أسلمت لم تصبح حلاً لزوجه المشرک فوجب التفريق بينه وبينها. وفي ذلك نزل^(٣) قوله تعالى من سوره الممتحنه: يا أيّها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتنحنوهنّ الله أعلم بما يمانهنّ فإن علمتموهنّ مؤمنات فلا ترجعوهنّ إلى الكفار لا هنّ حلال لهم ولا هم يجلون لهمّ وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهنّ إذا آتيتموهنّ أجورهنّ ولا تمسسكنوا بعصم الكوافر و شيئلو ما أنفقتم و ليسئلو ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم و الله عليم حكيم ٤ وكذلك صدقت الظروف حكمه «محمّد» وبعده

ص: ٥٣٧

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٣٢٣/٢-٣٢٤، والمغازي للواقدي: ١/٦٢٤-٦٢٩، وتاريخ الطبري: ١٢٤/٢-١٢٥، وتفسير مجمع البيان: ١٩٩/٩، وبحار الأنوار: ٢٠/٣٣٥-٣٣٦.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٣٢٥/٢-٣٢٦، والمغازي للواقدي: ١/٦٣٠-٦٣٢، وتاريخ الطبري: ١٢٥/٢-١٢٦، وتفسير مجمع البيان: ٤٥٣/٩، وبحار الأنوار: ٢٠/٣٣٩.

٣- (٣) تفسير الطبري: ١٢/٦٤، وتفسير زاد المسير: ٨/٢٣٨، وتفسير مجمع البيان: ٩/٤٥٢.

نظرة و دقة سياسته، و أثبتت أنه إذ عقد عهد الحديبيه وضع حجرا لا ينقض في سياسه الإسلام و انتشاره و هذا هو الفتح المبين.

اطمأنت العلاقات بعد الحديبيه بين قريش و «محمّد» أعظم الطمأنينه و أمن كل جانب صاحبه؛ و اتجهت قريش كلّها إلى التوسع في تجارتها، لعلها تستعيد من طريقها ما فقدته أيام اتصال الحرب بين المسلمين و بينها، و حين سدّت عليها طريق الشام و أصبحت تجارتها معرّضة للضياع. أمّا «محمّد» فاتّجه بفكره إلى متابعه إبلاغ رسالته للناس جميعا في مشارق الأرض و مغاربها، و اتّجه فكره إلى توسيد أسباب النجاح لطمأنينه المسلمين في شبه الجزيرة. و هذا و ذلك هو ما صنع بارسال الرسل إلى الملوك في مختلف الدول، و باجلاء اليهود عن شبه جزيرة العرب إجمالا تاما بعد غزوه خيبر. (1)

ص: ٥٣٨

١- (١) إجمالا اليهود بعد خيبر عن شبه الجزيرة لو كان لما كان للوصيه به موضع، و وصيته صلى الله عليه و آله بذلك إنّما هي في الأصل وصيّة عمر نسبها إليه صلى الله عليه و آله.

الفصل الحادى والعشرون: خبير و الرسل إلى الملوك

الإسلام و التنظيم الإجتماعى، تحريم الخمر، رسل «محمّد» إلى الملوك و الأمراء، المسلمون و اليهود، غزوه خبير، القضاء الأخير على سلطه اليهود، ردّ الملوك على رسول النبى، فى انتظار عمره القضاء.

عاد «محمّد» و المسلمون معه من الحديبيه قافلين إلى المدينه بعد ثلاثه أسابيع من تمام الصلح بينهم و بين قريش ألأيدخلوا مكّه هذا العام و أن يدخلوها العام الذى يليه. عادوا و فى نفوسهم من أمر هذا الصلح شىء، أن اعتبره بعضهم غير متفق مع كرامه المسلمين، حتّى نزلت سوره الفتح و هم فى الطريق و تلاها النبى عليهم. و جعل «محمّد» يفكر أثناء مقامهم بالحديبيه و بعد عودهم منها ما ذا عساه يصنع للمزيد من تثبيت أصحابه، و لزياده انتشار دعوته. و انتهى به التفكير إلى ارسال رسله إلى هرقل و كسرى و المقوقس و نجاشى الحبشه و إلى الحارث الغسانى و إلى عامل كسرى فى اليمن (1)، كما انتهى به إلى ضروره القضاء قضاً أخيراً على شوكة اليهود فى

ص: ٥٣٩

١- (١) إمتاع الأسماع: ٣٠٤/١، و السيره الحلبيه: ٢٤٠/٣-٢٥٥، و السيره النبويه لا بن هشام: ٦٠٧/٢، و بحار الأنوار: ٣٧٧/٢٠-٣٨٠ عن الخرائج و الجرائح: ٦٤ و ١٠٤ و ١٣١-١٣٣.

و الحق - أن - الدعوه الإسلاميه كانت قد بلغت يومئذ من النضج ما يجعلها دين الناس كافه. فهي لم تقف عند التوحيد و ما يقتضيه التوحيد من عبادات، بل انفرج ميدانها و تناولت من صور النشاط الاجتماعى العامه ما يوازى بينها و بين سمو فكره التوحيد، و يجعل صاحبهما أدنى إلى بلوغ مراتب الكمال الإنسانى و إلى تحقيق المثل الأعلى فى الحياه. اختلف مؤرخو السيره فى تحريم الخمر متى كان، و ذهب بعضهم إلى أنه كان فى السنه الرابعه للهجره، و لكن - أكثرهم على أن كان عام الحديبيه (٢). و الفكره فى تحريم الخمر اجتماعيه غير متصله بالتوحيد من حيث هو التوحيد. و لا أدل - على ذلك من أن - التحريم لم ينزل به القرآن إلا بعد انقضاء عشرين سنه أو نحوها على بعث النبى، و أن - المسلمين ظلوا يشربونها إلى أن نزل التحريم. و لا أدل - على ذلك من أن التحريم لم ينزل مره واحده، بل نزل على فترات جعلت المسلمين يخفون منها، حتى كان التحريم فانتهوا عن شربها. فقد روى عن عمر بن الخطاب أنه سأل عن الخمر و قال: اللهم - بين لنا فيها؛ فنزلت (٣) الآيه:

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنَافِعٌ لِلنَّاسِ وَ إِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ٤٥،٤٦. فلما لم يكف المسلمون بعد هذه الآيه، و كان بعضهم يقضى ليله

ص: ٥٤٠

١- (١) إمتاع الأسماع: ٣٠٦/١، و السيره النبويه لا بن هشام: ٣٢٨/٢، و المغازى للواقدي: ٦٣٣/٢.

٢- (٢) السيره الحليه: ٣٠/٣.

٣- (٣) تفسير زاد المسير: ٢٣٩/١.

متوقفاً على شرابه حتى إذا ذهب إلى صلاة الفجر ذهب و هو لا يعلم ما يقول في صلاته، عاد عمر فقال: اللهم بين لنا في الخمر فإنها تذهب العقل و المال؛ فنزلت (١) الآية: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَ أَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ٢ . و حتى كان منادى الرسول ينادى و قت الصلاة: لا- يقربن الصلاة سكران. و على الرغم مما كان يقتضى هذا الأمر من الإقلال من الشراب و ما كان له في هذه الناحية من أثر بالغ جعل الكثيرين يقلون من الخمر ما استطاعوا، فقد عاد عمر بعد زمن يقول: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فإنها تذهب العقل و المال. و قد كان عمر في حل - من قولها أن كان العرب، و المسلمون من بينهم، يصل بهم الشراب إلى حد يجعلهم يعربدون، يأخذ بعضهم بلحيه بعض و يهوى بعضهم على رأس بعض. دعا بعضهم جماعه إلى طعام و شراب، فلما ثملوا (٢) ذكروا المهاجرين و الأنصار، فأبدى أحدهم التعصب للمهاجرين، فأخذ متعصب للأنصار بعظمه من عظام رأس الجزور الذى يأكلونه فجرح به أنف المهاجرى. و ثمل حيان فتشاجرا فشج بعضهم بعضا ف وقعت فى أنفسهم الضغائن، و كانوا من قبل ذلك أحبه متصافين؛ إذ ذلك نزل (٣) قوله تعالى: إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَ الْأَنْصَابُ وَ الْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَ الْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ

ص: ٥٤١

-
- ١- (١) أسباب النزول للواحدى: ٤٤.
 - ٢- (٣) الثمل: السكر - كتاب العين: ٢٣٠/٨ و ثمل الرجل بالكسر ثملا، إذا أخذ فيه الشراب، فهو ثمل، أى نشوان - الصحاح، الجوهري: ١٦٤٩/٤.
 - ٣- (٤) أسباب النزول للواحدى: ١٣٨.

وَالْمَيْسِرِ وَيُصَدِّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ۝١ . وقد كان أنس الساقى يوم حرّمت الخمر، فلما سمع المنادى بتحريمها بادر فأراقها. لكن «أناسا لم يرقهم هذا التحريم فقالوا: أتكون الخمر رجسا و هي فى بطن فلان و فلان قتل يوم أحد. و فى بطن فلان و فلان قتل يوم بدر! فنزل (١) قوله تعالى: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعُمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۝٣ .

وما أمر به الإسلام من البرّ والرحمة وما دعا إليه من عمل الخير وما فى عباداته من رياضه النفس والطبع وما يصل إليه الركوع والسجود فى الصلاه من قتل غرور القلب، كل ذلك جعله الكمال الطبيعى للأديان التى سبقتة، وجعل الدعوه إليه للناس كافه. وقد كان هرقل وكسرى يومئذٍ على رأس دولتى الرومان والفرس أقوى دول العصر و صاحبتى الإملا على سياسه العالم و على مصير أممه جميعا. و كانت الحرب سجالا بين الدولتين كما رأيت؛ و كانت الفرس صاحبه الغلب أول الأمر فاستولت على فلسطين و على مصر، و وضعت يدها على بيت المقدس و نقلت منه الصليب. ثم دارت على الفرس الدائره، فعادت أعلام بيزنطه تخفق مرّه أخرى على مصر و على سوريه و فلسطين. و استردّ هرقل الصليب بعد أن نذر إن هو تم له النصر أن يحجّ إلى بيت المقدس ماشيا حتّى يرد الصليب فيه إلى مكانه (٢). و يسير

ص: ٥٤٢

١- (٢) أسباب النزول للواحدى: ١٤٠-١٤١.

٢- (٤) الطبرى: ١٢٨/٢.

عليك إذ تذكر مكانه الدولتين أن تقدّر ما يبعثه اسمهما من الرهبة إلى النفوس و من الهيبة إلى القلوب حتّى لا تفكر دوله في التعرّض لهما، و لا يدور بخلد (١) أحد أن يفكر في غير خطبه و دّهما. و إذا كان ذلك شأن دول العالم المعروفه يومئذ جميعا، فقد كان أجدر ببلاد العرب أن يكون ذلك شأنها، و قد كانت اليمن و العراق تحت نفوذ فارس (٢)، و كانت مصر و الشام تحت نفوذ هرقل (٣)؛ فكان الحجاز و سائر شبه الجزيرة محصورا في دائره نفوذ الإمبراطوريتين.

و كانت حياه العرب و قفا على التجاره مع اليمن و مع الشام؛ فكانت بذلك محتاجه أشدّ الحاجه إلى مصانعه كسرى و هرقل جميعا حتّى لا يفسدا بسلطانهما عليها تجارتها. ثم إن العرب لم تكن تزيد على قبائل تشتد الخصومه بينها حيناً و تهدأ حيناً آخر، و لا تربط بعضها ببعض رابطة تجعل منها و حده سياسيه تستطيع أن تفكر في مواجهه نفوذ الدولتين العظيمتين. و لذلك كان عجيباً أن يفكر «محمّد» يومئذ في أن يرسل رسله إلى الملكين العظيمين و إلى غسان و اليمن و مصر و الحبشه يدعوهم إلى دينه، دون خشيه ممّا قد يترتب على عمله هذا من نتائج ربّما تجرّ على بلاد العرب كلّها الخضوع لنير فارس أو بيزنطه.

لكن «محمّد» لم يتردّد في دعوه هؤلاء الملوك جميعا إلى دين الحقّ.

بل خرج يوماً على أصحابه فقال:

«أيّها الناس: إن الله قد بعثنى رحمه و كافه فلا تختلفوا عليّ كما اختلف الحواريّون على عيسى ابن مريم» قال أصحابه: و كيف اختلف

ص: ٥٤٣

١- (١) الخلد: البال، تقول: ما يقع ذلك في خلدى - كتاب العين: ٢٣٢/٤.

٢- (٢) تاريخ الإسلام للذهبي: ٣١/١ و ٣٧.

٣- (٣) تاريخ الإسلام للذهبي: ٤٠/١.

«دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه، فأما من بعثه مبعثاً قريباً فرضى و سلم، و أما من بعثه مبعثاً بعيداً فكره وجهه و تناقل». ثم ذكر لهم أنه مرسل إلى هرقل و كسرى و المقوقس و الحارث الغسانی ملك الحيره و الحارث الحميرى ملك اليمن و إلى نجاشى الحبشه يدعوهم إلى الإسلام(١). و أجابه أصحابه إلى ما أراد. فصنع له خاتماً من فضه نقش عليه «محمّد رسول الله»(٢).

و بعث بكتبه يقول فيها ما نضع منه مثلاً أمام القارئ، كتابه إلى هرقل إذا جاء فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من أتبع الهدى. أما بعد فيأني أدعوك بدعوة الإسلام. اسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين»(٣). قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ٤. و دفع بكتاب هرقل إلى دحيه بن خليفه الكلبي، و بكتاب كسرى إلى عبدالله بن خذافه السهمي، و بكتاب النجاشي إلى عمرو بن أمية الضمري، و بكتاب المقوقس إلى حاطب بن أبي بلتعنه، و بكتاب ملكى عمان إلى عمرو بن العاص السهمي، و بكتاب ملكى اليمامة إلى سليط بن عمرو، و بكتاب ملك البحرين إلى العلاء ابن الحضرمي، و بكتاب الحارث الغسانی ملك تخوم الشام إلى شجاع بن وهب الأسدي، و بكتاب الحارث

ص: ٥٤٤

١- (١) تاريخ الطبرى: ١٢٨/٢، والسيره النبويه لابن هشام: ٦٠٦/٢، والسيره الحلبيه: ٢٤١/٣-٢٤٢.

٢- (٢) السيره الحلبيه: ٢٤٠/٣، بحار الأنوار: ٣٨٢/٢٠.

٣- (٣) عيون الأثر: ٣٢٦/٢، والسيره الحلبيه: ٢٤٤/٣، بحار الأنوار: ٣٨٦/٢٠.

الحميرى ملك اليمن إلى المهاجر بن أمية المخزومي (١). وانطلق هؤلاء جميعاً كل إلى حيث أرسله النبي. انطلقوا في وقت واحد على قول أكثر المؤرخين، وانطلقوا في أوقات مختلفه على قول بعضهم.

أليس إرسال «محمد» هؤلاء الرسل عجباً يثير الدهشه؟! أوليس أشد إثارة للدهشه ألاتمضى ثلاثون عاماً بعد ذلك حتى إذا هذه البلاد التي أرسل «محمد» إليها رسله قد فتحها المسلمون وقد اعتنق أكثرها الإسلام؟ لكن هذه الدهشه ما تلبث أن تتلاشى حين تذكر أن الإمبراطوريتين العظيمتين اللتين كانتا تزعمان تحضير عالم ذلك العصر، وكانت حضارتها هي الغالبه على العالم كله، إنما كانتا تتنازعان الغلب المادى، على حين كانت القوه الروحيه فيهما جميعاً قد انحلت واطمحت. فقد كانت فارس مقسّمه بين الوثنيه والمجوسيه. وكانت مسيحيه بزئطيه قد اضطرت بين مختلف المذاهب والفرق، فلم تظل عقيدته سليمه، تحرّك النفوس وتقوى القلوب، بل انقلبت طقوساً يهيم بها رجال الدين على عقول السواد لحكمه واستغلاله. أمّا الدعوه الجديده التي يدعو «محمد» إليها فكانت روحيه صرفه، وكانت ترتفع بالإنسان إلى أسمى مراتب الإنسان. وحيثما التقت الماده والروح، وحيثما انتطح همّ الحاضر بأمل الخلود، انهزمت الماده وعنا وجه الحاضر.

ثم إن فارس وبزئطيه كانتا - على عظم سلطانهما - قد فقدتا قوه الابتكار وملكه الانشاء، ونزلتا في عالم التفكير وفي عالم الشعور وفي عالم العمل إلى درك التقليد واحتذاء السلف، واعتبار كل جديد بدعه وكل بدعه ضلاله.

ص: ٥٤٥

والجماعه الإنسانيه، كالفرد الإنساني وككلّ كائن حي، تتجدّد كلّ يوم. فإمّا كانت ماتزال فتيه شابه فكان تجددها خلقاً وإنشاءً ومزيداً في الحياه. وإمّا كانت قد بلغت الذروه ولم تعد قادره على الإنشاء والخلق فهي تُنفق من رأس مال حياتها، فحياتها لذلك في نقص مستمر وفي انحدار إلى درك النهايه.

والجماعه الإنسانيه التي تنحدر إلى درك النهايه مصيرها أن يخلقها عنصر خارجي، فيه فتوّه الحياه، خلقاً جديداً. والعنصر الخارجى الملىء بقوه الحياه الفتيه إلى جانب فارس وبزنطيه لم يكن في ناحيه الصين أو الهند ولا كان في ناحيه أواسط أوربا؛ إنّما كان هذا العنصر «محمّداً». كانت دعوته في شباب فتوّتها جديره بأن تعيد إلى هذه النفوس المتهدم داخلها بحكم الطقوس والخرافات القائمه منها مقام الإيمان والعقيده، حياه فتيه تجددها وتردّها إلى الحياه. وشعله الإيمان الجديد التي كانت تضىء نفس الرسول، وقوّه نفسه التي سمت فوق كلّ قوه، هي التي هدت إلهامه إلى أن يبعث بهؤلاء الرسل يدعون عظماء الأرض بدعايه الإسلام إلى دين الحقّ، دين الكمال، دين الله جلّ شأنه؛ إلى الدين الذي يحزّر العقول لتري، والقلوب لتبصر، والذي يضع للإنسان في حياه العقيده كما يضع له في نظام الجماعه، قواعد عامه توازي بين سلطان الروح وقوّه الماده التي تنطوى على الروح، لتبلغ بالإنسان من طريق هذه الموازاه إلى غايه ما يستطيع بلوغه من قوه على الحياه؛ قوه لا يشوبها وهنّ ولا يشوبها غرور، ولتبلغ بالجماعه الإنسانيه بفضل ذلك النظام إلى خير مكان أعدّها لها بعد أن تسلك ما قُعدّر لها من دروب التطوّر بين كائنات الوجود جميعاً.

أفیرسل «محمّد» رسله إلى هؤلاء الملوك وهو ما يزال يخشى غدر اليهود الذين لا يزالون مقيمين شمال المدينة؟ صحيح أنه قد عهّد عهد الحديبيه فأمن قريشاً وأمن الجنوب كله؛ لكنّه لن يأمن من ناحيه الشمال أن يستعين هرقّل أو أن يستعين كسرى بيهود خبير وأن يحرك في نفوسهم ثاراتهم القديمه، وأن يذكّرهم بإخوانهم في الدين من بنى قريظه وبنى النضير وبنى قينقاع وقد أجلاهم «محمّد» عن ديارهم بعد أن حصرهم بها وقاتلهم فيها وقتل منهم وسفك دماءهم. واليهود أشدّ من قريش عداوه له، لأنّهم أحرص منهم على دينهم، ولأنّ فيهم ذكاءً وعلماً أكثر ممّا في قريش. وليس من اليسير أن يوادعهم بصلح كصلح الحديبيه، ولا أن يطمئن لهم وقد سبقت بينه وبينهم خصومات لم ينتصروا في إحداها. فما أجدرهم أن يثاروا لأنفسهم إذا هم وجدوا من ناحيه هرقّل مدداً. لا بدّ إذاً من القضاء على شوكة هؤلاء اليهود قضاءً أخيراً حتّى لا تقوم لهم من بعد ببلاد العرب قائمه أبداً. ولا بدّ من المسارعه إلى ذلك حتّى لا يكون لديهم من الوقت متسع للاستعانه بغطفان أو غيرها من القبائل المعاديه ل «محمّد» والمواليه لها.

وكذلك فعل؛ فإنّه لم يبق بالمدينه بعد عوده من الحديبيه إلّا خمس عشره ليله على قول، وشهراً على قول آخر، ثمّ أمر الناس بالتجهيز لغزو خبير على ألا يغزو معه إلّا من شهد الحديبيه، إلّا أن يكون غازياً متطوعاً ليس له من الغنيمه شىء. وانطلق المسلمون في ألف وستمئه ومعهم مئه فارس، وكلّهم واثق بنصر الله، ذاكر قوله تعالى في سوره الفتح التى نزلت في عهد الحديبيه: سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ

أَنْ يُدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ وَقَطَعُوا مَرَاكِلَ الطَّرِيقِ مَا بَيْنَ خَيْبَرَ وَالْمَدِينَةِ فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ لَمْ تَكُ خَيْبَرَ تَحْسَبُهُمْ أَثْنَاءَهَا، حَتَّى لَقِدُوا أَمَامَ حَصُونِهَا. وَأَصْبَحَ الصَّبَاحُ وَغَدَا عُمَالُ خَيْبَرَ خَارِجِينَ إِلَى مَزَارِعِهِمْ وَمَعَهُمْ مَسَاحِيهِمْ وَمَكَاتِلَهُمْ؛ فَلَمَّا رَأَوْا جَيْشَ الْمُسْلِمِينَ وَلَوْ الْأَدْبَارَ يَتَصَايِحُونَ: هَذَا «مُحَمَّدٌ» وَالْجَيْشَ مَعَهُ.

وقال الرسول حين سمع قولهم:

خَرِبَتْ خَيْبَرَ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمِ فِسَاءٍ صَبَاحَ الْمُنْذَرِينَ (١).

على أن يهود خيبر كانوا يتوقعون أن يغزوهم «محمد» (٢)، وكانوا يودون أن يجدوا الوسيلة إلى الخلاص منه. أما بعضهم فنصح لهم أن يبادروا إلى تأليف كتله منهم ومن يهود وادي القرى وتيماء تغزو يثرب، دون اعتماد على البطون العربية في الغزاه، أما الآخرون فكانوا يرون أن يدخلوا في حلف مع الرسول، لعل ذلك يمحو ما ثبت في نفوس المسلمين، والأنصار منهم خاصة بعد اشتراك حبي بن أخطب وجماعه من اليهود معه، في تأليب العرب لاقتحام المدينة وأخذها عنه في غزوه الخندق. لكن النفوس من الجانبين كانت ملأى، حتى لقد سبق المسلمون قبل غزوه خيبر بقتل كل من سلام بن أبي الحقيق واليسير بن رزام من زعماء خيبر (٣). ولذلك كانت اليهود على

ص: ٥٤٨

-
- ١- (٢) السيره الحلبيه: ٣١/٣-٣٢، السيره النبويه لابن هشام: ٣٢٩/٢-٣٣٠، إمتاع الأسماع: ٣٠٦/١-٣٠٧، وبحار الأنوار: ٣٢/٢١، وراجع: إعلام الوري بأعلام الهدى: ١٩٥/١.
 - ٢- (٣) في بعض السير أن اليهود كانوا لا يظنون بأن النبي سيغزوهم، السيره الحلبيه: ٣٣/٣، والمغازي للواقدي: ٦٣٧/٢، وإمتاع الأسماع: ٣٠٦/١.
 - ٣- (٤) سيره ابن هشام: ٢٧٣/٢.

إتصال دائم مع غطفان، ولذلك استعانوا بهم أول ما ترامى إليهم خبر اعتزام «محمّد» غزوهم (١). ويختلف الرواه فيما كان من غطفان: أهي أعانتهم، أم أنّ جيوش المسلمين قد حالت بينها وبين خيبر وسواء أكانت غطفان قد أعانت اليهود أم كانت قد وقفت بمعزل بعد أن وعدّها «محمّد» حظّاً من الغنائم، فقد كانت هذه الموقعه من أكبر المواقع، أن كانت جموع اليهود في خيبر من أقوى الطوائف الإسرائيلييه بأساً وأوفرها مالاً وأكثرها سلاحاً (٢)، وأن كان المسلمون مؤمنين بأنّ ما بقيت لليهود شوكة في شبه الجزيره فستظلّ المنافسه بين دين موسى والدين الجديد حائلاً دون تمام الغلب لهم، لذلك ذهبوا مستقتلين لا يعرف التردّد إلى نفوسهم سيلاً. ووقفت قريش ووقفت شبه جزيره العرب كلّها متطلّعه إلى هذه الغزوه؛ حتّى لقد كان من قريش من يتراهنون على نتائجها ولمن يتم الغلب فيها. وكان كثيرون من قريش يتوقّعون أن تدور الدائره على المسلمين لما عُرف من قوّه حصون خيبر وقيامها فوق الصخور والجبال، ولطول ممارسه أهلها للحرب والقتال (٣).

وقف المسلمون أمام حصون خيبر متأهّبين كاملى العُدّه. وتشاور اليهود فيما بينهم، فأشار عليهم زعيمهم سلّام بن مشكم فأدخلوا أموالهم وعيالهم في حصن الوطيح والسّلاليم، وأدخلوا ذخائرهم في حصن ناعم، ودخلت المقاتله وأهل الحرب في حصن نطاه، ودخل سلّام بن مشكم معهم يحرضهم على

ص: ٥٤٩

١- (١) سيره ابن هشام: ٣٣٠/٢.

٢- (٢) السيره الحلبيه: ٣٥/٣، والمغازى للواقدي: ٦٤٠/٢، بحار الأنوار: ٢٧/٢١.

٣- (٣) مغازى الواقدي: ٦٤١/٢.

الحرب والتقى الجمعان حول حصن نطاه واقتتلوا قتالاً شديداً، حتّى قيل: إنّ عدد الجرحى من المسلمين فى هذا اليوم بلغ خمسين (١). فكم كان إذاً عدد الجرحى من اليهود؟! وتوفّى سلّام بن مشكم، فتولّى الحارث بن أبى زينب قياده اليهود، وخرج من حصن ناعم يريد منازل المسلمين؛ فدحره بنو الخزرج واضطّروه أن يرتدّ إلى الحصن على أعقابهِ (٢). وضيق المسلمون الحصار على حصون خيبر، واليهود يستمتتون فى الدفاع عنها، إيماناً منهم بأنّ هزيمتهم أمام «محمّد» قضاء أخير على بنى إسرائيل فى بلاد العرب.

وتتابعت الأيام، فبعث الرسول أباً بكر برايه إلى حصن ناعم كى يفتحه، فقاتل ورجع ولم يكن الحصن قد فتح (٣). وبعث الرسول عمر بن الخطاب فى الغداه، فكان حظّه حظّ أبى بكر. فدعا الرسول إليه فى الغداه علىّ بن أبى طالب، ثمّ قال له:

خذ هذه الرايه فامض بها حتّى يفتح الله عليك. ومضى علىّ بالرايه، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم، فضربه رجل من اليهود فطاح ترسه، فتناول علىّ باباً كان عند الحصن فتترّس به، فلم يزل فى يده وهو يقاتل حتّى فتح الحصن، ثمّ جعل الباب

ص: ٥٥٠

١- (١) مغازى الواقدى: ٦٤٤/٢-٦٤٦، وإمتاع الأسماع: ٣٠٧-٣٠٨.

٢- (٢) مغازى الواقدى: ٦٥٣/٢، وتاريخ الخميس: ٤٥/٢.

٣- (٣) عن عبدالرحمن بن أبى ليلى قال: فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله بعث أباً بكر - يعنى يوم خيبر - فسار بالناس فانهم حتّى رجع عليه وبعث عمر فانهم بالناس حتّى انتهى إليه فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الأعطين الرايه رجلاً- يحبّ الله ورسوله يفتح الله له ليس بفزار». رواه المتقى الهندى فى كتر العمال: ٣٩٤/٦ ط. حيدر آباد - الهند وقال أخرجه ابن أبى شيبه، وأحمد بن حنبل، وابن ماجه، والبزار، وابن جرير وصححه، والطبرانى فى الأوسط، والحاكم والبيهقى فى الدلائل، وألف باء المقدسى فى الأحاديث المختاره.

قنطره اجتاز المسلمون عليها إلى داخل أبنيه هذا الحصن (١)(٢)، وإنما سقط حصن ناعم بعد أن قُتل قائده الحارث بن أبي زينب، مما يدل على استماته اليهود في القتال واستماته المسلمين في الحصار وفي الهجوم (٣).

وبعد حصن ناعم فتح المسلمون حصن القموص بعد قتال شديد، وبعد أن قُلت المؤونه عندهم قلّة، توجه بسببها جماعه منهم يشكون إلى «محمّد» أمرهم ويطلبون إليه ما يسدّون به رمقهم، فلم يجد شيئاً يعطيهم إياه وأذن لهم في أكل لحوم الخيل (٤). وقد رأى أحد المسلمين قطعاً من الغنم يدخل إلى أحد حصون اليهود، فاخطف منه شاتين فذبحوهما وأكلوهما. على أنه بعد أن تمّ لهم فتح حصن الصّعب بن معاذ قُلت حاجتهم، أن وجدوا فيه طعاماً كثيراً مكنّ لهم من متابعه قتال اليهود وحصارهم في سائر حصونهم (٥). واليهود أثناء ذلك كلّه لا يسلمون في شبر أرض ولا يسلمون حصناً إلّا بعد أن يدافعوا عنه دفاع الأبطال، وبعد ألبقى لهم على صدّ هجوم المسلمين قوّه. خرج مرحب اليهودي من أحد الحصون وقد جمع للحرب سلاحه وأكمل عدّته وهو يرتجل:

ص: ٥٥١

١- (١) يُذكر أنّه لما بلغ الجهد بالمسلمين قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «لأعطين الرايه غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله كزار غير فزار لا- يرجع حتّى يفتح الله على يديه» ودعا في اليوم التالي عليّاً وأعطاه الرايه فتّم الفتح على يديه وسرّ المسلمون والنبيّ صلى الله عليه وآله جميعاً. السيره الحلبيه: ٢٣٧/٢، فضائل الصحابه: ٦٠٣/٢، مسند الإمام أحمد: ٣/٣٨٤، المواهب اللدنيه: ٢٨٤/١، والاستيعاب: ٢٠٣/٣، كنز العمال: ١٣/١٢٣.

٢- (٢) سيره ابن هشام: ٢٣٤/٢-٣٣٥، والمغازي للواقدي: ٦٥٣/٢-٦٥٥، والسيره الحلبيه: ٣٦/٣-٣٧، وعيون الأثر: ١٧٤/٢-١٧٥، وبحار الأنوار: ٣/٢١ و ٥ و ١٢ و ١٥.

٣- (٣) المغازي للواقدي: ٦٥٧/٢-٦٥٨.

٤- (٤) سيره ابن هشام: ٣٣١/٢، والمغازي للواقدي: ٦٥٨/٢-٦٦١.

٥- (٥) مغازي الواقدي: ٦٥٩/٢-٦٦٠، والسيره النبويه لابن هشام: ٣٣٥/٢ و ٣٣٢.

قد علمت خيرُ أني مرحبٌ

فصاح «محمّد» بأصحابه:

مَن لهذا؟ قال محمّد بن مسلمه: أنا له يا رسول الله. أنا والله الموتور الثائر! قتل أخي بالأمس. وقام إليه بإذن النبيّ وتصاولا حتّى كاد مرحب يقتله. لكنّ ابن مسلمه اتقى سيفه بالدرقه فعصّت به فأمسكته، وضربه محمّد بن مسلمه حتّى قتله(١). وكذلك كانت هذه الحرب بين المسلمين ضروساً قاسية، وكانت مَنعه حصون اليهود تزيدها شدّه وقسوه.

حاصر المسلمون حصن الزبير وطال حصارهم إيّاه وقاتلوا حوله قتالاً شديداً، ومع ذلك لم يستطيعوا فتحه حتّى قطعوا الماء عنه واضطروا اليهود فيه إلى الخروج منه وإلى قتال المسلمين قتالاً انتهى بالأولين إلى أن يلوذوا بالفرار(٢). وكذلك جعلت الحصون تقع واحداً بعد الآخر في يد المسلمين، حتّى انتهوا إلى الوطيح والسالام بمنطقه الكتيبه آخر حصنين منيعين عندهم.

هنالك استولى على نفوسهم اليأس، فطلبوا الصلح بعد أن حاز النبيّ أموالهم كلّها بالشقّ ونطّاه والكتيبة، على أن يحقن النبيّ دماءهم. وقبل «محمّد»

ص: ٥٥٢

١- (١) المشهور في كتب التاريخ أنّ القاتل هو عليّ بن أبي طالب عليه السلام، قال ابن حجر: وخرج مرحب فقال علمت خير أني مرحب... الأبيات. فقال عليّ عليه السلام: أنا الذي سمتني أمي حيدر... الأبيات. فضرب رأس مرحب فقتله فكان الفتح على يديه. فتح الباري: ٣٦٧/٧، العمده لابن البطريق: ١٤٨، صحيح مسلم: ١٩٥/٥، ينابيع الموده: ١٥٥/١.

٢- (٢) مغازي الواقدي: ٦٦٦/٢-٦٦٧.

وأبقاهم على أرضهم التي آلت له بحكم الفتح، على أن يكون لهم نصف ثمرها مقابل عملهم(١).

عامل «محمّد» يهود خيبر بغير ما عامل به بنى قينقاع وبنى النضير حين أجلاهم عن أرضهم، لأنّه آمن بسقوط خيبر بأس اليهود، وآمن بأنهم لن تقوم لهم بعد ذلك قائمه أبداً. ثمّ إنّ ما كان بخيبر من الحدائق والمزارع والنخيل كان يحتاج إلى الأيدي العاملة الكثيره لاستغلاله وحسن القيام على زراعته. ولئن كان أنصار المدينة أهل زراعه فإنّ أرضهم بها كانت بحاجة إلى أذرعهم، كما أنّ النبيّ كان بحاجة إلى جيوشه للحرب، فهو لا يرضى أن يتركها للزراع. وكذلك ظل يهود خيبر يعملون بعد أن انهار سلطانهم السياسي انهياراً جنى على نشاطهم، حتّى لقد أسرع خيبر من ناحيه الزراعه نفسها إلى البوار والخراب، برغم ما كان من حسن معامله النبيّ أهلها ومن عدل عبدالله بن رواحه رسوله إليهم كلّ عام بينهم فى القسمة(٢). وقد كان من إحسان النبيّ معامله يهود خيبر أنّه كان من بين ما غنم المسلمون حين غزوها عتده صحائف من التوراه. فطلب اليهود ردّها، فأمر النبيّ بتسليمها لهم(٣)، ولم يصنع صنيع الرومان حين فتحوا أورشليم وأحرقوا الكتب المقدسه وداسوها بأرجلهم، ولا هو صنيع صنع النصارى فى حروب اضطهاد اليهود فى الأندلس حين أحرقوا كذلك صحف التوراه.

ولمّا طلب يهود خيبر الصلح أثناء محاصره المسلمين إيّاهم فى حصنى

ص: ٥٥٣

١- (١) سيره ابن هشام: ٣٣٧/٢، والمغازى للواقدي: ٦٧٠/٢.

٢- (٢) مغازى الواقدي: ٦٩١/٢.

٣- (٣) مغازى الواقدي: ٦٨٠/٢، والسيره الحلبيه: ٤٢/٣، وتاريخ الخميس: ٥٥/٢.

الوطيح والسالام بعث النبي إلى أهل فدك كي يُسلموا برسالته أو يُسلموا أموالهم. ووقع في نفوس أهل فدك الرعب بعد الذي علموا من أمر خيبر فتصالحوا على نصف أموالهم من غير قتال. فكانت خيبر للمسلمين لأنهم قاتلوا لاستخلاصها، وكانت فدك خالصة لـ «محمد» لأن المسلمين لم يُجلبوا عليها بخيل ولا ركاب (١).

ص: ٥٥٤

١- (١) مغازي الواقدي: ٧٠٦/٢، والسيره النبويه لابن هشام: ٣٥٣/٢، وتاريخ الطبري: ١٤٠/٢، وتاريخ الخميس: ٥٨/٢، وإمتاع الأسماع: ٣٢٥/١، وبحار الأنوار: ٦/٢١، ٢٥. وتتميماً لما يذهب إليه المؤلف ودفعاً للغموض الذي قد يحصل في ذهن البعض جزاء الخلاف في مسأله فدك بين فاطمه بنت الرسول صلى الله عليه وآله والخليفه الأول ارتأينا أن نوجزها بما يلي: إن أراضي فدك وإن كانت من أموال الدوله - بمعنى اختصاصها بمقام النبوه والإمامه والحاكم الشرعي - ولكنها غير ميزانيه الدوله، وتختلف عن سائر الأموال العامه، لأنها ملك خالص للنبي صلى الله عليه وآله وله التصرف بها حيث يشاء كما نصت الشريعة على ذلك، باعتبارها مفتوحة صلحاً ولم يوجف عليها بخيل ولا ركاب - كما قال المؤلف - ووفقاً للمصلحه الإسلاميه. وللنبي صلى الله عليه وآله إقطاعها لشخص أو أشخاص، أو تسليم منافعتها لمن يشاء، وليس هذا أمراً غريباً في الإسلام، فقد أقطع رسول الله صلى الله عليه وآله من أراضي بني النضير، أبا بكر، وعبد الرحمن بن عوف، وأبا دجانه، وغيرهم (فتوح البلدان: ٣١)، وأقطع صلى الله عليه وآله الزبير بن العوام من أرض بني النضير ذات نخل (فتوح البلدان: ٣٤) وأقطع صلى الله عليه وآله بلالاً أرضاً فيها جبل ومعدن (فتوح البلدان: ٢٧)، وأقطع صلى الله عليه وآله علياً أربع أرضين (فتوح البلدان: ٢٧). فلا ينبغي الإشكال في أن للحاكم الشرعي أن يقطع من الأراضي الخالصة له، وعليه فلا محذور شرعاً في أن يقطع النبي صلى الله عليه وآله فدكاً لفاطمه عليها السلام. لو راجعنا الأحاديث والأخبار لعلمنا أن النبي صلى الله عليه وآله قد أعطى فدكاً لفاطمه، وإليك بعض النماذج بما ورد في ذلك: عن أبي سعيد الخدري، قال: لما نزلت: «وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ» دعا رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمه عليها السلام فأعطاه فدكاً (كشف الغمّه: ١٠٢/٢، الدر المنثور: ١٧٧/٤). وعن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام: أقطع رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمه فدكاً (كشف الغمّه: ١٠٢/٢، الدر المنثور: ١٧٧/٤). وعن ابن عباس: لما نزلت: «وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ» أقطع رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمه عليها السلام، الدر المنثور: ١٧٧/٤.

وتجهّز الرسول بعد ذلك كلّه للعود إلى المدينه عن طريق وادى القُرى فتجهّز يهودها لقتال المسلمين، وقاتلوا. لكنهم اضطروا للاذعان والصلح كما صنعت خيبر(١). أمّا يهود تيماء فقبلوا الجزية من غير حرب ولا قتال(٢).

وبذلك دانت اليهود كلّها لسلطان النبيّ وانتهى كلّ ما كان لهم من سلطان فى شبه الجزيره، وأصبح «محمّد» بمأمن من ناحيه الشمال إلى الشام، كما صار من قبل ذلك بمأمن من ناحيه الجنوب بعد صلح الحديبيه، وبإنهيار سلطان اليهود خفّت بغضاء المسلمين - والأنصار منهم خاصّه - إياهم وتغاضوا عن رجوع بعضهم إلى يثرب، ووقف النبيّ مع اليهود الذين بكوا عبد الله بن أبى وعزّى ابنه فيه. وأوصى معاذ بن جبل بألما يفتن اليهود عن يهوديتهم. ولم يكلف يهود البحرين دفع الجزية وإن ظلّوا متمسكين بدين آبائهم. وصالح بنى غازيه وبنى عريض بأنّ لهم الذمه وعليهم الجزية. وعلى الجملة دان اليهود لسلطان المسلمين وتضعف فى بلاد العرب مركزهم، حتّى اضطروا لمهاجره تلك البلاد وكانوا من قبل بها أعزّه، وحتّى تمّ جلاؤهم فى حياه

ص: ٥٥٦

-
- ١- (١) مغازى الواقدي: ٧١١/٢، والسيره الحلبيه: ٩٥/٣، وتاريخ الخميس: ٥٣/٢، وعيون الأثر: ١٨٦/٢.
٢- (٢) مغازى الواقدي: ٧١١/٢، وعيون الأثر: ١٨٨/٢، والسيره النبويه لابن كثير: ٤١٣/٣.

الرسول على قول، وبعد وفاته على قول آخر(١).

على أنّ إذعان أهل خيبر وسائر اليهود لمصيرهم في شبه الجزيره لم يقع مرّه واحده بعد هزيمتهم، بل لقد كانت نفوسهم في أثر الهزيمة مملأى بالغلّ والغضب أخبث الغضب. أهدت زينب بنت الحارث امرأه سلّام بنى مشكم إلى «محمّد» شاه بعد أن اطمأنّ وبعد أن وقع الصلح بينه وبين أهل خيبر. فجلس وأصحابه حولها ليأكلوا، وتناول عليه السلام الذراع فلاكّ منها مُضغّه فلم يُسغها. وكان بشر بن البراء معه قد تناول منها مثل ما تناول. فأما بشر فأساغها وازدردها، وأما الرسول فلفظها وهو يقول: إنّ هذا العظم ليخبرني أنّه مسموم، ثمّ دعا بزيب فاعترفت وقالت: لقد بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان ملكاً استرحت منه، وإن كان نبياً فسيخبر. ومات بشر من أكلته هذه. وقد اختلف الرواه فذكر أكثرهم أنّ النبي عفا عن زينب وقدر لها عذرها بعد الذي أصاب أباهما وزوجها. وذكر بعضهم أنّها قتلت في بشر الذي مات مسموماً(٢).

وقد تركت فعله زينب في نفوس المسلمين أعمق الأثر، وجعلتهم في أعقاب خيبر لا يثقون باليهود، ويخشون غدرهم أفراداً بعد أن قضى على جماعتهم القضاء الأخير. كانت صفيه ابنه حُيي بن أخطب النصيريه من بين السباياالذين أخذ المسلمون من حصون خيبر، وكانت زوجاً لكنانه بن الربيع.

وكان عند كنانه ممّا يعرف المسلمون كنز بنى النصير. فسأله النبي عنه فأقسم

ص: ٥٥٧

١- (١) السيره الحلبيه: ٥٧/٣.

٢- (٢) مغازى الواقدي: ٦٧٧/٢، والسيره النبويه لابن هشام: ٣٣٧/٢-٣٣٨، والطبقات الكبرى: ٨٢/٢، ودلائل النبوه: ٢٦١/٤، وتفسير مجمع البيان: ٢٠٤/٩، وبحار الأنوار: ٧/٢١.

لا يعرف مكانه. فقال له «محمد»:

إن وجدناه عندك أقتلك؟ قال: نعم، وكان أحدهم قد رأى كنانه يطوف بخبره وذكر أمره للنبي فأمر بالخبره فحُفرت فأخرج منها بعض الكنز، فقتل في إنكاره. فلما خلصت صفيه إلى المسلمين وصارت بين الأسرى، قيل للنبي: «صفية سيده بنى قريظته والنضير لا تصلح إلّا لك». فأعتقها وتزوجها مقتنياً بذلك أثر الفاتحين العظماء الذين كانوا يتزوجون من بنات عظماء الممالك التي يفتحونها ليخففوا من مصابهم ويحفظوا من كرامتهم. وقد خشى أبو أيوب خالد الأنصاري أن تتحرك في نفسها الضغينه على الرسول الذي قتل أباهما وزوجها وقومها: لذلك بات حول الخيمه التي أعرس فيها «محمد» بصفية في طريق عودته من خيبر متوشحاً سيفه. فلمّا أصبح الرسول ورآه سأله: مالك؟ قال: خفتُ من هذه المرأة وقد قتلت أباهما وزوجها وقومها، وقد كانت حديثه عهد بكفر(١). على أنّ صفيه أقامت على الوفاء ل «محمد» حتى قبضه الله إليه. وقد اجتمع نساءه حوله في مرضه الأخير؛ فقالت صفيه: أما والله يا نبي الله لوددت أنّ الذي بك بي. فغمزها أزواج النبي، فقال لهنّ: مضمضنّ. قلن: من أي شيء يا نبي الله؟ قال: من تغامزكن بصاحبكن، والله إنها لصادقه. وبقيت صفية بعد النبي حتى خلافة معاوية، وفيها توفيت ودُفنت بالبقيع(٢).

ماذا فعل الله بالرسول الذين أوفد «محمد» إلى هرقل وكسرى والنجاشي وغيرهم من الملوك المحيطين ببلاد العرب؟! وهل سافروا قبل

ص: ٥٥٨

١- (١) مغازي الواقدي: ٧٠٨/٢ و ٦٧٤-٦٧٥، والسيره النبويه لابن هشام: ٣٣٦/٢ و ٣٣٩-٣٤٠، وتاريخ الطبري: ١٣٧/٢، وبحار الأنوار: ٥/٢١، ٣٣.

٢- (٢) الإصابه في تمييز الصحابه: ٣٤٨/٤، والطبقات الكبرى: ١٢٨/٨.

غزوه خيبر، أو أنهم حضروها حتى تمّ النصر للمسلمين فيها ثمّ سافروا من بعدها كلّ إلى ناحيته؟ يختلف المؤرخون في ذلك اختلافاً كبيراً يصعب معه القطع في الأمر بقول. وأكبر ظننا أنّهم لم يسافروا جميعاً في وقت واحد، وأنّ منهم من سافر قبل خيبر ومنهم من سافر بعدها. فقد جاء في أكثر من روايه أنّ دحيه بن خليفه الكلبي حضر خيبر وهو مع ذلك الذي ذهب برسالة هرقّل.

سافر إليه وكان يومئذٍ عائداً يحفّ به النصر بعد أن تغلب على الفرس واستنقذ منهم الصليب الأعظم الذي أخذ من بيت المقدس، وأن له أن يتمّ نذره وأن يحجّ إلى بيت المقدس ماشياً ليردّ الصليب الأعظم الذي أخذ من بيت المقدس، وأن له أن يتمّ نذره وأن يحجّ إلى بيت المقدس ماشياً ليردّ الصليب الأعظم مكانه. وكان قد بلغ من سياحته مدينه حمص حين حمل الخطاب إليه. هل حملة إليه جماعه من رجاله بعد أن أسلم دحيه الخطاب إلى عامله على بصرى، أم أنّه أطلع عليه بعد أن أدخل جماعه من البدو ودحيه على رأسهم يقدّم إليه الكتاب بنفسه؟ هذا ما تضطرب الروايه كذلك حوله. على كل حال فقد تلى الخطاب عليه وتُرجم له، فلم يغضب ولم تُثر نائرتة ولم يفكر في إرسال جيش يغزو بلاد العرب. بل ردّ على الرساله ردّاً حسناً(1) ، جعل بعض المؤرخين يزعمون خطأ أنّه أسلم.

وفي نفس الوقت بعث الحارث الغساني إلى هرقّل يخبره أنّ رسولاً جاءه من «محمّد» بكتاب رأى هرقّل شبهه بالكتاب الذي أرسل إليه يدعو إلى الإسلام، ويستأذن الحارث في أن يقوم على رأس جيش لمعاقبه هذا

ص: ٥٥٩

المدعى النبوه. لكن هرقل رأى الخير فى أن يكون الحارث بيت المقدس حين زيارته إياه ليزيد فى جلال الحفلات برد الصليب إليه؛ ولم يعبا بهذا الداعى إلى دين جديد(١). ولم يدّر بخلده أن سنوات قليلة لن تحول حتى يكون بيت المقدس وتكون الشام فى ظل الرايه الإسلاميه(٢)، وأن العاصمه الإسلاميه تنتقل إلى دمشق(٣)، وأن النضال بين دول الإسلام والإمبراطوريه الرومانيه لن تهدأ نائرتيه، حتى يستولى الأتراک على القسطنطينيه فى سنه (١٤٥٣ م)(٤)، وحتى يحيلوا كنيسها الكبرى مسجداً يكتب فيه اسم هذا النبى، الذى حاول هرقل أن يظهر مظهر من لا يحفل به أو يُعنى بأمره، وأن تظل هذه الكنيسه مسجداً عده قرون حتى يحيلها المسلمون الأتراک متحفاً للفن البيزنطى.

أما كسرى عاهل الفرس فإنه ما لبث أن تلى عليه كتاب «محمد» يدعو به إلى الإسلام حتى استشاط غضباً وشقّ الكتاب؛ وكتب إلى بازان عامله على اليمن، يأمره بأن يبعث إليه برأس هذا الرجل الذى بالحجاز. ولعله كان يحسب فى هذا ما يخفف من آثار هزائمه أمام هرقل. فلما بلغت النبى مقاله كسرى وما فعل بكتابه قال:

مزق الله ملكه. وأوفد بازان رسله برساله إلى «محمد». وفى هذه الأثناء كان كسرى قد خلفه ابنه شيرويه، وكان النبى قد عرف ذلك فأخبر رسل بازان به وطلب إليهم أن يكونوا رسله إلى بازان

ص: ٥٦٠

١- (١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢٦١/١.

٢- (٢) الطبرى: ٢٣٥/٢، وذلك بعد معركة اليرموك

٣- (٣) وذلك فى عهد معاويه عندما صار خليفه للمسلمين، يعقوبى: ٣٥٤/٢.

٤- (٤) تاريخ الدوله العليه العثمانيه، محمد فريد بيك المحامى، بيروت لبنان، دار النفائس ط ٦، ١٤٠٨ هـ.

يدعونه إلى الإسلام. وكان أهل اليمن قد عرفوا ما حلّ بفارس من هزائم وقد شعروا بانحلال سلطتها عنهم، وقد اتصلت بهم انتصارات «محمد» على قريش وقضاؤه على سلطه اليهود. فلما رجع رسل بازان إليه وأبلغوه رساله النبي كان سعيداً بأن يُسلم وأن يبقى عامل «محمد» على اليمن (١). وماذا ترى يطلب «محمد» إليه وما تزال مكّه بينه وبينه؟ إذاً فله الغنم بعد أن تقلص ظل فارس في أن يحتمي بالقوه الناشئه الجديده في بلاد العرب من غير أن تطلب إليه هذه القوه شيئاً. ولعلّ بازان لم يقدر يومئذ أن انضمّامه إلى «محمد» إنّما هو في الواقع نقطه ارتكاز قويه للإسلام في جنوب شبه الجزيره، كما دلّت الظروف عليه بعد عامين اثنين.

وكان ردّ المقوقس عظيم القبط في مصر غير ردّ كسرى، بل كان أجمل من ردّ هرقل. فقد بعث إليه يخبره أنّه يعتقد أنّ نبياً سيظهر، ولكنّه سيظهر في الشام، وأنّه استقبل رسوله بما يجب له من إكرام، وأنّه بعث معه بهديّه جاريتين وبغله بيضاء وحماراً ومقداراً من المال وبعض خيرات مصر. أمّا الجاريتان فماريه التي اصطفاه النبي لنفسه والتي ولدت له إبراهيم من بعد، وشيرين التي أهديت لحيّان بن ثابت. وأمّا البغله فأسمها النبي دلدل، وكانت فريده بياضها بين البغال التي رأتها بلاد العرب. وأمّا الحمار فأسمى عُفيراً أو عفوراً. وقبل «محمد» هذه الهديه، وذكر أنّ المقوقس لم يُسلم من خشيه أن يسلبه الروم ملك مصر، وأنّه لولا ذلك لآمن

ص: ٥٦١

وكان طبيعياً بعد الذى عرفنا من صلوات نجاشى الحبشه بالمسلمين أن يكون ردّه جميلاً، حتّى لقد ورد فى بعض الروايات أنّه أسلم (٢) وإن أثارت طائفه من المستشرقين الشك حول إسلامه هذا. على أنّ الرسول بعث له غير كتاب دعوته إلى الإسلام بكتاب آخر يطلب إليه ردّ المسلمين الذين أقاموا بالحبشه إلى المدينه. وقد جهّز لهم النجاشى سفيتين حملتاهم وعلى رأسهم جعفر بن أبى طالب ومعهم أمّ حبيبه رمله بنت أبى سفيان بعد أن مات زوجها عبدالله بن جحش (٣) الذى جاء إلى الحبشه مسلماً ثمّ تنصّر وبقى على نصرانيته حتّى مات. وقد أصبحت أمّ حبيبه بعد عودها من الحبشه من أزواج النبى ومن أمّهات المؤمنين (٤). ذكر بعض المؤرخين أنّ النبى تزوجها ليرتبط مع أبى سفيان برابطه النسب توكيداً لعهد الحديبيه. ورأى آخرون غير هذا وأنّ فى زواج رمله من «محمّد»، وأبو سفيان ما يزال على وثنيته، ما تألم له نفسه ويغصّ به حلقه.

وأما أمراء العرب، فقد ردّ أمير اليمن وعمان على رساله النبى ردّاً فاحشاً وردّ أمير البحرين ردّاً حسناً وأسلم (٥)، وردّ أمير اليمامه مظهرأ استعداده للإسلام إذا هو نُصّب حاكماً؛ فلعنه النبى لمطامعه. ويذكرون أنّه لم

١- (١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢٦٠/١، السيره الحليه: ٢٥٠/٣.

٢- (٢) الطبقات الكبرى: ٢٥٨/١.

٣- (٣) عبيدالله بن جحش وليس عبدالله بن جحش، طبقات ابن سعد: ٢٥٩/١.

٤- (٤) الطبقات الكبرى: ٢٥٩/١.

٥- (٥) الطبقات الكبرى: ٢٦٣/١.

يستوقف القارئ ما فى إجابات أكثر هؤلاء الملوك والأمراء من رفق ومن حسن رأى، وأنه لم يُقتل أحد من رسل «محمّد» ولم يسجن، بل عادوا إليه كلّهم بما حملوا من رسالات فى أكثرها رقة وعطف، وفى بعضها غلظه وشده. فكيف تلقى أولئك الملوك رساله الدين الجديد من غير أن يتألّبوا على صاحب الدعوه له، ومن غير أن يتضافروا على سحقه؟ ذلك أن عالم يومئذ كان كعالمنا الحاضر، قد طغت فيه الماده على الروح، وأصبح فيه الترف غايه الحياه، وأصبحت الأمم تقتتل حباً فى الظفر وإرضاء لمطامع ملوكها وساداتها وشفاء لغرور أنفسهم، أو طمعاً فى مزيد من الترف تبلغه وتستمتع به. ومثل هذا العالم تهوى فيه العقيدته إلى طقوس تُقام فى العلن لا تؤمن النفوس التى تؤدّيها بشىء ممّا وراءها، ولا تُعنى إلّابانّ تكون فى حكم صاحب السلطان الذى يُطعمها ويكسيها ويكفل لها رخاء العيش وعرض الجاه وكثره المال، ولا تستمسك بهذه الطقوس إلّابمقدار ما تدرّ عليها من خير مادى. فإذا فاتها هذا الخير، خارت عزيמתها، وتضعّضت همّتها، ووهنت فيها قوّه المقاومه.

لذلك لم يلبث الناس أن سمعوا دعوه جديده للإيمان فيها بساطه وفيها قوّه وفيها مساواه أمام ربّ واحد إيّاه نعبد وإيّاه نستعين، هو وحده الذى يملك ضمير النفوس ونفعها؛ شعاع من رضاه يبدّد غضب ملوك الأرض جميعاً، ومخافه غضبه ترزعزع النفس وإن أغرقها الملوك كلّهم فى النعمه والرضا، والرجاء فى مغفرته متصل لمنّ تاب وآمن وعمل صالحاً - لم يلبث الناس أن

سمعوا هذه الدعوه وأن رأوا صاحبها يقوى بها على الاضطهاد وعلى الظلم وعلى التعذيب وعلى كل ما فى الحياه الماديّه من قوى؛ ويمتد بها سلطانه، وهو اليتيم الفقير المحروم إلى ما لم يحلم به أحد من قبله فى بلده ولا فى بلاد العرب كلّها، حتّى اشربّت الأعناق وأرهفت الآذان وشعرت النفوس بظمئها وتطلّعت الأرواح لمورد ريّها، لولا بقيه من الخوف والشك تقوم بينها وبين الحقيقه حجاباً. لذلك ردّ من ردّ من الملوك فى رفق ورقّه؛ وبذلك ازداد المسلمون إيماناً على إيمانهم وقوه فى يقينهم.

عاد «محمّد» من خيبر، وعاد جعفر والمسلمون معه من الحبشه، وعاد رسل «محمّد» من حيث أوفدهم، والتقوا جميعاً بالمدينه كره أخرى. التقوا ليقضوا بقيه عامهم هذا مشوقين ليوم فى العام القابل يحجّون فيه إلى مكّه يدخلونها آمنين محلّقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون. وقد بلغ من غبطه «محمّد» بلقيا جعفر أن ذكر أنّه لا يدرى بأىّ هو أشدّ اغتباطاً: بالنصر على خيبر أو بلقيا جعفر(١). وفى هذه الفتره تجرى القصه التى تروى أنّ اليهود سحروا «محمّداً» بفعل لبىد حتّى كان يحسب أنّه يفعل الشىء وهو لا يفعله.

وهى قصه اضطربت فيها الروايات اضطراباً شديداً، يؤيد رأى بعضهم فى أنّها أقرب إلى أن تكون محضّ اختراع لا ظلّ من الحقّ فيها(٢).

وأقام المسلمون آمنين بالمدينه مستمتعين بالعيش ناعمين بفضل من

ص: ٥٦٤

١- (١) سيره ابن هشام: ٣٥٩/٢، وبحار الأنوار: ٢٤/٢١.

٢- (٢) تفسير الصافى: ٣٩٦/٥، المحلّى لابن حزم: ٣٩٥/١١، المعجم الأوسط: ١٠١/٦، شرح نهج البلاغه: ٣٨١/١٩، الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض: ٣٤٥/١، المقنع للصدوق: ١٣٩، نيل الأوطار للشوكانى: ١٢٢/٨.

اللّه ورضوان، لا يفكّرون من أمر الغزو في أكثر من إرسال بعض السرايا لمعاقبه من يفكّر في الاعتداء على حقهم أو سلب شيء من مالهم ومتاعهم.

فلَمّا استدار العام كانوا في ذى القعدة إذ خرج النبيّ في ألفين من رجاله لعمره القضاء نفاذاً لعهد الحديبيه، وإطفاء لظماً هذه النفوس الشديده لظماً لأداء فرائض البيت العتيق(١).

ص: ٥٤٥

١- (١) مغازى الواقدي: ٧٣١/٢.

الفصل الثاني والعشرون: عُمره القضاء

ركب المسلمين إلى مكة، جلاء قريش عن مكة ونزول المسلمين بها، طواف «محمد» وهرولته، زواج «محمد» من ميمونه، رغبته إلى قريش أن يُعزّس بمكة ورفضهم ذلك، إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة.

استدار العام بعد الحديبيه، وأصبح «محمد» وأصحابه في حلٍّ بعهدهم مع قريش، من الدخول إلى مكة ومن زياره الكعبة. لذلك نادى الرسول في الناس كي يتجهّزوا للخروج إلى عُمره القضاء، بعد أن منعوا من قبلُ منها.

ويسيرُ عليك أن تقدّر كيف أقبل المسلمون يُلبّون هذا النداء، ومنهم المهاجرون الذين تركوا مكة منذ سبع سنوات، ومنهم الأنصار الذين كانت لهم مع مكة تجاره ولهم إلى زياره البيت الحرام هوى. لذلك زاد الركب إلى ألفين بعد أن كان ألفاً وأربعمئة في العام الذي سبقه. وتنفيذاً لعهد الحديبيه لم يحمل أحد من هؤلاء الرجال سلاحاً إلّاسيفاً في قرابه. لكنّ «محمدًا» كان يخشى الغدر دائماً. فجّهز مئة فارس جعل على رأسهم محمّد بن مسلمه، وبعثهم طليعاً له على ألا يتخطّوا حرم مكة، وأن ينحدروا إذا هم بلغوا

مرّ الظهران إلى وادٍ قريب منها. وساق المسلمون - و«محمّد» على رأسهم يركب ناقته القصوى - الهديّ أمامهم ستين ناقه. وساروا من المدينة يحدوهم شغف أي شغف بالدخول إلى أمّ القرى والطواف ببيت الله، ويرقّب كلّ واحد من المهاجرين أن يرى البقعه التي وُلد فيها، والبيت الذي شبّ عن الطوق بين جدرانها، والأصحاب الذين غادر، وأن يتسنّم عزف هذا الوطن المقدس، وأن يلمس في إجلال وإعزاز ثرى القرية المباركة الميمونه التي أنجبت الرسول، والتي نزل فيها أوّل ما نزل من الوحي. وتستطيع أن تتصوّر هذا الجيش من المسلمين عدّتهم ألفان (1) يُغذّون سيرهم تطفر أمامهم قلوبهم وترقص خذلاً أفئدتهم، فإذا أناخوا جعل كلّ واحد منهم يقصّ على أصحابه آخر عهده بمكّه أو أيام طفولته بها، أو يحدث عن أصدقائه فيها، أو عن المال الذي ضحّى به في سبيل الله عند هجرته منها. تستطيع أن تتصوّر هذه المظاهر الفدّه من نوعها، يُرجى سيرها الإيمان، ويجذب أصحابها إليه بيت جعله الله مثابه للناس وأمنأ؛ وإنك إذا لترى بعين بصيرتك أيّ طرب كان يستخفّ هؤلاء الذين حيل بينهم وبين هذا الفرض المقدّس، إذ يسيرون إليه ليدخلوا مكّه آمنين، محلّقين رؤوسهم ومقصرين، لا يخافون.

وعرفت قریش بمقدم «محمّد» وأصحابه، فجلّت عن مكّه، نزولاً على صلح الحديبيه، وصعدت في التلال المجاوره لها، حيث ضربت الخيام، وحيث أوى منهم من أوى إلى فيء الشجر. ومن فوق أبي قبيس وحراء، ومن

ص: ٥٦٨

١- (١) مغازى الواقدي: ٧٣١/٢-٧٣٣، والطبقات الكبرى لابن سعد: ١٢٠/٢، والسيره الحلييه: ٦٢/٣، وبحار الأنوار: ٤٦/٢١.

فوق كل مرتفع مُطلّ على مكّه، أطلّ هؤلاء المكيون ينظرون بعيون كلّها التطلع إلى الطريد(١) وأصحابه داخلين بلد البيت الحرام لا- يصدّهم عنه صاّد، ولا- يحول بينهم وبينه حائل(٢). وانحدر المسلمون من شمال مكّه وقد أخذ عبد الله بن رواحه بخطام القُصوى، وأحاط كبار الصحابه بالنبيّ عليه السلام، وسارت الصفوف من خلفهم ما بين راجل ومقتعد غارب بعيره. فلما انكشف البيت الحرام أمامهم انحسرت شفاه المسلمين جميعاً عن صوت واحد مناديه: لبيك لبيك، متوجّهه بالقلوب والأرواح إلى وجه الله ذى الجلال محيطه فى هاله من رجاء وإكبار بهذا الرسول الذى بعثه الله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كلّه. والحقّ أنّه كان منظرًا فذاً من مشاهد التاريخ التى اهتّرت لها أرجاؤه، والتى جذبت إلى الإسلام قلوب أشدّ المشركين صلابه فى وثنيته وفى عناده. وعلى هذا المنظر الفذّ كانت تقع عيون أهل مكّه، وهذا الصوت المنبعث من القلوب يُدوّى: لبيك، لبيك، كان يخترق آذانهم فيهزّ قلوبهم هزاً. ولما بلغ الرسول المسجد اضطبع بردائه وأخرج عضده اليمنى، ثمّ قال:

اللهمّ ارحم امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوه(٣)، ثمّ استلم الركن عند الحجر وهرول وهرول أصحابه معه، حتّى إذا استلم الركن اليمانى مشى حتّى استلم الحجر الأسود مُهرولاً- من جديد ثلاثه أطواف ومشى سائرهما. والألفان من المسلمين يهرولون كلّما هرول، ويمشون كلما مشى. وقريش تنظر من فوق أبى قُبيس

ص: ٥٦٩

-
- ١- (١) المغازى للواقدي: ٧٣٣/٢، وإمتاع الأسماع: ٣٣١/١، والطبقات الكبرى: ١٢١/٢.
 - ٢- (٢) المغازى الواقدي: ٧٣٥/٢، السير النبويّ لابن هشام: ٣٧٠/٢-٣٧١، وإمتاع الأسماع: ٣٣٢/١، وبحار الأنوار: ٤٦/٢١.
 - ٣- (٣) الواقدي: ٧٣٥/٢، سيره ابن هشام: ٣٧٠/٢-٣٧١.

فياخذها لهذا المنظر البهر من كل مكان وتحسب أنها، وكانت تحدّث عن «محمّد» وأصحابه وأنهم في عُسر وشدّه وجهد، قد رأت ما يمحو من فؤادها كل وهم بوهن «محمّد» وأصحابه. وفي حماسه هذه الساعه أراد عبد الله بن رواحه أن يقذف في وجه قريش بصيحه حرب، فصدّه عمر^(١). وقال له الرسول:

«مهلاً يا بن رواحه، وقل لا إله إلا الله وحده، نصر عبده، وأعزّ جنده، وخذل الأحزاب وحده» - أو كما قال - فنادى بها ابن رواحه بأعلى صوته، وردّها المسلمون من بعده، فتجاوبت بأصدائها جوانب الوادي، وارتفعت رهبتها إلى قلوب الذين تسنّموا الجبال حوله^(٢).

ولمّا أتمّ المسلمون الطّواف بالكعبه انتقل «محمّد» على رأسهم إلى الصفا والمروه فركض بينهما سبعاً، كما كان يفعل العرب من قبل، ثمّ نحر الهدي عند المروه وحلق رأسه، وأتمّ بذلك فرائض العمرة. ولمّا كان الغد دخل «محمّد» إلى الكعبه وبقي بها حتى صلاه الظهر. ولقد كانت الأصنام ماتزال تغمرها. مع ذلك علا بلال سقفها وأذن في الناس لصلاه الظهر عندها.

وصلى النبي يومئذٍ بألفين من المسلمين صلاه الإسلام عند البيت، الذي كان يُصدّ من سبع سنين مضت عن الصلاه عنده. وأقام المسلمون بمكّه ثلاثه الأيام المفروضه في عهد الحديبيه، وقد خلت أمّ القرى من أهلها، فجاس

ص: ٥٧٠

١- (١) المغازى للواقدي: ٧٣٥/٢-٧٣٧. تذكر كتب السير الأخرى بأنّ الذي تكلم هو عمر وليس ابن رواحه وأنّ الذي أسكته هو النبي صلى الله عليه وآله، وقال له: إنّي أسمع، وعلم ابن رواحه كلمات يقولها: «لا إله إلا الله وحده وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده». راجع المغازى للواقدي: ٧٣٦/٢، والطبقات لابن سعد: ١١١-١١٢.

٢- (٢) المغازى للواقدي: ٧٣٥/٢-٧٣٧، وإمتاع الأسماع: ٣٣٢/١، والسيره النبويه لابن هشام: ٣٧١/٢.

المسلمون خلالها لا- يصيبهم فيها أذى ولا- يعترضهم أحد بسوء. والمهاجرون منهم يزورون دورهم ويُزورون أصحابهم من الأنصار إياها، وكأنما هم جميعاً أصحاب هذا البلد الأمين؛ وكلهم يسير سيره الإسلام يُؤدّي إلى الله يوم صلواته فيقتل في نفسه غرورها؛ ويُعين قوِيهم ضعيفهم، ويبرّ غنِيهم فقيرهم؛ والنبي يتنقل بينهم أباً مُحبّاً محبوباً، ييسر لهذا ويمزج مع ذلك، ثمّ لا يقول إلّا حقّاً. وقريش وسائر أهل مكّة يُطلّون من منازلهم فوق السفوح على هذا المنظر الفدّ في التاريخ، يرون رجالاً هذه أخلاقهم، لا يشربون خمراً ولا- يأتون معصيه ولا يُغريهم الطعام ولا الشراب ولا تفتنهم في الحياه فتنه، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. أى أثر يترك هذا المنظر الذي سما بالإنسان إلى ما فوق أسمى مراتب الإنسان؟! يسيرٌ عليك أن تقدّره حين تعلم أنّ «محمّداً» عاد بعد ذلك بشهور ففتح مكّة على رأس عشرة آلاف من المسلمين(1).

كانت أمّ الفضل زوج العباس بن عبدالمطلب عمّ النبيّ قد جعلت لها أختها ميمونه يدها، وكانت ميمونه في السادسة والعشرين من عمرها، فجعلت أمّ الفضل يد أختها للعبّاس. ولما رأّت ميمونه ما رأّت من أمر المسلمين في عمره القضاء هوّت إلى الإسلام نفسها، فخاطب العباس ابن أخيه في أمرها وعرض عليه أن يتزوّجها، وكانت ميمونه هذه خاله خالد بن الوليد. فلما أفضى العباس بالأمر إلى «محمّد» قبل وأصدقها أربعمئة درهم(2). وكانت

ص: ٥٧١

١- (١) المغازى للواقدي: ٧٨٠/٢، والسيره النبويّه لابن هشام: ٤٠٠/٢، وتاريخ الطبري: ١٥٢/٢، الخرائج والجرائح، قطب الدين الراوندي: ١٦٢/١، وبحار الأنوار: ١٦٢/٢١.

٢- (٢) المغازى للواقدي: ٧٣٨/٢، والسيره النبويّه لابن هشام: ٣٧٢/٢، والسيره الحلبيه: ٦٣/٣، وبحار الأنوار: ٤١/٢١-٤٢ و ٤٦.

ثلاثة الأيام التي نصَّ عهد الحديبيه عليها قد انقضت. لكنَّ «محمّداً» أراد أن يتَّخذ من زواجه ميمونه وسيله لزياده في التفاهم بينه وبين قريش. فلما جاءه سهيل بن عمرو وحويطب بن عبدالعزى من قبل قريش يقولون ل «محمّد»:

«إنّه قد انقضى أجلك فاخرج عنّا»، قال لهم: «ما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه». قال «محمّد» وهو يعلم ما تركت عمره القضاء في نفس أهل مكّه من أثر، وكيف سيحرتهم وسكنت من خصومتهم، ويعلم أنّهم إن قبلوا دعوته إلى الطعام فتحدّث إليهم وتحدّثوا إليه.

فتحت مكّه أمامه أبوابها طائعه. وهذا ما خشى سهيل وحويطب، لذلك كان جوابهما: «لا حاجه لنا في طعامك فاخرج عنّا». ولم يتردّد «محمّد» في النزول على رأيهما تنفيذاً لعهدّه مع قومهما، فأذن في المسلمين بالرحيل، وخرج والمسلمون من ورائه. وخلف أبا رافع مولاة على ميمونه حتّى أتاه بها بسرف فبنى بها. وميمونه أمّ المؤمنين آخر أزواج النبيّ، عمّرت بعده خمسين سنه، ثمّ طلبت أن تُدفن حيث بنى بها رسول الله، وحمل «محمّد» معه أُختي ميمونه سلمى أرملة عمّه حمزه، وعماره البكر التي لم تتزوج.

وبلغ المسلمون المدينة وأقاموا بها. و «محمّد» لا يشك في عظم ما تركت عمره القضاء من أثر في نفوس قريش وفي نفوس أهل مكّه جميعاً، ولا يشك فيما سينشأ عنها من آثار سريعه خطيره (1).

وسدّقت الأيام تقديره. فإنّه لم يلبث أن تحمّل راجعاً إلى المدينة،

ص: ٥٧٢

١- (١) مغازي الواقدي: ٧٣٩/٢-٧٤١، والطبقات الكبرى لابن سعد: ١٢٢/٢، والسيره النبويه لابن هشام: ٣٧٢/٢، وبحار الأنوار: ٤٦/٢١.

حتى وقف خالد بن الوليد فارس قريش المُعَلِّم وبطل أحد يقول في جمع منها: «لقد استبان لكلّ ذى عقل أن «محمّداً» ليس بساحر ولا شاعر، وأنّ كلامه من كلام ربّ العالمين، فحقّ على كلّ ذى لبّ أن يتبعه». وقد فزع عكرمه ابن أبي جهل لما سمع، فردّ قائلاً: لقد صبوت يا خالد - ودار بينهما الحديث الآتى -:

خالد: لم أصبؤ ولكنتى أسلمت.

عكرمه: والله إن كان أحقّ قريش ألا يتكلم بهذا الكلام إلّا أنت.

خالد: ولمّ؟

عكرمه: لأمنّ «محمّداً» وضع شرف أبيك حين جرح وقتل عمّك وابن عمّك ببدر، فوالله ما كنت لأسلم ولأتكلم بكلامك يا خالد. أمّا رأيت قريشاً يريدون قتاله!!

خالد: هذا أمر الجاهلية وحميتها، لكننى والله أسلمت حين تبين لى الحقّ.

وبعث خالد إلى النّبىّ أفراساً وبعث إليه باقراره بالإسلام وعرفانه(١).

وبلغ إسلام خالد أبا سفيان، فبعث فى طلبه وسأله: أحقّ ما بلغه عنه.

ولمّا أجابه خالد أنّه حقّ غضب وقال: «واللّات والعزرى لو أعلم أنّ الذى تقول حقّ لبدأت بك قبل «محمّد». قال خالد: «فوالله إنّهُ لحقّ على رغم من رغم».

فاندفع أبو سفيان فى غضبه نحوه؛ فحجزه عنه عكرمه وكان حاضراً وقال:

«مهلاً يا أبا سفيان. فوالله لقد خفت للذى خفت أن أقول مثل ما قال خالد وأكون على دينه. أنتم تقتلون خالداً على رأى رآه وهذه قريش كلّها تبايعت

ص: ٥٧٣

١- (١) السيره النبويه لابن كثير: ٣/٤٥٠-٤٥٣.

عليه، والله لقد خفت ألا- يحول الحول حتّى يتبعه أهل مكّه كلّهم». وخرج خالد من مكّه إلى المدينه، فانضم إلى صفوف المسلمين.

وأسلم من بعد خالد عمرو بن العاص، وحارس الكعبه عثمان بن طلحه.

وقد أسلم بإسلام هؤلاء كثير من أهل مكّه واتبعوا دين الحقّ. وبذلك قويت شوكة الإسلام، وأصبح فتح مكّه أبوابها ل «محمد» أمراً لا محلّ لريبه فيه (١).

ص: ٥٧٤

١- (١) تاريخ الطبرى: ١٤٥/٢.

الفصل الثالث والعشرون: غزوه مؤتة

اتجاه نظر «محمد» إلى الشام، توجيهه ثلاثة آلاف لغزوها، لواءهم لزيد بن حارثة، فإن أُصيب فلجعفر بن أبي طالب، فإن أُصيب فلعبد الله بن رواحه على الناس، الروم في مئة ألف أو مئتي ألف، التقاء الجيشين بمؤتة، موت الثلاثة أصحاب اللواء على التعاقب، الراية لخالد بن الوليد، مناورته وانسحابه.

لم يكن «محمد» يستعجل فتح مكة وهو يعلم أنّ الزمن في صفه، كما أنّ عهد الحديبيه لم يكن قد مضى عليه غير عام واحد، ولم يكن قد جدّ ما يوجب نقضه. و«محمد» رجل وفاء لا ينقض كلمه قال، ولا عهداً عقد. لذلك ذهب إلى المدينة فأقام بضعه أشهر لم تقع خلالها غير مناوشات صغيره، كإرسال خمسين رجلاً إلى بنى سُلَيم ليدعوهم إلى الإسلام وغدر بنى سليم بهم وقتلهم إياهم بغياً بغير حق، حتّى لم يكدر رئيسهم ينجو إلّا بمحض المصادفه (1)؛ وكغزو جماعه من بنى اللّيث والظفر بهم والغنم منهم (2)؛

ص: ٥٧٥

-
- ١- (١) المغازى للواقدي: ٧٤١/٢، والطبقات الكبرى: ١٢٣/٢، وتاريخ الطبري: ١٤٣/٢، وبحار الأنوار: ٤٨/٢١.
 - ٢- (٢) المغازى للواقدي: ٧٥٠/٢، والطبقات الكبرى: ١٢٤/٢-١٢٥، والسيره النبويه لابن هشام: ٦٠٩/٢-٦١٠، وبحار الأنوار: ٤٨/٢١.

وكمعاقيه بنى مُرّه على ما غدروا من قبل(١)، وكإرسال خمسة عشر رجلاً إلى ذات الطلح على حدود الشام يدعون إلى الإسلام دعوةً كان جزاءهم عنها القتل لم ينج منه إلأرئيسهم(٢). وقد كانت ناحيه الشام وهذه الجهات الشماليه مُتجه نظر النبي منذ أمن الجنوب بعهدده مع قريش وبإذعان عامل اليمن لدعوته. ذلك أنه كان يتوسم طريق انتشار دعوته إلى الإسلام أول مغادرتها حدود شبه الجزيرة، فيرى الشام والبلاد المجاوره هي المنفذ الأول لهذه الدعوه. لذلك لم تمض أشهر على مُقامه بالمدينه بعد عوده من عمره القضاء حتى وجّه ثلاثه آلاف هم الذين قاتلوا في مؤته مئه ألف في روايه، ومثى ألف في روايه أُخرى.

ويختلف الرواه في سبب غزوه مؤته هذه، فيذهب بعضهم إلى أن قتل أصحابه في ذات الطلح كان سبب الغزو لتأديب هؤلاء الغادرين. ويذهب آخرون إلى أنّ النبي أرسل رسولاً من رسله إلى عامل هرقل على بُصرى وأن أعرابياً من غسان قتل هذا الرسول باسم هرقل، فبعث «محمّد» بالذين قاتلوا في مؤته لتأديب هذا العامل ومن ينصره.

وكما كان عهد الحديبيه مقدّمه عمره القضاء ففتح مكّه، كذلك كانت غزوه مؤته مقدّمه تبوك وما كان بعد وفاه النبي من فتح الشام. وسواءً أكان السبب الذي أدى إلى غزوه مؤته هو قتل رسول النبي إلى عامل بُصرى أو قتل رجاله الخمسه عشر في ذات الطلح، فإنّه عليه السلام دعا إليه في جمادى الأولى

ص: ٥٧٤

١- (١) الطبقات الكبرى: ١٢٦/٢، والسيره النبويه لابن هشام: ٦٢٢/٢، وعيون الأثر: ١٩٥/٢.

٢- (٢) المغازي للواقدي: ٧٥٢/٢-٧٥٣، وطبقات ابن سعد: ١٢٧/٢-١٢٨، الطبري: ١٤٥/٢، وبحار الأنوار: ٥٠/٢١.

من السنه الثامنه للهجره سنه (٦٢٩ م) ثلاثه آلاف من خير رجاله واستعمل عليهم زيد بن حارثه وقال:

«إن أُصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، وإن أُصيب جعفر فعبداً لله بن رواحه على الناس» وخرج هذا الجيش وخرج معه خالد بن الوليد متطوعاً ليدلّ بحسن بلائته في الحرب على حسن إسلامه. وودّع الناس أمراء الجيش والجيش، وسار معهم «محمّداً» حتّى ظاهر المدينه، يوصيهم ألاّ يقتلوا النساء ولا الأطفال ولا المكفوفين ولا الصبيان، وألاّ يهدموا المنازل ولا يقطعوا الأشجار. ودعا المسلمون لهذا الجيش قائلاً: صيحبكم الله ودفع عنكم وردكم إلينا سالمين. وكان أمراء الجيش يفكرون كلهم في أخذ القوم من أهل الشام على غزاه منهم، على عادته النبيّ في سابق غزواته، فيسرع إليهم النصر ويعودوا بالغنيمه. وسار القوم حتّى بلغوا مَعان من أرض الشام وهم لا يعلمون ما هو ملاقيهم.

لكنّ أنباء مسيرتهم كانت قد سبقتهم. فقام شرحبيل عامل هرقل على الشام فجمع جموع القبائل ممّن حوله، وأوفد من جعل هرقل يمدّه بجيوش من الإغريق ومن العرب. وتذهب بعض الروايات إلى أنّ هرقلاً نفسه تقدّم بجيوشه حتّى نزل مآب من أرض البلقاء على رأس مئه ألف من الروم، كما انضمّ إليه مئه ألف أخرى من لخم وحيّذام والقَيْن وبهراء ويَلِيّ. ويقال: إنّ تيودور أخا هرقل هو الذي كان على رأس هذه الجيوش، لا هرقلاً نفسه - على كلّ حال - فقد بلغ المسلمون وهم بمعان أمر هذه الجموع، فأقاموا بها ليلتين يفكرون ماذا يصنعون أمام هذا العدد الذي لا قبل لهم به. قال قائل منهم: نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فنخبره بعدد عدونا. فإمّا أن يمدّنا بالرجال وإمّا

أن يأمرنا بأمره فمضى له. وكاد هذا الرأي يسود لولا أن تقدّم عبد الله بن رواحه، وكان إلى جانب شهامته وفروسيته شاعراً، فقال: يا قوم! والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون: الشهاده. وما نقاتل الناس بعدد ولا قوّه ولا كثره؛ ما نقاتلهم إلّا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به؛ فانطلقوا، فإنّما هي إحدى الحسينين: إما ظهور، وإما شهاده. وامتدت عدوى النخوه من الشاعر الشجاع إلى الجيش كلّه، فقال الناس: فوالله صدق ابن رواحه! ومضوا، حتّى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقريه يقال لها:

مشارف. فلما دنا العدو انحاز المسلمون إلى قريه مؤته أن رأوها خيراً من مشارف لتحصّنهم بها. وفي مؤته بدأت المعركة حاميهِ الوطيس بين مئه أو مئتي ألف من جيوش هرقل وبين ثلاثه آلاف من المسلمين.

يا لجلال الإيمان وروعه قوته! حمل زيد بن حارثه رايه النبيّ واندفع بها في صدر العدو وهو مُوقن أن ليس من موته مفرّ. لكنّ الموت في هذا المقام هو الاستشهاد في سبيل الله. وليس الاستشهاد دون النصر والظفر مكاناً. وحارب زيد حرب المستميت حتّى مزقته رماح العدو. فتناول الرايه من يده جعفر بن أبي طالب وهو يومئذٍ في الثالثه والثلاثين من عمره، وهو شابّ تعدل وسامته شجاعته. وقاتل جعفر بالرايه، حتّى إذا أحاط العدو بفرسه اقتحم عنها فعقرها واندفع بنفسه وسط القوم منطلقاً انطلاقه السهم يهوى سيفه برؤوسهم حيثما وقع. وكان اللواء يمين جعفر فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعصديه حتّى قتل. يقال إنّ رجلاً من الروم ضربه يومئذٍ ضربه قطعته نصفين. فلما قُتل جعفر أخذ ابن رواحه الرايه ثمّ تقدم بها وهو

على فرسه فطاعن القوم ساعه ثم ولي. لكنه لام نفسه، فنزل عن فرسه وقال لنفسه: أقسمت بالله لتنزلنه، إنني أراك تكرهين الجنه، ثم عاد إلى العدو فقاتلهم حتى قتل.

هؤلاء زيد وجعفر وابن رواحه استشهدوا ثلاثتهم في سبيل الله في موقعه واحده. لكن النبي لما علم بخبرهم كان على زيد و جعفر أكبر أسى وقال: إنهم لما رفعوا إليه في الجنه رأى في سرير عبد الله بن رواحه أزوراراً(1) عن سريري صاحبيه؛ فسأل لم هذا؟ ف قيل له: مضيا وتردد عبد الله بعض التردد ثم مضى. أتري إلى هذه العبره والموعظه الحسنه! فإتما معناها أن المؤمن لا يجوز له أن يتردد أو يخاف الموت في سبيل الله، بل يجب عليه كلما مضى في أمر يؤمن بأنه لله أو للوطن أن يحمل حياته على كفه، وأن يلقى بها في وجه من يقف في سبيله. فإتيا فاز وظفر فبلغ ما يؤمن به من حق الله والوطن، وإتيا استشهد فكان المثل الحي لمن بعده، والذكر الباقي لروح عظيم عرف أن قيمه الحياه ما يضحي بالحياه في سبيله، وأن الامساك على الحياه في مذهبه إهدار للحياه فما يستحق صاحبها بعد ذلك في الحياه ذكراً؛ وأن الرجل يلقى بيديه إلى التهلكه إذا هو عرض حياته تعريضاً تذهب معه ضحيه غرض وضيع؛ وأنه كذلك يلقى بيديه إلى التهلكه إذا هو أمسك على حياته حين يدعوه داعي الحق جل شأنه ليقذف بها في وجه الباطل ليسحقه، فيوارىها هو بالحجاب، ويخاف عليها الموت خوفاً هو شر من الموت. وإذا كان التردد القليل من ابن رواحه، مع إقدامه بعد ذلك واستشهاده، قد جعله في غير مكانه

ص: ٥٧٩

١- (١) الأزورار عن الشيء: العدول عنه - الصحاح، الجوهري: ٦٧٣/٢.

زيد وجعفر اللذين اقتحما صفوف الموت اقتحاماً وطارا للاستشهاد فرحاً، فما بالك بالذى ينكص على عقبيه طمعاً فى جاه أو مال أو غرض من أغراض الحياه! إنه إذاً للحشره الحقيه وإن عرّض عند السواد جاهه، وإن بدّ مال قارون ماله. وهل لنفس إنسانيه أن تغتبط حقاً لشيء اغتباطها للتضحيه فى جانب ما تؤمن بأنه الحق يجعلها تزدرى الحياه وأهل الحياه، وتنتهى من ذلك إلى الاستشهاد فى سبيل الحق! أو إلى تملكك الحق الحياه!

قتل ابن رواحه بعد تردّد ثمّ إقدام؛ فأخذ الرايه ثابت بن أرقم أحد بنى العجلان، فقال: يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم. قالوا: أنت.

قال: ما أنا بفاعل. فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فأخذ خالد الرايه برغم ما رأى من تفرق صفوف المسلمين وتضعضع قوتهم المعنويه. وكان خالد قائداً ماهراً ومحركاً للجيش قلاً نظيره. لذلك أصدر أوامره، فناور بالمسلمين حتّى ضمّ صفوفهم فوقف من محاربه العدو عند مناوشات امتدّت به حتّى أرخى الليل سدوله، وحتّى وضع الجيشان السلاح إلى الصباح. أثناء ذلك أحكم خالد تدبير حُطّته فوزّع عدداً غير قليل من رجاله فى خط طويل من مؤخره جيشه أحدثوا - إذا أصبح الناس - من الضجّه ما أدخل إلى روع عدوّه أن مدداً جاءه من عند النّبى، وإذا كان ثلاثه آلاف قد فعلوا بالروم الأفاعيل فى اليوم الأوّل وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وإن لم يستطيعوا أن يصمدوا، فما عسى أن يصنع هذا المدد الذى جاء لا يدرى أحد عدته!! لذلك تقاعس الروم عن مهاجمه خالد وشيّرّوا بعدم مهاجمته إيّاهم، وكانوا أكثر سروراً بانسحابه ومن معه راجعين إلى المدينه، بعد معركه لم ينتصر فيها المسلمون وإن كان حقاً

كذلك أن عدوهم لم ينتصر عليهم فيها.

لذلك ما لبث خالد والجيش معه أن دنوا من المدينة حتى تلقاهم «محمّد» والمسلمون معه. وطلب «محمّد» فأتى بعبدالله بن جعفر فأخذه وحمله بين يديه. أمّا الناس فجعلوا يحثون على الجيش التراب ويقولون: يا فُزار فررتم في سبيل الله، فيقول رسول الله: ليسوا بالفُزار ولكنهم الكُزار إن شاء الله. ومع هذه التأسية من «محمّد» للعائدين من مؤته فقد ظلّ المسلمون لا يغفرون لهم انسحابهم وعودهم، حتى كان سلمه بن هشام لا يحضر الصلاة مع المسلمين خشية أن يسمع من كل من رآه: يا فُزار فررتم في سبيل الله.

ولولا- ما كان بعد ذلك من فعال هؤلاء الذين حضروا مؤته، ومن فعال خالد بنوع خاص، لظلت مؤته معتبره بعض ما لطّخ به إخوانهم في الدين جبينهم من عار الفرار.

وقد بلغ الألم من نفس «محمّد» منذ علم بقتل زيد وجعفر، وحزّ الأسي في نفسه من أجلهما. لما أُصيب جعفر ذهب «محمّد» إلى منزله ودخل على زوجته أسماء بنت عميس. وكانت قد عجنت عجينها وغسلت بنيتها ودهنتهم ونظفتهم، فقال لها: ائتيني ببني جعفر. فلما أتته بهم تشمّمهم وذرفت عيناه الدمع، قالت أسماء في لهف وقد أدركت ما أصابها: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي! ما يبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: نعم، أُصيبوا هذا اليوم. وازدادت عيناه بالدمع تهتاناً(١). فقامت أسماء تصيح حتى اجتمع النساء إليها. أمّا «محمّد» فخرج إلى أهله فقال: لا تغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم

ص: ٥٨١

١- (١) هتن المطر والدمع يهتن هتناً وهتوناً وتهتاناً، إذا قطر متتابعاً - الصحاح الجوهري: ٢٢١٦/٦.

طعاماً فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم. ورأى ابنه مولاة زيد قادمة فربت (١) على كتفيها وبكى. وأظهر بعضهم دهشته لبكاء الرسول على من استشهد، فقال ما معناه: إنما هي عبرات الصديق يفقد صديقه.

وفى روايه: أن جثته جعفر حملت إلى المدينة ودُفنت بها بعد ثلاثة أيام من وصول خالد والجيش إليها. ومن يومئذ أمر الرسول الناس أن يكفوا عن البكاء. فقد أبدل الله جعفرًا من يديه اللتين قُطعتا جناحين طار بهما إلى الجنة (٢).

أراد «محمد» بعد أسابيع من عود خالد أن يسترّد هيبه المسلمين في شمال شبه الجزيرة، فبعث عمرو بن العاص يستنفر العرب إلى الشام، وذلك أن أمه كانت من قبائل تلك النواحي، فكان يسيراً عليه أن يتألفهم. فلما كان على ماء بأرض جُدام يقال له السلسل خاف فبعث إلى النبي عليه السلام يستمدّه فأمدّه بأبي عبيده بن الجراح في المهاجرين الأولين فيهم أبو بكر وعمر. وخاف «محمد» أن يختلف عمرو وهو حديث عهد بالإسلام مع أبي عبيده من المهاجرين الأولين، فقال لأبي عبيده حين وجهه: لا تختلفا. وقال عمرو لأبي عبيده: إنما جئت مدداً لي فأنا على قياده الجيش. وكان أبو عبيده رجلاً لئناً سهلاً هيناً عليه أمر الدنيا، فقال لعمرو: لقد قال لي رسول الله: لا تختلفا، وإنك إن عصيتني أطعتك. وصلّى عمرو بالناس، وتقدّم بالجيش فشئت جموع أهل

ص: ٥٨٢

-
- ١- (١) ربت المرأة صبيها: ضربت على جنبه قليلاً حتى ينام. تاج العروس: ٢٤١/١.
 - ٢- (٢) المعروف أن جثته جعفر بقيت في الأردن ودُفن فيها وقبره إلى الآن يعدّ مزاراً للمسلمين انظر: المغازي للواقدي: ٧٥٥/٢-٧٦٧، وطبقات ابن سعد: ١٢٨/٢-١٣٠، والسيره النبويه لابن هشام: ٣٧٣-٣٨٣، وبحار الأنوار: ٥٠/٢١ و ٥٤-٥٥ و ٥٧-٥٨.

الشام الذين أرادوا محاربتة، وأعاد بذلك هيبه المسلمين في تلك الناحية(١).

في هذه الأثناء كان «محمّد» يفكر في مكّه ومآلها. لكنّه - كما قدّمنا - كان وفيّاً بعهد الجديبيه. فأقام ينتظر انقضاء الستين، وجعل أثناء ذلك يوفد السرايا ليسكن بها ثائره القبائل التي تحدّثها نفوسها بالثوره. على أنّه كان في غير حاجه إلى كبير عناء من هذه الناحية؛ فقد بدأت الوفود ترد إليه من مختلف النواحي تُعلن إليه طاعتها وإذعانها، وإنّه كذلك إذ حدث ما كان مقدّمه لفتح مكّه، لاستقرار الإسلام بها استقراراً أسبغ عليها إلى أبد الدهر أعظم القدّاسه.

ص: ٥٨٣

١- (١) المغازى للواقدي: ٧٧٠/٢، طبقات ابن سعد: ١٣١/٢، سيره ابن هشام: ٦٢٢/٢.

أثر موقعه مؤتة، نقض قريش عهد الحديبية، استعداد خزاعه النبي على قريش، سفاره أبي سفيان إلى النبي وفشلها، تجهز المسلمين عشره آلاف يسيرون إلى مكة، رجاء «محمد» أن يفتح أم القرى من غير إراقه للدماء، وفود العباس ثم وفود أبي سفيان إليه بظاهر مكة، دخول المسلمين فاتحين، المكيون الذين تحرشوا بجيش خالد بن الوليد، عفو «محمد» عن خصومه جميعاً، تطهير الكعبة من الأصنام، إسلام أهل مكة.

عاد جيش المسلمين بعد موقعه مؤتة ولواءهم لخالد بن الوليد. عادوا لا منتصرين ولا منكسرين ولكن راضين من الغنيمه بالاياب. وقد ترك انسحابهم بعد موت زيد بن حارثه وجعفر بن أبي طالب وعبدالله بن رواحه أثراً مختلفاً أشد الاختلاف عند الروم وعند المسلمين المقيمين بالمدينه وعند قريش بمكة. أما الروم ففرحوا بانسحاب المسلمين وحمدوا ربهم أن لم يطل القتال بهم، مع أن جيش الروم كان منه ألف على قول ومئتي ألف على قول آخر (1)، على حين كانت عدده المسلمين ثلاثه آلاف (2). وسواء أكان

ص: ٥٨٥

١- (١) المغازى للواقدي: ٧٥٦/٢، وتاريخ الطبري: ١٥٠/٢، وتاريخ ابن خلدون: ٢٥٦/٢.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٣٧٥/٢، وتاريخ الطبري: ١٤٩/٢، وتاريخ ابن خلدون: ٢٥٦/٢، ومناقب آل أبي طالب: ١٧٦/١-١٧٧، وبحار الأنوار: ٥٦/٢١.

فرح الروم راجعاً إلى ما أبدى خالد بن الوليد من الاستماته في الدفاع والقوه في الهجوم، حتى لقد تحطمت في يده تسعه أسياف وهو يحارب بعد موت أصحابه الثلاثة، أم كان راجعاً إلى مهاره خالد في توزيع الجيش في اليوم الثاني وإحداث ما حدث من الجلبه حتى ظن الروم أن مدداً جاءه من المدينه، فإن القبائل العربيه المتاخمه للشام نظرت إلى فعال المسلمين باعجاب أشد الإعجاب. وكان من ذلك أن أحد زعمائهم فروه بن عمرو الجذامي، وكان قائداً لفرقه من جيش الروم، ما لبث أن أعلن إسلامه فقبض عليه بأمر من هرقل بتهمه الخيانه. وكان هرقل على استعداد للافراج عنه إذا هو عاد إلى المسيحيه، بل كان على استعداد أن يرده إلى مركز القياده الذي كان فيه. لكن فروه أبى وأصر على إبائه وعلى إسلامه فقتل (1). وكان من ذلك أيضاً أن ازداد الإسلام انتشاراً بين قبائل نجد المتاخمه للعراق وللشام حيث كان سلطان الرومان في ذروته.

وزاد في انضمام الناس إلى الدين الجديد اضطراب أحوال الدوله البنظيه اضطراباً جعل أحد عمال هرقل، وقد كلف أن يدفع للجيش رواتبه، يصيح في وجه عرب الشام الذين اشتركوا في الحرب: «انسحبوا فالامبراطور لا يجد ما يدفع منه رواتب جنده إللبمشقه. وليس لديه لذلك ما يوزعه على كلابه...» فلا عجب أن ينصرف هؤلاء عن الامبراطور وعن جنده، وأن يزداد ضياء الدين الجديد أمامهم نوراً يهديهم إلى صدق الحقيقه الساميه التي يبشر

ص: ٥٨٦

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٣٧٥/٢، تاريخ الطبري: ١٤٩/٢، تاريخ ابن خلدون: ٢٥٦/٢، بحار الأنوار: ٢١/٤٠٨-٤٠٩.

الناس بها. لذلك اعتنق الإسلام في هذه الفترة ألوف من سليم وعلى رأسهم العباس بن مرداس (١)، ومن أشجع وغطفان الذين كانوا حلفاء اليهود حتى نكب اليهود في خيبر. ومن عيس ومن ذبيان ومن فزاره. فكانت وقعه مؤتته بذلك سبباً في استتباب الأمر للمسلمين في شمال المدينة إلى حدود الشام، وفي ازدياد الإسلام عزه وقوه ومنعه.

لكن أثرها في نفس المسلمين المقيمين بالمدينة كان غير هذا الأثر.

فهم ما لبثوا أن رأوا خالداً والجيش معه عائدين من تخوم الشام لم ينتصروا على جيش هرقل حتى صاحوا في وجوههم: «يا فزار فررتم عن سبيل الله».

وحتى كان من خجل بعض كبار رجال الجيش أن لزم بيته حتى لا يؤذيه صبيان المسلمين وشبانهم بتهمه الفرار (٢). أما أثر مؤتته في نفس قريش فكان أنها هزيمه قضت على المسلمين وعلى سلطانهم حتى لم يبق إنسان يأبه لهم أو يقيم لعهدهم وزناً. فلتنعد الأمور كما كانت قبل عُمره القضاء، ولتنعد الأمور كما كانت قبل عهد الحديبيه، ولتنعد قريش حرباً على المسلمين ومن في عهدهم من غير أن تخشى من «محمد» قصاصاً.

وصلح الحديبيه كان قد قضى أنه من أحب أن يدخل في عهد «محمد» وعهده فليدخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش وعهدهم فليدخل فيه. وكانت خزاعه قد دخلت في عهد «محمد»، ودخلت بنو بكر في عهد قريش، وكانت بين خزاعه وبنو بكر ثارات قديمه سكنت بعد صلح

ص: ٥٨٧

١- (١) سيره ابن هشام: ٤٢٧/٢.

٢- (٢) المغازي للواقدي: ٧٦٥/٢، والسيره النبويه لابن هشام: ٣٨٣/٢.

الحديبيه و انحياز كل من القبيلتين إلى فريق من المتصالحين. فلما كانت مؤتته و خيّل إلى قريش أن المسلمين قضى عليهم خيّل إلى بنى الدليل من بنى بكر بن عبد مناه أن الفرصه سنحت لهم ليصيبوا من خزاعه بشاراتهم القديمه، و حرّضهم على ذلك جماعه من قريش، منهم عكرمه بن أبى جهل و بعض سادات قريش و أمدّوهم بالسلاح. و فيما خزاعه ذات ليله على ماء لهم يدعى الوتير إذ فاجأتهم بنوبكر فقتلوا منهم، ففرّت خزاعه إلى مكّه و لجأوا إلى دار بديل بن ورقاء و شكوا إليه نقض قريش و نقض بنى بكر عهدهم مع رسول الله. و سارع عمرو بن سالم الخزاعى فغدا متوجها إلى المدينه حتّى و قف بين يدي «محمّد» و هو جالس فى المسجد بين الناس، و جعل يقص عليه ما حدث و يستنصره. قال رسول الله:

«نصرت يا عمرو بن سالم» ثم خرج بديل بن ورقاء فى نفر من خزاعه حتّى قدموا المدينه فأخبروا النبى بما أصابهم و بمظاهرة قريش بنى بكر عليهم. عند ذلك رأى النبى أن ما قامت به قريش من نقض عهده لا مقابل له إلاّفتح مكّه، و أنّه لذلك يجب أن يرسل إلى المسلمين فى أنحاء شبه الجزيره ليكونوا على أهبه لإجابه ندائه من غير أن يعرفوا وجهته بعد هذا النداء(1).

أمّا حكماء قريش و ذوو الرأى فيها فما لبثوا أن قدّروا ما عرّضهم له عكرمه و من معه من الشبان من خطر. فهذا عهد الحديبيه قد نقض، و هذا سلطان «محمّد» فى شبه الجزيره يزداد بأسا و قوه. و لئن فكّر بعد الذى حدث

ص: ٥٨٨

١- (١) السيره النبويه لا بن هشام: ٣٩٠/٢، و مغازى الواقدي: ٧٨٣/٢، و إمتاع الأسماع: ٣٤٩/١، و تفسير مجمع البيان: ٤٦٨/١٠، و بحار الأنوار: ١٠١/٢١.

فى أن ينتقم لخزاعه من أهل مكّه لتتعرّضن المدينة المقدّسه لأشدّ الخطر.

فما ذا تراهم يصنعون؟ أوفدوا أباسفيان إلى المدينة ليثبت العقد و ليزيد فى المدّه. و لعل المدّه كانت ستين فكانوا يريدونها عشرا(1). و خرج أبوسفيان قائدهم و حكيمهم يريد المدينة. فلما بلغ من طريقه عسفان لقيه بديل بن ورقاء و أصحابه، فخاف أن يكون قد جاء «محمّدا» و أخبره بما حدث، فزيد ذلك فى مهمته تعقيدا. و برغم ما نفى بديل مقابلته «محمّدا» فقد عرف من بعر راحلته أنه كان بالمدينة(2). لذلك آثر ألا يكون «محمّد» أول من يلقى.

فجعل وجهته بيت ابنته أم حبيبه زوج النبيّ.

و لعلّها كانت قد عرفت عواطف النبيّ إزاء قريش و إن لم تكن تعلم ما اعترمه فى أمر مكّه. و لعل ذلك كان شأن المسلمين بالمدينة جميعا. فقد أراد أبوسفيان أن يجلس على فراش النبيّ فطوته أم حبيبه. فلما سألتها أبوها: أطوته رغبه بأبيها عن الفراش أم رغبه بالفراش عن أبيها، كان جوابها: هو فراش رسول الله صلى الله عليه و آله و أنت رجل مشرك نجس فلم أحب أن تجلس عليه. قال.

أبوسفيان: و الله لقد أصابك يا بتيه بعدى شزا! و خرج مغاضبا، فكلم «محمّدا» فى العهد و إطاله مدّته، فلم يردّ عليه شيئا. فكلم أبا بكر ليكلّم له النبيّ فأبى.

فكلم عمر بن الخطاب فأغلظ له فى الردّ، و قال: أنا أشفع لكم إلى رسول الله! فوالله لو لم أجد إلّا الذر لجاهدتكم به. و دخل أبوسفيان على عليّ بن أبى طالب

ص: ٥٨٩

١- (١) بل مرّ أنّها كانت عشرا فكان أبوسفيان يريد توكيدها و ليس تمديدها.

٢- (٢) معرفه أبى سفيان بأنّه كان فى المدينة لم يكن من خلال بعر راحلته نعم حدث هذا فى معركة بدر، و بدرقريبه من المدينة. أمّا هنا فاللقاء تمّ فى عسفان، و عسفان قريبه من مكّه أى بعد أسبوع من خروجهم من المدينة فلا يدل بعر راحلهم على شىء.

وعنده فاطمه، فعرض عليه ما جاء فيه و استشفعه إلى الرسول، فأنبأه عليّ في رفق أنّه لا يستطيع أحد أن يردّ «محمّدا» على أمر إذا هو اعتمزه. و استشفع رسول قريش فاطمه أن يجير ابنها الحسن بين الناس؛ فقالت: ما يجير أحد على رسول الله. و اشتدت الأمور على أبي سفيان، فاستنصح عليّا فقال له:

«والله ما أعلم شيئا يغنى عنك شيئا. لكنك سيّد بنى كنانة فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك؛ و ما أظن ذلك مغنيا و لكنّي لا أجد لك غيره»، ذهب أبو سفيان إلى المسجد وهناك أعلن أنّه أجار بين الناس. ثم ركب راحلته و انطلق ذاهبا إلى مكّه و قلبه يفيض أسى ممّا لقي من هوان على يد ابنته، و على يد أولئك الذين كانوا قبل هجرتهم من مكّه يرتجون منه نظره عطف أو رضا.

عاد أبو سفيان إلى مكّه، فقصّ على قومه ما لقي بالمدينه و ما أجار بين الناس في المسجد بمشوره عليّ، و أن «محمّدا» لم يجز جواره. قال قومه:

ويلك! و الله إن زاد الرجل على أن لعب بك.. و عادوا فيما بينهم يتشاورون(١).

أمّا «محمّدا» فقد رأى ألاّ يترك لهم الفرصه حتّى يتجهزوا للقائه. و لئن كان و اثقا من قوّته و من نصر الله إيّاه، فقد كان يرجوا أن يبيغ القوم في غرّه منهم، فلا يجدوا له دفعا فيسلموا من غير أن تراق الدماء. لذلك أمر الناس بالتجهّز. فلمّا تجهزوا أعلمهم أنّه سائر إلى مكّه و أمرهم بالجد(٢)، و دعا الله أن يأخذ العيون و الأخبار عن قريش حتّى لا تقف من سيرهم على نبأ.

ص: ٥٩٠

١- (١) السيره النبويه لا- بن هشام: ٣٩٥-٣٩٧، و مغازي الوقدي: ٧٨٧/٢-٧٩٥، و إمتاع الأسماع: ٣٤٩/١-٣٥٠، و الإرشاد للمفيد: ١٣٣/١، و بحار الأنوار: ١٢٥/٢١-١٢٧.

٢- (٢) بل لم يخبرهم حتّى مشارف الحرم.

وبينما الجيش على أهبة السير كتب حاطب بن أبي بلتعه كتابا أعطاه امرأه من مكه مولاة لبعض بنى عبدالمطلب، و جعل لها جعلاً- على أن تبغّه قريشا ليقفوا على ما أعدّ «محمّد» لهم. و حاطب كان من كبار المسلمين. لكنّ في النفس الإنسانية جوانب ضعف تظفي في بعض الأحيان عليها و تهوى بها إلى ما لا ترضاه لنفسها. و ما لبث «محمّد» أن أحيط بالأمر خيرا. فسارع فبعث عليّ بن أبي طالب و الزبير بن العوّام فأدركا ساره فاستنزلاها فالتمسا في رحلها فلم يجدا شيئا. فأنذرها عليّ إن لم تخرج هذا الكتاب ليكشفنّها.

فلما رأت المرأة الجدد منه قالت: أعرض. فأعرض، فحلت ذوائب شعائرها فأخرجت الكتاب (١) منها. فردّاها إلى المدينة (٢)، و دعا «محمّد» حاطبا يسأله ما حمله على ذلك. قال حاطب: يا رسول الله، أما و الله إنّي لمؤمن بالله و برسوله ما غيرت و لا بدّلت و لكنّي كنت امرأ ليس له في القوم من أهل و لا عشيره، و كان لي بين أظهرهم ولد و أهل فصانعتهم عليهم. قال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله فلاضرب عنقه فإنّ الرجل قد نافق. قال رسول الله:

وما يدريك يا عمر لعلّ الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر، فقال:

اعملوا ما شئتم

ص: ٥٩١

١- (١) تفصيل الحدث أنّ الزبير سألها عن الكتاب، فأنكرته و حلفت أنّه لا شيء معها و بكت، فقال الزبير: ماءرى يا أبا الحسن معها كتابا، فارجع بنا إلى رسول الله صلى الله عليه و آله لنخبره ببراءه ساحتها، فقال له عليّ: «يخبرني رسول الله أنّ معها كتابا و يأمرني بأخذه منها و تقول أنت أنّه لا- كتاب معها» ثم اخترط السيف و تقدّم إليها، فقال: «أما و الله لئن لم تخرجي الكتاب لا كشفنك ثم لأضربنّ عنقك». فقالت له: فاعرض بوجهك عنيّ، فأعرض بوجهه عنها فكشفت قناعها و أخرجت الكتاب من عقيصتها فأخذه عليّ و سار به إلى رسول الله صلى الله عليه و آله. مسند أحمد: ١٠٥/١ و ١٢١، صحيح البخارى: ٨٩/٥، الطبقات الكبرى لا بن سعد: ١٣٤/٢.

٢- (٢) بل إنّما رجع عليّ عليه السلام بكتابها و ليس بها نفسها.

فقد غفرت لكم . و كان حاطب من أصحاب بدر(١) و إذ ذلك نزل(٢) قوله تعالى يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عِدُوِّي وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ٣ .

وتحرّك جيش المسلمين من المدينة قاصداً مكّه ليفتحها وليضع يده على البيت الحرام الذي جعله الله مثابة للناس وأمناً. تحرّك هذا الجيش في عدد لا عهد للمدينة به. فقد بعثت القبائل من سُلَيم ومزينة وغطفان وغيرها من انضمّ إلى المهاجرين والأنصار وسار معهم في يَلَب(٣) الحديد يسيلون في فسيح الصحراء، حتّى كانوا إذا ضربوا خيامهم اكتست بها رمال البيداء فما يكاد يبدو منها للناظر شيء. تحرّكوا وأغذّ هؤلاء الألوّف سيرهم وصاروا كلّما تقدموا فيه انضمّ اليهم من سائر القبائل من زاد عددهم وزاد منعتهم، وكلهم ممتلئ النفس بالإيمان أن لا- غالب لهم من دون الله. وسار «محمّد» على رأسهم وأكبر همّه وكل تفكيره أن يدخل البيت الحرام من غير أن يهريق نقطه دم واحده. وبلغ الجيش مرّ الظهران وقد كملت عدّته عشرة آلاف لم يصل إلى قريش من أمرهم خبر(٤)، فهي في جدل مستمر ماذا تصنع لالتقاء عدّوه «محمّد» عليها. أمّا العباس بن عبدالمطلب عمّ النبي فقد تركهم في جدلهم وخرج في أهله حتّى لقي «محمّد» بالجحفة. ولعلّ طائفه من بنى هاشم كانت نبأ أو شبهه من خروج النبي، فأرادت أن تلحق به دون أن

ص: ٥٩٢

-
- ١- (١) السيره النبويّه لابن هشام: ٣٩٧/٢-٣٩٩، ومغازى الواقدي: ٧٩٦/٢-٧٩٨، طبقات ابن سعد: ١٣٤/٢، وتفسير مجمع البيان: ٤٤٦/٩، وبحار الأنوار: ٩٤/٢١.
 - ٢- (٢) تفسير الطبري: ٥٦/١٢، وتفسير مجمع البيان: ٤٤٥/٩، وأسباب النزول للواحدى: ٢٨١.
 - ٣- (٤) يَلَب، اليلب، الدرّوع اليمانيه.
 - ٤- (٥) مغازى الواقدي: ٧٩٩/٢-٨٠٢، والسيره النبويّه لابن هشام: ٤٠٠/٢، والطبقات الكبرى: ١٣٤/٢-١٣٥، وإعلام الورى بأعلام الهدى: ٢١٩/١، وبحار الأنوار: ١٢٧/٢١.

يصيها أذى. فقد خرج سوى العباس أبوسفیان بن الحارث بن عبدالمطلب ابن عم النبي، وعبدالله بن أبي أمية بن المغيرة ابن عمته، حتى أتصلا بجيش المسلمين وهو بنيق العقاب فاستأذنا على النبي. فرفض أن يأذن لهما، وقال لزوجه أم سلمة حين كلمته في أمرهما: لا حاجة لي بهما، أما ابن عمي فقد أصابني منه سوء؛ وأما ابن عمتي وصهرى فقد قال بمكة ما قال. وبلغ أباسفیان (ابن الحارث) هذا الكلام فقال: والله ليؤذنين لي أو لآخذن بيد بنتي هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً، فرق «محمد» ثم أذن لهما فدخلا عليه فأسلما(1).

ورأى العباس بن عبدالمطلب من جيوش ابن أخيه ومن قوته ما راعه وأزعجه. ولئن كان قد أسلم فإن ذلك لم يخل قلبه من خشية ما يخل بمكة إذا دهمها هذا الجيش الذي لا قبل لقوته في بلاد العرب به. أوليس قد ترك مكة لأمسه، أو ليومين أو ثلاثه أيام مضت، وله بها من الأهل والخلان والأصدقاء ما لم يقطع الإسلام الذي اعتنق منذ ساعه من وشائجه! ولعله أفضى بمخاوفه هذه إلى الرسول وسأله: ما يصنع إذا طلبت قريش أمانه؟ ولعل ابن أخيه سير بمفاتيحه العباس إياه في هذا، ورجا أن يتخذ منه سفيراً يلقي في قلوب القوم من قريش الرعب فيدخل مكة من غير أن يسفك دمها، وتظل مكة حراماً كما كانت وكما يجب أن تكون. وجلس العباس على بغله النبي البيضاء وخرج عليها حتى جاء ناحيه الأراك، لعله يجد خطاباً أو صاحب لبن أو أى إنسان

ص: ٥٩٣

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٢/٤٠٠، ومغازى الواقدي: ٢/٨١٠-٨١٢، وإمتاع الأسماع: ١/٣٥٦-٣٥٧ وتفسير مجمع البيان: ١٠/٤٧٠، وبحار الأنوار: ٢١/١٠٢-١٠٣.

ذاهباً إلى مكّه، يحمله إلى أهلها رساله بقوه المسلمين وبأس جيوشهم، حتى يخرجوا إلى رسول الله فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوه. وكانت قريش قد بدأت، منذ نزل المسلمون مرّ الظهران (على أربع فراسخ من مكّه) تشعر بأنّ خطراً يقترب منها؛ فأرسلت أبا سفيان بن حرب وبيديل بن ورقاء وحكيم بن حزام قريب خديجه يتنصّسون الأخبار ويستطلعون مبلغ الخطر الذي تحس قلوبها. وإنّ العباس ليسير على بغله النبيّ البيضاء إذ سمع حديثاً بين أبي سفيان بن حرب وبيديل بن ورقاء كذلك يجري:

أبوسفيان: ما رأيت كالليله نيراناً قطّ ولا عسكر.

بيديل: هذه والله خزاعه حمّشتها الحرب.

أبوسفيان: خزاعه أقلّ وأذلّ من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

وعرف العباس صوت أبي سفيان فناده بكنيته، قائلاً: أبا حنظله، وأجاب أبوسفيان بدوره: أبا الفضل. قال العباس: ويحك يا أبا سفيان! هذا رسول الله في الناس. واصباح قريش إذا دخل مكّه عنوه! قال أبوسفيان: فما الحيله فداك أبي وأُمّي؟ فأركبه العباس في عجز البغله وردّ صاحبيه إلى مكّه وسار به، والناس إذا رأوا البغله عرفوها وتركوها تمرّ بمنّ عليها بين عشره آلاف أوقدوا نيرانهم لتلقى الرعب في قلب مكّه وأهلها. فلمّا مرّت بنار عمر ابن الخطاب ورآها، عرف أباسفيان وأدرك أنّ العباس يريد أن يُجيره، فأسرع إلى خيمه النبيّ وطلب إليه أن يضرب عنقه. قال العباس: إني يا رسول الله قد أجرته. إزاء هذا الموقف في تلك الساعه من الليل وبعد مناقشه لا تخلوا

من حدّته بين العباس وعمر، قال «محمد»:

«أذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأنتني به». فلما كان الصباح وجيء بأبي سفيان في حضره النبي وبمسمع من كبراء المهاجرين والأنصار، جرى الحوار الآتي:

النبي:

ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله!

أبوسفيان: بأبي أنت وأمي! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى شيئاً بعد.

النبي:

ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أنني رسول الله!

أبوسفيان: بأبي أنت وأمي! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أما هذه فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً.

فتدخّل العباس موجّهاً القول إلى أبي سفيان أن يُسلم ويشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمّداً رسول الله قبل أن تُضرب عنقه. ولم يجد أبوسفيان أمام هذا إلا أن يُسلم. فتوجّه العباس بالقول إلى النبي عليه السلام: يا رسول الله، إنّ أباسفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً. قال رسول الله:

«نعم! من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن»^(١).

هذه الوقائع واردٌ عليها اتفاق المؤرخين وكتاب السير جميعاً. إلّا أنّ بعضهم يتساءل: أهي قد حدثت كلّها بمحض المصادفة؛ فخرج العباس إلى النبي كان قصده منه أن يذهب إلى المدينة فإذا هو يلقي جيوش المسلمين بالجحفة؛ وخروج بديل بن ورقاء مع أبي سفيان بن حرب كان لمحض

ص: ٥٩٥

١- (١) المغازي للواقدي: ٨١٦/٢-٨١٨، والسيره النبويه لابن هشام: ٤٠٢/٢-٤٠٣، وعيون الأثر: ٢/٢١٨، وتفسير مجمع البيان: ٤٧٠/١، ومناقب آل أبي طالب: ١٧٨/١، وبحار الأنوار: ١٠٣/٢١-١٠٤. وعليه فلم يدع رسول الله لأبي سفيان فخراً خاصاً بعد أن خيّر المستأمنين بين دُورهم ودار أبي سفيان فلا فرق!

الاستطلاع، مع أنّ بديلاً ذهب قبل ذلك إلى المدينة وقصّ على النبيّ ما لقيت خزاعه وعرف من النبيّ أنّه ناصرها؛ وخروج أبي سفيان كان على جهل منه بأنّ «محمّداً» قد سار ليغزو مكّه؟! أم أنّ شيئاً من التفاهم، قليلاً أو كثيراً كان قد حدث قبل ذلك، وأنّ هذا التفاهم هو الذى أخرج العباس للقاء «محمّد»، وأنّ هذا التفاهم هو الذى جمع بين العباس وأبي سفيان، وأنّ أبا سفيان كان قد وثق، منذ ذهب إلى المدينة ليمدّ فى عهد الحديبيه ورجع صفر اليمين، موقناً بأن لا سبيل لقريش إلى ردّ «محمّد»، وأيقن أنّه إذا مهّد للفتح السبيل فستبقى له رئاسته فى مكّه ومقامه الكبير فيها، وأنّ الذى ربّما كان وقع عليه التفاهم من ذلك لم يتعد «محمّداً» والأشخاص الذين يعينهم الأمر، بدليل ما همّ به عمر من قتل أبي سفيان؟! من المغامرة أن نحكم. لكننا نستطيع أن نقرّر مطمئنّه نفوسنا أنّه سواء أكانت المصادفه هى التى ساقّت ذلك كلّ أم أنّ شيئاً من التفاهم قد وقع عليه، فالحالان تدلان على دقه «محمّد» ومهارته فى كسب أكبر موقعه فى تاريخ الإسلام من غير حرب ومن غير إراقه دماء.

ثمّ إنّ ذلك لم يخدع «محمّداً» عن أن يتخذ لدخول مكّه كلّ ما لديه من أهّبه وحذر. وإذا كان النصر بيد الله يؤتیه من يشاء، فإنّ الله لا يؤتى النصر إلّا من أعدّ له كلّ عدّته، واحتاط لكلّ دقيقه وجليله قد تقف فى سبيله. لذلك أمر أن يُحبس أبو سفيان بمضيق الوادى عند مدخل الجبل إلى مكّه، حتّى تمرّ به جنود المسلمين فيراها ليحدّث قومه بها عن بينه، ولكى لا يكون فى اسرعه إليهم خيفه مقاومه من أى نوع تكون. ومّرت القبائل بأبي سفيان، فما راعه منها إلّا الكتيبه الخضراء يحيط ب «محمّد» فيها المهاجرون والأنصار لا يرى

منهم إلاًلحدق من الحديد. فلما عرف أبو سفيان أمرهم قال: يا عباس! ما لأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقه. واللّه يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداه عظيماً(١). ثم انطلق إلى قومه يصيح فيهم بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا «محمد» قد جاءكم فيما لا قِبَل لكم به. فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن(٢).

وسار «محمد» في الجيش، حتّى إذا انتهى إلى ذى طوى ورأى من هناك مكّه لا- تقاوم استوقف كتابه ووقف على راحلته وانحنى لله شاكرًا، أن فتح الله عليه مهبط الوحي ومقرّ البيت الحرام ليدخله والمسلمون آمنين مطمئنين(٣). وفيما هو كذلك طلب أبو قحافه، ولم يكن قد أسلم كابنه، إلى حفيده له أن تظهر به على أبي قبيس، وقد كان كُفّ بصره. فلما ارتقت فوق الجبل سألتها ما ترى؟ قالت: أرى سواداً مجتمعاً. قال: تلك الخيل. ثمّ قالت: قد والله انتشر السواد. فقال: تلك الخيل دفعت إلى مكّه، فأسرعى بي إلى بيتي.

فنزلت وإياه؛ فلم يصل إلى بيته حتّى كانت الخيل قد زحفت وتلقّته قبل بلوغه إياه(٤).

شكر «محمد» الله أن فتح عليه مكّه، ولكنّه ظل مع ذلك متخذاً حذره.

ص: ٥٩٧

١- (١) وجاء في تاريخ الطبرى: أنّ العباس عمّ النبىّ قد أجابه بالقول: ويحك! إنّها النبوه، فقال: نعم إذاً، فقلت: الحق الآن بقومك، فحذرهم.. ٣٣٢/٢.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٤٠٢/٢-٤٠٤، المغازى للواقدى: ٨٢٢/٢، وتاريخ الطبرى: ١٥٨/٢، وإعلام الورى بأعلام الهدى: ٢٢١/١، وبحار الأنوار: ١٢٩/٢١-١٣٠.

٣- (٣) السيره النبويه لابن هشام: ٤٠٥/٢، والمغازى للواقدى: ٨٢٤/٢، وإمتاع الأسماع: ٣٨٤/١.

٤- (٤) المغازى للواقدى: ٨٢٤/٢.

فقد أمر أن يفزق الجيش أربع فرق. وأمرها جميعاً ألتقاتل وألما تسفك دماً إلّا إذا أكرهت على ذلك إكراهاً واضطرت إليه اضطراً. وجعل الزبير بن العوام على الجناح الأيسر من الجيش وأمره أن يدخل مكة من شمالها، وجعل خالد بن الوليد على الجناح الأيمن وأمره أن يدخل من أسفل مكة، وجعل سعد بن عباد على أهل المدينة ليدخلوا مكة من جانبها الغربي (١). أما أبو عبيدة بن الجراح فجعله «محمّداً» على المهاجرين وسار وإيّاهم ليدخلوا مكة من أعلاها في حذاء جبل هند (٢). وفيما هم يتأهبون سمع بعضهم سعد بن عباد يقول:

اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحلّ الحرمه، وفي ذلك من نقض أمر النبي أليقتل المسلمون من أهل مكة ما فيه. لذلك رأى النبي حين بلغه ما قاله سعد أن يأخذ الرايه منه وأن يدفعها إلى ابنه قيس (٣)، وكان رجلاً ضخماً لكنّه كان أهدأ من أبيه أعصاباً (٤).

دخلت الجيوش مكة فلم يلق منها مقاومه إلّا جيش خالد بن الوليد.

فقد كان يقيم في هذا الحي من أسفل مكة أشدّ قريش عداوه ل «محمّداً»، ومن اشتركوا مع بنى بكر في نقض عهد الحديبيه بالغاره على خزاعه، هؤلاء لم

ص: ٥٩٨

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٤٠٦/٢، والمغازي للواقدي: ٨٢٥/٢، والطبقات الكبرى: ١٣٥/٢-١٣٦، وبحار الأنوار: ١٠٥/٢١.

٢- (٢) تاريخ الطبري: ١٥٩/٢.

٣- (٣) في روايه الطبري: ٣٣٤/٢ فسمعها رجل من المهاجرين فقال: يا رسول الله، اسمع ما قال سعد بن عباده وما نأمن أن تكون له في قريش صوله، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لعليّ بن أبي طالب عليه السلام: أدركه فخذ الرايه فكن أنت الذي تدخل بها..

٤- (٤) السيره النبويه لابن هشام: ٤٠٦-٤٠٧، وتاريخ الطبري: ١٥٩/٢، وتاريخ الخميس: ٨٢/٢، الإرشاد للمفيد: ٦٢/١، ومناقب آل أبي طالب: ١٧٩/١، وبحار الأنوار: ١٣٠/٢١.

يُرِضُهُمْ مَا نَادَى بِهِ أَبُو سَفِيَانَ بَلْ أَعَدُّوا عَدَّتَهُمْ لِلْقِتَالِ وَأَعَدَّ آخَرُونَ مِنْهُمْ عُدَّتَهُمْ لِلْفِرَارِ، وَقَامَ عَلَى رَأْسِهِمْ صَفْوَانٌ وَسَهِيلٌ وَعَكْرَمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ. فَلَمَّا دَخَلَتْ فِرْقَةُ خَالِدٍ أَمْطَرُوهَا نِبَالَهُمْ. لَكِنَّ خَالِدًا لَمْ يَلْبِثْ أَنْ فَرَّقَهُمْ وَلَمْ يَقْتُلْ مِنْ رِجَالِهِ إِلَّا اثْنَانِ ضَلَّ طَرِيقَهُمَا وَانْفَصَلَا عَنْهُ. أَمَّا قَرِيشٌ فَفَقَدُوا ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا فِي رِوَايَةٍ، وَثَمَانِيَةَ وَعِشْرُونَ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى. وَلَمْ يَلْبِثْ صَفْوَانٌ وَسَهِيلٌ وَعَكْرَمَةُ أَنْ رَأَوْا الدَّائِرَةَ تَدُورُ عَلَيْهِمْ حَتَّى وَلَّوْا الْأَدْبَارَ تَارِكِينَ وَرَاءَهُمْ مَنْ حَرَّضَهُمْ عَلَى الْمَقَاوِمِ يَصِيلُونَ بِأَسِ خَالِدٍ وَبَطْشَ أَبْطَالِهِ مَعَهُ. وَفِي مَا «مُحَمَّدٌ» عَلَى رَأْسِ الْمُهَاجِرِينَ يَرْقَى مُرْتَفَعًا يَنْزِلُ مِنْهُ إِلَى مَكَّةَ مُطْمَئِنِّ النَّفْسِ لِفَتْحِهَا فِي سَكِينَةٍ وَسَلْمٍ، بَصَرَ بِأُمَّ الْقُرَى وَبِمَا فِيهَا جَمِيعًا، وَبَصَرَ بِتَلْمَاعِ السِّيُوفِ أَسْفَلَ الْمَدِينَةِ وَبِمِطَارِدَةَ جَيْشِ خَالِدٍ لَمَنْ هَاجَمُوهُمْ. هُنَاكَ أَسِيفٌ وَصَاحٌ مَغْضِبًا يَذْكَرُ أَمْرَهُ أَلَّا يَكُونَ قِتَالًا. فَلَمَّا عَلِمَ بِمَا كَانَ، ذَكَرَ أَنَّ الْخَيْرَ فِي مَا اخْتَارَهُ اللَّهُ (١).

وَنَزَلَ النَّبِيُّ بِأَعْلَى مَكَّةَ قُبَالَه جَبَلُ هِنْدٍ، وَهُنَاكَ ضُحِرَتْ لَهُ قَبْهٌ عَلَى مَقْرَبِهِ مِنْ قَبْرِ أَبِي طَالِبٍ وَخَدِيدِجَةَ، وَسُئِلَ: هَلْ يَرِيدُ أَنْ يَسْتَرِيحَ فِي بَيْتِهِ؟ فَأَجَابَ: كَلَّا! فَمَا تَرَكَوْا لِي بِمَكَّةَ بَيْتًا (٢). وَدَخَلَ إِلَى الْقَبْرِ يَسْتَرِيحُ وَقَلْبُهُ مَفْعَمٌ بِشُكْرِ اللَّهِ أَنْ عَادَ بِهِ عَزِيزًا مُنْتَصِرًا إِلَى الْبَلَدِ الَّذِي آذَاه وَعَذَّبَهُ وَأَخْرَجَهُ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ وَدِيَارِهِ. وَأَجَالَ بَصْرَهُ فِي الْوَادِي وَفِي الْجِبَالِ الْمُحِيطَةِ بِهِ. فِي هَذِهِ الْجِبَالِ

ص: ٥٩٩

١- (١) السيرة النبوية لابن هشام: ٤٠٧/٢-٤٠٨، المغازي للواقدي: ٨٢٥/٢-٨٢٦، والطبقات الكبرى: ١٣٦/٢.

٢- (٢) السيرة النبوية لابن هشام: ٤٠٧/٢، والمغازي للواقدي: ٨٢٩/٢، والطبقات الكبرى: ١٣٦/٢. بل قال: وهل ترك عقيل لنا منزلاً؟!

التي كان يأوى إلى شعابها حين يشتد به أذى قريش وتشتد به قطيعتها. في هذه الجبال ومن بينها حراء حيث كان يتحنّت حتى نزل عليه الوحي أن:

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْمَكْرُمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ١ . أجال بصره في هذه الجبال وفي الوادي مبعثره منازل مكة فيه يتوسّطها البيت الحرام، فبلغ من خضوعه لله أن تفرقت في عينه دمعه إسلام وشكر وإذعان للحق لا حق إلهو، إليه يرجع الأمر كله.

وشعر ساعتئذ أن مهمه القائم قد انتهت. فلم يقيم بالقبه طويلاً، بل خرج وامتنى ناقته القصوى وسار بها حتى بلغ الكعبه، فطاف بالبيت سبعاً على راحلته يستلم الركن بمحجن في يده. فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحه ففتح الكعبه، فوقف «محمّد» على بابها وتكاثر الناس في المسجد، فخطبهم وتلا عليهم قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ٢ . ثم سألهم:

يا معشر قريش، ما ترون أنّي فاعل فيكم؟ قالوا: خيراً. أخ كريم وابن أخ كريم! قال:

فاذهبوا فأنتم الطلقاء(١).

وبهذه الكلمه صدر العفو العام عن قريش وعن أهل مكة جميعاً.

ما أجمل العفو عند المقدره! ما أعظم هذه النفس التي سمت كل السمّ

ص: ٦٠٠

١- (٣) السيره النبويه لابن هشام: ٤١١/٢-٤١٢، والمغازي للواقدي: ٨٣١/٢ و ٨٣٥، وتاريخ الطبري: ١٦١/٢، ومناقب آل أبي طالب: ١٨٠/١، وتفسير مجمع البيان: ٤٧٢/١٠، وبحار الأنوار: ١٠٦/٢١.

فارتفعت فوق الحقد وفوق الانتقام، وأنكرت كل عاطفه دنيا، وبلغت من النبل فوق ما يبلغ الإنسان. هؤلاء قريش يعرف «محمد» منهم من ائتمروا به ليقتلوه، ومن عدّبوه وأصحابه من قبل ذلك، ومن قاتلوه في بدر وفي أحد، ومن حصروه في غزوه الخندق ومن ألّبوا عليه العرب جميعاً ومن لو استطاعوا قتله وتمزيقه إزباً إزباً لما ونوا عن ذلك لحظه! هؤلاء قريش في قبضه «محمد» وتحت قدميه، أمره نافذ في رقابهم وحياتهم جميعاً معلقه بين شفّتيه، وفي سلطانه هذه الألوف المدججه بالسلاح تستطيع أن تُبِيد مَكَّة وأهلها في رجع البصر! لكنّ «محمدًا»! لكنّ النبي! لكنّ رسول الله ليس بالرجل الذي يعرف العداوه أو يريد بها أن تقوم بين الناس. وليس هو بالجبار ولا هو بالمتكبر. لقد أمكنه الله من عدوّه، فقدّر فعفا، فضرب بذلك للعالم كله ولأجياله جميعاً مثلاً في البر والوفاء بالعهد وفي سموّ النفس سموّاً لا يبلغه أحد.

ودخل «محمد» الكعبه فرأى جدرانها صوّرت عليها الملائكه والنبيون، ورأى إبراهيم مصوراً في يده الأزلام يستقسم بها، ورأى بها تمثال حمامه من عيدان فكسرها بيده وألقاها إلى الأرض. أمّا صورته إبراهيم فنظر «محمد» إليها ملياً وقال:

قاتلهم الله! جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام. ما شأن إبراهيم والأزلام! ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين.

أمّا الملائكه الذين صوّروا نساء ذوات جمال فقد أنكر «محمد» صورهم أن ليست الملائكه ذكوراً ولا إناثاً؛ ثمّ أمر بتلك الصور كلّها فطمست. وكان حول الكعبه الأصنام التي كانت تعبدها قريش من دون الله قد شدّت إلى جدرها

بالرصاص، كما كان هُبل داخل الكعبة، فجعل «محمّد» يشير إلى هذه الأصنام جميعاً بقضيب في يده (١). وهو يقول: وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۚ. وأُلقيت الأصنام لوجوهها وظهورها، وطُهر البيت الحرام بذلك منها (٢). وأتم «محمّد» بذلك في أوّل يوم لفتح مكّه ما دعا إليه منذ عشرين سنة، وما حاربته مكّه أشدّ الحرب فيه. أتمّ تحطيم الأصنام والقضاء على الوثنيه في البيت الحرام بمشهد من قريش، ترى أصنامها التي كانت تعبد ويعبد آباؤها. لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا.

ورأى الأنصار من أهل المدينة ذلك كلّ، ورأوا «محمّداً» يقوم على الصفا ويدعو، فخيل إليهم أنّه تارك المدينة إلى وطنه الأوّل وقد فتحه الله عليه. وقال بعضهم لبعض: أترون رسول الله صلى الله عليه وآله إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها؟! ولعلهم كانوا على حقّ في مخاوفهم. فهذا رسول الله، وبمكّه البيت

ص: ٦٠٢

١- (١) ينقل لنا الإمام عليّ بن أبي طالب مسأله إلقاء الأصنام وتكسيورها وتطهير البيت الحرام منها: وقد تحاشى المؤلف ذكرها - بقوله عليه السلام: انطلق بي رسول الله صلى الله عليه وآله إلى كسر الأصنام، فقال لي: اجلس، فجلست إلى جنب الكعبة، ثمّ صعد الرسول على منكبى، فقال لي: انهض بي، فنهضت به، فلمّا رأى ضعفى تحته، قال: اجلس، فجلست ونزل عني، وقال: يا عليّ اصعد على منكبى فصعدت على منكبى، ثمّ نهض بي حتّى خيل لي أن لو شئت نلت السماء، وصعدت على الكعبة... فألقيت الصنم الأكبر وكان من نحاس موتداً بأوتاد من حديد، فقال صلى الله عليه وآله: عالجه فلم أزل أعالجه ورسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إيه إيه، حتّى قلعت، فقال: دقه، فدقّته وكسّرتة ونزلت. المستدرک على الصحيحين: ٣٦٧/٢ و ٥/٣. وروى ابن الجوزى فى تذكره الخواص: ٣٤ مثله، وينايع المودّه للقندوزى: ٢٥٤.

٢- (٣) سيره ابن هشام: ٤١٣/٢ و ٤١٦، والمغازى للواقدى: ٨٣٢/٢ و ٨٤٤، والسيره الحلييه: ٨٥/٣-٨٧، وتفسير مجمع البيان: ٤٧٣/١٠، والإرشاد للمفيد: ١٣٨/١، والخرائج والجرائح: ٩٧/١، وبحار الأنوار: ١٠٦/٢١ و ١١٧.

الحرام بيت الله، وبمكّه المسجد الحرام. لكنّ «محيّداً» ما لبث أن أتمّ دعاءه حتّى سألهم: ما قالوا؟ فلمّا عرف بعد تردّد منهم مخافتهم قال:

معاذ الله! المَحْيَا مَحْيَاكم والممات مماتكم(١). فضرب بذلك للناس مثلاً- في البرّ بعهدده في بيعه العقبه، وفي الوفاء لأنصاره الذين وقفوا ساعه الشده إلى جانبه، بزاً ووفاء لا يُنسيهما وطن ولا أهل ولا تُنسيهما مكّه البلد الحرام.

ولمّا أن طُهرت الكعبه من أصنامها، أمر النبيّ بلالاً فأذن فوقها(٢) وصلىّ الناس بإمامه «محمّد». ومن يومئذٍ إلى يومنا الحاضر، مدى أربعة عشر قرناً مضت لا تنقطع، وبلال وخلفاء بلال من بعده ينادون بالأذان، كلّ يوم خمس مرات من فوق مسجد مكّه. ومدى أربعة عشر قرناً مضت من يومئذٍ يؤدّي المسلمون فرض الصلاه لله والصلاه على رسوله، متوجّهين إلى الله بقلوبهم وعقولهم، مستقبليين هذا البيت الحرام الذي طُهره «محمّد» يوم الفتح من أوثانه وأصنامه.

وأذعنت قريش لما حلّ بها واطمأنت لعفو «محيّد» عنها وأقامت تنظر إليه وإلى المسلمين من حوله بعيون كلّها الدهش والاعجاب يمازجها الخوف والحذر. لكنّ طائفه منها عدّتها سبعة عشر رجلاً(٣)، كان «محمّد» قد استثناها من رحمته وأمر ساعه دخول مكّه أن يقتل رجالها ولو وُجدوا متعلّقين بأستار الكعبه(٤)، كان قد فضّل بعضها الاختفاء ولاذ بعضها بالفرار.

ص: ٦٠٣

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٤١٦/٢، وتاريخ الخميس: ٨٩/٢، والسيره الحلبيه: ٩٠/٣.

٢- (٢) المغازي للواقدي: ٨٤٦/٢، وتاريخ يعقوبى: ٦٠/٢، والطبقات الكبرى: ١٣٧/٢.

٣- (٣) بل سته بلا عشر، أربعة رجال و امرأتين، وانظر وقارن، الإرشاد للمفيد: ١٣٦/١، السنن الكبرى للبيهقي: ٢٠٢/٨ و ٢٠٥، المستدرک للحاكم: ٥٤/٢.

٤- (٤) وانتقاماً ومقابله بالمثل أمر يزيد بن معاويه عمرو بن سعيد بن العاص الأموي بقتل الحسين عليه السلام أينما وجدته ولو كان متعلقاً بأستار الكعبه، وعلم الحسين عليه السلام بذلك فعزم على الخروج من مكّه، فحاول منعه ابن الزبير فحدّثه عن أبيه عن جدّه رسول الله قال: وإنّ بها كبشاً به يستحلّ حرمتها، فلا أريد أن أكون ذلك الكبش، انظر وقعه الطف لأبى مخنف.

ولم يكن قرار «محمّد» قتلهم لحقد منه أو غضب عليهم؛ فهو لم يكن يعرف الحقد؛ ولكنّ لجرائم عظمى ارتكبوها. فأحدهم عبد الله بن أبي السرح كان قد أسلم وكان يكتب ل «محمّد» الوحي، فارتدّ مشرّكاً إلى قريش زاعماً أنّه كان يزيّف الوحي حين يكتبه. وعبد الله بن خطل كان قد أسلم ثمّ قتل مولياً له وارتدّ مشرّكاً وأمر جاريته فزنتا وصاحبتهما فكانتا تغنيان بهجاء «محمّد» فأمر بقتلهما معه، وعكرمه بن أبي جهل وكان من أشدّ الناس لعدداً في خصومه «محمّد» والمسلمين خصومه لم تهدأ حتى بعد فتح مكّه ودخول خالد بن الوليد من أسفلها. أمر «محمّد» بعد دخول مكّه ألاّ يسفك بها دم أو يقتل فيها أحد غير هذه الطائفه. لذلك اختفى رجالها ونساؤها وفرّ منهم من فر. فلمّا استقرّ الأمر وهدأت الحال ورأى الناس من فسحه صدر الرسول ومن عفوه الشامل ما رأوا. طمع بعض أصحابه في أن يعفو حتى عن هؤلاء الذين أمر أن يقتلوا. فقام عثمان بن عفان، وكان أخا ابن أبي السرح للرضاعه، حتى أتى به النبيّ فاستأمن له؛ فصمت «محمّد» طويلاً ثمّ قال: نعم، وأمنه. وأسلمت أمّ حكيم بنت الحارث بن هشام زوج عكرمه بن أبي جهل الذي فرّ إلى اليمن واستأمنت له «محمّد» فأمنه، فخرجت في طلبه وجاءت به. وعفا «محمّد» كذلك عن صفوان بن أميّه وكان قد صحب عكرمه في فراره إلى ناحيه البحر يستقلّانه إلى اليمن، فجاء بهما والسفينه التي تحملهما على أهبه إقلاعهما.

وعفا «محمّد» كذلك عن هند زوج أبي سفيان التي مضغت كبد حمزه عمّ الرسول بعد استشهاده في أحد، كما عفا عن أكثر من أمر بقتلهم. ولم يقتل

منهم إلا أربعة منهم الحويرث (١) الذي أغرى على زينب بنت النبي حين رجوعها من مكه إلى المدينة، ورجلان أسلما ثم ارتكبا بالمدينة جريمه القتل وفرّا راجعين إلى مكه مرتدين إلى الشرك وقينه (٢) ابن خطل التي كانت تؤذى النبي بغنائها (٣).

وفى غداه يوم الفتح عثرت خزاعه على رجل من هذيل وهو مشرك فقتلوه. فغضب النبي وقام فى الناس خطيباً فقال:

«يا أيها الناس، إنّ الله حرّم مكّه يوم خلق السموات والأرض، فهى حرام من حرام من حرام إلى يوم القيامة، لا يحلّ لأمرى يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا أو يعضد فيها شجراً. لم تحلل لأحد كان قبلى ولا تحلّ لأحد يكون بعدى، ولم تحلل لى إلّا هذه الساعه غضباً على أهلها. ثم رجعت كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد منكم الغائب. فمن قال لكم إنّ رسول الله قد قاتل فيها فقولوا إنّ الله قد أحلّها لرسوله ولم يحللها لكم يا معشر خزاعه. ارفعوا أيديكم عن القتل فلقد كثر إن نفع، لقد قتلتم قتيلاً لأديته. فمن قتل بعد مقالى هذا فأهله بخير المنظرين، إن شاءوا قدم قاتله وإن شاءوا فعقله». ثم ودّى بعد ذلك الرجل الذى قتلت خزاعه (٤). وبهذا الخطاب وبتصرّفه الذى زاد على السماح والعفو أمس، كسب «محمّد» قلوب أهل مكّه بما لم يكونوا يقدرّون، فأقبلوا على الإسلام، ونادى منادٍ فيهم: «من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يترك فى داره صنماً إلّا

ص: ٦٠٥

١- (١) بل هو هبار بن الأسود، نيل الأوطار للشوكانى: ٧٥/٨، بحار الأنوار: ٣٥١/١٩، الاستيعاب المطبوع بهامش الإصابه: ٦٠٩/٣، فتح البارى: ١٠٤/٦.

٢- (٢) القين والقينه: العبد والامه، وجرى فى العامه أنّ القينه: المغنّيه. كتاب العين: ٢١٩/٥.

٣- (٣) السيره النبويه لابن هشام: ٤٠٩/٢-٨١١، المغازى للواقدى: ٨٤٧/٢-٨٤٣، والسيره الحلييه: ٨١/٣-٨٢، تفسير مجمع البيان: ٤٧٢/١٠، وبحار الأنوار: ١٠٥/٢١.

٤- (٤) السيره النبويه لابن هشام: ٤١٤/٢-٤١٥، والمغازى للواقدى: ٨٤٣/٢-٨٤٤، والسيره الحلييه: ١٠٣/٣.

حطمه»(١). ثُمَّ بعث جماعه من خزاعه ليصلحوا من العمده المحيطه بالبلد الحرام، ممّا دلّ أهل مكّه على ما لها في نفسه من القداسه وما زادهم له حُبّاً.

فلَمّا أخبرهم أنّهم خير أمّه يحبّ، وأنّه ما كان ليتركهم أو يعدل بهم ناساً لولا أنّهم أخرجوه، بلغ تعلّقهم به غايه حدوده. وجاء أبو بكر بأبيه الذي ارتقى قبساً يوم الزحف يقوده حتّى وقف بين يدي النبيّ. فلَمّا رآه «محمّد» قال:

هَلّا تركت الشيخ بمكانه حتّى أكون أنا آتية فيه! قال أبو بكر: يا رسول الله هو أحقّ أن يمشى إليك من أن تمشى إليه أنت(٢). فأجلس النبيّ الشيخ بين يديه ومسح صدره ثُمَّ قال له:

اسلم. فحسن إسلامه(٣). وكذلك أسيرت أخلاق النبوه الساميه هذا الشعب الذي كان ثائراً على «محمّد» أشدّ الثوره، والذي أصبح اليوم يجلّه ويقدّسه. وكذلك أسلمت قريش رجالاً ونساءً وبايعت.

وأقام «محمّد» بمكّه خمسّه عشر يوماً(٤) ينظّم خلالها شؤون مكّه ويفقّه أهلها في الدين. وفي هذه الأثناء بعث السرايا للدعوه إلى الإسلام لا للقتال، ولتحطيم الأصنام(٥) من غير سفك للدماء. وكان خالد بن الوليد قد خرج إلى نخله ليهدم العزى وكانت لبني شيبان(٦). فلما هدمها خرج إلى

ص: ٦٠٦

١- (١) المغازي للواقدي: ٨٧٠/٢، والطبقات الكبرى: ١٣٧/٢.

٢- (٢) هذا الكلام ناتج عن معايير لم تكن معهوده في العقيدته، فلا يُكرم المرء الكافر تكريماً لولده المسلم، لأنّالأصالة والتقديم والأفضليه على أساس الإيمان والتقوى لا على أساس الحسب والنسب كما هي قيم الجاهليه، وعلى فرض أنّ النبيّ قد كرم كافرّاً يريد الدخول في الإسلام فلا ينسحب هذا التكريم للابن المسلم، نعم لو قبلنا الروايه فهى لا تحصر التكريم بعله واحده فقد يكون للنبيّ غايات أخرى كانت هي مورداً لفعل النبيّ صلى الله عليه وآله، ولذا لا يجوز لنا تفسير فعله صلى الله عليه وآله تحت عناوين ننتقيها نحن.

٣- (٣) السيره النبويه لابن هشام: ٤٠٦/٢.

٤- (٤) السيره النبويه لابن هشام: ٤٣٧/٢.

٥- (٥) الطبقات الكبرى: ١٣٧/٢.

٦- (٦) السيره النبويه لابن هشام: ٤٣٦-٤٣٧، وبحار الأنوار: ١٤٥/٢١.

جُذيمه، فلما رآه القوم أخذوا السلاح؛ فطلب إليهم خالد أن يضعوه فإن الناس قد أسلموا.

قال رجل من جُذيمه لقومه: ويلكم يا بني جُذيمه! إنّه خالد. والله ما بعد وضع السلاح إلّا الإِسار، وما بعد الإِسار إلّا الضرب الأَعناق. قال له قومه:

أتريد أن تسفك دماءنا! إنّ الناس قد أسلموا ووضعت الحرب وأمن الناس.

وما زالوا به حتّى وضع سلاحه. عند ذلك أمر بهم خالد فغلّوا ثمّ عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم (1). فلما انتهى الخبر إلى النبيّ رفع يديه إلى السماء

ص: ٦٠٧

١- (١) فعل خالد بن الوليد مع بني خزيمه وقتلهم بعد إسلامهم نقلته الكتب المعتمده منها: صحيح البخارى: ١٠٧/٥ باب بعث النبيّ خالد إلى بني خزيمه ومسند أحمد: ١٥٠/٢ نقله عن ابن عمر والنسائي في صحيحه: ٢ / باب الردّ على الحاكم إذا قضى بغير حقّ، وفتح البارى: ٤٦/٨ والطبقات الكبرى: ١٠٦/٢. والروايات تؤكد بأنّ خالداً قتلهم لتأر جاهلى، وقد اعترض عليه عبدالرحمن بن عوف وجرى بينهما كلام فسبّ عبدالرحمن فغضب النبيّ وجاء ذلك في أسد الغابه لابن الأثير: ٩٤/٢ ترجمه خالد. وأصرح من الروايه السابقه بأمر جاهليه خالد ما رواه المتقى عن سلمه بن الأكوع أنّه قال: لمّا قدم خالد بن الوليد على النبيّ صلى الله عليه وآله بعدما صنع ببني خزيمه ما صنع عاب عبدالرحمن بن عوف على خالد ما صنع قال: ياخالد أخذت بأمر الجاهليه، قتلتهم بعمّك الفاكه، قاتلك الله. وأعانه عمر بن الخطّاب على خالد فقال خالد: أخذتهم بقتل أبيك فقال عبدالرحمن: كذبت والله لقد قتلت قاتل أبي بيدي واشهدت على قتله عثمان بن عفّان، ثمّ التفت إلى عثمان فقال: انشدك الله هل علمت أنّي قتلت قاتل أبي؟ فقال عثمان: اللهمّ نعم، ثمّ قال عبدالرحمن: ويحك يا خالد ولو لم اقتل قاتل أبي كنت تقتل قوماً من المسلمين بأبي في الجاهليه. قال: وأخبرك أنّهم أسلموا؟ فقال: من أهل السريه كلّهم يخبرون أنّك وجدتهم قد بنوا المساجد وأقروا بالإسلام ثمّ حملتهم على سيف قال: جاءني أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن غر عليهم فأغرّت عليهم بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله فقال عبدالرحمن: كذبت على رسول الله صلى الله عليه وآله وأعرض رسول الله صلى الله عليه وآله عن خالد وغضب عليه قال: أخرج المغازي للواقدي: ٨٨١/٣ وابن عساكر، وكنز العمال ٤٢٠/٦ ط. حيدر آباد - الهند. وتصرفات خالد ومخالفته لتعاليم الإسلام تحدّثت عنها عدّه من الروايات: منها: ما روى أنّ خالداً قد سبّ عمّاراً. وذلك أنّ عمّار بن ياسر كان قد اعترض على خالد لأنّه قتل رجلاً قد أسلم على يد عمّار فحدث شجار بينهما -

وقال:

«اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد». ثم بعث إليهم علي بن أبي طالب وقال له:

«أخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم واجعل أمر الجاهليه تحت قدميك». وخرج علي ومعه مال أعطاه النبي إياه. فلما بلغ القوم دفع اليه عن الدماء وعمّا أُصيب من الأموال، حتى إذا لم يبق شيء من دم أو مال إلاّ وداه، أعطاهم بقيه المال الذي بعث به رسول الله احتياطاً لرسول الله ممّا لا يعلم (١).

وفي الأسبوعين اللذين أقام «محمّد» بمكّه عفى على كلّ آثار الوثنيه فيها، لم ينتقل منها إلى الإسلام إلاّ سدانه الكعبه أقرها في عثمان بن طلحه وأبنائه من بعده حتى يرث الله الأرض ومن عليها لا يأخذها منهم إلاّ ظالم، وسقايه الحاجّ من زمزم جعلها لعمّه العباس وكذلك آمنت أمّ القرى ورفعت منار التوحيد ولواءه، وأضاءت العالم خلال الأجيال والقرون بنوره الوضاء (٢).

ص: ٦٠٨

-
- ١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٤٢٨/٢-٤٣٠، والمغازي للواقدي: ٨٧٥/٢-٨٨٢، وتاريخ الطبري: ١٦٤/٢، وشرح الأخبار للقاضي النعمان المغربي: ٣٠٩/١، وعلل الشرائع للصدوق: ٤٧٤/٢، وبحار الأنوار: ١٣٩/٢١.
- ٢- (٢) المغازي للواقدي: ٨٣٣/٢-٨٣٤.

الفصل الخامس والعشرون: حنين والطائف

تألب هوازن وثقيف بإمره مالك بن عوف، تحصّٰنهم بمضيق وادي حنين، خروج المسلمين إلى حنين تعجبهم كثرتهم، دخول المسلمين من مضيق الوادي في عمايه الصبح، ضرب هوازن وثقيف إياهم من المرتفعات وارتدادهم منهزمين، ثبات «محمد» إلى الموت، صياح العباس بالمسلمين كي يعودوا، عودهم إلى رسول الله ومقاتلتهم وانتصارهم الفيء، المسير إلى الطائف، حصارها وعدم إمكان اقتحامها، تحريق نخيلها، استرحامها النبي، رجوعه من الحصار، اسلام هوازن، حديث الشيماء، العود إلى الجعرانه وقسمه الفيء، العمره، العود إلى المدينة.

أقام المسلمون بمكّه بعد فتحهم إياها فرحين بنصر الله إياهم، مغتبطين أن لم يسفك في هذا النصر العظيم إلّا الدم القليل، مسارعين إلى البيت الحرام كلّما أذن بلال بالصلاه، متجمهرين حول رسول الله حيث أقام وأتى ذهب، يغشى المهاجرون منهم دورهم ويتصلون بأهليهم الذين هدى الله بعد الفتح؛ ونفوسهم جميعاً مطمئنه إلى أن الأمر قد استقرّ للإسلام وأنّ الجانب الأكبر من الجهاد قد كُِّل بالفوز والظفر. وإنّهم لكذلك بعد خمسه عشر يوماً من مقامهم

بأمّ القرى، إذ ترامت إليهم أنباء أيقظت استنامتهم للغبطة، تلك أنّ هوازن كانت تقيم على مقربة من مكّه إلى جنوبها الشرقي في جبال هناك. فلمّا علمت بما تمّ للمسلمين من فتح مكّه ومن تحطيم أصنامها، خشيت أن تدور عليها الدائرة وأن يقتحم المسلمون عليها منازلها، ففكرت فيما تصنع لالتقاء هذه الكارثة الوشيكة الوقوع، ولصدّ «محمّد» والكفّ من غلواء المسلمين الذين يعملون للقضاء على استقلال قبائل شبه الجزيرة وعلى ضمّها كلّها في وحده تربطها. لذلك جمع مالك بن عوف النضري، هوازن وثقيفاً، كما اجتمعت نضر وجشم، ولم يتخلف عن الاجتماع من هوازن إلّا كعب وكلاب.

وكان في جشم دُرَيْد بن الصّمّه، وكان يومئذٍ شيخاً كبيراً لا- نفع منه في الحرب، ولكنّما الانتفاع برأيه بعد الذي عرّكه على السنين في مواقعها.

وكذلك اجتمعت هذه القبائل كلّها ومعها أموالها ونساؤها وأبناؤها، وتمّ جمعها حين نزلت سهل أوطاس. فلمّا سمع دُرَيْد رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير وثغاء الشاه سأل مالك بن عوف: لمّ ساق مع المحاربين أموالهم ونساءهم وصغارهم؟ فلمّا أجابه مالك بأنّه إنّما أراد أن يشجّع بها المحاربين، قال دُرَيْد: وهل يردّ المنهزم شيء! إنّها إن كانت لك لم ينفعك إلّا رجل بسيفه ورمحه؛ وإن كان عليك فُضِّحت في أهلِكَ ومالك. واختلف مالك وإياه. وتبع الناس مالكاً، وكان شاباً في الثلاثين من عمره قويّ الإرادة ماضى العزيمه، وتابعهم دُرَيْد ما يردّ لهم - رغم سابقته في الحرب - رأياً. وأمر مالك الناس أن ينحازوا إلى قمم حنين وعند مضيق الوادي. فاذا نزل المسلمون واديه فليشدّوا عليهم شدّه رجل واحد تضعف صفوفهم فيختلط حابلهم بنابلهم

ويضرب بعضهم بعضاً وتدور عليهم الهزيمة ويزول أثر انتصارهم حين فتحوا مكّه. ويبقى لقبائل حنين في بلاد العرب جميعاً فخار النصر على هذه القوّه التي تريد أن تُظَلَّ بسطانها بلاد العرب جميعاً. وصدّعت القبائل بأمر مالك وتحصّنت بمضيق الوادي(١).

أمّا المسلمون فبادروا بعد أسبوعين من مُقامهم بمكّه وعلى رأسهم «محمّد» في عُدّه وعديد لم يكن لهم من قبل بها عهد قطّ. ساروا في اثني عشر ألفاً من المقاتلين، منهم عشرة آلاف هم الذين غزوا مكّه وفتحوها، وألفان ممّن أسلم من قريش وبينهم أبوسفيان بن حرب، وكلّهم تلمع دروعهم، وفي مقدمتهم الفرسان والإبل تحمل الميره والذخيره. سار المسلمون في هذا الجيش الذي لم تعرف بلاد العرب من قبل مثاله، يتقدّم كلّ قبيله علّمها، وتمتلئ النفوس كلّها إعجاباً بهذه الكثرة وبأنّ لا غالب اليوم لها، حتّى لقد تحدّث بعضهم بذلك إلى بعض وجعلوا يقولون: لن نغلب اليوم لكثرتنا. وساروا حتّى بلغوا حنيناً والمساء يُقبل، فنزلوا على أبواب واديها وأقاموا بها حتّى بُكره الفجر(٢). هنالك تحرك الجيش، وركب «محمّد» بغلته البيضاء في مؤخرته، على حين سار خالد بن الوليد على رأس بنى سُلَيْم في المقدّمه، وانحدروا من مضيق حنين في وادٍ من أوديه تهامه. وإنّهم لكذلك منحطون إلى الوادي إذ شدت عليهم القبائل بإمره مالك بن عوف شدّه رجل

ص: ٦١١

-
- ١- (١) السيره النبويّه لابن هشام: ٤٣٧/٢-٤٣٩، والمغازي للواقدي: ٨٨٥-٨٨٨ و ٨٩٢، والسيره الحلبيه: ١٠٥/٣-١٠٧، وتفسير القمّي: ٢٨٦/١، وتفسير مجمع البيان: ٣٤/٥، وبحار الأنوار: ١٤٧/٢١-١٤٩.
- ٢- (٢) السيره النبويّه لابن هشام: ٤٤٠/٢، والمغازي للواقدي: ٨٨٩/٢-٨٩٠ و ٨٩٢، والطبقات الكبرى: ١٥٠/٢، والإرشاد للمفيد: ١٤٠/١، وبحار الأنوار: ١٤٩/٢١.

واحد وأصلوهم وإبلاً من النبال وهم جميعاً ما يزالون في عمايه الفجر. إذ ذاك اختلط أمر المسلمين واضطرب، وعادوا منهزمين قد أخذ الخوف والفرع منهم كل مأخذ، حتى أطلق بعضهم ساقيه للريح، وحتى قال أبوسفیان بن حرب وعلى شفته ابتسامه المغتبط لفشل أولئك الذين انتصروا بالأمس على قريش؛ لا تنتهي هزيمتهم دون البحر. وقال شيبه بن عثمان بن أبي طلحه:

اليوم أدرك ثأرى من «محمّد»، وكان أبوه قد قُتل في غزوه أحد. وقال كَلَدَه بن حنبل: أَلْبَطَلُ السحر اليوم! فردّ عليه أخوه صفوان: اسكت فضّ الله فاك! فوالله لئن يرُبّني رجل من قريش أحبّ إلى من أن يرُبّني رجل من هوازن.

تقع هذه الأحاديث والجيش يضطرب حابله بنابله والنبي في المؤخره تمرّ عليه القبائل واحده بعد الأخرى موليه الأدبار مهزومه لا تلوى على شيء (١).

ماذا تراه يصنع؟! أفتضيع تضحيات اثنتي عشره سنه في هذه اللحظه من عمايه الصبح!! أفتنحى عنه ربّه وتخلّى عنه نصر الله إياه؟! كلاً! كلاً! لن يكون هذا! دون هذا تبيد أمم وتفنى أقوام! ودون هذا الموت يدخل «محمّد» في غماره لعلّ في الموت لدين الله نصراً. وإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعه ولا يستقدمون. وثبت «محمّد» مكانه، وأحاط به جماعه من المهاجرين والأنصار ومعه أهل بيته (٢)، وجعل ينادى في الناس إذ يمرون

ص: ٦١٢

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٤٣٩-٤٤٣، والمغازي للواقدي: ٨٨٩/٢ و ٨٩٣-٨٩٧ و ٩٠٩، ٩١٠، وتاريخ الطبري: ١٦٧/٢-١٦٨، وإعلام الوري بأعلام الهدى: ٢٣٠/١، وبحار الأنوار: ١٦٦/٢١.

٢- (٢) لقد أحسن المؤلف حيث ذكر أسماء بعض من فرّوا من المعركه ولم يذكر تلك الشخصيات المرموقه التي كانت في عداد الفارزين أمثال أبي بكر وعمر وعبدالرحمن بن عوف وخالد بن الوليد وطلحه والزبير وغيرهم -

منهزمين: أين أيها الناس أين؟! لكنّ الناس كانوا فيما هم فيه من هول الفرع لا يسمعون إلى شيء ولا يدور بتصوّرهم إلّا هوازن وثقيف منحدرتين من معتصمهما بالقِمَم تطاردانهم حتّى تجيئنا عليهم؛ ولم يخطئ تصورهم، فقد انحدرت هوازن من مكانها يتقدّمها رجل على جمل له أحمر بيده رايه سوداء في رأس رمح طويل، وهو كلّما أدرك المسلمين طعن برمحه وهوازن وثقيف وأنصارهما منحدرين من ورائه يطعنون(1). وثارت ب «محمد»

ص: ٦١٣

١- (١) الاكتفاء بابرّاز شخصيه في وسط المعركة وتصوير صفاتها من كونه رجلاً من أبطال هوازن يتمتّع بشجاعه -

حميته، فأراد أن يندفع بيغلته البيضاء في صدر هذا السيل الدافق من رجال العدو، وليكن بعد ذلك أمر الله، لكنّ أباسفيان بن الحارث بن عبدالمطلب أمسك بخظام بغلته وحال دون تقدّمها.

وكان العباس بن عبدالمطلب رجلاً جسيماً جهوري الصوت قويّه، فنادى بما أسمع الناس جميعاً من كلّ فجّ: يا معشر الأنصار الذين آوؤا ونصروا. يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة، إنّ «محمّداً» حيٌّ فهلمّوا. وكّرر العباس النداء حتّى تجاوبت في كلّ جنبات الوادي أصداؤه.

وهنا كانت المعجزة، سمع أصحاب العقبة اسم العقبة فذكروا «محمّداً» وذكروا عهدهم وشرفهم. وسمع المهاجرون اسم «محمّد» فذكروا تضحياتهم وذكروا شرفهم. وسمع هؤلاء وأولئك بسكينة «محمّد» وثباته في نفر قليل من المهاجرين والأنصار كثباته يوم أُحد في وجه هذا العدو

الزاحف، وصوّرت لهم نفوسهم ما قد ينشأ عن خذلانهم إياه من تغلب المشركين على رسول الله، وكان نداء العباس أثناء ذلك ما يزال يُدَوَّى في آذانهم وتهتّر لأصدائه أوتار قلوبهم. هنالك تصايحوا من كل صوب: لبيك لبيك! وارتدّوا إلى المعركة مستبسلين (١).

وبدأت «محمّد» تعاوده الطمأنينه حين رآهم يعودون. فقد انحدرت هوازن من مكانها وأصبحت وجهاً لوجه مع المسلمين في الوادي. وقد أضاء النهار وطغى النور على عمايه الفجر، واجتمع حول رسول الله بضع مئات استقبلوا القبائل وصبروا لهم، وهم يزداد عددهم وتشتد بعودتهم عزائم من خارت من قبل عزائمهم. وجعل الأنصار يتصايحون: يا للأنصار! ثمّ تنادوا: يا للخزرج. و«محمّد» ينظر إلى تناحر القوم؛ حتّى إذا رأى الصّيدام اشتدّ ورأى رجاله تسمو قلوبهم ويطيحون بخصومهم نادى: الآن حمى الوطيس. إنّ الله لا يُخلف رسوله وعده. ثمّ طلب إلى العيّاس فناوله حفته من الحصى ألقى بها في وجوه العدو قائلاً: شاهت الوجوه! واندفع المسلمون إلى المعركة مستهينين بالموت في سبيل الله مؤمنين بأنّ النصر لا محاله آت، وأنّ من استشهد منهم فله من هذا النصر أكبر من نصيب من بقى. وكان البلاء شديداً، حتّى أنّ هوازن وثقيف ومن معهم مالبثوا أن رأوا كلّ مقاومه غير مُجديه وأنّهم معرّضون للفناء عن آخرهم إذ فرّوا منهزمين لا يلوون على شيءٍ، تاركين وراءهم نساءهم وأبناءهم وأموالهم غنيمةً للمسلمين، الذين أحصوها

ص: ٦١٥

١- (١) المغازى للواقدي: ٨٩٧/٢-٨٩٩، وتاريخ الطبري: ١٦٧/٢-١٦٨، والسيره النبويّه لابن هشام: ٤٤٢/٢-٤٤٣، والإرشاد للمفيد: ١٤٢/١، وبحار الأنوار: ١٥٠/٢١-١٥١ و ١٥٦-١٥٧.

يومئذ اثنين وعشرين ألفاً من الإبل وأربعين ألفاً من الشاه وأربعة آلاف أوقيه من الفضة. أما الأسرى وعددهم ستة آلاف فقد نقلوا محروسين إلى وادي الجعرانه حيث أووا إلى أن يعود المسلمون من مطاردتهم عدوهم ومن حصار ثقيف بالطائف.

وتابع المسلمون مطاردتهم لعدوهم. وزادهم إغراءً بهذه المطارده أن أمر الرسول أن من قتل مشركاً فله سلبه. وأدرك ابن الدغنه جملاً عليه شجار ظن به امرأه طمع في سلبها، فأناخ الجمل فإذا شيخ كبير لا يعرفه الفتى هو دريد بن الصمّه. وسأل دريد ربيعه: ما يريد به؟ قال: أقتلك، وأهوى عليه بسيفه فلم يُغن شيئاً. قال دريد: بنس ما سلحتك أمك! خذ سيفي هذا من مؤخر الرحل ثم اضرب به، وارفع عن العظام واخفض عن الدماغ، فإني كذلك كنت أضرب به الرجال؛ ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمّه، فربّ والله يوم قد منعت فيه نساءك. ولما رجع ربيعه إلى أمه وأخبرها خبره قالت له: «حرق الله يدك! إنما قال ذلك ليدكرنا نعمه عليك. فوالله لقد أعتق لك ثلاث أمهات في غداه: أنا وأمّي وأمّ أبيك»^(١).

وتبع المسلمون هوازن حتى بلغوا أوطاساً، وهناك أوقعوا بهم وهزموهم شرّ هزيمه، وسبوا من احتملوا من النساء والأموال وعادوا بهم إلى «محمّد».

أمّا مالك بن عوف النَّصرى فقد ثبت برهه ثم فرّ وقومه من هوازن حتى

ص: ٦١٤

١- (١) المغازى للواقدي: ٨٩٨/٢-٩٠٣ و ٩١٤-٩١٧ و ٩٤٣، السيره النبويه لابن هشام: ٤٤٣/٢-٤٤٩، ٤٥٣-٤٥٥، شرح الأخبار للقاضي النعمان المغربي، وبحار الأنوار: ١٥٠/٢١-١٥١ و ١٥٨ و ١٦٧.

افترق عنهم عند نخله ثم ولى وجهه نحو الطائف فاحتفى بها (١)(٢).

وكذلك كان نصر المسلمين مؤزراً. وكانت هزيمه المشركين تامه بعد ذلك الفزع الذى أصاب المسلمين فى عمايه الصبح، وحين شد المشركون عليهم شدّه رجل واحد ضعفت صفوفهم وخلطت حابلهم بنابلهم. كان نصر المسلمين مؤزراً بفضل ثبات «محيّد» والفئه القليله التى أحاطت به. وفى ذلك نزل (٣) قوله تعالى من سوره التوبه: لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَ ضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذَبِّحِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَائِجِسَّ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَ عَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا

ص: ٦١٧

١- (١) لا- تخلو العبارة من اشكال حين يُراد معرفه المقصود من نقل الكاتب لهذه العبارات، وإلّا فما هذه الاستبطانات لنفوس المسلمين، نعم، من الممكن استيحاء الهواجس النفسيه عبر الاستفاده من الجوّ العام والقرائن المحيطه بالشخص وعدم معارضه هذا الاستبطان لنصوص تاريخيه أخرى أو وجود قرائن تعارض ما نريد إستنتاجه حسبما يفرضه الذوق الشخصى، وعليه فمن قال: أنّ ابن الدغنه أراد الجمل لعله يحصل على امرأه حسناء فيه فخاب أمله عند القبض عليه. استفاده ذلك من أمر الرسول للمقاتلين على أنّه من قتل مشركاً فله سلبه واندفع ابن الدغنه جنسياً لا غير نحو الجمل، لكننا نرى ربيعه بن الدغنه نفسه لاحق الجمل فوجد فيه شيخاً كبيراً ذلك هو دريد بن الصّمه، وتم حوار بين الرجلين وبإمكان ربيعه أن ينصرف ويترك الشيخ، مازال هدفه النساء ليتابع جمالاً أخرى لعله يصيب المرام، ولا داعى للانشغال مع هذا الشيخ الذى تم قتله نهايه الأمر، ولا تفسير لنا لهذا المشهد سوى القول بأنّ اندفاعات ربيعه بن الدغنه ماهى إلّا استجابته لنداءات العقيدة فلا ينبغى أن تحصر بالتفسير الجنسى للمقاتلين، كما هو المنهج الاستشراقى.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٢/٤٤٩ و ٤٥٣، والمغازى للواقدي: ٢/٩٠٣ و ٩١٤، وتاريخ الطبرى: ٢/١٧٠-١٧١.

٣- (٣) تفسير مجمع البيان: ٥/٣٣-٣٧، وتفسير الطبرى: ٦/٣٤٠.

وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١ .

على أنّ المسلمين لم يُحرزوا هذا النصر المؤزّر رخيصاً، بل دفعوا فيه ثمناً غالياً لعلهم لم يكونوا يدفعونه لولا تخاذلهم الأوّل وتدافعهم مهزومين، ليقول فيهم أبوسفيان: إنهم لا- يردّهم إلما البحر. دفعوا الثمن غالياً من مهج الرجال وأرواح الأبطال الذين استشهدوا في الموقعه. ولئن لم تُحص كتب السيره كلّ القتلى فقد ذكرت أنّ قبيلتين من المسلمين فتيتا أو كادتا، وأنّ النبيّ صلّى لأرواحهم كي يدخلهم الله الجنة(١). لكنّه كان النصر على كلّ حال، النصر التام تغلب فيه المسلمون على خصومهم، وغنموا منهم وأسروا ما لم يغنموا ولم يأسروا من قبل. والنصر هو كلّ شيء في النضال أيّاً كان الثمن الذي يُدفع فيه مادام نصراً شريفاً. لذلك اغتبط المسلمون بما جزاهم الله وظلوا يرتقبون قسمه الفيء والعود بالغنيمه.

لكنّ «محمّداً» كان يريد نصره أكثر روعه وأعظم جلالاً. وإذ كان مالك ابن عوف هو الذي قاد هذه المجموعه ثمّ احتمي بعد هزيمتها مع تقيف بالطائف، فليحاصر المسلمون الطائف وليضيّقوا عليها الحصار. وتلك كانت خُطه «محمّد» في خيبر بعد أحد، وفي قريظه بعد الخندق. ولعلّه اذكر في موقفه هذا، يوم ذهب إلى الطائف لسنوات قبل الهجره يدعو أهلها إلى الإسلام فسخروا منه وقذفه صبيانهم بالأحجار. حتّى اضطرّ إلى الاحتماء من أذاهم بحائط فيه كرم، ولعلّه اذكر كيف ذهب يومئذٍ منفرداً ضعيفاً. لا حول

ص: ٤١٨

١- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٢/٤٥٥.

ولا قوة إلا حول الله وقوته، وإلا هذا الإيمان العظيم الذى ملأ صدره ويدك الجبال، وهاهو ذا الآن يذهب إلى الطائف فى جمع من المسلمين لم تشهد جزيره العرب فى ماضى تاريخها جمعاً مثله.

أمر «محمد» أصحابه إذاً أن يسيروا إلى الطائف ليحاصروا ثقيفاً وعلى رأسها مالك بن عوف بها. وكانت الطائف مدينه محصنه لها أبواب تُغلق عليها كأكثر مدن العرب فى ذلك العصر (كذا). وكان أهلها ذوى درايه فى حرب الحصار وذوى ثروه طائله جعلت حصونهم من أمنع الحصون. وقد سار المسلمون إليها، فمروا فى مسيرتهم بلئيه حيث يقوم حصن خاص لمالك بن عوف فهدموه، كما خربوا أثناء مسيرتهم كذلك حائطاً لرجل من ثقيف. وبلغ المسلمون الطائف، فأمر النبى عسكره فنزل على مقربه منها وجمع أصحابه ليفكروا فيما يصنعون. لكن ثقيفاً ما لبثت أن رأتهم من أعلى حصونها حتى نالتهم بالنبل وقتلت جماعه منهم. ولم يكن من السير أن يقتحم المسلمون هذه الحصون المنيعه، إلا أن يلجئوا إلى وسائل غير التى ألفوا حتى اليوم حين حاصروا قريظه وخيبر. أترأهم إن هم اكتفوا بالحصار يصلون إلى تجويع ثقيف تجويعاً يحملها على التسليم؟ وإذا هم أرادوا مهاجمتها فما عسى أن تكون هذه الوسائل الجديده التى يهاجمونها بها؟ هذه أمور تحتاج إلى التفكير وإلى الوقت؛ فلينسحب العسكر إذاً بعيداً عن مرمى النبل لكى لا يصيبه فيقتل رجال من المسلمين، ثم ليفكر «محمد» فيما عسى أن يصنع. وأمر عليه السلام فنقل العسكر بعيداً عن مرمى النبل فى مكان أقيم به مسجد الطائف بعد أن سلمت الطائف وأسلمت. ولم يكن من ذلك بُد وقد

قتلت نبال ثقيف ثمانيه عشر من المسلمين، وجرح كثيرون، بينهم أحد أبناء أبي بكر. وفي جانب من هذا المكان البعيد عن مرمى النبال ضربت خيمتان من جلد أحمر لزوجتي النبي أم سلمه وزينب، وكانتا تسيران معه في كل هذه الوقائع منذ ترك المدينة. وبين هاتين الخيمتين كان «محمد» يقيم الصلاة.

ولعل مسجد الطائف إنما أُقيم في هذا المكان.

وأقام المسلمون ينتظرون ما الله صانع بهم وبعدهم. قال أحد الأعراب للنبي: إنما ثقيف في حصنها كالثعلب في جحره، لا سبيل إلى إخراجهم منه إلا بطول المكث، فإن تركته لم يلحقك منه ضرر. لكننا شق على «محمد» أن يعود أدراجه من غير أن يصيب من ثقيف شيئاً. وكان لبني دؤس - إحدى القبائل المقيمة بأسفل مكه - علم بالرمايه بالمنجنيق وبمهاجمه الحصون في حمايه الدبابات، وكان أحد رؤسائها الطفيل قد سحب «محمد» منذ غزا خيبر وكان معه عند حصار الطائف، فأوفده النبي إلى قومه يستنصرهم؛ فجاء بطائفه منهم، ومعهم أدواتهم، بلغت الطائف بعد أربعة أيام من حصار المسلمين إياها. ورمى المسلمون الطائف بالمنجنيق وبعثوا إليها بالدبابات دخل تحتها نفر منهم، ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوه. لكن رجال الطائف كانوا من المهارة بحيث أكرهوا هؤلاء على أن يلوذوا بالفرار. فقد أحمت قطعاً من الحديد بالنار، حتى إذا انصهر ألقته على الدبابات فحرقها ففر جنود المسلمين من تحتها خيفه أن يحترقوا؛ فرمتهم ثقيف بالنبل فقتلت جماعه منهم. لم يفلح هذا المجهود إذاً أيضاً ولم يستطع المسلمون التغلب على مناعه هذه الحصون.

ماذا عساهم إذا يصنعون؟ ففكر «محمد» في هذا وفكر طويلاً. ولكن! ألم ينتصر على بنى النضير ويُجلبها عن ديارها باحراق نخيلها؟! وكروم الطائف أكبر قيمة من نخيل بنى النضير، فهي كروم لها من ذبوع الاسم في بلاد العرب جميعاً ما تباهى به الطائف أخصب بلاد العرب، وما جعل الطائف واحه كأنها الجنه وسط هذه الصحارى. وأمر «محمد» فبدأ المسلمون ينفذون، يقطعون ويحرقون الكروم التي ما يزال لها حتى اليوم مثل ما كان لها من شهره وذبوع صوت. ورأى الثقيفون هذا وأيقنوا أن «محمدًا» جاد فيه، فبعثوا إليه أن يأخذه لنفسه إن شاء وأن يدعه لله وللرحم لما بينه وبينهم من قرابه، فاستمهل «محمد» رجاله، ثم نادى في ثقيف:

إنه مُعتق من جاء إليه من الطائف. ففرّ إليه قرابه عشرين من أهلها عرف منهم أن بالحصون من الذخير ما يكفى أمداً طويلاً. هنالك رأى أن الحصار سيطول أمده، وأن جيوشه تودّ الرجوع لاقتسام الفىء الذى كسبوا. وأنه إن أصرّ على البقاء فقد ينفد صبرهم، لذلك آثر أن يرفع الحصار بعد شهر من وقوعه. وكان ذوالقعدة قد استهلّ، فرجع بجيشه معتمراً وذكر أنه متجهز إلى الطائف إذا انتهت الأشهر الحرم (١).

وانصرف «محمد» والمسلمون معه عن الطائف قافلين إلى مكه حتّى نزلوا الجعرانه، حيث تركوا غنائمهم وأسراهم. هنالك نزلوا يقتسمون.

وفصل الرسول الخمس لنفسه ووزّع ما بقى على أصحابه (٢). وإنهم بالجعرانه

ص: ٦٢١

-
- ١- (١) المغازى للواقدي: ٩٢٣/٢-٩٣٨، السيره النبويه لابن هشام: ٤٧٨/٢ و ٤٨٢-٤٨٤، وتاريخ الطبرى: ١٧٠/٢-١٧٢، وإعلام الورى بأعلام الهدى: ٢٣٣/١، وبحار الأنوار: ١٥٢/٢١-١٥٣ و ١٦٣ و ١٦٨.
 - ٢- (٢) المغازى للواقدي: ٩٤٣/٢-٩٤٩، والطبقات الكبرى: ١٥٢/٢-١٥٣.

إذ جاء وفد من هوازن قد أسلموا وهم يرتجون أن يرّد عليهم «محمّد» أموالهم ونساءهم وأبناءهم، بعد أن طال عنهم غيابهم، وبعد أن ذاقوا مراره ما حلّ بهم. ولقى الوفد «محمّدًا» وخاطبه أحدهم قائلاً: يا رسول الله، إنّما فى الحظائر عمّاتك وخالاتك وحواضنك اللواتى كنّ يكفلنك. ولو أنّا ملحنا للحارث بن أبى شمر أو للنعمان بن المنذر ثمّ نزل منّا بمثل الذى نزلت به رجونا عطفه وعائده علينا. وأنت خير المكفولين. ولم يخطئ هؤلاء فى تذكير «محمّد» بصلته بهم وقربته منهم. فقد كانت بين السبايا امرأه تخطت الكهولة عنف عليها الجند المسلمون فقالت لهم: تعلموا، والله إنّى لأُخت صاحبكم من الرّضاعة، فلم يصدّقوها وجاءوا بها «محمّدًا» فعرفها الشّيماء بنت الحارث بن عبدالعزّى، وأداناها منه وبسط لها رداءه وأجلسها عليه، وخيرها إن أحبّت أبقاها وإن أحبّت متّعها ورجعها إلى قومها؛ فاختارت الرجوع إلى قومها.

طبيعيّ، وتلك صلّه «محمّد» بهؤلاء الرجال من هوازن الذين أقبلوا عليه مسلمين، أن يعطف عليهم وأن يجيهم إلى مطلبهم. فقد كان ذلك أبداً شأنه مع كلّ من أسدى إليه يوماً من الدهر يداً. كان عرفان الجميل بعض شأنه، والبرّ بكليم القلب فى جبلته. فلمّا سمع مقالتهم سألهم:

أبناءؤكم ونساءؤكم أحبّ إليكم أم أموالكم؟ قالوا: يا رسول الله خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا، بل ترد علينا نساءنا وأبناءنا فهم أحبّ إلينا. فقال عليه السلام:

«أما ما كان لى ولبنى عبدالمطلب فهو لكم.

وإذا ما أنا صلّيت الظهر بالناس فقوموا فقولوا: إنّنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا. فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم». ونقّدت

هوازن قول النبي، فأجابهم:

أمّا ما كان لى ولبنى عبدالمطلب فهو لكم. قال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله. وكذلك قال الأنصار. أمّا الأقرع بن حابس عن تميم وعيينه بن حصن فرفضوا ورفض العباس بن مرداس عن بنى سليم؛ لكن بنى سليم لم يُقرّوا العباس على رفضه. هنالك قال النبي:

أمّا من تمسك منكم بحقه من هذا السبي فله بكل إنسان ست فرائض من أول سبي اصبه. وكذلك ردت نساء هوازن وأبناؤها إليها بعد أن أعلنت إسلامها.

وسأل «محمد» وفد هوازن عن مالك بن عوف النصرى. فلما علم أنه ما يزال بالطائف مع ثقيف طلب إليهم أن يبلغوه: أنه إن أتاه مسلماً ردّ عليه أهله وماله وأعطاه مئة من الإبل. ولم يبطئ مالك حين علم بوعده الرسول أن أسرج فرسه في سرّ من ثقيف وأن نجا بها حتى لحق بالرسول، فأعلن إسلامه فأخذ أهله وماله ومئة من الإبل. وأوجس الناس خيفه إن أفضى «محمد» هذه الأعطيات لمن يفدون عليه أن تنقص من قسمتهم من الفىء، فألحوا فى أن يأخذ كلّ فيأه وتهامسوا بذلك. فلما بلغ الهمس النبي وقف إلى جانب بعير فأخذ وبرّه من سنامه فجعلها بين اصبعيه ثمّ رفعها وقال:

«أيها الناس، والله مالى من فيئكم ولا هذه البره إلا الخُمس. والخُمس مردود عليكم» وطلب إلى كلّ أن يردّ ما غنم حتى تكون القسمة العدل، «فمن أخذ شيئاً فى غير عدل ولو كان إبه كان على أهله عاراً وناراً وشناراً إلى يوم القيامة».

قال «محمد» هذه العبارة مغضباً بعد أن ردّوا إليه رداءه الذى أخذوا وبعد أن صاح بهم:

ردّوا اللى رداى أيها الناس، فوالله لو أن لكم بعدد شجر تهامة نَعماً لقسمته عليكم ثمّ ما ألفتيمونى بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً. ثمّ إنّه خمّس الغنيمه وأعطى من خُمسه إلى الذين كانوا إلى أيام أشدّ الناس عداوة له نصيباً على نصيبهم، فأعطى مئة من الإبل كلّاً من أبى سفيان وابنه معاويه وعليم بن الحارث بن

كَلَمَدِه وَالْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ وَسَهِيلُ بْنُ عَمْرٍو وَحُوَيْطُبُ بْنُ الْعَزْزِيِّ وَسَائِرُ الْأَشْرَافِ وَرُؤَسَاءُ الْعَشَائِرِ مَمَّنْ تَأَلَّفَ (١). بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ؛ وَأَعْطَى خَمْسِينَ مِنَ الْإِبِلِ مَنْ كَانُوا دُونَ هَؤُلَاءِ شَأْنًا وَمَكَانَةً، وَقَدْ بَلَغَ عِدْدُ الَّذِينَ أُعْطَاهُمْ عَشْرَاتٍ.

وبدا «محمّد» يومئذٍ غايه في السماحه والكرم ممّا جعل أعداء الأمس تنطلق ألسنتهم بكلّ الثناء؛ ولم يدع لأحد من هؤلاء المؤلّفه قلوبهم حاجه إلّا قضاها.

أعطى عباس بن مرداس عددًا من الإبل لم يُرضه وعاتبه على أن فضّل عليه عُيينه والأقرع وغيرهما. فقال النبيّ:

أذهبوا به فاقطعوا عنى لسانه، فأعطوه حتّى رضى، كان ذلك قطع لسانه (٢).

ص: ٦٢٤

١- (١) المؤلّفه قلوبهم، وهم قوم وخرّدوا الله وخرجوا من الشرك ولم تدخل معرفه «محمّد صلى الله عليه وآله» قلوبهم وما جاء به وتألفهم رسول الله وتألفهم المؤمنون. السيريه النبويّه لابن هشام: ٩٣٨/٤. وقال صاحب الميزان: فهم الذين يؤلّف قلوبهم بإعطاء سهم من الزكاه ليسلموا، أو يدفع بهم العدو، أو يستعان بهم على حوائج الدين. الميزان: ٣١١/٩.

٢- (٢) جاء في النصّ: وبدا «محمّد» يومئذٍ غايه في السماحه إلى أن قال... وكان ذلك قطع لسانه. هذا النصّ مثار للتعجب، وذلك لما يكتنفه من الغموض والتشويش في الوقت الذي ينقل فيه الكاتب عن مشهد تاريخي معروف من حياه النبيّ «محمّد» صلى الله عليه وآله تكرر نقله في كتب التاريخ بغايه من الوضوح والبساطه. أمّا لو لاحظنا النصّ أعلاه: (أعطى عباس بن مرداس عددًا من الإبل، ولم يرضه، وعاتبه على أن فضّل عليه عُيينه والأقرع وغيرهما وبمجرد العتاب أمر النبيّ صلى الله عليه وآله بقطع لسانه...) فقد يتساءل القارئ هل مجرد العتاب يوجب قطع اللسان، والنص في معرض بيان سماحه النبيّ؟ ثمّ ماذا قال عباس بن مرداس؟ لا ندرى، ولمن وجه النبيّ خطابه بقوله صلى الله عليه وآله: أذهبوا فهل كان الخطاب موجّهًا لجماعه المسلمين لا على وجه التعيين أم ماذا؟ وعلى فرض أن النبيّ صلى الله عليه وآله قد عيّن شخصًا أو عدّه أشخاص، فهل نفذ هؤلاء ما أراده النبيّ صلى الله عليه وآله وكيف؟ كلّ هذه الأمور وغيرها تركت بلا بيان، وهذا بطبيعته الحال يفوت على القارئ فرصه الاستفادة من هذا المشهد، وبالإمكان ذكر القصة كما هي بلغه المصادر التاريخيه بلا حاجه إلى صياغتها بطريقه معقده، لأنّها مذكوره في الكتب بوضوح واختصار كما يلي:-

على أنّ هذا الذى تألف به النبىّ قلوب من كانوا إلى أمس أعداءه قد جعل الأنصار يتحدّث بعضهم إلى بعض فيما صنع الرسول، ويقول بعض لبعض: «لقى والله رسول الله قومه». ورأى سعد بن عباده أن يبلغ النبىّ مقاله الأنصار ويؤيدهم فيها؛ فقال له النبىّ:

إجمع لى قومك فى هذه الحظيره. فجمعهم سعد وأتاهم النبىّ فدار الحوار الآتى:

«محمّد»:

يامعشر الأنصار، ما قاله بلغتنى عنكم وجدهً وجدتموها فى أنفسكم؟! ألم آتكم ضملاً فهداكم الله، وعاله فأغناكم الله. وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟

الأنصار: بلى! الله ورسوله آمن وأفضل.

«محمّد»:

ألاتجيبوننى يا معشر الأنصار!

الأنصار: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ورسوله المنّ والفضل.

«محمّد»:

أما والله لو شئتم لقلتم ولصدقتم ولصِدِّدْتُمْ: أتيتنا مكذباً فصدّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فأويناك، وعائلاً فأسيناك. أوجدتُم يا معشر الأنصار فى الغلاله

ص: ٦٢٥

من الدنيا تألفتُ بها قوماً يُسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم! ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاه والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم. فوالذي نفس «محمد» بيده لولا الهجره لكنت امرءاً من الأنصار. ولو سلك الناس شِعْباً وسلكت الأنصار شِعْباً لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار.

قال النبي هذه العبارات وكله التأثر، وكله فيض من الحب لهؤلاء الذين بايعوه ونصروه واعتزوا به وأعزوه، حتى بلغ من تأثره أن بكى الأنصار وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً.

وكذلك أظهر النبي رغبته عن هذا المال الذي غنم في حنين والذي بلغ ما لم يبلغ فيء من قبل، أظهر رغبته عنه وجعله وسيله يتألف بها قلوب الذين كانوا إلى أسابيع قليلة مشركين ليروا في الدين الجديد سعادة الدنيا والآخرة.

وإذا كان «محمد» قد عناه أمر هذا المال في قسمته حتى لقد كان المسلمون يتهمونه، وإذا هو كان قد أغضب الأنصار بما أعطى المؤلفه قلوبهم، فإنه قد أظهر من العدل ومن بعد النظر ومن حسن السياسة، ما مكنه من أن يعود بهذه الألوفا من العرب وكلهم راضيه نفسه مطمئن قلبه مستعداً لأن يهب حياته في سبيل الله.

وخرج الرسول من الجعرانه معتمراً إلى مكه. فلما قضى عمرته استخلف عتاب بن أسيد على أم القرى وخلف معه معاذ بن جبل ليفقه الناس في دينهم ويعلمهم القرآن. وعاد الأنصار والمهاجرون قافلين إلى المدينه ليقم النبي بها ريثما يرزقه الله ابنه إبراهيم، وليطمئن إلى شيء من سكينه الحياه زمناً ثم يتجهز إلى غزوه تبوك بالشام(١).

ص: ٦٢٤

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٤٨٨/٢-٥٠٠، المغازى للواقدي: ٩٣٩/٢-٩٦٠، والإرشاد للمفيد: ١٤٦/١، والخراج والجرائح: ٩٨/١، وبحار الأنوار: ١٥٩/٢١ و ١٦٧-١٨٢.

الفصل السادس والعشرون: إبراهيم ونساء النبي صلى الله عليه وآله

العود إلى المدينة، بانة سعاد، وفاه زينب، مولد إبراهيم، غيره نساء النبي من ماريه، مظاهره حفصه وعائشه، حديث المغافير، ماريه في دار حفصه، هجر النبي نساءه شهراً، حديث عمر مع النبي، سوره التحريم.

عاد «محيّد» إلى المدينة بعد فتح مكّه وبعد انتصاره في حنين وحصاره الطائف، وقد ثبت في نفوس العرب جميعاً أن لم يبق لأحد قبلاً به في شبه الجزيره كلّها، وأن لم يبق للسان أن ينطلق بايذائه أو الطعن عليه.

وعاد والأنصار والمهاجرون معه وكلّهم مغتبط بفتح الله على نبيّه بلد المسجد الحرام، وبما هدى أهل مكّه إليه من الإسلام، وبما دان له العرب به على اختلاف قبائلهم من الطاعه والاذعان. عادوا جميعاً إلى المدينة ليطمئنوا إلى شيء من سكينه الحياه بعد أن ترك «محيّد» وراءه عتياب بن أسيد على أم القرى، ومُعاذ بن جبل ليفقه الناس في دينهم وليعلمهم القرآن (1)، وقد ترك هذا النصر - الذي لم يعرف له في تاريخ العرب وفي رواياتهم نظير - أثراً

ص: ٦٢٧

١- (١) المغازي للواقدي: ٨٨٩/٢، الطبقات الكبرى: ١٣٧/٢.

بالغاً في نفوس العرب جميعاً. ترك أثراً في نفوس العظماء والساده، الذين كانوا لا يتوهمون مجيء يوم يدينون فيه ل «محمد» بطاعه، أو يرتضون دينه لأنفسهم ديناً؛ وفي نفوس الشعراء الذين ينطقون بلسان هؤلاء الساده مقابل ما يلقون من عطفهم وتأييدهم، أو مقابل ما يلقون من تأييد القبائل و مؤازرتها؛ وفي نفوس تلك القبائل الباديه التي لم تكن تعدل بحريتها شيئاً، ولا كان يدور بخاطرها أن تنضم تحت لواء غير لوائها الخاص، أو تموت دون ذلك في حرب وطعان تفنى خلالها فناءً تاماً. وماذا يجدى على الشعراء شعرهم، وعلى الساده سيادتهم، وعلى القبائل احتفاظها بذاتيتها، أمام هذه القوه الخارقه للطبيعه؟ لا تقف قوه أمامها ولا يجرؤ سلطان على اعتراضها!

ولقد بلغ الأثر من نفوس العرب أن كتب بـجـير بن زهير إلى أخيه كعب، بعد منصرف النبي عن الطائف يخبره أن «محمدًا» قتل رجالاً بمكّه ممن كانوا يهجونه ويؤذونه، وأن من بقى من هؤلاء الشعراء قد هربوا في كل وجه، وينصح إليه أن يطير إلى النبي بالمدينه، فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً، أو ينجو بنفسه إلى حيث شاء من أغوار الأرض. وإنما قص بـجـير حقاً؛ فلم يقتل بمكّه بأمر «محمد» خلا- أربعه، منهم شاعر آذى النبي هجاؤه، ومنهم اثنان آذيا زينب ابنته حين أرادت بإذن زوجها أن تهاجر من مكّه لتلحق أباهما.

وأيقن كعب صدق أخيه وأنه إلّاجاء «محمدًا» ظل حياته طريداً مشرداً. لذلك أسرع إلى المدينه ونزل عند صديق له قديم. فلما أصبح غدا إلى المسجد واستأمن النبي وأنشده قصيدته:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبولٌ مُتَيِّمٌ إثرها لم يُفدَ مكبولٌ

فعفا النبي عنه وحسن من بعد ذلك إسلامه(١).

وكان من هذا الأثر كذلك أن بدأت القبائل تُقبل على النبي تقدّم الطاعة بين يديه، قدم وفد من طي وعلی رأسهم سيدهم زيد الخيل. فلما انتهوا إليه أحسن استقبالهم، وتحدّث إليه زيد، فقال النبي له:

ما ذُكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلّارأيته دون ما يقال فيه إلا زيد الخيل فإنّه لم يبلغ كلّ ما فيه. ودعاه زيد الخير بديلاً من زيد الخيل. وأسلمت طيء وزيد على رأسها(٢).

وكان عدى بن حاتم الطائي نصرانياً، وكان من أشدّ العرب كراهيه ل «محمد». فلما رأى أمره وأمر المسلمين في شبه الجزيرة، تحمّل في إبله بأهله وولده ولحق بأهل دينه من النصارى بالشام. وإتّما فرّ عدى حين أرسل النبي على بن أبي طالب ليهدم صنم طيء. وهدم على الصنم واحتمل الغنائم والأسرى ومن بينهم ابنه حاتم أخت عدى، التي حُبست في حظيره بباب المسجد كانت السبايا تحبس فيها. ومّر بها النبي فقامت إليه وقالت: يا رسول الله، هللك الوالد وغاب الرافد، فامنن على منّ الله عليك. وأعرض عنها النبي حين علم أنّ رافدها عدى بن حاتم الفارّ من الله ورسوله. لكنّها راجعته، وذكر هو ما كان لأبيها في الجاهلية من كرم أعلى به ذكر العرب، فأمر بتسريحها وكساها كسوه حسنه وأعطاهما نفقتها، وحملها مع أوّل ركب قاصد إلى الشام. فلما لقيت هناك أخاها وذكرت له ما أكرمها به «محمد»، عاد إليه

ص: ٦٢٩

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٥٠١/٢.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٥٧٧/٢.

فألقي بنفسه إلى صفوف المسلمين (١).

وكذلك جعل الساده وجعلت القبائل تَفِدُ إلى «محمّد» بعد فتح مكّه وبعد انتصار حنين وحصاره الطائف، تدين له بالرساله وبالإسلام، وهو في مُقامه ذاك بالمدينه مطمئن إلى نصر الله وإلى شيء من سكينه الحياه.

لكنّ سكينه حياته لم تكن يومئذٍ صفوياً. فقد كانت زينب ابنته إذ ذاك مريضه مرضاً خشى منه عليها. وهي منذ آذاها الحويرث وهتّيار حين خروجها من مكّه أذىً أفزعها فأجهضها، قد ظلّت مهده العافيه. وانتهى المرض بوفاتها (٢). وبموتها لم يبق ل «محمّد» من عقبه إلّا فاطمه، بعد أن ماتت أمّ كلثوم، كما ماتت رُقيّه قبل زينب (٣). وحزن «محمّد» لفقدائها وذكر لها رقه شمائلها وجميل وفائها لزوجها أبي العاصي ابن الربيع حين بعثت تفتديه من أبيها وقد أسره بيدر (٤)، وتفتديه برغم إسلامها وشركه، وبرغم محاربتة أباها حرباً لو انتصرت قريش فيها لما أبقت ل «محمّد» على حياه.

ذكر «محمّد» رقه شمائلها وجميل وفائها وذكر ما لاقته من ألم المرض طوال أيامها منذ عادت من مكّه إلى حين وفاتها. وكان «محمّد» يشارك كلّ ذى ألم ألمه، وكلّ ذى مُصاب مصابه. وكان يذهب إلى أطراف المدينه وإلى ضواحيها يعود المريض ويواسي البائس ويأسو جراح الكلیم. فإذا أصابه

ص: ٦٣٠

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٥٧٨/٢-٥٨١.

٢- (٢) تاريخ الطبري: ١٤٤/٢، والكامل في التاريخ: ٢٢٩/٢، وسير أعلام النبلاء: ٢٥٠/٢.

٣- (٣) ماتت رُقيّه في السنه الثانيه من الهجره. وماتت زينب في السنه الثامنه من الهجره، الطبري: ١٤٤/٢، الكامل: ٢٢٩/٢. وماتت أمّ كلثوم في السنه التاسعه من الهجره، الطبري: ١٩٢/٢، الكامل: ٢٩١/٢، وشذرات الذهب: ١٢٨/١.

٤- (٤) انظر تاريخ الطبري: ١٦٤/٢.

المقدار فى ابنته بعد ما أصابه من قبل فى أختيها وكما أصابه ما قبل رسالته فى إختوها، فلا جرم أن يحزن ويشتد به جوى الحزن، وإن وجد من برّ الله ورفقه به ما يعزّ به كما يسلو.

ولم يطل انتظاره التأساء؛ فقد رزقه الله من ماريه القبطيه غلاماً دعاه إبراهيم تيمناً باسم إبراهيم جدّ الأنبياء، الحنيف المسلم (١). وكانت ماريه إلى يومئذٍ ومنذ أهداها المقوقس إلى النبيّ فى مرتبه السرارى (٢)، فلم يكن لها من أجل ذلك منزلٌ إلى جوار المسجد، كما كان لأزواج النبيّ أمّهات المؤمنين؛ بل أنزلها «محمّد» بالعاليه من ضواحي المدينه فى المحل الذى يقال له اليوم مشربه أمّ إبراهيم بمنزل تحيط به كروم، كان يختلف إليها فيه كما يزور الرجل ملك يمينه (٣). وكان قد اختارها حين أهداها المقوقس إليه مع أختها سيرين وجعل سيرين لحسان بن ثابت (٤). ولم يكن «محمّد» يرجو أن يُعقب بعد أن ظلّ أزواجه جميعاً من بعد وفاه خديجه، ومنهنّ الفتاه الفتيه ومنهنّ النصف التى أعقت من قبل، لم تبشر إحداهنّ بخصبه عشره أعوام متتابعه. حملت ماريه ثمّ ولدت إبراهيم وقد تخطى هو إلى الستين فاضت بالمسرّه نفسه وامتلاً هذا القلب الإنسانى الكبير أنساً وغبطه، وارتفعت ماريه بهذا الميلاد

ص: ٦٣١

١- (١) عيون الأثر: ٣٦٧/٢، الوفا بأحوال المصطفى: ٦٧٨.

٢- (٢) الفصول المهمه: ٢٤١، والإصابه: ٣٩١/٤، وقرب الإسناد للحميرى: ٩، بحار الأنوار: ١٥١/٢٢.

٣- (٣) طبقات ابن سعد: ٢١٢/٨-٢١٣، السمط الثمين: ١٦٣، والإصابه: ٣٩١/٤. بل لم يكن السبب الذى دعا النبيّ لأن ينقلها إلى العالیه لأنها ملك يمين وإلاً لماذا لم ينقل نساءه الأخريات اللّاتى هن ملك يمين أيضاً؟ وعليه فإنّ السبب الذى دعاه لنقلها لأنها حملت من النبيّ فغارت منها أزواجه كعائشه وحفصه وآذياها حتّى اشتكت ذلك إلى النبيّ ممّا دعاه أن ينقلها إلى العالیه.

٤- (٤) طبقات ابن سعد: ٢٦٠/١، وعيون الأثر: ٣٣٨/٢.

فى عینه إلى مكانه سمت بها عن مقام موالیه إلى مقام أزواجه، وزادتها إلى ذلك عنده حظوه ومنه قريباً.

كان طبيعياً أن يدسّ ذلك إلى نفوس سائر أزواجه غيرةً تزايدت أضعافاً بأنّها أمّ إبراهيم بأنهنّ جميعاً لا ولد لهنّ. ولم تكن نظره النبىّ إلى هذا الطفل إلّا تزيده هذه الغيره كلّ يوم فى نفوسهنّ اشتعالاً. فهو قد أكرم سلمى زوج أبى رافع قابله ماريه أيما إكرام. وهو قد تصدّق يوم وُلد بوزن شعره ورفقاً على كلّ واحد من المساكين. وهو قد دفعه لترضعه أمّ سيف، وجعل فى حيازتها سبعاً من الماعز ترضعه لبنها(١). وهو قد كان يمرّ كلّ يوم بدار ماريه ليراه، وليزداد أنساً بابتسامه الطفل البريئه الطاهره، ومسرّه بنموّه وجماله. أى شىء أشدّ من هذا كله إثاره للغيره فى نفوس أزواج لم يلدن؟! وإلى أى حد تدفع الغيره أولئك الأزواج!!(٢)

حمل النبىّ إبراهيم يوماً بين ذراعيه إلى عائشه وهو فياض بالبشر، ودعاها لترى ما بين إبراهيم وبينه من عظيم الشبه فنظرت عائشه إلى الطفل وقالت: إنّها لا ترى بينهما شبيهاً. ولما رأت النبىّ فرحاً بنموّ الطفل لاحظت فى غضب، أن كلّ طفل ينال من اللبن ما يناله إبراهيم يكون مثله أو خيراً منه نموّاً(٣). وكذلك كان مولد إبراهيم سبباً أثار من زوجات النبىّ امتعاضاً لم يقف أثره عند هذه الإجابات الجافه، بل تعدّاه إلى أكثر منها، وترك فى

ص: ٦٣٢

١- (١) الاستيعاب: ٢٠٨/٤، والإصابه: ٩٩/٤.

٢- (٢) إنّ عائشه لا ترى شبيهاً بين إبراهيم وبين النبىّ، وفى موضع آخر حين وفاه إبراهيم قالت للنبىّ: لا تحزن إنه ليس بولدك وبهذه المناسبه نزلت آيه الإفك.

٣- (٣) اليعقوبى: ٤١١/١، وتفسير القمى: ٩٩/٢، وبحار الأنوار: ١٥٥/٢٢.

تاريخ «محمد» وفي تاريخ الإسلام من الأثر ما نزل به الوحي وقدسه كتاب الله الكريم.

وكان طبيعياً أن يحدث هذا الأثر. فقد جعل «محمد» لنسائه من المكانه ما لم يكن معروفاً قط عند العرب. قال عمر بن الخطاب في حديث له: «والله إن كنا في الجاهليه ما نعدُّ للنساء أمراً حتى أنزل الله تعالى فيهنّ ما أنزل وقسم لهن ما قسم. فبينما أنا في أمر أئتمره إذ قالت لى امرأتى: لو صنعت كذا وكذا. فقلت لها: وما لك أنت ولما هاهنا وما تكلفك في أمر أريده! فقالت لى: عجباً لك يا بن الخطاب! ما تريد أن تراجع أنت وإن ابنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه وآله حتى يظل يومه غضبان. قال عمر: فأخذ ردائى ثم أخرج مكاني حتى أدخل على حفصه فقلت لها: يا بنيه، إنك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وآله حتى يظل يومه غضبان؟ فقالت حفصه: والله إنا لتراجعه. فقلت: تعلمين أنى أحذرك عقوبه الله وغضب رسوله. يا بنيه لا يغرنك هذه التى قد أعجبها حسنها وحب رسول الله صلى الله عليه وآله وإياها. ثم خرجت حتى أدخل على أم سلمه لقرابتى منها فكلمتها، فقالت لى أم سلمه: عجباً لك يا بن الخطاب! قد دخلت فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وآله وأزواجه! قال عمر:

فأخذتنى أخذاً كسرتنى به عن بعض ما كنت أجد فخرجت من عندها»(١).

وروى فى صحيح مسلم أن أبا بكر استأذن على النبى ودخل بعد أن أذن له، ثم استأذن عمر ودخل أيضاً بعد الإذن، فوجد النبى جالساً وحوله نساؤه واجماً ساكناً. فقال عمر: «لأقولن شيئاً أضحك النبى صلى الله عليه وآله. ثم قال: يا رسول الله: لو

ص: ٦٣٣

رأيت بنت خارجه تسألني النفقه، فقامت إليها فوجأت عنقها. فضحك رسول الله وقال:

هَنِّ حَوْلِي يَسْأَلُنِي النِّفْقَةَ. فقام أبو بكر إلى عائشه يجأ عنقها، وقام عمر إلى حفصه يجأ عنقها، كلاهما يقول: تسألن رسول الله صلى الله عليه وآله ما ليس عنده.

فقلن: والله لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وآله أبداً شيئاً ليس عنده». رواه مسلم (١).

وإنما دخل أبو بكر وعمر على النبي لأنه عليه السلام لم يخرج للصلاه؛ فتساءل المسلمون بعدها عما منعه. وفي حديث أبي بكر وعمر مع عائشه وحفصه نزل قوله تعالى في سورة الأحزاب (٢): يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً * وَإِن كُنتنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً» ٣,٤.

ثم إن نساء النبي كنَّ يأتمنن به. فقد كان إذا صلى العصر دار على نسائه فيدنون منهن. فدخل على حفصه في روايه وعلى زينب بنت جحش في روايه،

ص: ٦٣٤

١- (١) صحيح مسلم: ١٨٧/٤.

٢- (٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٦٢/١٤-١٦٣.

فاحتبس عندها أكثر ممّا كان يحتبس، فأحدث ذلك الغيره فى نفوس سائر نساءه. قالت عائشه: «فتواطأت أنا وحفصه إن أئتنا ما دخل عليها النبى صلى الله عليه و آله فلتقل إننى أجد ريح مَغَافير. أكلت مغافير؟ (والمغافير شىء حلو له ريح قويه كريهه، وكان النبى لا يحب الرائحه الكريهه). فدخل على إحداهما فقالت له:

ذلك، فقال: بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود له. وروت سوده وكانت تواطأت على مثل ذلك مع عائشه: أنّ النبى لما دنا منها، قالت له:

أكلت مغافير؟ قال لا. قالت: فما هذه الرياح؟ قال: سقتنى حفصه شربه من عسل. قالت: جَرَسَتْ نحلته العُرْفُط - أى رعت النحل شجر العرفط الذى يثمر المغافير - . ودخل على عائشه فقالت له ما قالت سوده. ثم دخل على صفيه فقالت له مثل قولهما، فحرّمه على نفسه. فلما فعل قالت سوده: سبحان الله! والله لقد حرماناه. فنظرت إليها عائشه نظره ذات مغزى وقالت لها: اسكتى (١).

طبعى وقد جعل النبى لأزواجه هذه المكانه، بعد أن كنّ كغيرهنّ من نساء العرب لا رأى لهن، أن يتغالين فى الاستمتاع بحريه لم يكن لمثيلاتهنّ بها عهد، وأن تبلغ إحداهنّ من مراجعه النبى حتّى يظل يومه غضبان. وكم أعرض عنهنّ، وكم هجر بعضهنّ، حتّى لا يدفعهنّ رفقته بهنّ إلى مزيد من غلوهنّ، وألما تخرج باحداهنّ الغيره إلى غير لائق بالسداد. فلما ولدت ماريه إبراهيم خرجت الغيره بأزواج النبى عمّا أدبهنّ به، حتّى كان هذا الحديث بينه وبين عائشه إذ تنكر عليه كلّ شبه بين إبراهيم وبينه، ولتكاد تتهم ماريه بما

ص: ٦٣٥

يعرف النبي براءتها منه (١).

وحدث أن كانت حفصه يوماً قد ذهبت إلى أبيها فتحدثت عنده.

وجاءت ماريه إلى النبي وهو في دار حفصه وأقامت بها زمناً معه. وعادت حفصه فوجدتها في بيتها، فجعلت تنتظر خروجها وهي أشد ما تكون غيره، وجعلت كلما طال بها الانتظار تزداد الغيره بها شدة. فلما خرجت ماريه ودخلت حفصه على النبي، قالت له: «لقد رأيت من كان عندك. والله لقد سببتني. وما كنت لتصنعها لولا هواني عليك». وأدرك «محمد» أن الغيره قد تدفع حفصه إلى إذاعه ما رأت والتحدث به إلى عائشه أو إلى غيرها من أزواجه، فأراد إرضاءها بأن حلف لها أن ماريه عليه حرام إذا هي لم تذكر مآ رأت شيئاً. ووعده حفصه أن تفعل. لكن الغيره أكلت صدرها فلم تطق كتمان ما به، فأسرته إلى عائشه. وأومات هذه إلى النبي بما رأى منه أن حفصه لم تصن سره. ولعل الأمر لم يقف عند حفصه وعائشه من أزواج النبي.

ولعلهن جميعاً وقد رأين ما رفع النبي من مكانه ماريه قد تابعن عائشه وحفصه حين ظاهرتا على النبي على أثر قصه ماريه هذه، وإن تكن لذاتها قصه لا شيء فيها أكثر مما يقع بين رجل وزوجه، أو رجل وما ملكت يمينه مما هو حل له، ومما لا موضع فيه لهذه الضجة التي أثارت ابنتا أبي بكر وعمر محاولتين أن تقتصا لفسيهما من النبي عن ميله لماريه (٢). ولقد رأينا أن شيئاً من الجفوه وقع بين النبي وأزواجه في ظروف مختلفه بسبب النفقه

ص: ٦٣٦

١- (١) صحيح البخارى: ١٨٩/٢.

٢- (٢) سنن أبي داود، باب الطلاق الحديث ٢٢٨٣، وسنن ابن ماجه فى الطلاق، الحديث: ٢٠١٦، والنسائى، باب الطلاق: ٢١٣/٦.

أو بسبب غسل زينب أو لغير ذلك من الأسباب التي تدل على أنّ أزواج النبي كُنَّ يجدن عليه أن يكون لعائشه أحبّ، أو أن يكون لماريه أهوى.

وبلغ من أمرهنّ أن أوفدن إليه يوماً زينب بنت جحش وهو عند عائشه تصارحه بأنّه لا يعدل بين نسائه وأنّه لحبّه لعائشه يظلمهنّ. ألم يجعل لكلّ امرأه يوماً وليله! ثمّ رأت سوده انصراف النبي عنها وعدم بشاشته لها فوهبت يومها وليلتها لعائشه إرضاءً للرسول. ولم تقف زينب من سفارتها عند الكلام في ميل النبي عن العدل بين نسائه، بل نالت من عائشه وهي جالسه بما جعل عائشه تتحفّز للردّ عليها لولا إشارات من النبي كانت تهدئ من حدّتها.

غير أنّ زينب اندفعت ولجّ بها الاندفاع وبالغت في النيل من عائشه حتّى لم يبق للنبي بدٌّ من أن يدع لحُميرائه أن تدافع عن نفسها. وتكلمت عائشه بما أفحم زينب وسرّ النبي ودعا للاعجاب بابنه أبي بكر(1).

وبلغت منازعات أمهات المؤمنين في بعض الظروف وبسبب إثاره بعضهنّ بالمحبه على بعض حدّاً همّ النبي معه أن يطلق بعضهنّ لولا- أنّهنّ جعلنه في حلٍّ أن يؤثر من يشاء منهنّ على من يشاء. فلما ولدت ماريه إبراهيم لجتّ بهنّ الغيره أعظم لجاج، وكانت بعائشه ألجّ. ومدّ لهنّ في لجاج الغيره بهنّ هذا الرّفق الذي كان «محمّد» يعاملهنّ به، وهذه المكانه التي رفعهنّ إليها. و«محمّد» ليس خليّاً ليشغل وقته بهذا اللجاج وليدع نفسه لعبث

ص: ٦٣٧

١- (١) صحيح مسلم، فضائل الصحابه برقم: ٢٤٢٢، الاستيعاب: ٣٠٨/٢، حليه الأولياء: ٥٣/٢. يُردّ هذا الأمر: وذلك أنّه لم يرد أنّه كان يحبّ عائشه أكثر من غيرها لورود تصاريح أخرى من فم عائشه بأنّه يميل إلى غيرها كماريه القبطيه، ثمّ يكشف هذا النصّ أنّ زوجات النبي قد اتهمنّ النبي بالظلم في الوقت الذي كان قد طهره الله من الرجس.

نساءه. فلا بدّ من درس فيه حزم وفيه صبراً يردّ الأمور بين أزواجه إلى نصابها، ويدع له طمأنينه التفكير فيما فرض الله عليه للدعوه إلى رسالته.

وليكن هذا الدرس هَجْرَهْنَ والتهديد بفراقهنّ، فإن ثبت إلى رشادهنّ فذاك، وإلّا متّعهنّ وسرّهنّ سراحاً جميلاً.

وانقطع النبيّ عن نساءه شهراً كاملاً لا يكلم أحداً في شأنهنّ، ولا يجرؤ أحد أن يفتحه حديثهنّ. وفي خلال ذلك الشهر أتجه بتفكيره إلى ما يجب عليه وعلى المسلمين للدعوه إلى الإسلام ولمدّ سلطانه فيما وراء شبه الجزيره. على أنّ أبا بكر وعمر وأصهار النبيّ جميعاً - وما كان أكثرهم! - كانوا في قلق أشدّ القلق على ما قدّر مصيراً لأُمَّهات المؤمنين، وما يتعرّضنّ له من غضب رسول الله، وما يجر إليه غضب الرسول من غضب الله وغضب ملائكته. بل لقد قيل: إنّ النبيّ طلق حفصه بنت عمر بعد الذي كان من إفشائها ما وعدت أن تكتمه. وقد سرى الهمس بين المسلمين أنّ النبيّ مطلق أزواجه. وأزواجه خلال ذلك مضطربات ناديات، أن دفعتهنّ الغيره إلى إيذاء هذا الزوج الرفيق بهنّ، هو منهنّ الأخ والأب والابن وكلّ ما في الحياه وما وراء الحياه. وجعل «محمّد» يقضى أكثر وقته في خزانه له ذات مشربيه، يجلس غلامه رباح على أشي كفتها - أي عتبتها - ما أقام هو بالخزانه، ويرقى هو إليها على جذع من نخل هو الخشونه كلّ الخشونه.

وإنّه لفي خزانه يوم أوفى الشهر الذي نذر فيه هجر نساءه على التمام، وقد أقام المسلمون بالمسجد مطرّقين ينكثون الحصى ويقولون: طلق رسول الله صلى الله عليه وآله نساءه، ويبدون لذلك أسى يبدو على وجوههم واضحاً عميقاً، إذ

قام عمر من بينهم فقصده إلى مقام النبي بخزانه ونادى غلامه رباحاً كي يستأذن له على رسول الله. ونظر إلى رباح يروم الجواب. فإذا رباح لا يقول شيئاً علامه أن النبي لم يأذن. فكرر عمر النداء ولم يجب رباح مرّة أخرى.

فرفع عمر صوته قائلاً: «يا رباح استأذن لي عندك على رسول الله صلى الله عليه وآله فأنتي أظنه ظنّ أنّي جئت من أجل حفصه. والله لئن أمرني بضرب عنقها لأضربنّ عنقها». وأذن النبي فدخل عمر فجلس ثمّ أجال بصره فيما حوله وبكى. قال «محمد»: ما يبكيك يا ابن الخطاب؟ وكان الذي أبكاه هذا الحصير الذي رأى النبي مضطجعاً عليه وقد أثر في جنبه، والخزانه لاشيء فيها إلّا قبضه من شعير ومثلها من قرظ وأفيق - أي جلد - معلق. فلما ذكر عمر ما يبكيه علمه «محمد» من وجوب الإعراض عن الدنيا ما ردّ إليه طمأنينته. ثمّ قال عمر:

يا رسول الله! ما يشقّ عليك من أمر النساء؟ إن كنت طلقتهنّ فإنّ الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك. ثمّ انعكف يحدث النبي حتّى تحسّر الغضب عن وجهه وحتّى ضحكك. فلما رأى عمر ذلك منه ذكر له أمر المسلمين بالمسجد وما يذكرون من طلاقه نساءه. فلما ذكر النبي أنّه لم يطلقهنّ استأذنه في أن يفضى بالأمر لأولئك المقيمين بالمسجد ينتظرون. ونزل إلى المسجد فنادى بأعلى صوته: لم يطلق رسول الله صلى الله عليه وآله نساءه. وفي هذه القصه نزلت الآيات الكريمة من أول سورة التحريم (1): يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ لَمَّا تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّهُ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَإِذْ أَسْرَ

ص: ٦٣٩

١- (١) صحيح البخارى: تفسير سورة التحريم، وصحيح مسلم: الحديث ١٤٧٤.

النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَيْدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَ أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ * إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَ إِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَ جِبْرِيْلُ وَ صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَ أَبْكَارًا ۝ . وبذلك انتهى الحادث و ثاب إلى نساء النبي رشادهن و رجع هو إليهن تائبات عابדות مؤمنات، و عادت إلى حياته البيته السكينة التي يحتاج إليها كل إنسان لأداء ما فرض عليه أداؤه.

ما قصصت الآن عن هجر «محمد» نساءه، و تخيره إياهن و مقدمات هذا الهجر و نتائجها و الوقائع التي سبقت و أدت إليه، هو في رأي الرواية الصحيحة لتاريخ هذا الحادث، روايه يتضافر على تأييدها ما جاء في كتب التفسير و في كتب الحديث، و ما جاء متفرقاً عن أخبار «محمد» و نساءه في كتب السير المختلفة. بيد أنه لم تكن واحده من هذه السير تقص الحوادث، أو تضع المقدمات و النتائج بالصورة التي سردنا هنا. و أكثر السير تمرّ بهذا الحادث مرّاً دون أن تقف عنده؛ و كأنما تجده خشن الملمس فتخشى أن تقر به. و بعضها يقف عند روايه خبر العسل و المغافير و لا- يشير بكلمه إلى مسأله حفصه و ماريه. فأما المستشرقون فيجعلون مسأله حفصه و ماريه و إفضاء حفصه إلى عائشه بما عاهدت النبي أن تكتمه، سبب كل الذي وقع؛ ليحاولوا بذلك أن يضيفوا جديداً لما يُلقون في رُوع قرائهم عن النبي العربي، من أنه كان رجلاً- محبباً للنساء حبباً معيباً. و عندي أنّ المؤرخين المسلمين لا

عذر لهم في إغفال هذه الوقائع ولها مغزاها الدقيق الذي سقنا شيئاً من أمره، وأنَّ المستشرقين يتخطون الدقه التاريخيه متأثرين في ذلك بهوهم المسيحيّ، فالنقد التاريخي النزيه يأبى كلَّ الإباء على أيّ إنسان، بله عظيم ك «محمد»، أن يجعل من إفضاء حفصه لعائشه بأنّها وجدت زوجها في بيتها مع مولاه له هي ملك يمينه وهي بذلك حلّ له، سبباً لهجر «محمد» نساءه جميعاً شهراً كاملاً، وتهديده إيّاهنّ جميعاً بأنّ يطلّقهنّ. والنقد التاريخي النزيه يأبى كذلك أن تكون حكاية العسل سبب هذا الهجر والتهديد. فإذا كان الرجل عظيماً ك «محمد»، فرفيقاً ك «محمد»، واسع الصدر طويل الأناه متّصفاً بما ل «محمد» من سائر الصفات التي يُقرّر له بها مؤرخوه جميعاً على سواء، كان اعتبار أيّ من الحادثين لذاته سبباً لهذا الهجر والتهديد بالطلاق ممّا يزوّر عنه النقد التاريخي وينأى عنه بجانبه أشدّ النأى. وإنما يطمئن هذا النقد ويستقيم منطق التاريخ إذا سبقت الحوادث المساق الذي لا مفرّ معه من أن تؤدّي إلى نتائجها المحتومه، فتصبح بذلك أموراً طبيعياً يسيغها العقل ويرضاها العلم. وما فعلنا نحن هو في نظرنا المساق الطبيعي للحوادث، وهو الذي يتفق مع حكمه «محمد» وعظمته وحزمه وبعد نظره(١).

ويتحدّث بعض المستشرقين عمّا أنزل من الآيات في مستهلّ سورة التحريم ممّا نقلنا هنا، ويذكر أنّ كتب الشرق المقدّسه جميعاً لم تشر إلى مثل هذا الحادث المنزلي على هذه الصورة. وما أحسبنا بحاجة إلى أن نذكر ما ورد

ص: ٦٤١

١- (١) هذه الممارسات التي تؤدّي النبيّ صلى الله عليه وآله الصادره من نساءه تؤكد عدم صحه نظريه عداله كلّ الصحابه التي التزمها كتاب السير والتاريخ الإسلامي، وتؤيد من جهه صحه ما يذهب إليه أتباع مدرسه أهل البيت من عدم صحه الالتزام بعداله كلّ الصحابه.

بالكتب المقدّسه جميعاً والقرآن من بينها عن قوم لوط ونقيصتهم، وما كان من مجادلتهم الملكين ضيفى لوط، ولا ماورد فى هذه الكتب عن امرأته وأنها كانت من الغابرين. بل إنّ التوراه لتقصّ نبأ ابنتى لوط إذ سَيَقْتا أباهما حتّى ثمل ليلتين متتاليتين ليقترب كلّ واحد منهما ليله كيما يُخصبها فتلد، مخافه فناء آل لوط بعد إذ أنزل الله بهم من الجزاء ما أنزل(١). لكنّ الكتب المقدّسه جميعاً جعلت من قصص الرسل وسيرهم وما صنعوا وما أصابهم عبرة للناس.

وقد تناول القرآن من ذلك الكثير، قصّ الله فيه على رسوله أحسن القصص.

والقرآن لم ينزل ل «محمّد» وحده، وإنّما نزل للناس كافه. و «محمّد» نبى ورسول خلت من قبله الرسل الذين قصّ القرآن أخبارهم. فإذا قصّ القرآن من أخبار «محمّد» وتناول من سيرته ليكون للمسلمين مثلاً، وليكون للمسلمين فيه أسوه حسنه، وأشار إلى حكمته فى تصرفاته، فلا شىء من ذلك يخرج عمّا أوردت سائر الكتب المقدّسه وما أورد القرآن من سير الأنبياء.

فإذا ذكرت أن هجر «محمّد» نساءه لم يكن لسبب منفرد من الأسباب التى رويت فى شأنه، ولم يكن لأنّ حفصه أفضت إلى عائشه بما فعل «محمّد» مع ماريه ممّا يحقّ لكلّ رجل مع أزواجه وما ملكت يمينه، رأيت فى هذه الملاحظه التى يبديها بعض المستشرقين ما لا يثبت أمام النقد التاريخى، ولا يتفق مع منطق الحوادث وما جرت به الكتب المقدّسه فى شأن الأنبياء وحياتهم وأخبارهم(٢).

ص: ٦٤٢

١- (١) العهد القديم، سفر التكوين، الفصل ١٩، خطبه ابنتى لوط: ٢٣.

٢- (٢) أمّا الآيات الأولى من سوره التحريم (١-٥) فقد وردت فى أسباب نزولها روايات عديده أشهرها -

الفصل السابع والعشرون: نبوك و موت إبراهيم

الخراج و جبايته، أنباء تهيو الروم، نغير «محمّد» في المسلمين ليتهيئوا للقتال بالشام، الخوالم المنافقون و شدّه «محمّد» معهم، الجيش العرم في لظى الطريق إلى الشام، انسحاب الروم خوفا من «محمّد»، عهده ليوحنا و لأمرء الحدود، العود إلى المدينة، مرض إبراهيم، و فاته و بكاء «محمّد» إياه.

لم يغير هذا الحادث المنزلى و هذا الاضراب و الاضطراب بين النبى و أزواجه من سير الشؤون العامه شيئا. و كانت الشؤون العامه بعد فتح مكّه و إسلام أهلها قد بدأ يتضاعف خطرها، و قد بدأت العرب جميعا تحسّ جلال هذا الخطر. فالبيت الحرام و ما يتصل به من سدانه و رفاده و سقايه و ما يتصل بالحجّ إليه من مختلف الطقوس قد أصبح في حكم «محمّد» و في حكم الدين الجديد. فلا- جرم إذا أن تزداد شؤون المسلمين العامه لفتح مكّه، و أن يزداد العرب إحساسا بسلطانهم في كل ناحيه من شبه الجزيره. و ازدياد الشؤون العامه يحتاج بطبعه إلى مزيد في النفقات العامه. لذلك لم يكن بد من أن يدافع المسلمون زكاه العشر، و أن يدافع العرب الذين أصروا على جاهليتهم ما

يفرض عليهم من خراج. قد يخرجهم ذلك وقد يدعوهم إلى التذمر و إلى أكثر من التذمر. لكن ما اتصل بالدين الجديد من نظام في شبه الجزيره جديد لم يجعل من جمع العشر و الخراج مخرجا. و لهذه الغايه أوفد «محمّد» صيارفه بعد قليل من عوده من مكّه ليجمعوا إليه عشر إيراد القبائل التي دانت للإسلام من غير أن يتعرّضوا لأصول أموالها. و ذهب هؤلاء كل وجهته. فتلقّتهم القبائل بالترحاب و دفعت لهم زكاه العشر طيبه بدفعها نفوسهم، لم يند عن ذلك غير فرع من بني تميم و غير بني المصطلق. فقد كان الصيرف يقتضى قبائل في جوار بني تميم زكاه العشر، و هم يدفعونها من إبلهم و أموالهم، فسارعت بنو العنبر - فخذ من بني تميم - إليه قبل أن يطالبها بزكاتها تحمل نبالها و سيوفها و طردته من أرضها. فلما بلغ الخبر «محمّدا» بعث إليهم عينه بن حصن على رأس خمسين فارسا انقضوا عليهم في سر منهم ففروا.

و أصاب المسلمون الأسرى و السبايا و هم يزيدون على خمسين رجلا و امرأه و طفلا، و عادوا موفورين إلى المدينه؛ و حبس النبي هؤلاء الأسرى. و كان من بني تميم جماعه أسلموا و قاتلوا إلى جانب النبي عند فتح مكّه و في حنين، و كان منهم من لا يزال على جاهليته. فلما عرفوا ما أصاب أصحابهم من بني العنبر أرسلوا إلى النبي و فدا من أشراً فهم نزلوا إلى المدينه و دخلوا المسجد، و نادوا النبي من وراء حجراته أن اخرج إلينا يا «محمّدا». و آذى نداؤهم النبي، فما كان ليخرج إليهم لو لا أن أذن لصلاه الظهر. فلما رأوه ذكروا ما صنع عينه بأهلهم، كما ذكروا ما كان لمن أسلم منهم من جهاد إلى جانبه، و ما لقومهم من مكانه بين العرب؛ ثم قالوا له: إنا جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا و خطيبنا. فقام خطيبهم عطارذ بن حاجب، فلما فرغ دعا رسول الله ثابت بن قيس ليردّ عليه.

ثم قام شاعرهم الزبرقان بن بدر فقال، و أجابه حسان بن ثابت. فلما انتهت

المفاخره قال الأقرع بن حابس: و أبي إن هذا الرجل لمؤتى له، لخطيبه أخطب من خطيبنا، و لشاعره أشعر من شاعرنا، و لأصواتهم أعلى من أصواتنا.

و أسلم القوم فاعتق النبيّ الأسرى وردّهم إلى قومهم(١).

فأمّا بنو المصطلق فإنّهم لما رأوا الصيرف فرّ هاربا خافوا عاقبه أمرهم و أوفدوا إلى النبيّ من ذكر له أن الخوف في غير محل له هو الذي أذى إلى ما وقع من سوء التفاهم(٢).

و لم تكن ناحيه من نواحي شبه الجزيره إلّابدأت تحس سلطان «محمد». و لم تحاول طائفه أو قبيله أن تقاوم هذا السلطان إلّابعث النبيّ إليها قوه تحملها على الاذعان بدفع الخراج و البقاء على دينها أو بالإسلام و دفع الزكاه.

و فيما عيّنه على بلاد العرب جميعا، حتّى لا- ينتفض فيها منتفض و حتّى يستتب الأمن في ربوعها من أقصاها إلى أقصاها، إذ اتّصل ب «محمد» نبأ من بلاد الروم أنّها تهتّئ جيوشا لغزو حدود العرب الشماليه غزوا ينسى الناس انسحاب العرب الماهر في مؤته، و ينسى الناس ذكر العرب و سلطان المسلمين الزاحف في كل ناحيه ليتاخم سلطان الروم في الشام و سلطان فارس في الحيره. و اتصل به هذا النبأ مجسّما أيّما تجسيم. فلم يتردّد برهه في

ص: ٦٤٧

-
- ١- (١) المغازى للواقدي: ٩٧٣/٢-٩٨٠، الطبقات: ١٦٠/٢-١٦١، و عيون الأثر: ٢٥٣/٢-٢٥٤، و مجمع البيان: ٢١٥/٩.
 - ٢- (٢) المغازى للواقدي: ٩٨٠/٢-٩٨١، و الطبقات الكبرى: ١٦١/٢، و إمتاع الأسماع: ٤٢/٢، و مجمع البيان: ٢٢٠/٩. و اغفل هيكل ذكر كذبه الوليد بن عاقبه بن أبي معيط الأموي أخى عثمان من الرضاعه عن بنى المصطلق و التي بشأنها نزل قوله سبحانه: «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنيا فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهاله فتصبحوا على ما فعلتم نادمين» و التي بها عرف الوليد بالفاسق. الغارات لابن محمد الثقفي: ٢٥١/١ و ٥٩٨، السقيفه و فدك للجوهري: ١٢٨، السنن الكبرى للبيهقي: ٥٥/٩، مجمع الزوائد للهيتمي: ١٠٩/٧، الآحاد و المثاني للضحّاك: ٣٠٩/٤، المعجم الكبير للطبراني: ٢٧٥/٣ ح ٣٣٩٥.

تقرير مواجهه هذه القوى بنفسه و القضاء عليها قضاء يقضى فى نفوس سادتها على كل أمل فى غزو العرب أو فى التعرض لهم. و كان الصيف لما ينته. و القيظ فى أوائل الخريف يصل إلى درجات تجعله أشد من قيظ الصيف فى هذه الصحارى إرهاقا و قتلا. ثم إن الشقه من المدينه إلى بلاد الشام طويله شاقه تحتاج إلى الجلد و تحتاج إلى المؤنه و إلى الماء. إذا لا مفر من أن يطالع «محمد» الناس بعزمه السير إلى الروم و قتالهم حتى يأخذوا لذلك عدتهم. و لا مفر من أن يخالف «محمد» بذلك تقاليدہ فى سابق غزواته حين كان يتوجه فى كثير من الأحيان بجيشه إلى غير الناحيه التى إليها يقصد، تضليلا للعدو حتى لا يفشو خبر مسيرته. و أرسل «محمد» فى القبائل جميعا يدعوها للتهيؤ كما تعد أكبر جيش يمكن اعداده، و أرسل إلى سراة المسلمين ليشاركوا فى تجهيز هذا الجيش بما آتاهم الله من فضله، و ليحرضوا الناس على الإنضمام إليه، حتى يكون من الأهبه بما يدخل الروع فى نفوس الروم الذين عرفوا بوفره عدتهم و كثره عديدهم.

بم عسى أن يستقبل المسلمون هذه الدعوه إلى هجر أبناءهم و نساءهم و أموالهم فى شدّه القيظ ليقطعوا فيافى و صحارى مجدبه قليله الماء، ثم ليلقوا عدوا غلب الفرس و لم يقهره المسلمون؟! أفيدفعهم إيمانهم و حبهم للرسول و شديد تعلقهم بدين الله إلى الإقبائل على دعوته متدافعين بالمناكب حتى يضيق بهم فضاء الصحراء، دافعين أمامهم أموالهم و إبلهم، مذرعين بسلاحهم، مثيرين أمامهم من التّع ما إن كان يكاد يبلغ العدو نبؤه، حتى يولّى الأدبار لا يلوى على شىء؟ أم تمسكهم مشقه الطريق و شده الحرّ و مخافه الجوع و العطش، فيتقاعسون و يتراجعون؟ لقد كان فى المسلمين يومئذ من هؤلاء و أولئك، كان فيهم أولئك الذين أقبلوا على الدين بقلوب ممتلئه هدى و نورا،

ونفوس غمرها ضياء الإيمان فلا تعرف غيره، و كان فيهم من دخل في دين الله رغبا و رهبا: رغبا في مغنم الحرب بعد أن أصبحت قبائل العرب كلها لا تثبت أمام غزو المسلمين، فتسلم لهم ثم يؤدوا الجزية عن يد و هم صاغرون.

و رهبا من هذه القوه التي تضطرب أمامها كل قوه و يخشى سلطانها كل ملك (١). فأما الأولون فأقبلوا لدعوه رسول الله خفافا مسرعين، و منهم الفقير الذي لا يجد الدابه يحمل نفسه عليها، و منهم الغنى ماله بين يديه يقدمه في سبيل الله راضيه نفسه طامعا في الإستشهاد و الانحياز إلى جوار الله. و أما الآخرون فتثاقلوا و بدأوا يلتمسون الأعذار، و جعلوا يتهامون فيما بينهم يهزأون بدعوه «محمد» إياهم لهذا الغزو النائي في ذلك الجو المحرق.

هؤلاء هم المنافقون الذين نزلت (٢) فيهم سوره التوبه، فيها أعظم دعوه للجهد و أشد تخويف من عذاب الله يصيب من تخلف عن إجابته رسوله.

قال قوم من المنافقين بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحر؛ فنزل قوله تعالى: وَ قَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ٣. و قال «محمد» للجد بن قيس أحد بنى سلمه: يا جد، هل لك العام في جلاذ بنى الأصفر؟ فقال: «يا رسول الله، أو تأذن لي و لا تفتني، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل أشد عجا بالنساء مني، و إني أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر أأصبر». و بنو الأصفر هم الروم.

ص: ٦٤٩

١- (١) و هؤلاء هم المنافقون على اختلاف مراتبهم، و كان يعرف بعضهم بذلك، و القسم الآخر لا يعرف لأن نفاقه خفى فكان ينطبق عليهم عنوان الصحابه و بناء على ذلك لا يمكن الأخذ بنظريه عداله كل الصحابه و سيأتي التعليق على هذه المسأله مفصلا.

٢- (٢) أسباب النزول للواحدى: ١٦٥-١٦٦، و مجمع البيان: ٩٨/٥.

فأعرض عنه رسول الله، وفيه نزلت (١) الآية: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَ لَا تَفْتِنِّي أَلَا- فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ٢. و انتهز الذين تنطوى قلوبهم على بغضاء «محمد» هذه الفرصه ليزيدوا المنافقين نفاقا، و ليحرضوا الناس على التخلف عن القتال. هؤلاء لم ير «محمد» أن يتهاون معهم خيفه أن يستفحل أمرهم، و رأى أن يأخذهم أخذ عزيز مقتدر. بلغه أن ناسا منهم يجتمعون في بيت سويلم اليهودى يثبطون الناس و يلقون في نفوسهم التخاذل و التخلف عن القتال، فبعث إليهم طلحه بن عبيد الله في نفر من أصحابه، فحرّق عليهم بيت سويلم ففرّ أحدهم من ظهر البيت فانكسرت رجله، و اقتحم الباقون النار فأفلتوا و لكنّهم لم يعودوا لمثلها، ثم كانوا مثالا لغيرهم فلم يجروا أحد بعدهم على مثل فعلهم (٢)(٣).

ص: ٦٥٠

١- (١) أسباب النزول للواحدى: ١٦٦، و مجمع البيان: ٦٥/٥.

٢- (٣) و لهذه الأحداث التاريخيه و السلوكات المتناقضه و غيرها لقسم من صحابه رسول الله صلى الله عليه و آله التى صرّح بها القرآن و السنّه النبويه و التى منها قوله صلى الله عليه و آله: «لا تكذبوا علىّ فإنّه من كذب علىّ فليج النار» السيره النبويه لابن هشام: ٢٧٩/٢، و قوله: «أنا فرطكم على الحوض و سأنازع رجالا فأغلب عليهم فلاقولن رب أصحابى أصحابى! فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك» مسند أحمد: ٣٥/٢، نعم لهذا ترى مدرسه أهل البيت عليهم السلام: أن حال الصحابه كحال غيرهم من حيث العدالة ففيهم العادل و غير العادل، و ليس كل من صحب رسول الله صلى الله عليه و آله كان عادلا، و ليس للصاحبه دور فى عداله الصحابه ما لم تتجسّد سيره رسول الله صلى الله عليه و آله فى سلوكه و مواقفه، فالملاك هو السيره العمليه؛ و كل من تطابقت سيرته مع المنهج الإسلامى فهو عادل، و من خالف المنهج الإسلامى فهو غير عادل، و هذا الرأى يتطابق مع القرآن الكريم و السنّه الشريفه، فقد أشار القرآن الكريم و كذا السنّه إلى أن من الصحابه منهم مؤمنون حقّا، كما أن منهم المنافقين، كما مرّ عليك فى متن الكتاب، و لمزيد من التفصيل راجع: (سلسله فى رحاب أهل البيت) نظريه عداله الصحابه، الصادره عن المجمع العالمى لأهل البيت عليهم السلام.

٣- (٤) السيره النبويه لابن هشام: ٥١٧/٢، و تاريخ ابن خالدون: ٤٦٧/٢، و تاريخ الخميس: ١٢٤/٢.

وقد كان لهذه الشدّة في أخذ المنافقين و من معهم أثرها. فقد أقبل الأغنياء و ذوو اليسار فأنفقوا نفقه عظيمه لتجهيز الجيش: أنفق عثمان ابن عفان وحده ألف دينار(١)، و أنفق كثيرون غيره كل في حدود طاقته، و تقدّم كل قادر على نفقه نفسه بعدّته و نفقته. و أقبل كثيرون من الفقراء يريدون أن يحملهم النبيّ معه، فحمل منهم من استطاع، و اعتذر للباقيين و قال: لا- أجد ما أحملكم عليه، فتولّوا و أعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون. و لبكائهم هذا أطلق عليهم اسم البكّائين. و اجتمع ل «محمّد» في هذا الجيش، الذي سمّي جيش العسره لشدّه ما لا قى منذ يوم تكوينه، ثلاثون ألفا من المسلمين(٢).

ص: ٦٥١

١- (١) يتردّد الإنسان في قبول هذا المقدار من الإنفاق، فيما لو ضمّ هذه الروايه إلى غيرها من الروايات أو تأمل في دلالتها. فعن عبدالرحمن بن سمره، أنه قال: لقد قدّم عثمان بن عفان للنبيّ صلى الله عليه و آله ألف دينار مساهمه منه في تجهيز الجيش فصبّها في كمّه فأخذ رسول الله يقبّلها بيده و يقول: ما ضرّ عثمان ما فعل بعد اليوم. و قد و صف صاحب تاريخ الخميس هذا الحديث بالغرابه، و روى عن قتاده أن عثمان حمل في جيش العسره على ألف بعير و سبعين فرسا، كما روى أيضا في حديث حذيفه أنه قدّم للنبيّ عشره آلاف دينار فصبّها بين يديه فجعل يقبّلها و يقول: اللهم اغفر لعثمان ما قدّم و آخر و ما أسرّ و ما أعلن ما يبالي عثمان بما يفعل بعد اليوم. الروايات أعلاه قد اختلفت في الكميّه التي انفقها عثمان في تلك الغزوه، و تضاربت مضامينها، و الاختلاف في المضامين من الأسباب الموجبه لتوهينها و عدم الاعتداد بها، و لهذا و صفها البكرى في تاريخه بالغرابه. الروايه أعلاه من حيث السند من المراسيل و الإرسال من عيوب الروايه، كما هو مقرّر في محلّه على أنّها قد اشتملت على ما يتنافى مع منطوق القرائن، حيث جاء فيها: أن النبيّ قال ما ضرّ عثمان ما يفعل بعد اليوم، و القرآن يشير: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ. و من الجائز أن يكون عثمان قد ساهم في تسريح هذا الجيش، كما ساهم غيره من المسلمين، و قد جاء في أكثر الروايات أنّ النساء ساهمن بحليهنّ في هذه الغزوه و شاركن الرجال في ذلك. راجع سيره المصطفى لهاشم معروف الحسيني: ٦٢٦.

٢- (٢) السيره الحلبيه: ١٣٩/٣.

اجتمع الجيش وقام أبو بكر فيه يؤمّ الناس للصلاه في انتظار عود «محمّد» من تدبير شؤون المدينة أثناء غيبته (١). وقد استخلف عليها محمّد بن مسلمه، وخلف عليّ بن أبي طالب على أهله وأمره بالإقامه فيهم (٢).

، وأصدر ما

ص: ٦٥٢

١- (١) المصادر التاريخيه الأُم والرئيسيه لم تذكر هذه الحادثه اطلاقاً.

٢- (٢) أفرزت تعبئه غزوه تبوك عدداً من العناصر التي التفت على أمر الرسول صلى الله عليه وآله وحاولت أن تتخلف عن الجيش بشتى الأعذار. منهم من قال: يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني فوالله لقد عرف قومي ما أحد أشدّ عجباً بالنساء مني، وإنى لأخشى إن رأيت بنات بنى الأصفر - الروم - لا أصبر عليهنّ، فأعرض عنه رسول الله وقد نزل فيه قول الله تعالى: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أُنْذِرْ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا... ومنهم المنافقون الذين قالوا: يحسب «محمّد»: أنّ قتال بنى الأصفر للعب، فنزل فيهم أيضاً قول الله تعالى: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أُنْذِرْ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ... ومنهم البكّاءون الذين يرغبون في الخروج إلما أنّهم فقراء محتاجون وطلبوا من الرسول ما يحملهم عليه من دابه، فقال لهم رسول الله: لَا أَجِدُ مَا أُحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ. فتولّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون. ومنهم المتخلفون وقد تخلفوا لا عن شك أو رغبه عن الجهاد وكانوا أهل صدق لا يتهمون في إسلامهم الذي أطلق عليهم القرآن المخلفون الثلاثة الذين فاتتهم غزوه تبوك، فوبّخهم الله تعالى وعاقبهم على تخلفهم ليكون في ذلك عبره لمن سواهم. ومنهم المجاهدون الصادقون الذين لبوا نداء رسول الله صلى الله عليه وآله، وتهيأوا لفورهم للخروج معه في شوق بالغ ورغبه عظيمه في الجهاد. لقد كان من أبرز فضائل عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنّه شارك في جميع المعارك، ولازم رسول الله صلى الله عليه وآله في جميع غزواته، - وكان هو حامل لواءه في تلك المعارك والغزوات - ما عدا تبوك حيث بقي في المدينة بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يشارك في هذا الجهاد المقدّس، لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يدرك جيداً أنّ بعض المنافقين والمتربّصين، والمتحينين الفرص من رجال قريش سيستغلّون فرصه غيبه النبيّ القائد عن المدينة - مركز الدوله الإسلاميه - فيثيرون فيها فتنه، ويجهزون على الحكومه الإسلاميه الفتيه بانقلاب أو ما شابه ذلك، وأنّ مثل هذه الفرصه إنّما تسنح لهم إذا قصد رسول الله صلى الله عليه وآله مكاناً نائياً، وانقطع ارتباطه بعاصمه الإسلام (المدينه)! ولقد كانت «تبوك» أبعد نقطه خرج إليها رسول الله صلى الله عليه وآله في جميع غزواته، فكان يحس - بقوه - أن تقوم -

رأى أن يصدر من الأوامر، ثم عاد إلى الجيش يتولّى قيادته.

و كان عبد الله بن أبيّ قد خرج في جيش من قومه يسير به إلى جانب جيش «محمد» (1). لكنّ النبي رأى أن يظلّ عبد الله وجيشه بالمدينه، لأنّه كان ما يزال ضعيف الثقه به وبصحه إيمانه. وأمر فتحرك الجيش وثار النّقع وصهلت الخيل وارتقت نساء المدينه سقّفها يشهدن هذا الجحفل الجرّار يتوجّه مخترقاً الصحراء صوب الشام، مستهيناً في سبيل الله بالحرّ والظمأ والمسغبه، تاركاً وراءه القواعد والخوالف ممّن آثروا الظل والنعمه واللذّه على إيمانهم و على رضا الله عنهم.

ص: ٦٥٣

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٥١٩/٢.

ولقد حرّك منظر الجيش يتقدّمه عشرة آلاف فارس (١) ومنظر النسوة مأخوذات بجلالته وقوته بعض نفوس لم تحرّكها دعوه الرّسول فتقاعست ولم تتبعه. رجع أبوخيثمه بعد أن رأى هذا المنظر فوجد امرأتين له قد رشّت واحده منهما عريشها وبردت له فيه ماء وهيّأت له فيه طعاماً، فلمّا رأى الرجل ما صنعنا، قال: رسول الله في الضّحّ والريح والحرّ وأبو خيثمه في ظل بارد وطعام مهياً وامرأه حسناء في ماله مقيم؟ هيّئا لى زاداً حتّى ألحق به.

فهياتا له زاده ولحق بالجيش (٢). ولعلّ جماعه من الخوالف قد فعلوا فعل أبي خيثمه بعد أن رأوا ما في التقاعس والخوف من سنّار ومذله.

وسار الجيش حتّى بلغ الحجّز وبها أطلال لمنازل ثمود منقوره في الصخر. هنالك أمر رسول الله بالنزول فاستقى الناس من بئرها. فلمّا راحوا قال لهم: لا تشربوا من مائها شيئاً ولا تتوضأوا منه للصلاه. وما كان من عجيب عجنتموه فاعلفوه للإبل، ولا تأكلوا منه شيئاً، ولا يخرجنّ منكم أحد إلّا ومعه صاحب له. ذلك أنّ المكان لم يكن أحد يمر به. وكانت تعصف أحياناً عواصف الرمل تطمر الناس والإبل. ولقد خرج رجلان على خلاف أمر الرّسول احتملت أحدهما الريح وطمرت الآخر الرمال. فلمّا أصبح الناس ألفوا هذه الرمال قد طمّت البئر فلم يبق بها ماء ففرغوا خيفه الظماً وقدّروا لِمَا بقى من طول الطريق (٣). وإنّهم لكذلك إذ مرّت بهم سحابه أمطرتهم فارتووا

ص: ٤٥٤

١- (١) المغازى للواقدي: ١٠٠٣/٢، والطبقات الكبرى: ١٦٦/٢، وعيون الأثر: ٢٦٨/٢، وتفسير مجمع البيان: ١٠٤/٥، وبحار الأنوار: ٢١٨/٢١.

٢- (٢) السير النبويّه لابن هشام: ٥٢٠/٢، والمغازى للواقدي: ٩٩٨-٩٩٩، وتاريخ الخميس: ١٢٥/٢-١٢٦، وراجع التبيان للطوسي: ٣١٤/٥، بحار الأنوار: ٢٠٣/٢١-٢٠٥.

٣- (٣) السير النبويّه لابن هشام: ٥٢١/٢-٥٢٢، والمغازى للواقدي: ١٠٠٦/٢، والسيره الحلبيه: ١٣٤/٣، وبحار الأنوار: ٢٤٩/٢١.

وأصابوا من الماء ما شاءوا وزايلهم الفزع وطار أكثرهم سروراً وأقبل بعضهم على النبي يقولون: إنَّها معجزه. فلم يرض قولهم، وكان جوابه لهم: إنَّما هي سحابه ما زه (١)(٢).

وانطلق الجيش بعد ذلك قاصداً تبوك. وكانت الروم قد بلغها أمر هذا الجيش وقوّته فأثرت الانسحاب بجيشها الذى كانت وجّهت إلى حدودها ليتحصّن داخل بلاد الشام فى حصونها (٣). فلما انتهى المسلمون إلى تبوك وعرف «محمّد» أمر انسحاب الروم ونمى إليه ما أصابهم من خوف، لم ير محلاً لتبّعهم داخل بلادهم. وأقام عند الحدود يتحدّى من شاء أن ينازله أو يقاومه، ويعمل لكفاله هذه الحدود حتّى لا يتخطّى من بعد ذلك إليها أحد (٤). وكان يوحنا بن زُوبه صاحب أئله أحد الأمراء المقيمين على الحدود. ولقد وجّه إليه

ص: ٦٥٥

١- (١) السيره النبويّه لابن هشام: ٥٢٢/٢، والمغازى للواقدي: ١٠٠٨/٢-١٠٠٩، تاريخ الخميس: ١٢٦/٢، وبحار الأنوار: ٢٤٩/٢١-٢٥٠.

٢- (٢) لم يكن هذا الجواب لرسول الله، وأنما كان هذا كلام المنافقين وجوابهم، حين شكى المسلمون العطش لرسول الله صلى الله عليه وآله، فاستقبل القبلة ودعا ولم يكن فى السماء سحابه، فما زال يدعو حتّى اجتمعت السُّحب من كلّ ناحيه، فما برح من مكانه حتّى نزل المطر وانكشفت السُّحب فسقى الناس وارتووا عن آخرهم وملأوا أسقيتهم، فقال أحد المسلمين لبعض المنافقين: ويحك أبعده هذا شيء؟ وهل بقى عندك شيء من الريب؟ فقال: إنَّما هي سحابه ماره، وانطلق الجيش فى طريقه إلى تبوك، وقبل وصولهم إليها نزلوا فى مكان، فضمّت ناقة الرسول صلى الله عليه وآله فخرج أصحابه فى طلبها، فقال زيد بن الصلت القينقاعى وكان من المنافقين: أليس «محمّد» يزعم أنّه نبيّ يخبركم عن السماء وهو لا يدرى الآن أين ناقتة، وعلم رسول الله بهذه المقالة عن طريق الوحى، فقال وعنده عماره بن حزم: إنَّ رجلاً قال: إنَّ «محمّداً» يخبركم عن السماء وهو لا يدرى أين ناقتة، وإنى والله لا أعلم إلّما علّمنى ربّى، وقد دلّنى الآن عليها وهى فى الوادى قد حبستها شجره بزمامها فانطلقوا حتّى تأتوا بها فذهبوا فوجدوها كما أخبر رسول الله.

٣- (٣) لم يرد فى كتب التاريخ أنّ الروم قد انسحبوا، نعم، إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله اكتشف بأنَّ أمر الانسحاب شائعه كاذبه بثّها الروم على لسان تجار الميره إلى المدينة.

٤- (٤) المغازى للواقدي: ١٠١٩، وتاريخ دمشق لابن عساكر: ١١١/١-١١٣، وتاريخ الخميس: ١٢٩/٢.

النبي رساله أن يذعن أو يغزوه؛ فأقبل يوحنا وعلى صدره صليب من ذهب وقدم الهدايا وتقدم بالطاعة وصالح «محمدًا» وأعطاه الجزية، كما صالحه أهل جرباء وأذرح وأعطوه الجزية. وكتب رسول الله لهم كتب أمن، هذا نص أحدها وهو ما كتب ليوحنا:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذه أمنه من الله و «محمد» النبي رسول الله ليوحنا بن رؤبه وأهل أيله سُفُنْهُمْ وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمه الله و «محمد» النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حَدًّا فَانَّهُ لا يحول ماله دون نفسه، وإنه طيب ل «محمد» أخذه من الناس، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر.

وإيداناً بالموافقه على هذا العهد أهدى «محمد» إلى يوحنا رداءً من نسج اليمن وأحاطه بكل صنوف الرعايه، بعد أن اتفق على أن تدفع أيله جزية قدرها ثلاثمائة دينار في كل عام (١).

لم يبق «محمد» بحاجة إلى القتال بعد انسحاب الروم، وبعد معاهده البلاد الواقعة على الحدود معه، وبعد أمنه عوده الجيوش البنظيه من هذه الناحيه لولا خيفه انتقاض أكيدر بن عبد الملك الكندي النصراني أمير دومه ومعاونته جيوش الروم إذا جاءت من ناحيته. لذلك بعث إليه خالد بن الوليد في خمسمئه فارس وانقلب هو بجيشه راجعاً إلى المدينه. وأسرع خالد بالانقضاض على دومه في غفله من مليكها الذي خرج في ليله مقمره ومعه أخ له يسمى حسان يطاردان بقر الوحش. ولم يلق خالد مقاومه تُذكر حتى

ص: ٦٥٦

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٥٢٥/٢-٥٢٦، ودلائل النبوه: ٢٣٩/٥، والسيره النبويه لزينى دحلان: ١٣٢/٢.

أخذ حساناً وأخذ أكيدر أسيراً وهَدَّده بالقتل إن لم تفتح دومه أبوابها. وفتحت المدينة الأبواب فداءً لأميرها، وساق خالد منها ألفى بغير وثمنه شاه وأربعمئة وسق من بُرٍّ وأربعمئة درع، وذهب بها ومعه أكيدر حتى لحق بالنبى في عاصمته. هنالك عرض «محمّد» الإسلام على أكيدر فأسلم وأصبح له حليفاً(١).

لم يكن عود «محمّد» على رأس هذه الألوف من جيش العسره من حدود الشام إلى المدينة بالأمر الهين. فلم يدرك كثيرون من هؤلاء مغزى الاتفاق الذى عقد مع أمير أيله والبلاط المجاوره له، ولم يقيموا كبير وزن لما حقّقه «محمّد» بهذه الاتفاقات من تأمين حدود شبه الجزيره وإقامه هذه البلاد معاقل بينه وبين الروم، بل كان كلّ الذى نظروا إليه أنّهم قطعوا هذه الشّقه الطويله وتحملوا فى قطعها ما تحمّلوا من الأذى، وهاهم أولاء يعودون لم يغنموا ولم يأسروا، بل لم يقاتلوا، وكلّ الذى فعلوا أن أقاموا بتبوك قرابه عشرين يوماً(٢). فهل لهذا قطعوا الصحراء فى شده القيط؟ فى حين كانت ثمار المدينة قد طابت وآن أن يستمتع الناس بها! وجعل جماعه منهم يستهزئون بما فعل «محمّد»، فينقل من ملاء الإيمان قلوبهم نبأهم إليه، فيأخذ المستهزئين بالشّدّه حيناً وباللين حيناً، والجيش يسير قافلاً إلى المدينة و «محمّد» يحفظ النظام فى صفوفه؛ حتى إذا انتهى إليها لم يلبث ابن الوليد أن لحقه بها. لحقه بها ومعه أكيدر ومعه ما حمل من دومه من إبل وشاه وبر ودروع، وعلى اكيدر حلّه من ديباج موشى بالذهب بُهت أهل المدينة لمرآها.

ص: ٦٥٧

-
- ١- (١) المغازى للواقدي: ١٠٢٥/٢، والسيره النبويه لابن هشام: ٥٢٦/٢، والسيره الحلبيه: ٢٠٦/٣، وإعلام الورى بأعلام الهدى: ٢٤٤/١، وبحار الأنوار: ٢٤٦/٢١.
- ٢- (٢) الطبقات الكبرى: ١٦٨/٢، وإمتاع الأسماع: ٧٠/٢.

هنالك اضطرب الذين تخلفوا عن اتباعه اضطراباً ردّ المستهزئين إلى صوابهم. جاء المتخلفون يعتذرون وأكثرهم يشوب معاذيره الكذب.

وأعرض «محمّد» عمّا صنعوا تاركاً لله حسابهم. لكنّ ثلاثة صدقوا الله ورسوله فاعترفوا بتخلفهم واعترفوا بذنبهم. هؤلاء الثلاثة هم: كعب بن مالك، ومُرارَه بن الربيع، وهلال بن أمية. وهؤلاء الثلاثة أمر «محمّد» فأعرض المسلمون عنهم خمسين يوماً، ما يكلمهم أحد ولا- تصل بينهم وبين مسلم تجاره. ثمّ تاب الله على هؤلاء الثلاثة وعفا عنهم ونزل (١) فيهم قوله تعالى في سورة التوبة: لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ٢ .

من يومئذٍ بدأ «محمّد» يشتد في معاملة المنافقين شدّه لم يألفوا من قبل.

وذلك أنّ عدد المسلمين زاد زياده تجعل عبث المنافقين بهم خطراً يُخشى منه ويجب تلافيه وعلاجه. وهم إذا ازدادوا من بعد أضعاف زيادتهم اليوم - وذلك ما لم يقم بنفس «محمّد» ريب فيه، بعد أن وعده ربّه لينصرنّ دينه وليعلننّ كلمته - كان المنافقون خطراً عظيماً. ولقد كان له من قبل حين كان الإسلام محصوراً بالمدينه وما حولها أن يشرف بنفسه على ما يجرى بين المسلمين. أمّا وقد انتشر الدين في أنحاء بلاد العرب جميعاً، وهاهو ذا

ص: ٦٥٨

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٥٣١/٢-٥٣٧، والمغازي للواقدي: ١٠٤٩/٢-١٠٥٣، والسيره الحلبيه: ١٤٥/٣، ومجمع البيان: ١٣٧/٥، وبحار الأنوار: ٢١٩/٢١-٢٢٠.

يشارف الانتقال منها، فكلّ تهاون مع المنافقين شرّ تخشى مغبته، وخطراً ما أسرع ما يستشري إذا لم تُجتث جرثومته. بنى جماعه مسجداً بذي أوان - بينه وبين المدينة ساعه من نهار -، وإلى هذا المسجد كان يأوى جماعه من المنافقين يحاولون أن يحرفوا كلام الله عن مواضعه وأن يفرّقوا بذلك بين المؤمنين ضراراً وكفراً. وطلبت هذه الجماعه إلى النبي أن يفتح المسجد بالصلاه فيه، وكان طلبهم هذا قبل تبوك؛ فاستمهلهم حتى يعود. فلمّا عاد وعرف من أمر المسجد وحقيقه ما قصد إليه من إقامته أمر باحراقه (١)، فضرب بذلك مثلاً ارتعدت له فرائص المنافقين فخافوا وانكمشوا، ولم يبق لهم من يحميهم إلاّ عبد الله بن أبي شيخهم وقائدهم.

على أنّ عبد الله لم يعمر بعد تبوك غير شهرين، مرض إثرهما، وتوفى.

ولمّا كان ما بينه وبين النبي منذ نزل بالمدينه قد جعل «محمّداً» لا يناله إلاّ بالحسنى، فإنّه ما لبث أن دُعِيَ للصلاه عليه حتى صلّى وقام على قبره إلى أن دُفن وفرغ منه. وبوفاته انهار ركن المنافقين وآثر من بقى منهم أن يُخلص لله توبته (٢).

ص: ٦٥٩

١- (١) المغازى للواقدي: ١٠٤٥/٢-١٠٤٦، وتاريخ الخميس: ١٣٠/٢، والسيره الحلبيه: ١٤٤/٣، وتفسير القمى: ٣٠٥/١، وبحار الأنوار: ٢١/٢٥٥.

٢- (٢) إمتاع الأسماع: ٩٠/٢. هذه النتيجة التي توصل إليها المؤلف تخالف العقل والتاريخ حيث لم يذكر لنا التاريخ بأن حركه النفاق قد انتهت واختفت عن مسرح الحياه بعد موت ابن أبي زعيم النفاق، ولا تُشكّل وفاته كعامل سحرى يحوّل القلوب والمتبنيات الفكرية والنفسية بين عشيه وضحاها، أمّا القول بأنّ المنافقين قد تابوا فهذا ما لا يمكن قبوله أيضاً لأنه من السرائر والتي لم تثبت لنا بخير صادر عن الله أو رسوله وهذا ما لا يمكن للمؤلف أن يدّعيه. وبقاء شريحه المنافقين في المدينة يستدعي حضورهم الفاعل في الأحداث التي أعقبت وفاه الرسول الأعمم صلى الله عليه وآله بالرغم من احراق مسجدهم وموت أحد أركانهم. بينما غيب المؤلف دورهم في الأحداث بمجرد إعلان المؤلف أنّ من بقى منهم آثر أن يُخلص لله توبته.

بغزوه تبوك تمت كلمه ربك في شبه الجزيره كلها، وأمن «محمد» عاديه عليها، وأقبل سائر أهلها وفوداً عليه يقدمون الطاعه ويعلمون لله الإسلام، فكانت هذه الغزوه بذلك خاتمه غزوات النبي عليه السلام. وكذلك أقام «محمد» بالمدينه مغتبطاً ممّا أفاء الله عليه. وفي هذه الأثناء كان ابنه ابراهيم قره عينه له ستة عشر شهراً أو ثمانية عشر شهراً. فكان إذا فرغ من استقبال الوفود من القيام بأمر المسلمين ومن أداء حق الله ورسالته وحق أهله جميعاً لهم، اطمأنت نفسه برؤيه هذا الطفل الذي ظلّ يترعرع وينمو ويزداد شبّه ب «محمد» وضوحاً يزيد أباه له حباً وبه تعلقاً. وخلال هذه الأشهر جميعاً كانت حاضنته أم سيف ترضعه وتسقيه لبن الماعز التي أهداها النبي إليها.

ولم يكن تعلق «محمد» بإبراهيم لغايه في نفسه لها اتصال برسالته أو بمن يخلفه. فقد كان عليه السلام في إيمانه بالله وبرسالته لا يفكر في ولده ولا فيمن يرثه؛ بل كان يقول:

«نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقه»^(١). إنّما هي العاطفه الإنسانيه في أسمى معانيها؛ العاطفه الإنسانيه التي بلغت من السموّ في نفس «محمد» ما لم تبلغه في نفس أحد غيره، العاطفه الإنسانيه التي جعلت العربي يرى فيمن يخلفه من الذكران صورته من صور الخلود، هذه العاطفه هي التي جعلت «محمداً» يخلع على إبراهيم كلّ هذا الحبّ ويرمقه من العطف بما لا عطف بعده. ولقد زاد هذه العاطفه رقه وقوّه في نفسه أنّه فقد أولاده القاسم والطاهر والطيب في طفولتهم، وهم مايزالون في حجر أمهم خديجه، وأنّه فقد بناته بعد خديجه واحده بعد الأخرى بعد أن كبرن وصرن أزواجاً وأمّهات، فلم تبق له منهنّ غير فاطمه. هؤلاء الأبناء والبنات الذين تساقطوا من حوله فرقدوا بعينه تحت الثرى، تركوا في نفسه قرحة ألم اندملت بمولد إبراهيم

ص: ٦٦٠

١- (١) علّقنا على هذا الحديث مفصّلاً في الفصل (الحادى والعشرون) والصفحه (٥٥٦) الهامش (٣).

وأثمرت مكانها رجاءً وأملاً. وكان حلاً له أن يمتلئ بهذا الأمل غبطه واستبشاراً.

لكنّ هذا الأمل لم يكن ليطول إلّا تلك الأشهر التي ذكرنا. فقد مرض إبراهيم بعدها مرضاً خيف منه على حياته، فنقل إلى نخل بجوار مشربه أم إبراهيم، وقامت من حوله ماريه وأختها سيرين تمرّضانه. ولم يطل بالطفل المرض. فلمّا كان في الاحتضار وأُخبر النبيّ بأمره، أخذ بيد عبدالرحمن بن عوف يعتمد عليه لشده ألمه، حتّى أتيا إلى النخل بجوار العالیه التي تقوم المشربه اليوم مكانها، فوجد إبراهيم في حجر أمّه وجود بنفسه، فأخذه فوضعه في حجره وقلبه يرجف ويده تضطرب، وقد ملك الحزن عليه فؤاده وبدت صورته الألم على قسّات وجهه. وضعه في حجره، وقال:

«إنا يا إبراهيم لا نغنى عنك من الله شيئاً». ثمّ وجم وذرفت عيناه، والغلام وجود بنفسه وأمّه وأختها تصيحان فلا ينهما رسول الله. فلمّا استوى إبراهيم جثماً لا حراك به ولا حياه فيه وانطفأ بموته ذلك الأمل الذي تفتّحت له نفس النبيّ زمنّاً، زادت عينا «محمّد» تهتاناً وهو يقول:

«يا إبراهيم لولا أنّه أمر حقّ، ووعد صدق وأنّ آخرنا سيلحق بأولنا، لحزنّا عليك بأشدّ من هذا». وبعد أن وجم هنيهة، قال:

«تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلّما يرضى الربّ، وإنا يا إبراهيم عليك لمحزونون».

ورأى المسلمون ما ب «محمّد» من حزن، وحاول حكماؤهم أن يردّوه عن الامعان فيه، فذكّروه بما نهى عنه؛ فقال:

«ما عن الحزن نهيت وإنما نهيت عن رفع الصوت بالبكاء. وإنّ ما ترون بي أثر ما في القلب من محبه ورحمه. ومن لم يُبد الرحمة لم يبد غيره عليه الرّحمه». أو كما قال. ثمّ إنّه حاول كظم حزنه وتبريد لوعته ونظر إلى ماريه وإلى سيرين نظره عطف، وطلب إليهما أن تهوّنا عليهما، قائلاً: «إنّ له لمرضعاً في الجنة». ثمّ إنّ أمّ برده غسلته - أو غسله الفضل بن

عبّاس، فى روايه أُخرى - وحُمِل من بيتها على سرير صغير وشيَّعه النَّبِيُّ وعمه العباس وطائفه من المسلمين إلى البقيع، حيث دُفِن بعد أن صَلَّى النَّبِيُّ عليه. فلَمَّا تمَّ دُفْنُه أمر «محمَّد» بسدَّ القبر، ثُمَّ سَوَّى عليه بيده ورشَّ الماء وأعلم عليه بعلامه وقال:

«إِنَّهَا لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَكِنَّهَا تُقَرِّرُ عَيْنَ الْحَيِّ وَإِنِ الْعَبْدَ إِذَا عَمَلَ عَمَلًا أَحَبَّ اللَّهُ أَنْ يَتَّقَنَهُ» (١).

ووافق موت إبراهيم كسوف الشمس؛ فرأى المسلمون فى ذلك معجزه وقالوا: إِنَّهَا انكسفت لموته. وسمعهم النَّبِيُّ. أُتْرِى فَرْطُ حَبِّهِ لإبراهيم وشديد جزعه لموته قد جعله يتعزَّى بسماع مثل هذه الكلمه، أو يسكت على الأقل عنها أو يعذر الناس، إذ يراهم مأخوذين بما يحسبونَه المعجزه؟ كلاً! فمثل هذا الموقف إن لاق بالذين يستغلون فى الناس جهالتهم، أو لاق بالذين يخرجهم الحزن عن رشادهم، فهو لا يليق بالتنزيه الحكيم، فما بالك بالرسول

ص: ٦٦٢

١- (١) استغرب عبدالرحمن بن عوف من بكاء النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَلَى وَلَدِهِ إِبْرَاهِيمَ، فاعترض على رسول الله صلى الله عليه وآله، قائلاً: أولم تكن نهيت عن البكاء وأنت تبكى؟ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا إنما هذه الرحمه، ولا يرحم من لا يُرحم» بحار الأنوار: ١٥١/٢٢، أو قال: «لا ولكن نهيت عن خمس وجوه وشقَّ جيوب ورثه شيطان» السيره الحليه: ٣١٠/٢. وورد فى السنن وكتب الحديث، أنه صلى الله عليه وآله بكى على ولده إبراهيم كما أنه ندب إلى البكاء على عمه حمزه وبكى على قبر أمه وأبكى من حوله، كما أمر صلى الله عليه وآله بإرسال الطعام لأهل المصاب حين جاء نعى جعفر كما عيّن النَّبِيُّ أَيَّامَ الحِداد على الميِّت، لكنَّ الخليفه الثانى عمر بن الخطاب يروى أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله نهى عن البكاء وعائشه استدركت عليه حيث قالت: والله ما حدّث رسول الله إنَّ الله ليعذّب المؤمن ببكاء أهله عليه، وقالت: حسبكم القرآن «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى»، قال ابن عباس رضى الله عنه عند ذاك: والله هو أضحك وأبكى. صحيح البخارى: ١٥٥/١-١٥٦ وصحيح مسلم كتاب الجنائز ح ٢٢ ص ٦٤١. قال النووى فى شرح صحيح مسلم عن روايات النهى عن البكاء المرويّه عن رسول الله صلى الله عليه وآله: وهذه الروايات من روايه عمر بن الخطاب وابنه عبدالله (رضى الله عنهما) وأنكرت عائشه ذلك ونسبتها إلى النسيان والإشتباه وأنكرت أن يكون النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَالَ ذَلِكَ. شرح النووى بهامش صحيح مسلم: ٢٢٨/٦ كتاب الجنائز، باب الميِّت يعذّب ببكاء أهله عليه، المطبعه المصريه (١٣٤٩ هـ).

العظيم؟! لذلك نظر «محمد» إلى الذين ذكروا أنّ الشمس انكسفت لموت إبراهيم فخطبهم فقال:

«إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَاتَانِ مِنَ آيَاتِ اللَّهِ لَا تَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ. فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَافْزِعُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ بِالصَّلَاةِ» (١).
أَيُّهُ عَظَمَهُ أَكْبَرُ مِنَ الْإِنْسَانِ الرَّسُولِ رَسَالَتُهُ فِي أَشَدِّ الْمَوَاقِفِ الَّتِي تَمَلَأُ نَفْسَهُ بِالْفَجِيعَةِ وَالْهَوْلِ! لَقَدْ وَقَفَ مِنْ تَنَاوُلِ مِنَ الْمُسْتَشْرِقِينَ هَذَا الْحَدِيثِ ل «مَحْمَدٍ» مَوْقِفَ الْإِجْلَالِ وَالْإِعْظَامِ، وَلَمْ يَسْتَطِيعُوا كِتْمَ إِعْجَابِهِمْ وَإِكْبَارِهِ وَإِعْلَانِ عِرْفَانِهِمْ بِصَدَقِ رَجُلٍ لَا يَرْضَى فِي أَدَقِّ الْمَوَاقِفِ إِلَّا الصِّدْقَ وَالْحَقَّ.

تُرى ماذا كان شعور أزواج النبي بفجيئته في إبراهيم وحزنه الشديد عليه؟

أمّا هو فتعزّى بفضل الله وبمتابعه أداء رسالته وبازدياد الإسلام انتشاراً في هذه الوفود التي كانت ما تفتأ تتوارد إليه من كلّ صوب؛ حتّى لقد دعيت هذه السنه العاشره من الهجره سنه الوفود، وهى السنه التي حجّ أبوبكر فيها كذلك بالناس (٢).

ص: ٦٦٣

١- (١) السيره الحلييه: ٣٠٩/٣-٣١٠.

٢- (٢) الطبقات الكبرى: ١٦٨/٢، والسيره الحلييه: ٢١١/٣.

الفصل الثامن والعشرون: عام الوفود وحجّ أبي بكر بالناس

دخول العرب أفواجاً في دين الله، إسلام عروه بن مسعود الثقفي وقتل أهل الطائف له، أخذ القبائل المجاوره الطريق على ثقيف، وفدها إلى النبي وشروطه، إسلام الوفد وإسلام الطائف وهدم صنمها اللات، حجّ أبي بكر بالناس، لحاق عليّ بن أبي طالب به، سوره براءه أساس الدوله الإسلاميه المعنوي، الجهاد في الإسلام وتسويفه.

بغزوه تبوك تمت كلمه ربّيك في شبه جزيره العرب كلّها، وأمن «محمّد» من كلّ عاديه عليها. والحقّ أنّه لم يلبث أن عاد بعد هذه الغزوه إلى المدينه حتّى بدأ من كان مايزال على شركه من أهل شبه الجزيره يفكّر. ولئن كان المسلمون الذين صحبوا «محمّد» في مسيره إلى الشام، وكابدوا من صنوف المشاقّ واحتملوا من القيظ والظمأ أهوالاً، قد عادوا وفي نفوسهم شيء من السخط أن لم يُقاتلوا ولم يغنموا بسبب انسحاب الروم إلى داخل الشام ليتحصنوا بمعاقلهم فيها، فإنّ هذا الانسحاب قد ترك في نفس قبائل العرب المحتفظه بكيانها وبدينها أثراً عميقاً، وترك أثراً أعمق في نفس قبائل الجنوب باليمن وحضرموت وعمان. أليس الروم هؤلاء هم الذين غلبوا الفرس واستردّوا منهم الصليب وجاءوا به إلى بيت المقدس في حفل عظيم؟

وفارس كانت صاحبه السلطان على اليمن وعلى البلاد المجاوره لها أزماً طويلاً! فإذا كان المسلمون على مقربه من اليمن ومن غيرها من البلاد العربيه جميعاً، فما أجدد هذه البلاد، بأن تنضم كلها في تلك الوحده التي تستظل بعلم «محمد»، - علم إسلام - لتكون بمنجاة من تحكم الروم والفرس جميعاً؟ وماذا يضّر أمراء القبائل والبلاد أن يفعلوا وهم يرون «محمدًا» يُثبت من جاءه معلناً الإسلام والطاعه في إمارته وعلى قبيلته؟ فلتكن السنه العاشره للهجره إذاً سنه الوفود، وليدخل الناس في دين الله أفواجاً، وليكن لغزوه تبوك ولانسحاب الروم أمام المسلمين من الأثر أكثر ممّا كان لفتح مكّه، والانتصار في حنين، وحصار الطائف.

ومن حسن صنيع القدر أن كانت الطائف، التي قاومت النبيّ أثناء حصارها ما قاومت، حتّى انصرف المسلمون عنها دون اقتحامها، هي أوّل من أسرع إلى إعلان الطاعه بعد تبوك، وإن تردّدت طويلاً في إعلان هذه الطاعه.

فقد كان عروه بن مسعود أحد ساده ثقيف المقيمين بالطائف غائباً باليمن أثناء غزو النبيّ ببلاده بعد موقعه حنين. فلما عاد إلى موطنه ورأى النبيّ انتصر في تبوك وعاد المدينة، أسرع إليه يُعلن إسلامه وحرصه على دعوه قومه لاعتناق دين الله. ولم يكن عروه ليجهل «محمدًا» وعظم أمره، وقد كان أحد الذين تفاوضوا وإياه عن قريش في صلح الحديبيه. وعرف النبيّ بعد إسلام عروه اعتزاهم الذهاب إلى قومه يدعوهم إلى الدين الذي دخل فيه. وقد كان النبيّ يعرف من تعصّب ثقيف لصنمها اللات ومن نخوتها وشدّتها ما جعله يحذّر عروه ويقول له: إنهم قاتلوك. لكنّ عروه اعتزّ بمكانه من قومه، فقال:

يا رسول الله، أنا أحبّ إليهم من أبصارهم. وذهب عروه فدعا قومه إلى الإسلام، فتشاوروا فيما بينهم ولم يُبدوا له رأياً. فلما كان الصباح قام هو على

عليه ينادى إلى الصلاة. هنالك صدقت فراسه الرسول (١). فلم يُطق قومه صبراً، فأحاطوا به ورموه بالنبل من كل وجه فأصابه سهم قاتل. واضطرب من حول عروه أهله؛ فقال وهو يسلم الروح: «كرامه أكرمني الله بها، وشهادته ساقها الله إليّ، فليس في إلّاما في الشهداء الذي قُتلوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله قبل أن يرتحل عنكم». ثم طلب أن يُدفن مع هؤلاء الشهداء فدفنه أهله معهم (٢).

ولم يذهب دم عروه هدرًا؛ فقد كانت القبائل التي تحيط بالطائف قد أسلمت كلها، وقد رأت في هذا الذي صنعت ثقيف بسيد من ساداتها إثمًا ونكرًا. ورأت ثقيف من أثر ذلك أنهم صاروا لا يأمن لهم سرب، ولا يخرج منهم رجل إلّا اقتطع، وأيقنوا أنهم إن لم يجدوا سبيلاً إلى صلح أو هدنة مع المسلمين فمصيرهم لا ريب إلى الفناء. وأتمر القوم فيما بينهم وتحدثوا إلى كبير منهم (عبد ياليل) كي يذهب إلى النبيّ يعرض عليه صلح ثقيف معه.

وخشى عبد ياليل أن يُصيبه من قومه ما أصاب عروه بن مسعود، فلم يقبل أن يخرج إلى «محمّد» حتى أوفدوا معه خمسة آخرين، اطمأن إلى أنه إذا خرج معهم ثم عادوا شغل كل رجل منهم رهطه. ولقى المغيرة بن شعبه القوم حين دنوا من المدينة، فأسرع يريد أن يخبر النبيّ خبرهم، ولقيه أبوبكر يشتد في السير؛ فلما عرف منه ما جاء فيه طلب إليه أن يدع له هذه البشرية يزفها إلى رسول الله. ودخل أبوبكر فأخبر النبيّ بقدم وفد ثقيف عليه.

وكان هذا الوفد ما يزال يعتزّ بقومه، وما زال يذكر حصار النبيّ للطائف وانصرافه عنها. فبالرغم ممّا علمهم المغيرة كيف يحيون النبيّ بتحيّيه الإسلام

ص: ٦٦٧

١- (١) ولعلها لم تكن فراسه بقدر ما كانت خبره غيبه.

٢- (٢) السيرة النبويّة لابن هشام: ٥٣٧/٢-٥٣٨، وإمتاع الأسماع: ٨٤/٢، وعيون الأثر: ٢٨١/٢، وإعلام الوري بأعلام الهدى: ٢٤٩/١، وبحار الأنوار: ٣٦٤/٢١.

لم يرضوا حين قابلوه إلّا أن يحيوه بتحيه الجاهليه. ثمّ إنهم ضربت لهم قبه خاصه فى ناحيه من المسجد أقاموا بها يُصرون على الحذر من المسلمين وعدم الطمأنينه إليهم. وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذى يمشى بينهم وبين رسول الله فى مفاوضاتهم وإيائه، فكانوا لا يطعمون طعاماً يأتيهم من عند النبى حتى يأكل منه خالد. وقام هذا بالسفاره، فأبلغ «محمّداً» أنّهم - مع استعدادهم للإسلام - يطلبون إليه أن يدع صنمهم اللات ثلاث سنين لا يهدمها وأن يُعفيهم من الصلاه. وأبى «محمّداً» عليهم ما طلبوا من ذلك أشدّ إباء. ومع أنّهم نزلوا يطلبون أن يدع اللات سنتين ثمّ أن يدعها سنه ثمّ أن يدعها شهراً واحداً بعد انصرافهم إلى قومهم، فقد كان إباؤه فى ذلك حاسماً لا تردّد فيه ولا هواده. وكيف تريد نبى يدعو إلى دين الله الواحد القهار ويهدم الأصنام فلا يذر منها باقيه، أن يتهاون فى أمر صنم منها وإن كان لقومه من المنعه ما كان لثقيف بالطائف. فالإنسان إمّا أن يؤمن وإمّا ألماؤمن، وليس بين الطرفين إلّا الارتياب والشكّ. والشكّ والإيمان لا يجتمعان فى قلب، كما لا يجتمع الإيمان والكفر. وبقاء اللات طاغيه ثقيف علماً على أنّهم ما يزالون يداولون عبادتهم بينها وبين الله جلّ شأنه إشراك بالله، والله لا يغفر أن يُشرك به.

وطلبت ثقيف إعفاءها من الصلاه؛ فرفض «محمّد» قائلاً: إنّه لا - خير فى دين لا - صلاه فيه. ونزل الثقيفون عن بقاء اللات وقبلوا الإسلام وإقامه الصلاه.

لكنّهم طلبوا ألا - يكسروا أوثانهم بأيديهم. إنّهم حديثوا عهد بإيمان وقومهم ما يزالون فى انتظارهم ليروا ما صنعوا، فليجنّبهم «محمّد» تحطيم ما كانوا يعبدون و ما كان يعبد آباؤهم. ولم ير «محمّد» أن يشتد فى هذه أيضاً. فسيان أن يكسر الثقيفون الصنم وأن يكسره غيرهم؛ فهو سيهدم وستقوم فى ثقيف عباده الله وحده. قال عليه السلام:

«أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه» وكتب لهم

رسول الله ثم أمر عليهم عثمان بن أبي العاص، وكان من أحدثهم سنًا. أمره عليهم رغم حداثة سنّه؛ لأنه كان أحرصهم على الفقه في الإسلام وتعلّم القرآن، بشهاده أبي بكر والسابقين إلى الإسلام. وأقام القوم مع «محمد» ما بقى من رمضان وصاموا وإياه وهو يبعث لهم بفظورهم وسحورهم. فلما آن لهم أن ينصرفوا إلى قومهم أوصى «محمد» عثمان بن أبي العاص، قائلاً:

تجاوز في الصّلاه واقدر الناس بأضعفهم؛ فإنّ فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجه.

عاد القوم إلى بلادهم، فوجه النبيّ معهم أبا سفيان بن حرب والمغيّره ابن شعبه، كانت لهما وثقيف موّده وحرمة، ليقوما بهدم اللّات. وقدم أبا سفيان والمغيّره لهدم الصنم، فهدمه المغيّره ونساء ثقيف حُسراً يبيكين، ولا يجرؤ أحد أن يقترب منه بعد الذي كان من اتفاق وفد ثقيف والنبيّ على هدمه. وأخذ المغيّره مال اللّات وحليها فقضى منه بأمر الرّسول وبالاتفاق مع أبي سفيان، ديناً كان على عروه والأسود (١). وبهدم اللّات وبإسلام الطائف كانت الحجاز كلّها قد أسلمت، وكانت سطوه «محمد» قد امتدت من بلاد الروم في الشمال إلى بلاد اليمن وحضرموت في الجنوب. وكانت هذه البلاد الباقية في جنوب شبه الجزيرة تتهيأ كلّها لتنضم إلى الدين الجديد، ولتقف على الدفاع عنه وعن وطنها كلّ قوتها. وكانت وفودها تسير لذلك من جهات مختلفه قاصده كلّها إلى المدينه لتعلن الطاعه ولتدين بالإسلام (٢).

بينما كانت الوفود تترى إلى المدينه كانت الأشهر الحرم يتلو أحدها الآخر حتّى اقترب موعد الحجّ. ولم يكن النبيّ عليه السلام قد أدّى الفريضة إلى يومئذٍ

ص: ٦٦٩

-
- ١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٥٣٨/٢-٥٤٢، وإمتاع الأسماع: ٨٤/٢-٨٨، وعيون الأثر: ٢٨١/٢-٢٨٣، وإعلام الورى بأعلام الهدى: ٢٤٩/١، وبحار الأنوار: ٣٦٤/٢١.
 - ٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٥٥٩/٢-٥٦٠.

على تمامها كما يؤدّيها المسلمون اليوم. أفتراه يخرج في عامه هذا شكراً لله على ما نصره على الروم، وما أدخل الطائف في حظيره الإسلام، وما جعل الوفود تجيء إليه من كل فج عميق؟ إن شبه الجزيره ما يزال بها من لم يؤمن بالله ورسوله. ما يزال بها الكفار وما يزال بها اليهود والنصارى. والكفار على عهدهم في الجاهليه ما يزالون يحجّون إلى الكعبه في الأشهر الحرام، والكفار نجس، فليبق إذاً بالمدينه حتى يتمّ الله كلمته، وحتى يأذن الله له بالحجّ إلى بيته. وليخرج أبوبكر في الناس حاجاً.

وخرج أبوبكر في ثلاثمئه مسلم قاصداً إلى مكّه، لكنّ العام قد يتلو العام والمشركون ما يزالون يحجّون بيت الله الحرام، أليس بينه وبين الناس عهد عام أليُصدّ عن البيت أحد جاءه، ولا يخاف أحد في الشهر الحرام؟! أليست بين «محمّد» وبين قبائل من العرب عهود إلى آجال مسماه، فمادامت هذه العهود فسيظلّ بيت الله يحجّ إليه من يشرك بالله ومن يعبد غير الله، وسيظلّ المسلمون يرون طقوس الجاهليه تؤدّى بأعينهم حول الكعبه، وهم بحكم هذه العهود الخاصه وهذا العهد العام لا قبل لهم بصد أحد عن حجّه وعبادته. ولئن كانت الأوثان التي يعبد العرب قد حُطّم الكثير منها وحطم منها كلّ ما كان في الكعبه أو حولها، فإنّ هذا الاجتماع في بيت الله المقدّس اجتماعاً يضمّ الثائرين على الشرك وعلى الوثنيه والمقيمين على هذا الشرك وهذه الوثنيه، تناقض غير مفهوم. ولئن استطاع أحد أن يفهم حجّ اليهود والنصارى جميعاً إلى بيت المقدس، على أنّه أرض الميعاد لليهود ومولد المسيح للنصارى، فلن يستطيع أحد أن يفهم اجتماع عبادتين: حول بيت تُحطّم فيه الأصنام، وتُعبّد فيه الأصنام التي حُطّمت. لذلك كان طبيعياً أن يُحال بين المشركين وبين الاقتراب

خريطه المدينه المنوره

ص: ٦٧٢

من البيت الذى طُهر من الشرك ومُسِّحت عنه كلُّ معالم الوثنيه. وفى هذا نزلت الآيات من سوره براءه. لكنَّ موسم الحجِّ بدأ والمشركون قد أتى منهم من أتى من كلِّ فجٍّ يقضى مناسك حجّه. فليكن هذا الاجتماع أوان تبليغهم أمر الله بنقض كلِّ عهد بين الشرك والإيمان إلّا من عهد عُقد لأجل؛ فإنّه يبقى إلى أجله.

ولهذه الغايه أوفد النبيّ عليّ بن أبى طالب كى يلحق بأبى بكر، وكى يخطب الناس حين الحجِّ يوم عرفه بما أمر الله ورسوله. وحضر عليّ فى أثر أبى بكر والمسلمين الذين برزوا إلى الحجِّ معه كى يؤدّى رسالته. فلمّا رآه أبوبكر قال له: أمير أم مأمور؟ قال عليّ: بل مأمور. وأخبره بما جاء فيه، أنّ النبيّ إنّما بعثه لينادى فى الناس لأنّه من أهل بيته(1). فلمّا اجتمع الناس بمنى

ص: ٦٧٣

١- (١) ما هو مقصود المؤلف من أنّ النبيّ صلى الله عليه و آله بعث عليّاً لأنّه من أهل بيته؟ ولماذا لم يذكر قصه البراءه كما تذكرها أشهر الكتب التاريخيه والسيره والتفسير والحديث؟ هذا ما يثير الاستغراب! وعليه فنجد أنفسنا مضطرين إلى نقل القصه كما تذكرها كتب التاريخ، لا كما ينقلها المؤلف، ونوضّح الدلاله فيها رغم عدم رغبه المؤلف بإيضاح تلك الحقائق. عن عليّ بن أبى طالب عليه السلام، أنّ النبيّ صلى الله عليه و آله دعا أبابكر رضى الله عنه يقرأها على أهل مكّه، ثمّ دعانى فقال لى: أدرك أبابكر فحيثما لقيته فخذ الكتاب منه. ورجع أبوبكر رضى الله عنه، فقال: يا رسول الله نزل فىّ شىء؟ قال: لا ولكنّ جبرئيل جاءنى فقال: لا يؤدّى عنك إلّا أنت أو رجل منك؛ وعليّ منى ولا يؤدى عنى إلّا عليّ. مسند أحمد: ٣/١، ٣٣١ و ٢١٢/٣، ٢٨٣ و ١٦٥/٤، وسنن الترمذى: ٥ / ح ٣٧١٩، وسنن النسائى كتاب الخصائص: ٥ / ح ٨٦٤١، وجامع الأصول: ٩ / ح ٦٤٩٦، ومجمع الزوائد: ١١٩/٩، وتاريخ يعقوبى: ٧٦/٢، والبدايه والنهايه: ٣٩٤/٧. وفى هذه الروايه عدّه دلالات: ١- إنّ بعث النبيّ صلى الله عليه و آله عليّاً وعزله أبا بكر إنّما كان بأمر ربّه بنزول جبرئيل: «إنّه لا يؤدى عنك إلّا أنت أو رجل منك» فليس بصحيح أنّ النبيّ إنّما بعثه لينادى فى الناس لأنّه من أهل بيته، وإلّا لماذا أرسل أبابكر أول الأمر فما هكذا يا هيكل تساق الإبل!-

يؤدون مناسك الحج وقف علي بن أبي طالب وإلى جانبه أبوهريره، فنادى علي في الناس يتلو قوله تعالى:

بِرَاءةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسَيَحُورُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ * وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوا شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا

ص: ٦٧٤

الزَّكَاهَ فَخَلَوْا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ * كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا
لَكُمْ فَاسِيءَ تَقْوِيمًا لَهُمْ إِنْ اللَّهُ يُحِبَّ الْمُتَّقِينَ * كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا- وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى
قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ * اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا
ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ * فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاهَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفِصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَإِنْ
نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ * أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا
أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ يَدْعُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَنْ تَخْشَوْهُمْ فَاَللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ
بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَ
اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ
هُمُ خَالِدُونَ * إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاهَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ
يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ * أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا
يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً
عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ
أَجْرٌ عَظِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاُولَئِكَ
هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ

وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى
يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ * لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغِنِ
عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا
لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ
إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ * وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ
ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ رُهْبَانًا مِنْ دُونِ
اللَّهِ وَالْمَسِيحِ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيُعْبَدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ
وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنِيمَ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ
الْمُشْرِكُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَابِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصِيدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ
يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَ
جُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ
خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً
وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ

وقف عليّ في الناس وهم يؤدّون مناسك الحجّ بمنى فتلا عليهم هذه الآيات من سورة التوبة نقلناها هنا كامله لغرض سببينه. فلمّا أتم تلاوتها وقف هنيهة، ثمّ صاح بالنّاس:

أيّها النّاس إنّه لا يدخل الجنّة كافر، ولا يحجّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومَن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وآله عهد فهو إلى مدّته. صاح عليّ في الناس بهذه الأوامر الأربعة، ثمّ أجّل الناس أربعه أشهر بعد ذلك اليوم ليرجع كلّ قوم إلى مآمنهم وبلادهم. ومن يومئذٍ لم يحجّ مشرك، ولم يطف بالبيت عريان(١). ومن يومئذٍ وُضع الأساس الذي تقوم عليه الدولة الإسلاميّة.

هذا الأساس هو الذي جعلنا نسجل هنا صدر سورة التوبة كلّها، ودعا الحرص على أن يدرك العرب جميعاً هذا الأساس عليّ بن أبي طالب إلى ألبا يكتفى بقراءة هذه الآيات من براءة يوم الحجّ على ما اتفقت عليه الرواية، بل جعله يقرؤها على الناس من بعد ذلك في منازلهم، على ما جاءت به روايات كثيرة(٢). وإنّك إذ تتلو صدر براءة هذا وتعيد تلاوته يامعان ورويه لتشعر حقاً بأنّها الأساس المعنويّ في أقوى صورته لكلّ دوله ناشئه تقوم. ونزول «براءة» كلّها بعد آخر غزوه من غزوات النبيّ، وبعد أن جاء أهل الطائف يعلنون انضمامهم للدين الجديد، وبعد أن أصبح الحجاز كلّه ومعه تهامه ونجد منضويّاً تحت رايه الإسلام، وبعد أن أعلن كثير من قبائل الجنوب في شبه الجزيرة

ص: ٦٧٧

١- (٢) السيره النبويّه لابن هشام: ٥٤٣/٢-٥٤٥، والمغازي للواقدي: ١٠٧٦/٢-١٠٧٨، والطبقات الكبرى: ١٦٨/٢-١٦٩، وتاريخ الخميس: ١٣١/٢، واليعقوبي: ٧٦/٢، والكامل في التاريخ لابن الأثير: ١٩٩/٢، ومنقب آل أبي طالب: ٣٩١/١، وتفسير مجمع البيان: ٩/٥، وبحار الأنوار: ٢٦٤/٢١-٢٦٦ و ٢٧٣-٢٧٥.

٢- (٣) تفسير الطبري: ٣٠٤/٦.

الاذعان ل «محمّد» والانضواء لدينه، يجلو الحكمه التاريخيه فى نزول الآيات التى تنتظم أساس الدوله المعنوى فى هذا الظرف. فالدوله لتكون قويه يجب أن تكون لها عقيدته معنويه عامه يؤمن بها أهلها ويدافعون جميعاً عنها بكل ما أوتوا من عتاد وقوه. وأيه عقيدته أعظم من الإيمان بالله وحده لا شريك له. وأيه عقيدته أكبر سلطاناً على النفس من أن يحس الإنسان نفسه تتصل بالوجود فى أسمى مظاهره، لا سلطان عليه لغير الله ولا رقيب غير الله على ضميره. فإذا وجد الذين يقومون فى وجه هذه العقيدته العامه التى يجب أن تكون أساس الدوله، فأولئك هم الفاسقون، وأولئك هم نواه الثوره الأهليه والفتنه الماحقه. وأولئك يجب لذلك ألا يكون لهم عهد، ويجب أن تقاتلهم الدوله. فإن كانوا ثائرين على العقيدته العامه ثوره جامحه وجب قتالهم حتى يُذعنوا. وإن كانت ثورتهم على العقيدته العامه غير جامحه، كما هو الشأن فى أهل الكتاب، فيجب أن يدفعوا الجزيه عن يد وهم صاغرون.

النظر إلى المسأله من الجهه التاريخيه والجهه الاجتماعيه يهدينا إلى هذا التقدير لمغزى الآيات التى تلا القارئ هاهنا من سوره التوبه. وهو يهدى إلى هذا التقدير كل منصف نزيه القصد. لكن الذين أسرفوا فى أحكامهم على الإسلام وعلى رسوله يذرون هذا النظر جانباً ويعرضون لهذه الآيات القويه غايه القوه من سوره التوبه على أنها دعوه إلى التعصب لا- تتفق مع ما ترصاه الحضاره الفاضله من تسامح، دعوه إلى قتال المشركين وقتلهم حيث تُقفهم المؤمنون فى غير رفق ولا هواده، دعوه إلى إقامه الحكم على أساس البطش والجبروت. هذا كلام تقرأه فى كثير من كتب المستشرقين. وهو كلام تهوى اليه الأذهان التى لم تنضج عندها ملكه النقد الاجتماعى والتاريخى حتى من

أبناء المسلمين. وهو كلام لا يتفق مع الحقيقه التاريخيه ولا يتفق مع الحقيقه الاجتماعيه فى شىء. وهو لذلك يؤدى بأصحابه عند تفسيرهم ما أوردنا من سوره التوبه وما جاء من مُشابهه فى مواضع كثيره من القرآن تفسيراً يأباه منطق الحوادث فى سيره الرسول تمام الإباء، وتأباه حياه النبى العظيم فى تسلسلها من يوم بعث ربّه إياه وقيامه بالدعوه إلى دين الحق، إلى يوم اصطفاه الله اليه.

ويجئيل بنا لبيان ذلك أن نسأل عن الأساس المعنوى للحضاره الحاكمه اليوم، ثم نقيس به هذا الأساس المعنوى الذى دعا «محمّد» إليه. فالأساس المعنوى للحضاره الحاكمه اليوم هو حريه الرأى حريّه لا حدّ لها، ولا حدّ للتعبير عنها إلّا بالقانون. وحريه الرأى هذه هى لذلك إذاً عقيدته يدافع الناس عنها ويضخّون فى سبيلها ويجاهدون لتحقيقها ويحاربون من أجلها، ويعتبرون ذلك كله آيه من آيات المجد التى يُفاخرون بها الأجيال ويتباهون بها على ما سبقهم من العصور. ومن أجل ذلك يقول المستشرقون الذين أشرنا إليهم: إنّ دعوه الإسلام لمقاتله من لا يؤمن بالله واليوم الآخر دعوه إلى التعصّب تتنافى مع هذه الحريه. وهذه مغالطه مفضوحه إذا عرفت أنّ قيمه الرأى الدعوه له والعمل به. والإسلام لم يدعُ لمناوأه المشركين من أهل الجزيره إذا هم أذعنوا ولم يدعوا إلى شركهم ولم يعملوا به وقيموا طقوسه.

والحضاره الحاكمه اليوم تحارب الآراء التى تُناقض مواضع العقيدته منها بأشدّ ممّا كان يحارب المسلمون المشركين، وتفرض على من يعتبر كتابياً بالنسبه لهذه الحضاره الحاكمه ما هو شرّ من الجزيه ألف مرّه.

ولسنا نضرب المثل لذلك بما كان حين محاربه تجاره الرقيق - وإن آمن الذين كانوا يقومون بهذه التجاره - بأنّها لا حرمه فيها. لا نضرب هذا المثل

حتى لا يقال إننا لا نستنكر هذه التجارة، وإن كان الإسلام لم يدع إلى أكثر من محاربه ما يستنكر. لكن - أوروبا اليوم، أوروبا صاحبه الحضاره الحاكمه تؤيدها أمريكا و تعززها قوات الجنوب فى آسيا و الشرق الأقصى منها، قد حاربت البلشفيه و هى مستعدده لمحاربتها أشد الحرب. و نحن فى مصر مستعدون للاشتراك مع الحضاره الحاكمه لمحاربه البلشفيه. و البلشفيه ليست مع ذلك إلا رأيا فى الاقتصاد يحارب الرأى الذى تدين به الحضاره الحاكمه اليوم. أفتكون دعوه الإسلام لمحاربه المشركين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه دعوه و حشيه إلى التعصب و ضد الحريه، و تكون الدعوه إلى محاربه البلشفيه الهادمه للنظام الاجتماعى فى الحضاره الحاكمه، دعوه إلى الحريه فى العقيده و الرأى و إلى احترامها!

ثم - إن - قوما رأوا فى غير بلد من بلاد أوروبا أن - التهذيب النفسى يجب أن يتصل به التهذيب الجسمى، و أن - ما تواضع الناس عليه من ستر الجسم كله أو بعض أعضائه أشد إثاره للمعانى الجنسيه فى النفس و أشد لذلك إفسادا للخلق من أن يسير الناس و كلهم عريان. و بدأ أصحاب هذا الرأى ينقذونه و أقاموا محلات العرى فى غير مدينه من المدن، و أقاموا أماكن يغشاها من شاء للتدرب على هذا التهذيب الجسمى. لكن - هذا الرأى لم يلبث أن بدأ ينتشر حتى رأى القائمون بالأمر فى كثير من البلاد أن - فى انتشار مظاهره إفسادا للتهذيب الخلقى يضرّ بالجماعه، فحرّموا «محلات العرى» و حاربوا القائمين بالرأى، و نهوا بالقانون عن إنشاء أماكن هذا التهذيب الجسمى. و ما نشك فى أن - هذا الرأى لو أنه انتشر فى أمه بأسرها لكان سببا لا إعلان الحرب عليها من أمم أخرى على أنها مفسده للحياه المعنويه فى الإنسان، كما أثرت حروب بسبب الرقيق، و كما تثار حروب أو ما يشبهها بسبب تجاره الرقيق الأبيض

وبسبب الاتجار بالمخدرات. لما ذا ذلك كله؟ لأن حرية الرأي على إطلاقها يمكن أن تحتل ما بقيت حبيسه في حدود القول الذى لا يتصل منه بالجماعه ضرر أو أذى. فإذا أوشك هذا الرأي أن يثير فى الجماعه الإنسانيه الفساد فقد وجبت محاربه هذه الثائرات و وجبت محاربه مظاهر الرأى جميعا، بل وجبت محاربه الرأى نفسه، و إن اختلفت مظاهر هذه الحرب بمقدار ما يترتب على هذه المظاهر من فساد فى الجماعه يخشى منه على قوامها الخلقى أو الاجتماعى أو الاقتصادى.

هذه هى الحقيقه الاجتماعيه المعترف بها و المقرره لدى الحضاره الحاكمه اليوم. و لو أردنا أن نستقصى مظاهر ذلك و آثاره فى مختلف الشعوب لطال بنا البحث، و ليس هاهنا موضعه. على أنك تستطيع أن تقول إن كل تشريع يراد به قمع أيه حركه اجتماعيه أو اقتصاديه أو سياسيه إنما هو حرب للرأى الذى تصدر عنه هذه الحركه. و هذه الحرب تجد ما يسوغها فى مبلغ ما يصيب الجماعه الإنسانيه من ضرر إذا نفذت الآراء التى تشب الحرب عليها.

فإذا أردنا أن نقدّر دعوه الإسلام إلى مقاتله الشرك، و أهله و حربهم حتى يذعنوا، و هل هذه الحرب مسوغه أو غير مسوغه، فيجب أن ننظر فيما تمثله فكره الشرك هذه و ما تدعو إليه. فإن اتفقت الكلمه على فادح ضررها بالجماعه الإنسانيه فى مختلف عصورها كان إعلان الإسلام الحرب عليها له ما يسوغه، بل له ما يوجب.

و الشرك الذى كان موجودا حين قيام «محمد» عليه السلام بالدعوه إلى دين الله الحق لم يكن يمثل عباده الأصنام و كفى. و لو أنه كان كذلك لوجبت محاربه؛ فمن الازدراء للعقل الإنسانى و للكرامه الإنسانيه أن يعبد الإنسان حجرا. لكن هذا الشرك كان يمثل مجموعه من التقاليد و العقائد و العادات، بل

كان يمثل نظاما اجتماعيا هو شرّ من الرقّ و شرّ من البلشفيه و شرّ من كلّ ما يتصور العقل في هذا القرن العشرين. كان يمثّل و أد البنات و تعدد الزوجات إلى غير حد، حتّى ليحل للرجل أن يتزوَّج ثلاثين و أربعين و مئه و ثلاثمئه امرأه و أكثر من ذلك، و كان يمثّل الربا في أفحش ما يستطيع الإنسان أن يتصوّر الربا، و كان يمثّل الإباحيه الخلقية في أسفل صورها، و كانت جماعه الوثنيين العرب شرّ جماعه أخرجت للناس. نوّد أن يجيب كلّ منصف على هذا السؤال: لو أن جماعه من الناس وضعت لنفسها اليوم نظاما فيه من الطقوس و العادات و أد البنات، و تعدّد الزوجات، و إباحه الرقّ لسبب أو لغير سبب، و استغلال الأموال استغلالا فاحشا، ثم قامت ثوره على ذلك كلّه تحاول تحطيمه و القضاء عليه، أفتتهم هذه الثوره بالتعصب و بالعمل ضد حريه الرأى! و إذا افترضنا أن أمّه اطمأنت إلى هذا النظام الاجتماعى المنحط و أوشكت أن تنتقل منها العدوى إلى غيرها من الدول، فأعلنت عليها هذه الدول حربا، أفتكون هذه الحرب مسوّغه أم غير مسوّغه؟! و هل تكون مسوّغه أكثر من الحرب الكبرى الأخيره التى أطاحت بملايين أهل هذا العالم لغير سبب إلّا للشره الجشع من جانب دول الاستعمار! و إذا كان ذلك شأنها فما عسى أن تكون قيمه نقد المستشرقين للآيات التى تلا القارئ من سوره براءه، ولدعوه الإسلام إلى حرب الشرك و أهله ممّن يدعون إلى إقامه نظام فيه ما ذكرنا، و شرّ ممّا ذكرنا!

و إذا كانت هذه هى الحقيقه التاريخيه فى شأن هذا النظام الذى كان قائما فى بلاد العرب يظّله علم الشرك و الوثنيه، فهناك أيضا حقيقه تاريخيه أخرى مستمده من حياه الرّسول. فهو قد أنفق منذ بعثه الله برسالته ثلاث عشره

سنه (١) متتابعه يدعو الناس فيها إلى دين الله بالحجّه و يجادلهم بالتى هى أحسن، و هو فيما قام به من غزوات لم يكن معتديا قط، و إنّما كان مدافعا عن المسلمين دائما؛ مدافعا عن حرّيتهم فى الدعوه إلى دينهم الذى يؤمنون به و يضحون بحياتهم فى سبيله. و هذه الدعوه القويّه غايه القوه إلى قتال المشركين على أنّهم نجس، و أنّهم لا عهد لهم و لا ميثاق، و أنّهم لا يراعون فى مؤمن إلّا و لا ذمّه، إنّما نزلت بعد آخر غزوه غزا النبيّ: غزوه تبوك. فإذا حلّ الإسلام ببلاد تفسى فيها الشرك و حاول أن يقيم فيها هذا النظام الاجتماعى و الاقتصادى الهدّام الذى كان قائما فى شبه الجزيره حين بعث النبيّ، فدعا المسلمون أهلها إلى ترك هذا النظام و إلى الأخذ بما أحلّ الله و تحريم ما حرّم فلم يذعنوا، فليس من منصف إلّا يقول بالثوره عليهم و بقتالهم حتّى تتمّ كلمه الحقّ، و حتّى يكون الدين كلّّه لله.

و لقد أثمر هذا الذى تلا على - من براءه و ما نادى فى الناس بألّا يدخل الجنّه كافر، و بألّا يحجّ بعد العام مشرك، و بألّا يطوف بالبيت عريان - خير الثمرات، حتّى أزال كلّ تردّد من نفوس القبائل التى كانت ما تزال متباطئه فى تلبيه دعوه الإسلام.

و بذلك دخلت فى الإسلام بلاد اليمن و مهرة و البحرين و اليمامة، و لم يبق من يناوى «محمّدا» إلّا عددا قليلا أخذتهم العزّه بالإثم و غرّهم بالله الغرور. من هؤلاء عامر بن الطفيل الذى ذهب مع و فد بنى عامر ليستظلّوا برأيه الإسلام. فلما كانوا عند النبيّ امتنع عامر و لم يسلم، و أراد أن يكون للنبيّ ندا. و أراد النبيّ أن يقنعه كيما يسلم، فأصرّ على إباءه فخرج و هو يقول: أما و الله لأملأنّها عليك خيلا و رجالا. قال «محمّد»:

اللهمّ اكفنى عامر بن الطفيل! و انصرف

ص: ٦٨٣

عامر يريد قومه. وإنه لفي بعض الطريق إذ أصابه الطاعون في عنقه وقضى عليه وهو في بيت امرأه من بني سلول. قضى عليه وهو يردد: يا بني عامر! أغدّه كغدّه البعير وموته في بيت سلوليه! أمّا أربد بن قيس فقد أبى أن يسلم وعاد إلى بني عامر، ولم يطل به المقام، بل أحرقتة صاعقه حين خرج على جمل له يبيعه. ولم يمنع إباء عامر وأربد قومهم من أن يسلموا(١). ومن هؤلاء بل هو شرّ منهم مكانا مسيلمه بن حبيب؛ فقد جاء في وفد بني حنيفه من أهل اليمامة، وخلفه القوم على رحالهم وذهبوا إلى رسول الله فأسلموا وأعطاهم النبي، فذكروا له مسيلمه، فأمر له بمثل ما أمر للقوم، وقال: أما إنه ليس بشركم مكانا، وذلك لحفظه رحال أصحابه. فلما سمع مسيلمه قولهم ادّعى النبوة، وزعم أن الله أشركه مع «محمد» في رسالته، وجعل يسجع لقومه ويقول لهم فيما يقول مضاهاه للقرآن: «لقد أنعم الله على الحبلي، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق وحشا». وأحل مسيلمه الخمر والزنا ووضع عن قومه الصلاة، وانطلق يدعو الناس إلى تصديقه(٢). فأما من عدا هؤلاء من العرب فأقبلوا يدخلون في دين الله أفواجا من أطراف شبه الجزيرة وعلى رأسهم رجال من أعزّ الرجال من أمثال عدى بن حاتم وعمرو بن معدى كرب. وبعث ملوك حمير رسولا بكتاب منهم إلى النبي يعلنون فيه إسلامهم. فأقرّ لهم إسلامهم وكتب إليهم بما لهم وما عليهم في شرع الله. فلما انتشر الإسلام في جنوب شبه الجزيرة، بعث «محمد» من السابقين إلى الإسلام من يفقههم في دينهم ويثبتهم فيه.

ص: ٦٨٤

-
- ١- (١) السيره النبويه لا- بن هشام: ٥٦٨/٢-٥٦٩، والكامل في التاريخ: ٢/٢٠٤، و السيره الحلبيه: ٣/٢١٨-٢٢٠، وإعلام الوري بأعلام الهدى: ١/٢٥٠، و بحار الأنوار: ٢١/٣٦٥.
- ٢- (٢) السيره النبويه لا- بن هشام: ٥٧٦/٢-٥٧٧، و السيره الحلبيه: ٣/٢٢٣-٢٢٤، و الكامل في التاريخ: ٢/٢٠٤-٢٠٥، و بحار الأنوار: ٢١/٣٧١.

لم نطل الوقوف عند وفود العرب إلى النبيّ كما فعل بعض الأقدمين من كتاب السير، لتشابه أمرهم في الانضواء تحت رآيه الإسلام. ولقد أفرد ابن سعد في طبقاته الكبرى لوفادات العرب على الرسول خمسين صفحه كبيره نكتفى بأن نذكر منها أسماء القبائل و البطون التي أوفدتها.

فقد جاء وفود من: مزينه، و أسد، و تميم، و عبس، و فزاره، و مرّه، و ثعلبه، و محارب، و سعد بن بكر، و كلاب، و رؤاس بن كلاب، و عقيل بن كعب، و جعده، و قشير بن كعب، و بنى البكاء، و كنانه، و أشجع، و باهله، و سليم، و هلال بن عامر، و عامر بن صعصعه، و ثقيف. و جاءت وفود ربيعه من:

عبدالقيس، و بكر بن وائل، و تغلب، و حنيفه، و شيبان. و جاء من اليمن وفد من طيّ، و تجيب، و خولان، و جعفي، و صداء، و مراد، و زبيد، و كنده، و الصّدف، و خشين و سعد هذيم، و بلي، و بهراء، و عذره، و سلامان، و جهينه، و كلب، و جرم، و الأزد، و غسان، و الحارث بن كعب، و همدان، و سعد العشيره، و عنس، و الدارين، و الرهاويين حتى من مذحج، و غامد، و النخع، و بجيله، و خثعم، و الأشعرين، و حضرموت، و أزد عمان، و غافق، و بارق، و دوس، و ثماله، و الحدان، و أسلم، و جذام، و مهره، و حمير، و نجران، و جيشان. و كذلك لم يبق في شبه الجزيره بطن أو قبيله حتى أسلم إلامن قدامنا(1).

كان ذلك شأن المشركين من أهل شبه الجزيره. سارعوا إلى اعتناق الإسلام و تركوا عباده الأوثان، و تطهّرت بلاد العرب جميعا من الأصنام و عبادتها. و تمّ ذلك بعد تبوك طواعيه و اختيارا، من غير أن تزهق نفس أو يهرق دم. فما ذا صنع اليهود و النصارى مع «محمّد»، و ما ذا صنع «محمّد» معهم؟

ص: ٦٨٥

١- (١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢٩١/١-٣٥٩، و السيره الحلبيه: ٢١١/٣-٢٣٩، و بحار الأنوار: ٣٦٤/٢١-٣٧٨.

«محمّد» و أهل الكتاب، موقفه من النصارى و مجادلته إيّاهم، و حده موقف «محمّد» منهم، بعث عليّ بن أبي طالب إلى اليمن، دعوه «محمّد» الناس للحجّ و مجيئهم إلى المدينة من كل صوب، مسيرتهم في نحو مئة ألف إلى مكّه، مناسك الحجّ، خطبه «محمّد».

منذ تلا عليّ بن أبي طالب صدر سورة براهه على الحاجّ من مسلمين و مشركين حين حجّ أبو بكر بالناس، و منذ أذن فيهم بأمر «محمّد» حين اجتمعوا بمنى ألّيدخل الجنه كافر، و ألّا يحجّ بعد العام مشرك، و ألّا يطوف بالبيت عريان، و من كان له عند رسول الله صلى الله عليه و آله عهد فهو له إلى مدّته. أيقن المشركون من أهل بلاد العرب جميعا أن لم يبق لهم إلى المقام على عباده الأوثان سبيل، و أنّهم إن يفعلوا فليأذنوا بحرب من الله و رسوله. و قد كان ذلك شأن أهل الجنوب من شبه جزيره العرب حيث اليمن و حضرموت؛ لأنّ أهل الحجاز و ما و الاها شمالا كانوا قد أسلموا و استظلّوا برآيه الدين الجديد، و كان الأمر في الجنوب مقسّمًا ما بين الشرك و المسيحيه. فأمرًا المشركون فأقبلوا، كما رأيت من قبل، يدخلون في دين الله أفواجا و يبعثون و فودهم إلى المدينة فيلقون من النبيّ كل حفاوه بهم تزيدهم على الإسلام اقبالا، و تردّ أكثرهم إلى

إمارته فتجعله أشد على دينه الجديد حرصا. و أما أهل الكتاب من اليهود و النصارى فقد نزلت (١) فيهم ممّا تلا على من سوره التوبه هذه الآيات:

قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ٢ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ٣ .

يقف كثيرون من المؤرخين أمام هذه الآيات من سوره التوبه ختام ما نزل من القرآن، يسألون أنفسهم: هل أمر «محمّد» عليه السلام فى شأن أهل الكتاب بغير ما أمر به من قبل أثناء سنى رسالته؟ و يذهب بعض المستشرقين إلى القول بأن هذه الآيات تضع أهل الكتاب و المشركين فيما يشبه المساواه؛ و أن «محمّد» و قد ظفر بالوثنيه فى شبه الجزيره بعد أن استعان عليها باليهوديه و بالمسيحيه، معلنا خلال أعوام رسالته الأولى أنه إنما جاء مبشرا بدين عيسى و موسى و إبراهيم و الرسل الذين خلوا من قبل، قد جعل وجهته إلى اليهود الذين بدأوه العداوه، فظل بهم حتى أجلاهم عن شبه الجزيره. و أثناء ذلك كان يتودد إلى النصارى و تنزل عليه الآيات تشيد بحسن إيمانهم و جميل مودتهم، و ينزل عليه قوله تعالى فى سوره المائده: لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ

ص: ٦٨٨

مِنْهُمْ قَسِيَّيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنْتَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ١ . وهاهو ذا الآن يجعل وجهته إلى النصرانية يريد بها ما أراد باليهودية من قبل، فيجعل شأن النصارى كشأن الذين لا- يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر؛ وهو يصل إلى ذلك بعد أن أجاز النصارى من أتبعه من المسلمين حين ذهبوا إلى الحبشه يستظلون بعدل نجاشيها، وبعد أن كتب «محمد» لأهل نجران وغيرهم من النصارى يُقرّهم على دينهم وعلى القيام بطقوس عبادتهم. ويذهب أولئك المستشرقون إلى أنّ هذا التناقض في خطه «محمد» هو الذي أدى إلى استحكام العداوه بين المسلمين والنصارى من بعد، وأنه هو الذي جعل التقريب بين أتباع عيسى وأتباع «محمد» غير ميسور إن لم يكن في حكم المستحيل.

والأخذ بظاهر هذه الحجّه قد يُغرى الذين يستمعون إليها بالميل إلى أنّها تصف جانباً من الحقّ، إن لن تغرهم بتصديقها فأما تتبع التاريخ والتدقيق في ظروف نزول الآيات وأسباب نزولها، فلا يدع محلاً للريب البتّه في وحده موقف الإسلام وهو «محمد»، من الأديان الكتابيه منذ بدء رسالته إلى ختامها. فالمسيح بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم. والمسيح بن مريم عبد الله آتاه الكتاب وجعله نبياً وجعله مباركاً أينما كان وأوصاه بالصلاه والزكاه مادام حياً. ذلك ما نزل به القرآن منذ بدء رسالته إلى ختامها. والله أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد؛ ذلك روح الإسلام وأساسه منذ اللحظة الأولى، وذلك روح الإسلام مادام العالم. ولقد ذهب وفد من نصارى نجران إلى النبيّ يجادلونه في الله. وفي بنوّه عيسى لله من قبل أن تنزل سوره التوبه بزمن طويل، ويسألون «محمدًا»: أنّ عيسى أمّه مريم فمن أبوه؟ وفي ذلك

نزل (١) قوله تعالى من سورة آل عمران: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لُغْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهَوَ الْقَصَصِ الْحَقِّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ٢ . وفى هذه السورة - سورة آل

ص: ٦٩٠

١- (١) تفسير مجمع البيان: ٣٠٩/٢، وأسباب النزول للواحدى: ٦١-٦٢.

عمران - يتوجه الحديث حديثاً معجزاً إلى أهل الكتاب يعاتبهم لم يصدّون عن سبيل الله من آمن، ولم يكفروا بآيات الله وهي هي التي جاء بها عيسى وجاء بها موسى وجاء بها إبراهيم، قبل أن تحرف عن مواضعها، وقبل أن يوجهها التأويل بما تهوى أغراض هذه الحياه الدنيا ومتاعها الغرور. وفي كثير من السور توجيه للحديث على النحو الذي ووجه به في سورة آل عمران.

ففي سورة المائدة يقول تعالى: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثٍ وَ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونََهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ * مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ اتَى يُؤْفَكُونَ ١ . وفي سورة المائدة كذلك يقول تعالى: وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ ٢ إلى آخر هذه الآيات التي نقلنا في تقديم هذا الكتاب.

وسورة المائدة هي التي من بين آياتها الآيه يحتج بها المؤرخون من النصارى، ويتخذونها دليلاً على تطوّر موقف «محمّد» منهم مع ظروفه السياسيّه؛ إذ يقول تعالى: لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيِينَ

وَرُهْبَانًا وَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۱ .

والآيات التي نزلت في سورة براهه وتحدثت عن أهل الكتاب لم تتحدث عنهم في إيمانهم بالمسيح ابن مريم، وإنما تحدثت عنهم في شركهم بالله وفي أكلهم أموال الناس بالباطل وفي كنزهم الذهب والفضة. والإسلام يرى ذلك خروجاً من أهل الكتاب على دين عيسى. يجعلهم يُحلّون ما حرّم الله ويصنعون صنيع من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، وهو مع ذلك يجعل من إيمانهم بالله، على الرغم من ذلك كله. شفيفاً لهم لا تجوز معه مساواتهم بالوثنيين، ويكفي معه إن هم أصروا على أن يجعلوا الله ثالث ثلاثة وعلى أن يحلّوا ما حرّم لله، أن يدفعوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون.

كانت هذه الدعوه التي أذن عليّ بها يوم حجّ أبو بكر بالناس(١) آيه إسلام الناس من أهل الجنوب في شبه الجزيره ودخولهم في دين الله أفواجاً.

فقد توالى الوفود تترى على المدينة كما قدمنا من قبل، ومن بينها وفود من المشركين ووفود من أهل الكتاب. وكان النبي يُكرم كلّ وافد عليه ويردّ الأُمراء مكرمين إلى إماراتهم. من ذلك ما سبق لنا ذكره في الفصل الماضي.

ومنه أنّ الأشعث بن قيس قدم في وفد كنده في ثمانين ركباً، دخلوا المسجد على النبي وقد رجّلوا لِمَمَّهم وتكحلّوا ولبسوا جبب الحبر بطنوها بالحريير.

فلما رآهم النبي قال: ألم تُسَلِّموا؟ قالوا: بلى. قال: فما هذا الحريير في أعناقكم! فشقوه. وقال له الأشعث: يا رسول الله، نحن بنو آكل المرار وأنت ابن آكل

ص: ٦٩٤

١- (٢) مرّ في إحدى تعليقاتنا في الفصل الثامن والعشرين بأنّ الوحي قد تدخّل بارجاع أبي بكر واستبداله بعليّ ليبلغ أحكاماً أُخرى بالإضافة إلى سورة براهه، فراجع ص ٦٧٥.

المرار(١). فتبسم النبي ونسب ذلك إلى العباس بن عبدالمطلب وربيعه بن الحارث(٢). وقدم وائل بن حجر الكندي مع الأشعث وكان أمير بلاد الشاطئ من حضرموت فأسلم، فأقره النبي في إمارته على أن يجمع العشر من أهل بلاده ليرده إلى جباه الرسول. وكلف النبي معاوية بن أبي سفيان أن يصحب وائلاً إلى بلاده. وأبى وائل أن يردفه أو أن يعطيه نعليه يتقى بهما حماره القيظ مكتفياً بأن يدعه يسير في ظل بعيره. وقبل معاوية ذلك على مخالفته لما جاء به الإسلام من التسويه بين المسلمين ومن جعل المؤمنين إخوه، حرصاً على إسلام وائل وقومه(٣).

ولما انتشر الإسلام في ربوع اليمن، أوفد النبي مُعَاذاً إلى أهله يعلمهم ويفقههم وأوصاه، قائلاً:

«يَسِّرْ وَلَا تُعَسِّرْ، وَبَشِّرْ وَلَا تُنْفِرْ، وَإِنَّكَ سَتَقُومُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَسْأَلُونَكَ: مَا مِفْتَاحُ الْجَنَّةِ؟ فَقُلْ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ».

وذهب معاذ ومعه طائفه من المسلمين الأولين ومن الجباه يعلمون الناس ويقضون بينهم بقضاء الله ورسوله(٤). وبانتشار الإسلام في ربوع شبه الجزيرة، من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها، انتقلت هذه الأمة العربية التي كانت إلى ما قبل عشرين سنة قبائل متنافرة تشن كل واحد منها الغارة على الأخرى كلما وجدت في ذلك مغنماً، فأصبحت أمة واحدة يظلها لواء واحد هو لواء «محمد» رسول الله صلى الله عليه وآله. وتدين كلها بدين واحد هو الإسلام،

ص: ٦٩٥

١- (١) المرار: شجر مرّ، ومنه بنو آكل المرار: قوم من العرب. لسان العرب: ١٦٧/٥.

٢- (٢) السيره النبويّه لابن هشام: ٥٨٥-٥٨٦، والسيره الحلبيه: ٢٢٧/٣-٢٢٨، وعيون الأثر: ٣٠١/٢، وراجع: مناقب آل أبي طالب: ١٥١/١، وبحار الأنوار: ٣٧٥/٢١.

٣- (٣) السيره النبويّه لابن كثير: ١٥٤/٤-١٥٥.

٤- (٤) السيره النبويّه لابن هشام: ٥٩٠/٢.

وتتجه قلوبها جميعاً إلى عباده الله وحده لا شريك له. وبذلك طهرت من رجس الوثنيه واستراحت إلى حكم الواحد القهار. وبذلك هدأت الخصومات بين أهلها؛ فلم يبق لغزو أو خصومه موضع، ولم يبق لأحد أن يستل سيفه من قرابه إلا أن يدافع عن وطنه أو يدفع المعتدى على دين الله.

على أن جماعه من نصارى نجران احتفظوا بدينهم مخالفين في ذلك الأكثرين من قومهم بنى الحارث الذين أسلموا من قبل. إلى هؤلاء وجه النبي خالد بن الوليد يدعوهم إلى الإسلام كي يسلموا من مهاجمته. ولم يلبث خالد أن نادى فيهم حتى أسلموا وحتى بعث خالد وفداً منهم إلى المدينة لقيه النبي فيها بالترحيب والموذة (١). ثم إن جماعه من أهل اليمن عزّ عليهم أن يخضعوا للواء الإسلام، أن كان الإسلام قد ظهر بالحجاز، وأن كانت اليمن هي التي اعتادت أن تغزو الحجاز فلم يغزها الحجاز من قبل أبداً. إلى هؤلاء أرسل النبي علي بن أبي طالب يدعوهم إلى الإسلام. لكنهم استكبروا أول أمرهم وقابلوا دعوه على بمهاجمته؛ فلم يلبث علي أن شتتهم على الرغم من صغر سنّه (٢) وأنه لم يكن معه إلا ثلاثمئة فارس. وارتد المنهزمون ينظمون من جديد صفوفهم. بيد أن علياً أحاط بهم وأوقع في صفوفهم الرعب، فلم يجدوا من التسليم بداً. وسلموا وأسلموا وحسن إسلامهم، وأنصتوا إلى تعليم معاذ وأصحابه. وكان وفدهم آخر وفد استقبله النبي بالمدينة قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى (٣).

ص: ٦٩٦

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٥٩٢/٢، وتاريخ الخميس: ١٤٤/٢.

٢- (٢) ولد عليه السلام بعد ثلاثين سنه من عام الفيل فهو اليوم أكثر من ثلاث وثلاثين سنه، إذا فليس بصغير.

٣- (٣) المغازي للواقدي: ١٠٧٩/٢ و طبقات ابن سعد: ١٦٨/٢، والسيره الحلبيه: ٢٠٦/٣، وإعلام الوري بأعلام الهدى: ٢٥٧/١، وبحار الأنوار: ٣٦٠/٢١ و ٣٦٣.

بينما كان عليّ يتأهب للعود إلى مكّه كان النبيّ يتجهّز للحجّ ويأمر الناس بالتجهّز له، ذلك أنّ أشهر السنه استدارت وأقبل ذوالقعدة وأوشك أن يولّى، ولم يكن النبيّ قد حجّ الحجّ الأكبر وإن يكن قد اعتمر فأدى الحجّ الأصغر قبل ذلك مرّتين. وللحجّ مناسك يجب أن يكون عليه السلام قدوه المسلمين فيها. وما كاد الناس يعرفون ما صح عليه عزم النبيّ ودعوته إياهم للحجّ معه حتّى انتشرت الدعوه في كلّ ناحيه من شبه الجزيره، وحتّى أقبل الناس على المدينه ألوفاً ألوفاً من كلّ فجّ وحذب: من المدائن والبوادي من الجبال والصحارى. من كلّ بقعه من هذه البلاد العرييه المتراميه الأطراف، والتي استنارت كلها بنور الله ونور نبيّه الكريم. وحول المدينه ضُربت الخيام لمئه ألف أو يزيدون جاءوا تلييه لدعوه نبيّهم رسول الله عليه أفضل الصلاه وأتم السلام. جاءوا إخوة متعارفين تجمع بينهم الموده الصادقه والأخوه الإسلاميه، وكانوا إلى سنوات قبل ذلك أعداء متنافرين. وجعلت هذه الألوفا المؤلفه تجوس خلال المدينه وكلّ باسم الثغر، وضّاح الطلعه. مشرق الجبين، يصف اجتماعهم انتصار الحق وانتشار نور الله انتشاراً ربط بينهم وجعلهم جميعاً كالبنيان المرصوص (1).

وفى الخامسة والعشرين من ذى القعدة من السنه العاشره للهجره سار النبيّ وأخذ نساءه جميعاً معه، كلّ فى محفّتها. سار وتبعه هذا الجمع الزاخر، يذكر طائفه من المؤلفين أنّه كان تسعين ألفاً، ويذكر آخرون أنّه كان أربعه عشر ومئه ألف ساروا يحدوهم الإيمان وتملاً قلوبهم الغبطه الصادقه لسيرهم

ص: ٦٩٧

١- (١) السيره الحليه: ٢٥٧/٣، والمغازى للواقدي: ١٠٨٩-١٠٩٠، والطبقات الكبرى: ١٧٢/٢-١٧٣، وإعلام الورى بأعلام الهدى: ٢٥٩/١، وبحار الأنوار: ٣٨٤/٢١ و ٣٨٩.

إلى بيت الله الحرام يؤدّون عنده فريضه الحجّ الأكبر. فلما بلغوا ذا الحليفة نزلوا وأقاموا ليلتهم بها. فلما أصبحوا أحرم النبي وأحرم المسلمون معه، فلبس كلّ منهم إزاره ورداءه وصاروا ينتظمهم جميعاً زياً واحداً هو أبسط ما يكون زياً، وقد حققوا بذلك المساواة بأسمى معانيها وأبلغها. وتوجّه «محمد» بكلّ قلبه إلى ربه ونادى ملئياً والمسلمون من ورائه: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك. إن الحمد والنعمه والشكر لك لبيك. لبيك لا شريك لك لبيك» (١). وتجاوبت الوديان والصحارى بهذا النداء، تلبّى كلّها وتنادى بارئها مؤمنه عابده. وانطلق الركب بألوفه وعشرات ألوفه يقطع الطريق بين مدينه الرسول ومدينه المسجد الحرام، وهو ينزل عند كلّ مسجد يؤدّي فيه فرضه.

وهو يرفع الصوت بالتلبية طاعه لله وشكراً لنعمته، وهو ينتظر يوم الحجّ الأكبر بصبر نافذ وقلوب مشوقه وأفئده كلّها إلى بيت الله هوىً ومحبه.

وصحارى شبه الجزيره وجبالها ووديانها وزروعها النضره فى دهش ممّا تسمع وتتجاوب به أصداؤها ممّا لم تعرف قطّ قبل أن يباركها هذا النبي الأُمّي عبدالله ورسوله.

فلما بلغ القوم سرف (٢)، وهى محلّه فى الطريق بين مكّه والمدينه، قال «محمد» لأصحابه:

مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ مَعَهُ هَدًى فَأَحَبُّ أَنْ يَجْعَلَهَا عَمْرَهُ فليفعّل، ومَنْ كَانَ مَعَهُ هَدًى فَلَا (٣).

ص: ٦٩٨

١- (١) المغازى للواقدي: ١٠٩٠/٢، والطبقات الكبرى: ١٧٣/٢، وتاريخ اليعقوبى: ٤٣٨/١، والكافى للكلينى: ٢٤٩/٤، وبحار الأنوار: ٣٩٦/٢١.

٢- (٢) سرف: موضع على سته أميال من مكّه.

٣- (٣) السيره النبويه لابن هشام: ٦٠١/٢، وتاريخ الطبرى: ٢٠٤/٢، والكامل فى التاريخ: ٢٠٥/٢، والإرشاد للمفيد: ١٧٣/١، وإعلام الورى بأعلام الهدى: ٢٦٠/١، وبحار الأنوار: ٣٨٦/٢١.

وبلغ الحجيج مكه في اليوم الرابع من ذي الحجه، فأسرع النبي والمسلمون من بعده إلى الكعبه، فاستلم الحجر الأسود فقبله، وطاف بالبيت سبعاً هرولاً في الثلاث الأولى منها على نحو ما فعل في عمره القضاء. وبعد أن صلى عند مقام إبراهيم عاد فقبل الحجر الأسود كره أخرى، ثم خرج من المسجد إلى ربوه الصفا، ثم سعى بين الصفا والمروه. ثم نادى «محمد» في الناس أن لا يبقى على إحرامه من لا هدى معه ينحره. وتردد بعضهم، فغضب النبي لهذا التردد أشد الغضب وقال:

ما أمركم به فافعلوه. ودخل قبته مغضباً.

فسألته عائشه: من أغضبك؟ فقال:

ومالي لا أغضب وأنا أمر أمراً فلا يتبع! ودخل أحد أصحابه وما يزال غضبان، فقال: من أغضبك يا رسول الله أدخله الله النار.

فكان جواب الرسول:

أوما شعرت أنني أمرت الناس بأمر فإذا هم يترددون؟ ولو أنني استقبلت من أمرى ما استدبرت ما سقت الهدى معي حتى اشتريه، ثم أحل كما حلوا. كذلك روى مسلم (1). فلما بلغ المسلمين غضب رسول الله حل الألوفاً من الناس

ص: ٦٩٩

١- (١) وكأنه لم يرق للمؤلف أن يذكر اسم من تردد من الصحابه في تبعيته للرسول صلى الله عليه وآله حتى أغضب نبيه، وذكر المؤرخون اسمه وهو عمر بن الخطاب الذي خاطبه وعاتبه بما أغضبه. ومواقف الخليفه الثاني من النبي كثيره منها قوله على النبي: أنه غلبه الوجد حين أمر صلى الله عليه وآله أن يؤتى له بكتاب يكتب فيه كتاباً لن تضل الأمة من بعده. صحيح البخارى: ٣٢/١ كتاب العلم باب كفايه العلم والذي منعه من الكتاب هو عمر. ثم إن الله ورسوله قد أحلّا متعه الحج للأبد وقد حرّمها عمر. صحيح البخارى: ١٥٢/٢ كتاب الحج باب التمتع والإقران، وصحيح مسلم: ٩٠٨/٢، كتاب الحج باب جواز العمره، ومسند أحمد: ٢٥٢/١. وقد أحلّ الله ورسوله متعه النساء، وقد حرّمها عمر. صحيح البخارى بحاشيه السندى: ٢٤٦/٣، كتاب النكاح، وصحيح مسلم: ١٠٢٢/٢، ومسند أحمد: ٤٧/٤. وبدعه عمر في الطلاق الثلاث. صحيح مسلم: ١٨٣/٤، ومسند ترك الحاكم: ١٩٦/٢ وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، مسند أحمد: ٣١٤/١. عمر يفتى من لم يجد الماء بأن لا يصلى. صحيح مسلم: ١٩٣/١ و ٢٨٠/١، وسنن النسائي: ١٦٨/١. وقوله لرسول الله صلى الله عليه وآله: أليس الله نهاك أن تصلى على المنافقين؟ فقال له الرسول صلى الله عليه وآله: «أنا ابن خيرتين» -

إحرامهم على أسف منهم، وحل نساء النبي وحلت ابنته فاطمه مع الناس، ولم يبق على إحرامه إلّا من ساق الهدى معه.

وبينما المسلمون في حجيجهم أقبل على عائداً من غزوته باليمن وقد أحرم للحج لما علم أنّ رسول الله حج بالناس. ودخل على فاطمه فوجدها قد حلت إحرامها؛ فسألها فذكرت له أنّ النبي أمرهم أن يحلوا بعمره. فقام فذهب إلى النبي فقص عليه أخبار سفرته باليمن. فلما أتم حديثه، قال له النبي:

انطلق فطف بالبيت وحل كما حل أصحابك. قال علي:

يا رسول الله، إنني أهلت كما أهلت. قال النبي:

ارجع فاحلل كما حل أصحابك. قال علي:

يا رسول الله، إنني قلت حين أحرمت:

اللهم إنني أهل بما أهل به نبيك وعبدك ورسولك «محمّد». فسأله النبي: أمعه هدي فلما نفى عليّ أشركه «محمّد» في هديه وثبت عليّ على إحرامه وأدى مناسك الحج الأكبر (١).

وفي الثامن من ذي الحجّه يوم الترويه ذهب «محمّد» إلى منى، فأقام بخيامه فيها وصلّى فروض يومه بها وقضى الليل حتّى مطلع فجر يوم الحجّ،

ص: ٧٠٠

١- (١) صحيح مسلم: ٣٤/٤، والسيره الحلبيه: ٢٦١/٣-٢٦٤، وعيون الأثر: ٣٤٣/٢-٣٤٤.

فصلى الفجر وركب ناقته القصواء (١) حين بزغت الشمس ويَم بها جبل عرفات والناس من ورائه. فلما ارتقى الجبل أحاط به ألوف المسلمين يتبعونه في مسيرته، ومنهم الملبى ومنهم المكبر وهو يسمع ذلك ولا ينكر على هؤلاء ولا على هؤلاء. وضربت للنبي قبه بنمره (قرية بشرق عرفات) وكان ذلك بعض ما أمر به. فلما زالت الشمس أمر بناقته القصواء فرحلت ثم سار حتى أتى بطن الوادي من أرض عُرنه، وهناك نادى فى الناس ومايزال على ناقته بصوت جهورى كان يردده مع ذلك من بعده ربيعه بن أمية بن خلف.

وهو يقف بين عباره وأخرى قائلاً بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«أيها الناس، اسمعوا قولى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً.

أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا. وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت.

فمن كان عنده أمانه فليؤدها إلى من ائتمنه عليها.

وإن كل رباً موضوع - أى مهدر - ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون.

قضى الله أنه لا رباً، وإن رباً عباس بن عبدالمطلب موضوع كله.

وإن كل دم كان فى الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع، دم ربيعه بن الحارث بن عبدالمطلب...

أمياً بعد أيها الناس، فإن الشيطان قد يشس من أن يُعبد بأرضكم هذه أبداً. ولكنه إن يُطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم.

ص: ٧٠١

١- (١) تقدمت «القصواء» غير مره هكذا «القصوى» بالقصر، وهو تحريف ورد فى كثير من الكتب.

أيها الناس، إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدّه ما حرّم الله فيحلّوا ما حرّم الله ويحرموا ما أحلّ الله. وإنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض. وإنّ عدّه الشهر عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حُرّم، ثلاثة متواليه ورجب مفرد الذي بين جمادى وشعبان.

أما بعد، أيها الناس، فإنّ لكم على نساءكم حقاً ولهن عليكم حقاً. لكم عليهنّ ألا يوطئن فراشكم أحداً تكرهونه، وعليهنّ ألا يأتين بفاحشه مبينه، فإن فعلن فإنّ الله قد أذن لكم أن تهجروهنّ في المضاجع وتضربوهنّ ضرباً غير مبرّح. فإن انتهين فلهنّ رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف. واستوصوا بالنساء خيراً فإنهنّ عندكم عوان لا يملكن لأنفسهنّ شيئاً.

وإنكم إنّما أخذتموهنّ بأمانه الله واستحللتم فروجهنّ بكلمات الله.

فاعقلوا أيها الناس قولي فإنّي قد بلغت وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلّوا أبداً أمراً بيناً: كتاب الله وسنّه رسوله (١).

أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه. تَعَلَّمَنَّ أَنْ كُلَّ مُسْلِمٍ أَخٌ لِلْمُسْلِمِ وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ إِخْوَةٌ فَلَا يَحِلُّ لِمَرِيٍّ مِنْ أَخِيهِ إِلَّا مَا أَعْطَاهُ عَنْ طَيْبِ نَفْسٍ مِنْهُ، فَلَا تَظَلْمَنَّ أَنْفُسَكُمْ.

اللهم هل بلغت؟

كان النبي يقول هذا وريعه يرده من بعده مقطوعاً مقطوعاً ويسأل الناس أثناء ذلك ليحتفظ بيقظه أذهانهم. فكان النبي يكلفه أن يسألهم مثلاً: إنّ رسول الله يقول:

هل تدرّون أيّ يوم هذا؟ فيقولون: يوم الحجّ الأكبر. فيقول النبي:

قل لهم: إنّ الله قد حرّم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا. فلما بلغ خاتمه كلامه وقال:

اللهم هل بلغت، أجب الناس من كلّ صوب نعم. فقال:

اللهم اشهد.

ولما أتم النبي خطابه نزل عن ناقته القصواء وأقام حتّى صلى الظهر

ص: ٧٠٢

١- (١) قد مرّ التعليق بأنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: إنّني مخلّف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكنم بهما لن تضلوا بعدي أبداً، فراجع ص ٤٨٥ و ٤٨٦ الهامش.

والعصر ثم ركبها حتى بلغ الصخرات؛ هناك تلا عليه السلام على الناس قوله تعالى:

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا . فَلَمَّا سَمِعَهَا أَبُو بَكْرٍ بَكَى أَنْ أَحْسَسَ أَنَّ النَّبِيَّ وَقَدْ تَمَّتْ رِسَالَتُهُ قَدْ دَنَا يَوْمَهُ الَّذِي يَلْقَى فِيهِ رَبَّهُ.

وترك النبي عرفات وقضى ليله بالمزدلفه، ثم قام في الصباح فنزل المشعر الحرام، ثم ذهب إلى منى وألقى في طريقه إليها الجمرات؛ حتى إذا بلغ خيامه نحر ثلاثاً وستين ناقة، واحده عن كل سنة من سنى حياته، ونحر علي ما بقي من الهدى المئه التي ساق النبي منذ خروجه من المدينة، ثم حلق النبي رأسه وأتم حجّه (١). أتم هذا الحج، يسميه البعض حجّه الوداع، وآخرون

ص: ٧٠٣

١- (٢) السير النبوي لابن هشام: ٦٠٢/٢-٦٠٦، وتاريخ الطبري: ٢٠٥/٢-٢٠٦، وعيون الأثر: ٣٤٤/٢-٣٤٧، والسيره الحلييه: ٢٦٥/٣-٢٧١، ودعائم الإسلام للقاضي النعمان المغربي: ٣٢٤/١-٣٢٥، وبحار الأنوار: ٣٨٣/٢١-٣٨٦ و ٣٩٠-٣٩٣. في كل هوامش الكتاب ذات الحساسيه التي أثارها الكاتب التزمنا فيها المنهج المعتدل وبقدر المستطاع، فحاولنا أن نتلمس آخر الأعذار وأبعد الاحتمالات لهفوات الكاتب، مثل احتمال عدم توفر المصادر أو قلّه اطلاعه على كتب الكلام، أو في التفسير، إلّا أنه في هذه المره غير معذور، فقد تأملنا كثيراً واحتملنا له آخر الاحتمالات فلم نجد أي مبرر يسوغ له في أن يتجاوز مسأله حدث الغدير التاريخي المعروف، فنراه بكلّ جراه ينقل أحداثه بإبهام محاولاً خلط حدثه مع حجّه الوداع التي تسبقه تاريخياً ليكونا حدثاً واحداً كما يحلو له، ومثل هذا العرض الناقص لا يحقق غرض الكاتب وهو أعجز من أن يقف أمام التيار الجارف من عشرات الروايات المعبره عند الفريقين - ليلغيها بخطه قلم - التي تنقل لنا سبب نزول آيتين ولحقتهما آيه -

حجّه البلاغ، وغيرهم حجّه الإسلام. وهى فى الحقّ ذلك كلّه. فقد كانت حجّه الوداع، رأى فيها «محمّد» مكّه والبيت الحرام للمرّه الأخره. وكانت حجّه الإسلام، أكمل الله فيها للناس دينه وأتمّ عليهم نعمته. وكانت حجّه البلاغ، أتمّ النبىّ فيها بلاغه للناس ما أمره الله ببلاغه. وما «محمّد» إلّانذير.

ص: ٧١٠

الفصل الثالثون: مرض النبي صلى الله عليه وآله ووفاته

تفكيره في غزو الروم، جيش أسامه، بدء مرض النبي، ذهابه إلى مقابر المسلمين وصلاته على أهل حنين، شكواه من وجع رأسه الحمى، أمره أبا بكر أن يصلى بالناس، صحو الموت، اختيار الرفيق الأعلى.

تمت حجة الوداع وآن لعشرات الألو ف مّن صحبوا النبي فيها أن يعودوا إلى ديارهم فانجد (1) منهم أهل نجد. وأتهم (2) أهل تهامه، وانحدر إلى الجنوب أهل اليمن وحضرموت و ماذاها. وسار النبي وأصحابه ميممين المدينة، حتى إذا بلغوها أقاموا بها في أمن من ناحيه شبه الجزيره كلها، وفي تفكير متصل من جانب «محمّد» في أمر البلاد الخاضعه للروم والفرس بالشام ومصر والعراق. إنّه أمن من ناحيه شبه جزيره العرب جميعاً بعد أن دخل الناس في دين الله أفواجاً، وبعد أن جعلت الوفود تترى إلى يثرب تُعلن الطاعه وتتفيأ ظلالها تحت لواء الإسلام، وبعد أن انحاز العرب جميعاً إليه في حجة الوداع. وكيف لا يُخلص ملوك العرب في ولائهم للنبي ولدينه ولم يبق

ص: ٧١١

١- (١) أنجد: خرج باتجاه نجد، مجمع البحرين: ١٤٨/٣.

٢- (٢) أنهم: أتى تهامه. مجمع البحرين: ١٤٨/٣.

لهم أحد إلّما أبقاه لهم النبيّ الأمي من سلطان واستقلال ذاتي. أوّلَم يُبَيِّقَ يَدَهُانِ عامل فارس على أرض اليمن في ملكه حين أعلن بدهان إسلامه وحرص على وحده العرب وألقى نير المجوس (١). ولم يكن ما يقوم به بعضهم في أنحاء من شبه الجزيرة من حركات تشبه الانتفاض ليستغرق من النبيّ شيئاً من التفكير، أو ليثير في نفسه شيئاً من المخاوف بعد أن انبسط سلطان الدين الجديد في كلّ الأنحاء، وعت كلّ الوجوه للحَيّ القَيّوم، وآمنت القلوب بالله الواحد القهّار.

لذلك لم يُثر قيام الدين قاموا إذ ذاك يدعون النبوه عنايه «محمد» ولا اهتمامه، صحيح أنّ بعض القبائل القاصيه عن مكّه كانت تسرع بعد الذي عرفت عن «محمد» ونجاح دعوته إلى الاستماع لمدعى النبوه من أهل قبيلتهم، وتودّ لو يكون لها من الحظّ ما أوتيت قريش! وأنّ هذه القبائل كانت لبعدها عن مقرّ الدين الجديد لا تعرف كلّ أمره. لكنّ الدعوه الحقّ إلى الله كانت قد تأصّلت في بلاد العرب، فلم تكّ اليسير حربها. وما لاقى «محمد» في سبيل هذه الدعوه كان قد انتشر في الآفاق خبره، ولم يكن مستطاعاً لغير ابن عبدالله احتمالاه. وكلّ ادعاءٍ أساسه البهتان لا مفر أن ينكشف سريعاً بهتانه. فكل ادعاء للنبوه لم يكن مقدراً له أى نجاح ذى بال. قام طليحه زعيم بنى أسد وأحد أشاوس العرب فى الحرب ومن ذوى السلطان بنجد، وزعم أنّه نبيّ ورسول، وأريد زعمه بالتنبؤ بموقع الماء فى يوم كان قومه فيه يسيرون ويكاد الظمأ يقتلهم. لكنه بقى خائفاً من الانتفاض على «محمد» طوال حياه «محمد» ولم يعلن الثوره إلّابعد أن قبض الله اليه رسوله. وهزم ابن الوليد

ص: ٧١٢

١- (١) تاريخ الطبرى: ١٣٤/٢، السيره الحلبيه: ٢٤٦/٣. وأنما ذكر اسم عامل فارس على اليمن: بادان أو بادام.

طليحه فى ثورته هذه فانضم من جديد إلى صفوف المسلمين وحسن إسلامه(١). ولم يكن مسيلمه ولا كان الأسود العنسى خيراً مكاناً من طليحه طيله حياه النبى. بعث مسيلمه إلى النبى عليه السلام يقول: إنه نبى مثله: «وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشاً قوم لا يعدلون» فلما تلى الخطاب نظر النبى لرسولى مسيلمه وأبدى لهما أنه كان يأمر بقتلهما لولا أن الرسل فى أمن، ثم أجاب مسيلمه بأنه سمع إلى كتابه وما فيه من كذب. «وإن الأرض لله يرثها من يشاء من عباده الصالحين و السلام على من أتبع الهدى»(٢). وأما الأسود العنسى، صاحب اليمن بعد موت بدهان، فقد جعل يدعى السحر ويدعو الناس إليه خفيه، حتى إذا عظم أمره سار من الجنوب وطرده عمال «محمد» على اليمن، وتقدم إلى نجران وقتل فيها ابن بدهان ووارث عرشه، وبني بزوجه، ونشر فى تلك الأصقاع سلطانه، ولم يثر استفحال أمره عنابه «محمد» ولا استدعى من اهتمامه أكثر من أن يبعث إلى عماله باليمن كى يحيطوا بالأسود أو يقتلوه. ونجح المسلمون فى تأليب اليمن من جديد على الأسود، وقتلته زوجته انتقاماً منه لقتله زوجها الأول ابن بدهان(٣).

كان تفكير «محمد» وكانت عنايته متجهين إذاً إلى الشمال بعد عوده من حجه الوداع، وكان من ناحيه الجنوب آمناً مطمئناً. والحق أنه منذ غزوه مؤته، ومنذ عاد المسلمون قانعين من الغنيمه بالإياب مكتفين بما أبدى خالد بن الوليد من مهاره فى الانسحاب، كان «محمد» يحسب لناحيه الروم حسابها ويرى ضروره توطيد سلطان المسلمين على حدود الشام حتى لا

ص: ٧١٣

- ١- (١) تاريخ الطبرى: ٢/٢٤٧ و ٢٥٤، والكامل فى التاريخ لابن الأثير: ٢/٢٣٢.
- ٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٢/٦٠٠، وتاريخ الطبرى: ٢/٢٠٣-٢٠٤.
- ٣- (٣) تاريخ الطبرى: ٢/٢٤٨-٢٤٩، والكامل فى التاريخ لابن الأثير: ٢/٢٢٨.

يعود إليها الذين جعلوا عن شبه الجزيره إلى فلسطين يناوئون أهلها. ولهذا جهّز الجيش العرم(١) الذي جهّز حين بلغه تفكير الروم في مهاجمه حدود شبه الجزيره، وسار هو على رأسه حتّى بلغ تبوك، فألفى الروم قد انسحبوا إلى داخل بلادهم وحصونهم من هيئته(٢). لكنّه مع هذا ظلّ يقدرّ لناحية الشمال أن تثور الذكريات بحُماه المسيحيه وأصحاب الغلب في ذلك العصر من أهل الإمبراطوريه الرومانيه. فيعلنوا الحرب على من أجلوا النصرانيه عن نجران وغير نجران من أنحاء بلاد العرب(٣). لذلك لم يُطل بالمسلمين المقام بالمدينه بعد عودهم من حجّه الوداع بمكّه حتّى أمر النبيّ بتجهيز جيش عرم إلى الشام، جعل فيه المهاجرين الأوّلين ومنهم أبو بكر وعمر، وأمّر على الجيش أسامه ابن زيد بن حارثه.

وكان [أسامه بن] زيد يومئذٍ حَدَثًا لا يكاد يعدو العشرين من سنّه، فكان لإمارته على المتقدّمين الأوّلين من المهاجرين ومن كبار الصحابه ما أثار دهشه النفوس لولا إيمانها(٤) الصادق برسول الله. والنبيّ إنّما أراد بتعيين [أسامه] بن زيد أن يقيمه مقام أبيه الذي استشهد في موقعه مؤته، وأن يجعل له من فخار النّصر ما يجزى به ذلك الإستشهاد، وما يبعث إلى جانب ذلك في نفس الشباب الهّمه والحميّه، ويعوّدهم على الاضطلاع بأعباء أجسم التبعات(٥). وأمر «محمّد» أسامه أن يُوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من

ص: ٧١٤

- ١- (١) وقد عرم بالضم والفتح والكسر. والعرام: الشّدّه والقوّه والشراسه. النهايه في غريب الحديث: ٢٢٣/٣.
- ٢- (٢) مرّ في محلّه أنّه صلى الله عليه و آله لم يلق الروم، لا أنّهم انسحبوا.
- ٣- (٣) بل لم يجلو النصرانيه عن نجران وإنّما عاهدوهم.
- ٤- (٤) لم تكن كلّ نفوس المهاجرين وكبار الصحابه كذلك وإنّما بعضهم.
- ٥- (٥) ذكر الدكتور لتعيين أسامه ثلاثه حكم، ولم يذكر الحكمه الرابعه وهى تأمير هذا الشاب على كبار الصحابه كى لا يتذرّعوا لدفع علىّ عليه السلام عن الخلافه بأنّه في سن الشباب! ثمّ الحكمه من تعبئه كبار المهاجرين فيه ابعادهم عن المدينه حين وفاته صلى الله عليه و آله لكى لا يزاحموا عليّاً عليه السلام على خلافته، وسيأتى تفصيل هذا عن المرحوم الشيخ المظفر رحمه الله.

أرض فلسطين على مقربة من مؤته حيث قُتل أبوه، وأن ينزل على أعداء الله وأعدائه في عمايه الصبح. وأن يُمعن فيهم قتلاً، وأن يُحرقهم بالنار، وأن يتم ذلك دراكاً حتى لا- تسبق إلى أعدائه أنباؤه. فإذا أتم الله له النصر لم يُطال بقاءه بينهم وعاد غانماً مظفراً(١).

وخرج أسامه والجيش معه إلى الجُرف على مقربة من المدينة يتجهزون للسفر إلى فلسطين، وإنهم لفي جهازهم إذ حال مرض رسول الله، ثم اشتداد المرض به دون مسيرهم. وقد يسأل إنسان: كيف يحول مرض رسول الله دون مسيره جيش أمر هو بجهازه وسفره؟! لكن مسيره جيش إلى الشام يقطع البيد والصحارى أياماً طويلاً ليست بالأمر الهين. ولم يكن يسهل على المسلمين، والنبى أحب إليهم من أنفسهم، أن يتركوا المدينة وهو يشكو المرض وهم لا يعلمون ما وراء هذا المرض(٢)، ثم إنهم لم يعرفوا قط من قبل

ص: ٧١٥

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٦٤١/٢-٦٤٢، والمغازى للواقدي: ١١١٧/٢، وتاريخ الطبرى: ٢٢٤/٢ وبحار الأنوار: ٤١٠/٢١.
٢- (٢) كيف يُعد التمرد على أمر الرسول صلى الله عليه وآله والتراجع عن مخططه - وهو الذى لا- ينطق عن الهوى إن هو إلّا وحى يوحى - كيف يعدّ هذا حسنه تحت ذريعه حب المتخلفين للنبى وقلقهم على مصيره، لأنّه فى حاله مرض، ولم يقف الكاتب على العلل التى دعت النبى لتجهيز جيش أسامه وتشديده على الحضور فيه بل دعته إلى لعن المتخلفين عن جيش أسامه والحكمه التى جعل فيها أسامه وهو صغير السن قائداً للجيش، وانضواء كثير من الصحابه تحت إمرته وبقاء على بن أبى طالب عليه السلام معه فى المدينة بأمر منه صلى الله عليه وآله وهى أمور واستفهامات يعرف أجوبتها الكاتب جيداً، وكم نتمنى أن يعفينا عن الدخول فى تفاصيلها ونكون بمستوى الوفاء لأمتنا فنعرض لها الحقائق كما هى لتستفيد من تاريخها وتكون أمه كما أريد لها أن تكون خير أمه أخرجت للناس. وعليه، كما وجدنا أنفسنا مضطرين فى التعليق على عبارات مشوشه أو مشوهه لنصوص الكتاب فى السابق -

أنه شكاً مرضاً ذا بال. فهو لم يُصب من المرض بأكثر من فقد الشهيه في السنه السادسه من الهجره حين قيل كذباً: إن اليهود سحروه(١)، ومن ألم أصابه واحتجم من أجله حين أكل من الشاه المسمومه في السنه السابعه من الهجره.

ثم إن حياته وتعاليمه كانت تنأى به وبكل من يتبعها عن المرض. فهذا الزهد في الطعام ونيل القليل منه، وهذه البساطه في الملبس والعيش، وهذه النظافه التامه نظافه يقتضيها الوضوء ويحبها «محمد» ويحرص عليها، حتى ليقول:

إنه لولا خيفته أن يشقّ على قومه لفرض عليهم السواك في اليوم خمس

ص: ٧١٩

١- (١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ١٩٦/٢ و ٢٠٠.

مرات (١)، وهذا النشاط الدائم: نشاط العبادة من ناحيه ونشاط الرياضه من ناحيه أخرى، وهذا القصد في كل شيء، وفي الملذات قبل كل شيء، وهذا السموّ عن عبث الأهواء، وهذه الرفعه النفسيه لا تُدانيها رفعه، وهذا الاتصال الدائم بالحياه وبالكون في خير صور الحياه وأدق أسرار الكون. هذا كلّه يجنّب صاحبه المرض ويجعل الصحه بعض حظّه، فإذا كان سليم التكوين قوياً الخلق، كما كان «محمّد»، جفاه المرض ولم يعرف إليه سيلاً. فإذا مرض كان طبيعياً أن يخاف محبّوه وأصحابه، وكان طبيعياً أن يخافوا وهم قد رأوا ما عاناه من مصاعب الحياه خلال عشرين سنه متتابعه. فهو منذ بدأ يجهر بدعوته في مكّه منادياً الناس بعباده الله وحده لا شريك له، وبترك الأصنام مما كان يعبد آباؤهم، قد لقي من العنت ما تنوء به النفوس ممّا شتت عنه أصحابه الذين أمرهم فهاجروا إلى الحبشه، وما اضطرّه للاحتماء بشّعب الجبل حين أعلنت قريش قطيعته. وهو حين هاجر من مكّه إلى المدينه بعد بيعه العقبه قد هاجر في أدق الظروف وأشدّها تعرّضاً للخطر، وهاجر وهو لا يعرف ما قُدر له بالمدينه، ولقد كان بها في الفتره الأولى من مقامه موضع دس اليهود وعبثهم. فلمّا نصره الله وأذن أن يدخل الناس من أنحاء شبه الجزيره في دين الله أفواجا، ازداد عمله وتضاعف مجهوده، وظلّ الأمر يقتضيه من بذل الجهود ما ينوء بالعصبه أولى القوّه، وأنّ له عليه الصلاه والسلام (٢) في بعض الغزوات لمواقف تشيب من هولها الولدان. وأيّ موقف

ص: ٧٢٠

-
- ١- (١) المصنف، للصنعاني: ٥٥٥/١، مستدرک ابن المبارک: ٣٦. رواه البرقي في المحاسن، والكليني في الكافي، والصدوق في علل الشرائع وكتاب من لا يحضره الفقيه: ٣٣/١ ح ١١٨، وعنهما جميعاً في وسائل الشيعه: ١٩/٢ ح ٣.
- ٢- (٢) لا يخفى أنّ هذه الصيغه من التصليه والتسليم على الرّسول الكريم قد نهى عنها بقوله: لا تصلّوا على الصلاه البتراء، قيل: يا رسول الله وما الصلاه البتراء؟ قال: أن تقولوا: اللهم صلّ على محمد وتسكتون. فقالوا: فما -

أشدّ هولاً. من موقفه يوم أحد، حين ولّى المسلمون وسار هو يصعد في الجبل ورجال قريش يشتدون في تتبعه ويرمونه حتّى كسرت رباعيته! وأى موقف أشدّ هولاً من موقفه يوم حنين حين ارتدّ المسلمون في عمّاه الصيح مولّين الأدبار، حتّى قال أبو سفيان: إنّ البحر وحده هو الذى يردهم، و «محمّد» واقف لا- يرتد ولا يتراجع وينادى فى المسلمين: إلى أين، إلى أين؟! إلىّ إلىّ... حتّى عادوا وحتّى انتصروا(١)! والرسالة! والوحى! وهذا المجهود الروحى المضمنى فى اتصاله بسرّ الكون وبالملاّ الأعلى، هذا المجهود الذى روى بسببه عن النبىّ، أنّه قال: شيبتنى هود وأخواتها(٢). رأى أصحاب «محمّد» هذا كلّه ورأوه يحمل العبء، صلباً قوياً لا- يعرف المرض إليه طريقاً. فإذا هو مرض بعد ذلك كلّه، فمن حقّ أصحابه أن يخافوا وأن يتمهلوا فى السير من معسكرهم بالجرف إلى الشام حتّى تطمئن نفوسهم إلى ما يكون من أمر الله فى نبيّه ورسوله.

وحدث وقع جعلهم أشدّ خوفاً. فقد أرقّ «محمّد» ليله أوّل ما بدأ يشكو، وطال أرقه، وحدثته نفسه أن يخرج فى ليل تلك الأيام، أيام الصيف الرقيقه النسيم، فيما حول المدينة. وخرج ولم يستصحب معه أحداً إلّامولاه أبامويهبه. أفتدرى أين ذهب؟ ذهب إلى بقيع العرقد حيث مقابر المسلمين

ص: ٧٢١

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٢/٤٤٢-٤٤٣.

٢- (٢) المصنف، للصنعانى: ٣/٣٦٨، مسند أبى يعلى الموصلى: ٢/١٨٤.

على مقربة من المدينة. فلما وقف بين المقابر، قال يخاطب أهلها:

«السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهتئى لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه. أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى» حدّث أبو مويهبة أنّ النبي قال له أوّل ما بلغا بقيع الغرقد:

«إنّى أمرت أن استغفر لأهل هذا البقيع فانطلق معي» فلما استغفر لهم وآن له أن يؤوب، أقبل على أبي مويهبة فقال له:

يا أبا مويهبة، إنّي قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثمّ الجنّة فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربّي والجنّة.

قال أبو مويهبة: بأبي أنت وأمي! فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثمّ الجنّة. قال «محمّد»:

لا والله يا أبا مويهبة! لقد اخترت لقاء ربّي والجنّة» (١).

تحدّث أبو مويهبة بما رأى وما سمع، لأنّ النبي بدأ يشكو المرض غداه تلك الليلة التي زار فيها البقيع، فاشتدّ خوف الناس ولم يتحرك جيش أسامه.

صحيح أنّ هذا الحديث الذي يُروى عن أبي مويهبة يلقاه بعض المؤرخين بشيء من الشكّ، ويذكرون أنّ مرض «محمّد» لم يكن وحده هو الذي حال دون تحرك الجيش إلى فلسطين، وأنّ تدمر الكثيرين من تعيين حدّث كأسامه على رأس جيش يضمّ جلّه المهاجرين الأوّلين والأنصار كان أكبر من مرض «محمّد» في عدم تحرك الجيش أثرًا (٢)، وقد اعتمد هؤلاء المؤرخون في تدوين رأيهم هذا على وقائع يتلوها القارئ في هذا الفصل، ولئن كنا لا نناقش أصحاب هذا الرأي رأيهم في تفاصيل هذا الذي روى أبو مويهبة، فإنّنا لانرى

ص: ٧٢٢

١- (١) السيرة النبويّة لابن هشام: ٦٤٢/٢، والطبقات الكبرى لابن سعد: ٢٠٤/٢، وتاريخ الطبري: ٢٢٦/٢، وبحار الأنوار: ٤٠٩/٢١-

٤١٠، ولا أبو مويهبة ولا غيره يسأله عن من يخلفه بعده؟! ولا عن تلك الفتن وما يصنعون!؟

٢- (٢) تاريخ اليعقوبي: ٤٤٣/١، والطبري: ٢٢٤/٢، والكامل: ٢١٥/٢، وبحار الأنوار: ٤١٠/٢١-٤١١.

مسوّغاً لإنكار الحادث من أساسه، وإنكار ذهاب النبيّ إلى بقيع الغرقد واستغفاره لأهل المقابر من ساكنيه ودقه إدراكه اقتراب ساعته، ساعه الدنوّ من جوار الله. فالعلم لا ينكر في عصرنا الحاضر مناجاه الأرواح على أنّها بعض مظاهر الحياه النفسيه (euqihcysP)، ودقّه الإدراك لدنوّ الأجل يؤتاها الكثيرون؛ حتّى ليستطيع أى إنسان أن يقصّ ممّا عرف من وقائع ذلك شيئاً غير قليل، ثمّ إنّ هذه الصله بين الأحياء والموتى وهذه الوحده بين الماضى والمستقبل وحده لا يحدّها زمان ولا مكان، قد أصبحت مقرره اليوم وإن كنا بطبيعته تكويننا نقصر عن استجلاء صورتها. فإذا كان ذلك بعض ما نرى اليوم وبعض ما يقتره العلم، فلا محلّ لإنكار هذا الحادث الذى روى أبو مويهبه من أساسه، ولا محلّ لهذا الإنكار بعد الذى عُرف فى أدوار حياه «محمّد» كلّها من قوه اتصاله النفسى والروحى بعوالم الكون اتصالاً يجعله يدرك فى هذا الشأن أضعاف ما يدرك الموهوبون فى هذه الناحيه (1).

وأصبح «محمّد» فى الغداه ومرّ بعائشه فوجدها تشكو صداعاً فى رأسها تقول وا رأساه! فقال لها وقد بدأ يحس ألم المرض: بل أنا والله يا عائشه وا رأساه. لكنّ شكّواه لم يكن قد اشتد إلى الحدّ الذى يلزمه الفراش أو يحول بينه وبين ما عود أهله وأزواجه من تلطف ومفاكهه. كرّرت عائشه الشكوى من صداعها حين سمعته يشكو؛ فقال لها:

وما ضرّك لو مُتّ قبلى فقامت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك! وأثارت هذه الدعابه غيره الأنوثه فى نفس عائشه، كما أثارت عندها حبّ الحياه والحرص عليها، فأجابت: ليكن ذلك

ص: ٧٢٣

١- (١) ولا يشكك أحد بمثل هذا التشكيك إلّابمدى دوافع اتجاهه نحو الماديه.

حظَّ غيرى. والله لكأنى بك لو قد فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتى فأعرست فيه ببعض نساءك. وتبسم النبى وإن لم يمكنه الألم من متابعه الدعابه(١). فلما سكن عنه الألم بعض الشيء قام يطوف بأزواجه كما عودهن. لكن الألم جعل يعاوده وتزداد به شدته؛ حتى إذا كان فى بيت ميمونه لم يُطق مغالبتة ورأى نفسه فى حاجه إلى التمريض. هنالك دعا نساءه إليه فى بيت ميمونه واستأذنهن، بعد أن رأين حاله، أن يمرض فى بيت عائشه. وأذن له أزواجه فى الانتقال؛ فخرج عاصباً رأسه يعتمد فى مسيرته على على بن أبى طالب وعلى عمه العباس وقدماه لا تكاد أن تحملانه حتى دخل بيت عائشه(٢).

وزادت به الحمى فى الأيام الأولى من مرضه، حتى لكان يشعر كأنَّ به منها لهباً. لكن ذلك لم يكن يمنعه ساعه تنزل الحمى من أن يمشى إلى المسجد ليصلى بالناس. وظلَّ كذلك عدّه أيام، لا يزيد على الصلاه ولا يقوى على محادثه أصحابه أو خطابهم. على أن ذلك لم يمنعه من أن يصل إلى أذنه الهمس بما يقول الناس أنه أمر غلاماً حدثاً على جلّه المهاجرين والأنصار لغزو الشام، لذلك وعلى الرغم من أنه كان يزداد وجعه كلَّ يوم شدّه شعر بضروره التحدّث إلى الناس حتى يعهد إليهم، فقال لأزواجه وأهله هريقوا علىّ سبع قرب من آبار شتى حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم. وجىء بالماء من آبار مختلفه وأقعدته أزواجه فى مخضب لحفصه - والمخضب: الطست - وصبب عليه ماء القرب السبع حتى طفق يقول: حسبكم حسبكم. ولبس ثيابه وعصب رأسه وخرج إلى المسجد وجلس على المنبر، فحمد الله ثمَّ صلى على أصحاب أحد واستغفر لهم وأكثر من الصلاه عليهم، ثمَّ قال:

«أيها الناس أنفذوا بعث أسامه، فلعمري لئن قلت فى إمارته لقد قلت فى إماره أبيه من قبله، وإنه لخليق للإماره

ص: ٧٢٤

١- (١) وإنما هى من أحاديث عائشه، راجع سنن الدارمى: ٣٨/١.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٦٤٩/٢ و ٦٤٣.

وإن كان أبوه لخليقاً لها». وسكت «محمد» برهه خيم الصمت على الناس أثناءها ثم عاد إلى الحديث، فقال:

«إنَّ عبداً من عباد الله خيرُه الله بين الدنيا والآخرة وبين ما عنده فاختر ما عند الله» وسكت «محمد» من جديد والناس كأنما على رؤوسهم الطير. لكنَّ أبا بكر أدرك أنَّ النبيَّ إنّما يعنى بهذه العبارة الأخيره نفسه، فلم يستطع لرقه وجدانه وعظيم صداقته للنبيّ أن يمسك عن البكاء، ثمَّ قال: بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا(١) وخشى «محمد» أن تمتد عدوى التأثر من أبي بكر إلى الناس، فأشار إليه قائلاً: على رسلك يا أبا بكر(٢). ثمَّ أمر أن تقفل جميع الأبواب المؤديه إلى المسجد إلّاباب أبي بكر(٣). فلما أقفلت قال: إنّي لا أعلم أحداً كان أفضل من الصحبه عندي أبداً منه. وإنّي لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً(٤)، ولكنَّ صحبه وإخاء إيمان حتّى يجمع الله بيننا عنده. ونزل «محمد» عن المنبر يريد أن يعود بعد ذلك إلى بيت عائشه، لكنّه

ص: ٧٢٥

١- (١) ثمَّ لم يسأله عن خليفته ولا سأله أحد غيره مع ما هو عليه من الحال!؟

٢- (٢) ثمَّ لم يسأله عن سبب تخلفه عن جيش أسامه!؟ ألم يقل إنّه كان منهم على التعيين!؟

٣- (٣) حين تذكر كتب الحديث والسير مناقب الإمام عليّ بن أبي طالب تذكر له منقبه سد الأبواب إلّابابه ولعلّالمؤلف كان من بين المطلعين عليها. قال ابن أبي الحديد: (كانت لجماعه الصحابه أبواب شارع في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله فقال يوماً «سدوا كلّ باب في المسجد إلّاباب عليّ» فسدت، فقال في ذلك قوم، حتّى بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله فقمام فيهم فقال: «إنّ قوماً قالوا في سدّ الأبواب وتركى باب عليّ، أنّى ما سدّدت ولا فتحت وإنّما أمرت بأمر فاتبعته» شرح النهج: ١٧٣/١٩، وفي مسند أحمد عن عده طرق: ١٧٥/١، وكنز العمال: ٥٩٨/١١ ح ٣٢٨٥٧، ومستدرک الحاكم: ٤/٣، ١١٦ و ١٢٥، وخصائص النسائي: ١٣، وصحيح الترمذى: ٣٠١/٢، والدّر المنثور: ١٢٢/٦، وصحيح ابن حبان: ٣٩٩/١٥.

٤- (٤) هذا يتنافى مع ماورد في الصحيحين عن حديث الكتف والدواه في مرض وفاته صلى الله عليه وآله، كما في الصحيحين: البخارى: ١٦١٢/٤ ح ٤١٦٨ و ٤١٦٩، صحيح مسلم: ٤٥٥/٣ ح ٢٢ كتاب الوصيه حيث مُنع النبيّ صلى الله عليه وآله من أن يكتب وصيه في مرض موته فأوصى بالتمسك بالثقلين وبأهل بيته خيراً. وثانياً أنّه حديث موضوع وضعته البكرية في مقابل حديث الإخاء الوارد في حقّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام كما ذكر ذلك ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغه: ٤٩/١١ الخطبه ٢٠٣.

لم يلبث أن التفت إلى الناس وقال:

«يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيراً، فإنّ الناس يزيدون والأنصار على هيئتها لا تزيد. وإنّهم كانوا عيبتى التى أوتيت إليها، فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم» (١).

ودخل «محمّد» بيت عائشه. لكنّ المجهود الذى أنفق يومئذٍ وهو فى مرضه قد كان من شأنه أن زاد وطأه المرض شدّه. وأىّ مجهود بالنسبه لمريض تساوره الحمى يخرج بعد أن تُصب عليه سبع قرب من الماء، ويخرج تثقله أكبر الشواغل: جيش أسامه، ومصير الأنصار من بعده، ومصير هذه الأُمّه العربيه التى ربط الدين الجديد بأقوى الأواصر وأمتن الروابط بينها (٢). لذلك حاول أن يقوم فى غده ليصلّى بالناس كما عودهم، فإذا هو لا يقدر. إذ ذاك قال: مروا أبا بكر فليصلّ بالناس (٣). وكانت عائشه ماتزال تحرص على أن يؤدّى النّبىّ الصلاه لما فى ذلك من مظهر الصحه، فقالت: إنّ أبا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن. قال «محمّد»:

مروه فليصلّ بالناس. فكثرت عائشه قولها؛ فصاح «محمّد» بها والمرض يهزه: إنكّن صواحب يوسف (٤) مروه فليصلّ بالناس. وصلّى أبوبكر بالناس كأمر النّبىّ. وإنّه لغائب يوماً إذ دعا بلال إلى الصلاه ونادى عمر (٥) أن يصلّى

ص: ٧٢٤

- ١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٦٤٩/٢-٦٥٠. ثمّ لم يسأله أحد من الأنصار ولا من غيرهم: توصى بالأنصار من؟ المهاجرين؟ أفهم الذين يلون أمرك بعدك؟ وكيف؟
- ٢- (٢) ثمّ لا يفكر ولا يخطط ولا يذكر ولا يسأله أحدهم عن من يتولى هذا المصير بعده؟!
- ٣- (٣) ألم يكن مع جيش أسامه؟! أم كان من المتمردين؟!
- ٤- (٤) سيأتى التعليق عليها آخر الفصل.
- ٥- (٥) ألم يقل إنّه كان من جيش أسامه بالتعيين؟! فكيف تخلف عنه؟! الروايات التى تتحدث عن إمامه أبى بكر للصحابه فى مرض رسول الله صلى الله عليه و آله متضاربه حول عدد الأيام التى -

بالناس مكان أبى بكر، وكان عمر جهير الصوت، فلما كبر فى المسجد سمعه «محمّد» من بيت عائشه فقال: فأين أبو بكر؟ يابى الله ذلك والمسلمون. ومن هنا ظنّ بعضهم أنّ النبى استخلف أبا بكر من بعده إن كانت الصلاه بالناس أوّل مظهر للقيام مقام رسول الله(1).

ص: ٧٢٧

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٦٥٢/٢. ثم لا يكون أى حديث عن سبب تخلف هذين عن تسيير جيش أسامه؟!

وبلغت به شدّه المرض حدّاً آلمه. ذلك أنّ الحمى زادت به، حتّى لقد كانت عليه قطيفه فإذا وضع أزواجه وعوده أيديهم من فوقها شعروا بحرّ هذه الحمى المضميه. وكانت ابنته «فاطمه» تعود كل يوم، وكان يحبها ذلك الحبّ الذى يمتلى به وجود الرجل لابنه الوحيد الباقية له من كلّ عقبه.

لذلك كان إذا دخلت على النّبى قام إليها وقبلها وأجلسها فى مجلسه. فلما بلغ منه المرض هذا المبلغ دخلت عليه فقبلته، فقال:

مرحباً بابنتى، ثمّ أجلسها إلى جانبه وأسرّ لها حديثاً فبكت، ثمّ أسرّ لها حديثاً آخر فضحكت. فسألته عائشه فى ذلك فقالت:

ما كنت لأفشى سرّ رسول الله صلى الله عليه و آله. فلما مات ذكرت أنّه أسرّ لها أنّه سيقبض فى مرضه هذا فبكت، ثمّ أسرّ أنّها أوّل أهله يلحقه (١) فضحكت. وكانوا لاشتداد الحمى به يضعون إلى جواره إناء به ماء بارد، فما يزال يضع يده فيه ويمسح بها على وجهه. وكانت الحمى تصل به حتّى يُغشى عليه أحياناً ثمّ يفيق وهو يعانى منها أشدّ الكرب؛ حتّى قالت فاطمه يوماً وقد حزّ الألم فى نفسها لشدّه ألم أبيها:

واكرب أبتاه! فقال:

لا كرب على أبيك بعد اليوم. يريد أنّه سينتقل من هذا العالم عالم الأسى والألم (٢).

وحاول أصحابه يوماً تهوين الألم على نفسه، فذكروا له نصائحه ألا يشكو المريض. فأجابهم:

إنّ ما به أكثر ممّا يكون فى مثل هذه الحال برجلين

ص: ٧٢٨

١- (١) سبق أن نقل المؤلف التشكيك فى خبر أبى مويهبه وتنبؤ النّبى صلى الله عليه و آله بدنوّ أجله ثم دفع ذلك التشكيك بحمله على مناجاه الأرواح من النواحي النفسيه! وليس على الوحى، ومرّ هنا مرور الكرام فلم يتكلم فى محمل اخباره ابنته بأنّها أوّلهم لحوقاً به؟! وهى فى ريعان الشباب! فهل هذا أيضاً من مناجاه الأرواح؟! أم ماذا؟! ولماذا ترى هذه بشرى فتضحك؟! لو لم يكن يخبرها عن ما يجرى عليها بعده من الهوان!.

٢- (٢) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢/٢٤٧، والوفا بأحوال المصطفى: ٧٩٦، وإمتاع الأسماع: ٢/١٣٤، والسيره الحلييه: ٣/٣٥١، وتفسير فرات الكوفى: ٥٨٦، وبحار الأنوار: ٢٢/٤٥٨ و ٤٩٠-٤٩١.

منهم (١). وفيما هو في هذه الشدة وفي البيت رجال قال:

هَلُمُّوا أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَا تَضَلُّوا بَعْدَهُ أَبَدًا. قَالَ بَعْضُ الْحَاضِرِينَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَدْ غَلَبَهُ الْوَجَعُ (٢)، وَعِنْدَكُمْ الْقُرْآنُ، وَحَسْبُنَا كِتَابُ اللَّهِ، وَيَذَكِّرُونَ أَنَّ عُمَرَ (٣) هُوَ الَّذِي قَالَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ (٤). وَاخْتَلَفَ الْحَضُورُ، مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: قَرَّبُوا يَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَا تَضَلُّوا بَعْدَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْبَى ذَلِكَ مَكْتَفِيًا بِكِتَابِ اللَّهِ (٥). فَلَمَّا رَأَى «مَحْمِدٌ» خُصُومَتَهُمْ قَالُوا: قَوْمُوا. وَمَا فَتَى ابْنَ عَبَّاسٍ بَعْدَهَا يَرَى أَنَّهُمْ أَضَاعُوا شَيْئًا كَثِيرًا بَأَنَّ لَمْ يَسَارِعُوا إِلَى كِتَابِهِ مَا أَرَادَ النَّبِيُّ إِمْلَاءَهُ (٦). أَمَّا عُمَرُ فَظَلَّ وَرَأْيَهُ، أَنَّ قَالَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ: مَا فَزَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ٧.

وتناقل الناس ما بلغ من اشتداد المرض بالنبي، حتى هبط أسامه وهبط الناس معه من الجرف إلى المدينة. ودخل أسامه على النبي في بيت عائشه،

ص: ٧٢٩

١- (١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢٠٦/٢-٢٠٨.

٢- (٢) هذه هي اللفظه المحفضه من مقوله عمر، وإلا ففي أخبار أخر أنه قال: إن الرجل ليهجر! وغلبه الوجع أيضاً بمعناه، وإلا فلو غلبه الوجع بدون فقد الوعي فماذا يعنى ذلك؟! والقرآن يقول: «مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ». كشف الغمّه: ج / ٤٧، فتح الباري: ١٠٠/٨-١٠٢، الطبقات الكبرى: ٢٤٢/٢، عمر بن الخطاب، عبد الرحمن أحمد البكري: ٦٤، تذكره الخواص: ٦٥.

٣- (٣) ألم يكن مع جيش أسامه؟!

٤- (٤) اجتهاداً في مقابل نصّ النبي!

٥- (٥) مكتفياً بكتاب الله عن سنه رسول الله؟! مخالفاً أمره متبعاً عمر؟! أليس هذا من الاجتهاد في مقابل النصّ؟! ثم لماذا هذا المنع والاصرار؟!

٦- (٦) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢٤٢/٢-٢٤٥، وتاريخ ابن خلدون: ٤٨٥/٢، والكامل في التاريخ: ٢١٧/٢، وتاريخ الطبري: ٢٢٨/٢-٢٢٩، والإرشاد للمفيد: ١٨٤/١، وبحار الأنوار: ٤٦٢/٢٢ و ٤٦٨-٤٦٩ و ٤٧٣.

فإذا هو قد أصمت فلا يتكلم. فلَمَّا بَصُرَ بِأَسَامِهِ جَعَلَ يَرْفَعُ يَدَهُ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ يَضَعُهَا عَلَى أَسَامِهِ عِلَامَةً الدَّعَاءِ لَهُ (١).

ورأى أهله وهذه حاله أن يُسَعِفُوهُ بِعِلَاجٍ، فَأَعَدَّتْ أَسْمَاءُ قَرِيبَهُ مِيمُونَةَ شَرَابًا كَانَتْ عَرَفَتْ أَتْنَاءَ مُقَامِهَا بِالْحَبِشَةِ كَيْفَ تَعَدُّهُ، وَاتْتَهَزُوا فَرَصَهُ إِغْمَاءَهُ مِنْ إِغْمَاءَاتِ الْحَمَى فَصَبَّوهُ فِيهِ. فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ:

من صنع هذا؟ ولم فعلتموه؟! قال عمه العباس: خشينا يا رسول الله أن تكون بك ذات الجنب. قال:

ذلك داء ما كان الله عز وجل ليقذفني به! ثم أمر بمن في الدار خلا عمه العباس أن يتناولوا هذا الدواء لم تستثن منهم ميمونه رغم صيامها (٢).

وكان عند «محمد» أول ما اشتد المرض به سبعة دنانير خاف أن يقبضه الله إليه و ما تزال باقيه عنده، فأمر أهله أن يتصدقوا بها. لكن اشتغالهم بتمريضه والقيام في خدمته وأطراد المرض في شدته أنساهم تنفيذ أمره. فلَمَّا أَفَاقَ يَوْمَ الْأَحَدِ الَّذِي سَبَقَ وَفَاتَهُ مِنْ إِغْمَائِهِ سَأَلَهُمْ: مَا فَعَلُوا بِهَا؟ فَأَجَابَتْ عَائِشَةُ أَنَّهَا مَا تَزَالُ عِنْدَهَا. فَطَلَبَ إِلَيْهَا أَنْ تَحْضُرَهَا وَوَضَعَهَا فِي كَفِّهِ، ثُمَّ قَالَ:

ما ظن «محمد» برّبه لو لقي الله وعنده هذه. ثم تصدق بها جميعاً على فقراء المسلمين (٣).

وقضى «محمد» ليله هادئاً مطمئناً نزلت عنه الحمى، حتى لكان الدواء الذي سقاه أهله قد فعل وقضى على المرض عنده. وبلغ من ذلك أنه استطاع

ص: ٧٣٠

١- (١) سيره ابن هشام: ٦٥١/٢.

٢- (٢) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢٣٥/٢-٢٣٧. إنما روى هذا من غير طرق أهل البيت عليهم السلام، وذلك تصديقاً عملياً لوصف عمر لرسول الله يومئذٍ بالهجر أو غلبه الوجع فلا يدرى ما يقول! وإلا فما الحكمه في ذلك؟! وذلك من رسول حكيم!؟

٣- (٣) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢٣٧/٢-٢٣٩. وعليه فهو في كمال وعيه ولم يغلبه الوجع كما قال عمر!

أن يخرج ساعه الصبح إلى المسجد عاصباً رأسه معتمداً على علي بن أبي طالب والفضل بن العباس، وكان أبو بكر ساعته يصلي بالناس (١). فلمّا رأى المسلمون النبي وهم في صلاتهم قد خرج إليهم كادوا يفتنون فرحاً به وتفرّجوا، فأشار إليهم أن يثبتوا على صلاتهم. وسرّ «محمد» بما رأى من ذلك أكبر السرور واعتبط له أعظم الغبطة. وأحسّ أبو بكر بما صنع الناس وأيقن أنّهم لم يفعلوه إلاّ لرسول الله، فنكص عن مصلاه يريد أن يتخلّى ل «محمد» عن مكانه. فدفعه «محمد» في ظهره وقال: صلّ بالناس، وجلس هو إلى جنب أبي بكر فصلى قاعداً عن يمينه (٢). فلمّا فرغ من صلاته أقبل على الناس

ص: ٧٣١

١- (١) ألم يكن في جيش أسامه؟!

٢- (٢) هنا اختلفت الروايه هل أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أحداً أن يصلي بالناس أو لا، فروى ابن هشام في سيرته: أنّه حين دعاه بلال إلى الصلاة قال: مروا من يصلي بالناس، فخرج عبد الله بن زمعه فإذا عمر، فقال له: «قم فصلّ بالناس» وكان أبو بكر غائباً، فلمّا كبر سمع رسول الله صلى الله عليه وآله صوته فأرسل إلى أبي بكر فجاء بعد أن أتمّ عمر الصلاة فصلى بالناس. وروى الطبري عن عائشه، أنّه قال: «مروا أبا بكر أن يصلي بالناس» فقالت عائشه: إنّ رجلاً رقيق، فأعاد، فأعادت، فغضب وقال: «إنكّن صواحب يوسف» فخرج يهادى بين رجلين وقدماه تخطّان في الأرض، فلمّا دنا من أبي بكر تأخّر فأشار إليه أن قم في مقامك، فقعده إلى جنب أبي بكر، قالت: فكان أبو بكر يصلي بصلاه النبي والناس يصلون بصلاه أبي بكر. وروى ابن سعد وغيره نحوه. وقال المفيد: إنّ قال: يصلي بالناس بعضهم فإنّي مشغول بنفسي، فقالت عائشه: مروا أبا بكر، وقالت حفصه: مروا عمر، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «اكفّن فإنكّن صويحبات يوسف» وقام مبادراً وإنه لا يستقل على الأرض من الضعف، فأخذ بيد علي بن أبي طالب والفضل بن العباس فاعتمدا عليهما ورجلاه تخطّان الأرض من الضعف، فلمّا خرج إلى المسجد وجد أبا بكر قد سبق إلى المحراب فأوماً إليه بيده أن تأخّر عنه، فتأخّر وقام صلى الله عليه وآله مقامه فكبر وابتدأ الصلاة التي كان قد ابتدأ بها أبو بكر ولم يبين على ما مضى من فعاله... الخ. أقول: مالنا ولما رواه هؤلاء المؤرخون المختلفون في العقيدة، المختلفون في النقل، فبعض يروى أنّه لم يأمر أحداً بعينه أصلاً، وبعض أنّه لم يأمر بذلك في أوّل الأمر ثمّ أمر أبا بكر بعدما سمع عمر يكبر وأنّ الناس صلّوا الصبح مرّتين، وبعض يروى أنّه أمر أبا بكر من أوّل الأمر، مالنا ولهذه الأخبار المتناقضه لكننا -

رافعاً صوته حتى سمعه من كان خارج المسجد فقال:

«أيها الناس: سُيِّعَتِ النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم. وإني والله ما تمسّكون عليّ بشيء، إني والله لم أُحَلِّ إلّٰما أُحَلِّ القرآن ولم أُحَرِّم إلّٰما حرّم القرآن. ولعن الله قوماً اتّخذوا قبورهم مساجد» (١).

ولقد عظم فرح المسلمين بما رأوا من ظاهر التقدّم في صحه النبيّ حتّى

ص: ٧٣٢

١- (١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢١٥/٢-٢١٦. وفي الحديث: أقبلت الفتن، ثمّ لا يسأله أحدهم: ماهي هذه الفتن؟ وفي ماذا؟ ونحن ما نفعل؟ وما نصنع؟! ومن الغرائب أن تطرح قضية اتّخاذ القبور مساجد في هذا الظرف الحرج. يضاف إلى ذلك أنّ حديث اتّخاذ قبور الأنبياء مساجد من أحاديث أسامه بن زيد السقيمه. أخرجه أحمد في مسنده: ٢٠٣/٥. قال الزهري: (رويت عنه روايات رائعة كما عزيت إليه أخرى سقيمه، وهذا الحديث من الأحاديث السقيمه). ينقل الذهبي عن عبيدالله بن عبدالله قال: رأيت أسامه يُصلّي عند قبر النبيّ فمرّ به مروان، فقال: أتصلّي عند قبر؟! (وقال له قولاً قبيحاً). سير أعلام النبلاء: ٢/٤٩٦. ثمّ إنّ الطائفين حول الكعبة يطوفون حول حجر إسماعيل ويتمسّحون بجداره وفيه قبر إسماعيل وأمّه هاجر. قال ابن هشام: ودفن إسماعيل في الحجر مع أمّه هاجر: ٦/١. وتاريخ الطبري: ٣٥٢/١. وتاريخ ابن الأثير: ٨٩/١. ويستدل على صحّه البناء على القبور بأنّ قبر رسول الله صلى الله عليه وآله والخليفتين أبي بكر وعمر في بناء سقف منذ أن توفوا إلى يومنا هذا. وروى أبو بكر بن الفقيه عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنه قال: ما من نبيّ هرب من قومه إلّا هرب إلى الكعبة يعبد الله فيها حتّى يموت وأن قبر هود وصالح في ما بين زمزم والمقام وأنّ في الكعبة قبر ثلاثه نبيّ، وما بين الركن اليماني إلى الركن الأسود قبر سبعين نبياً. مختصر كتاب البلدان تأليف أبي بكر بن الفقيه الهمداني: ١٧. ويؤيد صحه ما ذكرنا قوله تعالى: «وَ اتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى» البقره: ١٢٥. وقوله تعالى: «قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَسْجِدًا» الكهف: ٢١.

أقبل عليه أسامه بن زيد يستأذنه في مسيره الجيش إلى الشام، وحتّى مثل بين يديه أبو بكر قائلاً: يا نبي الله، إنّي أراك قد أصبحت بنعمه من الله وفضل كما نحّب. واليوم يوم بنت خارجه، أفأتيها؟ فأذن النبي له في ذلك (١). وانطلق أبو بكر إلى السنج بأطراف المدينة حيث تقيم زوجته. وانصرف عمر وعليّ لشؤونهما (٢) وتفترق المسلمون وكلّهم سعيد مستبشر، بعد أن كانوا إلى أمس عابسين مغمومين لما يتصل بهم من أخبار النبي ومرضه واشتداد الحمى به وإغمائه، وعاد هو إلى بيت عائشه والسرور لرؤيه هؤلاء المسلمين قد امتلأ بهم المسجد يفعم قلبه، وإن كان يحس جسمه ضعيفاً غايه الضعف. وعائشه تنظر إلى هذا الرجل الذي يمتلي قلبها تقديساً لجلال عظمته (٣). وقد ملكها الإشفاق عليه لضعفه ومرضه، فهي تودّ لو تبذل له حشاشه نفسها لتردّ إليه القوّه والحياه.

لكنّ خروج النبي إلى المسجد لم يكن إلّا الصحو الذي يسبق الموت.

فقد كان يزداد بعد دخوله إلى البيت في كلّ لحظه ضعفاً، وكان يرى الموت يدنو، ولم يبق لديه ريب في أنّه لم يبق له في الحياه إلّا سويعات. ترى ماذا

ص: ٧٣٣

-
- ١- (١) وهل يستأذن أبو بكر ويأذن له النبي وهو يؤكّد على عدم التخلّف عن تسيير جيش أسامه؟!
 - ٢- (٢) ولكنّ شتان ما بين شأنيهما، فشأن عليّ الوصي تمرّض النبي، وشأن عمر اللحاق بجيش أسامه، ولكنّه لم يفعل.
 - ٣- (٣) لماذا الرجوع إلى بيت عائشه؟ فهل لهذا دليل نقلى؟ أم أنّ الكاتب يتخيّل ذلك، لا سيّما ونحن نلاحظ أنّ الكاتب من حيث لا يشعر يصوّر للقارئ أنّ النبي صلى الله عليه وآله لا يكاد يفارق بيت عائشه في الوقت الذي كانت له أكثر من زوجه! فهل كان النبي صلى الله عليه وآله يظلم سائر زوجاته؟! حاشا وحاشا. وقد كانت صفيه أفضل من عائشه وحفصه عند النبي صلى الله عليه وآله. راجع صحيح الترمذى: ٣٦٧/٥ ح ٣٩٨٣ و ٣٩٨٤، والإصابة لابن حجر: ٣٤٧/٤، والإستيعاب بهامش الإصابة: ٣٤٨/٤، وأسد الغابه: ٤٩١/٥، والمستدرک: ٢٩/٤.

عساه كان يشعر في هذه السويغات الباقيه له على فراق الحياه؟ أفكان يستذكر حياته منذ بعثه الله هادياً ونبياً وما لاقى فيها، وما أتم الله عليه من نعمته، وماشرح به صدره من فتح قلوب العرب لدين الحق؟ أم كان يقضيها مستغفراً ربّه متوجّهاً إليه بكلّ روحه على نحو ما كان يفعل كلّ حياته؟ أم أنّه كان يعاني هذه الساعات الأخيره من آلام النزاع ما لم يُبق لديه قوه الاستذكار؟ تختلف الروايات في ذلك اختلافاً كبيراً. وأكثرها على أنّه دعا في هذا اليوم القائظ من أيام شبه الجزيره (٨ يونيو سنه ٦٣٢ م) بإناء فيه ماء بارد كان يضع يده فيه ويمسح بمائه وجهه، وأنّ رجلاً من آل أبي بكر دخل إلى عائشه وفي يده سواك، فنظر إليه «محمّد» نظراً دلّ على أنّه يريده، فأخذته عائشه من قريبتها ومضغته له حتّى لان وأعطته إياه فاستنّ به (١). وأنّه وقد شقّ عليه النزاع توجه إلى الله يدعوه:

اللهمّ أعنى على سكرات الموت. قالت عائشه:

وكان رأس النبيّ في هذه الساعه في حجرها: «وجدت رسول الله صلى الله عليه وآله يتقلّ في حجرى، فذهبت أنظر في وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول: بل الرفيق الأعلى من الجنّه. قلت: خيّرت اخترت والذى بعثك بالحقّ. وقبض رسول الله بين سخرى ونحرى ودولتى لم أظلم فيه أحداً. فمن سفهى وحدائه سنى أنّه صلى الله عليه وآله وسلم قبض وهو فى حجرى، ثمّ وضعت رأسه على وساده وقمت ألتدم مع

ص: ٧٣٤

١- (١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢/٢٣٣-٢٣٤. وهذا أيضاً من غريب ما رووا فى غريب فعله صلى الله عليه وآله يومئذ، وكأنّهم يحاولون أن يؤكّدوا مصداق قول عمر فيه: إنّه ليهجر أو غلبه الوجع! وإلّا أفلم يكن له سواك؟! حتّى يريد سواك الرجل وتمضغه عائشه وتعطيه؟!!

١- (١) وهذا أيضاً من أحاديث عائشه، وهو معارض لما عن عليّ عليه السلام كما في نهج البلاغه: خطبه ٢٢. وبشكل عام فإنّ سطور الفصل الثلاثين قد مُلئت بالتزوير وقلب الحقائق، لذا ارتأينا أن نسلط الضوء ابتداءً على حادثه طلب النبيّ في أن يأتوه بقلم وقرطاس حتى قبيل وفاته ليكون الردّ جامعاً على التصوير الذي نظمه الكاتب حسبما يريد، لا كما تنقله كتب التاريخ. كان النبيّ صلى الله عليه وآله يعرف بما يجري من نشاطات خارج منزله للسيطره على مقاليد الحكم، ولهذا قرر لغرض الحيلولة دون انحراف مسأله الخلافه من محوره الأصلي والحيلولة دون ظهور الاختلاف والافتراق، أن يدعم مكانه «عليّ» ويعزز إمارته وخلافته وخلافه أهل بيته، وذلك بأن يثبت الأمر في وثيقه حيّه وخالده تضمن بقاء الخلافه في خطها الصحيح. من هنا يوم جاء بعض الصحابه لعيادته أطرق برأسه إلى الأرض ساعه، ثمّ قال بعد شيء من التفكير وقد التفت إليهم: «إيتوني بدواه وصحيفه أكتب لكم كتاباً لا تضلّون بعده». فبادر عمر وقال: إنّ رسول الله قد غلبه الوجع، حسبنا كتاب الله (الملل والنحل: ج ١ المقدمه الرابعه: ٢٢)، طبعاً لم يكن الهدف من «أكتب» أن يكتب النبيّ بيده ذلك الكتاب، فالنبيّ لم يكتب شيئاً في حياته أبداً كما هو مبحوث في أبحاث أميّه النبيّ، بل المقصود هو الإملاء على كاتب. فناقش الحاضرون رأى الخليفه، فخالفه قوم وقالوا: هاتوا بالدواه والصحيفه ليكتب النبيّ ما يريد، وناصر آخرون عمراً وحالوا دون الإتيان بما طلبه النبيّ، ووقع تنازع بينهم وكثر اللغظ فغضب رسول الله صلى الله عليه وآله بشده لتنازعهم ولما وجّه إليه من كلمه مهينه، وقال: «قوموا عنى لا- ينبغى عندى التنازع». قال ابن عيّاس بعد نقل هذه الوقعه المؤلمه المؤسفه: «الرزيه كلّ الرزيه ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله» (صحيح البخارى كتاب العلم: ٢٢/١ و ١٤/٢، صحيح مسلم: ١٤/٢، مسند أحمد: ٣٢٥/١، الطبقات الكبرى: ٢٤٤/٢، الملل والنحل: ٢٢/١). إنّ هذه الوقعه التاريخيه قد نقلها فريق كبير من محدّثي الشيعه والسنه ومؤرخيهم وتعتبر روايتها - حسب قواعد فنّ الدرايه والحديث - من الروايات المعتمده الصحيحه، غايه ما فى الأمر أن أغلب محدّثي أهل السنّه نقلوا كلام «عمر» بالمعنى لا باللفظ، ولم يوردوا نصّ الكلمات الجارحه النابيه التى نطق بها فى ذلك المجلس المقدّس. ولا يخفى أنّ الإحجام عن نقل نصّ عبارته ليس لأجل أنّ العبارات التى تفوّه بها تعدّ إهانته لمقام النبوه، بل إنّ هذا التصرف لأجل الحفاظ على مقام الخليفه ومكانته حتى لا يسىء الآخرون النظره إليه إذا عرفوا بما -

يومئذٍ فيه اختلافاً كاد يثير بينهم الفتنة وما تؤدي الفتنة اليه من حرب أهليه لولا أن أراد الله بهم وبدينه الحق الحنيف خيراً(١).

ص: ٧٤١

١- (١) صرف المؤلف إثارة هذا الخلاف عن عمر إلى العرب! وإلا فلا خلاف في المصادر في أن مشير الخلاف إنما كان عمر بن الخطاب فحسب، وإنما كان يريد من ذلك الهاء الناس عن البيعة لأحد بعد رسول الله حتى يحضر أبوبكر من السنح، فلما حضر، حضر إلى عمر تفكيره في قوله سبحانه: «إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ» فاستسلم للأمر الواقع، لحصول المأمول.

الفصل الحادى والثلاثون: دَفن الرسول صلى الله عليه وآله

اختلاف المسلمين هل مات «محمّد»، عمر يخطب الناس بأنّه لم يمّت، أبو بكر يعود فيخطبهم بأنّه مات ويتلو عليهم القرآن، اقتناع المسلمين بقول أبى بكر، خوف الخلاف فيمن يقوم بأمر المسلمين، بيعه السقيفه ثمّ البيعه العامه لأبى بكر، تجهيز النبى وغسله، مرور الناس به رجالاً- فساءً فصبياناً، دفنه حيث قبض، إنفاذ جيش أسامه إلى الشام وانتصاره، آخر ما قال الرسول صلى الله عليه وآله.

إختار النبى عليه السلام الرفيق الأعلى فى بيت عائشه ورأسه فى حجرها(١) فوضعت رأسه على وساده وقامت تلتمدم(٢) وتضرب وجهها مع النساء اللاتى أسرعن إليها لأوّل ما بلغهنّ الخبر(٣). وفوجئ المسلمون بالمسجد بهذه الضجّة، لأنهم رأوا النبى فى الصباح وكلّ شىء يدلّ على أنّه عُوفى، ممّا جعل

ص: ٧٤٣

-
- ١- (١) مرّ أنّ ذلك من حديثها هى، وهو معارض بما جاء عن علىّ عليه السلام فى نهج البلاغه: الخطبه ٢٢.
 - ٢- (٢) تلدم: تلطم، مجمع البحرين: ١٦٢/٦.
 - ٣- (٣) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢٦٢/٢.

أبا بكر يذهب إلى زوجته بنت خازجه بالسُّنح(١). لذلك أسرع عمر إلى حيث كان جثمان النبي وهو لا يصدق أنه مات. ذهب فكشف عن وجهه فألفاه لا حراك به، فحسبه في غيبوبه لا بد أن يفيق منها. وعبثاً حاول المغيره إقناعه بالحقيقه الأليمه؛ فقد ظلّ مؤمناً بأنّ محمداً لم يمّت. فلما ألح المغيره قال له:

كذبت. وخرج معه إلى المسجد وهو يصيح: «إنّ رجالاً من المنافقين يزعمون أنّ رسول الله قد توفّي، وأنّه والله ما مات ولكنّه ذهب إلى ربّه كما ذهب موسى بن عمران؛ فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثمّ رجع إليهم بعد أن قيل: قد مات. والله ليرجعنّ رسول الله، كما رجع موسى فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنّه مات»(٢). واستمع المسلمون بالمسجد إلى هذه الصيحات من جانب عمر يرسل الواحده تلو الأخرى وهم في حال أشبه شيء بالذهول. لئن كان «محمّد» قد مات حقاً فواحرّ قلباه! ويا لله للناصب لأولئك الذين رأوه وسمعوا له وآمنوا بالله الذي بعثه بالهدى ودين الحقّ، همّ يُذهل القلب ويذهب باللبّ. وإن كان «محمّد» قد ذهب إلى ربّه، كما يقول عمر، فذلك أدعى للذهول؛ وانتظار أوبته حتّى يرجع، كما رجع موسى أشدّ إمعاناً في العجب. لذلك أحاطت جموعهم بعمر وهم أدنى إلى تصديقه وإلى الإيمان بأن رسول الله لم يمّت. وكيف يموت وقد كان معهم منذ ساعات

ص: ٧٤٤

- ١- (١) وهى منازل بنى الحارث بعوالى المدينه وبينها وبين منزل النبي صلى الله عليه وآله ميل، وهى إحدى محال المدينه كان بها منزل أبى بكر حين تزوّج مليكه. معجم البلدان للحموى: ٢٦٥/٣.
- ٢- (٢) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢٦٦/٢. ومن أين لعمر بهذا؟! أمن التشبيه بموسى بن عمران فقط؟! ومن أين له بأنّه سيرجع ولماذا لا- يبقى عند ربّه كما بقى عيسى بن مريم؟! ومن أين له بأنّه إذا رجع يقطع أرجل رجال زعموا موته كما فى نصوص القرآن الكريم؟! اللهمّ لم يكن ذلك كذلك إلّالاحاجه فى نفس يعقوب قضاها، تلك هى إلهائهم عن البيعه لأحد حتّى يحضر أبوبكر من السنح، فلما حضر، حضر عمر فكرته عن قوله سبحانه: «إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ» ولذلك فقد سكت وأذعن واستسلم للأمر الواقع إذ حصل الأمل.

يرونه ويسمعون إلى صوته الجهوري وإلى دعائه واستغفاره! وكيف يموت وهو خليل الله الذي اصطفى لتبليغ رسالته، وقد دانت له العرب كلها، وبقي أن يدين له كسرى، وأن يدين هرقل بالإسلام! وكيف يموت وهو هذه القوه التي هزت العالم مدى عشرين سنة متواليه وأحدثت فيه أعنف ثوره روحيه عرف التاريخ. لكن النساء هناك ما زلن يلتدمن ويضربن وجوههن علامه أنه مات. ولكن عمر هاهنا في المسجد ما يزال ينادى بأنه لم يموت وبأنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، وبأن الذين يقولون بموته إنما هم المنافقون؛ هؤلاء المنافقون، الذي سيضرب «محمد» أيديهم وأعناقهم بعد رجعتهم. أي الأمرين يصدق المسلمون؟ لقد أخذهم الفزع أول الأمر، ثم ما زالت بهم أقوال عمر تبعث إلى نفوسهم الأمل برجعه النبي، حتى كادوا يصدقون أمانيتهم ويصوّرون منها لأنفسهم حقائق يكادون يستريحون إليها.

وإنهم كذلك إذ أقبل أبو بكر آتياً من الشينح وقد بلغه الخبر الفادح، وبصير بالمسلمين وبعمر يخطبهم، فلم يقف طويلاً ولم يلتفت إلى شيء، بل قصد إلى بيت عائشه فاستأذن ليدخل فقبل له: لا حاجه لأحد اليوم ياذن.

فدخل فألقى النبي مسجى في ناحيه من البيت عليه برد حبره، فأقبل حتى كشف عن وجهه ثم أقبل عليه يقبله وقال: ما أطيبك حياً وما أطيبك ميتاً! ثم إنه أخذ رأس النبي بين يديه وحدق بمعارف وجهه التي بقيت لم ينكرها عدوان الموت عليها وقال: بأبي أنت وأمي! أما الموته التي كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لن تصيبك بعدها موته أبداً! ثم أعاد الرأس إلى الوساده وردّ البرد على وجهه (1) وخرج وعمر ما يزال يكلم الناس ويقتنعهم بأن «محمدًا» لم

ص: ٧٤٥

يمت. وفسح الناس لأبي بكر طريقاً! فلما دنا من عمر ناداه: على رسلك يا عمر: أنصت! لكن عمر أبي أن يسكت أو ينصت واستمر يتكلم. فأقبل أبو بكر على الناس وأشار إليهم بأنه يكلمهم. ومن كأبي بكر في هذا الموقف! أليس هو الصديق صفى النبي ومن لو اتخذ النبي خليلاً لا تأخذه خليلاً! لذلك أسرع الناس إلى تلبية دعوته وانصرفوا إليه عن عمر؛ فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنه من كان يعبد «محمدًا» فإن «محمدًا» قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. ثم تلا قوله تعالى: وَ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ١ . وكان عمر قد أنصت حين رأى انصراف الناس إلى أبي بكر؛ فلما سمع أبا بكر يتلو هذه الآية خر إلى الأرض ما تحمله رجلاه موقناً أن رسول الله قد مات (١). وأما الناس فقد أخذوا من قبل بأقوال عمر، حتى لقد ألفوا أنفسهم إذ سمعوا هذه الآية يتلوها أبو بكر وكأنهم لم يكونوا يعلمون أنها نزلت (٢). وكذلك زایل القلوب كل شك في أن «محمدًا» قد اختار جوار الرفيق الأعلى وأن الله قد ضمّه إليه (٣).

أفكان عمر غالباً حين اقتنع بأن «محمدًا» لم يمت وحين دعا الناس إلى مثل اقتناعه؟ كلا! وإن العلماء ليحدثونا اليوم بأن الشمس ستظل تتناثر على حقب الدهور حتى يجيء يوم تفنى فيه. أفصدق أحد هذا الكلام من غير أن تساوره الشكوك في إمكانه؟ هذه الشمس التي ترسل من ضيائها ومن

ص: ٧٤٤

١- (٢) أفلم يكن يسمع بها من قبل؟!

٢- (٣) فما الفرق بينهم وبين أبي بكر؟! ألم يكن كأحدهم؟!

٣- (٤) الطبقات الكبرى: ٢/٢٤٨.

حرارتها ما يحيا العالم به كيف تفنى وكيف تنطفئ ثم يبقى العالم بعدها يوماً! و«محمّد» لم يكن أقل من الشمس ضياءً، ولا حراره، ولا- قوه. وكما أنّ الشمس مُحسنه فقد كان «محمّد» محسناً. وكما أنّ الشمس تتصل بالكائنات كلها، فقد كان روح «محمّد» يتصل بالكائنات جميعاً، وما زال ذكره صلى الله عليه وآله يعطر الكون كله. فلا عجب إذا اقتنع عمر بأن «محمّد» لا يمكن أن يموت. وهو حقاً لم يموت ولن يموت (١).

ص: ٧٤٧

١- (١) حين مات النبي صلى الله عليه وآله كان يوماً للمسلمين مضرب المثل فإذا بالغوا في يوم مصيبه قالوا: (إنه كيوم مات فيه رسول الله). وما تنتظر من المسلمين ساعه يسمعون الواعيه والباب مغلق على من فيه، إلماً أن يهرعوا فيجتمعوا في مسجدهم والطرقات نكساً أبصارهم مطأطئ رؤوسهم. ولم تبق عين لم تدمع، ولا قلب لم يجزع، ولا نفس لم تنقطع. حتى أصبح الناس كالغنم المطيره في الليله الشاتيه (كما في الحديث). ولكن عمر بن الخطاب أبى على الناس تصديقهم بموت نبيهم، إذ طلع إلى الناس ماسكاً سيفاً قائلاً: إن رجلاً من المنافقين يزعمون أنّ رسول الله توفى وإن رسول الله ما مات ولكنّه ذهب إلى ربّه كما ذهب موسى ابن عمران، فغاب عن قومه أربعين ليله، ثم رجع بعد أن قيل مات، والله ليرجع رسول الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنّ رسول الله مات. (السيره النبويه لابن هشام: ٣٠٥/٤، وتاريخ الطبرى: ٤٤٢/٢). وجاء في روايه أخرى بأنه: لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله كان أبوبكر غائباً فجاء بعد ثلاث، ولم يجرؤ واحد أن يكشف عن بطنه حتى أربد (تغير) بطنه وكان عمر يقول: لم يموت، وكان يتوعد الناس بالقتل. (أنساب الأشراف: ٥٦٥/١-٥٦٨، وتاريخ الطبرى: ٤٤٣/٢، تفسير القرطبي: ٢٢٢/٤). وتذكر روايه ثالثة فوجد (أى أبو بكر) عمر بن الخطاب قائماً يوعد الناس ويقول: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله حي لم يموت وأنه خارج إلى من أرجف به وقاطع أيديهم وضارب أعناقهم وصالبهم. (الطبقات: ٢٦٦/٢، وتاريخ الطبرى: ٤٤/٢، والكامل فى التاريخ: ٣٢٣/٢). وجاء فى الملل والنحل: وقال عمر بن الخطاب: من قال إنّ محمداً مات قتلته بسيفى هذا، وإنما رفع إلى السماء، كما رفع عيسى بن مريم. (الملل والنحل: ١٥/١، وأنساب الأشراف: ٥٦٥/١). وقال عمر: إنى لأرجو أن يعيش رسول الله صلى الله عليه وآله حتى يقطع أيدي رجال من المنافقين وألسنتهم يزعمون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد مات. (مسند أحمد بن حنبل: ١٩٦/٣، كتاب العثمانيه: ٧٩). استأذن عمر والمغيره فدخلوا عليه فكشفا الثوب عن وجهه فقال عمر: واغشياه ما أشد غشى رسول الله صلى الله عليه وآله.

وكان أسامه بن زيد قد رأى النبي صباح ذلك اليوم حين خرج إلى المسجد وظنّ كما ظنّ المسلمون جميعاً أنّه تعافى، فذهب ومن كان قد عاد إلى المدينة من الجيش المسافر إلى الشام، ولحق بالمعسكر بالجرف وأمر الجيش بالتجهز للمسير. وإنّه لكذلك إذ لحق به الناعى نذيراً بوفاه النبي، فعاد أدراجه وأمر الجيش فرجع كلّه إلى المدينة؛ ثمّ ذهب هو فرّكز علمه عند باب عائشه وانتظر ما سيكون من أمر المسلمين من بعد(١).

والحقّ أنّ المسلمين كانوا من أمرهم في حيره. فهم لم يلبثوا بعد أن سمعوا أبا بكر، وبعد أن أيقنوا أنّ «محمّداً» قد مات، حتّى انحاز حيّ من الأنصار إلى سعد بن عباده في سقيفه بنى ساعده، واعتزل على بن أبي طالب والزبير بن العوام وطلحه بن عبيدالله في بيت فاطمه، وانحاز المهاجرون ومعهم أسيد بن حُضير في بنى عبدالأشهل إلى أبي بكر. وإنّ أبا بكر وعمر لكذلك إذ أتى آتٍ ينبئهما بنبأ الأنصار الذين انحازوا إلى سعد بن عباده، ثمّ يردف النبأ بقوله: فإن كان لكم بأمر الناس حاجه فأدركوا الناس قبل أن يتفاقم أمرهم ورسول الله صلى الله عليه و آله في بيته لم يُفرغ من أمره قد أغلق دونه الباب أهله. قال عمر موجّهاً حديثه إلى أبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من

ص: ٧٦٠

الأنصار حتّى ننظر ما هم عليه. وإنّهم لفي طريقهم إذ لقيهم من الأنصار رجلاً صالحاً، فذكر للمهاجرين ما تمألاً عليه القوم وسألهم: أين يريدون؟ فلما علما أنّهم يريدون الأنصار قالوا: لا عليكم ألاّ تقرّبوهم؛ يا معشر المهاجرين أقضوا أمركم. قال عمر: والله لنا تيّنهم. وانطلقوا حتّى نزلوا بهم في سقيفه بنى ساعده، فإذا بين ظهرانيهم رجل مُزمل، قال عمر بن الخطاب: من هذا؟ قالوا: سعد بن عباد، به وجع. فلما جلس المهاجرون قام خطيب الأنصار فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أمّا بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم يامعشر المهاجرين رهطٌ منّا وقد دفت دافه من قومكم وإذا هم يريدون أن يحتازونا من أصلنا ويغصبونا الأمر.

وكانت هذه روح الأنصار أثناء حياة النبيّ. لذلك لم يلبث عمر أن سمع هذا الكلام حتّى أراد أن يدفعه؛ فأمسك به أبو بكر مخافه شدّته وقال: على رسلك يا عمر! ثمّ قال موجّهاً كلامه للأنصار: «أيها الناس. نحن المهاجرون أوّل الناس إسلاماً، وأكرمهم أحساباً، وأوسطهم داراً، وأحسنهم وجوهاً، وأكثرهم ولاده في العرب، وأمسيهم رحماً برسول الله. أسلمنا قبلكم، وقدمنا في القرآن عليكم، فقال تبارك وتعالى: وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ۗ . فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار، إخواننا في الدين وشركاؤنا في الفء وأنصارنا على العدو. أمّا ما ذكرتكم فيكم من خير فأنتم له أهل، وأنتم أجدر بالثناء من أهل الأرض جميعاً. فأما العرب فلن

تعرف هذا الأمر إلهذا الحي من قريش، فمنّا الأمراء ومنكم الوزراء. هناك استشاط أحد الأنصار غضباً وقام فقال: أنا جدي لها المحكك وعديقها المرّجّب، منّا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش. قال أبو بكر: بل منّا الأمراء ومنكم الوزراء، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم؛ وأخذ بيد عمر بن الخطاب وبيد أبي عبيده بن الجراح وهو جالس بينهما.

هنالك كثر اللغط وارتفعت الأصوات وخيف الاختلاف؛ فنادى عمر بصوته الجهورى: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط أبو بكر يده فبايعه عمر وهو يقول:

«ألم يأمر النبي بأن تصلى أنت يا أبا بكر بالمسلمين؟ فأنت خليفته؛ ونحن نبايعك فبايع خير من أحب رسول الله منها جميعاً». ومست هذه الكلمات قلوب الحاضرين من المسلمين أن كانت معبّره حقاً عمّا ظهر من إرادة النبي حتى هذا اليوم الأخير الذي رآه الناس فيه، ففضى ذلك على ما بينهم من خلاف، وأقبلوا فبايع المهاجرون (١) ثم بايع الأنصار (٢).

ص: ٧٦٢

١- (١) لم يذكر منهم سوى عمرو وأبي عبيده بن الجراح.
٢- (٢) سيره ابن هشام: ٦٥٦/٢ و ٦٥٨ و ٦٥٩، وتاريخ يعقوبى: ٧/٢-٨، والكامل فى التاريخ لابن الأثير: ٢٢٠/٢-٢٢٥. حادثه السقيفه من أهم الحوادث فى التاريخ الإسلامى وأخطرها، حيث أصبحت المنطلق الذى أسس عليه البعض واعتمد قراراتها كنصوص شرعية فى إداره الحكم فيما بعد، بينما يعتقد مذهب أهل البيت بأن الاجتماع المذكور ليس بشرعى وغير ملزم للمسلمين، مادام صاحب الرسالة قد نصّ على الإمام على بالإمامه بعده وأعدّه من أجل التصدى لهذه المهمه. وإليك مناقشه ما تم فى هذا الاجتماع ليتبين لك لعب المعادلات السياسيه فى الساعه الأخيره من دفن النبي، وعدم شرعية هذا الاجتماع الذى جرّ ما وراءه من الويلات والتمزق ومظاهر الانحراف فى صفوف الأمه الإسلاميه إلى يومنا هذا. عقد رسول الله فى مرض وفاته لواءً بيده لمولاه أسامه بن زيد، وأمره على جيش فيه المهاجرون والأنصار -

وإذ كان الغد من ذلك اليوم، جلس أبو بكر على المنبر وتقدّم ابن الخطّاب، فتكلّم قبل أبي بكر فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: إنّي قد قلت لكم بالأمس مقاله ما كانت ممّا وجدتها في كتاب الله ولا كانت عهداً عهداً إليّ رسول الله، ولكنّي قد كنت أرى أنّ رسول الله سيديّ أمرنا ويبقى ليكون آخرنا. وإنّ الله قد أبقى فيكم كتابه الذي به هدَى رسولُه. فإنّ اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له. وإنّ الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٦٦٠/٢.

٢- (٢) وهذه الخطبه تبين نهج الدوله علانيه في رفض الثقل الثاني الذي أوصى به رسول الله صلى الله عليه وآله، والاعتماد على ثقل واحد ألا- وهو القرآن وهو نفس كلام عمر لرسول لله صلى الله عليه وآله في رزيه يوم الخميس، حيث قال: (حسبنا كتاب الله) ردّاً على قول الرسول صلى الله عليه وآله في ذلك اليوم: إنني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض يوم القيامة. (صحيح مسلم: ٢٢/٥-٢٦ ح ٨، ٢٤، مسند أحمد: ٤٩٢/٥ ح ١٨٧٨٠، كنز العمال: ١٧٨/١ ح ٨٩٨). فموقف الدوله هذا يعنى نقضاً لقول الرسول صلى الله عليه وآله في الثقلين في خطبه حجه الوداع وخطبه بيعه الغدير ووصيه يوم الخميس. وأراد عمر من توضيحه منهج الدوله الخطير الوقوف أمام الحوادث المتوقعه، وعلى رأسها مطالبه الإمام عليّ عليه السلام بالخلافه أولاً. وثانياً: إقناع الناس بقبول هذه النظرية الجديده وحيده الجانب. وردّ الملتزمين بنصّ الرسول صلى الله عليه وآله في بيعه يوم الغدير القائم على الثقلين، مثلما قال الأنصار إستناداً إليها: لا نبايع إلّاعلياً عليه السلام ومثلما استند إليها بنوهاشم وباقي المهاجرين في تأييدهم لعليّ عليه السلام والإلتفاف حوله. وعملية سلب السلطه من الإمام عليّ عليه السلام من قبل أبي بكر تعنى نسف: ١- النظرية السياسيّه: فسلب السلطه من أهل البيت عليهم السلام بتوليّه أبي بكر ثمّ عمر ثمّ ابن الجراح، تعنى إبعاد أهل البيت عليهم السلام عن الخلافه. وذهبوا في النظرية إلى درجه منع بنى هاشم من تولّي وظائف الدوله، كولاه ومسؤولين. ٢- النظرية الإقتصاديّه: وتعنى سلب أى قدره اقتصاديه لبنى هاشم تمكّنهم من النهوض لتطبيق نظريه الثقلين، لذلك سلبوا فدكاً من فاطمه الزهراء بحديث: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث» المخالف للقرآن الذي مرّ الحديث حوله في الفصل (الحادى والعشرون) الصفحه (٥٤٧-٥٥٠) هامش رقم (٣). ولم ينفع فاطمه شهاده الإمام عليّ عليه السلام وأمّ أيمن وأمّ سلمه لها، وكانت فاطمه عليها السلام صاحبه اليد على البستان من مده طويله، والشرع يقول: «البيّنه على من ادعى واليمين على من أنكر» فجعلوها هي المدعيه! طالبين منها الدليل ليهربوا هم من إيضاح البيّنه لفقدانهم لها! ويجب على أى حاكم مسلم البتّ لصالحها، وحتىّ القوانين الوضعيه في العالم الآن تحكّم لها عليها السلام، وفعالاً حكم لها عمر بن عبدالعزيز فأعاد لأبنائها حقّها وحكّم لها المأمون العباسى. ٣- النظرية التشريعيّه: وهى المتمثله في قول الرسول لعليّ عليه السلام: أنا مدينه العلم وعليّ بابها، وأقضاكم -

وقام أبو بكر بعد أن تمت البيعه فألقى في الناس هذا الخطاب الذي يعتبر آية من آيات الحكمة وفصل الخطاب. قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«أما بعد أيها الناس فإنني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنتم فأعينوني، وإن أسأت فقوموني. الصدق أمانه، والكذب خيانته، والضعيف فيكم قوياً عندي، حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف

ص: ٧٦٦

عندى حتى آخذ الحقّ منه إن شاء الله. لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلّا ضربهم الله بالذلّ، ولا تشيع الفاحشه فى قوم إلّا عمهم الله بالبلاء. أطيعونى ما أطعت الله ورسوله. فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعه لى عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله»(١).

وبينما المسلمون يختلفون ثم يتفقون على بيعه أبى بكر بيعه السقيفه، ثم بيعه العامه، كان جثمان النبى حيث كان على سرير موته يُحيط به الأقربون من أهله. فلما تمت البيعه لأبى بكر أقبل الناس على جهاز رسول الله كى يدفنه(٢)، وقد اختلفوا فيما بينهم أين يدفن؟ قال جماعه من المهاجرين:

يُدفن فى مكّه مسقط رأسه وبين أهله. وقال غيرهم: بل يدفن فى بيت المقدس حيث دفن الأنبياء قبله. وما أدرى كيف قال أصحاب هذا الرأى وبيت المقدس كان ما يزال بأيدى الروم، وكان بين الروم والمسلمين من العداوه منذ مؤته ما جهّز رسول الله جيش أسامه للشأر له. ولم يرض المسلمون هذا الرأى ولاهم رضوا أن يدفن النبى بمكّه، ورأوا أن يدفن بالمدينه التى آوته ونصرته والتى استظلت قبل غيرها بلواء الإسلام. وتحدثوا أين يدفن؟ قال فريق منهم: يدفن بالمسجد حيث كان يخطب الناس ويعظهم ويصلّى بهم؛ ورأى هؤلاء أن يدفن حيث المنبر أو إلى جانبه. لكنّ هذا الرأى لم يلبث أن رُفض لما روى عن عائشه أن النبى كان عليه رداء أسود حين اشتد به وجعه فكان يضعه مره على وجهه ويكشفه مره عنه وهو يقول: قاتل الله قوماً اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد(٣)! ثم قضى أبو بكر بين الناس إذ قال: إنى

ص: ٧٤٧

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٦٦١/٢.

٢- (٢) السيره النبويه لابن هشام: ٦٦٢/٢.

٣- (٣) انظر فقه الحديث وما يورد عليه فى كتاب «الوهابيه دعاوى وردود»: ١٥٦-١٦٠.

سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول:

ما قبض نبيّ إلّادفن حيث يُقبض. وبذلك تقرر أن يحفر له مكان الفراش الذي قبض فوقه (١).

وتولّى أهله الأقربون وفي مقدمتهم عليّين أبي طالب والعبّاس بن عبدالمطلب وولداه الفضل وقثم وأسامة بن زيد غسل النبيّ. وكان أسامة بن زيد وشُقران مولى النبيّ هما اللذان يصبّان الماء عليه وعليّ يُغسله وعليه قميصه؛ فقد أبوا أن يرفعوا عنه القميص. وكانوا أثناء ذلك يجدون به طيباً حتّى كان عليّ يقول:

«بأبي أنت وأمي! ما أطيبك حيّاً وميتاً!» ويذهب بعض المستشرقين إلى أنّ هذه الرائحة الزكية ترجع إلى ما اعتاد النبيّ طوال حياته من التطيب حتّى كان يرى الطيب بعض ما حُبب إليه من هذه الحياه الدنيا.

فلَمّا فرغوا من غسله وعليه قميصه كُفن في ثلاثه أثواب ثوبين صُحاريين وبُرد خبره أدرج فيه إدراجاً. ولما تمّ الجهاز على هذا النحو تُرك الجثمان حيث كان وفتحت الأبواب للمسلمين يدخلون من ناحيه المسجد يطوفون يُلقون على نبيهم نظره الوداع ويصلّون على النبيّ ثمّ يخرجون وقد هوى الحزن بنفوسهم إلى قرار سحيق.

وامتألت الحجره حين دخل أبو بكر وعمر يصلّيان مع المسلمين لا يؤمّهم في صلاتهم هذه أحد. فلَمّا استوى الناس بالمكان وقد علاهم الصمت قال أبو بكر: السلام عليك يا رسول الله ورحمه الله وبركاته. نشهد أنّ نبيّ الله ورسوله قد بلّغ رساله ربّه وجاهد في سبيله حتّى أتمّ الله النصر لدينه. وأنّه وفي بوعدّه، وأمر ألّانعبد إلّالله وحده لا شريك له. وكان المسلمون يجيئون عن كلّ جملة من كلام أبي بكر في هيبه وخشوع: آمين آمين. فلَمّا فرغ الرجال

ص: ٧٦٨

١- (١) السيره النبويّه لابن هشام: ٦٦٣/٢. بل قضى بذلك عليّ عليه السلام.

من صلاتهم وخرجوا أدخل النساء ثم أدخل الصبيان من بعدهم. وهؤلاء وأولئك جميعاً كلّ واجف قلبه محزون فؤاده يفرى الأسي كبدته لفراق رسول الله خاتم النبيين، وتساوره على دين الله أشدّ الخشيه من بعده(١).

وإني لأستعيد الساعه بعد أكثر من ألف وثلاثمائة سنه من ذلك اليوم صوره هذا المشهد الرهيب المهوب فتمتلى نفسى هيبه وخشوعاً ورهبه. هذا الجثمان المسجى فى ناحيه من الحجره التى ستصبح غداً قبراً والتى كانت إلى أمس بساكنها حياه ورحمه ونوراً، هذا الجثمان الطاهر لذلك الرجل الذى دعا الناس إلى الهدى والحق، وكان لهم المثل الأعلى فى البرّ والرحمه والاقدام والهدى وإنصاف المظلوم والانتصاف من كلّ معتدٍ أثيم، وهذه الجموع تمرّ به كاسفه البال كسيره الطّرف، وكلّ رجل وكلّ امرأه وكل صبى يذكر فى هذا الرجل الذى اختار جوار ربّه أباه وأخاه وصاحبه ووفيه ونبيّ الله ورسوله. أيه قداسه كانت تمتلى بها تلك القلوب العامره بالإيمان الممتلئه إشفافاً لما يخبئ الغد بعد موت الرّسول. استعيد الساعه صوره هذا المشهد الرهيب فأراني شاخصاً له مأخوذاً به ممتلى القلب من جلال هيبتة أكاد لا أجد إلى الانصراف عنه سيلاً.

وكان من حقّ المسلمين أن تساورهم الخشيه. فمنذ ذاع خبر موت النبيّ فى المدينه وترامى إلى قبائل العرب المحيطه بها اشراّبت اليهوديه والنصرانيه ونجم التّفاق وتبلبت عقائد المستضعفين من العرب، وهم أهل مكّه بالرجوع عن الإسلام، بل أرادوا ذلك، حتّى خافهم عتّاب بن أُسيد عامل النبيّ على أمّ القرى فتوارى منهم. ولولا أن قام سهيل بن عمرو بينهم فقال بعد أن ذكر وفاه النبيّ: إنّ ذلك لم يزد الإسلام إلّاقوه، فمّن رابنا ضربنا عنقه،

ص: ٧٦٩

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٦٦٢-٦٦٤، والطبقات الكبرى لابن سعد: ٢٧٧/٢ و ٢٨٤-٢٨٥ و ٤٩٢، وتاريخ الطبرى: ٢٣٨/٢-٢٣٩.

ثُمَّ قَالَ: بِأَهْلِ مَكَّةَ كُنْتُمْ آخِرَ مَا أَسْلَمَ فَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ مَنْ ارْتَدَ، وَاللَّهِ لَيَتَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ هَذَا الْأَمْرَ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، لَمَا رَجَعُوا عَنْ رَدِّتِهِمْ. (١)

وقد كان للعرب في حفر قبورهم طريقتان: إحداهما لأهل مكة يحفرون القبر مُسطح القاع؛ والأخرى لأهل المدينة يحفرونه مقوّساً. وكان أبو عبيده بن الجراح يَضْرَحُ كحفر أهل مكة، وأبو طلحة زيد بن سهل هو الذى يحفر لأهل المدينة. وحر أهل النبي أى الطريقتين يسلكون في حفر قبره.

فبعث عمّه العتّاس رجلين يدعو أحدهما أبا عبيده ويدعو الآخر أبا طلحة. فأما المبعوث إلى أبي عبيده فلم يعد به (٢) وجاء المبعوث إلى أبي طلحة به فلحد لرسول الله على طريقه أهل المدينة (٣). فلما كان المساء وبعد أن مرّ المسلمون بالجثمان الطاهر وودّعه الوداع الأخير اعترم أهل النبي دفنه، فانتظروا حتى مضى هزيع من الليل وفرشوا القبر برداء أحمر كان النبي يلبسه، ثم أنزله الذين تولّوا غسله إلى المقرّ الأخير لرفاته وبنوا فوقه باللبن وأهالوا التراب فوق القبر. قالت عائشه: ما علمنا بدفن رسول الله صلى الله عليه وآله حتى سمعنا صوت المساحي من جوف الليل (٤)، وقالت فاطمه مثل هذا القول. وكان دفنه ليله الأربعاء الرابع عشر من شهر ربيع الأول (٥)، أى بعد يومين من اختياره الرفيق

ص: ٧٧٠

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٦٦٥/٢-٦٦٦.

٢- (٢) ذلك لأنه كان مشغولاً بتوطيد بيعه الخليفه!

٣- (٣) السيره النبويه لابن هشام: ٦٦٣/٢.

٤- (٤) ما قاله الأستاذ تؤيده المصادر التاريخيه فإنّ عائشه - وهى الزوجه الأثيره عند الرسول صلى الله عليه وآله بحسب زعمها - ما كانت تعلم بدفن رسول الله حتى سمعت صوت المساحي من جوف الليل، ليله الأربعاء وأن أبا بكر وعمر - خليليه ووزيريه حسب زعم المؤلّف - لم يشهدا دفن النبي أيضاً. كنز العمّال: ١٤٠/٣، والعقد الفريد: ٦١/٣، وتاريخ الذهبى: ٣٢١/١. وتاريخ الطبرى: ٤٥٢/٢. وبهذا نلزم الأستاذ بأقواله من أنّ عائشه هى أعرف الناس بتفصيلات حياه النبي صلى الله عليه وآله، ولكن هذه المره نراها لا تعلم بدفن زوجها فكيف التوفيق!؟

٥- (٥) تذكر مصادر مدرسه أهل البيت أنّ وفاه النبي كان فى (٢٨) صفر وليس فى الثانى عشر من ربيع الأول.

وظلت عائشه من بعد ذلك تعيش بمنزلها فى الحجره المجاوره لحجره القبر سعيده بهذا الجوار الكريم. ولما مات أبوبكر دفن إلى جوار النبى، كما دفن عمر إلى جواره من بعد (٢). ويروى أنّ عائشه كانت تزور حجره القبر سافره إلى أن دفن عمر بها إذ لم يكن بها إلى يومئذ غير أبيها وزوجها. فلما دفن عمر كانت لا تدخل إلا محتجبه لابسه كامل ثيابها (٣).

ولم يكد المسلمون يفرغون من جهاز رسول الله ودفنه حتى أمر أبوبكر أن ينفذ جيش أسامه لغزو الشام تنفيذاً لما كان قد أمر رسول الله به (٤).

وقد أبدى بعض المسلمين من الاعتراض على ذلك ما أبدوا أيام مرض النبى.

وانضم عمر إلى المعترضين ورأى ألا يشئت المسلمون وأن يحتفظ بهم فى المدينه مخافه أمر قد يدعو إليهم. لكن أبابكر لم يتردد برهه فى تنفيذ أمر الرسول، ورفض أن يستمع إلى قول الذين أشاروا بتعيين قائد أسن من أسامه وأكثر منه فى الحرب ذربه. وتجهز الجيش عند الجرف وأسامه على رأسه، وخرج أبو بكر يودعه. هنالك طلب إلى أسامه أن يعفى ابن الخطاب من

ص: ٧٧١

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٦٦٤/٢.

٢- (٢) بأى مجوز شرعى؟! بينما لم تسمح عائشه لسبط الرسول الأكبر ووريثه الحسن بن على المجتبى بأن يدفن عند جدّه لأن الزهراء فاطمه هى الوريث الوحيد لرسول الله صلى الله عليه و آله عند وفاته فأبناؤها ورثه رسول الله من بعدها بلا ريب، فإن لم يكن هو وارثاً لجدّه فكيف يجوز لعائشه أن تدعى لذلك لنفسها فتسمح لجثمان أبيها ولجثمان عمر بأن يُدفنا عند رسول الله صلى الله عليه و آله! وهل هى من أولى الأمر وأصحاب القرار أم أنها مالكة لما لم يملكها الرسول من أرض داره التى كان يسكنها. تلك إذن قسمه ضيزى! وإننا لله وإننا إليه راجعون ممّا جرى على أهل بيت نبىه من قبل هؤلاء الذين يزعمون أنهم يعملون بكتاب الله ويتركون سنّه سول الله!

٣- (٣) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢٩٤/٢. وهل له من سند شرعى؟!

٤- (٤) بل لم يكن ذلك كذلك وإنما كان بعد لأى من الزمن لا يقل عن ثمانيه عشر يوماً، فإنه إنما خرج لأول ربيع الثانى. كما فى مغازى الواقدي: ١١٢٥/٢.

الذهاب معه ليبقى بالمدينه يشير على أبي بكر (١). ولم تمض عشرون يوماً على مسيره الجيش حتى أغار المسلمون على البلقاء وحتى انتقم أسامه للمسلمين ولأبيه الذي قُتل بمؤته أشد انتقام. وقد كانت صيحه الحرب في تلك الأيام المظفره: «يا منصور أمت». وكذلك نفذ أبوبكر و نفذ أسامه أمر النبي وعاد بالجيش إلى المدينه ممتطياً الجواد الذي قتل أبوه بمؤته عليه، يتقدمه اللواء الذي عقده له رسول الله بيده (٢).

ولما قبض النبي طلبت فاطمه ابنته إلى أبي بكر أن يردّ عليها ما ترك من أرض بفدك وخيبر. لكنّ أبا بكر أجابها بقول أبيها:

«نحن معاشر الأنبياء لا نُورث ما تركناه صدقه». ثمّ قال لها: فأما إن كان أبوك قد وهبك هذا المال فإنّي أقبل كلمتك في ذلك وأنفذ ما أمره به وأجابت فاطمه بأنّ أباه لم يفيض إليها بشيء من ذلك، إنّما أخبرتها أم أيمن بأنّ ذلك كان قصده. عند ذلك أصرّ أبوبكر على استبقاء فدك وخيبر وردّهما إلى بيت مال المسلمين (٣).

ص: ٧٧٢

١- (١) وهو إنّ دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أن عمر وأبا بكر كانا مأمورين بالحضور في جيش أسامه بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله. ولعلّ تخلفهما كان لمصلحه أهمّ من أمر الرسول بالالتحاق به. وقد كشفت الأحداث أنّ الأمر الأهمّ كان الأخذ بزمام أمر الأُمّه بالنحو الذي قرأت. فياله من اجتهاد وياله من تأوّل وتوجيه للتمرد على أوامر الرسول صلى الله عليه وآله. ولو كانا يأتمران بأمر الرسول صلى الله عليه وآله لكان الفتح المؤزّر كما لاحظت ولما كانت الأُمّه تنشقّ شقّين ولما اختلف المهاجرون والأنصار في نصرتهم لعلّي عليه السلام ولما كان شعار خوف الفتنة يوقعهم فيما وقعوا فيه من الفتن الى يومنا هذا الذي تشهد فيه بعض المنضوين تحت شعار سنّه الرسول الأعظم يحاربون أتباع أهل البيت ويحرّمون نصره حزب الله في جنون لبنان الأبي في معركة المصيريه مع الإسرائيليين واليهود الغاصيين! فإنّا لله وإنا إليه راجعون.

٢- (٢) تاريخ الطبري: ٢/٢٤٦. وكان بيد بريده بن الحُصيب الأسلمي، الذي انضمّ إلى عليّ عليه السلام وأبي يعه أبي بكر حتى اضطرّ عليّ عليه السلام إليها فتبعه بريده. وكان ممن حضر جنازه فاطمه الزهراء عليها السلام في جوف الليل.

٣- (٣) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢/٣١٤-٣١٧. بل لمعرفة الحقيقه راجع: فدك في التاريخ للشهيد السيد محمّد باقر الصدر

قدس سره.-

وكذلك خرج «محمد» من هذه الحياه الدنيا لم يترك شيئاً من عَرَضها الزائل لأحد بعده، خرج منها كما دخل إليها وقد ترك فيها للناس هذا الدين القيم، ومهد فيها لهذه الحضاره الإسلاميه الكبرى التي تفتياً العالم ظلالها من

ص: ٧٧٣

قبل وسيتفياً ظلالها من بعد، وأقرّ فيها التوحيد، وجعل فيها كلمه الله العليا وكلمه الذين كفروا السفلى، وقضى فيها على الوثنيه فى كل صورها ومظاهرها القضاء المبرم، ودعا الناس فيها أن يتعاونوا على البرّ والتقوى لا على الإثم والعدوان، وترك من بعده كتاب الله هدىً للناس ورحمه، وكان فيه المثل الأسمى والأسوه الحسنه. وكان من آخر ما ضربه للناس من الأمثله أن قال للناس يوم كلمهم أثناء مرضه:

«أيها الناس من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منى، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضى فليستقد منه، ومن أخذت له مالاً فهذا مالى فليأخذ منه، ولا يخش الشحاء فهى ليست من شأنى». وادّعى عليه رجل ثلاثه دراهم فأعطاه عوضها (١)، ثم ترك العالم بعد ذلك مخلفاً هذا الميراث الروحى العظيم الذى ما يزال ينتشر فى العالم حتى يتمّ الله كلمته وينصر دينه على الدين كله ولو كره الكافرون «صلى الله عليه وسلم» (٢).

ص: ٧٧٤

-
- ١- (١) الأحاديث الطوال للطبرانى: ١٠٦، والمعجم الأوسط للطبرانى: ١٠٤/٣.
 - ٢- (٢) مَرِّ بيان كيفية الصلاه على محمّد وآله كما يريدّها الرسول صلى الله عليه وآله لا كما يُمليه المقصّرون فى حقّ محمّد وآل محمّد من الصلاه البتراء التى نهى عنها سيّد المرسلين صلى الله عليه وآله. فراجع.

أرجو أن أكون قد وفقت إلى تحقيق ما قصدت إليه من تأليف هذا الكتاب، وأن يكون قد تمّ كما أردت بحثاً علمياً توخّيت فيه الحقيقه العلميه وحدها، وأن أكون قد مهّدت به السبيل إلى مباحث في موضوعه أكثر استفاضه وعمقاً، تجلو أمام العلم من المسائل النفسيه والروحيه ما يهدى الإنسانيه طريقها إلى الحضاره الجديده التي تلتمسها. فهذا الكتاب ليس إلّا بدايه البحث من ناحيه علميه إسلاميه في هذا الموضوع الجليل. وما أشك في أنّ التعمق فيه يكشف عن أسرار كثيره ظن الناس زمناً أن لا سبيل إلى تحليلها تعليلاً علمياً، ثمّ إذا مباحث علم النفس تفسّر لها وتجلوها واضحه للمتعللين.

فحياه «محمد» حياه إنسانيه بحته بلغت أسمى ما يستطيع الإنسان أن يبلغ.

ولقد كان صلى الله عليه وآله حريصاً على أن يقدر المسلمون أنه بشر مثلهم يوحى إليه، حتى كان لا يرضى أن تنسب إليه معجزه غير القرآن، ويصريح أصحابه بذلك» (١).

ص: ٧٧٥

١- (١) لا يوجد أى مستند لهذا الكلام، وأنّ معاجز النبى صلى الله عليه وآله من غير القرآن كانت قد شاعت بين الناس، قال القاضى عياض المالكي... وهو - أى النبى صلى الله عليه وآله - أكثر الرسل معجزه وأبهرهم آيه وأظهرهم برهاناً وهى فى كثرتها لا يحيط بها ضبط. الشفاء: ٢١٢/١ -.

لما جهد المسلمون عطشاً أثناء مسيره جيش العسره إلى غزوه تبوك ثم أمطرتهم السماء، ذهب بعضهم إليه يقول إنها معجزه فكان جوابه:

«إنما هي سحابه مازّه»(١). ولما كسفت الشمس يوم اختار الله ابنه إبراهيم إلى جواره قال الناس: إن هذا الكسوف معجزه، فكان جوابه:

«إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت إنسان ولا لحياته»(٢). ذلك بأنه يريد ألا يعبد أحد إلا الله، وأن يقف المسلمون من أمر الرسول عند محبته وإجلاله والصلاه والسلام عليه.

وذلك ما دعا أبا بكر حين خطب الناس إثر وفاه النبي، والناس مختلفون أمت أم لم يمّت(٣)، إلى أن يقول: (من كان يعبد «محمداً»، فإن «محمداً» قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت)(٤).

ص: ٧٧٦

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٥٢٢/٢. بل ليس ذلك كلامه صلى الله عليه وآله وإنما هو كلام منافق!

٢- (٢) السيره الحلبيه: ٣٠٩/٣-٣١٠. ولكن هذا لا يدل على نفي أى اعجاز سوى القرآن الكريم!

٣- (٣) هذا الكلام الذى اعتمده هيكل وسوّغ له أن ينفى من خلاله المعاجز الأخرى للرسول صلى الله عليه وآله من غير القرآن ينافى الوقائع التاريخيه، ولو أنّ الأستاذ راجع مصادره لوجد أن هذا الكلام لم يكن لرسول الله وإنما كان لشخص منافق أراد أن يشكك بمعاجز الرسول صلى الله عليه وآله والتي منها سقوط المطر فلفظ: «إنما هي سحابه مازّه» ليس لرسول الله وإنما لأحد المنافقين. ولكن الذى دفع بهيكل أن يستفيدة كدليل لنفى معاجز أخرى إنما هو لانسجام هذا القول مع منهجه. راجع السيره النبويه لابن هشام: ٥٢٢/٢.

٤- (٤) السيره النبويه لابن هشام: ٦٥٦/٢. توفى الرسول وأبو بكر غائب بالسنع فأخذ عمر يقول: ما مات رسول الله ولكنه ذهب إلى ربّه كما ذهب موسى وغاب عن قومه أربعين ليله والله ليرجع رسول الله فليقطعن أيدي رجال يزعمون أنه مات. وقال: -

وهذا الذى جرى عليه النبىّ وقال به أبوبكر يوم وفاته هو ما حال بين كثير من علماء المسلمين وكتّابهم والوقوف عند ما اضيف إلى سيره النبىّ من خوارق وضعها بعض الغلاة، مضاهاه لما ورد فى القرآن عن عيسى وموسى، أو دسها من دسوا الاسرائيليات على الإسلام ونبىّه ليزيّفوا بها العقائد وليبعثوا بها الشكّ إلى نفوس من يؤمنون بأنّ سنّه الله لن تجد لها تبديلاً. وما كان «محمّد» بحاجة إلى الخوارق لإثبات رسالته وقد كانت حياته قبل رساله مضرب المثل فى الصدق والكرامه والأمانه، وكانت حياته بعد رساله كلها التضحيه فى سبيل الله وفى سبيل الحق الذى بعثه الله به. تضحيه استهدفت فيها حياته للموت مرّات، بعد أن أغراه قومه بالمال وبالملك وبكل المغريات. وما كان «محمّد» بحاجة إلى الخوارق لإثبات رسالته، ولا كان بحاجة إلى أكثر ممّا قال لعّمّه أبى طالب، حين مشّت اليه قريش لينهى ابن أخيه عنها. فلمّا حدّث الشيخ محمّداً فى ذلك كانت الكلمه التى وجهت التاريخ وجهته قوله: «يا عمّ! والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى، على

أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»(١). ثم احتماله بعد ذلك ما احتمل حتى أظهر الله هذا الأمر.

وقد بلغت هذه الحياه الإنسانيه من السموّ ومن القوه ما لم تبلغه حياه غيرها. وبلغت هذا السمو في نواحي الحياه جميعاً. وما بالك بحياه إنسانيه اتصلت بحياه الكون كلّ من أزلّه إلى أبده، واتصلت بخالق الكون بفضل منه ومغفره. ولولا هذا الاتصال ولولا صدق «محمّد» في رساله ربّه، لرأينا الحياه على كثر الدهور تنفى ممّا قال شيئاً. لكنّ ألفاً وثلاثمائه وخمسين سنه انقضت وما يزال بلاغ «محمّد» عن ربّه آيه الحقّ والهدى. وبحسبنا على ذلك مثلاً واحداً نضربه؛ ذلك ما أوحى الله إلى «محمّد» أنّه خاتم الأنبياء والمرسلين.

انقضت أربعه عشر قرناً لم يقل أحد خلالها إنّه نبيّ أو إنه رسول ربّ العالمين فصدّقه الناس. قام في العالم أثناء هذه القرون رجال تسنّموا ذروه العظمه في غير ناحيه من نواحي الحياه فلم يوهب أحدهم هبه النبوه أو الرساله. ومن قبل «محمّد» كانت النبوات تترى والرسل يتتابعون، ينذر كلّ قومه أنّهم ضلّوا ويردّهم إلى الدين الحقّ ولا يقول أحدهم إنّه أرسل للناس كافه(٢) أو أنّه خاتم الأنبياء والمرسلين. أما «محمّد» فيقولها فتصدّق القرون كلامه. ما كان حديدًا يُفتري وَ لَكِنْ تَصِيدِقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

ولقد جاء «محمّد» للناس بدين الحقّ. ووضع لهم أساس حضاره هي وحدها الكفيله بسعادتهم. ليس هذا الأساس اقتصادياً كأساس الحضاره

ص: ٧٧٨

١- (١) السيره النبويه لابن هشام: ٢٦٦/١.

٢- (٢) عالميه الإسلام لا تنفى عالميه الرسل أولى العزم قبل الإسلام لأنهم أرسلوا للناس كافه ولكنّ بحدود زمانهم.

الغريبه الحاكمه اليوم. إنّما هو أساس روجى يدعو الإنسان إلى حسن إدراك صلته بالوجود ومكانه منه قبل كلّ شىء. فإذا بلغ من هذا الإدراك حدّ الإيمان دعاه إلى إدامه تهذيب نفسه وتطهير فؤاده، وتغذيه قلبه وعقله بالمبادئ الساميه، مبادئ الإباء والأنفه والأخوّه والمحبه والبرّ والعطف. وعلى أساس هذه المبادئ ينظم الإنسان الحياه الاقتصاديه. هذا التدرج هو أساس الحضاره الإسلاميه، كما جاء بها «محمّد». فهى حضاره روجيه أولاً. والنظام الروجى فيها هو أساس النظام التهذيبي، أو النظام الخلقى إن شئت. والمبادئ الخلقيه هى أساس النظام الاقتصادى، أو النظام المادى، فلا يجوز أن يُصْحَى بشىء من هذه المبادئ فى التنظيم الاقتصادى. وأنت ترى أنّ هذا التدرج يجعل أساس الحضاره الإسلاميه يختلف عن أساس هذه الحضاره التى تحكم العالم اليوم وتتحكم فيه، أعظم الاختلاف؛ بل هو على النقيض منه تماماً.

فالنظام الاقتصادى، أو المادى هو الأساس الأول للحضاره الغريبه. ومن ثمّ نشأت فى الغرب مذاهب تريد أن تجعل كلّ شىء فى الحياه خاضعاً لحياه العالم الاقتصاديه، كما أراد غير واحد أن يضع تاريخ الإنسانيه بوجى ما كان من مدّ أو جزر اقتصادى فى أممها المختلفه. وقواعد الخلق أُقيمت وتقام فى كثير من مذاهب الفلسفه الغريبه على القواعد النفعيه الماديه البحته. أمّا المسأله الروجيه فى نظر أهل هذه الحضاره الغريبه مسأله فرديه صرفه، فلا محل لأن يعنى الناس كجماعه أنفسهم بها. وفى اعتقادى أنّ هذا التصوير للحياه هو الذى جرّ على الإنسانيه ما تعانى فى العصور الأخيره من محن. وهو الذى يجعل كلّ تفكير فى منع الحرب وفى توطيد أركان السلام فى العالم قليل الجدوى غير مرجو الثمره. فما دامت صلتى بك أساسها الرغيف الذى آكل أنا أو تأكل أنت، وقائمه بذلك على أساس القوه الحيوانيه فى كلّ منّا،

فسيظل كل منا يرقب الفرصه التي يحسن فيها الاحتيال للحصول على رغيه صاحبه، وسيظل كل منا ينظر للآخر على أنه خصمه لا- على أنه أخوه، وسيظل الأساس الخلقى الكمين في النفس، يخفى حتى تدفع الحاجه لظهوره، أساساً حيوانياً بحثاً، تحركه المنفعه وحدها وتنزلت عليه المعاني الإنسانية الساميه والمبادئ الخلقية الكريمه. مبادئ الإيثار والمحبه والأخوه، فلا يكاد يمسخها ولا تكاد تعلق به.

وفي يقيني أن التصوير الإسلامى للحضاره هو التصوير الجدير بالإنسانيه الكفيل بسعادتها. ولو أنه استقر في النفوس وحكم الحياه حكم الحضاره الغربيه اليوم إياها لتبدلت الإنسانيه غير الإنسانيه، ولانهارت مبادئ يؤمن الناس اليوم بها، ولقامت مبادئ تكفل معالجه أزمات العالم الحاضر على هدى نورها. فالإيمان أولاً، والإيمان قبل كل شىء، هو ما يجب أن يلتمسه الإنسان ويستريح إليه، والإيمان شىء، والإسلام شىء آخر. قال تعالى في آخر سوره الحجرات: قَالَتِ الْمُعْرَبُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ إِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَا يَلْتَكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١ . وقال تعالى: يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٢ . والإيمان شعور روحى يحس به الإنسان يملأ نفسه كلما اتصل بالكون وفنى فى لا نهايه المكان والزمن وامتل الكائنات كلها فى نفسه، وهو مع ذلك كله ذره من هذه العوالم تجرى كلها على سنن تمسخها وتسبح كلها بحمد الله بارئها وخالقها، أهو جل شأنه

ماثل فيها متصل بها، أم هو مستقل بنفسه منفصل عنها؟ هذه مضاربات جدليه عقيمه تضلّ ولا تهدي وتضر ولا تنفع. وهي بعد لا تزيدنا علماً:

وَ يَسْتَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا . وَإِذَا كُنَّا لِلْيَوْمِ لَا نَدْرِكُ مَا الْكُهْرِبَاءُ وَإِن رَأَيْنَا بِأَعْيُنِنَا آثَارَهَا، وَلَا نَعْرِفُ مَا الْأَثِيرُ وَإِن عَرَفْنَا كَيْفَ يَنْقَلُ عَلَى مَوَاجَاتِهِ الصَّوْتِ وَالصُّورَةَ، وَكَانَتْ تَكْفِينَا هَذِهِ الْأَثَارَ لِنُؤْمِنَ بِالْكَهْرِبَاءِ وَبِالْأَثِيرِ.

فما أشدنا غروراً ونحن نشهد كل يوم من بديع صنع الله إذا نحن لم نؤمن به حتى نعرف كنهه. تنزه جل شأنه عما يصفون. إن غايه ما نعرف أن الزمان والمكان وكل ما نصوره لأنفسنا في الوجود أمور نسبيه بالنسبه لنا. إن هي إلا أسماء سميها لنفيد من الحياه خير ما في الحياه. أمّا في الحق فإنها وحده برأها الله وذرنا فيها لنسير في الأرض ولتطورها وتطورنا بإذن الله أطواراً ثم نرد إلى عالم الغيب والشهاده يحكم الله فينا بحكمه إنه حكيم حميد.

يوم يؤمن الإنسان بهذا، وهذا هو الحق، ويجعله أساس حياته، فقد وجب عليه أن يلتمس سُنّه الله في الكون ليجعلها سنته ونظامه. ولا سبيل إلى معرفه هذه السنه إلا بادامه الاتصال بالكون والنظر فيه والتماس العون من الله للاهتداء إلى أسرارهِ. إليه تعالى يتجه الإنسان بقلبه وروحه، إياه يعبد وإياه يستعين. وهذه هي الصلاه، وهذا هو الاتصال بالله شكراً لله على نعمته والتماساً للعون منه أن يهدينا إلى ما لم نهتد إليه. فإذا أثقل جسمنا روحنا وطغت ماديتنا على إنسانيتنا، فقد وجب أن نكف جهد الطاقه عما يجعل

الجسم يثقل الروح ويجعل المادة تطفئ على الإنسانيه. وذلك هو الصوم. فإذا بلغ الإنسان من طريق هذه الرياضه الهدايه إلى ما يهتدى اليه من سنن الكون وأسراره ازداد لإخوانه بنى الإنسان حباً، وتحابّ بنو الإنسان جميعاً فى الله وتعاونوا على البرّ والتقوى، ورحم قويّهم ضعيفهم، ونزل غنيّهم لفقيرهم عن حظّ من ماله. وتلك هى الزكاه، والمزيد عليها هى الصدقه. وهى تزيد الناس محبه بعضهم لبعض وتدعوهم ليجتمعوا من أطراف الأرض ليزداد بعضهم لبعض فى الله محبه. وخير مكان يجتمعون حوله إنّما هو بيت الله بمكّه. وهذا هو الحجّ. وهذه قواعد الإسلام وفرائضه على ما نزل به الوحي وما بيّنه «محمّد» عبدالله ورسوله.

النفس الراضيه المطمئنه إلى هذا الإيمان لا تستريح دون الدأب لمعرفة أسرار الكون وسننه لتزداد اتصالاً بالله. وسبيلها فى هذه المعرفه البحث والنظر فى خلق الله ممّياً فى الكون نظراً علمياً دعا القرآن إليه وجدّد المسلمون الأولون فيه، وهو الآن الطريقه العلميه الحديثه فى الغرب. وكلّما ازداد المؤمن معرفه لهذه الأسرار أقام على أساس إيمانه ومعرفته مبادئ الخلق التى يحمل نفسه عليها فى الحياه. وقد جاء فى القرآن الكريم من هذه المبادئ أمثلها وأسمائها كما كان مثل «محمّد» فى حياته على ما رأيت غايه ما تطمح إليه النفس وترجو بلوغه. فإذا حلّت هذه المبادئ الساميه من النفس محل الإيمان نظمت على أساسها سلوكها فى الحياه وتجارته وأقامت على أساسها قواعد المعاملات الاقتصاديه بين الناس.

لست أطمع فى هذه الخاتمه أنّ أصدور الحضاره الإسلاميه ونظامها، فهذا التصوير يحتاج إلى بحث مستفيض يستغرق كتاباً فى حجم هذا الكتاب أو أكبر منه. وحسبى بياناً لذلك أنّ أشير إلى أنّ الرّب، وهو أساس الحياه

الاقتصاديّ الحاضر، قد حرّمه الإسلام تحريماً قاطعاً، وأنّ هذا التحريم للزّبا قاعده أساسيه للحضاره التي تكفل للعالم سعاده؛ وأن أذكر أنّ الاشتراكيه الإسلاميه اشتراكيه لم تُبحث بعد(1)، وهي في اقتناعي اشتراكيه لا- تقوم على أساس من حرب رأس المال ومن نضال الطوائف. وإنّما تقوم على أساس خلقى سام يكفل إخاء الطوائف وتكافلها وتعاونها على البرّ والتّقوى. وإنّما قصدت من هذه اللّمحه السريعه وهذه الاشاره الموجزه غايه الايجاز إلى بيان ما في بحث حياه «محمّد» وتعاليمه من نواحيها المختلفه من خير للإنسانيه كلّها لا للمسلمين وحدهم؛ وأنّ هذا الرجل الذي بعثه الله لهدايه الناس كافه ما تزال حياته وما تزال تعاليمه ولما يكشف البحث فيها عن غايه ما أراد الوحي منها. فإذا أنا دعوت، كما دعوت في تقديم هذا الكتاب، إلى التخصص في هذه الدرّاسه على الطريقه العلميه الصحيحه، الطريقه التي تريد الحقّ لوجه الحقّ وحده ولا ترضى استنباط الحيل ولا خداع الحقّ، فإنّما أدعو إلى عمل واجب لخير الإنسانيه كلّها إذا أريد توجيهها وجهه الكمال.

ولعلّ الله يتيح لي حظّ المشاطره بنصيب في هذه البحوث، أو يُتيح لي القيام بدرّاسه بدائيه في بعضها، كما قمت بهذه الدرّاسه البدائيه في حياه «محمّد»، وأن يجعل لي من الغبطه والسعاده بدرّاساتي المقبله ما أفاء عليّ من سعاده وغبطه بالبحوث التي أدّت إلى وضع هذا الكتاب. إنّه سميع مجيب.

ص: ٧٨٣

١- (١) الاشتراكيه: مصطلح غربي لا- علاقه له بالإسلام لا من حيث المنهج ولا من حيث النشأ فهو يرجع للفلسفه الماديه. أمّا الإسلام فله نظريته في العداله والمساواه، بعيداً عن هذا الفهم الخاطئ الذي لا يميز بين المفاهيم الإسلاميه عن غيرها.

لَمَّا صح عزمى على طبع هذا الكتاب بعد أن راجعت موادّه وصححتها وأضفت إليها وحذفت منها، فكرت فى أن أجعل منه حظاً للفقراء والمحتاجين شكراً لله على توفيقه إياى فى وضعه وطبعه. وأردت أن أشرك فى زكاه الشكر هذه رجلاً اقدر مجهوده وأعرف بزه بالفقراء وذوى الحاجات، ذلك الرجل هو زعيم مصر الاقتصادى العظيم طلعت باشا حرب مدير بنك مصر وشركاته الأربعة عشر، فذهبت إليه وذكرت له ما صح عزمى عليه من طبع عشرة آلاف نسخه تكون الطبعة الأولى على أن أجعل ألفاً منها للجمعية الخيرية الإسلاميه، وطلعت باشا من كبار أعضائها، وطلبت إليه أن أطبع الكتاب بمطبعه مصر. فلم يتردد الرجل فى أن يبذل لى من مختلف صور العون غايه ما رجوت. فشكراً له على صنيع كان له فضل معاونتى أكبر المعاونه فى الإسراع إلى إصدار الكتاب، وشكراً له على ما شاركنى فى هذه المعاونه القيمه للجمعية الخيرية الإسلاميه. جزاه الله عن صالح مجهوده وعظيم عمله فى سبيل وطنه وفى سبيل الله خير الجزاء.

وكنت أحسب أنى أستطيع طبع الكتاب فى ستة أسابيع. لكنّ إناقه محمود بك خاطر مدير مطبعه مصر وحرصه على أن يظهر الكتاب فى خير ثوب له، جعلنى أطمئن إلى أناه ربّما أقلقت بعض الذين عاونوا على طبع الكتاب بالاشتراك فيه قبل ظهوره، وبذلك أتاحت إخراج الكتاب فى هذا الثوب الذى أعجبنى ويعجب القراء. فلمطبعه مصر ولمحمود بك خاطر أجزل الشكر على ما صنعوا.

ولقد ذكرت فى تقديم الكتاب ما عاوننى به الأستاذ عبدالرحيم محمود

المصحح بدار الكتب أثناء تأليف الكتاب حين كان يستعير لى الكتب من دار الكتب من غير حاجه منى إلى الذهاب إليها. وليس يسيراً على أن أفيه فى هذه الكلمه حقه من الشكر على معاونه إتياء فى تصحيح الكتاب أثناء طبعه، وفى ضبط الأعلام والآيات القرآنيه، حتى ما أحسب القارئ يقع على خطأ مطبعى يقف عنده. ولئن بقيت بعض هفوات لا تخفى فليس يستحق التنبيه عليه منها إلا خطأ نأسف لعدم التنبيه إليه، وذلك فى آخر كلمه فى السطر الرابع من (ص ١٠٩). فقد وردت كلمه (البلد) وصحتها (بلداً) فى آيه وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ... (١) الخ.

ويرجع الفضل فى تنسيق الصحف الأولى من الكتاب إلى فن الأساتذه الخطاطين: محمد حسنى وسيد إبراهيم ومصطفى بك غزلان فلحضراتهم جزيل شكرى.

وقد اشترك فى وضع فهرس الأعلام كل من حضرات الأساتذه: الشيخ أحمد عبدالعليم البردؤنى، وعلى أحمد الشهداوى أفندى، وإبراهيم الأيبارى أفندى، وعبدالحفيف شبلى أفندى المصححين بالقسم الأدبى بدار الكتب المصرىه.

ولو أنني أردت أن أشكر كل من عاوننى فى طبع هذا الكتاب لما أمنت أن يجنى النسيان على بعضهم. لكننى مع ذلك لا استطيع أن أغفل الأستاذ على فوده الذى كان عونى وعون الأستاذ عبدالرحيم محمود، واعتذر لسائر من عاونونى عن عدم ذكر أسمائهم وأشكرهم.

وأحمد الله وأرجو أن يوفقنا إلى الخير وإلى حسن أداء واجبنا فى الحياه.

محمد حسين هيكل

ص: ٧٨٥

١- (١) هذا التنبيه فقط للطبعه الأولى للكتاب الآيه فى سورة البقره: ١٢٦.

- ١ - الآثار الباقية، محمّد بن أحمد «أبو ريحان البيروني» المتوفى (٤٤٠ هـ).
- ٢ - الآحاد والمثاني، ابن أبي عاصم الضحاك المتوفى (٢٨٧ هـ).
- ٣ - أبوطالب كافل رسول الله وناصره، السيد عبدالرحيم الموسوي (معاصر)، سلسله في رحاب أهل البيت ط ١ (١٤٢٢ هـ) المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام.
- ٤ - الاتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي المتوفى (٩١١ هـ).
- ٥ - إثبات الوصيه للإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، عليّ بن الحسين المسعودي المتوفى (٣٤٦ هـ).
- ٦ - الأحاديث الطوال، أبو قاسم سليمان بن أحمد الطبراني المتوفى (٣٦٠ هـ).
- ٧ - الاحتجاج على أهل اللجاج، أبو منصور أحمد بن عليّ بن أبي طالب الطبرسي المتوفى (٥٦٠ هـ).
- ٨ - الأخبار الموفقيات، الزبير بن بكار المتوفى (٢٥٦ هـ)، منشورات الشريف الرضي ط ١ (١٤١٦ هـ).
- ٩ - الأخبار الطوال، أبو حنيفه أحمد بن داود الدينوري المتوفى (٢٨٢ هـ).
- ١٠ - اختيار معرفه الرجال (رجال الكشي)، أبو جعفر محمّد بن الحسن الطوسي المتوفى (٤٦٠ هـ).

- ١١ - الأدب المفرد، محمّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخارى المتوفى (٢٥٦ هـ).
- ١٢ - أرجح المطالب، الشيخ عبيدالله الأمرتسى الحنفى الهندى المتوفى (١٣٦٧ هـ).
- ١٣ - إرشاد السارى فى شرح صحيح البخارى، أبو العباس أحمد بن محمّد القسطلانى المتوفى (٩٢٣ هـ).
- ١٤ - الإرشاد فى معرفه حجج الله على العباد، أبو عبدالله محمّد بن محمّد النعمان العكبرى البغدادى المعروف بالشيخ المفيد المتوفى (٤١٣ هـ).
- ١٥ - أسباب نزول القرآن، أبو الحسن على بن أحمد الواحدى النيسابورى المتوفى (٤٦٨ هـ).
- ١٦ - أسد الغابه فى معرفه الصحابه، على بن محمّد بن محمّد الشيبانى المعروف بابن الأثير الجزرى (٦٣٠ هـ).
- ١٧ - الإسلام على مفترق الطريق، محمّد أسد (معاصر).
- ١٨ - أسنى المطالب فى نجاه أبى طالب، أحمد بن زينى دحلان المتوفى (١٣٠٤ هـ).
- ١٩ - الاستيعاب فى أسماء الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمّد بن عبدالبرّ القرطبى المتوفى (٤٦٣ هـ).
- ٢٠ - الإصابه، أبو الفضل أحمد بن على بن حجر العسقلانى المتوفى (٨٥٢ هـ).
- ٢١ - الأصول الوثنيه فى الديانه النصرانيه، محمد طاهر ثبير الشامى، ط بيروت.
- ٢٢ - الأصنام، محمّد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحارث الكلبى المتوفى (١٤٦ هـ).
- ٢٣ - الأصنام، أبو المنذر هشام بن أبى نصر الكلبى المتوفى (٢٠٤ أو ٢٠٦ هـ).

- ٢٤ - أضواء على السنّه المحمّديه، الشيخ محمود أبو ريّه المتوفى (١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م).
- ٢٥ - إعلام الورى بأعلام الهدى، أبو عليّ الفضل بن الحسن الطبرى المتوفى (٥٥٤٨ هـ)
- ٢٦ - الأعلام، خير الدين الزركلى المتوفى (١٣٩٦ هـ).
- ٢٧ - أعيان الشيعه، السيّد محسن بن عبدالكريم الأمين الحسينى العاملى المتوفى (١٣٧١ هـ) إعداد نجله السيد حسن الأمين، دار التعارف بيروت ط ١٤٠٣٥ هـ.
- ٢٨ - الأغاني، عليّ بن الحسين أبو الفرج الإصفهانى المتوفى (٣٥٦ هـ).
- ٢٩ - إقبال الأعمال، رضى الدين عليّ بن موسى بن جعفر بن طاووس المتوفى (٦٦٤ هـ).
- ٣٠ - الإكتفاء، سليمان بن موسى بن سالم الحميرى الكُلاعى المتوفى (٦٣٤ هـ).
- ٣١ - إكمال الدين وتمام النعمه، محمّد بن عليّ بن بابويه الصدوق القمى المتوفى (٣٨١ هـ).
- ٣٢ - الأمالى، أبو جعفر محمّد بن عليّ بن بابويه القمى (الصدوق) المتوفى (٣٨١ هـ).
- ٣٣ - الأمالى، أبو جعفر محمّد بن الحسن الطوسى المتوفى (٤٦٠ هـ).
- ٣٤ - الإمامه والسياسه (تاريخ الخلفاء)، أبو محمّد عبدالله بن مسلم بن قتيبه الدينورى المتوفى (٢٧٦ هـ).
- ٣٥ - أمّ المؤمنين عائشه، العلّامه السيّد مرتضى العسكري (معاصر).
- ٣٦ - إمتاع الأسماع، تقى الدين أحمد بن عليّ المقرئى المتوفى (٨٤٥ هـ).
- ٣٧ - الأمثل فى تفسير الكتاب الأمثل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازى (معاصر).

٣٨ - إنباء نجباء الأبناء، محمّد بن محمّد بن ظفر الصقلى المتوفى (٥٥٦٥هـ).

٣٩ - إنجيل برنابا «العهد الجديد».

٤٠ - أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذرى المتوفى (٢٧٩هـ).

٤١ - الأنوار العلوية فى شرح الألفيه الشهيديه، أحمد بن محمّد بن عبدالله بن عليّ الرفاعى السبعى المتوفى (٩٦٠هـ).

٤٢ - إيمان أبى طالب، الشيخ المفيد المتوفى (٤١٣هـس).

ب

٤٣ - بحار الأنوار، العلامه محمّد باقر المجلسى المتوفى (١١١١هـ).

٤٤ - البحر المحيط، محمّد بن يوسف بن عليّ يوسف الغرناطى الأندلسى (أبوحيان البحرى) المتوفى (٧٤٥هـ).

٤٥ - البدء والتاريخ، مصهر بن طاهر المقدسى المتوفى (٥٠٧هـ).

٤٦ - البدايه والنهايه، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقى المتوفى (٧٧٤هـ).

٤٧ - بولاق وتاريخه (تاريخ بولاق).

٤٨ - بلوغ الإرب، محمود شكرى بن عبدالله الألوسى البغدادى المتوفى (١٣٤٢هـ).

٤٩ - بلوغ الإرب والسول بالتشرف بذكر نسب الرسول، عبدالبرّ بن عبدالله القادر القيومى المتوفى (١٠٧١هـ).

٥٠ - البيان فى تفسير القرآن، السيّد أبو القاسم الخوئى المتوفى (١٤١٣هـ).

ص: ٧٩٠

- ٥١ - تاج العروس، محمد بن محمد مرتضى الحسينى الزبيدى المتوفى (١٢٠٥هـ).
- ٥٢ - تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم المتوفى (١٣٨٨هـ)، دارالجيل، بيروت، ط ٣، ١٤١١هـ.
- ٥٣ - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي المتوفى (٧٤٨هـ).
- ٥٤ - تاريخ الأئمّ والملوك (تاريخ الطبرى)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى (٣١٠هـ)، دار الكتب العلميه، ط ٢ (١٤٠٨هـ)، بيروت.
- ٥٥ - تاريخ أبى الفداء (مختصر أخبار البشر)، أبو الفداء إسماعيل بن عليّ بن محمود بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب المتوفى (٧٣٣هـ).
- ٥٦ - تاريخ ابن خلدون، عبدالرحمن بن خلدون المقرئ المتوفى (٨٠٨هـ).
- ٥٧ - تاريخ بغداد أو مدينه السلام، أبو بكر أحمد بن عليّ الخطيب المتوفى (٤٦٣هـ)، ط دار الكتب العلميه بيروت، ١٤١٩هـ.
- ٥٨ - تاريخ الخلفاء، جلال الدين عبدالرحمن بن أبى بكر السيوطى المتوفى (٩١١هـ).
- ٥٩ - تاريخ الخميس، حسين بن محمد بن الحسن الدياربكرى المتوفى (٩٦٦هـ).
- ٦٠ - تاريخ الحروب الصليبيه، وليم موير، تعريب سهيل زكار.
- ٦١ - تاريخ الدوله العثمانيه العليه، محمد فريد بك المحامى (معاصر).

- ٦٢ - تاريخ القرماني (أخبار الدول وآثار الأول) أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي (القرماني) المتوفى (١٠١٩هـ).
- ٦٣ - تاريخ مدينه دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبه الله الشافعي المعروف بابن عساكر المتوفى (٥٧١هـ).
- ٦٤ - تاريخ مكه المشرفه، محمّد بن أحمد بن الضياء محمّد القرشي العمري المكي (ابن ضياء) المتوفى (٨٥٤هـ).
- ٦٥ - تاريخ هيردوث (أبو التواريخ)، هيردوث.
- ٦٦ - تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي المتوفى (٢٨٤هـ).
- ٦٧ - التبيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمّد بن الحسن الطوسي المتوفى (٤٦٠هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٦٨ - تذكره الحفاظ، أبو عبدالله شمس الدين الذهبي المتوفى (٧٤٨هـ).
- ٦٩ - تذكره الخواص، أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي بن عبدالله سبط ابن الجوزي المتوفى (٦٥٤هـ).
- ٧٠ - تذكره الموضوعات، محمّد طاهر بن علي الهندي الفتني، المتوفى (٩٨٦هـ).
- ٧١ - تفسير البرهان، هاشم بن سليمان البحراني المتوفى (١١٠٧هـ).
- ٧٢ - تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، عبدالله بن عمر بن محمّد الشيرازي البيضاوي المتوفى (٧٩١هـ).
- ٧٣ - تفسير الثعالبى، عبدالرحمن بن محمّد بن مخلوف أبو زيد الثعالبى المتوفى (٨٧٥هـ).

٧٤ - تفسير الخازن، الشيخ علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي المتوفى (٧٢٥هـ).

٧٥ - تفسير العياشي، أبو النضر محمد بن مسعود بن عياش السلمى السمرقندى المعروف بالعيشى المتوفى (٣٢٠هـ).

٧٦ - تفسير النيسابورى (غرائب القرآن ورغائب الفرقان)، الحسن بن محمد بن الحسين القمى النيسابورى الحلبي المتوفى (٨٥٠هـ).

٧٧ - تفسير القرآن الكريم، محيى الدين بن عربى المتوفى (٦٣٨هـ).

٧٨ - تفسير القمى، أبو الحسن علي بن إبراهيم القمى المتوفى (٣٢٩هـ)، ط ٢، النجف الأشرف، ١٣٨٧هـ.

٧٩ - تفسير الكبير، محمد بن عمر فخر الدين الرازى المتوفى (٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربى، ط ٢، بيروت.

٨٠ - تفسير المحيط، (البحر المحيط)، أبو حيان البحرى المتوفى (٧٤٥هـ).

٨١ - تفسير الصافى، محسن الفيض الكاشانى المتوفى (١٠٩١هـ).

٨٢ - تفسير فرات الكوفى، أبو القاسم فرات بن إبراهيم بن فرات الكوفى المتوفى (٣٥٢هـ).

٨٣ - تفسير القرآن العظيم، ابن كثير إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى المتوفى (٧٧٤هـ).

٨٤ - تفسير شبر، السيد عبدالله شبر المتوفى (١٣٤٢هـ).

٨٥ - تفسير القرآن، عبدالرزاق بن همام بن نافع الصنعانى الحميرى المتوفى (٢١٢هـ).

٨٦ - تفسير المنار، محمد رشيد رضا المتوفى (١٣٥٤ هـ)، دار المنار، ١٣٧٣ هـ، مصر.

٨٧ - تفسير القرآن الحكيم، للإمامين محمد عبده المتوفى (١٣٢٣ هـ)، ومحمد رشيد رضا المتوفى (١٣٥٤ هـ).

٨٨ - تفسير الطبري (جامع البيان في تفسير القرآن)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى (٣١٠ هـ).

٨٩ - تفسير المنير لمعالم التنزيل المسفر عن وجوه محاسن التأويل، محمد بن عمر بن عربي بن علي بن نوى الجاوى المتوفى (١٣١٦ هـ).

٩٠ - تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، محمد بن أحمد القرطبي المتوفى (٦٧١ هـ).

٩١ - تلخيص التمهيد لعلوم القرآن، الشيخ محمد هادي معرفت (معاصر).

٩٢ - تلخيص المستدرک على الصحيحين، أبو عبد الله الذهبي المتوفى (٧٤٨ هـ).

٩٣ - تصحيح الاعتقاد، محمد بن محمد بن النعمان العكبرى المفيد المتوفى (٤١٣ هـ).

٩٤ - التمهيد، الشيخ هادي المعرفه (معاصر).

٩٥ - التمهيد، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى المتوفى (٤٠٣ هـ).

٩٦ - تنبيه الخواطر ونزهه النواظر، ورام بن أبي فراس المالكي التستري المتوفى (٦٠٥ هـ).

٩٧ - تنزيه القرآن من المطاعن، القاضي عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمداني الأسدآبادى المعتزلى المتوفى (٤١٥ هـ).

٩٨ - تنقيح المقال، عبدالله بن محمد بن حسن المامقاني المتوفى (١٣٥١ هـ).

٩٩ - تهذيب الآثار، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى (٣١٠ هـ).

١٠٠ - تهذيب تاريخ دمشق الكبير، لابن عساكر، تحقيق عبدالقادر بدران المتوفى (١٣٤٦ هـ).

١٠١ - التوحيد، الدكتور سمير سليمان (معاصر).

١٠٢ - تيسير المطالب في أمالي أبي طالب، يحيى بن الحسين بن هارون المتوفى (٤٢٤ هـ).

ث

١٠٣ - الثاقب في المناقب، أبو جعفر محمد بن علي بن حمزه الطوسي المتوفى (٥٦٠ هـ)، دار الزهراء ط ١، ١٤١١ هـ.

١٠٤ - ثمار القلوب (الثعالبي)، عبدالملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي المتوفى (٤٢٩ هـ).

ج

١٠٥ - الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي المتوفى (٦٧١ هـ).

١٠٦ - جامع البيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى (٣١٠ هـ).

١٠٧ - جامع الأصول، مبارك بن محمد المعروف بابن الأثير الجزري المتوفى (٦٠٦ هـ).

١٠٨ - جمهره الرسائل، الدكتور أحمد زكي صفوه (معاصر).

١٠٩ - جمهره اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد المتوفى (٣٢١ هـ).

١١٠ - الجواهر، الطنطاوي الجوهري المتوفى (١٣٥٨ هـ) مطبعة البابي، مصر.

- ١١١ - الحاوى للفتاوى، جلال الدين عبدالرحمن السيوطى المتوفى (٩١١هـ).
- ١١٢ - حليه الأبرار، السيد هاشم بن سليمان الكتكانى البحرانى المتوفى (١١٠٧هـ).
- ١١٣ - حليه الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبدالله الإصفهانى المتوفى (٤٣٠هـ).
- ١١٤ - حياه الصحابه، محمّد بن يوسف الكاندهلوى الحنفى المتوفى (١٣٨٤هـ).
- ١١٥ - حياه محمد صلى الله عليه و آله، أميل درمنجهام، ط أمريكا (١٩٣٠م).
- ١١٦ - حياه محمد صلى الله عليه و آله، وليم موير، ط (١٩١٢م).

- ١١٧ - الخرائج والجرائح، أبو الحسين سعيد بن عبدالله الراوندى المعروف بقطب الدين الراوندى المتوفى (٥٧٣هـ).
- ١١٨ - خصائص أمير المؤمنين على عليه السلام، أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائى المتوفى (٣٠٣هـ).
- ١١٩ - خلاصه عبقات الأنوار فى إمامه الأئمه الأطهار، تلخيص السيد على البلاغى المتوفى (١٣٠٦هـ).

- ١٢٠ - دائره المعارف الإسلاميه، بوركلمان، ط. دار الفكر، بيروت.

- ١٢١ - دائره المعارف الإسلاميه، أحمد شنتاوى، إبراهيم تركى خورشيد عبدالحميد يونس.
- ١٢٢ - دائره معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدى المتوفى (١٣٧٣ هـ).
- ١٢٣ - الدراسات العربيه الألمانيه، البرت ديتريت.
- ١٢٤ - الدراسات العربيه الإسلاميه، روبرت روى.
- ١٢٥ - الدرّ المثور (تفسير)، جلال الدين السيوطى المتوفى (٩١١ هـ).
- ١٢٦ - دعائم الإسلام، أبو حنيفه النعمان بن محمد بن منصور التميمى المغربى المتوفى (٣٦٣ هـ).
- ١٢٧ - دلائل الصدق، محمد حسن محمد المظفر المتوفى (١٣٧٥ هـ).
- ١٢٨ - دلائل النبوه، إسماعيل بن محمد بن الفضل التميمى الإصبهانى المتوفى (٥٢٥ هـ).
- ١٢٩ - دلائل النبوه، أبوبكر أحمد بن الحسين بن علىّ البيهقى المتوفى (٤٥٨ هـ).
- ١٣٠ - ديوان أبوطالب، أبو نعيم علىّ بن حمزه البصرى التميمى المتوفى (٣٧٥ هـ).

ذ

- ١٣١ - ذخائر العقبى، أحمد بن عبدالله الطبرى المتوفى (٦٩٤ هـ).

ر

- ١٣٢ - الرحله المدرسيه، محمد جواد البلاغى المتوفى (١٣٥٢ هـ).

- ١٣٣ - روح الاجتماع، غستاف ليون.

١٣٤ - روح المعاني في تفسير القرآن، محمد بن عبدالله الحسيني الآلوسي المتوفى (١٢٧٠ هـ).

١٣٥ - الروض الآنف، أبو شعلة عبدالرحمن بن إسماعيل الدمشقي المتوفى (٦٦٥ هـ).

١٣٦ - روضه الواعظين، محمد بن الفتال النيسابوري المتوفى (٥٠٨ هـ).

١٣٧ - الرياض النضرة، محب الدين أبو العباس أحمد بن محمد الطبري المكي المتوفى (٦٩٤ هـ).

ز

١٣٨ - زاد المسير، عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي المتوفى (٥٩٧ هـ).

١٣٩ - زاد المسير في هدى خير العباد، محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية المتوفى (٥٧١ هـ).

١٤٠ - زاد المسير، الحسن بن أحمد بن الحسن العطار الهمداني المتوفى (٥٦٩ هـ).

س

١٤١ - سبل الهدى والرشاد، محمد بن يوسف الصالحي الشامي المتوفى (٩٤٢ هـ).

١٤٢ - السقيفة، محمد رضا المظفر، المتوفى (١٣٨١ هـ).

١٤٣ - السقيفة والخلافه، عبدالفتاح عبدالمقصود (معاصر).

١٤٤ - السقيفة وفدك، أبو بكر أحمد بن عبدالعزيز الجوهري المتوفى (٣٢٣ هـ).

- ١٤٥ - السمط الثمين فى مناقب أمّهات المؤمنين، محبّ الدين أحمد عبدالله المتوفى (٦٩٤هـ).
- ١٤٦ - سمط النجوم العوالى، عبدالملك بن حسين العصامى المكي الشافعى المتوفى (١١١هـ).
- ١٤٧ - سنن أبى داود، أبو داود سليمان بن أشعث السجستاني المتوفى (٢٧٥هـ).
- ١٤٨ - سنن ابن ماجه، محمّد بن يزيد بن ماجه القزوينى المتوفى (٢٧٥هـ).
- ١٤٩ - السنن الكبرى، أحمد بن الحسين بن شعيب النسائى المتوفى (٣٠٣هـ).
- ١٥٠ - السنن الكبرى، أحمد بن الحسين بن علىّ البيهقى المتوفى (٤٥٨هـ).
- ١٥١ - سنن الترمذى، محمّد بن عيسى بن سوره الترمذى المتوفى (٢٩٧هـ).
- ١٥٢ - سيد المرسلين، الشيخ جعفر السبحانى (معاصر).
- ١٥٣ - سيره أعلام النبلاء، محمّد بن أحمد الذهبى المتوفى (٧٤٨هـ)، دار الرساله ط ٧ (١٩٩٠ م) بيروت.
- ١٥٤ - سيره ابن إسحاق، محمّد بن إسحاق بن يسار المتوفى (١٥١هـ).
- ١٥٥ - السيره الحلبيه، (إنسان العيون فى سيره الأمين والمأمون)، علىّ بن برهان الدين الحلبى المتوفى (١٠٤٤هـ).
- ١٥٦ - السيره النبويه، عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميرى المتوفى (٢١٣هـ)، دار الوفاق (١٣٧٥هـ)، بيروت.
- ١٥٧ - السيره النبويه، أحمد بن زينى دحلان المتوفى (١٣٠٤هـ).
- ١٥٨ - السيره النبويه، ابن كثير إسماعيل بن عمرو بن كثير القرشى الدمشقى الشافعى المتوفى (٧٤٧هـ)، تحقيق مصطفى عبدالواحد، دار المعرفه، بيروت.
- ١٥٩ - سيره المصطفى، هاشم معروف الحسنى المتوفى (١٤٠٤هـ).

- ١٦٠ - الشافى فى الإمامه، الشريف المرتضى على بن الحسين الموسوى المتوفى (٤٣٦هـ).
- ١٦١ - شذرات الذهب، أبو الفلاح عبدالحى بن أحمد ابن العماد الحنبلى المتوفى (١٠٨٩هـ).
- ١٦٢ - شرح الأخبار فى فضائل الأئمه الأطهار، القاضى أبو حنيفه النعمان بن محمّد التميمى المغربى المتوفى (٣٦٣هـ).
- ١٦٣ - شرح التجريد، على بن محمّد القوشجى المتوفى (٨٧٩هـ).
- ١٦٤ - شرح الخفاجى (نسيم الرياض)، أحمد بن محمّد بن عمر الخفاجى المصرى المتوفى (١٠٦٩هـ).
- ١٦٥ - شرح الزرقانى على الموطأ، محمّد بن عبدالباقى بن يوسف بن أحمد الزرقانى المتوفى (١٠٩٩هـ).
- ١٦٦ - شرح الشفاء، الملاء على القارى الحنفى المتوفى (١١٠٤هـ).
- ١٦٧ - شرح كلمات أمير المؤمنين، كمال الدين ميثم بن على بن ميثم البحرانى المتوفى (٦٧٩هـ)، نمقه عبدالوهاب.
- ١٦٨ - شرح صحيح مسلم، يحيى بن شرف بن مرى النووى المتوفى (٦٧٦هـ).
- ١٦٩ - شرح نهج البلاغه، أبو حامد بن هبه الله بن محمّد بن محمّد بن الحسين بن أبى الحديد المدائنى المعتزلى المتوفى (٦٥٦هـ).
- ١٧٠ - شرح نهج البلاغه، الفيض المتوفى (١٠٩١هـ).
- ١٧١ - الشفا بتعريف المصطفى، أبو الفضل اليحصبى المتوفى (٥٤٤هـ).

١٧٢ - شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، عبيدالله بن عبدالله بن أحمد الحنفى النيسابورى (الحاكم الحسكانى) المتوفى (٤٧٠هـ).

١٧٣ - الشورى فى ظلّ النظام الحكم الإسلامى، عبدالرحمن عبدالخالق (معاصر).

١٧٤ - الشيعة فى الميزان، السيد محمّد حسين الطباطبائى المتوفى (١٤٠٢هـ).

ص

١٧٥ - الصحاح، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري المتوفى (٣٩٣هـ).

١٧٦ - صحيح البخارى، محمّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن مغيرة الجعفى البخارى

المتوفى (٢٥٦هـ).

١٧٧ - صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابورى المتوفى (٣٦١هـ).

١٧٨ - صحيح ابن حبان، محمّد بن حبان البستى المتوفى (٩٥٤هـ).

١٧٩ - الصحيح من السيرة، السيد جعفر مرتضى العاملى (معاصر).

١٨٠ - الصحوة، صباح على البياتى (معاصر).

١٨١ - صفه الصفوه، أبو الفرج ابن الجوزى المتوفى (٥٩٧هـ).

١٨٢ - الصوارم المهرقه، السيد القاضى نور الله التستري استشهد (١٠١٩هـ).

١٨٣ - الصواعق المحرقة، ابن حجر الهيتمى المتوفى (٩٧٤هـ).

ط

١٨٤ - الطبقات الكبرى، ابن سعد محمّد بن سعد بن منيع البصرى الزهرى المتوفى (٢٣٠هـ).

ص: ٨٠١

١٨٥ - الطرائف فى معرفه مذاهب الطوائف، على بن موسى بن طاووس الحسنى المتوفى (٦٦٤هـ).

ع

١٨٦ - العصر الجاهلى، د. شوقى ضيف (معاصر).

١٨٧ - العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين، محمد بن أحمد بن على الفاسى المتوفى (٨٣٢هـ).

١٨٨ - العقد الفريد، أحمد بن محمد عبدربه الأندلسى المتوفى (٣٢٨هـ).

١٨٩ - علل الشرائع، محمد بن على بن الحسين بن بابويه القمى (الصدوق) المتوفى (٣٨١هـ).

١٩٠ - العمده (عمده عيون صحاح الأخبار فى مناقب إمام الأبرار)، يحيى بن الحسن الأسدى الحلّى (ابن بطريق) المتوفى (٦٠٠هـ).

١٩١ - عمر بن الخطاب، عبدالرحمن البكرى (معاصر).

١٩٢ - العهد الجديد (إنجيل).

١٩٣ - العهد القديم (سفر التكوين) التوراه.

١٩٤ - العين، أبو عبدالرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدى المتوفى (١٧٥هـ).

١٩٥ - عيون الأثر، ابن سيد الناس، محمد بن محمد أبو الفتح المتوفى (٧٣٤هـ).

١٩٦ - عيون أخبار الرضا، أبو جعفر محمد بن على بن على بن الحسين بن بابويه القمى المعروف بالصدوق المتوفى (٣٨١هـ).

١٩٧ - الغارات (الاستنفار والغارات)، أبو إسحاق إبراهيم بن محمّد بن سعيد، بن هلال المعروف بابن هلال الثقفي المتوفى (٢٨٣هـ).

١٩٨ - غايه المطالب، السيد محمّد بن عليّ بن أبي الحسن العاملي المتوفى (١٠٠٩هـ).

١٩٩ - غايه المرام في حجّه الخصام، السيّد هاشم سلمان إسماعيل عبدالواحد الحسيني البحراني (١١٠٧هـ).

٢٠٠ - الغدير في الكتاب والسنة، عبدالحسين الأميني التبريزي النجفي المتوفى (٣٩٠هـ).

٢٠١ - فاطمه الزهراء، الشيخ إبراهيم الأميني (معاصر).

٢٠٢ - فتاوى (ابن تيميه)، أبي العباس بن أحمد بن التيميه المتوفى (٧٢٨هـ).

٢٠٣ - فتح الباري، أحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني المتوفى (٨٥٢هـ).

٢٠٤ - فتوح البلدان، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري المتوفى (٢٧٩هـ).

٢٠٥ - فدك في التاريخ، الشهيد السعيد السيّد محمد باقر الصدر قدس سره (١٤٠٠هـ).

٢٠٦ - فرائد السمطين (في فضائل المرتضى والبتول والسبطين والأئمه)، إبراهيم بن محمّد بن المؤيد بن عبدالله الجويني المحويني المتوفى (٧٣٠هـ).

٢٠٧ - الفصل في الملل والأهواء والنحل، أبو محمّد عليّ بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي المتوفى (٤٥٦هـ)، دار المعرفه، ط ٢ (١٣٩٥هـ)، بيروت.

- ٢٠٨ - الفصول المهمّة في معرفه الأئمّه، عليّ بن محمّد بن أحمد المالكي المشهور بابن الصباغ المتوفى (٨٥٥هـ).
- ٢٠٩ - الفصول المهمّة في تأليف الأئمّه، السيّد عبدالحسين شرف الدين المتوفى (١٣١٧هـ).
- ٢١٠ - الفصيح في تعيين الذبيح، جلال بن السيوطي المتوفى (٩١١هـ).
- ٢١١ - فضائل عليّ بن أبي طالب، فضل بن شاذان بن الخليل النسابوري المتوفى (٢٦٠هـ).
- ٢١٢ - فضائل الصحابه، أحمد بن محمّد بن حنبل الشيباني المتوفى (٢٤١هـ).
- ٢١٣ - فقه الحديث في الوهابيه (دعاوى وردود).

ق

- ٢١٤ - القرآن في الإسلام، السيّد محمّد حسين الطباطبائي المتوفى (١٤٠٢هـ)، دار الكتب، ط ٥ (١٤١١هـ)، قم.
- ٢١٥ - قرب الإسناد، أبو العباس عبدالله بن جعفر الحميري من علماء القرن الثالث.
- ٢١٦ - قصه الحضاره، ول ديورانت.
- ٢١٧ - قصص الأنبياء، قطب الدين الراوندي المتوفى (٥٧٣هـ).

ي

- ٢١٨ - الكافي، أبو جعفر محمّد بن يعقوب الكليني الرازي المتوفى (٣٢٩هـ).

٢١٩ - الكامل فى التاريخ، على بن محمّد بن محمّد عبدالكريم الشيبانى الجزرى ابن الأثير المتوفى (٦٣٠هـ).

٢٢٠ - كحل البصر فى سيره سيّد البشر، الشيخ عباس بن محمّد رضا القمى المتوفى (١٣٥٣هـ).

٢٢١ - الكشاف، محمود بن عمر بن محمّد بن أحمد الزمخشري المتوفى (٥٣٨هـ).

٢٢٢ - كشف الغمّه فى معرفه الأئمّه، على بن عيسى الإربلى المتوفى (٦٩٢هـ).

٢٢٣ - كفايه الطالب فى مناقب على بن أبى طالب، محمّد بن يوسف الكنجى الشافعى المتوفى (٦٥٨هـ)، ط الغربى وط الحيدريه، النجف الأشرف.

٢٢٤ - الكلمه الغراء فى تفضيل فاطمه الزهراء عليها السلام، السيّد عبدالحسين شرف الدين الموسوى المتوفى (١٣٧٧هـ).

٢٢٥ - كنز العرفان، أبو عبدالله مقداد بن عبد السيورى المتوفى (٨٢٦هـ).

٢٢٦ - كنز العمّال فى سنن الأقوال، على المتقى ابن حسام الدين الهندى المتوفى (٩٧٥هـ).

ج

٢٢٧ - لسان العرب، محمّد بن مكرم بن منظور المصرى المتوفى (٧١١هـ).

٢٢٨ - لسان الميزان، أحمد بن على بن حجر العسقلانى المتوفى (٨٥٢هـ).

ص: ٨٠٥

٢٢٩ - مجالس الشيخ، الشيخ المفيد المتوفى (٤١٣هـ).

٢٣٠ - مجمع البحرين، فخر الدين الطريحي المتوفى (١٠٨٥هـ).

٢٣١ - مجمع البيان، أبو عليّ الفضل بن الحسن الطبرسي المتوفى (٥٤٨هـ)، دار إحياء التراث العربى ط ١ (١٤١٢هـ)، بيروت.

٢٣٢ - مجمع الزوائد، نور الدين عليّ بن أبي بكر الهيثمي المتوفى (٨٠٧هـ).

٢٣٣ - المحاسن، أبو جعفر أحمد بن محمد بن خالد البرقي المتوفى (٢٨٠هـ).

٢٣٤ - المحاسن والمساوي، إبراهيم بن محمد البيهقي المتوفى (٣٢٠هـ).

٢٣٥ - المحلى، أبو محمد عليّ بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي المتوفى (٤٥٦هـ).

٢٣٦ - المختاره، محمد بن عبدالواحد بن عبدالرحمن ضياء الدين المقدسي المتوفى (٦٤٣هـ).

٢٣٧ - مختصر كتاب البلدان، أبو بكر أحمد بن محمد المهداني المتوفى (٣٤٠هـ).

٢٣٨ - مختصر أبي الفداء وذيله، محمد بن محمد بن محمود بن غازي بن أيوب التركي الحلبي الحنفي المعروف بابن الشحنة المتوفى (٨١٥هـ).

٢٣٩ - المراجعات، عبدالحسين شرف الدين الموسوي المتوفى (١٣٧٧هـ).

٢٤٠ - مروج الذهب ومعادن الجواهر، عليّ بن الحسين المسعودي المتوفى (٣٤٦هـ).

٢٤١ - المستدرک على الصحيحين، محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري المتوفى (٤٠٥هـ).

٢٤٢ - مستدرک الوسائل ومستنبط المسائل، الميرزا حسين النورى الطبري المتوفى (١٣٢٠ هـ).

٢٤٣ - مستدرک ابن المبارک، عبدالله بن عدی بن عبدالله بن محمد بن المبارک بن القطان الجرجاني المعروف بابن عدی المتوفى (٣٦٥ هـ).

٢٤٤ - المسند، أبو عبدالله أحمد بن حنبل الشيباني المتوفى (٢٤١ هـ).

٢٤٥ - مسند أبي يعلى الموصلي، أحمد بن عليّ المثنى التميمي المتوفى (٣٠٧ هـ).

٢٤٦ - المصباح المنير، أحمد بن محمد بن عليّ الفيومي المتوفى (٧٧٠ هـ).

٢٤٧ - المصنف، أبو بكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني المتوفى (٢١٢ هـ).

٢٤٨ - المصنف، عبدالله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي العبسي المتوفى (٢٣٥ هـ).

٢٤٩ - المعارف، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفى (٢٧٦ هـ).

٢٥٠ - معالم التنزيل (تفسير البغوي)، الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي المتوفى (٥١٦ هـ).

٢٥١ - معالم المدرستين، السيد مرتضى العسكري (معاصر).

٢٥٢ - معاني الأخبار، أبو جعفر محمد بن عليّ الصدوق المتوفى (٣٨١ هـ).

٢٥٣ - معاني القرآن، أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي المصري أبو جعفر النحاس المتوفى (٣٣٨ هـ).

٢٥٤ - المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد بن مطير اللخمي الشامي الطبراني المتوفى (٣٦٠ هـ).

٢٥٥ - معجم البلدان، أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي المتوفى (٦٢٦ هـ).

- ٢٥٦ - المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن مطير اللخمي المتوفى (٣٦٠هـ).
- ٢٥٧ - المعجم الوسيط (مجمع اللغة العربية)، أخرجه إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبدالقادر، ومحمّد عليّ النجار.
- ٢٥٨ - المغازي، محمّد بن عمر بن واقد أبو عبدالله الواقدي المتوفى (٢٠٧هـ).
- ٢٥٩ - مطالب السؤل، محمّد بن طلحة الشافعي المتوفى (٦٥٤هـ).
- ٢٦٠ - مقدمه ابن إسحاق، تحقيق سهيل زكار.
- ٢٦١ - المقنع، أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين القمي الصدوق (٣٨١هـ).
- ٢٦٢ - مكارم الأخلاق، أبو نصر الحسن بن الفضل الطبرسي المتوفى (٥٤٨هـ).
- ٢٦٣ - المكتبة التاريخيه، ديود ورس.
- ٢٦٤ - الملل والنحل، محمّد بن عبدالكريم الشهرستاني المتوفى (٥٤٨هـ).
- ٢٦٥ - مناقب آل أبي طالب، محمّد بن عليّ بن شهر آشوب السروي المازندراني المتوفى (٥٨٨هـ).
- ٢٦٦ - مناقب أحمد بن حنبل، أبو الفرج عبدالرحمن بن عليّ الجوزي المتوفى.
- ٢٦٧ - مناقب العشره (مخطوط)، النقشبندی.
- ٢٦٨ - مناقب عليّ بن أبي طالب، عليّ بن محمّد بن محمّد الواسطي الشافعي المعروف المغازلي المتوفى (٤٨٣هـ).
- ٢٦٩ - مناقب الإمام أمير المؤمنين، محمّد بن سليمان الكوفي القاضي (٣٠٠هـ).
- ٢٧٠ - المنتقى في مولود المصطفى، محمّد بن مسعود بن محمّد الكازروني المتوفى (٧٥٨هـ)، تعريب نجله عفت الدين.
- ٢٧١ - منتهى الآمال، الشيخ عباس محمّد رضا القمي المتوفى (١٣٥٣هـ).
- ٢٧٢ - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، عبدالرحمن بن عليّ أبو الفرج الجوزي المتوفى (٥٩٧هـ).

- ٢٧٣ - المنجد فى اللغة والأعلام، لويس معلوف المتوفى (١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م)، ط بيروت دار المشرق.
- ٢٧٤ - من لا يحضره الفقيه، أبو جعفر محمد بن على بن الحسين الصدوق المتوفى (٣٨١ هـ).
- ٢٧٥ - منيه المرید، الشيخ زين الدين بن على العاملى المعروف بالشهيد الثانى، المتوفى (٩٦٦ هـ).
- ٢٧٦ - المواهب الجليل، المؤسسه العربيه تحت إشراف الدكتور عبدالوهاب الكيالى وكامل الزهرى.
- ٢٧٧ - المواهب اللدنيه، أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبدالملك القسطلانى المصرى المتوفى (٩٢٣ هـ).
- ٢٧٨ - موسوعه التاريخ الإسلامى، الشيخ محمد هادى اليوسفى الغروى (معاصر).
- ٢٧٩ - موسوعه السياسه، أسسها عبدالوهاب الكيالى رئيس التحرير ماجد نعمه.
- ٢٨٠ - الموفقيات، زبير بن بكار الأسدى المتوفى (٢٥٦ هـ).
- ٢٨١ - موسوعه المورد، منير البعلبكى (معاصر).
- ٢٨٢ - موسوعه لاروس الفرنسيه.
- ٢٨٣ - الموطأ، مالك بن أنس المتوفى (١٧٩ هـ).
- ٢٨٤ - الموقف الإسلامى من أسطوره تحرف القرآن الكريم، السيد عبدالرحيم الموسوى، ط المجمع العالمى (١٤٢٢ هـ)، قم.
- ٢٨٥ - المنهاج «مجله» العدد السادس، السنه الثانيه (١٤١٨ هـ) تصدر عن مركز الغدير للدراسات الإسلاميه.
- ٢٨٦ - منهاج السنه، أحمد بن عبدالحليم بن تيميه المتوفى (٧٢٨ هـ).
- ٢٨٧ - منهاج الكرامه، علامه حسن بن يوسف المطهر الحلى المتوفى (٧٢٦ هـ).

٢٨٨ - ميزان الاعتدال في نقد الرجال، محمّد بن أحمد الذهبي المتوفى (٧٤٨هـ).

٢٨٩ - الميزان في تفسير القرآن، السيد محمّد حسين الطباطبائي المتوفى (١٤٠٢هـ).

ن

٢٩٠ - النبوه، محمّد حسن آل ياسين (معاصر).

٢٩١ - النزاع والتخاصم، تقى الدين أحمد بن عليّ المقرئ المتوفى (٨٤٥هـ).

٢٩٢ - النص والاجتهاد، السيد عبدالحسين شرف الدين الموسوي المتوفى (١٣٧٧هـ).

٢٩٣ - نظريه الإمامه، د. أحمد محمود صبحي.

٢٩٤ - نظريه عداله الصحابه، السيد عبدالرحيم الموسوي (معاصر) ط ١ (١٤٢٢هـ) المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام.

٢٩٥ - نظم درّ السمطين، محمّد بن يوسف الزرندى الحنفى المتوفى (٧٥٠هـ).

٢٩٦ - نقض العثمانيه، أبو جعفر الإسكافي المعتزلى المتوفى (٢٤٠هـ).

٢٩٧ - نهايه الإرب في معرفه أنساب العرب، أحمد بن عليّ بن أحمد بن عبدالله القلقشندى المتوفى (٨٢١هـ).

٢٩٨ - النهايه في غريب الحديث، مبارك بن مبارك الجزرى ابن الأثير المتوفى (٦٠٦هـ).

٢٩٩ - نهج البلاغه، الإمام عليّ بن أبى طالب أعدّه وجمعه محمّد بن الحسين بن موسى الموسوى أبوالحسن الشريف الرضى المتوفى (٤٠٦هـ).

٣٠٠ - نهج الحقّ وكشف الصدق، العلامه الحسن بن يوسف بن مطهر الحلّى المتوفى (٧٢٦هـ).

٣٠١ - نور الأبصار في مناقب آل بيت النبىّ المختار، مؤمن بن حسن مؤمن الشبلنجى المتوفى (١٢٩٨هـ)، دار الكتب العلميه ط ١ (١٢٩٨هـ)، بيروت.

ص: ٨١٠

٣٠٢ - نور الثقلين (تفسير)، عبد عليّ بن جمعه الحويزي المتوفى (١١١٢ هـ).

٣٠٣ - نيل الأوطار، محمّد بن عليّ الشوكاني المتوفى (١٢٥٠ هـ).

٥

٣٠٤ - هويه الشيع، د. الشيخ أحمد الوائلي المتوفى (١٤٢٤ هـ).

٣٠٥ - الهدى إلى دين المصطفى، الشيخ محمّد جواد البلاغى النجفى المتوفى (١٣٥٢ هـ)

و

٣٠٦ - وسائل الشيعه، محمّد بن الحسن الحرّ العاملى المتوفى (١١٠٤ هـ).

٣٠٧ - الوفا بأحوال المصطفى، أبو الفرج عبدالرحمن بن عليّ بن محمّد بن عليّ الجوزى المتوفى (٥٩٧ هـ).

٣٠٨ - وفيات الأعيان، أبو العبّاس أحمد بن محمّد البرمكى المعروف بابن خلكان المتوفى (٦٨١ هـ).

٣٠٩ - وقعه صفين، نصر بن مزاحم المنقرى المتوفى (٢١٢ هـ).

٣١٠ - ولايه الأمر، الشيخ محمّد مهدي الآصفى (معاصر).

ى

٣١١ - ينابيع المودّه، سليمان بن إبراهيم القندوزى، المتوفى (١٢٩٤ هـ)، دار الأسوه ط ١، ١٤١٦ هـ طهران.

ص: ٨١١

فهرس الآيات

فهرس الأحاديث

فهرس الأعلام

فهرس الأمم والقبائل والطوائف

فهرس الأماكن

فهرس الغزوات والوقائع والأيام

فهرس الموضوعات

ص: ٨١٣

اشاره

الآيه رقم الآيه الصفحه

البقره

فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى ... ٣٨-١٨٣٩

كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا ... ٥٧ ٣٣٠

لَن نُّضَيِّرَ عَلَىٰ طَعَامٍ ... ٦١ ٣٦٨

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ ... ٧٩ ٢١

أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ ... ٨٥ ٥٤٠

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ ... ٨٧-٣٣٤٨٩

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً ... ١٢٥-١١٣١٢٧

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ... ١٢٦ ٧٨٥

آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ ... ١٣٦ ٣٣٨

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ... ١٤٢-٣٣٧١٤٣

قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ .. ١٤٤ ٣٣٦-٣٣٧

فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ١٥٩ ٤١٥

وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ ... ١٧٩ ٣٢٨

إِنْ تَرَكَ خَيْرًا لَّوَصِيَّتُهُ ... ١٨٠ ٧٧٣

وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ ... ١٩٠ ٣٥٤

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... ١٩٠ ٣٥٧

الآيه رقم الآيه الصفحه

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ... ٣١٥ ١٩٣

فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ... ٣٢٨ ١٩٤

فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى... ٧٦٦ ١٩٦

ومن الناس من يشري نفسه... ٣٠٠ ٢٠٧

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ... ٥١٨ ٢١٧

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ... ٥٤٠ ٢١٩

خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ... ١٤ ٢٤٣

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ... ٣٥٧ ٢٥٦

آل عمران

فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا*... ٧٧٣ ٥

إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ... ٤٨-٤٧٤٩-٤٥

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ... ٥٠-٤٩ ٥٩

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ... ٣٤٠ ٦١

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ... ٦٩٠٦٤-٥٩

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا... ٥٤٤ ٦٤

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا... ٣٣٩ ٦٤

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ... ١١٣٩٧-٩٦

الآيه رقم الآيه الصفحه

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ... ١٤٤ ٧٤٦، ٧٤٧، ٧٦٠، ٧٦٣

وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ١٥٩ ٤١٤

أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ... ١٦٥ ٢٨

الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ... ١٦٨-٤٤٣

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ... ١٨١ ٣٣٥

النساء

فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ... ٣ ٤٥٦

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ... ٣ ٤٨٦

إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ... ١٠-٤٧٢

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ... ١١ ٧٧٣

فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ... ٢٤ ٧٦٦

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا... ٤٣ ٥٤١

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ... ٤٨ ٥٠، ٢٧٤

كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ... ٥٦ ٢٤٩

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا... ٥١-٤٦٥

مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ١٦٨٠

وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ١٢٥ ١٠٤

الآيه رقم الآيه الصفحه

وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ... ١٥٧-١٥٨، ٥٠

وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ... ١٢٩ ٤٥٦

المائدہ

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ... ١٥٣، ٤٢، ٧٠٣، ٧٠٩

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا... ١٧-٤٩١٨

... فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ... ٢٤ ٣٦٨

وَأَنْ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا... ٤٩-٣٣٦٥٠

أَذَلَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ.. ٥٤ ٢٦٣

وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ... ٦٧ ٢٣

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ... ٧٢-٤٩٧٣

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا... ٧٣-٦٩٣٧٥-٦٩٤

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً... ٨٢ ٤٦

إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ... ٩٠ ٥٤١-٥٤٢

لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا... ٩٣ ٥٤٢

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى... ١١٦-٤٩١١٨، ٦٩٣

إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ... ١١٨ ٣٨٧

ص: ٨١٨

الأنعام

مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ ... ٧٢٩ ٣٨ ، ٧٣٦

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ ... ٧٣٦ ٣٨

فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ ... ٧٦-١٠١٧٩-١٠٢

قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي ... ١٠٣ ١٦١

قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ ... ١٧٨ ٥٧

الأعراف

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ... ٧١٥ ٩٦

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ... ١٨٨ ٢٠٠-٢٠١

الأنفال

وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَىٰ ... ٣٧١ ٧

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَىٰ ... ٣٧٩ ١٢

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ ... ٣٨٠ ١٧

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ ... ٣٠٤ ٣٠

وَمَا لَهُمْ إِلَّا يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ ... ٣٤-٥١٨٣٦

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ ... ٣٨٣ ٤١

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ ... ٦٥-٣٧٨٦٦

الآيه رقم الآيه الصفحه

مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ ... ٦٧ ٣٨٧، ٣٨٨

وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ ... ٧٥ ٧٧٣

التوبه

بِرَاءةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ... ١-٦٧٤٣٦، ٦٧٧

٦٨٨، ٦٨٩

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي ... ٢٥-٦١٧٢٨-٦١٨

اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ ... ٣١ ٢١

إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ ... ٣٠٤٤٠-٣٠٥

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أُنْذِنَ لِي ... ٤٩ ٦٥٠، ٦٥٢

وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي ... ٨١-٦٤٩٨٢

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنْ ... ١٠٠ ٧٦١

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ... ١١٣ ١٠١

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ... ١١٧-٦٥٨١١٨

يونس

رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ ... ٨٨ ٣٨٧

هود

قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا ... ٥٣ ١١٥

ص: ٨٢٠

يوسف

فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ... ١٨ ٥٠٩-٥١٠

قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنٍ... ١٣ ٥٥

اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا... ١٣ ٩٧

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ... ٩٥ ١٠٦

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا... ١٧٨ ١٠٨

مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى... ٧٧٨ ١١١

ابراهيم

فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ... ٣٨٧ ٣٦

رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ... ١٠١ ٤١

الحجر

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ٢٢٦ ٤٢

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ... ٢٣٠، ٢٢٩، ٢٢٦٥٣-٥٢

لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا... ٢٤٣ ٨٨

وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ... ١٩٢ ٨٩

فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ... ١٩٢ ٩٤

النحل

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ ... ٧٣٧ ٤٤

إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى ... ٢٢٦ ٩٩

وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَمْثَلَهُمْ ... ٢٤٠ ١٠٣

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا ... ٤٢٨ ١٢٧-١٢٦

الإسراء

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى ... ٢٧٨ ١

وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى ... ١١٥ ١٥

وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي ... ٢٦٩ ٦٠

وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ ... ٢٢٩، ٢٢٦، ٢٢٥٧٥-٧٣

وَلَوْ لَا أَنْ بَيَّنَّاكَ ... ٢٥٨، ٢٥٧، ٢٢٩ ٧٤

وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ ... ٦٠٢ ٨١

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ... ٧٨١ ٨٥

الكهف

إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ... ٢٧٤ ١١٠

مريم

أَنْتَى يَكُونُ لى غُلَامٌ... ٨ ٤٥٠

قَالَتْ يَا لَيْتَنى مِثُّ... ٢٣-٢٧ ٤٥٠

فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا... ٢٩-٣٣ ٢١٦

مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وِلْدٍ... ٣٥ ٤٩

الأنبياء

أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ... ٦٧ ٣٨٧

أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا... ٦٢-٦٣ ١٠١٦٣

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ١٠٧ ٧٤٩

وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ... ٧٣ ١٧٨

الحج

أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ... ٣٩ ٣١٥

مَلَّةً أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ.. ٧٨ ١٠٣

المؤمنون

أَفَحَسِبْتُمْ أَنْ نَمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا... ١١٥ ١٢

الآيه رقم الآيه الصفحه

النور

الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ ١١ ٥١٥

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ ... ١١-١٩-٥١٠

لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ... ١٢ و ١٤-٥١٣

الفرقان

وَإِذَا قِيلَ لَهُم اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ ... ٦٠-٢٢٦

الشعراء

وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * ... ٢١٤-١٩١٢-١٩٢-١٩٢، ٢٤٣

النمل

إِنِّي لَأَيُّخَافُ لَدَيْكَ ... ١٠-١٧٨

وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ١٦-٧٣٣

القصص

هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا ... ١٥-٤٤٩-٤٥٠

ص: ٨٢٤

الروم

آلم * غَلَبَتِ الرُّومُ * ... ١-٤٥٦

وآت ذا القربى حقه ٣٨ ٥٥٤

لقمان

لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنُ وَلَدِهِ وَلَا ... ٣٣ ٥١

الأحزاب

وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ ... ٤ ٤٦٠

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزُوجِكُمْ ... ٢٨-٦٣٤٢٩

قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ ... ٣٠-٤٩٢٣١-٤٩٣

يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ ... ٣٢-٤٩٥٣٣

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا ... ٣٦ ٤١٥، ٤٦٠

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ ... ٣٧ ٤٤٨

أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ... ٣٧ ٤٦٠

وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ ... فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ ... ٣٧ ٤٦١

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ... ٥٣ ٤٩٤-٤٩٥

وَالَّذِينَ يُؤَدُّونَ الْمُؤْمِنِينَ ... ٥٨-٤٩٢٦٢

الآيه رقم الآيه الصفحه

الصفات

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ... ١٠٢-١٠٦١٠٧

وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنْ... ١١٢ ١٠٥

سوره ص

يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً... ٢٦ ١٢

الزمر

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ٣٠، ٧٤٤، ٧٤٧

فصلت

فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ... ٣٤ ٢٨٣

الشورى

وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ٣٨ ٤١٤

الزخرف

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ... ٣١-٢٤٦٣٢

ص: ٨٢٤

الفتح

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا... ٥٣٤٢-١

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا... ٥٤٨-٥٤٧ ١٥

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ... ٥٣٠-٥٢٩ ١٨

أَشَدَّ آءَ عَلَى الْكُفَّارِ... ٢٦٣ ٢٩

الحجرات

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ... ٦٠٠ ١٣

إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ... ٤٥٩، ٢٤٦ ١٣

قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا... ٧٨٠ ١٤

يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا... ٧٨٠ ١٧

سوره ق

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ... ٢٤٩ ٣٠

النجم

وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ...* ٧٢٩، ٤١٥٤-٣

إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ٢٣٤

فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ...* ٢٧٨١٠-٩

الآيه رقم الآيه الصفحه

مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى... ١٧ ٢٧٨

لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ... ١٨-٢٣ ٢٣١

أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ... ١٩-٢٠ ٢٢٤

فاسجدوا لله واعبدوا ٦٢ ٢٢٦

مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى*.. ٢-١٧٨٥

الواقعه

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا... ٢٥-٢٦ ٤١٢

الحديد

مَنْ ذَا الَّذِي يُفْرِضُ... ١١ ٣٣٥

ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ... ٢١ ٣٤١

الحشر

مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنِهِ... ٥ ٤٤٠

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ... ١١-١٣ ٤٤١

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ... ٢٣-٢٤ ٤٤١

ص: ٨٢٨

الآيه رقم الآيه الصفحه

المتحنه

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا... ١ ٥٩٢

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ... ١٠ ٥٣٧

المنافقون

هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا... ٧-٥٠٠٨

التغابن

إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا... ١٧ ٣٣٤

التحریم

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ... ١-٦٣٩٥

إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ... ٤ ٦٤٣

القلم

وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ٤ ٢٤٣

الحاقه

يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى... ١٨-٢٤٦٣٧

وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ... ٤٤-٢٣٤٦

ص: ٨٢٩

الآيه رقم الآيه الصفحه

المعارج

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ٧٠٤١

يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ* ... ٨-٢٤٨١٨-٢٤٩

نوح

رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ... ٢٦ ٣٨٧

المدثر

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ* ... ١-١٨٠٧

النازعات

أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ٢٤ ٧٥، ٢٠٨

عبس

عَبَسَ وَتَوَلَّى* ... ١-٢٤٣١٦-٢٤٤

فَإِذَا جَاءَتِ الصَّائِحَةُ* ... ٣٣-٢٤٨٤٢

البروج

قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُحُدُودِ* ... ٤-٨٦٨

ص: ٨٣٠

الفجر

إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * .. ٧-١٤١٤

الضحى

وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا ... ١-١٨٥١١

أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَآوَى * ... ٦-١٤٦٧

الشرح

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ... ١-١٤٣٣

العلق

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي ... ١-١٧٥٥، ٢٤٣، ٦٠٠

الزلزله

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ... ٧-١٧٤٨، ٢١١، ٦٥١

التكاثر

أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ * ... ١-١٩٩٨

الآيه رقم الآيه الصفحه

العصر

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ ... ١-١٢٩٥

المسد

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ... ١-١٩٨٣

الأخلاق

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * ... ١-٤٩٤، ٥٠، ٣٣٣

ص: ٨٣٢

- «آبون آابون إن شاء الله لربنا حامدون» الرسول صلى الله عله و آله ٤٩٤
- «أباهلكم بخر أهل الأرض، وأكرمهم إلى الله» الرسول صلى الله عله و آله ٣٤٠
- «أباعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه...» الرسول صلى الله عله و آله ٢٩١
- «أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟...» الرسول صلى الله عله و آله ٤٢٢
- «إجمع لى قومك فى هذه الحظيره» الرسول صلى الله عله و آله ٤٢٤
- «احموا لنا ظهورنا فإننا نخاف أن يجيئوننا من...» الرسول صلى الله عله و آله ٤١٤
- «أخرجوا لى منكم اثنى عشر نقيباً...» الرسول صلى الله عله و آله ٢٩٣
- «إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نخله...» الرسول صلى الله عله و آله ٣٥٤
- «إذهب إلى يهود بنى النضير وقل لهم:...» الرسول صلى الله عله و آله ٤٣٨-٤٣٩
- «إذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا...» الرسول صلى الله عله و آله ٥٩٥
- «إذهبوا به فاقطعوا عنى لسانه» الرسول صلى الله عله و آله ٤٢٤
- «أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا...» الرسول صلى الله عله و آله ٢٣٢
- «ارجع فاحلل كما حل أصحابك» الرسول صلى الله عله و آله ٧٠٠
- «استوصوا بهم خيراً» الرسول صلى الله عله و آله ٣٨٤
- «أشيروا على أيها الناس» الرسول صلى الله عله و آله ٣٤٨
- «أصبحت فأتنى به» الرسول صلى الله عله و آله ٥٩٥

«إضرب عنقه، واللهم اغنِ المقداد من فضلك» الرسول صلى الله عليه وآله ٣٨١

«اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، واتقوه...» الرسول صلى الله عليه وآله ٣٢٦

«إعمل لديناك كأنك تعيش أبداً...» الرسول صلى الله عليه وآله ٣٣٠

«اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم...» الرسول صلى الله عليه وآله ٥٩١-٥٩٢

«أقضى كتابتك وأتزوجك» الرسول صلى الله عليه وآله ٥٠٤

«أكتب باسمك اللهم» الرسول صلى الله عليه وآله ٥٣٢

«اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» الرسول صلى الله عليه وآله ٥٣٢

«أكتب هذا ما صالح عليه «محمد»...» الرسول صلى الله عليه وآله ٥٣٢

«أكتب هذا ما صالح عليه «محمد» بن عبد الله» الرسول صلى الله عليه وآله ٥٣٢

«الآباء ثلاثة: أب زوجك وأب...» الرسول صلى الله عليه وآله ١٠١

«ألاً تجيوني يا معشر الأنصار!» الرسول صلى الله عليه وآله ٦٢٥

«ألا ترون أن الله سبحانه اختبر الأولين من...» علي عليه السلام ١١٣

«الحمد لله، الله أكبر» الرسول صلى الله عليه وآله ٣٠٢

«السلام عليكم يا أهل المقابر...» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٢٢

«الله أكبر وأنا قد سقت معي ستاً وستين...» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٠٤

«اللهم ارحم امرأاً أراهم اليوم من نفسه...» الرسول صلى الله عليه وآله ٥٦٩

«اللهم اعف عن سواده بن قيس كما عفا...» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٤١

«اللهم أعني على سكرات الموت» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٣٤

«اللهم اغفر لعثمان ما قدم وأخر وما...» الرسول صلى الله عليه وآله ٦٥١

«اللَّهُمَّ اكْفِنِي عامر بن الطفيل!» الرسول صلى الله عليه وآله ٦٨٣

«اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقَلَّةَ حِيلَتِي...» الرسول صلى الله عليه وآله ٢٦٥-٢٦٦

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعْتُ...» الرسول صلى الله عليه وآله ٦٠٨

«المعرفة رأس مالي، والعقل أصل ديني...» الرسول صلى الله عليه وآله ٣٣١

«أَلَمْ يُخْزِكِ اللَّهُ يَا حَيِّي!» الرسول صلى الله عليه وآله ٤٨٠

«أما أيها الناس فإنه قد حان مني خفوق بين...» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٤٠

«أما ما كان لي ولبنى عبدالمطلب فهو لكم...» الرسول صلى الله عليه وآله ٦٢٢

«أما ما كان لي ولبنى عبدالمطلب فهو لكم» الرسول صلى الله عليه وآله ٦٢٣

«أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبي...» الرسول صلى الله عليه وآله ٦٢٣

«أما والله لو شئتم لقلتم ولصدقتهم ولصدقتكم: أتيتنا...» الرسول صلى الله عليه وآله ٦٢٥-٦٢٦

«أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟» الرسول صلى الله عليه وآله ٢٦٦

«أنا الذي سميتني أمي حيدر...» علي عليه السلام ٥٥٢

«إن أخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصاب الناس...» الرسول صلى الله عليه وآله ١٨٦

«إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب علي...» الرسول صلى الله عليه وآله ٥٧٧

«أنا فرطكم على الحوض وسأنازع رجالاً...» الرسول صلى الله عليه وآله ٦٥٠

«إننا لا نقتله بل تترقق به ونحسن صحبته ما بقي...» الرسول صلى الله عليه وآله ٥٠١

«إن الشمس والقمر آيتان...» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٧٦

«إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله...» الرسول صلى الله عليه وآله ٦٦٣

«أنا مدينه العلم وعلي بابها، وأقضاكم علي عليه السلام...» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٦٥

«إنا يا إبراهيم لا نغنى عنك من الله شيئاً» الرسول صلى الله عليه وآله ٦٦١

«أنت خليفتي في أهل بيتي ودار...» الرسول صلى الله عليه وآله ٦٥٣

«أن تضرب به في العدو حتى ينحني» الرسول صلى الله عليه وآله ٤١٧

«أنتم على قومكم بما فيهم كغلاء...» الرسول صلى الله عليه وآله ٢٩٣

«إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردّوا عليها..» الرسول صلى الله عليه وآله ٣٩١

«أن رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا ترك تجاره الشام وتصدّق...» العسكري عليه السلام ١٨١-١٨٢

«انطلق فطف بالبيت وحلّ كما حلّ أصحابك» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٠٠

«إنّ له لمرضعاً في الجنة» الرسول صلى الله عليه وآله ٦٦١

«إنّ ما به أكثر ممّا يكون في مثل هذه...» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٢٨-٧٢٩

«إنّما حبسها حابس الفيل عن مكّة. لا تدعوني...» الرسول صلى الله عليه وآله ٥٢٤

«إنّما نسجد لله الذي بعثني نبياً...» الرسول صلى الله عليه وآله ١٨٧

«إنّما هي سحابه ماؤه» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٧٦

«إنّه آذانا وهجانا بالشعر، ولو قرّ كما قرّ...» الرسول صلى الله عليه وآله ٤٠٢

«إنّها كانت تأتينا أيام خديجه، وإنّ حسن...» الرسول صلى الله عليه وآله ٣٢٧

«إنّها لا تضرّ ولا تنفع ولكنّها تُقرّ...» الرسول صلى الله عليه وآله ٦٦٢

«إنّها لمشية يُبغضها الله إلّا في مثل هذا الموطن» الرسول صلى الله عليه وآله ٤١٨

«إنّ هذا أخي، ووصيي، وخليفتي فيكم...» الرسول صلى الله عليه وآله ١٩٤

«إنّ هذا الكلام حسن والذي معي أفضل...» الرسول صلى الله عليه وآله ٢٨٦

«إنّه مُعتق من جاء إليه من الطائف...» الرسول صلى الله عليه وآله ٦٢١

«إِنَّهُمْ كَانُوا لِأَصْحَابِنَا مُكْرَمِينَ وَإِنِّي...» الرسول صلى الله عليه وآله ٣٢٧

«إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ الْهَزِيمَةَ» الرسول صلى الله عليه وآله ٤١٣

«إِنِّي أَمَرْتُ أَنْ اسْتَغْفَرَ لِأَهْلِ هَذَا...» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٢٢

«إِنِّي تَارَكْتُ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا...» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٣٨

«أَوْ مَا شَعَرْتُ أَنِّي أَمَرْتُ النَّاسَ بِأَمْرٍ فَإِذَا هُمْ يَتَرَدَّدُونَ؟» الرسول صلى الله عليه وآله ٦٩٩

«أَوْ مَخْرَجِيْ هُمْ؟» الرسول صلى الله عليه وآله ١٧٥

«إِنِّي أَمَرْتُ بِالْكَوْكِ الْعَقُورِ» الرسول صلى الله عليه وآله ٤٢٨

«إِنِّي تَوَنَّى بِدَوَاهِ وَصَحِيفِهِ أَكْتُبُ لَكُمْ كِتَابًا...» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٣٥

«أَيُّ رَجُلٍ كَانَتْ لَهُ قَبْلَ «مُحَمَّدٍ» مَظْلَمَةٌ إِلَّا...» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٤٠

«أَيُّهَا النَّاسُ، اسْمَعُوا قَوْلِي فَإِنِّي لَا...» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٠١-٧٠٢

«أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَنِي رَحِمَهُ وَكَافَهُ فَلَا...» الرسول صلى الله عليه وآله ٥٤٣

«أَيُّهَا النَّاسُ أَنْفِذُوا بَعْثَ أَسْمَاءِ، فَلَعْمَرِي لئن قَلْتُمْ...» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٢٤

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ كَافِرًا...» الرسول صلى الله عليه وآله ٦٧٧

«أَيُّهَا النَّاسُ: سَعُرَتِ النَّارُ وَأَقْبَلَتِ الْفِتْنُ كَقَطْعِ اللَّيْلِ...» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٣٢

«أَيُّهَا النَّاسُ كَأَنِّي...» الرسول صلى الله عليه وآله ٤٨٦

«أَيُّهَا النَّاسُ. مَا بِالرِّجَالِ يُؤْذُونَنِي فِي أَهْلِي...» الرسول صلى الله عليه وآله ٥٠٧

«أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ كُنْتُ جَلَدْتُ لَهُ ظَهْرًا فَهَذَا ظَهْرِي...» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٧٤

«أَيُّهَا النَّاسُ، وَاللَّهِ مَا لِي مِنْ فَيْئِكُمْ وَلَا هَذِهِ الْوَبْرَةُ...» الرسول صلى الله عليه وآله ٦٢٣

«أَيُّهَا النَّاسُ يَوْشِكُ أَنْ أُقْبِضَ قَبْضًا سَرِيعًا...» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٣٩

«أما والله ما دعوهم...» الصادق عليه السلام ٢١

«أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يُضَيِّعَنِي» الرسول صلى الله عليه وآله ٥٣٢

«بئس ما جزيتها أن حملك الله عليها ونجّاك بها ثم...» الرسول صلى الله عليه وآله ٤٩٧

«أبى أنت وأُمّي! ما أطيبك حياً وميتاً!» عليّ عليه السلام ٧٦٨

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمّد بن عبد الله إلى...» الرسول صلى الله عليه وآله ٥٤٤

«بعث موسيو هو راعي غنم، وبعث داود...» الرسول صلى الله عليه وآله ١٥٤

«بل الرفيق الأعلى من الجنّة» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٣٤

«بل هو الرأى والحرب والمكيدة» الرسول صلى الله عليه وآله ٣٧٢

«بِمَ أهللت؟» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٠٥

«تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول...» الرسول صلى الله عليه وآله ٦٦١

«تُطعم الطعام وتقرأ السلام على مَنْ عرفت...» الرسول صلى الله عليه وآله ٣٢٦

«تقولون: لا إله إلا الله...» الرسول صلى الله عليه وآله ٢٦٠

«ثم رأيت رجالاً لهم مشافر كمشافر الإبل، فى...» الرسول صلى الله عليه وآله ٢٧٢-٢٧٣

«خذ هذه الرايه فامض بها حتّى يفتح الله عليك» الرسول صلى الله عليه وآله ٥٥٠

«دعاهم إلى الذى دعوتكم إليه...» الرسول صلى الله عليه وآله ٥٤٤

«ذاك أخى كان نبياً وأنا نبى» الرسول صلى الله عليه وآله ٢٦٦

«ذلك داء ما كان الله عزّ وجلّ ليقذفنى به!» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٣٠

«ردّوا الّى ردائى أيّها الناس، فوالله...» الرسول صلى الله عليه وآله ٦٢٣

«سيروا وأبشروا فإنّ الله قد وعدنى...» الرسول صلى الله عليه وآله ٣٦٩

«فاقتصص منى حتى ترضى» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٤١

«فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد...» الرسول صلى الله عليه وآله ٢١٤

«فإنى نذير لكم بين يدي عذاب شديد، يا بنى...» الرسول صلى الله عليه وآله ١٩٨

«فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر وأن...» الرسول صلى الله عليه وآله ١٩٣

«فقولوا لهم فليختاروا من شاءوا» الرسول صلى الله عليه وآله ٤٧٩

«فكيف يا عمر إذا تحدّث الناس وقالوا...» الرسول صلى الله عليه وآله ٤٩٨

«فهل لك فى خير من ذلك؟» الرسول صلى الله عليه وآله ٥٠٤

«قاتلهم الله! جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام. ما شأن...» الرسول صلى الله عليه وآله ٦٠١

«قد جنتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرنى...» الرسول صلى الله عليه وآله ١٩٣

«قد حضرته مع عمومتى ورميت فيه بأسهم...» الرسول صلى الله عليه وآله ١٥٢

«قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم. وما...» الرسول صلى الله عليه وآله ٤١٣-٤١٤

«قل لهم: إن الله قد حرّم عليكم دماءكم وأموالكم...» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٠٢

«قم إلى منزل فاطمه فائتنى بالقضيب الممشوق» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٤١

«قم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها...» الرسول صلى الله عليه وآله ٣٢٥

«قوموا عنى لا ينبغى عند النبى التنازع» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٦٣

«قوموا عنى لا ينبغى عندى التنازع» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٣٥

«كذبوا، ولكننى خلفتك لما...» الرسول صلى الله عليه وآله ٦٥٣

«كم ينحرون كل يوم؟» الرسول صلى الله عليه وآله ٣٦٩

«كيف ترى يا عمر! أما والله لو قتلته يوم قلت...» الرسول صلى الله عليه وآله ٥٠٢

«لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً» الرسول صلى الله عليه وآله ٣٩١

«لا تبكى يا بتيه فإن الله مانع أباك» الرسول صلى الله عليه وآله ٢٦٥

«لا تحزن إن الله معنا» الرسول صلى الله عليه وآله ٣٠٢

«لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم؛...» الرسول صلى الله عليه وآله ٣٢٦

«لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً» الرسول صلى الله عليه وآله ٢٩٦

«لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً» الرسول صلى الله عليه وآله ٣٢٦

«لا تكذبوا عليّ فإنّه من كذب...» الرسول صلى الله عليه وآله ٦٥٠

«لا تكوننّ إمعه، تقول...» الرسول صلى الله عليه وآله ١٨

«لا كرب على أبيك بعد اليوم» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٢٨

«لا نفيديكموهما حتى يقدم صاحبانا فإننا نخشاكم...» الرسول صلى الله عليه وآله ٣٥٦

«لأنهم لم يشكوا» الرسول صلى الله عليه وآله ٥٣٤

«لا والله يا أبا مويهبه! لقد اخترت لقاء ربّي والجنّه» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٢٢

«لا يستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك...» الرسول صلى الله عليه وآله ٤١٦

«لا يكون أحدكم إمعه...» الرسول صلى الله عليه وآله ١٨

«لم أظنك سمعت منهم لى أذى!...» الرسول صلى الله عليه وآله ٤٧٧

«لم يزل ينقلني الله من أصلاب الطاهرين إلى أرحام» الرسول صلى الله عليه وآله ١٠١

«لن أصاب بمثلك أبداً، ما وقفت موقفاً قط...» الرسول صلى الله عليه وآله ٤٢٧-٤٢٨

«لو رأوني لما قالوا من ذلك شيئاً» الرسول صلى الله عليه وآله ٤٧٧

«ليته لا ينزل عليّ شيء ينفرهم عني» الرسول صلى الله عليه وآله ٢٢٤

«ما أحبُّ أن لي بحلف حضرته في دار ابن جدعان...» الرسول صلى الله عليه وآله ١٥٣

«ما أرت منك؟» علي عليه السلام ٣١٧

«ما أعلم إنساناً في العرب جاء قومه بأفضل...» الرسول صلى الله عليه وآله ١٩٢

«ما أقرأ؟» الرسول صلى الله عليه وآله ١٧٥

«ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام...» الرسول صلى الله عليه وآله ٣٥٥

«ما أمركم به فافعلوه» الرسول صلى الله عليه وآله ٦٩٩

«ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم...» الرسول صلى الله عليه وآله ٣٨١

«ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم» الرسول صلى الله عليه وآله ١٥٤

«ما ذكرتهما إلا وأنا أريد أن أخبركم...» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٣٩

«ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني...» الرسول صلى الله عليه وآله ٦٢٩

«ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد اليوم...» الرسول صلى الله عليه وآله ٦٥١

«ما ظنَّ محمَّد بالله لو لقي الله وهذه عنده؟ انفقيها» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٤٠

«ما ظنَّ (محمَّد) ربّه لو لقي الله وعنده هذه» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٣٠

«ما عن الحزن نهيت وإتما نهيت...» الرسول صلى الله عليه وآله ٦٦١

«ما قبض نبيّ إلا دفن حيث يُقبض» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٦٨

«ما كنت لأفشي سرّ رسول الله صلى الله عليه وآله» الزهراء عليها السلام ٧٢٨

«ما ورث الأنبياء من قبلي، كتاب ربهم...» الرسول صلى الله عليه وآله ٣١٧

«مرحباً بابنتي» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٢٨

«من استطاع أن يقي وجهه من النار...» الرسول صلى الله عليه وآله ٣٢٦

- «من صنع هذا؟ ولم فعلتموه؟!» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٣٠
- «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا عَلِيٌّ مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ...» الرسول صلى الله عليه وآله ٤٨٧
- «مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ مَعَهُ هَدَى فَأَحَبُّ أَنْ يَجْعَلَهَا..» الرسول صلى الله عليه وآله ٦٩٨
- «من يأخذ هذا السيف بحقّه؟» الرسول صلى الله عليه وآله ٤١٧
- «مَنْ يَعْذِرُنِي مِمَّنْ يُؤْذِنِي فِي أَهْلِي...» الرسول صلى الله عليه وآله ٥١٤
- «منى كلها منحرج» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٠٥
- «مهلاً يا بن رواحه، وقل لا إله إلا الله...» الرسول صلى الله عليه وآله ٥٧٠
- «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع» الرسول صلى الله عليه وآله ١٥٦
- «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقه» الرسول صلى الله عليه وآله ٦٦٠، ٧٧٢
- «نُصِرْتُ يَا عَمْرُو بْنَ سَالِمٍ» الرسول صلى الله عليه وآله ٥٨٨
- «نعم كلمه واحده تعطونهاها تملكون بها...» الرسول صلى الله عليه وآله ٢٦٠
- «نعم! مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سَفِيَانَ فَهُوَ آمِنٌ،...» الرسول صلى الله عليه وآله ٥٩٥
- «واكرب أبتاه!» الزهراء عليها السلام ٧٢٨
- «والذى بعثنى بالحقِّ ما أحرَّتكَ إلَّالْنَفْسَى...» الرسول صلى الله عليه وآله ٣١٧
- «والذى نفسى بيده إنَّ العذاب تدلَّى على أهل...» الرسول صلى الله عليه وآله ٣٤٠
- «والذى نفسى بيده لقد رضى...» الرسول صلى الله عليه وآله ٤٧٩
- «والله إنى لأخوه ووليه ووارث علمه...» علي عليه السلام ١٩٥
- «والله لئن أظهرنا الله عليهم يوماً من الدهر...» الرسول صلى الله عليه وآله ٤٢٨

«والله لا يحبهم عبدٌ إلا أعطاه الله نوراً...» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٣٩

«والله ما نالت منى فُريش شيئاً أكرهه...» الرسول صلى الله عليه وآله ٢٦٥

«وأيمُّ الله إنني لأقول لكم هذا ورجالٌ في...» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٣٩

«ولقد كنت أتبعه أتباع الفصيل أثر أمه...» عليّ عليه السلام ١٨٧

«وما الذي معك؟» الرسول صلى الله عليه وآله ٢٨٦

«وما لي لا أغضب وأنا أمرُ أمراً فلا يُتبع!» الرسول صلى الله عليه وآله ٦٩٩

«وما يدريك يا عمر لعلَّ الله قد اطلع...» الرسول صلى الله عليه وآله ٥٩١

«ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم...» الرسول صلى الله عليه وآله ٥٩٥

«ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم...» الرسول صلى الله عليه وآله ٥٩٥

«هذا عليّ مع القرآن والقرآن مع عليّ...» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٣٩

«هلاً تركت الشيخ بمكانه حتى أكون...» الرسول صلى الله عليه وآله ٦٠٥

«هل تدرّون أيّ يوم هذا؟» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٠٢

«هَلُمَّ إِلَيَّ ثوباً... ليأخذ كبير كلّ...» الرسول صلى الله عليه وآله ١٦٥

«هَلُمُّوا أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَاباً لَا تَضَلُّوا بَعْدَهُ أَبَدًا...» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٢٩، ٧٦٣

«هَنْ حَوْلِي يَسْأَلُنِي النِّفْقَةَ» الرسول صلى الله عليه وآله ٦٣٤

«يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما» الرسول صلى الله عليه وآله ٣٠٢

«يا أبا مويهبه، إنني قد أوتيت مفاتيح...» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٢٢

«يا إبراهيم لولا أنه أمر حقّ...» الرسول صلى الله عليه وآله ٦٦١

«يا إخوان القردة! هل أخزاكم الله وأنزل...» الرسول صلى الله عليه وآله ٤٧٨

«يا أمّ هانئ لقد صليت معكم العشاء...» الرسول صلى الله عليه وآله ٢٦٨

ص: ٨٤٣

«يا أهل القليب. يا عتبة بن ربيعة ويا شبيهه...» الرسول صلى الله عليه وآله ٣٨١

«يا أبا بصير، إننا قد أعطينا هؤلاء...» الرسول صلى الله عليه وآله ٥٣٦

«يا بنى عبدالمطلب إني أنا النذير إليكم من الله...» الرسول صلى الله عليه وآله ١٩٤

«يا رسول الله! إنك لم تكتب إليّ بإهلالك...» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٠٤

«يا رسول الله، إنني أهلت كما أهلت» عليّ عليه السلام ٧٠٠

«يا رسول الله، إني قلت حين أحرمت: اللهم إني...» عليّ عليه السلام ٧٠٠

«يا رسول الله! لقد ذهبت روحى وانقطع ظهري...» عليّ عليه السلام ٣١٧

«يا سوده! أعلى الله عزّ وجلّ وعلى رسوله...» الرسول صلى الله عليه وآله ٣٨٥

«يا عائشه، إنّه قد كان ما بلغك من قول الناس...» الرسول صلى الله عليه وآله ٥٠٩

«يا عليّ إن قريشاً اجتمعت على المكر بي...» الرسول صلى الله عليه وآله ٣٠٠

«يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى...» الرسول صلى الله عليه وآله ٢٠٤، ٢٠٧، ٢١٩، ٧٧٧-٧٧٨

«يامعشر الأنصار، ما قاله بلغتنى...» الرسول صلى الله عليه وآله ٦٢٥

«يا معشر الأوس، ألا ترضون أن أجعل بينى...» الرسول صلى الله عليه وآله ٤٧٩

«يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيراً...» الرسول صلى الله عليه وآله ٧٢٦

«يا معشر قريش... رأيتم لو أخبرتكم أنّ...» الرسول صلى الله عليه وآله ١٩٨

«يا معشر قريش، ما ترون أنّى...» الرسول صلى الله عليه وآله ٦٠٠

«يا نبى الله، زعم المنافقون أنّك إنّما...» عليّ عليه السلام ٦٥٣

«ياويح قريش لقد أهلكتهم الحرب؛ ماذا عليهم لو...» الرسول صلى الله عليه وآله ٥٢٣

سبحانه و تعالى «يَسِّرْ وَلَا تُعَسِّرْ، وَبَشِّرْ وَلَا تُنْفِرْ، وَإِنَّكَ...» الرسول صلى الله عليه وآله ٦٩٥

آدم عليه السلام: ٢٧٥، ٢٧٢، ٢٧٠، ٤٩، ٤٨، ٤٦.

آمنه بنت وهب (أم النبي صلى الله عليه وآله): ١٣٣، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٩، ١٤٥، ١٤٦، ٢٨٣، ٤٠٩.

أبان بن سعيد: ٥٢٨.

إبراهيم عليه السلام: ١٤، ٤٧، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١٢١، ١٢٥، ١٢٨، ١٢٩، ٢٧٠، ٢٧٦، ٣٣٦، ٣٤٣، ٣٨٧، ٥١٧، ٥١٨، ٥٢١، ٥٣١، ٥٩٣، ٥٩٩، ٧٣٢، ٧٨٥.

إبراهيم الأياري: ٧٨٥.

إبراهيم بن محمد صلى الله عليه وآله: ٣٦، ٤٥٢، ٥١١، ٥٤١، ٥٢٦، ٥٢٧، ٥٣١، ٥٣٢، ٥٣٥، ٥٣٧، ٥٤٥، ٥٦٠، ٥٦١، ٥٦٢، ٥٦٣.

أبرهه الأشرم: ٨٧، ١٢٧.

ابن أبي (عبدالله بن أبي): ٣٩٧، ٤١١، ٤٢٩، ٤٣٩، ٤٤٣، ٤٨٠، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٥، ٥١٢، ٥١٧، ٥٥٦، ٥٥٣، ٥٥٩.

ابن إسحاق (محمد ابن إسحاق): ٢٥، ١٣٨، ١٤٢، ١٤٤، ١٦٥، ٢٠٦، ٢٢٥، ٢٣١، ٢٢٥، ٣٠٠، ٣٧٢، ٥٢٢.

ابن الأعور السلمى: ٤٧٢.

ابن أم مكتوم الأعمى: ٢٤٣، ٢٥٩، ٣٦٦.

ابن بدهان: ٧١٣.

ابن الحويرث عثمان بن الحويرث

ابن الخطاب (عمر بن الخطاب):

٢٢٣، ٢٣٥، ٣٨٦، ٤٠٤، ٤٥٥، ٥٩٤، ٥٣٣، ٥٣٩، ٧٦٢، ٧٧١.

ابن الدغنه ربيعه (بن ربيع السلمى):

٦١٦، ٦١٧.

ابن رواحه (عبدالله بن رواحه): ٣٨٢،

ص: ٨٤٥

أبو حنظله أبو سفيان

أبو الحيسر أنس بن رافع: ٢٨٦.

أبو خيثمه: ٦٥٤.

أبو دجانة: ٤١٧، ٤١٩، ٤٢٥، ٤٤١، ٥٥٤.

أبو رافع مولى النبي: ٦٣٢.

أبو سعد بن أبي طلحة: ٤٢٤.

أبوسفيان بن الحارث بن عبدالمطلب:

١٩٨، ٥٩٣، ٦١٤.

أبوسفيان بن حرب بن أمية:

١٣٢، ١٥٧، ١٩٩، ٢٠٢، ٢٤٢، ٢٤٦، ٣٤٧، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٧، ٣٧٠، ٣٩٢، ٤٠٠، ٤٠٧، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٢٩، ٤٣١، ٤٣٤، ٤٤٢، ٤٦٧، ٤٦٩، ٤٧٢، ٤٧٤، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٦٢، ٤٧٣، ٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩٣، ٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٦، ٤٩٧، ٥٩٩، ٦١١، ٦١٢، ٦١٨، ٦٦٩، ٧٢١.

أبو سلمه بن عبدالأسد: ٤٣٢.

أبو طالب بن عبدالمطلب: ١٢١، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٢، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٨٦، ١٨٨، ١٨٩، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٤، ٢٦٥.

أبوالعاص بن الربيع بن عبدشمس: ١٦٩، ١٧٠، ٣٩١، ٦٣٠.

أبو عامر عمرو بن صفى الأوسى: ٤١٨.

أبو عبيده بن الجراح: ١٩٠، ٤٣٢، ٧٤٨، ٧٦٢، ٧٦٥، ٧٧٠.

أبو عفاك: ٣٩٤.

أبو غبشان الخزاعي: ١١٨.

أبوالغيداق: ٤٢١.

أبو قحافة: ١٨٨، ٥٩٧، ٢٢٠، ٧٧٢.

أبو قيس بن الأسلت: ٢٨٧.

أبو كعب الغفارى: ٤١٠.

أبو لبابه (بشير بن عبدالمنذر): ٣٨٦، ٤٧٨.

أبولهب عبدالعزيز بن عبدالمطلب: ١٣٣، ١٧٠، ١٩٢، ١٩٨، ١٩٩، ٣٩٠.

أبولون: ٥٣.

أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفى: ٢٤٦.

أبو مويهبه (مولى الرسول): ٧٢١، ٧٢٢، ٧٢٣.

أبو نائله (سلكان بن سلامه): ٣٩٦.

أبو الهيثم بن التيهان: ١٦٩.

أبى بن خلف: ٤٢٦.

الشيخ أحمد عبدالعليم البردونى (المصحح بدار الكتب المصريه):

٧٨٥.

ص: ٨٤٧.

الأستاذ أحمد لطفى (الموظف بدار الكتب المصريه): ٦٤.

الأخنس بن شريق: ٢٤٢، ٣٧٢، ٥٣٥.

إدريس عليه السلام: ٢٧٠.

أربد بن قيس: ٦٨٤.

أرطاه بن عبد شرحبيل: ٤١٩.

إرفنج: ٦٣، ٦٨، ٤٤٩، ٤٦٢.

أرياط: ٨٧.

أزهر بن عوف: ٥٣٥.

إساف: ١٢٤، ١٢٥، ١٩١.

أسمه: ٥٠٨، ٥١٢، ٦١٣، ٧١١، ٧١٤، ٧١٥، ٧٢٢، ٧٢٤، ٧٢٥، ٧٢٦، ٧٢٧، ٧٢٩، ٧٣٠، ٧٣٢، ٧٣٣، ٧٤٣، ٧٤٨، ٧٦٠، ٧٦٧، ٧٦٨، ٧٧١، ٧٧٢.

إسحاق عليه السلام: ١٠٠، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ٣٣٨.

أسد بن عبدالعزيز: ١٣٣.

إسرائيل ولفنسون (الدكتور): ٤٦٦.

الإسكندر: ٢٤٧.

أسماء بنت أبى بكر: ٣٠١، ٣٠٣، ٣٠٥.

أسماء بنت عميس زوج جعفر: ٣١٦، ٥٨١.

إسماعيل عليه السلام: ١٠١، ١٠٢، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٦، ١٢٤، ١٢٨، ٣٣٦، ٣٣٨، ٥٢١، ٧٣٢.

الأسود: ٦٦٩.

الأسود بن عبد الأسد المخزومى: ٣٧٥.

الأسود بن عبدالمطلب: ٤٠٣.

الأسود العنسى: ٧١٣، ٧١٦.

أسيد بن خضير: ٣٠٨، ٤١٣، ٧٣٢، ٥٠٧، ٥١٢، ٧١٦، ٧٤٨، ٧٦٠.

الأشعث بن قيس: ٦٩٤.

الأقرع بن حابس: ٦٢٣، ٦٢٤، ٦٤٧.

أكيدر بن عبدالمملك الكندى النصرانى:

٦٥٦، ٦٥٧.

أم أيمن (حاضنه النبي صلى الله عليه و آله): ١٣٧، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٦، ٥١٢، ٥٥٥، ٦١٣، ٧٦٥، ٧٧٢.

أم جميل زوج أبي لهب: ٢٠٧.

أم حبيب بنت أبي سفيان (أم المؤمنين):

١٦٧، ٥٦٢، ٥٨٩.

أم حكيم بنت الحارث بن هشام: ٦٠٤.

أم سلمه بنت أبي أمية بن المغيرة (أم المؤمنين): ٤٤٧، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٨،

ص: ٨٤٨

٥٢٢، ٥٩٣، ٦٢٠، ٦٣٣، ٧٦٥.

أم سيف (حاضنه إبراهيم ابن الرسول): ٦٣٢، ٦٦٠.

أم الفضل بنت الحارث (زوج العباس):

٥٧١.

أم قصي فاطمه بنت سعد بن سيل: ١١٧.

أم كلثوم ابنة الرسول: ١٦١، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ٤٠٤، ٤٥٤، ٦٣٠.

أم كلثوم بنت عقبه بن أبي معيط: ٥٣٧.

أم هانئ ابنة أبي طالب: ٢٦٨.

أمamah بنت زينب (ابنة الرسول): ٣٢٧.

إميل درمنجم (المستشرق): ٥٢، ٥٥، ٦٣، ١٤٣، ٢٦٩، ٢٧٢، ٣٠٣، ٤٤٩، ٤٦٢.

أميمه بنت عبدالمطلب: ٤٥٨.

أميه بن أبي الصلت: ١٣٢، ٢٠٥، ٢٤٦.

أميه بن خلف: ٣٤٧، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨١، ٤٣٤، ٧٠١.

أميه بن عبدشمس: ١٢١، ١٣٣.

أنس: ٥٤٢.

أنس بن فضاله: ٤١٠.

أنس بن النضر: ٤٢٥.

إنوسان الثامن: ٥٤.

أهيب بن عبدمناف: ١٣٥.

أوزوريس: ٧٤.

أولاً: ٦٩.

أياس بن معاذ: ٢٨٦.

إيزيس: ٧٤.

ب

بارتلمى: ٥٤.

بازان: ٥٦٠، ٥٦١.

باقوم الرومى: ١٦٤.

بيلاندر: ٥٤.

بجير بن زهير: ٦٢٨.

بحيرا (الراهب): ١٤٨.

بدهان: ٧١٢، ٧١٣.

بديل بن ورقاء: ٥٢٧، ٥٨٨، ٥٨٩، ٥٩٤، ٥٩٥.

البراء بن معرور: ٢٩١.

البراض بن قيس الكنانى: ١٥٠، ١٥١.

بريده شيخ بنى سهم: ٣٠٧.

بريدو: ٥٤.

بشر بن البراء: ٥٥٧.

ص: ٨٤٩.

بشر القرشى: ١٥١.

بلال الحبشى: ٢٠٦، ٢٢٧، ٣٢٥، ٣٧٨، ٣٧٩، ٥٧٠، ٦٠٣، ٦٠٩، ٧٢٦، ٧٣١، ٧٣٦.

بنت خارجه (حبيبه زوج أبى بكر):

٦٣٤، ٧٣٣، ٧٤٤.

بنت مضاخ بن عمرو (زوج إسماعيل):

١١٠.

الكونت بولنفلية: ٥٤.

بيل: ٥٢.

بيير باسكال: ٥٤.

بيير (فترابل): ٥٤.

ت

القديس تبريها: ٩٥.

ترفاجان: ٥٣.

تيودور (أخو هرقل): ٥٧٧.

ث

ثابت بن أرقم: ٥٨٠.

ثابت بن قيس: ٤٨٠، ٦٤٦.

ثويبه (جاريه أبى لهب): ١٣٩.

ج

جان داماسين: ٥٣.

جانبيه: ٥٤.

جبر النصراني: ٢٣٥، ٢٤٠.

جبير بن مطعم بن عدى: ١٤٨، ٢٩٤، ٤٢٠.

جبييرد نوجن: ٥٣.

الجد بن قيس: ٦٤٩.

جعفر بن أبى طالب: ٥٤، ٢١٧، ٢٦١، ٥٦٢، ٥٧٥، ٥٧٧، ٥٧٨، ٥٨٥.

جعفر باشا ولى: ٦٥.

جوستنيان: ٨٦.

جويره بنت الحارث بن أبى ضرار: ٤٩٨، ٥٠٠، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٦.

ح

الحارث بن أبى زينب: ٥٥٠، ٥٥١.

الحارث بن أبى شمر: ٦٢٢.

الحارث بن أبى ضرار: ٤٩٨، ٥٠٤.

الحارث بن أميه: ٢٩٤.

الحارث الحميرى: ٥٤٤، ٥٤٥.

الحارث بن الصّمه: ٤٢٦.

ص: ٨٥٠

الحارث بن عبدالعزى (زوج حليمه السعديه): ١٤٠.

الحارث بن عبدالمطلب: ١٣٣، ١٣٦، ٤٥٥، ٥٩٣، ٦١٢، ٦١٤، ٧٠١.

الحارث بن عوف: ٤٦٧.

الحارث الغساني: ٥٣٩، ٥٤٤، ٥٥٩.

الحارث بن هاشم: ١٢٤.

الحارث بن هشام: ٤٠٧، ٦٢٤.

حاطب بن أبى بلتعه: ٥٤٤، ٥٩١، ٥٩٢.

الحباب بن المنذر بن الجموح: ٣٧٢، ٤١٠.

حُبَيِّ بنت حليل بن حبشيه: ١١٨.

حبيبه بنت خارجة: ٦٣٤، ٧٣٣، ٧٤٤.

حذافه السهمي: ٥٤٤.

حرام بن ملحان: ٤٣٦.

حرب بن أميه: ١٥٢.

حسان (أخو أكيدر بن عبدالملك):

٦٥٧.

حسان بن ثابت: ٤٣٥، ٤٧٤، ٥٠٥، ٥١١، ٥٦١، ٦٣١، ٦٤٦، ٦٤٧.

الحسن بن على: ١٣٣، ٥٩٠.

حسيل بن جابر أبو حذيفه: ٤٢٣.

الحضرمي عامر الحضرمي: ٣٦٦.

حضير الكتائب أبو أسيد: ٢٨٧.

حفصه بنت عمر بن الخطاب (أم المؤمنين): ٤٠٤، ٤٥٣، ٤٥٥، ٥٤٨، ٥٢٧، ٥٣١، ٥٣٣، ٥٣٤، ٥٣٥، ٥٣٦، ٥٣٨، ٥٣٩، ٥٤٠، ٥٤١، ٥٤٢، ٥٩٩، ٧٢٤.

الحكم بن كيثان: ٣٥٦.

حكيم بن حكيم: ٥٩٤.

الحليس (سيد الأحابيش): ٥٢٦.

حليل بن حبشيه: ١١٨.

حليمه بنت أبي ذؤيب السعديه: ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥.

حمزه بن عبدالمطلب: ١٣٣، ١٣٥، ١٣٩، ٢١٢، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٦٠، ٢٨٢، ٣١٧، ٣١٨، ٣٤٦، ٣٤٨، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٣، ٣٧٥، ٣٧٩، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٧، ٤٢٨، ٥٧٢، ٥٨٤، ٥٨٥.

حمنه بنت جحش: ٥٠٥، ٥١١.

حُناطه الحميرى: ١٢٨.

حواء: ٤٦.

ص: ٨٥١.

دبرجلى القسيس: ٥٤.

دحيه بن خليفه الكلبي: ٥٥٤، ٥٥٩.

دراج بن ربيعه بن حرام: ١١٧.

درمنجم إميل درمنجم: ٥٢، ٥٥، ٦٣، ١٤٣، ٢٦٩، ٢٧٢، ٣٠٣، ٤٤٩، ٤٦٢.

دروتى: ٥٤.

دريد بن الصمه: ٦١٠، ٦١٦، ٦١٧.

ص: ٨٥٢

دكاسترى: ٥٤.

دلدل (بغله الرسول): ٥٦١.

دوزى: ٥٤.

ديودور الصقلى: ١١٤.

ذ

ذات النطاقين أسماء بنت أبى بكر: ٣٠٥.

ذو نفر: ١٢٨.

ذو نواس الحميرى: ٨٦.

ر

رباح (مولى الرسول): ٦٣٨، ٦٣٩.

ربيعه بن أميه بن خلف: ٧٠١.

ربيعه بن البراء: ٤٧٣.

ربيعه بن الحارث بن عبدالمطلب: ٦١٢، ٦٩٥، ٧٠١.

ربيعه بن حرام: ١١٧.

ربيعه بن رفيع ابن الدغنه: ٦١٦، ٦١٧.

رقية بنت محمد عليه السلام: ١٥٧، ١٦١، ١٦٨، ٣٨٥، ٤٠٤، ٤٥٤، ٦٣٠.

مدام ركاميه: ٤٥٨.

رودلف دلوهميم: ٥٣.

رولان: ٥٣، ٥٤.

ريحانه (بنت عمرو): ٤٨٢.

ريمون ليون: ٥٤.

زينان: ٥٤، ٤٥٠.

رينو: ٥٢.

ز

الزبير بن باطا القرظي: ٤٨٠.

الزبير بن عبدالمطلب: ١٥٢.

الزبير بن العوام: ١٩٠، ٣٦٩، ٤٢٦، ٥٥٤، ٥٩١، ٥٩٨، ٧٦٠.

زعه بن الأسود: ٢٥٥.

زهير بن أبي أمية: ٢٥٤، ٢٥٥.

زهير بن أبي سلمى: ٢٩٦.

زهره بن كلاب: ١١٧.

زيد بن حارثة: ١٦٩، ١٨٨، ٢٧٣، ٣٨٢، ٣٨٤، ٣٩١، ٤٠٣، ٤٠٧، ٤٤٧، ٥٧٥، ٥٧٧، ٥٧٨، ٥٨٥، ٦١٢.

زيد الخيل: ٦٢٩.

زيد بن الدثنه: ٤٣٤، ٤٣٥.

زيد بن سهل أبو طلحه: ٧٧٠.

زيد بن عمرو: ١٦٧.

ص: ٨٥٣.

زيد بن محمد زيد بن حارثه

زينب بنت جحش: ٤٤٧، ٤٥٢، ٤٥٨، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٨٢، ٥٠٥، ٥١٢، ٥٣٤، ٥٣٥، ٥٣٧، ٥٤٣.

زينب بنت الحارث: ٥٥٧.

زينب بنت خزيمه: ٤٤٧، ٤٥٥، ٤٥٨.

زينب بنت الرسول: ٤٩، ١٥٧، ١٦١، ١٦٨، ١٧٠، ٣٢٧، ٣٩١، ٣٩٢، ٤٠٥، ٤٢٠، ٤٢٨، ٤٣٠.

زينب بنت مخزوم: ٤٥٩

س

ساره (زوج إبراهيم عليه السلام): ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤.

سالم بن عمير: ٣٩٤.

سان بارتلمي: ٣٩٠.

سانتليير: ٥٤.

سباع بن عبدالعزي بن الغبشاني: ٤١٩.

سبرنجر المستشرق: ٥٤، ٤٨، ٣٥٠، ٤٦٢.

سراقه بن مالك بن جعشم: ١٧٥، ١٧٩، ١٨٠.

سعد بن أبي سيد بن قريظه: ٤١٠، ٤٧٥، ٤٧٨.

سعد بن أبي وقاص الزهري: ١٩٠، ٣٤٦، ٣٤٨، ٣٥١، ٣٥٤، ٣٥٦، ٣٢٤، ٣٢٥، ٤٣٢، ٤٨٦، ٤٩١، ٧٦٣.

سعد بن الربيع: ٣١٨، ٤١٠.

سعد بن زراره: ٣٠٧، ٣٠٨.

سعد بن زيد الأنصاري: ٤٨٢.

سعد بن عباده (سيد الخزرج): ٢٩٤، ٣٤٦، ٤٧١، ٤٩٨، ٥٠٧، ٥١٢، ٥٩٨، ٤٢٥، ٧٤٨، ٧٦٠، ٧٦١، ٧٦٢، ٧٦٣، سعد بن معاذ

الأشهلئ (سئء الأوس):

٢٨٧؁ ٣٠٨؁ ٣٦٩؁ ٣٧٣؁ ٤١٣؁ ٤٧١؁ ٤٧٦؁ ٤٧٩؁ ٤٨٠؁ ٤٨١؁ ٥١٢؁ ٥١٣؁ ٥١٤.

سعئء بن ءبئر: ٤٥٧-٤٥٨.

سعئء بن زئء: ٢٢٠.

السكراء بن عمرو بن عبءشمس: ٤٥٣.

سلام بن أبئ الءقئق: ٤٦٥؁ ٥٤٨.

سلام بن مشكءم: ٥٤٩؁ ٥٥٠.

سلماء الفارسئ: ٤٦٣؁ ٤٦٨.

سلمه بن ءوئلاء: ٤٣٢.

سلمه بن سلامه: ٤١٠.

ص: ٨٥٤

سلمه بن عمرو بن الأكوع الأسلمي: ٤٩٧.

سلمه بن هشام: ٥٨١.

سلمى (أرمله حمزه): ٥٧٢.

سلمى (زوج أبي رافع، قابله ماريه):

٦٣٢.

سلمى بنت عمرو الخزرجيه: ١٢٢، ١٢٣.

سليط بن عمرو: ٥٤٤.

سليمان عليه السلام: ٢٧٠.

سماك بن خرشه: ٤١٧.

سهل بن حنيف: ٤٤١.

سهل بن عمرو: ٣١٠، ٣١٢.

سهيل بن عمرو: ٣١٠، ٣١٢.

سهيل بن عمرو أبو يزيد: ٣٨٥، ٣٩١، ٥٣١، ٥٣٢، ٥٣٧، ٦٢٤، ٧٦٩.

سوده بنت زمعه (أم المؤمنين): ٢٦٨، ٣٢٢، ٣٨٥، ٤٥٣، ٤٥٥، ٤٥٨.

سويد بن الصامت: ٢٨٥، ٢٨٦.

سويلم اليهودي: ٦٥٠.

سيد أمير عليّ: ٦٣.

سيرين (أخت ماريه): ٦٣١، ٦٦١.

سيف بن ذي يزن الحميري: ٨٧، ٨٨.

شارلمان: ٥٣.

شاس بن قيس: ٣٣٣.

شجاع بن وهب الأسدي: ٥٤٤.

شرحيل (عامل هرقل): ٥٧٧.

شعيب عليه السلام: ١١٥.

شقران (مولى الرسول): ٧٦٨.

شهربراز: ٤٤.

شول: ٥٤.

شيبه بن ربيعه: ٢٥٦، ٣٧٥، ٣٨١.

شيبه بن عثمان بن أبي طلحه: ٦١٢.

شيبه بن هاشم: ١٢٣.

شيرويه بن كسرى: ٨٨، ٨٩، ٥٦٠.

الشيما بنت الحارث بن عبدالعزيز: ١٤١، ١٤٥، ٦٢٢.

ص

صالح عليه السلام: ١١٥.

صفوان بن أمية: ٣٩٣، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٠٧، ٤٣٤، ٦٠٤.

صفوان بن المعطل السلمى: ٥٠٣، ٥٠٥.

صفيه بنت حبي بن أخطب النضيري (أم المؤمنين): ٥٥٧، ٥٥٨، ٧٣٣.

صفيه بنت عبدالمطلب: ٤٢٨.

صؤاب الحبشى: ٤٢٤.

ض

ضرار بن الخطاب: ٤٧٣.

ضمضم بن عمرو الغفاري: ٣٦٥.

ط

الطاهر بن الرسول عليه السلام: ١٦١، ١٦٨، ٦٦٠.

الطفيل بن عمرو الدوسي: ٢٣٥، ٢٤٠، ٢٤١.

طلحه بن أبي طلحه عبد العزى طلحه بن أبي طلحه

طلحه بن عبيد الله: ١٩٠، ٢٠٦، ٣٦٤، ٤٢٥، ٦٥٠، ٧٦٠.

طلعت باشا حرب: ٧٨٤.

طليحه بن خويلد (زعيم بني أسد):

٤٣٢، ٤٧٦، ٧١٢، ٧١٣.

الطيب بن محمد عليه السلام: ١٦١، ١٦٨، ٦٦٠.

ع

عاتكة بنت عبدالمطلب: ٢٥٤.

العاص بن هشام بن المغيرة: ٣٦٦.

عاصم بن ثابت: ٣٨٤.

عامر الحضرمي: ٣٦٦، ٣٧٤.

عامر بن الطفيل: ٤٣٦، ٤٣٧، ٦٨٣.

عامر بن فهيرة: ٢٠٦، ٣٠١، ٣٠٣.

عائشه (أم المؤمنين): ١٧٥، ١٨٩، ٢٦٨، ٢٧٨، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٣، ٣١١، ٣٢٢، ٣٢٧، ٣٢٨، ٤٠٤، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٨، ٤٩٨، ٥٠٢، ٣٠٥، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٦، ٥٠٧، ٥٠٨، ٥٠٩، ٥١٠، ٥١١، ٥١٢، ٥١٣، ٥٢٧، ٥٣١، ٥٣٢، ٥٣٥، ٥٣٦، ٥٣٧، ٥٤٠، ٥٤١.

٧٧٠، ٧٦٧، ٧٦١، ٧٦٠، ٧٤٥، ٧٤٣، ٧٣٥، ٧٣٤، ٧٣٣، ٧٣١، ٧٣٠، ٧٢٩، ٧٢٨، ٧٢٧، ٧٢٦، ٧٢٥، ٧٢٤، ٧٢٣، ٦٤٤، ٦٤٣، ٦٤٢،
٧٧١.

عباده بن الصامت: ٣٩٨.

العبّاس بن عباده: ٢٩٢، ٢٩٣.

العبّاس بن عبدالمطلب: ١٣٣، ١٤٧، ١٦٦، ١٨٦، ٢٦١، ٢٧٨، ٢٩١، ٢٩٢، ٣٤١، ٣٨٠، ٤٠٩، ٤١٠، ٥٧١، ٥٨٥، ٥٩٢، ٥٩٣، ٥٩٤،
٥٩٥، ٥٩٦، ٥٩٧، ٦٠٨، ٦٠٩، ٦١٣، ٦١٤، ٦١٥، ٦٢٢، ٦٩٥، ٧٢٤، ٧٢٥، ٧٢٧، ٧٣٠، ٧٤٨، ٧٦٣، ٧٧٠.

ص: ٨٥٦

العباس بن مرداس: ٥٨٧، ٤٢٣، ٤٢٤.

عبدالحفيد شبلي: ٧٨٥.

عبدالدار بن قصي: ١١٩، ١٢١.

عبدالرحمن بن عوف: ٤٧، ١٩٠، ٣١٧، ٣٤٧، ٥٥٤، ٤١٢، ٤٤١، ٤٤٢، ٧١٤.

عبدالرحيم محمود: ٤٥، ٧٨٤.

عبد شمس بن عبدمناف: ١١٩، ١٢١، ١٢٣، ١٣٣.

عبدالعزي بن طلحه بن أبي طلحه: ٤٠٨، ٤١٧، ٤١٨.

عبدالعزي بن عبدالمطلب أبو لهب.

عبدالعزي بن قصي: ١٣٣.

عبدالله بن أبي بكر: ٣٠١، ٣٠٣.

عبدالله بن أبي ربيعة: ٢١٥.

عبدالله بن أبي السرح: ٤٠٤.

عبدالله بن أبي بن سلول: ٣٩٧، ٣٩٨، ٤٠٠، ٤١١، ٤١٦، ٤٢٩، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤٣، ٤٨٠، ٤٩٩، ٥١٢.

عبدالله بن أريقط: ٣٠٠، ٣٠٥.

عبدالله بن أمية بن المغيرة: ٥٩٣.

عبدالله بن أنيس: ٤٣٣.

عبدالله بن جبير: ٤٢٢.

عبدالله بن جحش الأسدي: ٣٤٥، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٦٣، ٣٧٢، ٤٥٩، ٤٦٠، ٥٦٢.

عبدالله بن جعفر: ٥٨١.

عبدالله بن خطل: ٤٠٤.

عبدالله بن رواحه: ٣٨٢، ٣٨٤، ٥٥٣، ٥٧٠، ٥٧٧، ٥٧٨، ٥٧٩، ٥٨٥.

عبدالله بن الزبيرى: ٢٠٠.

عبدالله بن زيد بن ثعلبه: ٣٢٥.

عبدالله بن سلام: ٣٣٢.

عبدالله بن طارق: ٤٣٤.

عبدالله بن عبدالمطلب: ٩٩، ١٢٥، ١٣٣، ٢٨٣.

عبدالله بن كعب: ٣٨٢.

عبدالله بن محمد: ٢٨٧.

عبدالمطلب بن هاشم: ١٢١، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨،

١٥٠، ١٥٢، ١٦٦، ١٨٦، ١٩٦، ٢٨٨.

عبدمناف بن قصي: ١١٩، ١٢٠، ١٣٣، ١٧٠.

عبد ياليل: ٦٦٧.

عبيدالله بن حجش: ١٦٧.

ص: ٨٥٧.

عبده بن الحارث بن عبدالمطلب: ٣٤٦، ٣٤٨، ٣٥١، ٣٧٥، ٤٥٥.

عتاب بن أسيد: ٦٢٦، ٦٢٧، ٧٦٩.

عتبان بن مالك الخزرجي: ٣١٧.

عتبه بن أبي لهب: ١٦٩.

عتبه بن أبي وقاص: ٤٢٥.

عتبه بن ربيعة: ٣١٢، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٨١.

عتبه به غزوان: ٣٥٤، ٣٥٦.

عتبيه بن أبي لهب: ١٦٩.

عثمان بن أبي العاص: ٦٦٩.

عثمان بن الحويرث: ١٦٧، ١٧٠.

عثمان بن طلحة: ٤٦٧، ٥٦٧، ٥٧٤، ٦٠٠، ٦٠٨.

عثمان بن عفان: ٦٧، ١٤٧، ١٦٧، ١٧٠، ١٩٠، ٣١٧، ٣١٨، ٣٨٥، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٤٢، ٤٥٤، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٠، ٦٠٤، ٦٠٧، ٦٤٧، ٦٥١، ٧٠٤.

عدّاس النصراني: ٢٦٦.

عدى بن حاتم الطائي: ٦٢٩، ٦٨٤.

عروه بن عتبة الهوازني: ١٥٠.

عروه بن مسعود الثقفي: ٥٢٦، ٦٦٥، ٦٦٦، ٦٦٧.

عزّال بن سموءل: ٤٨٠.

عمرو بن عبدالله بن عمير الجمحي (أو عزه الشاعر): ٣٨٨، ٤٠٨.

العزّي (صنم): ١٦٨، ١٦٩، ١٧٢، ١٨٧، ١٩١، ٢٠٠، ٢٣٠، ٣٦٧، ٥١٩، ٥٧٣، ٦٠٦.

عزير: ٣٣٧.

عصماء بنت مروان: ٣٩٤.

عطاء: ٢٥٨.

عطارد بن حاجب: ٤٤٤.

عفير (حمار النبي): ٥٤١.

عقبة بن أبي معيط: ١٥٧، ٣٦٦، ٣٨٣، ٣٨٤، ٥٣٧، ٤٤٧.

عقيل بن أبي طالب: ١٣٣.

عكرمه بن أبي جهل: ٤٠٧، ٤١٧، ٤١٨، ٤٧٣، ٥٢٢، ٥٧٣، ٥٨٨، ٥٩٩، ٦٠٤.

العلاء بن الحضرمي: ٥٤٤.

علي بن أبي طالب: ٤٣، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ١١٣، ١٣٣، ١٨١، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ٢٢٠، ٢٦١، ٣٠٠، ٣٠٥، ٣٠٩، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣٣١، ٣٤٠، ٣٦٧، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧٥، ٣٧٩، ٣٨٤، ٤٠٤، ٤١٦، ٤١٨، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٨، ٤٣٨، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٧٣.

ص: ٨٥٨.

٤٧٧، ٤٨٦، ٥٠٥، ٥٠٨، ٥٠٩، ٥٣٢، ٥٥٠، ٥٥٢، ٥٥٤، ٥٥٥، ٥٨٩، ٥٩٠، ٥٩١، ٥٩٢، ٦٠٢، ٦٠٨، ٦٠٩، ٦١٣، ٦١٤، ٦٢٩، ٦٥٢، ٦٥٣،
٦٦٥، ٦٧٣، ٦٧٤، ٦٧٧، ٦٨٧، ٦٩١، ٦٩٢، ٦٩٦، ٧٠٠، ٧٠٤، ٧٠٥، ٧٠٦، ٧٠٧، ٧٠٨، ٧٠٩، ٧١٤، ٧١٥، ٧١٦، ٧١٧، ٧١٨، ٧١٩،
٧٢٤، ٧٢٥، ٧٢٦، ٧٣١، ٧٣٣، ٧٣٥، ٧٤٧، ٧٤٨، ٧٤٩، ٧٥٠، ٧٥١، ٧٥٢، ٧٥٣، ٧٥٤، ٧٥٥، ٧٥٦، ٧٥٧، ٧٥٨، ٧٥٩، ٧٦٠، ٧٦٢، ٧٦٥.

علیُّ أحمد الشهداوی (المصحح بدار الكتب المصریه): ٧٨٥.

علیُّ فوده: ٧٨٥.

علیم بن الحارث بن كلده: ٦٢٣-٦٢٤.

عمارہ (أخت ميمونه): ٥٧٢.

عمار بن ياسر: ٢٠٦، ٦٠٧.

عمارہ بن عقبه: ٥٣٧.

عمارہ بن الوليد بن المغيرة: ٢٠٢.

عمر بن أبي ربيعه: ٤٨٩.

عمر بن أسد: ١٦٠.

عمر بن الخطاب رضی الله عنه: ٦٦، ٦٧، ١٧٩، ١٨٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٦٠، ٢٨٢، ٣٠٠، ٣٠٨،
٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٩١، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤١٣، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٣٨، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٦٢، ٤٨٦، ٤٩٩، ٥٠٢،
٥٢٨، ٥٣١، ٥٣٢، ٥٣٣، ٥٣٧، ٥٣٨، ٥٤٠، ٥٤٨، ٥٥٠، ٥٥٥، ٥٧٠، ٥٨٥، ٥٨٩، ٥٩١، ٥٩٤، ٥٩٥، ٥٩٦، ٦٠٧، ٦٢٧، ٦٣٣، ٦٣٤،
٦٣٦، ٦٣٨، ٦٣٩، ٦٤٢، ٦٤٢، ٦٤٢، ٦٤٩، ٧٠٤، ٧٠٦، ٧٢٦، ٧٢٩، ٧٣٠، ٧٣١، ٧٣٣، ٧٣٤، ٧٣٥، ٧٣٦، ٧٣٨، ٧٤١، ٧٤٣، ٧٤٤، ٧٤٥،
٧٤٦، ٧٤٧، ٧٤٨، ٧٦٠، ٧٦١، ٧٧٢، ٧٧٦.

عمره بنت علقمه الحارثية: ٤٢٤.

عمرو بن أم مكتوم: ٣٦٦.

عمرو بن أمية الضمري: ٤٣٦، ٤٣٨، ٥٤٤.

عمرو بن جحاش بن كعب: ٤٣٨.

عمرو بن الجموح: ٣٧٩.

عمر بن الحزرمى: ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٦٣.

عمر بن سالم الخزاعى: ٥٨٨.

ص: ٨٥٩

عمرو بن العاص السهمي: ٢٠٠، ٢١٥، ٥٤٤، ٥٦٧، ٥٧٤، ٥٨٢،

عمرو بن عبد ود: ٤٧٣.

عمرو بن معد يكرب: ٦٨٤.

عمير بن عوف: ٣٩٤.

العوام بن خويلد بن أسد: ١٣٣.

عيسى عليه السلام: ٤٣، ٤٦، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٧، ٧٥، ٧٧، ٨٦، ٩٢، ٩٣، ١٤٩، ١٥٨، ٢٠٠، ٢٠٩، ٢١٧، ٢١٨، ٢٧٠، ٢٧٦،

٢٨٣، ٢٩٣، ٣٢٠، ٣٣٤، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٥٧، ٣٨٧، ٤٥٠، ٤٦٢، ٤٤٣، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩١، ٤٩٣، ٤٩٤، ٧٤٤، ٧٤٥، ٧٧٧.

عينه بن الأقرع: ٤٨٥.

عينه بن حصن بن حذيفه: ٤٦٧، ٤٧٢، ٤٩٦، ٤٧٩، ٤٢٣، ٧٤٦.

غ

غليوم بَسْتَل: ٥٤.

ف

فاطمه بنت الخطاب: ٢٢٠، ٢٢١.

فاطمه بنت الرسول صلى الله عليه وآله: ٤٧، ١٦١، ١٦٢، ١٧٠، ١٨١، ١٨٣، ٢٦٥، ٣٠٧، ٣٤٠، ٤٠٤، ٤٢٣، ٥٥٤، ٥٥٥، ٥٥٦، ٥٩٠،

٦٣٠، ٦٦٠، ٦٩١، ٦٩٢، ٦٩٩، ٧٠٠، ٧٢٨، ٧٣٦، ٧٦٠، ٧٦٢، ٧٦٥، ٧٧٠، ٧٧١، ٧٧٢.

فرات بن حيان: ٤٠٣.

فرانسيسك ميشيل: ٥٢.

فرعون موسى: ٧٥، ١٠٢، ٢٠٨، ٢٠٩.

فروه بن عمرو الجذامي: ٥٦٨.

الفضل بن العباس: ٦٦١، ٦٦٢، ٧٣١.

فنحاص اليهودي: ٣٣٤، ٣٣٥.

فوستر: ٥٤.

فيفس: ٥٣.

فيل: ٤٦٢، ٤٨.

فيميون: ٨٦.

ق

قارون: ٢٤٧.

القاسم بن الرسول صلى الله عليه و آله: ١٦١، ١٦٨، ١٧٠، ١٦٠.

قتاده: ٢٥٨.

قثم بن العباس: ٧٦٨.

قزمان المنافق: ٤٢٠، ٤٢١.

ص: ٨٦٠.

قس (بن ساعده): ١٥٠، ١٩١.

القصواء (ناقه الرسول صلى الله عليه و آله): ٥٥٢، ٥٦٨، ٦٠٠، ٧٠١، ٧٠٢.

قصي بن كلاب: ١١٥، ١١٧.

قيس بن سعد بن عباده: ٧٦٢.

قيصر (ملك الروم): ٧٦، ٨٦، ٨٧، ١١٤، ١٦٧، ٤٧٢، ٥٢٧.

قينه بن خطل: ٦٠٥.

ك

كارليل: ٥٤، ٦٨.

كرز بن جابر الفهري: ٣٤٧.

كسرى أبرويز: ٤٤، ٨٧، ٨٨، ٤٧٢، ٥٢٧، ٥٣٩، ٥٤٢، ٥٤٣، ٥٤٤، ٥٤٧، ٥٥٨، ٥٦٠، ٥٦١، ٧٤١.

كعب بن أسد: ٤٧٠، ٤٧٨، ٤٨٠.

كعب بن الأشرف: ٣٩٥، ٤٠٢، ٤٣٨.

كعب بن زهير: ٦٢٨.

كعب بن زيد: ٤٣٦.

كعب بن مالك: ٤٢٦، ٦٥٨.

كلاب بن مره: ٦١٢.

كنانه بن أبي الحقيق: ٤٦٥.

كنانه بن الربيع: ٥٥٧.

كوسال دبرسفال: ٥٤، ٦٦، ١٣٩.

ل

اللات (صنم): ١١٤، ١٢٨، ١٦٨، ١٧٢، ١٨٧، ١٩١، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٣٠، ٢٦٦، ٣٦٧، ٤٢٤، ٥١٩، ٥٧٣، ٦٦٦، ٦٦٨، ٦٦٩.

لامنس: ٦٥، ٤٤٩، ٤٦٢.

لييد بن الأعصم: ٥٦٤.

لقمان: ٢٨٦.

لورد اللبني: ٣٦٠.

لوط عليه السلام: ٦٤٢.

م

ماحوم (الصنم): ٥٣.

ماريه القبطيه: ٤٥٢، ٥١١، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٥، ٥١٦، ٥٦١، ٦٢٧، ٦٣١، ٦٣٢، ٦٣٥، ٦٣٦، ٦٣٧، ٦٤٠، ٦٤٢، ٦٦١.

مالك بن جعشم المدلجي: ٣٦٦.

مالك بن عوف النصرى: ٦٠٩، ٦١٠، ٦١١، ٦١٦، ٦١٩، ٦٢٣.

ص: ٨٦١

ماهوم: ٥٣.

مجدى بن عمرو الجهنى: ٣٤٦، ٣٥٠، ٣٧٠.

الشيخ محمد عبده: ١٢، ٥٩، ١١٣، ٢٣١، ٤١٤.

محمّد بن مسلمه: ٤٣٨، ٥٥٢، ٥٦٧، ٦٥٢.

الشيخ محمد مصطفى المراغى: ٦٥.

الأستاذ محمود بك خاطر: ٧٨٤.

مراتشى: ٥٤.

مراه بن الربيع: ٦٥٨.

مرثد بن مرثد الغنوى: ٣٦٧.

مرحب اليهودى: ٥٥١، ٥٥٢.

مروان (أميرالمدينه): ١٢٧.

مريم عليها السلام: ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٧، ٧٥، ٧٧، ٩٣، ٢٠٩، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢٩٣، ٣٢٦، ٤٥٠، ٥٤٣، ٦٨٩، ٦٩١، ٦٩٤، ٧٤٤، ٧٤٧.

مسطح بن أثاثه: ٥١١.

مسعر بن رخيله: ٤٦٧.

مسلم بن الحجاج القشيري (صاحب الصحيح): ٦٩٩.

مسيلمه بن حبيب: ٦٨٤.

مسلم بن عقيل بن أبى طالب: ١٣٣.

مسيلمه (الكذاب): ٧١٣.

مصعب بن عمير: ٢٨١، ٢٨٨، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٨٤.

مضاى بن عمرو بن الحارث الجرهمى:

١١٠، ١١٧، ١٢٤.

المطعم بن عدى: ٢٥٥.

المطلب بن عبد مناف: ١١٩، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣.

معاذ بن جبل: ٥٥٦، ٦٢٦، ٦٢٧.

معاذ بن عفراء: ٣١٠.

معاذ بن عمرو بن الجموح: ٣٧٩.

معاوية بن أبي سفيان بن حرب: ١٢١، ١٣٣، ٢٦١، ٢٦٨، ٢٧٨، ٥٥٤، ٥٥٨، ٥٦٠، ٦٢٣، ٦٩٠، ٦٩٥.

معبد الخزاعي: ٤٢٩.

المغيره بن شعبه: ٥٢٧، ٦٦٧، ٦٦٩، ٧٤٤، ٧٤٧، ٧٤٨.

المغيره بن عبدالله المخزومي: ١٢٥.

المقداد بن عمرو: ٣٦٨، ٣٨٤.

المقوقس: ٥٣٩، ٥٤٤، ٥٦١، ٦٣١.

ص: ٨٦٢

مكرز بن حفص: ٣٩١.

مكرم عبيد (الأستاذ): ٦٥.

مناه (الصنم): ١٦٩، ٢٢٤، ٢٣١، ٣٠٨.

المنذر بن عمرو: ٤٣٦.

المهاجر بن أميه المخزومي: ٥٤٥.

موسى بن عمران عليه السلام: ٤٧، ٧٥، ٨٦، ١٤٩، ١٥٤، ١٧٥، ١٨٠، ١٨١، ١٨٣، ٢٠٠، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٧، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٧٠، ٢٧٢،

٢٧٦، ٢٨٣، ٣١٦، ٣١٧، ٣٢٠، ٣٣٨، ٣٨٧، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥٣، ٤٦٢، ٤٦٩، ٤٥٢، ٤٨٨، ٤٩٣، ٧٤٤، ٧٤٥، ٧٤٧، ٧٦٠، ٧٦٢، ٧٧٦.

موير وليم موير

ميسره (غلام خديجه): ١٥٨.

ميمونه بنت الحارث (أم المؤمنين):

٥٦٧، ٥٧١، ٥٧٢، ٧٢٤، ٧٣٠.

ن

نائلة (صنم): ١٢٤، ١٢٥، ١٩١.

النايغه: ٢٩٦.

النجاشي: ٨٦، ٨٧، ١٢٨، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢٢٠، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٦١، ٣٣٠، ٥٨، ٥٦٢.

نسطاس: ٤٣٤.

نسطور الراهب: ١٥٨.

النضر بن الحارث: ٢٣٩، ٢٤٠، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٨.

النعمان بن المنذر: ٨٧، ١٥٠، ١٥١، ٦٢٢.

نعيم بن عبدالله: ٢٢٠.

نعيم بن مسعود الأشجعي: ٤٠٣، ٤٢٢، ٤٧٥، ٤٧٦.

نفيسه بنت منيه: ١٥٩.

نفييل بن حبيب الخثعمي: ١٢٨.

نوح عليه السلام: ٤٧، ٢٧٠، ٣٨٧.

نوفل بن عبدالله بن المغيرة: ٤٧٣.

نوفل بن عيذمناف: ١١٩، ١٢١، ١٢٣، ١٣٣.

نيكولا دكيز: ٥٣.

ص: ٨٦٣

هاجر: ١٠٢، ١٠٣، ١٠٩.

هارون عليه السلام: ٢٧٠.

هاشم بن عبدمناف: ٩٤، ٩٩، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٣٣، ١٥٢، ١٦٦.

هاله بنت عبدمناف (أم حمزه): ١٣٥.

هبار بن الأسود بن المطلب: ٦٣٠.

هبل (صنم): ٩٦، ١٢٤، ١٢٥، ١٣٣، ١٦٥، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٢، ١٩١، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٣١، ٥١٨، ٦٠٢.

هرقل: ٤٢، ٤٤، ٤٥، ٥٧، ٥٣٩، ٥٤٢، ٥٤٣، ٥٤٤، ٥٥٨، ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦١، ٥٧٦، ٥٧٧، ٥٧٨، ٥٨٦، ٥٨٧، ٧٤٥.

هشام بن صبابه: ٤٩٨.

هشام بن عمرو: ٢٥٤.

هلال بن أميه: ٦٥٨.

هند بنت أبي طالب أم هانئ

هند بنت عتبة: ٣٩٢، ٤٠٨، ٤١٧، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢٧، ٤٨٩، ٦٠٤.

هوتنجر: ٥٤.

هود عليه السلام: ١١٥.

هوذه بن قيس: ٤٦٥.

هورس: ٧٤.

هيرن: ٨٣.

هيروودوت: ١١٤.

واشنتن أرفنج: ٤٤٩.

واقد بن عبدالله التميمي: ٣٦٣.

الواقدي: ٥٣٢.

وائل بن حجر الكندي: ٦٩٥.

وحشي الحبشي (مولى جبير): ٤٢٠.

ورقه بن نوفل: ١٤٥، ١٦٧، ١٧١، ١٧٥، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٣، ٢٠٥.

الوليد بن عتبة بن ربيعة: ٣٧٥.

الوليد بن عقبه: ٥٣٧.

الوليد بن المغيرة: ١٦٤، ٢٠٢، ٢٣٨، ٢٤٣، ٢٤٦.

ص: ٨٦٤

وليم موير: ٥٥، ٦٥، ٨٣، ١١١، ١١٢، ١٤٣، ٢٢٧، ٥١١.

وهب بن عبد مناف: ١٣٥.

وهرز: ٨٨.

ي

يحيى عليه السلام: ٢٧٠.

يسار: ٤٠١، ٤٤٧.

اليسير بن رزام: ٥٤٨.

يعرب بن قحطان: ١١٠.

يعفور عفير

يعقوب عليه السلام: ٣٣٨.

يوحنا بن رؤبه: ٢٢٠، ٢٢٧.

يوسف عليه السلام: ٧٢٦، ٧٢٨.

يوسف النجار: ٤٥٠.

يوليوس قيصر: ١١٤.

يونس بن متى عليه السلام: ٢٦٦، ٤٦٢.

ص: ٨٦٥.

الآشوريه: ٧٣، ٧٤.

آل أبي بكر: ٧٣٤.

آل جعفر: ٥٨١.

آل فرعون: ٢٧٣.

الأتراك: ٥٦٠.

الأحباش الحبشه

الأريسيون: ٥٤٤.

الأزد: ٦٨٥.

أزد اليمن: ٨٩.

أسد بنو أسد

أسد عُمان: ٦٨٥.

أسلم: ٦٨٥.

أشجع: ٤٦٦، ٤٦٧، ٥٨٧، ٦٨٥.

الأشعريون: ٦٨٥.

الأعاجم العجم

الأغريق: ٥٧٧.

الأفغان: ٤٣.

الألمان: ٣٧٧.

أهل النبي صلى الله عليه وآله: ٧٧٠.

الأوس: ٢٨١، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٣، ٣١٠، ٣١٥، ٣١٩، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٣٣، ٣٣٥، ٣٤٥، ٣٤٩، ٣٥٣، ٣٦٧، ٣٩٧،
٤٠٩، ٤١٠، ٤١٨، ٤٣٩، ٤٧١، ٤٧٦، ٤٧٨، ٤٧٩، ٥٠٦، ٥٠٧، ٥١٢، ٧٤٨، ٧٤٩، ٧٥٠.

إيطاليا: ٣٦٠.

ب

بارق: ٦٨٥.

باهله: ٦٨٥.

بجيله: ٦٨٥.

البروتستانتون: ٦٠، ٣٩٠.

البطالسه: ٩٣.

بكر بن وائل بنو بكر بن وائل

بلي: ٥٥٧، ٦٨٥.

بنو أسد: ١٥٧، ١٩٨، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٧، ٤٥٥، ٧١٢.

بنو إسرائيل اليهود

بنو الأصفر الروم

بنو أمية: ١٢٢، ١٤٧، ٤٥٤.

بنو أمية بن زيد: ٣٩٤.

بنو البكاء: ٦٨٥.

بنو بكر: ٣٦٥، ٥٨٧، ٥٩٨.

بنو بكر بن عبد مناه: ٥٨٨.

بنو بكر بن وائل: ٤٠٣، ٤٨٥.

بنو تميم: ٤٤٦، ٤٨٥.

بنو تيم: ١٥٢، ١٩٨.

بنو ثعلبه: ٣٢١، ٤٠١، ٤٤٤، ٤٨٥.

بنو جشم: ٣٢١، ٤١٠.

بنو الحارث: ٣٢١، ٤٨٥.

بنو حمير حمير

بنو حنيفه: ٢٨٢، ٢٦٧، ٤٨٤، ٤٨٥.

بنو خزاعه خزاعه

بنو الخزرج الخزرج

بنو خطمه: ٣٨٥.

بنو الدئل: ٣٠٥.

بنو دوس: ٤٢٠، ٤٨٥.

بنو الديل: ٥٨٨.

بنو زهره: ١٢١، ١٣٥، ١٥٢، ١٩٨، ٣٧٢.

بنو ساعده: ٣٢١، ٤١٧، ٤٣٦.

بنو سعد: ١٢٥، ١٣٥، ١٣٧، ١٤٠، ١٤٢، ٤٦٦.

بنو سعد بن بكر: ١٤٤، ٤٨٥.

ص: ٨٤٨

بنو سلمه: ٣٠٨، ٣٠٩، ٦٤٩.

بنو سلول: ٦٨٤.

بنو سليم: ٤٠١، ٤٠٢، ٤٣٦، ٤٦٦، ٤٦٧، ٥٧٥، ٥٨٧، ٥٩٢، ٦١١، ٦٢٣، ٦٨٥.

بنو سهم: ١٩٩، ٣٠٧.

بنو شيبان: ٦٠٦، ٦٨٥.

بنو ضميره: ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨.

بنو ظفر: ٣٠٨، ٤٢٠.

بنو عامر: ٢٨٢، ٣٤٦.

بنو عامر بن صعصعه: ٢٦٧، ٦٨٥.

بنو عبدالأشهل: ٢٨٦، ٣٠٨، ٧٦٠.

بنو عبدالدار: ١٢٠، ١٦٤، ٤١٧.

بنو عبدالمطلب: ١٢٥، ١٣٦، ١٤٧، ١٩٣، ١٩٨، ٢٣٦، ٢٦١، ٢٨٢، ٥٩١، ٦٢٢، ٦٢٣.

بنو عبدمناف: ١١٩، ١٢٠، ١٩٨، ١٩٩، ٢٢٠، ٢٤٦، ٢٩٧.

بنو العجلان: ٥٨٠.

بنو عدى: ١٦٤.

بنو عدى بن كعب: ٥٢٨.

بنو عريض: ٥٥٦.

بنو عمرو بن عوف: ٣٩٤.

بنو العنبر: ٥٥٦.

بنو غازيه: ٥٥٦.

بنو فزاره: ٤٦٦، ٤٦٧، ٥٨٧، ٦٨٥.

بنو قريظه: ٣١٥، ٣٢٢، ٤٦٣، ٤٦٨، ٤٧٠، ٤٧٣، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٩٦، ٥١٢، ٥٤٧، ٥٥٨.

بنو قبيله الأوس والخزرج

بنو قينقاع: ٣١٥، ٣٢٢، ٣٣٥، ٣٩٣، ٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠٢، ٤٣٩، ٤٦٤، ٤٦٥، ٤٧٠، ٤٨٠، ٥٤٧، ٥٥٣.

بنو كعب: ٥٢٣، ٦١٠.

بنو كنانه: ١٥١، ١٥٢، ٢٢٤، ٣٦٥، ٣٦٦، ٤٦٥، ٥٩٠، ٦٨٥.

بنو لحيان: ٤٣٣، ٤٨٥، ٤٩٦.

بنو الليث: ٥٧٥.

بنو محارب: ٤٠١، ٤٤٤، ٦٨٥.

بنو مخزوم: ١٥٧، ١٦٦، ١٩٨، ٢١٢.

بنو مدلج: ٣٤٧، ٣٤٨.

بنو مره: ٤٦٦، ٤٦٧، ٦٨٥.

ص: ٨٦٩

جذام: ۶۸۵، ۵۷۷.

جذیمه: ۶۰۷.

جرم: ۶۸۵.

جرهم: ۹۹، ۱۱۰، ۱۱۱، ۱۱۶، ۱۱۷، ۱۲۵.

جشم بنو چشم

جعه: ۶۸۵.

جعفی: ۶۸۵.

جهینه: ۶۸۵.

جیشان: ۶۸۵.

ص: ۸۷۰.

ذبيان: ٥٨٧.

د

ربيعه: ١١٨، ٦٨٥.

الرهاويون: ٦٨٥.

رؤاس بن كلاب: ٦٨٥.

ص: ٨٧١.

الروم: ٤٤، ٤٥، ٥١، ٥٧، ٨٦، ٨٧، ٨٩، ٩٣، ١٤٩، ١٦٧، ٣٣٧، ٤٨٦، ٥٤٤، ٥٤٦، ٥٧٥، ٥٧٧، ٥٧٨، ٥٨٠، ٥٨٥، ٥٨٦، ٦٤٥، ٦٤٧، ٦٤٨، ٦٤٩، ٦٥٢، ٦٥٥، ٦٥٦، ٦٥٧، ٦٦٥، ٦٦٦، ٦٦٩، ٦٧٠، ٦٧١، ٦٧٣، ٦٧٤، ٧١٦، ٧٦٧.

رومانيا: ٣٦٠.

ز

زبيد: ٦٨٥.

س

سعد بن بكر بنو سعد بن بكر

سعد العشيره: ٦٨٥.

سعد هذيم: ٦٨٥.

سلامان: ٦٨٥.

سليم بنو سليم

ش

شهران: ١٢٨.

شبيان بنو شبيان

ص

الصابئون: ١١٤، ٢١٠.

صداء: ٦٨٥.

الصدف: ٦٨٥.

ط

طىء: ٦٢٩، ٦٨٥.

ع

عاد: ٢٨٨، ١١٥.

عامر بن صعصعه بنو عامر بن صعصعه

عبدالقيس: ٤٣٠، ٦٨٥.

العبريون: ١١١.

عبس: ٥٨٧، ٦٨٥.

العثمانيون: ٤٢.

العجم: ٨٨، ٢٦٠، ٣٢٦.

العرب: ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٥٨، ٦٥، ٦٦، ٦٩، ٧٣، ٧٨، ٩، ١٠، ١١، ١٣، ١٨، ١٩، ٩٠، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٦، ٩٧، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٧، ١٢٨، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٦، ١٣٧.

ص: ٨٧٢.

٢١٣، ٢١٢، ٢١٠، ٢٠٥، ٢٠٣، ١٩٣، ١٩٢، ١٨١، ١٧١، ١٧٠، ١٦، ١٦٤، ١٥٣، ١٥٢، ١٥٠، ١٤٩، ١٤٨، ١٤٦، ١٤٤، ١٤٣، ١٣٩،
٢٨٢، ٢٧٧، ٢٦٧، ٢٦٦، ٢٦٠، ٢٥٩، ٢٥٤، ٢٥٣، ٢٥١، ٢٤٧، ٢٤٦، ٢٤٠، ٢٣٩، ٢٣٨، ٢٣٨، ٢٣٧، ٢٣٦، ٢٣٢، ٢٣١، ٢١٨، ٢١٥،
٣٩٩، ٣٩٧، ٣٩٦، ٣٩٥، ٣٨٥، ٣٨٠، ٣٧٤، ٣٧١، ٣٦٩، ٣٥١، ٣٤٣، ٣٣٧، ٣٢٤، ٣١٨، ٣١٦، ٣٠٥، ٢٩٧، ٢٩٥، ٢٨٦، ٢٨٥، ٢٨٤،
٤٦٣، ٤١١، ٤٠٠، ٤٥٩، ٤٥١، ٤٤٢، ٤٣٩، ٤٣٧، ٤٣٦، ٤٣٣، ٤٣٢، ٤٣٠، ٤٢٩، ٤٢٨، ٤٢١، ٤١٩، ٤١٢، ٤٠٩، ٤٠٤، ٤٠٣، ٤٠٠،
٥١٩، ٥١٨، ٥٠٤، ٤٩٧، ٤٩٦، ٤٩٢، ٤٩١، ٤٩٠، ٤٨٨، ٤٨٧، ٤٨٥، ٤٨٣، ٤٨٢، ٤٨١، ٤٧٣، ٤٦٩، ٤٦٨، ٤٦٧، ٤٦٦، ٤٦٥، ٤٦٤، ٤٦٣، ٤٦٢، ٤٦١،
٥٥٨، ٥٥٦، ٥٥٠، ٥٤٩، ٥٤٨، ٥٤٧، ٥٤٣، ٥٤١، ٥٤٠، ٥٣٨، ٥٣٤، ٥٣٢، ٥٣١، ٥٣٠، ٥٢٩، ٥٢٨، ٥٢٥، ٥٢٤، ٥٢٣، ٥٢٢، ٥٢١،
٦٤٧، ٦٤٥، ٦٣٥، ٦٣٣، ٦٢٩، ٦٢٨، ٦٢٧، ٦٢٦، ٦٢١، ٦١٩، ٦١١، ٦٠١، ٥٩٣، ٥٨٢، ٥٧٨، ٥٧٧، ٥٧٠، ٥٦٤، ٥٦٢، ٥٦١، ٥٥٩،
٧٤٨، ٧٤٥، ٧٤١، ٧٣٥، ٧٣٤، ٧١٦، ٧١٤، ٧١٢، ٧١١، ٦٩٥، ٦٩٠، ٦٨٧، ٦٨٥، ٦٨٤، ٦٨٢، ٦٧٧، ٦٧٠، ٦٦٥، ٦٥٨، ٦٤٩، ٦٤٨،
٧٦٩، ٧٦٣، ٦٧١، ٧٥٠، ٧٤٩.

عقيل بن كعب: ٦٨٥.

عنس: ٦٨٥.

غ

غافق: ٦٨٥.

غامد: ٦٨٥.

الغساسنه: ٧٨، ١٢٧، ١٣١، ١٦٧، ١٦٨.

خطفان: ٤٠١، ٤٤٤، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٦، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٧٧، ٤٨١، ٤٩٧، ٤٤٧، ٤٤٩، ٤٨٧، ٥٩٢.

ف

الفرس: ٤١، ٧٦، ٧٨، ٧٩، ٨٨، ٩٢، ٩٣، ١٤٩، ٢٣٩، ٤٧٤، ٤٨٦، ٥٤٢.

ص: ٨٧٣.

فزاره بنو فزاره

الفندال: ٧٦، ٩٣.

ق

القبط: ٥٦١.

قريش: ٩٧، ٩٩، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٢، ١٣٩، ١٤٥، ١٤٧، ١٤٨، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٩، ١٨٠، ١٨٣، ١٨٦، ١٨٨، ١٩٠، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٧، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣١١، ٣١٣، ٣١٤، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤١٢، ٤١٣، ٤١٤، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٧، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٣، ٤٧٤، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٨٧، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٣، ٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٦، ٤٩٧، ٤٩٨، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٦، ٥٠٧، ٥٠٨، ٥٠٩، ٥١٠، ٥١١، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٥، ٥١٦، ٥١٧، ٥١٨، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٢٤، ٥٢٥، ٥٢٦، ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٠.

ص: ٨٧٤

٥٨٥، ٥٧٦، ٥٧٣، ٥٧٢، ٥٧١، ٥٧٠، ٥٦٩، ٥٦٨، ٥٦٧، ٥٦١، ٥٤٩، ٥٤٧، ٥٣٩، ٥٣٨، ٥٣٧، ٥٣٦، ٥٣٥، ٥٣٤، ٥٣٣، ٥٣٢، ٥٣١،
٥٨٧، ٥٨٨، ٥٨٩، ٥٩٠، ٥٩١، ٥٩٢، ٥٩٣، ٥٩٤، ٥٩٦، ٥٩٧، ٥٩٨، ٥٩٩، ٦٠٠، ٦٠١، ٦٠٢، ٦٠٣، ٦٠٤، ٦٠٦، ٦١١، ٦١٢، ٦١٣،
٦٣٠، ٦٥٢، ٦٦٦، ٧٠٤، ٧١٢، ٧١٣، ٧٢٠، ٧٢١، ٧٤٨، ٧٤٨، ٧٤٩، ٧٥٠، ٧٥٣، ٧٥٤، ٧٦٢، ٧٧٧.

قريظه بنو قريظه

قشير بن كعب: ٦٨٥.

قصي بن كلاب: ١١٥، ١١٧.

قيس بن عيلان: ٤٦٦.

القين: ٦٠٥.

ك

الكاثوليكيك: ٦٠، ٣٩٠.

كعب بنو كعب

كلاب: ٦١٠، ٦٨٥.

كلب: ٢٨٢، ٦٨٥.

كنانه بنو كنانه

كنده: ٢٦٧، ٢٨٢، ٦٨٥، ٦٩٤.

ل

اللخميون: ٧٨، ٥٧٧.

المجوس: ٤٤، ٤٥، ٧٨، ٧٩، ٢٠٣، ٥٤٥، ٧١٢.

مجوس فارس: ٢٥١.

محارب بنو محارب

مذحج: ٦٨٥.

مراد: ٤٨٥.

مره بنو مره

مزينه: ٤٩٢، ٤٨٥.

المسيحيون: ٤٤، ٤٥، ٥٢، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٩، ٤٠، ٤٢، ٤٣، ٤٣، ٧٣، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٨٧، ٨٩، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٢١٤، ٢٩٠، ٢٢٠، ٢٨٤،
٣٣٧، ٣٤١، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٠، ٤٥٠، ٤٤٤، ٤٩٠، ٥٨٦، ٤٨٧، ٤٨٨، ٤٩١، ٧١٤.

المصريون: ١١١، ١١٩، ٢٥١، ٤٨٦، ٧٠٤.

المكيون: ١٦٧، ٢٨٩.

ص: ٨٧٥.

المناذره: ٧٨، ١٣١.

المهاجرون:، ٢١٥، ٢٢٣، ٢٢٨، ٢٣٤، ٢٤١، ٢٩٦، ٢٠٥، ٢٢٨، ٢٢٩، ٣١١، ٣١٢، ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٥، ٣٤١، ٣٤٣، ٣٤٥، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٦٥، ٣٦٧، ٤١١، ٥٠٧، ٥٢٢، ٥٤١، ٥٤٨، ٥٨٢، ٥٩٢، ٥٩٥، ٥٩٨، ٥٩٩، ٦١٢، ٦١٣، ٦١٤، ٦٢٤، ٦٢٧، ٧٠٤، ٧٠٥، ٧١٤، ٧٢٢، ٧٢٤، ٧٢٦، ٧٤٨-٧٦٠، ٧٦١، ٧٦٢، ٧٦٥، ٧٦٧، ٧٧٢.

مهره: ٦٨٥.

ن

ناهس: ١٢٨.

نجران: ١٣١، ٢١٨، ٦٨٥.

النجع: ٦٨٥.

النصارى المسيحيون

نصارى الحبشه: ٩٤.

نصارى الروم: ١٤٩.

نصارى الشام: ١٥٨

نصارى نجران: ٨٦، ٩٤، ٢١٨، ٣١١، ٣٣٧، ٣٣٩، ٣٤٠، ٦٨٩، ٦٩٦.

نصر: ٧١٤.

ه

هذيل: ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٦٤، ٦٠٥.

الهكسوس: ١٠٢.

هلال بن عامر: ٦٨٥.

همدان: ٦٨٥.

الهنود: ٢٥١

هوازن: ١٤٥، ١٥١، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١٢، ٤١٣، ٤١٥، ٤١٦، ٤٢٢، ٤٢٣.

و

الوثنيه الإغريقيه: ٩٤.

الوثنيه المصريه: ٩٤.

الوثنيه اليونانيه: ٧٤.

الوثنيون: ٤٣، ٧١، ٧٣، ٧٤، ٨٦، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ١١١، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٤٩، ١٥٠، ١٦١، ١٦٨، ١٧٤، ٢٠٣،

٢٠٧، ٢١٨، ٢٥٧، ٢٨٥، ٣٠٩، ٣٤٩، ٣٧٧، ٣٨٩، ٤٣٥.

ص: ٨٧٤

آسيا: ٤٢، ٤٨٩، ٤٨٠.

آشور: ٧٤، ٧٦.

الأبواء: ١٤٦، ٢٨٣، ٣٤٦، ٣٥١، ٤٠٩.

أبو قيس: ٥٦٨، ٥٦٩، ٥٩٧، ٦٠٦.

الأثيل: ٣٨٣.

أجباد: ١٥٤.

أحد: ١٨٩، ٣٧٣، ٣٨٨، ٣٩٢، ٤٠٧، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢١، ٤٢٣، ٤٢٥، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٤٢، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٥٥، ٤٦٧، ٤٦٩، ٤٨٨، ٤٨٢، ٥٧٣، ٥٠١، ٥٠٤، ٥١٤، ٥١٨، ٧٢١، ٧٢٤.

أذرح: ٦٥٦.

أذرعاء: ٤١، ٣٩٨، ٤٤٠، ٤٧٩.

الأراك: ٥٩٣.

أرض بنى عامر: ٤٣٦.

أرض جذام: ٥٨٢.

أرض العرب بلاد العرب

إرم: ٢٨٨.

إسبانيا: ٤٢.

استراليا: ٢٧٦.

إفريقيه: ٤٢.

افغانستان: ٤٢.

الأقصر: ٤٣.

ألمانيا: ٥٤، ٣٧٧.

أم القرى مكه

أمريكا: ٤٤، ٤٨٠.

الأندلس: ٤٢، ٤٣، ٥١، ٥٣، ٥٥٣.

أنطاكيه: ٥٣.

انجلترا: ٧٤.

أوربا: ٤٢، ٤٤، ٧٤، ٢٥٩، ٣٨٩، ٣٩٩، ٤٥٧، ٤٨٩، ٤٩٠، ٥٤٤، ٤٨٠.

أوربا الشماليه: ٤٨٩.

أوربا الغربيه: ٤٨٩.

أوشليم: ٥٥٣.

ص: ٨٧٩.

أوطاس: ٦١٠.

أيله: ٦٥٥، ٦٥٦.

إيوان كسرى: ٨٧.

ب

باب أبي بكر: ٧٢٥.

باب الصفا: ١٦٥، ١٦٦.

باديه الشام: ٨٠.

باريس: ٣٩٠.

البحر الأبيض المتوسط: ٧٤، ٧٨، ٩٣.

البحر الأحمر: ٧٨، ٨٠، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٧، ٨٩، ٩٣، ٩٩، ١١٦، ٣٠٥، ٣٤٨، ٤٤٤.

بحر الروم البحر الأبيض

بحر القلزم البحر الأحمر

بحران: ٤٠٢.

البحرين: ٥٤٤، ٥٦٢، ٦٨٣.

بدر: ١٨٩، ٣٤٧، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٦٣، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٨٠، ٣٨٣، ٣٨٥، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٨٠، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١١، ٤١٢، ٤١٦، ٤١٧، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٧، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٥٥، ٤٦٣، ٤٦٩، ٥١٨، ٥١٩، ٥٤٢، ٥٨٩، ٥٩١، ٥٩٣.

البرقه: ٤٢.

البصرى: ٤٤، ١٤٨، ١٥٨، ٥٥٩، ٥٧٦.

البيقع (بيقع الغرقد): ٥٥٨، ٦٦٢، ٧٢٢، ٧٢٣.

بكه مكة

بلاد الروم: ٨٦، ٦٤٧، ٦٦٩.

بلاد العرب: ٤٣، ٤٥، ٦٥، ٦٩، ٨٠، ٨١، ٨٥، ٩٠، ٩٢، ٩٣، ٩٦، ٩٧، ١١١، ١١٢، ١١٤، ١١٥، ١٢٧، ١٣٣، ٢١٨، ٢٣٢، ٢٨٢، ٢٤٤، ٣٨٠، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٦، ٤٦٨، ٤٨٧، ٥٤٣، ٥٥٠، ٥٥٦، ٥٥٩، ٥٦١، ٥٦٤، ٥٩٣، ٦١١، ٦٢١، ٦٤٧، ٦٥٨، ٦٨٢، ٦٨٥، ٧١٢، ٧١٤.

البلد الحرام مكة

البلقاء: ٧١٤، ٧١٦، ٧٧٢.

البلقان: ٤٢.

البنديقه: ٢٧٦.

بواط: ٣٤٧، ٣٥٠، ٣٥١.

ص: ٨٨٠.

بولونيا: ٤٢.

البيت البيت الحرام

بيت إبراهيم البيت الحرام

بيت أبي بكر الصديق رضى الله عنه: ٢٩٩، ٥٠٨.

بيت إسماعيل البيت الحرام

البيت الحرام: ٥٩، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١٢٥، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٥، ١١٠، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٨، ١٢٥، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٥، ١٣٥، ١٦٤، ٤٣٨، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٢٥، ٥٢٦، ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٥، ٥٦٥، ٥٦٧، ٥٦٩، ٥٧٠، ٥٩٧، ٦٠٠، ٦٠١، ٦٠٢، ٦٠٣، ٦٠٩، ٦٧٣، ٦٧٤، ٧١١.

بيت الحميره: ١٢٧.

بيت عائشه دار عائشه

البيت العتيق: البيت الحرام

بيت اللات: ١٢٨.

بيت لحم: ٢٧٠، ٢٧٦.

بيت المقدس: ٢٦٨، ٢١٩، ٢٧٠، ٢٧٢، ٢٨٣، ٣١٩، ٣٣٦، ٣٦٠، ٤٦٥، ٥٤٢، ٥٥٩، ٥٦٠، ٦٦٥، ٦٧٠، ٧٦٧.

بيت ميمونه دار ميمونه

بيت اليمن: ١٢٧.

بئر معونه: ٤٣١، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٧، ٤٦٧.

بيزنطيه: ٧٦، ٧٧، ٨٧، ٨٩، ٩١، ٩٣، ١٦٧، ٥٤٢، ٥٤٣.

ت

تبوك: ٦٤٥، ٦٥٢، ٦٥٥، ٦٥٧، ٦٥٩، ٦٦٠، ٦٦٥، ٦٦٦، ٦٨٣، ٦٨٥، ٧١٤، ٧٧٦.

التركستان: ٤٢.

تهامه: ٨٤، ٩٠، ١٢٨، ١٢٩، ٣٠٥، ٣٠٧، ٣١١، ٤١١، ٤٢٣، ٤٧٧، ٧١١.

تونس: ٤٢.

ث

ثنيه المرار: ٥٢٤.

ثنيه الوداع: ٤٩٧.

ج

جبال اليمن: ٨٥.

جبل سيناء: ٢٧٠، ٢٧٦.

ص: ٨٨١.

جبل هند: ٥٩٨، ٥٩٩.

الجحفه: ٤٠٨، ٥٩٢، ٥٩٥، ٧٠٤.

جده: ٩٩، ١٦٤.

جرباء: ٦٥٦.

الجرف: ٦٥٢، ٧١٥، ٧١، ٧٢٢، ٧٦٠، ٧٧١.

الجزائر: ٤٢.

الجزيره بلاد العرب

جزيره العرب بلاد العرب

الجعرانه: ٦٠٩، ٦١٦، ٦٢١، ٦٢٦.

ح

الحبشه: ٥٦، ٧٥، ٧٨، ٨٧، ٨٨، ٩٢، ٩٤، ١٢٨، ١٤٢، ١٦٧، ١٧٠، ١٧٩، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٦١، ٢٦٨، ٢٩٠، ٢٩٦، ٣٥٢، ٣٥٦، ٤٠٣، ٤٢٠، ٤٥٣، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٦، ٤٦٤، ٤٨٩، ٧٢٠، ٧٣٠.

الحجار: ٩٠، ٩٦، ١٠٥، ١١١، ١١٢، ١١٥، ١٥١، ٣١٦، ٣٤٦، ٣٣٤، ٤٤٤، ٤٤٣، ٥٦٠، ٥٦٣، ٥٥٢، ٥٦٩، ٥٦٧، ٥٨٧، ٥٩٦، ٧٠٤، ٧٣٦.

الحِجْر: ٧١، ٦٥٤.

الحجر الأسود: ١١٤، ١٦١، ١٦٤، ٢٥٧، ٥٦٩، ٦٩٩.

الحديبيه: ٤٥٨، ٥١٠، ٥١٦، ٥١٧، ٥٢٤، ٥٢٨، ٥٣٤، ٥٣٥، ٥٣٧، ٥٣٨، ٥٣٩، ٥٤٠، ٥٤٧، ٥٥٦، ٥٥٦، ٥٦٢، ٥٦٥، ٥٦٧، ٥٦٨، ٥٧٠، ٥٧٢، ٥٧٥، ٥٧٦، ٥٨٣، ٥٨٥، ٥٨٧، ٥٨٨، ٥٩٦، ٥٩٨، ٦٦٦.

حراء: ١٦١، ١٦٨، ١٧١، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٨١، ١٨٤، ١٨٥، ٥٦٨، ٦٠٠.

الحرم البيت الحرام

الحرم المكي البيت الحرام

حره بنى سليم: ٤٣٦.

حصن بن قريظه: ٤٨١.

حصن الزبير: ٥٥٢.

حصن السالم: ٥٤٩، ٥٥٢، ٥٥٤.

حصن الصعب بن معاذ: ٥٥١.

حصن القموص: ٥٥١.

حصن ناعم: ٥٤٩، ٥٥٠، ٥٥١.

ص: ٨٨٢

حصن نطاه: ٥٤٩، ٥٥٠.

حصن الوطيح: ٥٤٩، ٥٥٢، ٥٥٤.

حضر موت: ١١٥، ٤٤٥، ٤٤٩، ٤٨٥، ٤٨٧، ٤٩٥، ٧١١.

حمراء الأسد: ٤٢٩، ٤٣٠.

حمص: ٥٥٩.

حنين: ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤١٢، ٤٣٠، ٤٤٦، ٧٢١.

الحوراء: ٣٦٤، ٣٦٥.

حوض البحر الأبيض المتوسط: ٧٨، ٩٣.

حوض البحر الأحمر: ٧٨، ٩٣.

الحيره: ٨٠.

خ

خليج العقبه: ١١٥.

الخليج الفارسي: ٨٣، ٨٥.

الخندق: ٤٤٥، ٤٤٣، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٦٠، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٣، ٤٨٥، ٥١٢، ٥١٩، ٥٤٨، ٤٠١، ٤١٨.

خيبر: ١٤٧، ١٨٩، ٣١٣، ٣١٥، ٣١٩، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤٥، ٤٤٩، ٤٩١، ٤٣٨، ٥٣٩، ٥٤٧، ٥٤٨، ٥٤٩، ٥٥٠، ٥٥٢، ٥٥٧، ٥٥٨، ٥٥٩.

٥٤٤، ٥٨٧، ٤١٨، ٤٢٠، ٧٧٢.

د

دار أبي بكر بيت أبي بكر الصديق

دار أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري:

٣١٠، ٣١٢.

دار بُدیل بن ورقاء: ۵۲۵.

دار حفصه: ۶۲۷، ۶۳۶.

دار خدیجه: ۱۵۹.

دار عائشه: ۵۰۴، ۷۲۴، ۷۲۵، ۷۲۶، ۷۲۷، ۷۲۹، ۷۳۳، ۷۴۳، ۷۴۵.

دار عبدالله بن جدعان: ۱۵۲.

دار عبدالمطلب: ۱۳۹.

دار فاطمه: ۷۶۰، ۷۶۲.

دار ماریه: ۶۳۲.

دار میمونه: ۷۲۴.

دار الندوه: ۱۱۵، ۲۰۱، ۲۹۶، ۴۰۷، ۴۰۸، ۴۶۷.

دار الکعبه: ۱۳۱.

الداروم: ۷۱۴.

دجله: ۸۰، ۸۳.

ص: ۸۸۳.

دمشق: ٥٦٠.

دومه الجندل: ٤٣١، ٤٤٤، ٤٤٥.

ديار ثمود: ١٤٨، ١٥٨.

ذ

ذات الرقاع: ٤٤٤.

ذات الطلح: ٥٧٦.

ذفران: ٣٦٧.

ذنب نقي: ٤٦٨-٤٦٩.

ذو أمر: ٤٠١.

ذو أوان: ٦٥٩.

ذو الحليفة: ٥٢٢، ٥٣٦، ٦٩٨.

ذوى طوى: ٥٢٣، ٥٩٧.

ذو المجاز: ١٤٩، ١٥٠، ٢٣٨.

ر

رايغ: ٣٤٦.

ربوع تهامة: ٩٠.

ربوه الصفا: ٦٩٩.

الرجيع: ٤٣١، ٤٣٤، ٤٣٧، ٤٩٦.

رضوى: ٣٤٧.

الركن الشامى: ١٦٥.

الروحاء: ٣٦٦، ٤٢٩.

روسيا: ٤٢.

الروم بلاد الروم

رومه: ٤٦٨.

روميه: ٤٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٨١، ٩٢، ٩٥، ٢٠٩، ٣٥٩، ٤٩٠.

ز

زمزم: ٩٩، ١١٠، ١١١، ١١٧، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٣٢، ٢٠٠، ٦٠٨، ٧٣٢.

س

السيخه: ٤٧٣.

سد مأرب: ٨٥، ٨٩.

سدني: ٢٧٦.

سرف: ٥٧٢، ٦٩٨.

سفوان: ٣٤٧.

سقيفه بني ساعده: ٧٣٦، ٧٤٨، ٧٦٠، ٧٦١، ٧٦٣.

السلت: ٧٦.

السلسل: ٥٨٢.

سلع: ٤٦٩، ٤٧٣، ٤٩٧.

السنح: ٧٣٣، ٧٤١، ٧٤٤، ٧٤٥، ٧٤٨.

ص: ٨٨٤.

٧٧٧، ٧٧٦، ٧٦٣.

سوريه الشام

سيراجيفو: ٣٩٩.

ش

الشام: ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٧٨، ٨٠، ٨٣، ١٠٩، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٥، ١٣١، ١٣٥، ١٣٦، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٧،
١٥٨، ١٥٩، ١٦٧، ١٨١، ٢١٨، ٢٧٧، ٢٨٤، ٢٩٤، ٢٩٦، ٢٩٩، ٣٣٧، ٣٤٨، ٣٥٠، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٩١، ٣٩٨، ٤٠١، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٥،
٤٠٧، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٩٦، ٥٢٠، ٥٣٦، ٥٣٧، ٥٣٨، ٥٤٣، ٥٤٤، ٥٥٦، ٥٦٠، ٥٦١، ٥٧٥، ٥٧٦، ٥٧٧، ٥٨٢، ٥٨٣، ٥٨٧، ٥٢٩، ٤٤٥،
٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧١.

شبه جزيره العرب بلاد العرب

الشرق الأقصى: ٧٠، ٧٣، ٧٤، ٧٦، ٦٨٠.

شعب العقبه: ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٥٩.

٨٦، ١٠٨، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٦١، ٢٩٠، ٢٩٤، ٢٩٦، ٣٨٠، ٤٢٢، ٤٢٦، ٦٠٦.

ص

صحراء إفريقيه الكبرى: ٨١.

صخره يعقوب: ٢٧٠.

الصفاء: ١٠٩، ١١١، ١٦٣، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٢٠، ٢٢١، ٥٧٠، ٦٠٢، ٦٩٩.

صنعاء: ١٢٩.

الصين: ٤٢، ٥١، ٧٣، ٤٨٩، ٥٤٦.

ط

الطائف: ٩١، ١٢٨، ١٤٥، ١٥٠، ٢٥٣، ٢٦٥، ٢٨٢، ٣٥٠، ٣٥٤، ٦٠٩، ٦١٧، ٦١٨، ٦١٩، ٦٢٠، ٦٢١، ٦٢٧، ٦٢٨، ٦٣٠، ٦٦٥، ٦٦٩،
٦٧٠، ٦٧٧، ٧٣٦.

ع

العالیه: ٤٣١، ٤٤١.

العراق: ٤٢، ٧٣، ١٠٢، ١١١، ١١٢، ١١٤، ١٤٧، ٤٠٣، ٤٠٧، ٥٤٣، ٧١١.

عرفات: ١٥٠، ٧٠١، ٧٠٣، ٧٠٤.

ص: ٨٨٥

عرق الظبيہ: ٣٦٧، ٣٨٤.

عرنہ: ٤٣٣.

العريض: ٤٠٠.

عسفان: ٤٩٦، ٥٢٣، ٥٨٩.

العشيره: ٣٤٧، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٦٤، ٣٨٥.

العقبہ: ٢٨١، ٢٨٨.

العقيق: ٤٠٩.

عكاظ: ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ٢٣٨.

عمان: ٥١٢، ٥٤٤، ٥٦٢، ٦٦٥، ٦٨٥.

العيص: ٣٤٦، ٥٣٦.

غ

الغار غار حراء

غار ثور: ٢٩٩، ٣٠١، ٣٠٢.

غار حراء: ١٦٨، ١٧٥، ١٧٤، ١٧٣، ١٦٨.

الغال: ٧٦.

غران: ٤٩٦.

غزه: ١٢٣، ١٣٦.

ف

فارس: ٤٢، ٤٤، ٤٥، ٧٣، ٨٠، ٨٣، ٨٨، ٨٩، ٩١، ٩٣، ١٢١، ٢٤٠، ٢٥١، ٤٤٠، ٤٤٣، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٦٦، ٤٦٦، ٧١١.

فارغ (حصن حسان بن ثابت): ٤٧٤.

فدك: ٣١٥، ٥٥٤، ٥٥٥، ٦٤٧، ٧٧٢.

الفرات: ٧٨، ٨٠، ٩٣.

فرنسا: ٦٩، ٧٦، ٣٦٠، ٣٩٠.

فلسطين: ٧٥، ٨٠، ٨٣، ٩٩، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٩، ١١١، ١١٢، ٢٠٩، ٣١٦، ٥٤٢، ٧١٤، ٧١٥، ٧٢٢.

فينيقيا: ٧٤، ٧٦.

ق

قباء: ٣٠٩، ٤١٠، ٤٣٨.

قبر أبي طالب: ٥٩٩.

قبر خديجه: ٥٩٩.

القرده: ٤٠٣.

قرقره الكدر: ٤٠٠، ٤٠١.

القسطنطينيه: ٤٢، ٥٦٠.

ك

كراع الغميم: ٥٢٣.

الكعبه: ٨٧، ٩٦، ٩٩، ١٠٢، ١٠٣، ١١٢، ١١٥، ١١٦، ١٤٥، ١٦١، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٧، ١٦٩، ١٧٢، ١٨٩.

ص: ٨٨٦

٧٧٣، ٧٤٤، ٧٤٠، ٧٤١، ٧٧٠، ٧٧١، ٧٧٢.

مراكش: ٤٢.

مريد سهل وسهيل: ٣١٠، ٣١٢.

مر الظهران: ١٥٩، ٥٩٢، ٥٩٤.

المروه: ١٠٩، ١١١، ٢٠٠، ٥٧٠، ٦٩٩.

المريسي: ٤٩٨، ٥٠٠، ٥١٢.

المزدلفه: ٧٠٣، ٧٠٤.

المسجد الأقصى: ٢٧٦، ٢٨٣، ٢٩١، ٣١١، ٣٣٦، ٥١٧.

المسجد الحرام البيت الحرام

مسجد ذى أوان: ٦٥٩.

مسجد الطائف: ٦١٩.

مسجد قباء: ٣٠٩، ٤١٠.

مسجد النبي صلى الله عليه و آله: ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٣٢٢، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٣٣، ٣٣٦، ٣٥٣، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٦٦، ٣٧٨، ٣٦٨، ٤١٠، ٤٣٨، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥١٨، ٤٥٢٠، ٤٥٢١، ٤٥٦٩، ٤٥٨٨، ٤٥٩٠، ٤٥٩٥، ٤٥٩٧، ٤٦٠٠، ٤٦٠٣، ٤٦١٧، ٤٦٢٧، ٤٦٢٨، ٤٦٢٩، ٤٦٣١، ٤٦٣٨، ٤٦٣٩، ٤٦٣٣، ٤٦٥٩، ٤٦٦٨، ٤٦٧٥، ٤٦٩٤، ٤٦٩٨، ٤٦٩٩، ٧٠١، ٧٢٤، ٧٢٧، ٧٣١، ٧٣٢، ٧٣٣، ٧٤٣، ٧٤٤، ٧٤٥، ٧٦٠، ٧٦١، ٧٧٣.

مشارف: ٥٧٨.

مشربه أم إبراهيم (ماريه): ٦٣١.

المشعر الحرام: ٧٠٣.

مصر: ٤٢، ٤٣، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٨، ٨١، ٨٩، ١٠٢، ١١٠، ١١١، ١١٤، ١٦٤، ١٩٢، ١٩٣، ٢٠٩، ٥٤٢، ٥٤٣، ٥٤٦، ٤٨٠، ٤٨١، ٧٧٤، ٧١١.

مضيق حنين: ٦١١.

مضيق الصفراء: ٣٨٢.

معان: ٥٧٧.

مكة: ٤٥، ٤٧، ٤٥، ٨٧، ٩١، ٩٢، ٩٧، ٩٩، ١٠٠، ١٠٦، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١،
١٢٢، ١٢٣، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٣،
١٥٤، ١٥٥، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧١، ١٧٢، ١٨٤، ١٩٠، ١٩١، ١٩٨، ٢٠٠.

ص: ٨٨٨.

٢٥٥ ، ٢٥٤ ، ٢٥٣ ، ٢٤١ ، ٢٤٠ ، ٢٣٩ ، ٢٣٨ ، ٢٣٧ ، ٢٣٦ ، ٢٣٥ ، ٢٣٣ ، ٢٢٩ ، ٢٢٨ ، ٢٢٧ ، ٢٢٥ ، ٢٢٤ ، ٢٢٣ ، ٢١٦ ، ٢١٥ ، ٢١٤ ، ٢٠٢
٣٠٦ ، ٣٠٥ ، ٣٠٣ ، ٣٠٠ ، ٢٩٩ ، ٢٩٦ ، ٢٩٥ ، ٢٩٤ ، ٢٩١ ، ٢٨٩ ، ٢٨٧ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٣ ، ٢٨١ ، ٢٧٧ ، ٢٦٩ ، ٢٦٧ ، ٢٦٠ ، ٢٥٩ ، ٢٥٨
٣٦٠ ، ٣٥٦ ، ٣٥٤ ، ٣٥٢ ، ٣٥١ ، ٣٥٠ ، ٣٤٩ ، ٣٤٨ ، ٣٤٦ ، ٣٤٤ ، ٣٤٣ ، ٣٤٢ ، ٣٣٦ ، ٣٣١ ، ٣٢٩ ، ٣١٨ ، ٣١٧ ، ٣١٣ ، ٣١١ ، ٣٠٩ ، ٣٠٨
٤١٧ ، ٤١٦ ، ٤٠٨ ، ٤٠٧ ، ٤٠٥ ، ٤٠٣ ، ٤٠١ ، ٤٠٠ ، ٣٩٥ ، ٣٩٣ ، ٣٩١ ، ٣٩٠ ، ٣٨٣ ، ٣٨١ ، ٣٧٨ ، ٣٧١ ، ٣٧٠ ، ٣٦٨ ، ٣٦٧ ، ٣٦٥ ، ٣٦٤
٥٢٥ ، ٥٢٤ ، ٥٢٣ ، ٥٢٢ ، ٥٢٠ ، ٥١٩ ، ٥١٧ ، ٥١٢ ، ٤٩٨ ، ٤٩٦ ، ٤٨٧ ، ٤٦٩ ، ٤٦٥ ، ٤٦٤ ، ٤٤٣ ، ٤٣٥ ، ٤٣٤ ، ٤٣٣ ، ٤٣١ ، ٤٣٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٠
٥٨٥ ، ٥٨٣ ، ٥٧٥ ، ٥٧٤ ، ٥٧٢ ، ٥٧١ ، ٥٦٩ ، ٥٦٨ ، ٥٦٧ ، ٥٦٤ ، ٥٦١ ، ٥٣٩ ، ٥٣٧ ، ٥٣٥ ، ٥٣٤ ، ٥٣٣ ، ٥٣١ ، ٥٣٠ ، ٥٢٩ ، ٥٢٨ ، ٥٢٧
٦٣٠ ، ٦٢٨ ، ٦٢٧ ، ٦٢٧ ، ٦٢٦ ، ٦٢٤ ، ٦٢١ ، ٦٠٣ ، ٦٠١ ، ٦٠٠ ، ٥٩٩ ، ٥٩٨ ، ٥٩٧ ، ٥٩٦ ، ٥٩٤ ، ٥٩٣ ، ٥٩٢ ، ٥٩١ ، ٥٩٠ ، ٥٨٩ ، ٥٨٨
٧٧٠ ، ٧٦٩ ، ٧٦٧ ، ٧٢٠ ، ٧١٢ ، ٧١٠ ، ٧٠٣ ، ٦٩٩ ، ٦٩٨ ، ٦٩٧ ، ٦٨٧ ، ٦٧٣ ، ٦٧٠ ، ٦٦٦ ، ٦٦٤ ، ٦٤٥

منازل بني لحيان: ٤٦٩.

منى: ٢٩٣، ٧٠٠، ٧٠٣، ٧٠٤.

مؤتة: ٥٧٨.

ن

الناصره: ٢٠٩.

نجد: ٨٤، ٩٠، ٩٦، ١١٦، ١٥١، ٢٧٨، ٤٠٣، ٤٣٦، ٤٦٨، ٤٨٢، ٥٨٦، ٦٧٧، ٧١١.

نجران: ٨٦ ن ١٣١، ٢١٨، ٣٤٠، ٦٨٥، ٦٨٩، ٧١٣، ٧١٤.

نخلة: ١٥٠، ١٦٧، ٣٥٤، ٤٣٣، ٦٠٦، ٦١٧.

نمره: ٧٠١.

النمسا: ٣٩٩.

نيق العقاب: ٥٩٣.

ص: ٨٨٩.

النيل: ٨٥، ٢٠٨.

هـ

الهند: ٤٢، ٤٣، ٥١، ٥٧، ٧٠، ٧٦، ٨٨، ١٨٩، ٤٨٩، ٥٤٦، ٥٥٠، ٦٠٧.

و

وادي القرى: ١١٥، ١٤٨، ١٥٨، ٣٩٨، ٥٤٨، ٥٥٦.

الوتير: ٥٨٨.

وَدَان: ٣٤٦.

ى

يثرب المدينة

اليمامه: ٥٤٤، ٥٦٢، ٦٨٣، ٦٨٤.

اليمن: ٤٣، ٤٤، ٧٣، ٨٠، ٨١، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٦، ٩٩، ١٠٠، ١٠٩، ١١٦، ١٢٠، ١٢١، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣١، ١٣٢، ١٥١، ٣٠١، ٣١٦، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٤١، ٥٣٩، ٥٣٤، ٥٤٤، ٥٤٥، ٥٦٠، ٥٦١، ٥٦٢، ٥٨٦، ٦٠٤، ٦٥٦، ٦٦٦، ٦٦٩، ٦٨٣، ٦٨٥، ٦٨٧، ٦٩٩، ٦٩٦، ٦٩٧، ٧٠٤، ٧٠٥، ٧١١، ٧١٢، ٧١٣.

ينبع: ٣٤٧.

اليونان: ٧٤، ٧٥.

ص: ٨٩٠.

فهرس الغزوات والوقائع والأيام

بيعه الرضوان: ٥٢٩، ٥٣٠.

بيعه السقيفه (سقيفه بنى ساعده):

٧٣٥، ٧٤٢، ٧٦٠، ٧٦١، ٧٦٣.

بيعه العقبه الصغرى: ٢٨١.

بيعه العقبه الكبرى: ٢٨١، ٢٨٨، ٣١٢، ٣٤٤، ٣٤٥، ٤٠٩، ٤٣٣، ٥٣٠.

الحديبيه: ٤٥٨، ٥١٠، ٥١٦، ٥١٨، ٥٢٤، ٥٢٨، ٥٣٤، ٥٣٥، ٥٣٧، ٥٣٨، ٥٣٩، ٥٤٠، ٥٤٧، ٥٥٦، ٥٦٢، ٥٦٥، ٥٦٧، ٥٦٨، ٥٧٠.

٥٧٢، ٥٧٥، ٥٧٦، ٥٨٥، ٥٨٧، ٥٨٨، ٥٩٦، ٥٩٨.

حرب الفجار: ١٣٥، ١٥٠، ١٥١، ١٥٣، ١٦٠.

الحرب الكبرى: ٣٦٠، ٣٧٧، ٣٨٩، ٣٩٩، ٤٧٥.

الحروب الصليبيه: ٤٤، ٥١، ٣٥٩، ٣٦٠، ٤٦٢.

عام الفيل: ١٢٩، ١٣٧، ١٣٩.

غزوه الأبناء: ٣٤٦.

غزوه أحد: ١٨٩، ٣٧٣، ٣٨٨، ٣٩٢، ٤٠٧، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣٢، ٤٤٢، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٧، ٤٤٧.

٤٦٩، ٤٨٨، ٤٤٢، ٥٧٣، ٥٧٤، ٦٠٤، ٦١٤، ٦١٨، ٧٢١.

غزوه الأحزاب: ٤٨٢، ٤٩١، ٤٦٦، ٤٦٦، ٤٧٤، ٤٧٤، ٤٧٧، ٤٩١، ٥١٢، ٥٢١.

غزوه بدر: ٣٤٧، ٣٥١، ٣٦٣، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٨٠، ٣٨٩، ٤٠٠، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٦، ٤١٩، ٤٢٧، ٤٣١، ٤٤٢، ٤٤٤، ٤٥٥، ٥١٧، ٥٤٢.

٥٩١.

غزوه بنى أسد: ٤٣١.

غزوه بنى قينقاع: ٣٩٣.

غزوه بنى لحيان: ٤٨٥.

غزوه بنى المصطلق: ٤٨٥، ٤٩٨، ٥١٢، ٥٠٢، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥١٤.

غزوه تبوك: ٥١، ٤٤٥، ٤٢٦، ٤٥٢، ٤٦٠، ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٨٣، ٧٧٦.

ص: ٨٩١

غزوه حنين: ٦١٢، ٦١٧، ٦٧٦، ٧٢١.

غزوه الخندق غزوه الأحزاب

غزوه خيبر: ٣١٣، ٣١٩، ٥٤٧، ٥٤٨، ٥٤٩، ٥٥٠، ٥٥٣، ٥٥٤، ٥٥٧، ٥٦٤، ٤٩١، ٥٣٨، ٥٣٩، ٥٤٨، ٥٥٩.

غزوه دومه الجندل: ٤٣٣، ٤٤٤، ٤٤٥.

غزوه السويق: ٣٩٣، ٤٠٠، ٤٠٧.

غزوه الطائف: ٦٠٩.

غزوه غطفان: ٤٦٣، ٤٧٣.

غزوه مؤتة: ٥٧٥، ٥٧٦، ٥٧٨، ٥٨٥، ٥٨٧، ٥٨٨، ٥٩٧، ٧١٣، ٧١٤، ٧١٦، ٧٢٢.

غزوه اليمى: ٧٠٠.

فتح مكة: ٢٤١، ٣٤٤، ٥١٢، ٥٣٥، ٥٧١، ٥٧٤، ٥٧٥، ٥٧٦، ٥٨٣، ٥٨٥، ٥٨٨، ٦٠٢، ٦٠٤، ٦١٠، ٦٢٤، ٦٢٧، ٦٣٠، ٦٤٦، ٦٦٦.

يوم بُعاث: ٢٨١، ٢٨٦، ٢٨٧، ٣٣٣، ٣٥٣، ٤٨٠.

ص: ٨٩٢

فهرس الموضوعات

كلمه المجمع ٥

بدايات تدوين السيره ٥

مستويات كتابه السيره ٦

أساليب كتابه السيره ٧

دور السيره فى بناء المجتمع الإسلامى ٧

الدسّ فى كتب السيره ٧

مسؤوليتنا تجاه السيره ٨

المدخل ١١

عقبات فى كتابه التاريخ ١٨

حُجب تعترض الثقافه ٢٠

السلطان والسنة ٢٢

السلطان والفقّه ٢٣

السلطان والتاريخ ٢٤

وعى التاريخ وضعف الأمة ٢٧

الوعى التاريخى طريق الاستنهاض ٢٩

محمد حسين هيكل ومنهجه فى كتابه التاريخ ٣١

ملاحظات حول منهج الدكتور هيكل فى كتابه حياه محمد صلى الله عليه و آله ٣٣

تقديم الكتاب ٤١

محمد عليه الصّلاه والسّلام ٤١

الفصلُ الأوَّلُ: بلاد العرب قبل الإسلام ٧٣

الفصلُ الثَّانِي: مكَّة. والكعبة. وقُريش ٩٩

الفصلُ الثَّالِث: محمَّد: من ميلاده إلى زواجه ١٣٥

الفصلُ الرَّابِع: من الزواج إلى البعث ١٦١

الفصلُ الخَامِس: من البعث إلى إسلام عمر ١٧٩

الفصلُ السَّادِس: قصه الغرانيق ٢٢٣

الفصلُ السَّابِع: مساءات قُريش ٢٣٥

الفصلُ الثَّامِنُ: من نقض الصحيفة إلى الإسراء ٢٥٣

الفصلُ التَّاسِعُ: بيعتا العقبة ٢٨١

الفصلُ العَاشِرُ: هجره الرُّسول ٢٩٩

الفصلُ الحَادِي عَشَرَ: أوَّل العهد يبيثرب ٣١١

الفصلُ الثَّانِي عَشَرَ: السرايا والمناوشات الأولى ٣٤٥

الفصلُ الثَّالِث عَشَرَ: غزوه بدر الكبرى ٣٦٣

الفصلُ الرَّابِع عَشَرَ: بين بدر وأحد ٣٩٣

الفصلُ الخَامِس عَشَرَ: غزوه أحد ٤٠٧

الفصلُ السَّادِس عَشَرَ: آثار أحد ٤٣١

الفصلُ السَّابِع عَشَرَ: أزواج النَّبِيِّ ٤٤٧

الفصلُ الثَّامِن عَشَرَ: غزوتا الخندق وبنى قريظه ٤٦٣

الفصلُ الثَّاسِع عَشَرَ: من الغزوتين إلى الحديبيه ٤٨٥

الفصلُ العِشْرُونَ: عهد الحُدَيْبِيَّة ٥١٧

الفصل الحادى والعشرون: خبير والرسل إلى الملوك ٥٣٩

الفصل الثانى والعشرون: عمرة القضاء ٥٦٧

ص: ٨٩٤

الفصل الثالث والعشرون: غزوه مؤتة ٥٧٥

الفصل الرابع والعشرون: فتح مكة ٥٨٥

الفصل الخامس والعشرون: حنين والطائف ٦٠٩

الفصل السادس والعشرون: إبراهيم ونساء النبي صلى الله عليه وآله ٦٢٧

الفصل السابع والعشرون: تبوك وموت إبراهيم ٦٤٥

الفصل الثامن والعشرون: عام الوفود وحج أبي بكر بالناس ٦٦٥

الفصل التاسع والعشرون: حجّه الوداع ٦٨٧

الفصل الثلاثون: مرض النبي صلى الله عليه وآله ووفاته ٧١١

الفصل الحادي والثلاثون: دفن الرسول صلى الله عليه وآله ٧٤٣

خاتمه الكتاب ٧٧٥

شكر واعتذار ٧٨٤

مصادر التحقيق ٧٨٧

الفهارس ٨١٣

فهرس الآيات القرآنيه ٨١٥

فهرس الأحاديث الشريفه ٨٣٣

فهرس الأعلام ٨٤٥

فهرس الأمم والقبائل والطوائف ٨٦٧

فهرس الأماكن ٨٧٩

فهرس الغزوات والوقائع والأيام ٨٩١

فهرس الموضوعات ٨٩٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة (sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آواده اى، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلى، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب فى طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
اصبهان
الغمامية



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

